

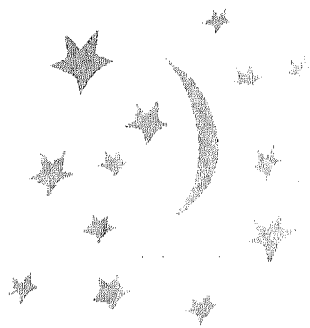
حديقة الفنون

مكتبة جامعة القاهرة

Bibliotheca Alexandrina

001 7523

دار الريان للتراث



انبياء الله

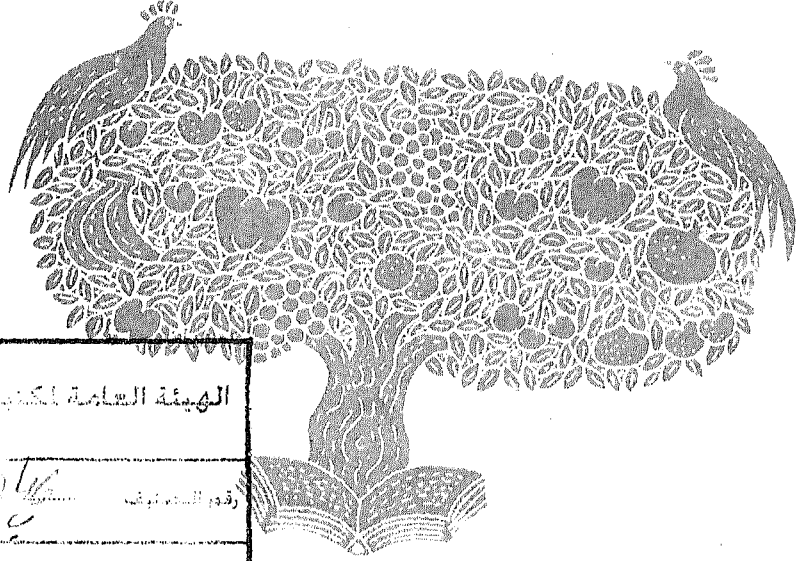
الطبعة الخامسة عشرة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

يطلب من

© دار الشروق — دار البيان للترايث

القاهرة : ١٧٧ شارع الهرم - ت : ٥٣٦٥٩٩
مصر الجديدة : ٢٢ شارع الأندلس - خلف الميرلاند - ت : ٢٥٨٢٠١٤
الإسكندرية : سيدي بشر - طريق الكورنيش - برج رمادا - الدور الأول

الحمد لله



الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التوثيق	٢٥٧٠١٤
رقم التوثيق	٢٠٠٤
رقم التوثيق	٢٢٠١٤

البيداء

دار البيان للنشر

© دار الشروق

القاهرة

مقدّمة الطّبعة الثّانية عشرة

هناك كتب يحس الكاتب أنه كتبها بقلمه ..

وهناك كتب يحس أنها أمليت عليه من أنفى عمق في قلبه .. وليس له من فضل فيها سوى فضل الأداة ..

وليس له من حمد لأن الله هو الذي طهر القلب ابتداء وهو الذي شاء له أن يكون أداة في النهاية .

وأحسب أن كتاب أنبياء الله من النوع الأخير ..

كنت أكتب كأن إنساناً داخلي يملي علي السطور ، ومارست خلال كتابته إحساساً يشبه إحساسي بالسجود أثناء صلاة القيام في العشر الأواخر من شهر رمضان في بيت الله الحرام في مكة ..

اتصل بي ابراهيم المعلم ليقول لي : نحن نطبع الطبعة الثانية عشرة .. ونريد مقدمة لها ..

قلت في قلبي .. الحمد لله ، وأحمده حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليق بعظم سلطانه ..

عدد خلقه وزنة عرشه ومداد كلماته ورضيا نفسه ..

ربنا لا نحصي ثناء عليك ..

أنت سبحانك . كما أثنت على نفسك ..

.....

لم أشعر داخلي بالزهو ..

على العكس .. أحسست بالإشفاق والخوف ، وخشيت أن يكون نجاح الكتاب في الدنيا

توفية كاملة لأجري عنه في الدنيا والآخرة ..

ثم ردتني إلى التوازن ان انتشار الكتاب وذيوعه وتخطيه مائة وعشرين ألف نسخة في التوزيع

يعود أولاً وأخيراً إلى كرامة الموضوع ذاته .. أى كرامة الأنبياء على الله تعالى ..

لا علاقة لي إذن بالموضوع .. يستوي في ذلك أن ينتشر الكتاب أو لا ينتشر ..

أسأل الله تعالى أن يعفو عن قارئه وناشره وكتابه ..

احمد حبت

رمضان ١٤٠٤

مقدّمة الطّبعة العاشرة

تمنح الأقدار إذناً للإنسان أن يبذل الجهد ، والله تعالى هو الذي يعطي الثمرة ، وها هي الطبعة العاشرة من كتاب أنبياء الله .

فالحمد لله حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليقي بعظيم سلطانه . وأشكر للقراء إقبالهم على الكتاب واحتفالهم به ، وأخص بالشكر الذين تفضلوا بإرسال آرائهم إلي ، وأختص بالشكر صاحب الخطاب الطويل الذي لم يذكر اسمه وإن قال إنه أخي في الإسلام .
ثم شرع يسرد علي في خطاب من خمس صفحات ٣٦ خطأ تقع بين الأخطاء المطبعية أو اللغوية أو الفكرية .. وقد صححت كل ما أشار إليه باستثناء شيء واحد رأيت فيه ما يميز اختلاف الآراء دون ضرر ..

وإني لأسأل لهذا القارئ الكريم عفو الله ورحمته وأسأل كل من يقرأ الكتاب أن يدعوا لنا بالعفو والرحمة ..

يناير ١٩٨٢

مقدّمة الطّبعة الثالثة

أحياناً أحس تجاه ما أكتبه بإحساسي تجاه أبنائي ، لا أوجه خطوهم في الدنيا ، ولا أراقبهم ، ولا أراهم كثيراً ، وإنما أدعو لهم عارفاً أن الله تعالى هو البارئ وهو الحافظ ..

لا أنكر أنني أحس بالفرح العميق حين أسمع نبأ طيباً من أحدهم ..

اتصلت بي دار الشروق تقول : نفذت الطبعة الثانية .. ونحن نطبع الثالثة ..

تحرك قلبي بحمد الله حمداً ينبغي لجلال وجهه ويليقي بعظيم سلطانه ..

لم أضف جديداً لهذه الطبعة .

أسأل الله أن يتقبل من قارئه وناشره وكاتبه ..

القاهرة ١٩٧٥/٣/١٦

مقدّمة الطّبعة الثّانية

حين نشر كتاب « أنبياء الله » في طبعته الأولى في أبريل سنة ١٩٧٣ ، كنا نقدر له عاماً لينفذ من السوق ، باعتباره مرجعاً ليس زهيد الثمن ، ونفذ الكتاب في الأيام الأولى من صدوره ، وكتبت عنه أقلام كثيرة لها احترامها وأثنت عليه ، وحمل هذا التقدير لكاتبه احساساً بالغاً بالمسؤولية ، فراجعته ونقحه وزاد فيه واختصر منه ، واستعان في هذا كله بآراء العلماء الناقدة وملاحظات القراء الذكية .

أحمد عبيد

أغسطس ١٩٧٣

إهداء

لو انه تكرم وسمح ، بأن أضع خدي على التراب وأبكي
حتى يبت العشب من دموعي .. فسوف أهدي الكتاب إليه ..

إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام

إيماناً بالغيب .. وخشوعاً للجلال .. واعترافاً بفضله على
البشر ، بوصفه رسول رب العالمين إلى الأنبياء .

مع اعتذار عميق وخوف مشفق .. لجرأة الطين الخاطيء على
مجرد التوجه إليه بالحديث فضلاً عن الاهداء .

احمد بركات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كن .. فيكون ..

حين انصرفت مشيئة الله تبارك وتعالى الى خلق الكون .
حين اراد ان يخلق المجرات والنجوم والشموس والكواكب والأراضى
وما نعرف وما لا نعرف ، أمر هذا كله .. وقال له : كن .. فكان .
حدثنا الله تعالى أنه عندما يريد شيئاً فإنه يأمره ان يوجد ..
قال تعالى : ((انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)) [١] .
وهذا هو أمر التكوين ..
وأمر الله تعالى نوعان : أمر تكوين ، وأمر تشريع .
أما أمر التكوين فيعنى كل القوانين العلمية المعقدة المحكمة التى يخضع
لها الكون فى وجوده وتطوره . وأما أمر التشريع فهو ما يوحيه الله تعالى
لأنبيائه كى يبلغوه للناس ليأخذوا به ويتبعوه .
وأمر التكوين يسبق أمر التشريع بالنسبة الينا .. وأمر التكوين
لا حرية فيه ، بمعنى أن السماء ليست مختارة فى أن تكون أو لا تكون ،
وكذلك الأرض بقوانينها الحاكمة ..
أما أمر التشريع ففيه مجال واسع لحرية الإرادة .. وفيه مجال
للمسؤولية .. وفيه اختيار يترتب عليه إمكان المساءلة .
الم تر أن الله تعالى قال عن أمر التكوين :
« ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : اتنيا
طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين » [٢] .
وقال عن أمر التشريع : « لا اكراه فى الدين » [٣] .
وقال تعالى : « فمن شاء فمؤمن ، ومن شاء فالكافر » [٤] .
ان الحرية تهيمن على أمر التشريع ، وهى مستبعدة تماماً من أمر التكوين،
ولعل هذا ما قصده ربنا سبحانه وتعالى فى قوله :

« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين ان

(١) الآية ٨٢ من سورة يس (مكية)

(٢) الآية ١١ من سورة فصلت مكية .

(٣) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة مدنية .

(٤) من الآية ٢٩ من سورة الكهف مكية .

يحملها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، انه كان ظلوما جهولا » [١] .

وليس اباة السماوات والأرض وأشفاقتهن من الأمانة الا صورة فنية تعبر عن رفض ما لا يستطعن حمله بحكم التكوين الأصلي والتقدير الأزلى .

ليس رفضهما هنا اختيارا حرا . . انما هو رفض يجيء من كونهما خلقتا طائعتين غير مكلفتين ، وليس التمثيل والتشبيه في الآية الا تقريبا لمعانيها من الذهن البشرى .

.....

وأمر التكوين بالنسبة الينا غيب ..

خلق الله السماوات والأرض وما أشهدنا خلقهن .. لا نعرف متى كان ذلك ولا كيف كان .. ولابأى أسلوب أو وسيلة .

لا نعرف أيضا تاريخ تكوينيهما بالترتيب .. أى شيء منهما خلقه الله قبل الآخر .. هل خلق السماء قبل الأرض أم خلق الأرض قبل السماء ؟

ان وقوع الخلق وكيفيته وأسلوبه أسرار مغلقة ، استأثر الله وحده بعلمها . أما مادة الخلق ، فهي أمامنا نبحث فيها كيف نشاء .. وتدرسها آلاف العلوم على الأرض .

أما كيفية الخلق فغيب لا ندرى عنه الا ما حدثنا به الله .

ولقد حدثنا الله تعالى انه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام . قال تعالى : « **الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش** » [٢] .

أمر الله السماوات والأرض وما بينهما أن تتكون في ستة أيام .. فكانت في ستة أيام ..

وهذه الأيام الستة من أيام الله تعالى ، وهى لا تشبه أيامنا التى نعيشها الآن على الأرض لسبب بسيط ، اننا نحسب اليوم بدورة الأرض مرة حول نفسها أمام الشمس . والله تعالى يتحدث عن يوم قديم سبق خلق الأرض والشمس ..

الحساب اذن يختلف ، وطول اليوم يختلف .. ربما تكون هذه الأيام الستة بحسابنا الآن آلاف السنين أو ملايين القرون .. أو تكون أكثر من ذلك أو أقل .. وربما تكون بحساب الله عز وجل شيئا آخر تماما .

هذا غيب لا نعتسف له التأويل ، ولا نخوض فيه بغير علم .

غيب لا نعرف عنه الا ما حدثنا به الله ، والغيب هو الشيء الذى يغيب عن عقلنا أو زماننا فلا ندركه ، وكل ما غاب عنا وحدثنا عنه الله فهو وحده الصديق .

(١) الآية ٧٣ من سورة الاحزاب مدنية .

(٢) الآية ٤ من سورة السجدة مكية .

ولقد حدثنا الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام
ثم استوى على العرش . خضع له كل شيء . ودان له كل شيء . وسجد له
كل شيء ، وقدسه كل شيء ، وحكمت قبضته سبحانه مقاليد كل شيء ..
 واحتاج اليه كل شيء .

وهو الغنى الذى لا يحتاج الى أحد .. ويحتاج اليه كل أحد .

.....

انتهى الأمر ونفذت مشيئة الله تعالى .

وخلق الكون .

سجد بعد خلقه لرب الخليقة ..

سجد سجود احتياج واستمداد .

سجد سجود استسلام يحكمه نظام بديع محكم .

رمز الخير

الملائكة عباد الله . جنود الله . وهم من أكرم خلق الله وأفضله . وهم درجات ، ولكل واحد فيهم مهمته السامية التي يؤديها بكمال لا يطاول . وفى الملائكة من كانت مهمته أن يتصل بالبشر . فيهم من كانت مهمته أن يبلغ أنبياء الله رسالات الله الى البشر . وهذا هو جبريل عليه السلام . . سيد الملائكة وارفع عباد الله فى الملأ الأعلى ورمز الخير .

.....

وسماه الله تعالى : « الروح الأمين » . . قال تعالى فى سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين » [١] .

وسماه الله تعالى « روح القدس » قال تعالى فى سورة النحل :

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين » [٢] .

وسماه الله تعالى : « رسولا كريما » . كما سماه « الروح » . قال تعالى فى سورة التكويد : « انه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين » [٣] . وقال تعالى فى سورة القدر : « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » [٤] .

وسماه الله تعالى « تشديد القوى » . قال تعالى فى سورة النجم :

« والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه تشديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى » [٥] .

هذه هى أسماء جبريل عليه السلام .

وقد سمى جبريل روحا وأضيف الى القدس . والقدس هو الله عز وجل . . وقد خلقه الله تعالى من غير أب أو أم أو مثال كما خلق آدم . وأن اختلف جبريل عن آدم فى انه ليس جسدا تجوز عليه الأخطاء والمعاصى . إنما هو روح طائع أمين أضافه الله الى اسمه . وكرم الله تعالى جبريل

(١) الأيتان ١٦٣ ، ١٦٤ مكية .

(٢) الآية ١٠٢ مكية .

(٣) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ مكية .

(٤) الآية ٤ مكية .

(٥) الآيات من ١ الى ١١ مكية .

تكريما المهيا حين اُضاف اسمه اليه . وجعل الايمان به عليه السلام مسألة أساسية لا نقاش فيها ولا مساومة .

سأل اليهود النبي عليه الصلاة والسلام عن يأتيه بالوحي .

قال : جبريل

قالوا : هو عدونا . لو كان الذي يأتيك بالرسالة ميكال لآمنا بك وتابعنك . [ميكال هو ميكائيل] .

ونزل قوله تعالى يحدد بالحسم الالهي موقف الله من أعداء ملائكته . .
أنهم أعداؤه ، قال تعالى :

« قل من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بأذن الله ، مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » [١] .

لماذا خص الله جبريل وميكال بالذكر ؟

خصهما بالذكر تشريفا وتعظيما . .

وسوف نلتقى في قصص أنبياء الله كثيرا بجبريل عليه السلام .

هو الروح الأمين الذي يحمل وحى السماء الى الأرض .

وهو يختفى أزمنة ، فاذا ظهر ظهرت معه رحمة الله . . وبعث نبي الى قومه . . وخرج كتاب من كتب الله الى الناس .

(١) سورة البقرة الايتان ٩٧ ، ٩٨ (مدنية) .

رمز الشر

خلق الله تعالى مع الملائكة خلقا آخر يسميه الجن .

والجن مخلوقات مستترة .. ليست أجسادا ظاهرة لنراها .. وهذا هو وجه الشبه الوحيد بين الجن والملائكة .. وفيما عدا ذلك يختلف الملائكة عن الجن اختلافا تاما . حتى في مادة الخلق نفسها، فقد خلق الله الجن من النار وخلق الملائكة من النور ، والملائكة هم جنود الله الذين خلقوا لعبادته وتحقيق أمره في الكون . والملائكة بحكم تكوينهم هم الخير المحض ، أو الخير المطلق .

أما الجن فمخلوقات تخضع للتكليف ، وفيهم الطيب ومنهم الفاسد .

قال تعالى في سورة الجن على السنة الجن :

« **وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا** » [١]

« **وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا
رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** . » [٢]

والجن يتناسلون ، قال تعالى :

« **افتخذونه وذرئته أولياء** » [٣]

وفي الجن من يعبد الله ليرتقى ، وفيهم من يعبد الله وهو يخبىء في نفسه كبرياء لا تتفق مع العبودية .

ومن أسماء الجن الشهيرة « إبليس » .. وكان هذا المخلوق يقف مع الملائكة حين صدر اليهم أمر السجود لآدم . فلما رفض أن يسجد صار رمزا للشر في الكون .

ويتصور بعض الناس أن إبليس كان من الملائكة لوقوفه معهم .. والصحيح أنه من الجن ، لقوله تعالى في سورة الكهف :

« **واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس كان من
الجن ففسق عن أمر ربه** » [٤] .

ما الذي كان يفعله هناك مع الملائكة .. ؟

ما الذي عمله حتى استحق شرف الوقوف مع الملائكة .. ؟

(١) الآية ١١ مكية .

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ مكية .

(٣) من الآية ٥٠ من سورة الكهف مكية ..

(٤) سورة الكهف من الآية ٥٠ مكية .

هذا كله غيب . يقول العلماء : أنه عبد الله آلاف السنين ليترقى .. كان ابليس سيدا من سادة الكبرياء والانتهازية قبل خلق الانسان .

لقد عبد الله جبا في المجد لا جبا في الله ، كان رمزا لروح الشر ، وكانت العبادة هي طريق السمو والارتقاء فسلك هذا الطريق ، فلما صدر الى الملائكة الأمر بالسجود وهم ملائكة ، لزمه هذا الأمر بوصفه أقل منهم ، ساءتذ انحسرت دوافعه للعبادة عن وجه الكبرياء ، ورأى أهدافه في المجد تهدر ، وألفى نفسه مأمورا بالسجود لآدم ، وهو مخلوق من طين ، فاستكبر ورفض .

وبذلك اختار ابليس يومها — والله يعلم أنه سيختار — أن يكون رمزا للشر على الأرض ..

من يومها صار ابليس أشهر مخلوق في الأرض .. خسر نفسه وكسب الشهرة . ووقفت روحه تساند كل الشرور والمظالم والآثام في الأرض .. وهناك من يعتبر ابليس مرآة لابن آدم يرى نفسه فيها ، وهناك من يراه يجرى مجرى الدم في عروق المخلوقات ، وهناك من يستهون شأنه ويحتقره .. وعلى أي حال .. فان هذا المخلوق هو الدرجة الأخيرة في اللون الأسود من الشر .

رجال الله

أنبياء الله تعالى هم أمر التشريع .

هم رسله الى البشر . . وهم أساسا بشر . . غير أنهم أنقى البشر .
ولو أن الله تعالى لم يرسل أنبياءه الى الناس لالزمهم حجته ، وكان ذلك
عدلا منه سبحانه .

ذلك أن الله قبل إرسال أنبيائه أرسل كلماته الى العقل البشرى وألزمه
الحجة .

ان الكون كله هو كتاب الله المفتوح ، وهو كتاب يمتليء بالكلمات المعجزة
الدالة على وجوده سبحانه .

والانسان ذاته — بالنسبة لذاته — آية من آيات الله ، وكلمة من كلماته تلزمه
الحجة .

ولوطاف الانسان داخل نفسه ، أو ساح بذهنه في آفاق الكون . . لرأى
كلمات الله وآياته . ولو استجمع الانسان نقاءه الداخلي وأنعش به قدرته
على التذكر ، فسوف يرى كلمات الله يوم أخذ العهد على آدم وذريته .

قال تعالى :

« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأنشهدهم على
انفسهم : ألسنت بربكم ؟ قالوا : بلى » . [١]

وإذن تلزم الانسان الحجة .

لماذا يرسل الله تعالى أنبياءه الى الناس اذا كان قد ألزمهم الحجة ؟

الجواب أن أنبياء الله تعالى جميعا رحمة .

لايعامل الله عباده بالعدل وحده . لأن الله اكبر .

انما يعاملهم بالرحمة .

والأنبياء هم الرحمة .

يبعث كل نبي رحمة لقومه أو زمانه .

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الاعراف مكة .

حتى اذا جاء آخر الانبياء جاء رحمة للعالمين .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » [١]

ولولا محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، لما عرفنا قصص الانبياء كما وقعت حقا .

ذلك أن قصص الانبياء تعرضت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لعبث لم يسلم منه نبى .

وأمتد التحريف الى سيرة الانبياء ، فجاءت بشكل لا يحفظ للانبياء وقارهم أو عصمتهم .

تحكى صحف اليهود المحرفة عن نبى يشرب الخمر ويزنى بابنته ، وتحكى عن نبى يرسل قائد جيشه الى الحرب كى يقتنص امراته ، وتحكى عن نبى ينكئ على عبادة الأصنام بعد أن تزوج وهو شيخ من صبية حسناء تعبد صنما ، فأثر ارضاءها بعبادة صنمها على ارضاء خالقه .

وتحس طيلة الوقت وأنت تقرأ هذه الصحف المحرفة أنك أمام عقل بشرى ملوث ومغرض . . عقل مرتش يكذب عمدا على الله وأنبيائه لأغراض تجهلها الآن وان كانت لليهود أيامها مصالح ظاهرة فى ذلك .

فاذا غادرت صحف اليهود المحرفة الى صحف النصارى وأوراقهم وجدت لديهم اتجاها عكسيا يكاد يكون رد فعل للاتجاه الأول . . انهم يكرمون نبهم عيسى الى الحد الذى تنسبه بعض فرقهم بالبنوة الى الله .

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولقد ضاع حجم الانبياء الحقيقى بين التصغير والتكبير . . ولولا القرآن ما عرفنا حقيقة الانبياء .

.....

حقيقة الانبياء أنهم خير البشر .

ولكنهم فى نهاية الأمر بشر يمشون فى الأسواق ويأكلون الطعام ويعيشون ويموتون .

لا يختارون أنفسهم للرسالة . لا يصلون الى الرسالة نتيجة كسب وقصد وجهد أو اختيار . انما يختارهم الله .

يختارهم لعلمه السابق أنهم أنقى من فى الوجود ، وأفضل . تستوى فى ذلك عقولهم وقلوبهم .

بعدها يبعث اليهم رسالاته .

ويضيفهم الله الى نفسه تشريفا وتكريما . فيسميهم رسل الله .

وهم لا يخطئون فيما يرسلهم به الله .

(١) الآية ١٠٧ من سورة الانبياء مكية .

ان لهم عصمة من نوع معين . كما ان لهم معجزات من انواع عديدة .
أما عصمة الأنبياء فتعنى أنهم لا يرتكبون خطيئة كبيرة ولا صغيرة .. لا قبل
البعثة ولا بعدها .

انهم يخلقون فى مستوى من الكمال لا يهبطون عنه وان ساروا فيه صعودا
.. واذا كان الله تعالى يعاتب أنبياءه أحيانا فانما يفعل ذلك وصولا بهم الى
مستويات أكبر من الكمال لا ندرىها ، ولا نحلم بها .

ولما كان الأنبياء هم أكثر الناس معرفة لله ، فان واجبهم يقتضيهم أن يشعروا
بأنهم مقصرون فى حق الله .. لان الانسان لو عبد ربه ملايين السنين لما كان
فذلك كافيا للشكر على نعمة الله فى نصف ساعة .

ولهذا يستغفر الأنبياء ..

هذه ذنوبهم وهذا استغفارهم ، ونحن نعرف أن الانسان لا يعاقب على
النسيان والسهو ، ولكن الأنبياء يعاقبون على ذلك . لقد نسي آدم فأهبطه
الله من الجنة . ولو لم يكن نبيا لما أخذه الله على النسيان .

وتختلف درجات الأنبياء والرسائل .

قال الله تعالى فى سورة البقرة :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع
بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح
القدس » . [١]

وقال الله تعالى فى سورة الاسراء :

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبوراً » . [٢]

وقال الله تعالى فى سورة الأحزاب :

« واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى
وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » . [٣]

ورغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تبارك وتعالى ، ووجود خمسة
منهم هم أولو العزم وهم :

محمد بن عبد الله .. ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى .. عليهم الصلاة
والسلام .

رغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تعالى ، فان المؤمنين مأمورون
بالوقوف عند حد الأدب ، وعدم التفريق بين أحد من رسله ..

قال تعالى فى سورة البقرة :

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد

(١) من الآية ٢٥٣ مدنية .

(٢) من الآية ٥٥ مكية .

(٣) الآية ٧ مدنية ..

من رسله ، وقالوا سمعنا واطمنا ، غفرانك ربنا واليك المصير » . [1]

ولقد جرت سنة الله في أنبيائه أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة والخوارق ففى الأنبياء من كانت معجزته الطوفان . وفيهم من كانت معجزته ناقة ولدت من جبل ، وفيهم من كانت معجزته صرخة هزت الدنيا وأهلكت الكافرين ، وفيهم من كانت معجزته عصا تتحول الى ثعبان ، وفيهم من كانت معجزته احياء الموتى وتكليمهم . وفيهم من كانت معجزته كتابا . .

وكانت معجزات الأنبياء جميعا تختلف عن رسالتهم ، باستثناء واحد . معجزة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .
ان طب عيسى ومعجزته فى شفاء الأمراض كانت شيئا يختلف عن انجيله .
وعصا موسى التى تتحول الى حية جبارة كانت شيئا يختلف عن توراته .
الا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة ، هى نفس جوهر هذه الرسالة .

توحدت حقيقة الرسالة ومعجزتها فى كتاب واحد هو القرآن الكريم .
وسوف نلاحظ أن الله عز وجل يأخذ عباده بالرحمة والرفق . . وفى فجر التاريخ البشرى ، كانت البشرية تمر بطور الطفولة . وفى هذا الطور لا يصدق الأطفال الا الأشياء الخارقة العجيبة . وفى هذا الطور لا يؤمن الناس الا اذا انبهرت أعينهم قبل عقولهم . واندعشت حواسهم قبل حكمتهم .
وساق الله تعالى معجزات أنبيائه الحسية الى الناس .

وكان الناس هم الذين يطلبون الآيات والخوارق . . وكان الله تعالى يستجيب لعباده زيادة فى الرحمة لمعرفة أنهم مازالوا فى طور الطفولة .
وكلما نضجت البشرية فى شىء ، جاءت معجزات الأنبياء مستجيبة لهذا النضج . فكان الله تعالى يعطى كل رسول من الآيات ما يتفق مع حال قومه وأهل عصره وعلوم زمانه . . أو يعطى كل رسول من الآيات ما يستهدف اثبات شىء للناس .

كان قوم فرعون أهل علوم ورياضة وطبيعة وفلك . . كانوا أهل صناعة ساحرة . كانوا سادة عصرهم فى العلوم والسحر . ولهذا أعطى الله تعالى موسى عليه السلام معجزات تتفوق على العلم والسحر . تبدو علما وسحرا ولكنها ليست كذلك . الأمر الذى يؤكد أنها من عند الله .

وكان الرومان أهل سلطان فى قوم عيسى ، وكانوا متقدمين فى علوم الطب والقانون . . فكانت معجزة عيسى شيئا مثيرا لدهشة الطب والقانون معا . . ان رجلا مات ينهض من الموت ليكلم عيسى . . ان فكى الطب والقانون معا يتدليان بالدهشة أمام هذه الخارقة .

وكذلك كان أهل هذا الزمان يريدون .

(1) من الآية ٢٨٥ مدنية .

فلما تقدمت البشرية ، وبدأ عقلها ينضج ، وصارت الكلمة فيها هي مفتاح الحياة ، وصار العلم فيها هو سيد الكون ، وصار الكتاب فيها شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه ..

شاء الله تبارك وتعالى الا يقنع البشر بالمعجزات ، وأرسل اليهم كتاباً هو ذاته معجزة . كتاباً كل سورة منه معجزة ، وكل آية منه معجزة .

أسلوبه .. وقيمه .. وتشريعته .. وخصصه .. وأحكامه .. كل ما فيه معجزة حية .. لا تموت طالما بقى الانسان حياً يقرأ ويكتب . ولم يرسل الله مع هذا الكتاب معجزات أخرى لها قيمته .

ان احترام نضج العقل البشرى يستوجب الانضغاط عليه .

نحن نضغط على الأطفال ونرهبهم أو نستميلهم .. لكننا نحاول اقناع الكبار . وتلك كانت ميزة الرسالة الأخيرة .. وذلك كان فضل نبيها .. عليه أفضل الصلاة والسلام .

انه رسم للانسانية آفاق الكمال الذى تستطيع أن تبلغه كبشرية راقية لديها عقلها .

ومن الكتاب الذى انزله الله على خاتم رسله ..

من القرآن الكريم .

عرفنا قصص الأنبياء كما وقعت بحق .

قصص الأنبياء في القرآن

ينطوى القرآن الكريم على عديد من القصص . أهمها قصص الأنبياء .

وترد قصص الأنبياء في القرآن كجزء من نسيجه الديني ، بمعنى أن القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقته عرضه وإدارة جوداته . . شأن القصة الفنية الحرة . . إنما ترد القصة في القرآن مقيدة بغرض ديني . . وترد أساساً للدعوة أو للدعاية لهذا الغرض الديني . ولقد كان المفروض . . طبقاً لهذا التقييد . . أن تجيء القصص خالية من القيمة الفنية . . ونحن نعرف الآن . . أنه يستحيل على كاتب من البشر ، أن يوظف فنه للدعاية لشيء ويستطيع أن ينتج فناً في نفس الوقت . .

يثير الدهشة العميقة . . أن ينكسر هذا القانون النقدي في قصص القرآن . . فإذا نحن أمام قصة تدعو مباشرة لشيء . . بينما هي في نفس الوقت عمل فني معجز . .

ولعل هذه أول إشارة لافتة لاعجاز القرآن وكونه من عند الله تعالى . .

يستحيل على بشر . . مهما أوتى من عبقرية فنية . . أن يقدم أدبا ودعاية في نفس الوقت . . يستحيل أن يقدم فناً معجزاً ودعوة مباشرة في نفس الوقت . . غير أن قصص الأنبياء في القرآن تفعل هذا كله بشكل ناعم لا تحس فيه بالجهد . . وإنما يدهشك أن يكون الأمر غير ما هو كائن .

هذه واحدة . .

وهناك ملاحظة أخرى . .

من المعروف أنه يستحيل على كاتب قصة بشرى ، مهما تكن درجة كفاءته ونبوغه ككاتب . . أن يحكى لك نفس القصة ثلاث مرات أو خمس مرات أو عشر مرات ، ثم يحتفظ بنفس مستواه في المرات العشر . . لا بد أن يهبط مستواه في تسعة أعشار ما يحكيه . . ولا بد أن يكرر نفس ما قاله بنفس التأثير الأول . . لا يمكن أن يأتي بجديد .

هذه مسألة بديهية . . غير أنك تنظر في قصص القرآن ، فيروحك أن ترى القصة مقدمة عشر مرات . . يحكيها الله عشر مرات أو خمس عشرة مرة . . نفس القصة . . بنفس المستوى . . بتأثير مختلف . .

يظل مستوى القصة في الذروة رغم تكرارها . . ويتغير تأثيرها وإيحائها بكلمة تضاف أو جزء يحذف أو عبارته جديدة ، أو جملة لم تكن موجودة . . أو مجرد ظل لخاطر نفسى لم يقدم قبل ذلك .

شيء معجز يقطع بأن صاحب قصص القرآن ليس هو النبي البشر ..
انما هو رب العالمين سبحانه .

كثيرا ما توقفت كناقد أدبي .. أمام قصص القرآن ..

كنت أقرأ القصة بحسن الناقد الذي يريد أن يعثر على ثغرة ينفذ منها
ليقول شيئا ..

وكنت أخضع القصص لمثابيس النقد الأدبي القديم والحديث .. وكنت
أعود من رحلتى دائما باحساس يقينى ومطلق بالسجود ..

ليست هذه القصص من اختراع بشر .. ليست كتابة بشرية .. أبطالها
من البشر .. كلماتها قالها البشر .. أحداثها وقعت فى تاريخ البشر .. كل
ما فيها بشرى .. غير أن فيها شيئا غير بشرى .. الرؤيا التى تناولها ..
الطريقة التى تقدم بها .. الأسلوب الذى تحكى به القصة .. تركيب هذا
الأسلوب وسبكه .. هذا هو الشيء الالهى فيها ..

ولهذا السبب كان الله يحكى القصة مرة ومرتين وعشرين .. وفى كل مرة
يعطيك تأثيرا معينا ، ويملؤك بايحاء خاص ، يختلف عما سبق أن أعطاه لك ..

وهذه معجزة فى فن الكتابة . لا ترى لها مثيلا فى أى كتاب على الأرض
غير هذا الكتاب الكريم الذى أسلمه لنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه
وسلم .. وهو رجل لم يكن يكتب ولم يكن يقرأ .

أنظر الى قصة موسى ..

تأمل لقاء موسى بكلمات ربه .. تأمل موقفه أمام النار المقدسة فى
وادي طوى ..

يحكى الله هذا الحادث اكثر من مرة ..

يملؤك مرة بالخوف والرهبة والجلال ..

ويحكيه مرة أخرى فيملؤك بالحب والحنان والأمل ..

نفس القصة .. أبطالها هم موسى وعصاه .. لم يتغير شيء فى الأبطال
ولا فى الظلال .. كل ما حدث أن أسلوب التقديم الالهى هو الذى أعطاك
تأثيرا مختلفا .. رغم أن الأبطال هم كما هم لم يتغير فيهم شيء ولم يزد
عليهم شيء .

ولقد تحدث الكثيرون من قبل عن اعجاز القرآن .. وسحره .. وقيلت
آلاف الكلمات حول هذا الموضوع .. وحكى لنا القدماء والمحدثون عن هذا
الشيء الخاص الذى يشيع فى كلمات القرآن ويجعل القلب يسجد بغير أن
يفادر مكانه فى صدر الإنسان . قليل هو لفظه المعجز .. وقيل هو معناه
الدهش .. وقيل نظمه المحير .. وقيل ما قيل عنه .. غير أن أحدا لم يلمس
قلب الموضوع كما فعل كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » الذى وضحت فيه
حاجتنا لمنهج جديد غير منهج البلاغة والألفاظ والمعانى ، منهج يدرس
الخصائص المشتركة ، والطريقة الموحدة فى التعبير عن جميع الأغراض ..
عن طريق أسلوب التصوير الفنى .

هذا الاسلوب الذى سمي « التصوير الفنى » .. هو سر الأسرار فى اعجاز القصص القرآنى .. انك تمسك القصة فى القرآن وتقرأ .. بعد لحظات تكتشف أن شيئا غريبا وقع ..

لم يعد هناك كتاب تقرأه .. لم تعد عينك تعبران سطور الكلمات .. اختفى الكتاب واختفت الكلمات ، وتلاشى الحاضر وذاب الواقع ، وانتصب أمامك مسرح عظيم يتحرك فوقه أبطال القصة التى تقرأها .

ها هو نوح يقتحم مجلس سادة عصره وكبراء القوم .. ها هى كلمات الحوار تمضى أمامك مجسدة مصورة ، يكاد وقع كل كلمة يختلف عن وقع الكلمة الأخرى .. مثلما تختلف بصمات أصابع القائل عن بصمات أصابع غيره ..

ينتصب المسرح أمامك وتمضى الأحداث ويتطور الصراع ، وانت جالس مبهور تشهد وتسمع ..

تختفى الكلمات المكتوبة ، وتتحول فى ذهنك الى مسرح هائل يضحج بالصراع والحوار والجدال والمشاعر ..

ميزة قصص القرآن .. ميزته المعجزة تكمن فى هذا .. ان الكلمات لا تحكى لك انها هى تتحرك داخلك أشخاصا مجسدة فى مسرحية قديمة ، تستطيع وانت تصفى اليها وتشاهدها ، أن تكتشف أنها ليهبت مسرحية قديمة فحسب .. انها هى أيضا جديدة ، تمثل كل يوم على مسرح الحياة بأداء مختلف وممثلين جدد .

وتنتهى من القصة ..

وتمضى بك دوامة الحياة .. ثم تعاود قراءة قصة أخرى من قصص القرآن .. لا تكاد تمضى فى القراءة حتى يقع شيء أعجب .. انتصب المسرح فى القصة الأولى ، وهذه المرة تضىء شاشة السينما ..

تختفى الكلمات المكتوبة وتضىء شاشة السينما .. ويتحرك أمامك شريط الصور .. يتحرك بلغة سينمائية معجزة .. السينما لغة مفرداتها هى الصورة .. وأنت تشهد فيلما يعبر بالصورة بغير كلام .. ثمة حلم هنا لاتعرف تفسيره .. سيؤدى تقطيع الصور وتسلسل السيناريو وتركيب المشاهد الى تفسير الحلم فى النهاية ..

من أمثلة القصص التى يقدمها القرآن بأسلوب المسرح .. قصة هود وقصة صالح .

ومن أمثلة القصص التى يقدمها القرآن بأسلوب السينما .. قصة يوسف .. وقصة موسى .

ولقد نزل القرآن منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ..

لم يكن عالم الأدب قد اكتشف قواعد القصة القصيرة ، أو أصول الدراما ، أو فن السينما ..

كانت هذه الصور الثلاث من صور التعبير الأدبي بذورا في ضمير الغيب لم يكشف عنها الستار بعد .. ولقد قدر لأوربا أن تكون هي صاحبة هذا السكتف .

لم يكن العرب — الذين نزل اليهم القرآن بلغتهم — يعرفون من أشكال التعبير الفنى غير الشعر .. والأساطير القديمة .. ولهذا السبب اتهموا النبى عليه الصلاة والسلام مرة بأنه شاعر .. واتهموه مرة أخرى بأنه يحكى أساطير الأولين .. فلما بدت التهمتان بغير أقدام .. عادوا يتهمونه بالسحر ولقد أصابوا فى الأخيرة .. مع تحفظ فى اختلاف فهمنا للسحر عن فهمهم البدائى القاصر ، قصدوا بالسحر هذا الخداع والوهم والتخيل . ونفهم من السحر سحر الفن الموحى .. ولقد انطوت قصص الأنبياء فى القرآن على قدر من سحر الفن الموحى .. يستحيل الكشف عنه فى عجلة أو تقديمه فى كتاب أو كتابين .. ذلك جهد يمكن أن يتوفر عليه عديد من الفنانين والأدباء فى عصور متلاحقة ، فيكشف الله لكل واحد فيهم عمقا من أعماق القصة فى القرآن .. لكل حسب كفايته وجهده وموهبته .

فلننظر الآن كيف ذاب الغرض الدينى فى الغرض الفنى ، أو كيف ذاب الغرض الفنى فى الغرض الدينى ، فاذا الجمال غاية مستهدفة ، ووسيلة مستخدمة فى نفس الوقت .. وإذا بالآف العناصر تصنع فى نهاية الأمر مزيجا لا يقدر عليه غير خالق الانسان والملائكة .

ننظر أولا فى أغراض قصص الأنبياء فى القرآن .. سنكتشف أن قصص الأنبياء تناولت أغراضا عديدة مختلفة لا تكاد تقع تحت حصر .. هى صراع بين الخير والشر ، بين جيوش الظلام المدربة المنظمة الكثيفة ، وفصائل الخير القليلة المشتتة المضروبة ، هى صراع بين الإنسان وظروفه وأهوائه . وهى صراع بين الطين والروح .. وهى صراع بين النبى والكافرين به .. وهى صراع بين النبى وأهل بيته .. أحيانا زوجته [لوط] وأحيانا ابنه [نوح] وأحيانا أبوه [إبراهيم] ..

خيطة واحد يشد كل قصص الأنبياء ويبدو واضحا فى نسيجها المحكم المعجز الرائع ..

خيطة واحد ..

هو الصراع ..

لا يكاد النبى يبدأ دعوته حتى تنقلب الدنيا كلها ضده فجأة .

يضيع سلامه .. وأمنه .. ورزقه .. وتبدأ الهجمات عليه .. قبل البعثة يعيش النبى فى سلام عظيم من الخارج ، وقلق عظيم من الداخل .. وبعد نزول الوحي ترتفع أعلام السلام الداخلى وترفرف داخل الروح ، ويتحطم تماما أمنه الخارجى وسلامه وراحته .

ظل شعيب موضع احترام قومه حتى جاءه الوحي .. فبدأت السخرية منه .. وبعد أن كان الحليم الرشيد .. صار متهما بالكذب والافتراء .

وظل محمد بن عبد الله موضع تصديق قريش واجلالها حتى لقد سمي الصادق الأمين ، ولا يكاد الوحي ينزل عليه حتى تتطاير حوله آلاف الاتهامات

التي تبدأ بالجنون وتنتهى بالكذب .. وبعد أن كانوا ينهضون له فى المجالس ، ويهشون له ويجلونه ، ويحكمونه فيما ينشأ بينهم من شجار ، ويستمعون اليه ويرضون كلماته .. بعدها صاروا يرمون عليه أحشاء الجمال المذبوحة وهو ساجد يصلى لرب جبريل وربه .. فلا يجد لحظتها من يدافع عنه غير ابنته فاطمة .

أى هوان يلقاه النبى فى سبيل ربه .. وأى بلاء ..

لا ينجو نبى من هذا البلاء حتى ان كان من أولى العزم .. على العكس .. يزيد بلاؤه كلما زاد عزمه ..

يتفاوت ابتلاء الأنبياء حسب درجاتهم عند رب العرش .. أعظمهم قدرا هو أعظمهم بلاء .

أنظر الى نوح كيف كذبوه الف سنة الا خمسين .

أنظر الى ابراهيم كيف طرد من بيت أبيه وألقى فى النار .

أنظر الى موسى كيف احتوشه خوف الاعتقال ومؤامرات القتل ، وكيف اتهم بالجنون والكذب .

أنظر الى عيسى كيف افتروا عليه وعلى أمه بهتاناً وافكاً وزوراً .

وأنظر الى محمد كيف تعرض لكل ماتعرض له الأنبياء قبله .. حتى تركزت عليه خلال سننى حياته المضيئة كل أنواع القهر والعذاب والمعاناة والتكذيب والمؤامرات والحروب .

هو ناموس الهى لا يتغير ..

يزيد الصراع حدة وعنفا كلما كان النبى من أولى العزم الكبار ..

ذلك أن دعوته تعنى تغيير نظام الحياة .. تعنى عودة الحق الى عرشه

تعنى عودة الجمال والخير والفضيلة .. لكن هذه القيم كلها تعيش عادة فى الحياة وهى ترتدى ثياب الإنكار الوحيدة .. أما الباطل فيحمى نفسه بتكوين الجيوش وبناء الأنظمة والتسلح .

يعيش الباطل فى جنده وعسكره ، بينما يمضى الحق عادة وهو يرتدى عباءة الفكر الوحيدة الهشة .. ولا يكاد النبى يفتح فمه ويدعو لربه .. حتى تتحرك كل جيوش الظلام فى اتجاهه .

ويجىء الوقت الذى يقول فيه النبى والذين آمنوا معه :

« متى نصر الله » ..

ويكون الرد من الواحد القهار ذاته :

« ألا ان نصر الله قريب » [١]

(١) من الآية ٢١٤ من سورة البقرة مدنية .

ولا يقدم القرآن هذا الصراع بشكل فنى معجز فحسب .. انما يرتبط
الضمون هنا بالشكل ارتباطا عضويا كارتباط الروح بالجسد الحى ..

ستوف تجد وسط هذا الصراع العنيف الدامى اغراضا يحرص قصص
الانبياء على ابرازها واستهدافها وتأكيدھا .

من هذه الاغراض اثبات الوحى والرسالة وبيان أن الدين كله من
عند الله . من عهد آدم الى عهد محمد . وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة . وأن
الله رب الجميع ومولاهم . وأن جميع الأديان التى أنزلت على الأرض من عهد
آدم الى عهد محمد ، هى فى أصلها دين واحد . هو اسلام الوجه والقلب
لله .. تختلف أساليب الأنبياء فى الدعوة . وتختلف أصواتهم ولغاتهم فى
الحديث لقومهم .

لكنهم جميعا يقولون كلاما واحدا يتصل بالله ..

— لاله الا الله وحده لا شريك له ..

— يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره .. [١]

لا الذهب ولا الهوى ولا الحكم ولا السلطة ولا الراحة ولا النعيم ولا الدنيا
كلها تصلح للعبادة .. لا معبود سوى الله وحده .. لا شريك له .

ومثلما ترينا قصص الأنبياء أن وسائل الأنبياء فى الدعوة موحدة .. ترينا
ايضا أن استقبال قومهم لهم متشابه .

التكذيب والاثام والايذاء والشر ..

وليس على أى نبى من الأنبياء الا أن يبلغ ويتحمل ويصبر ..

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالفدأة والعشى يريدون
وجهه » . [٢]

اصبر ..

دواء واحد ليس فى غيره الشفاء .

اصبر .

« واصبر وماصبرك الا بالله » . [٣]

من أغراض قصص الأنبياء فى القرآن الدعوة الى الله ، وإثبات اليوم
الآخر ، وتبشير المؤمنين ، وتحذير الكافرين ، وبيان سنة الله فى تدمير
المكذبين بالدين . أيضا ترينا قصص الانبياء نعمة الله على أنبيائه ، وترسم
لنا صورا للعلاقات الانسانية كما يراها الله من فوق سبع سماوات .. وتبين
لنا أن الأبوة والبنوة وقرباة الدم أو المصاهرة ، ووحدة الأرض أو الجنس
أو اللون ، ليست هى الروابط بين الناس ..

(١) من الآية ٦٥ من سورة الاعراف مكية ..

(٢) من الآية ٢٨ من سورة الكهف مكية .

(٣) من الآية ١٢٧ من سورة النحل مكية .

انما الرابطة هي الايمان بالله .. وهى الحب فى الله ..
هذه هى الرابطة الوحيدة المعتمدة عند رب العرش .. وبشيئة الروابط
غرائز وعصبيات يرتفع فوقها من يؤمن بالله عز وجل ويسلم له .
ترينا قصص الانبياء قدرة الله على المعجزات والخوارق .. ونفضل
تأديا أن نسميها قدرة الله فحسب .. ذلك أن القانون الذى بيدولنا كقانون نحن
البشر .. مثل أن البحر لا ينشق نصفين ، أو أن العصا لا تتحول الى ثعبان
يأكل عصيا أخرى .. هذا القانون ، بالنسبة اليينا ، هو عبد مخلوق
بالنسبة لله ..

ليس القانون قانونا على الله عز وجل ..

هو قانون علينا نحن .. ونحن مخلوقات مثله .. أما الله فخالق ..
وطاعة القانون له أمر لا ندرية نحن ولا نعرفه .. ولهذا نسميه معجزة
أو خارقة . بينا الأمر غير ذلك ..

ترينا قصص الانبياء من بين أغراضها كيف خلق الله آدم من العدم .. كان
الكون عدما فصار بكلمة الله كونا .. وكانت الأرض عدما فصارت بكلمة الله
أرضا . ومن طين الأرض خلق آدم . وجعل الله من القوانين السارية على هذا
المخلوق أن يجيء نسله من اتصاله بحواء .. من اتصال رجل بامرأة ..

ثم شاء الله أن يولد طفل من امرأة فقط .. بغير أن يلمسها رجل .. كلمة
شاء الله أن تكون ، فكانت عيسى بن مريم ..
هل هذه معجزة .. أو خارقة .. أو قانون أصيل يطيع خالقه ولا ندرى
نحن كيف ؟

ان الأصل أن يخلق الله الانسان من غير أب أو أم أو مثال سابق ..
والاستثناء أو المعجزة ، ان يجيء الانسان من اتصال رجل بامرأة .. هذه
هى الخارقة ..

أإذا عاد القانون من استثنائه الى طبيعته الأصلية سمينا هذا خارقة
أو استثناء أو معجزة ... ؟
ليس هذا غريبا ... ؟

لا نستطيع أن نمضى فى تعداد أغراض قصص الانبياء فى القرآن .. انما
نريد أن نذكر كيف خضعت القصة للغرض الدينى ؟ .. وكيف استطاعت — فى
نفس الوقت — أن تعبر فنيا عن هذا الغرض ؟

يتحدث كتاب التصوير الفنى فى القرآن عن هذه النقطة بعمق وايحاء ..
يقول : ان خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى ، ترك أثرا واضحا فى
طريقة عرضها ، وفى مادتها وتأثيرها النهائى ..

وكان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة ، فى معظم الحالات ،
مكررة فى مواضع شتى .. ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها غالبا ،
انما هو تكرر لبعض حلقاتها .. ومعظمه اشارات سريعة لمواضع العبرة

فيها ، أما جسم القصة كله ، فلا يكرر الا نادرا ، ولناسبات خاصة فى السياق
وحيث يقرأ الانسان هذه الحلقات المكررة ، ويلاحظ السياق الذى وردت فيه ، يجدها مناسبة تماما لهذا السياق . ويجدها منطبقة عليه ، وموحية بما يوحى به ، وملتحمة بمعانيه ودالة عليها يقع ذلك بغير اخلال بالسمة الفنية . . . بل لعل هذا الذى يقع ، يسند قيمة فنية كاملة ، ويبرز قيمة فنية خافية

وردت قصة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، فى القرآن فى حوالى الثلاثين موضعا

هى أكثر القصص فى القرآن تكرارا . . . ورغم ذلك كانت من أغنى قصص الأنبياء فى القرآن . . . وبإستثناء سنة مواضع اقتضى السياق فيها تكرار القصة . . . نرى الحلقات الأساسية لم تكرر ، فاذا كررت حلقة منها جاءت بشىء جديد فى تكرارها

شئء تحسبه ظلا . . فاذا تمليته وجدت نفسك تمثلىء بتأثير جديد كل الجدة
مدهش غاية الدهشة . . . موح أعظم الأيحاء

ينطبق هذا على قصة موسى ، وقصة ابراهيم التى تكررت فى حوالى العشرين موضعا ، كما ينطبق على كل قصص الأنبياء التى تتكرر لحكمة عليا وأسباب وجيهة .
وغير التكرار

خضعت القصة فى القرآن للفرض الدينى . . فكان من أثر هذا الخضوع أن تقدم بالتقدير الذى يكفى لأداء هذا الغرض ، وأن تعرض بالشكل الذى تتفق معه . . . وهكذا تعرض القصة مرة من أولها . . . ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ، وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك . . . حسبما تكمن العبرة . . . متجاوزة بذلك الهدف التاريخى

ذلك أن القرآن الكريم ليس كتابا فى التاريخ . . ينطوى على قدر من التاريخ لكنه ليس تاريخا . . . إنما هو كتاب دعوة الى الله

هناك قصص أنبياء بدأت عرضها بميلاد هؤلاء الأنبياء . . ركزت على مولدهم لخطورة هذا الميلاد وأثره الموحى . . . مثل آدم الذى جاء ميلاده بالأمر ونفخة الله بالروح

ومثل عيسى الذى جاء ميلاده من غير أن يلمس أمه الصديقة رجل . . . ومثل موسى الذى جاء مولده فى عصر يذبح فيه قصر الفرعون كل مولود ذكر لبنتى إسرائيل ، فيشاء الله أن ينجو موسى بلجوئه ، وهو رضيع ، الى قصر الفرعون ذاته ، وهو مصدر الخطر . . . وبذلك يولد الأمن فى أحضان الخطر ، ويتم تدبير الله ، وتنفيذ مشيئته

وهناك قصص أنبياء تعرض ، فاذا هى تتجاوز ميلاد النبى وتبدأ القصة من صباه أو وهو فتى ، لما لهذا الأمر من علاقة وثيقة بالقصة

ان قصة يوسف تبدأ بحلم يراه وهو صبى . . بعدها تلعب الأحلام دورا

رئيسيا في حياته ، حتى تفبر رؤياه بعد ذلك بسجود اخوته الذين كادوا له ،
وكادوا يقتلونه من قبل ..

وقصة ابراهيم تبدأ وهو فتى ينظر الى السماء ويفكر كيف يعبد الناس
الكواكب والنجوم والشمس ، وهي جميعا مخلوقات تظهر ثم تغيب ..

وقصة داود تبدأ وهو شاب صغير ، لا يدري شيئا عن القتال ، ثم تدفعه
الحياة دفعا الى صراع مع جالوت .. أخطر الفرسان المحاربين في عصره ..
ويهزم الراعى الوديع الفارس المهول .. لأن الله وقف مع وداعة القلب ضد
حدة الطبع وقسوة المشاعر ..

وهناك قصص تعرض في حلقة متأخرة نسبيا .. مثل قصص نوح ، وهود ،
وصالح ، وشعيب ، وكثير من الأنبياء غيرهم .. ان السياق القرآني لا يذكر
لنا شيئا عن ميلادهم أو شبابهم .. انها نفاجا اننا أمام نبي يحبل رسالة
من ربه .. يبرز على مسرح الأحداث فجأة ويبدأ أداء دوره ..

وهناك قصص تذكر بجمبع حوادثها وتفصيلاتها ، وقصص تهمل بعض
حوادثها وتفصيلاتها .. وهناك قصص طويلة مثل قصص موسى ، و ابراهيم ،
ونوح .. وهناك قصص قصيرة مثل قصص هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب
.. وهناك قصص متناهية في القصر مثل قصص زكريا ، وأيوب ، ويونس ..
وهناك قصص تعرض في سياق قصص أخرى ، كقصة يعقوب ، اذ تعرض في
سياق قصة يوسف .. ثم تذكر مرة أخرى عند موته ، وهو يسأل أبناءه ماذا
يعبدون من بعده .. وهناك قصص أنبياء يشار اليهم بالاسم ولا يذكر أى حدث
من أحداث حياتهم .. مثل ادريس ، واليسع ، وذى الكفل .. وهناك قصص
تعرض بغير ذكر أسماء أو أعداد على الإطلاق .. ان قصة اهل الكهف تعرض
فلا تذكر أسماءهم ولا عددهم ، وتكتفى بذكر الفترة التي قضوها نائمين في
الكهف مع كليهم ، وهي تسع سنوات وثلاثمائة ..

وهكذا يختلف أسلوب القرآن في عرض قصص الأنبياء والأولياء
والصالحين . يتنوع الأسلوب ، ويختلف من الناحية التاريخية .. كما يتنوع
الأسلوب ويختلف من الناحية الفنية أيضا .. ويخدم هذان الغرضان الناحية
الدينية أو ناحية الدعوة .. ولقد قيل بحق : ان القرآن يجعل الجمال الفني
أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية .. بلغة
الجمال الفنية ..

أنظر كيف تتنوع طريقة عرض القصص .. مرة يذكر ملخصا للقصة
يسبقها ، ثم يعرض التفاصيل بعد ذلك .. كقصة اهل الكهف ، ومرة يذكر
عاقبة القصة ومغزاها ونهايتها ، ثم يبدأ من أولها ويسير بالتفصيل ، مثل
قصة موسى في سورة القصص .. ومرة تبدأ القصة برؤيا في المنام ، ثم
تسير القصة وكأنها هي تأويل للرؤيا .. حتى اذا تحققت الرؤيا أنهى القصة
هذا الختام الدقيق ، ولم يسر فيها كما سارت التوراة .. ومرة تذكر القصة
مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، ومرة تتحول القصة الى مسرحية ، فيذكر
فقط من الالفاظ ما ينبه الى ابتداء العرض ، ثم يدع الحوار يكمل القصة ..
ومرة تتحول القصة الى فيلم سينمائي يبدأ بحلم وينتهي بتأويله .. مثل قصة
يوسف التي قسمت الى ٢٨ مشهدا ، يمكن لكل مشهد أن ينطوي على عديد
من التفاصيل الدقيقة الموحية .. وهناك أسلوب القطع بين المشاهد

.. وهذه النقلات السريعة الخاطفة ، التي تترك بين المشهد والمشهد مساحة تتيح للخيال أن ينطلق وينشط .. وهناك تنوع طريقة المفاجأة .. فمرة يكتم سر المفاجأة عن بطل القصة ، وعن النظارة ، حتى يكشف لهم معا في وقت واحد .. مثل قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف .. ان موسى يلتقى بواحد لا يذكر القرآن الكريم اسمه .. قيل انه الخضر ، ولكن القرآن لم يذكر اسمه .. اكتفى بوصفه بأن موسى وفتاه كانا يسيران :

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا ، وعلماها من لدنا علما » [١] .

هذه هي صورة العبد من عباد الله ، كما رسمه الله عز وجل .. تجاوز اسمه الى حقيقته ..

وأي شيء يفيد الاسم والوصف الخارجى لو جهلنا الحقيقة ..

ونسير مع موسى والعبد الرحيم العالم .. فاذا نحن أمام مفاجآت تذهلنا ..

ان هذا العبد الرحيم يخرق سفينة لمساكين يعملون فى البحر .. ويقتل غلاما صغيرا ، ويقيم على حسابه جدارا كاد يهوى ، فى قرية بخيلة ، رفضت أن تطعمه أو تأويه أو تضيفه .. أى تناقض .. لم يصبر موسى عليه ، ثم ها هو السر ينكشف ، وتبرز المفاجآت التي كانت مجهولة لنا ولموسى وفتاه ..

وأحيانا يلجأ القرآن لعكس هذا الأسلوب .. وبدلا من اخفاء السر عن قارئ القصة — بينما يعلمه البطل — نراه يخفى السر عن البطل ويعلمه للقارئ أو النظارة .. أنظر الى قصة لوط ..

ذهب اليه الملائكة الكرام ، ونحن نعرف — كقراء — أنهم ملائكة ذهبوا لانقاذه ، بينما هو يجهل هذه الحقيقة ، ولهذا ضاق بهم وكره زيارتهم ، وقال فى نفسه : هذا يوم عصيب ..

نحن نضحك — كقراء — من خشيته وتوجسه وخوفه على ضيفه .

نعلم — كقراء وجمهور — أنهم ملائكة .. هذا التقديم الفنى الخاص يكون أغلب ما يكون فى معرض السخرية .. اننا نشفق على لوط ونسخر من قومه ..

تخيل أنت — كقارئ — مشهد قومه وقد جاءوا على الخبر السعيد بوصول شباب جميل .. بينما تعلم أنت — كقارئ — أن عذابا مرعبا ينتظرهم من هؤلاء الذين يتشكلون فى أردية الشباب الجميل .

الا تسخر من قوم لوط فى نفسك أعظم السخرية ؟ .. لقد أخفى القرآن السر عنهم وعن لوط مؤقتا .. وكشفه لك أنت ..

والى جوار هذا التصوير الفنى فى قصص الأنبياء .. يجيء التعبير الفنى فى القرآن ، ريشة مبدعة لا تكاد تلمس اللوحة الحية حتى تدب الحياة فى المشهد ، ويتحرك الحدث واقعا يجرى أمام عينيك . ثم تجيء صدمة موحية .. صدمة للتطهير ، كما يقولون فى دنيا الأدب المسرحى ..

(١) الآية ٦٥ من سورة الكهف مكية .

ثم تمضى أمامك شخصيات الأنبياء فى القصص .. كل شخصية منها رسمت وأبرزت بشكل يجعل خصائص هذا النبى وتكوينه النفسى وملاحم روحه تبرز أمامك ، بشكل حى تنزوى الى جواره كل حياة ..

هذا هو نوح .. الشاكر أبدا .. الصابر أبدا .. أى حبال مدها لصبره حتى أيقضى الف سنة الا خمسين عاما يدعو قومه فلا يزيد عدد المؤمنين ، ويزيد عدد الكافرين ، ورغم ذلك يستمر .. أى جلد وصبر واحتمال؟! ..

وهذا هو موسى .. الفيور ، القوى ، المندفع ، العصبى ..

انه يمشى فى شوارع مصر فيستغيث به واحد من شيعته أثناء شجاره مع مصرى ، فيندفع موسى متدخلًا ضد المصرى :

« فوكزه موسى ففضى عليه » [١] .

اندفاع يميز شخصيته ، عليه الصلاة والسلام .. وعصبية هى جزء من تكوينه النفسى .. ها هو ذا بعد عشر سنوات يمضى فى سيناء .. يأمره الله أن يلقى عصاه .. القاهها فإذا هى حية تسعى .. لم يكذبها حتى وثب جريا ..

أمره الله تعالى الا يخاف :

« انى لا يخاف لى المرسلون » [٢] ..

مرت سنوات عليه ، وها هو يسأل ربه سؤالًا يصور اندفاعه :

« قال : رب أرنى انظر اليك » [٣] ..

ويفهمه الله تعالى ان أى أعصاب انسانية لا تحتل هذا .. أعصاب الجبل نفسه لا تصمد لنور الله ..

«قال : لى ترانى ، ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » [٤] ..

ثم ها هو يعود الى قومه فيكتشف انهم يعبدون عجلا من الذهب ..

ترك فيهم هارون .. وعاد اليهم بالواح التوراة .. لم يكذب بسمع ما حدث حتى ألقى الألواح من يده .. وأمسك هارون أخاه من رأسه ولحيته وشده اليه كاعصار لا يبصر من الغضب ..

قال هارون :

« يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، انى خشيت ان تقول : فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » [٥] ..

(١) من الآية ١٥ من سورة القصص مكية .

(٢) من الآية ١٠ من سورة النمل مكية .

(٣) من الآية ١٤٣ من سورة الاعراف مكية .

(٤) من الآية ١٤٣ من سورة الاعراف مكية .

(٥) الآية ٩٤ من سورة طه مكية ..

كان هارون أعلم منا بموسى .. ولو أن هارون تدخل فى غياب موسى فانقسم قومه تسمين .. لأخذه موسى من رأسه ولحيته وقال له : كيف فرقت بين بنى إسرائيل ولم تنتظر عودتى ..

هو اندفاع عصبى لنموذج انسانى شديد الغيرة على الله .. شديد الحب لله ..

تقابل شخصية موسى باندفاعها العاشق للحق .. شخصية ابراهيم بثباتها الراسخ ، وحبها العميق لله ، وهدوئها مع الناس ، وتسامحها مع الخلق ، وحلمها على البشر ، وانحنائها على آلام الانسان انحناءة الأب الرحيم ، وإيثارها لأمر الخالق على كل مشاعر الأبوة ، حتى ليهم الشيخ بذبح ولده ، الذى جاءه على كبر .. لأنه رأى فى المنام انه يذبحه .. ورؤيا الأنبياء حق ..

نفس راضية ، وطبع شديد الحنو ، وحلم ورحمة يشيعان فى حياته كلها ويجريان فيها مجرى الدم فى الجسد الحى .. حتى ليستحق أن يقول عنه الرحمن الرحيم :

((واتخذ الله ابراهيم خليلاً)) [١] ..

لا نريد أن نمضى فى الحديث عن أسلوب القرآن المعجز فى تقديمه لأنبياء الله ، ولا نريد أن نفيض فى الحديث عن طريقة العرض ورسم الشخصيات ..
فذلك حديث طويل .. نحسب أن الوقت قد حان لنقرأ معا قصص انبياء الله ..

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النساء مدنية .

قصة آدم

[عليه الصلاة والسلام]

انصرفت مشيئة الله تعالى الى خلق آدم ..

قال الله تبارك وتعالى للملائكة :

« انى جاعل فى الارض خليفة » [١] ..

اختلف الناس فى معنى خلافة آدم .. فمن قائل انه خليفة لجنس سبق على الارض ، وكان هذا الجنس يفسد فيها ويسفك الدماء .. ومن قائل انه كان خليفة لله تعالى ، بمعنى انه خليفة فى امضاء احكامه واوامره ، لانه اول رسول الى الارض .. وهذا ما نعتقده ..

سأل أبو ذر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن آدم :

— أنبيا كان مرسلًا ؟

قال : نعم ..

قيل : لمن كان رسولًا ولم يكن فى الارض أحد ؟

قال : كان رسولًا الى ابنائه ..

.....

يرفع ستار الخليفة على مشهد بين الله تعالى وملائكته :

قال تعالى فى سورة البقرة :

« واذا قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا :

اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك

ونقدس لك ، قال : انى أعلم ما لا تعلمون » [٢] ..

وقف المفسرون امام هذه الآيات وقفة طويلة ..

قال تفسير المنار : ان هذه الآيات من المتشابهات التى لا يمكن حملها على ظاهرها ، لأنها بحسب قانون التخاطب اما استشارة من الله تعالى ، وذلك محال عليه تعالى .. واما اخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم وجدال ، وذلك لا يليق بالله تعالى ولا بملائكته ، واقتراح صرف معنى القصة لشيء آخر ..

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية ..

(٢) الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية .

وقال تفسير الجامع لأحكام القرآن : ان الله تعالى كان قد أخبر ملائكته انه اذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء ، وحين قال تعالى :

« انى جاعل فى الأرض خليفة » [١] ..

قالوا أهذا هو الخليفة الذى حدثنا عن افساده فى الأرض وسفكه للدماء ، أم خليفة غيره ؟

وقال تفسير « فى ظلال القرآن » : ان الملائكة بفطرتهم البريئة التى لا تتصور الا الخير والنقاء ، قد حسبوا ان التسبيح بحمد الله وتقديسه هو الغاية المطلقة للوجود ، وهذه الغاية متحققة بوجودهم هم ، وسؤالهم يصور دهشتهم ، ولا يعبر عن اعتراض من أى نوع ..

.....

رأينا كيف اجتهد كل واحد من المفسرين لكشف الحقيقة .. فكشف الله لكل واحد فيهم عمقا منها .. وانما أوقع فى الحيرة عمق القرآن .. وتقديم القصة بأسلوب الحوار .. وهو أسلوب بالغ التأثير والنفوذ ..

ان الله تعالى يحكى لنا القصة بأسلوب الحوار ، وليس من الضرورى أن تكون قد وقعت بنفس هذا الأسلوب ..

الا ترى أن الله تعالى يقول فى سورة [فصلت] :

« ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا او كرها ، قالتا : ائينا طائعين » [٢] ..

هل يتصور أحد من الناس ان الله عز وجل قد خاطب السماء والأرض ، وردت عليه السماء والأرض ووقع بينهما هذا الحوار .. انما يأمر الله تعالى السماء والأرض فتطيع السماء والأرض ..

وانما صور الله ما حدث بأسلوب الحوار لتثبيتته فى الذهن ، وتأكيد معناه وايضاحه .. واستخدام هذا الأسلوب المسرحى فى قصة آدم يوحى بمعنى عميق .. وذلك أن الستار يوشك أن يرتفع عن خلق النوع الانسانى ..

نحن نتصور ان الله تعالى حين قرر خلق آدم ، حدث ملائكته من باب اعلامهم كى يسجدوا له ، لا من باب أخذ رأيهم أو استشارتهم .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .. حدثهم الله تعالى انه سيجعل فى الأرض خليفة ، وأن هذا الخليفة ستكون له ذرية وأحفاد ، وأن أحفاده وذريته سيفسدون فى الأرض ، ويسفكون فيها الدماء .. وقامت الحيرة فى نفوس الملائكة الأطهار .. انهم يسبحون بحمد الله ، ويقدمون له .. والخليفة المختار لن يكون منهم ، فما هو السر فى ذلك ، وما هى حكمة الله تبارك وتعالى فى الأمر ، لم تستمر حيرة الملائكة ، وتشوقهم الى شرف الخلافة فى الأرض ، ودهشتهم من تشريف آدم بها ، لم يستمر هذا الحوار الداخلى غير جزء من ملايين الأجزاء من الثانية .. ثم ردهم الى اليقين والتسليم قوله تعالى :

(١) من الآية ٣٠ سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ١١ مكة ..

« انى أعلم ما لا تعلمون » [١] ..

وبهذه الاشارة الى علمه المحيط ، وعلمهم القاصر ، عاد التسليم واليقين .
نستبعد وقوع الحوار بين الله تعالى وملائكته تنزيها لله ، واكبارا لملائكته ..
ونعتقد ان الحوار قام فى نفوس الملائكة لحمل شرف الخلافة فى الأرض ..
ثم أعلمهم الله تعالى ان طبيعتهم ليست مهياة لذلك ولا ميسرة له .. ان
التسبيح بحمد الله وتقديسه ، هو أشرف شىء فى الوجود ، ولكن الخلافة فى
الأرض لا تقوم بذلك وحده ، انما هى تحتاج الى طبيعة أخرى .. طبيعة تبحث
عن المعرفة وتجاوز عليها الأخطاء ..

هذه الحيرة ، أو هذه الدهشة ، أو هذا الاستشراف .. هذا الحوار الداخلى
الذى ثار فى نفوس الملائكة بعد معرفة خبر خلق آدم .. هذا كله يجوز على
الملائكة ، ولا ينقص من أقدارهم شيئا ، لأنهم ، رغم قربهم من الله ، وعبادتهم
له ، وتكريمه لهم ، لا يزيدون على كونهم عبيدا لله ، لا يشتركون معه فى علمه ،
ولا يعرفون حكمته الخافية ، وغيبه المستور ، وتدبيره فى الخفاء ، ولا يعرفون
حكيمته العليا وأسباب تحقيقها فى الأشياء ..

ولسوف تفهم الملائكة فيما بعد .. ان آدم نوع جديد من المخلوقات ، فهو
يختلف عنهم فى ان عمله لن يكون تسبيح الله وتقديسه ، ولن يكون مثل
حيوانات الأرض وكائناتها ، يقتصر وجوده على سفك الدماء والافساد فيها ..

انما سيكون آدم نوعا جديدا من المخلوقات .. وستتحقق بوجوده حكمة
عليا لا يدريها أحد غير الله ..

وتلك حكمة المعرفة ..

قال الله تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » [٢] ..

قرأها ابن عباس : « الا ليعرفون » ..

فكان المعرفة هدف النوع الانسانى وغاية وجوده .. وسوف يبين لنا الله
بأسلوب الحوار كيف كان ذلك ..

ولعل أجمل اقتراب من تفسير هذه الآيات كلمة الشيخ محمد عبده ..

« ان الحوار فى الآيات ، شأن من شأنون الله تعالى مع ملائكته .. صوره
لنا فى هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ، ونحن لا نعرف
حقيقة ذلك القول ، ولكننا نعلم انه ليس كما يكون منا نحن البشر .. » ..

أدرك الملائكة ان الله سيجعل فى الأرض خليفة ..

وأصدر الله سبحانه وتعالى أمره اليهم تفصيلا ، فقال انه سيقول بشرا
من طين ، فاذا سواه ونفخ فيه من روحه فيجب على الملائكة أن تسجد له ،

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الذاريات مكة .

والمفهوم أن هذا سجود تكريم لا سجود عبادة ، لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله وحده ..

قال تعالى فى سورة [ص] :

« اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم اجمعون . الا ابليس استكبر وكان من الكافرين » [١] .

.....

جمع الله سبحانه وتعالى قبضة من تراب الأرض ، فيها الأبيض والأسود والأصفر والأحمر ، ولهذا يجيء الناس ألوانا مختلفة .. ومزج الله تعالى التراب بالماء فصار صلصالا من حمأ مسنون .. تعفن الطين وانبعثت له رائحة .. وكان ابليس يهر عليه فيعجب أى شىء يصير هذا الطين ؟ .. من هذا الصلصال خلق الله تعالى آدم ..

سواه بيديه سبحانه .. ونفخ فيه من روحه سبحانه .. فتحرك جسد آدم ودبت فيه الحياة ..

فتح آدم عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له .. ما عدا واحدا يقف هناك ..

لم يكن آدم قد عرف أى نوع من المخلوقات هذا الذى لم يسجد له .. لم يكن يعرف اسمه .. كان ابليس يقف مع الملائكة ، ولكنه لم يكن منهم .. كان من الجن .. والغروض ، بوصفه أقل من الملائكة ، أن تنطبق عليه الأوامر التى تصدر لهم ..

.....

حكى الله تعالى قصة رفض ابليس السجود لآدم فى أكثر من سورة ..

قال تعالى فى سورة « ص » :

« قال : يا ابليس ، ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ، استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال : فاخرج منها فانك رجيم . وأن عليك لعنتى الى يوم الدين . قال : رب فانظرنى الى يوم يبعثون . قال : فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال : فبعزتك لأغوينهم اجمعين . الا عبادك منهم المخلصين » [٢] ..

كان آدم يتابع ما يحدث حوله ، ويحس بالحب والرغبة والدهشة ..

حب عميق لله الذى خلقه وكرمه وأسجد له ملائكته ..

ورغبة من غضب الخالق حين طرد ابليس من رحمته ..

(١) الآيات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ مكية ..

(٢) الآيات من ٧٥ الى ٨٣ مكية .

ودهشة من هذا المخلوق الذى يكرهه بغير ان يعرفه .. ويتصور انه افضل منه بغير ان تتاح لاحدهما فرصة لاختبار نفسه واثبات افضليته ..

ثم ما عجب ابليس وحجته .. انه يتصور ان النار افضل من الطين .. فمن اين جاءه هذا العلم ، والمفروض ان يكون هذا العلم عند الله ، فهو الذى خلق النار والطين ويعرف أيهما افضل ..

أدرك آدم من الحوار ان ابليس مخلوق يتصف باللؤم كما يتصف بالجحود ، انه يسأل الله تعالى ان يبقيه الى يوم البعث ، لا يريد ابليس ان يموت ، غير ان الله تعالى يفهمه انه سيبقى الى يوم الوقت المعلوم .. سيبقى الى ان يحين أجله فيموت ..

أدرك آدم ان الله قد لعن ابليس ، وطرده من رحمته بسببه ، أدرك ان ابليس لن ينسى له هذا الصنيع ..

انتهى الامر وعرف آدم عدوه الأبدى ..

وأدهشت آدم بعض الدهشة جرأة عدوه وحلم الله عز وجل ..

ربما قال لى قائل : لماذا استبعدت ان يكون قد جرى حوار بين الله عز وجل وملائكته .. ولجأت الى تأويل الآيات ، ولم تستبعد وقوع حوار بين الله تعالى وابليس ..

واقول ردا على ذلك ان العقل يهدى لهذه النتيجة ..

ان امكان قيام حوار بين الله تعالى وملائكته أمر مستبعد ، لان الملائكة منزهون عن الخطأ والقصور والرغبات البشرية التى تبحث عن المعرفة .. انهم بحكم خلقهم ، جند طائعون مكرمون .

أما ابليس فهو خاضع للتكليف ، وطبيعته ، بوصفه من الجن ، قريبة من طبيعة جنس آدم ..

بمعنى ان الجن يمكن ان يؤمنوا ، ويمكن ان يكفروا .. ان وجدانهم الدينى يمكن ان يسوقهم الى تصور خاطيء يسند كبرياء كاذبة .. ومن هذا الموقع وبحكم هذا التكوين ، يمكن ان ينشأ حوار .. والحوار يعنى الحرية .. ولقد كانت طبيعة البشر والجن مركبة بشكل يسمح لهم بالحرية ، أما طبيعة الملائكة فمن لون آخر ، لا تدخل الحرية فى نسيجه ..

ولقد شاهد آدم عمليا — بعد خلقه مباشرة — قدر الحرية التى يعطيها الله لخلوقاته المكلفة .. وكان وقوع هذا الدرس أمام آدم يحوى مغزى عميقا ، ان الستار يفتح على خلق النوع الانسانى بحوار يدور بين الله — جل جلاله — وعبد كافر ، ورغم ذلك يعطيه الله الحرية .. وهو فى نهاية الأمر عبد .. وكافر ..

ان ابليس رفض ان يسجد لآدم ..

كان الله تعالى يعلم انه سيرفض السجود لآدم .. سوف يعصاه .. وكان الله يستطيع ان ينسفه نسفا ، أو يحيله الى حفنة من التراب ، أو يخلق بعزته وجلاله كلمة الرفض فى فم ابليس .. غير ان الله تعالى يعطى لخلوقاته

المكلفة قدرا من الحرية لا يعطيه غيره أحد .. انه يعطيهم حرية مطلقة تصل الى حق رفض أوامره سبحانه .. انه يمنحهم حرية الانكار وحرية العصيان ، وحرية الاعتراض عليه .. سبحانه وتعالى ..

لا ينقص من ملكه أن يكفر به الكافرون ، ولا يزيد في ملكه أن يؤمن به المؤمنون ، إنما ينقص ذلك من ملك الكافرين ، أو يزيد في ملك المؤمنين .. أما هو .. فتعالى عن ذلك ..

فهم آدم أن الحرية نسيج أصيل في الوجود الذي خلقه الله .. وإن الله يمنح الحرية لعباده المكلفين .. ويرتب على ذلك جزاءه العادل ..

بعد درس الحرية ..

تعلم آدم من الله تعالى الدرس الثاني .. وهو العلم ..

كان آدم قد أدرك أن إبليس هو رمز الشر في الوجود ، كما أدرك أن الملائكة هم رمز الخير ، أما هو نفسه فلم يكن يعرف نفسه حتى هذه اللحظة .. ثم أطلع الله سبحانه وتعالى على حقيقته ، وحكمة خلقه ، وسر تكريمه ..

قال تعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها » [١] ..

أعطاه الله تعالى سر القدرة على اختصار الأشياء في رموز ومسميات .. علمه أن يسمي الأشياء : هذا عصفور ، وهذا نجم ، وهذه شجرة ، وهذه سحابة ، وهذه طائرة ، وهذا هدهد ، وهذه .. الى آخر الأسماء .. تعلم آدم الأسماء كلها ..

الأسماء هنا هي العلم .. هي المعرفة ..

هي القدرة على الرمز للأشياء بأسماء ..

غرس الله في نفس آدم معرفة لا نهاية لها ، وجبا للمعرفة لا نهاية له ، ورغبة يورثها أبناءه في التعلم .. وهذه هي الغاية من خلق آدم ، وهذا هو السر في تكريمه ..

بعد أن تعلم آدم أسماء الأشياء وخواصها ومنافعها .. بعد أن عرف علمها .. عرض الله هذه الأشياء على الملائكة فقال :

« أتنبؤوني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين » [٢] ..

[يقصد صادقين في رغبتكم في الخلافة] ..

ونظر الملائكة فيما عرض الله عليهم ، فلم يعرفوا أسماءه .. واعترفوا لله بعجزهم عن تسمية الأشياء أو استخدام الرمز في التعبير عنها ..

(١) من الآية ٣١ من سورة البقرة مدنية ..

(٢) من الآية ٣١ من سورة البقرة مدنية ..

قال الملائكة اعترافا بعجزهم :

« سبحانك [١] .. [أى نزهك ونقدسك] .. لا علم لنا الا ما علمتنا
انك أنت العليم الحكيم » [٢] [ردوا العلم كله الى الله] ..

قال الله تعالى لآدم :

« يا آدم ، أنبئهم بأسمائهم » [٣] ..

وحدثهم آدم عن كل الأشياء التى عرضها الله عليهم ، ولم يعرفوا
أسماءها ..

قال تعالى فى سورة البقرة :

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : انبئوني
بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما
علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما
أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض
وأعلم ما تدون وما كنتم تكتمون » [٤] ..

أراد الله تعالى ان يقول للملائكة انه علم ما أبدوه من الدهشة حين أخبرهم
أنه سيخلق آدم ، كما علم ما كتموه من الحيرة ، كما علم ما أخفاه ابليس من
المعصية والجحود ..

أدرك الملائكة أن آدم هو المخلوق الذى يعرف .. وهذا أشرف شىء فيه ..
قدرته على التعلم والمعرفة ..

وعرف الملائكة لماذا أمرهم الله بالسجود له .. كما فهموا السر فى أنه
سيصبح خليفة فى الأرض ، يتصرف فيها ويتحكم فيها .. بالعلم والمعرفة ..
معرفة بالخالق .. وهذا ما يطلق عليه اسم الايمان أو الاسلام ..
وعلم بأسباب استعمار الأرض وتغييرها والتحكم فيها والسيادة عليها ..
ويدخل فى هذا النطاق كل العلوم المادية على الأرض ..

ومن المعروف أن كمال الانسان لا يتحقق الا بتحصيله ما يستطيعه من
معرفة الخالق وعلوم الأرض .. فان نجح فى شىء على حساب الشىء الآخر
صار مثل طائر جبار يرف بجناح واحد ، بينما جناحه الثانى مهبط يمنعه من
التحليق ..

.....

كان آدم يعرف أسماء كل شىء ، وكان يتحدث أحسانا مع الملائكة ، لكن
الملائكة كانوا مشغولين عنه بعبادة الله تعالى ، ولهذا كان آدم يحس الوحدة

(٢٤١) من الآية ٣٢ من سورة البقرة مدنية .

(٣) من الآية ٣٣ من سورة البقرة مدنية .

(٤) الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ من سورة البقرة مدنية .

.. ونام آدم يوما فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة تحديق في وجهه بعينين جميلتين ورحيمتين .. وربما دار بينهما هذا الحوار :

قال آدم : لم تكونى هنا قبل ان انام .

قالت : نعم .

قال : جئت أثناء نومى اذن ؟

قالت : نعم .

قال : من اين جئت . . . ؟

قالت : جئت من نفسك .. خلقنى الله منك وانت نائم .. الا تريد ان تستعيدنى اليك وانت مستيقظ ؟

قال آدم : لماذا خلقك الله ؟

قالت حواء : لتسكن الى .

قال آدم : حمدا لله .. كنت احس الوحدة ..

سألته الملائكة عن اسمها .. قال ان اسمها حواء .. سألوه : لماذا سميتها حواء يا آدم ؟

قال آدم : لانها خلقت منى .. وانا انسان حى ..

كان آدم مخلوقا طبيعته قائمة ومركبة على عشيق المعرفة ، وكان ينقل معرفته لحواء ، فيحدثها عما يعرفه ولا تعرفه هى .. وأحبته حواء ..

وأصدر الله تعالى أمره لآدم بسكنى الجنة .

قال تعالى [فى سورة البقرة] :

« وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث

شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فنكونا من الظالمين » [١] ..

لا نعرف مكان هذه الجنة ..

سكت القرآن عن مكانها واختلف المفسرون فيها على خمسة وجوه . قال بعضهم : انها جنة المأوى ، وان مكانها السماء . ونفى بعضهم ذلك لانها لو كانت جنة المأوى لحرم دخولها على ابليس ولما جاز فيها وقوع عصيان ، وقال آخرون : انها جنة اخرى خلقها الله لآدم وحواء . وقال غيرهم : انها جنة من جنات الارض تقع فى مكان مرتفع .. وذهب فريق الى التسليم فى أمرها .. والتوقف . ونحن نختار هذا الرأى .. ان العبرة التى نستخلصها من مكانها لا تساوى شيئا بالقياس الى العبرة التى تستخلص مما حدث فيها ..

.....

دخل آدم وحواء الجنة . وهناك عاشا حلم الجنس البشرى كله .

(١) الآية ٣٥ من سورة البقرة مدنية .

وهناك أيضا مرا بأقصى تجربة ..

كانت حياة آدم وحواء فى الجنة هى البراءة المطلقة والقدرة التى لا تحد .
وعرف آدم معنى السعادة الداخلية العميقة حين صار مع حواء فى الجنة ..
لم يعد يحس الوحدة .. كان يتحدث مع حواء كثيرا ، ويستمتعان لغناء
الخلائق وتسبيح الانهار ، وموسيقى الوجود البكر ، قبل ان يعرف الوجود
معنى الاحزان والالام .. وكان الله قد سمح لهما بأن يقتريا من كل شئ
وان يستمتعا بكل شئ ، ماعدا شجرة واحدة لعلها شجرة الالم أو شجرة
المصرفة .

قال الله لهما قبل دخول الجنة : « ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا
من الظالمين » * [١]

وفهم آدم وحواء انهما ممنوعان من الأكل من هذه الشجرة .. غير
ان آدم انسان ، والانسان ينسى ، وقلبه يتقلب ، وعزمه يضعف .. واستغل
ابليس انسانية آدم وجمع كل حقه فى صدره ، واستغل تكوين آدم النفسى
... وراح يثير فى نفسه يوما بعد يوم . راح يوسوس اليه يوما
بعد يوم .

— هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟

تساءل آدم بينه وبين نفسه .. ماذا يحدث لو أكل من الشجرة ..
ربما تكون شجرة الخلد حقا ، وكان حلم آدم أن يخلد فى البراءة المطلقة
التى يعيش فيها فى الجنة .

ومرت الايام وادم وحواء مشغولان بالتفكير فى هذه الشجرة .. ثم
قررا يوما ان يأكلا منها .. نسيا ان الله حذرهما من الاقتراب منها . نسيا
ان ابليس عدوهما القديم .

ومد آدم يده الى الشجرة وقطف منها احدى الثمار وقدمها لحواء ..
وأكل الاثنان من الثمرة المحرمة .

قال تعالى : فى سورة طه : « وعصى آدم ربه فغوى » [٢] .

ليس صحيحا ما تذكره صحف اليهود من اغواء حواء لادم وتحميلها
مسئولية الأكل من الشجرة .. ان نص القرآن لا يذكر حواء .. انما يذكر
آدم — كمسئول عما حدث — عليه الصلاة والسلام . وهكذا أخطأ الشيطان
وأخطأ آدم بسبب الكبرياء ، احتقر أحدهما الانسان ، وأراد الآخر أن يجعل
نفسه ندا لله بالخلود .

لم يكد آدم ينتهى من الأكل حتى أحس أن صدره ينبض .. أحس الالم
والحزن والخل .. تغير الجو حوله وسكتت الموسيقى العذبة التى كانت
تنبعث من داخله .. اكتشف أنه عار ، وأن زوجته عارية .. اكتشف أنه
رجل وأنها امرأة .. وبدأ هو وزوجته يقطعان أوراق الشجر لكى يغطى

(١) الآية ٣٥ من سورة البقرة مدنية .

(٢) من الآية ١٢١ مكة .

بها كل واحد منهما جسده العارى .. وأصدر الله تبارك وتعالى أمره بالهبوط من الجنة ..

وهبط آدم وحواء الى الارض .. خرجا من الجنة . كان آدم حزيناً وكانت حواء لا تكف عن البكاء .. وكانت توبتهما صادقة فتقبل الله منهما التوبة .. واخبرهما الله ان الارض هى مكانهما الاصلى .. يعيشان فيها ، ويموتان عليها ، ويخرجان منها يوم البعث ..

قال : « فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » [١] .

حكى الله تعالى قصة الدرس الثالث الذى تعلمه آدم خلال وجوده فى الجنة وبعد خروجه منها وهبوطه الى الأرض .

قال تعالى فى سورة طه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً . واذا قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى . فقلنا : يا آدم ، ان هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وانك لا تضام فيها ولا تضحى . فوسوس اليه الشيطان قال : يا آدم ، هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟ فاكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتياه ربه فتاب عليه وهدى . قال : اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » [٢] .

يتصور بعض الناس ان خطيئة آدم بعصيانه هى التى اخرجتنا من الجنة .. ولولا هذه الخطيئة لكنا اليوم هناك .

وهذا تصور ساذج لان الله تعالى حين شاء أن يخلق آدم قال للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ولم يقل لهم انى جاعل فى الجنة خليفة ..

لم يكن هبوط آدم الى الارض هبوط اهانة وانما كان هبوط كرامة كما يقول الصوفيون . كان الله تعالى يعلم أن آدم وحواء سيأكلان من الشجرة .. ويهبطان الى الارض .. كان الله تعالى يعلم ان الشيطان سيفتصب منهما البراءة ..

وكانت هذه المعرفة شيئاً لازماً لحياتهما على الارض ..

وكانت التجربة كلها ركناً من أركان الخلافة فى الأرض .. ليعلم آدم وحواء ويعلم جنسهما من بعدهما ان الشيطان طرد الابوين من الجنة ، وان الطريق الى الجنة يمر بطاعة الله وعداء الشيطان .

هل يقال لنا ان الانسان مسير مجبور .. وان آدم كان مجبوراً سلفاً على ان يخطىء ويخرج من الجنة ويهبط الى الارض ؟

(١) الآية ٢٥ من سورة الاعراف مكية .
(٢) الآيات من ٢١٥ الى ١٢٢ مكية .

حقيقة ان هذا التصور لا يقل سذاجة عن التصور الاول .. كان آدم حرا تمام الحرية . ولهذا تحمل تبعه عمله .

عصى واكل من الشجرة فأخرجه الله من الجنة ..

معصيته لا تنافى حريته .. بل أنها تستمد وجودها الاصلى من حريته ..

كل ما فى الامر ان الله كان يعلم سلفا ما سيحدث ، يعلم الله الاشياء قبل حدوثها ، والعلم هنا نور يكشف . وليس قوة تقهر .. بمعنى أن الله يعلم ما سيحدث ، ولكنه لا يدفعه دفعا أو يقهره قهرا على الحدوث .. ان الله يعطى الحرية لعباده ومخلوقاته .

ويرتب على ذلك حكمته العليا فى تعمير الارض واقامة الخلافة فيها ..

.....

فهم آدم درسه الثالث .

فهم أن إبليس عدوه .. فهم بشكل علمى .. ان إبليس هو السبب فى فقدانه للتعميم وفى شقائه .

فهم ان الله يعاقب على المعصية . وان الطريق الى الجنة يمر بطاعة الله .

فهم ان الله يقبل التوبة ويعفو ويرحم ويجتنبى .

علمها الله تعالى أن يستغفرا قائلين :

« قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تفر لنا وترحمنا لنكونن من

الخاسرين » [١]

وقبل الله توبته وعفا عنه وأرسله الى الارض .

أول رسول لأبنائه ..

بدأت حياة آدم فى الارض ..

خرج من الجنة مهاجرا الى الارض .. واستن بذلك لابنائه واحفاده من الأنبياء سنة الخروج .

لا يكاد النبى يبدأ دعوته الى ربه حتى يضطره قومه الى الخروج .. والهجرة ..

هناك فى الجنة خرج آدم قبل نبوته ، وهنا فى الارض يخرج الأنبياء بعد نبوتهم عادة ..

عرف آدم أنه ودع السلام حين خرج من الجنة ..

هنا فى الأرض كان عليه أن يواجه شقاء وصراعا لا ينتهى أحدهما الا لبيدا الآخر وكان عليه أن يشقى ليأكل ، وكان عليه أن يحمى نفسه بالملابس والأسلحة ، ويحمى زوجته وأطفاله من الحيوانات والوحوش التى تعيش

(١) من الآية ٢٣ من سورة الاعراف مكية .

في الأرض .. وكان عليه ثبل هذا كله وبعده أن يستمر في صراعه مع روح الشر . أن الشيطان هو السبب في خروجه من الجنة .. وهو في الأرض يوسوس له ولأولاده ليدخلهم الجحيم . والمعركة بين الخير والشر لا تتوقف ، ومن يتبع هدى الله فلا خوف عليه ولا يحزن .. ومن يعص الله ، ويتبع المخلوق الناري إبليس فهو معه في النار .

فهم آدم هذا كله مع الشقاء الذي بدأت به حياته على الأرض . الشيء الوحيد الذي كان يخفف حزنه .. أنه قد جاء سلطانا عليها .. وعليه أن يخضعها ، ويستعمرها ، ويزرعها ويبنيها ويعمرها ، ويتجب فيها نسلا يكبرون ويغيرون شكل الحياة ويجعلونه أفضل ..

كانت حواء تلد في البطن الواحد ابنا وبناتا . وفي البطن التالي ابنا وبناتا . فيحل زواج ابن البطن الأول من بنت البطن الثاني ..

وكبر أبناء آدم وتزوجوا ، ومأوا الأرض نسلا .. ودعاهم آدم إلى الله تعالى ..

وقدر لآدم أن يشهد أول انحياز من أحد أبنائه لروح الشر إبليس .. وقعت أول جريمة قتل على الأرض ..

قتل أحد أبناء آدم شقيقه .

قتل الشرير أخاه الطيب .

قال تعالى في سورة المائدة : « **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر** » [٢] .

يقال أن القاتل كان يريد زوجة شقيقه لنفسه .. وأمرهما آدم أن يقدموا قربانا ، فتقدم كل واحد منهما قربانا ، فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .

« قال : لأقتلك »

قال : إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك . إني أخاف الله رب العالمين » [١] .

لاحظ كيف ينقل إلينا الله تعالى كلمات القاتل الشهيد ، ويتجاهل تماما كلمات القاتل . عاد القاتل يرفع يده مهددا ..

قال القاتل في هدوء : « **إني أريد أن تبوء بأثمي وأثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين** » [٢] .

أنتهى الحوار بينهما وانصرف الشرير وترك الطيب مؤقتا .

(١) من الآية ٢٧ مدنية .

(٢) من الآيتين ٢٧ ، ٢٨ من سورة المائدة مدنية .

بعد أيام .. كان الأخ الطيب نائما وسط غابة مشجرة .. مات في نفس الغابة حمار عجوز فأكلت النسور لحمه وشربت الأرض دمه وبقي فكه العظيى ملقى على الأرض .. حمله الشرير وتوجه نحو شقيقه النائم ، ورفع يده وأهوى بها بعنف وسرعة ..

ارتج الوجسه الطيب حين انبثق منه الدم واستيقظ ، كان يحلم وهو نائم وترتسم على شفتيه ابتسامة فغطت دماؤه بسمته .. وعاد القاتل ينهال على شقيقه حتى سكنت حركته .. أدرك القاتل ان شقيقه فارق الحياة .

جلس القاتل امام القتيل ساكنا مصفر الوجه ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه كان اول من سن القتل » ..

جلس القاتل امام شقيقه المخرج فى دمه .. ماذا يقول لابيه آدم لو سأل عنه .

لقد شاهدهما آدم يخرجان معا .. فكيف يعود وحده .. ولو أنكر امام ابيه انه قتل شقيقه .. فاين يخفى جنته .. اين يذهب بها .

كان هذا الاخ القتيل أول انسان يموت على الأرض .. ولم يكن دفن الموتى شيئا قد عرف بعد . وحمل الاخ جثة شقيقه وراح يمشى به .

مزمق الهواء صوت طائر يصرخ . أفزعته الصرخة وملأت نفسه بشؤم مجهول .. التفت القاتل فوجد غرابا حيا يصرخ فوق جثة غراب ميت . وضع الغراب الحى الغراب الميت على الأرض وساوى أجنحته الى جواره وبدأ يحفر الأرض بمنقاره ورجليه .

حتى اذا صنع لآخيه لحده وقبره .. رفعه بمنقاره ووضع برفق فى القبر ثم صرخ صرختين قصيرتين وعاد يهيل عليه التراب .. بعدها طار فى الجو وهو يصرخ .

وقف القاتل وانكأ على جثة شقيقه .. صرخ

« قال يا ويلنا .. أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاوارى سواة

أخى » [1] .

اندلع حزنه على أخيه كالنار فأحرقه الندم .

اكتشف فجأة . اكتشف أنه وهو الاسوا والاضعف ، قد قتل الأفضل والأقوى . نقص أبناء آدم واحدا .. وكسب الشيطان واحدا من أبناء آدم ..

واهتز جسد القاتل ببكاء عنيف ثم أنشعب أظافره فى الأرض وراح يحفر قبر شقيقه .

.....

قال آدم حين عرف القصة : « هذا من عمل الشيطان انه عدو

مضل مبين » [2] .

(1) من الآية ٣١ من سورة المائدة - مدنية .

(2) الآية ١٥ من سورة القصص مكية .

وحزن حزنا شديدا على خسارته فى ولديه .

مات أحدهما ، وكسب الشيطان الثانى .

صلى آدم على ابنه ، وعاد الى حياته على الارض .

انسانا يعمل ويشقى ليصنع خبزه .

ونبيا يعظ أبناءه وأحفاده ويحدثهم عن الله ويدعوهم اليه ، ويحكى لهم عن إبليس ويحذرهم منه . ويروى لهم قصته هو نفسه معه ، ويتص لهم قصته مع ابنه الذى دفعه لقتل شقيقه .

وكبر آدم .. ومرت سنوات وسنوات .. وانتشر أبناؤه فى الأرض .

وجاء على الأرض ليل .

هبّت الرياح بعنف .

وارتعشت أوراق شجرة عجوز غرسها آدم .

ومالت أغصانها على بحيرة الى جوارها ، حتى لمست الثمار مياه البحيرة .. وحين اعتدلت الشجرة بعد مرور الرياح ، راحت المياه تتساقط من بين فروعها وبنت الشجرة من البعد كما لو كان شعرها محلولاً وهى تنكفىء على الماء وتبكى .

كانت الشجرة حزينة ، وكانت أغصانها ترتعش .. وفى السماء كانت النجوم ترتعش .

وتسللت أشعة القمر الى حجرة آدم . سقطت الأشعة على وجه آدم . كان وجه آدم أكثر شحوبا ونبلا من وجه القمر .. وعرف القمر أن آدم يموت ..

الحجرة بسيطة .. حجرة آدم .

على فراش من أغصان الشجر والورود يرقد آدم بلحيته البيضاء ووجهه الطيب .. أبناؤه جميعا يقفون حوله فى انتظار وصيته .. وتحدث آدم فأنهم أبناءه أن هناك سفينة واحدة لنجاة الانسان ، وسلاحا واحدا لانتصاره ، هذه السفينة هى هدى الله ، وهذا السلاح هو كلمات الله .

طمأن آدم أبناءه بأن الله لن يترك الانسان وحده على الأرض .. انما سيرسل أنبياءه لهدايته وانقاذه .. وسيختلف الأنبياء فى الأسماء والصفات والمعجزات .. ولكنهم سيجمعون على شىء واحد : الدعوة الى عبادة الله وحده .

وتلك كانت وصية آدم لأبنائه .

انتهى آدم من وصيته ، وأغمض عينيه ، دخل الملائكة حجرته واحاطوا به وتعرف بينهم على ملك الموت .. وابتسم قلبه للسلام العميق .. وهبت على روحه رائحة أزهار الجنة .

قصة نوح [عليه الصلاة والسلام]

مرت اعوام على موت آدم ...

ما تتت الزهور حول قبره ، وهرمت الاشجار والصخور ، واضيفت اعوام الى عمر النجوم ، وتغيرت فى الأرض اشياء واشياء .

وطبقا لقانون عام زحف النسيان على وصية آدم .. عادت الخطيئة القديمة الى الظهور مرة ثانية .. خطيئة النسيان .. وان عادت بشكل يختلف هذه المرة ..

قبل أن يولد قوم نوح عاش خمسة رجال صالحين من أجداد قوم نوح ، عاشوا زمنا ثم ماتوا .. كانت أسماء الرجال الخمسة هى [ود] .. [سواع] .. [يغووث] .. [يعوق] .. [نسر] .

بعد موتهم صنع الناس لهم تماثيل فى مجال الذكرى والتكريم .. ومضى الوقت .. ومات الذين نحتوا التماثيل .. وجاء ابناؤهم .. ومات الابناء وجاء أبناء الابناء . ونسجت الاساطير الخرافية ، والميل البدائى فى عقل الانسان ، قصصا وحكايات حول التماثيل تعزو لها قوة خاصة .. واستغل ابليس شرصته وهى نمر الى جواره ، وأوهم الناس أن هذه تماثيل آلهة تملك النفع وتقدر على الضرر .. وبدأ الناس يعبدون هذه التماثيل .

لانعرف من مصادر موثوق بها ، كيف كان شكل الحياة حين بدأت عبادة الأصنام فى الأرض .. غير أننا نعرف قانونا عاما لا ينكسر أبدا ، عندما يبدأ الناس انحذارهم نحو الشرك .

فى اللحظة التى يترك الناس فيها عبادة الله الى عبادة الأصنام .. تحتضر روح الجمال فى الأرض ، ويعتلى القبح عرشه كسيد حاكم ، وينهزم الانسان من الداخل ، وينتكس العقل البشرى ، ويتبع ذلك أن يزيد ظلم الظالمين وذل المظلومين ، كما يزيد فقر الفقراء وغنى الأغنياء .. ويتحول الوجود الانسانى كله الى جحيم لا يحتمل ..

ينطبق هذا القانون دائما عندما يعبد الناس غير الله .. سواء أكان المعبود صنما من الحجارة ، أم عجلا من الذهب ، أم حاكما من الناس ، أم نظاما من الأنظمة ، أم مذهبا من المذاهب ، أم قبر ولى من الأولياء .

ذلك أن الضمان الوحيد للمساواة بين البشر يكمن فى عبوديتهم جميعا لله ، وكون الله هو خالقهم والمشرع لهم .. فماذا ضاع هذا الضمان ، وأدعى

أحد من الناس ، أو زعم أحد الأنظمة لنفسه حق الألوهية ، فقد ضاع الناس وضاعت حرياتهم تماما .

وليس ت عبادة غير الله مأساة تتمثل فى ضياع الحرية وحدها ، وإنما يمتد أثرها الخطير الى عقل الانسان فيلوثه وينكس أعلامه ويديره .

ذلك أن الله تعالى خلق الانسان ليعرف ، وجعل عقله جوهره هدفا للمعلم . . وأخطر علم هو العلم بأن الله وحده هو الخالق وما سواه عبيد .

هذه نقطة بدء لابد منها لتحقيق الخلافة بنجاح . .

وعندما يهدر العقل البشرى امكانياته ، وينصرف لغير الله ، لا يعود هناك خطأ يتوقف عنده العقل البشرى ، أو يراجع نفسه فيه . . وقد يحدث أن ينتقم الانسان ماديا بسبب أخذه بأسباب التقدم رغم عدم إيمانه ، ولكن هذا التقدم المادى الذى يخلو من معرفة الله ، يكون عذابا أعظم من أى عذاب ، لأنه ينتهى بتحطيم الانسان لنفسه . . وعندما يعبد الناس غير الله تعالى ، يزداد بؤس الحياة وفقر الناس . . هناك علاقة وثيقة بين ذل الناس وفقرهم وعدم إيمانهم بالله وعدم تقواهم .

يقول الله تعالى فى سورة الاعراف :

« ولو ان أهل القرى آمنوا وانفقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » [١]

وهكذا يؤدى الكفر بالله أو الشرك به الى ذهاب الحرية ، وتحطيم العقل ، وزيادة الفقر ، وظل الحياة من هدف نبيل . . وفى هذا الجو أظهر الله تعالى نوحا وبعثه برسالته الى قومه .

كان نوح هو العقل الوحيد الطافى فوق دوامات الخراب الجماعى الهائل المثل فى عبادة غير الله .

اختار الله عبده نوحا وأرسله الى قومه .

كان نوح بمقياس الفكر ثورة فكرية . . وكان بمقياس النبيل والنقاء جسدا لهما ، وكان بمقياس الذكاء قمة شامخة .

بايجاز . . كان نوح بمقياس العظمة أعظم انسان فى عصره . . لم يكن ملكا فى قومه ، ولا رئيسا عليهم ، ولا أغنى واحد فيهم ، نعلم الآن أن العظمة تختلف عن الملك والغنى والرئاسة . . يجمع هذا المثلث داخل أضلاعه — عادة — أغلبية من النفوس الخسيسة . إنما توجد العظمة فى نقاء القلب ، وطهارة الضمير ، وقيمة الأفكار التى يحملها العقل ، وقدرة هذا العقل على تغيير الحياة حوله . . وكان نوح هذا كله وأكثر

كان نوح هو الانسان الذى يذكر جيدا عهد الله لادم وأبنائه حين خلقهم فى عالم الذر . . كان على الفطرة مؤمنا بالله تعالى . . قبل بعثته الى الناس ، وكل الأنبياء مؤمنون بالله تعالى قبل بعثتهم .

(١) من الآية ٩٦ مكة . .

سيهم من يبحث عن الله تعالى كإبراهيم . وفيهم من يؤمن به في أعماقه
كموسى . . وفيهم من يتعبد له ويخلو في غار حراء كمحمد . . عليهم الصلاة
والسلام . . وهناك سبب آخر لعظمة نوح . . كان إذا استيقظ أو نام أو شرب
أو أكل أو لبس ملابسه أو خرج أو دخل . . يشكر الله ويحمده ، ويذكر نعمته
عليه ، ويعاود الشكر ، ولهذا قال الله تعالى عن نوح :

« انه كان عبدا شكورا » . [١]

اختار الله عبده الشاكر وارسله نبيا الى قومه . وخرج نوح على قومه
وبدا دعوته :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره . . انى اخاف عليكم عذاب
يوم عظيم » . [٢]

بهذه الجملة الموجزة وضع نوح قومه أمام حقيقة الألوهية . . وحقيقة
البعث . . هناك اله خالق هو وحده الذى يستحق العبادة . . وهناك موت
ثم بعث ثم يوم للقيامة . . يوم عظيم ، فيه عذاب يوم عظيم .

شرح « نوح » لقومه أنه يستحيل أن يكون هناك غير اله واحد هو الخالق
. . أفهمهم أن الشيطان قد خدعهم زمنا طويلا ، وأن الوقت قد جاء ليتوقف
هذا الخداع ، حدثهم نوح عن تكريم الله للإنسان . . كيف خلقه ، ومنحه
الرزق وأعطاه نعمة العقل ، وليست عبادة الأصنام غير ظلم خائق للعقل .

واستمع الناس اليه في صمت . . كان كلامه صدمة لركودهم . . مثلما
تجىء الى انسان نائم تحت جدار يتهيا للسقوط . . وتهزه فجأة لتوقظه ، ربما
فزع هذا الانسان ، وغضب رغم أنك تهدف الى انقاذه .

كانت روح الشر الموجودة فى الأرض تسمع هى الأخرى وتحس
بالخوف . . ان عرش الكراهية مهدد بهذا الحب الذى يحمله كلام النبى . .

تحرك قوم نوح فى اتجاهين بعد دعوته . . لمست الدعوة قلوب الضعفاء
والفقراء والبؤساء ، وانحنت على جراحهم وآلامهم بالرحمة . . أما الأغنياء
والأقوياء . . والكبراء . . والحكام ، فقد تأملوا الدعوة بعين الشك البارد . .
ولما كانوا يستفيدون من بقاء الأوضاع على ما هى عليه . . فقد بدأوا حربهم
ضد « نوح » . .

فى البداية . . اتهموا نوحا بأنه بشر مثلهم . .

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك الا بشرا مثلنا » [٣] .

قال تفسير القرطبي :

الملأ الذين كفروا من قومه هم الرؤساء الذين كانوا فى قومه .
يسمون الملأ لأنهم مليونون بما يقولون .

(١) من الآية ٣ من سورة الاسراء مكية .
(٢) من الآية ٥٩ من سورة الاعراف مدنية .
(٣) من الآية ٢٧ من سورة هود . . مكية .

قال هؤلاء الملائكة لنعوذ بالله منك يا نوح .

رغم أن نوحا لم يقل غير ذلك ، وأكد أنه مجرد بشر .. والله يرسل الى الأرض رسولا من البشر ، لأن الأرض يسكنها البشر ، ولو كانت الأرض تسكنها الملائكة لأرسل الله رسولا من الملائكة ..

استمرت الحرب بين الكافرين ونوح ..

في البداية ، تصور النظام الحاكم يومها أن دعوة نوح لا تلبث أن تنطفئ وحدها ، فلما وجدوا الدعوة تجتذب الفقراء والضعفاء وأهل الصناعات البسيطة بدأوا الهجوم على نوح من هذه الناحية .

هاجموه في أتباعه ، وقالوا له : لم يتبعك غير الفقراء والضعفاء والأراذل .

قال تعالى في سورة هود :

((ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين . ان لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم . فقال الملائكة الذين كفروا من قومه : ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين)) [١] .

هكذا اندلع الصراع بين نوح ورؤساء قومه .

ولجأ الذين كفروا الى المساومة .. قالوا لنوح :

— اسمع يا نوح .. اذا أردت ان تؤمن لك فاطرد الذين آمنوا بك . انهم ضعفاء وفقراء ، ونحن سادة القوم وأغنياؤهم .. ويستحيل ان تضمننا دعوة واحدة مع هؤلاء .

واستمع « نوح » الى كفار قومه وأدرك أنهم يعاندون ، ورغم ذلك كان طيبا في رده .. أفهم قومه أنه لا يستطيع ان يطرد المؤمنين ، لانهم أولا ليسوا ضيوفه ، انما هم ضيوف الله .. وليست الرحمة بيته الذى يدخل فيه من يشاء أو يطرد منه من يشاء ، انما الرحمة بيت الله الذى يستقبل فيه من يشاء .

قال تعالى في سورة هود :

((قال : يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنزلكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقوا ربهم ، ولكنى اراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون . ولا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : انى ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم : لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذا لن الظالمين)) [٢] .

.....

(١) الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ مكية .

(٢) الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ مكية .

كان نوح يناقش كل حجج الكافرين بمنطق الأنبياء الكريم الوجيه .
وهو منطق الفكر الذى يجرد نفسه من الكبرياء الشخصى وهوى
المصالح الخاصة ..

قال لهم ان الله قد آتاه الرسالة والنبوة والرحمة . ولم يروا هم ما آتاه
الله ، وهو بالتالى لا يجبرهم على الايمان برسالته وهم كارهون ، ان كلمة
لا اله الا الله لا تفرض على أحد من البشر . . أفهمهم أنه لا يطلب منهم مقابلا
لدعوته ، لا يطلب منهم مالا فيثقل عليهم ، ان أجره على الله ، هو الذى يعطيه
ثوابه ، أفهمهم أنه لا يستطيع ان يطرد الذين آمنوا بالله ، ان له حدوده
كئبى . وحدوده لا تعطيه حق طرد المؤمنين لسببين أنهم سيلقون الله مؤمنين
به ، فكيف يطرد مؤمنا بالله ، ثم انه لو طردهم لخاصموه عند الله ، وهذا
يستتبع أن يثيبهم الله على ايمانهم ، ويجازى من طردهم ، فمن الذى ينصر
نوحا من الله لو طردهم . وهكذا أنتهى نوح الى أن مطالبه قومه له بطرد
المؤمنين جهل منهم . . وعاد نوح يقول لهم انه لا يدعى لنفسه أكثر مما له
من حق ، وأخبرهم بتذللته وتواضعه لله عز وجل ، فهو لا يدعى لنفسه
ما ليس له من خزائن الله ، وهى انعامه على من يشاء من عباده ، وهو لا يعلم
الغيب ، لأن الغيب علم اختص الله تعالى وحده به . . أخبرهم أيضا انه ليس
ملكا . . بمعنى أن منزلته ليست كمنزلة الملائكة . . وقد استدل بعض
العلماء من هذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء [أنظر تفسير القرطبي]
قال لهم نوح : ان الذين تزدري أعينكم وتحترق وتستهتقل . . ان هؤلاء
المؤمنين الذين تحترقونهم لن تبطل أجورهم وتضيع لاحتقاركم لهم ، الله أعلم
بما فى أنفسهم . . هو الذى يجازيهم عليه ويؤاخذهم به . . أظلم نفسى لو
قلت ان الله لن يؤتيهم خيرا . .

وسئم النظام الحاكم يومها من هذا الجدل الذى يجادله نوح . .

حكى الله موقفهم منه فى سورة هود :

**قالوا : يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من
الصادقين . قال : انما ياتىكم به الله ان شاء ، وما أنتم بمعجزين .
ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ، ان كان الله يريد ان يغويكم .
هو ربكم واليه ترجعون » [١] .**

أضاف نوح اغواءهم الى الله تعالى . . تسليما بأن الله هو الفاعل فى كل
حال . . غير أنهم استحقوا الضلال بموقفهم الاختيارى وملء حريتهم وكامل
ارادتهم . . وقدبها قال إبليس عليه لعنة الله :
« فبما أغويتنى » [٢] .

وينصرف معنى العبارة الظاهرى الى أن الله تعالى هو الذى اغواه . .
والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أعطاه حريته ثم حاسبه عليها ، ونحن لا نرى
راى القدرية والمعتزلة والامامية ، أنهم يرون أن ارادة الانسان كافية فى
صدور أفعاله منه . . طاعة كانت أو معصية ، لأن الانسان عندهم خالق
لأفعاله ، فهو غير محتاج فى صدورها عنه الى ربه .

(١) الآيات ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤ . . مكية . . (٢) من الآية ١٦ من سورة الاعراف مكية . .

لا نرى رأيهم هذا باطلته .. انما نرى أن الانسان صانع لأفعاله ولكنه محتاج في صدورهما عنه الى ربه .. بهذه النظرة يستقيم معنى مسألة الانسان عن أفعاله .

كل ما في الأمر أن الله ييسر كل مخلوق لما خلق له .. سواء اكان التيسير الى الخير أو الى الشر .. وهذا من تمام الحرية وكمالها .

يختار الانسان بحريته فييسر له الله تعالى طريق ما اختاره .

اختار ابليس طريق الغواية فييسر الله له طريق الغواية .

واختار كنفار قوم نوح نفس الطريق فييسره الله لهم .

وتستمر المعركة . وتطول المناقشة بين الكافرين من قوم نوح وبينه حتى اذا انهارت كل حجج الكافرين ولم يعد لديهم ما يقال ، بدأوا يخرجون عن حدود الأدب ويشتمون نبي الله .

« قال الملأ من قومه : انا لنراك في ضلال مبين » [١] .

ورد عليهم نوح بأدب الانبياء العظيم :

« قال يا قوم : ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، واعلم من الله ما لا تعلمون » [٢] .

ويستمر نوح في دعوة قومه الى الله .. ساعة بعد ساعة .. ويوما بعد يوم .. وعاما بعد عام .. ومرت الاعوام ونوح يدعو قومه .. كان يدعوهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهرا ، يضرب لهم الامثال . ويشرح لهم الآيات ويبين لهم قدرة الله في الكائنات ، وكلما دعاهم الى الله فروا منه ، وكلما دعاهم ليغفر الله لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا عن سماع الحق .

حكى الله تعالى ما لقيه نوح في سورة نوح :

« قال : رب انى دعوت قومي ليلا ونهارا ، فلم يزدتهم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم انى دعوتهم جهارا . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا . فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » [٣] .

ماذا كان جواب قومه بعد هذا كله ؟

« قال نوح : رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزدده ماله وولده الا خسارا . ومكروا مكرا كبيرا . وقالوا : لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين الا ضلالا » [٤] .

(١) الآية ٦٠ من سورة الاعراف مكية .. (٢) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الاعراف مكية ..

(٣) الآيات من ٥ الى ١٢ مكية ..

(٤) الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ من سورة نوح .. مكية .

واستمر نوح يدعو قومه الى الله ألف سنة الا خمسين عاما . قال تعالى
فى سورة العنكبوت :

**« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين
عاما » [١] .**

وكان يلاحظ أن عدد المؤمنين لا يزيد ، بينما يزيد عدد الكافرين . وحزن
نوح غير أنه لم يفقد الأمل ، وظل يدعو قومه ويجادلهم ، وظل قومه على
الكبرياء والكفر والتبجح .

وحزن نوح على قومه .. لكنه لم يبلغ درجة اليأس .. ظل محتفظا
بالأمل طوال ٩٥٠ سنة .. ويبدو أن أعمار الناس قبل الطوفان كانت طويلة ،
وربما يكون هذا العمر الطويل لنوح معجزة خاصة له .. وجاء يوم أوحى الله
اليه .. أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن .

أوحى الله اليه الا يحزن عليهم . ساعتها دعا نوح على الكافرين بالهلاك .

قال : **« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » [٢] .**

برر نوح دعوته بقوله :

« انك ان نذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » [٣] .

قال تعالى فى سورة هود :

**« واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبئس
بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى
الذين ظلموا انهم مفرقون » [٤] .**

.....

انتهى الأمر واصدر الله تعالى حكمه على الكافرين بالطوفان ..

أخبر الله تعالى عبده نوحا أنه سيصنع هذه السفينة **« باعيننا ووحينا »**
أى يعلم الله وتعليمه ، وعلى مرأى منه وطبقا لتوجيهاته ومساعدة الملائكة ..

اصدر الله تعالى أمره الى نوح :

ولا تخاطبني فى الذين ظلموا .. انهم مفرقون » [٥] .

يفرق الله الذين ظلموا مهما كانت أهميتهم أو قرابتهم للنبي ، وينهى الله نبيه
أن يخاطبه أو يتوسط لهم .

وبدا نوح يفرس الشجر ويزرعه ليصنع منه السفينة .

انتظر سنوات ، ثم قطع ما زرعه ، وبدأ نجارته .

كانت سفينة عظيمة الطول والارتفاع والمتانة ، وقد اختلف المفسرون فى

(١) من الآية ١٤ من سورة العنكبوت مكية ..

(٢) من الآية ٢٦ من سورة نوح مكية .. (٣) الآية ٢٧ من سورة نوح مكية ..

(٤) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ مكية .. (٥) من الآية ٣٧ من سورة هود مكية ..

حجمها ، وهيئتها ، وعدد طبقاتها ، ومدة عملها ، والمكان الذى عملت فيه ، ومقدار طولها ، وعرضها ، على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء .

وقال الفخر الرازى فى هذا كله : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبني ، لأنها أمور لا حاجة الى معرفتها البتة . ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا .

رحم الله الفخر الرازى ..

أصاب الحق بكلمته ..

لا نعرف عن حقيقة هذه السفينة إلا ما حدثنا الله به . لا نعرف مثلا أين عملت ، ولا كم كان طولها أو عرضها ، ولا نعرف بالقطع غير أسم المكان الذى ذهبت إليه بعد رسوها .

ان الآثار المادية قد سكنت تماما عنها ، ولا ريب أن أخشاب السفينة قد تحللت ، لأن الطوفان وقع من زمن سحيق .. وكل خبط فيها لا يفيد ولا حاجة لمعرفته .

تجاوز الله تعالى هذه التفصيلات التى لا أهمية لها ، الى مضمون القصة ومغزاها الهام ..

بدأ نوح بينى السفينة ..

ويهر عليه الكفار فيرونه منهكما فى صنع السفينة .. والجفاف سائد ..

وليست هناك انهار قريبة أو بحار .. كيف ستجرى هذه السفينة اذن يا نوح ؟ .. هل ستجرى على الأرض .. أين الماء الذى يمكن ان تسبح فيه سفينتك ؟ لقد جن نوح .

وترتفع ضحكات الكافرين وتزداد سخريتهم من نوح ..

ان قمة الصراع فى قصة نوح تتجلى فى هذه المساحة الزمنية .. ان الباطل يسخر من الحق .. يضحك عليه طويلا ، ويسخر منه طويلا ، متصورا أن الدنيا ملكه ، وأن الأمن نصيبه ، وأن العذاب غير واقع .. غير أن هذا كله مؤقت بارتفاع الستار على الطوفان . عندئذ يسخر المؤمنون من الكافرين ، وتكون سخريتهم هى الحق .

قال تعالى فى سورة هود :

« ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » [١] .

انتهى صنع السفينة .

وجلس نوح ينتظر أمر الله .

أوحى الله الى نوح أنه اذا فار التور كان هذا علامة على بدء الطوفان .

(١) الايتان ٣٨ ، ٣٩ .. مكية ..

قيل فى تفسير التنور انه الفرن الكائن فى بيت نوح ، اذا خرج منه الماء وفار كان هذا أمرا لنوح بالحركة ..

وجاء اليوم الرهيب ..

فار التنور فى بيت نوح ..

وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به ..

وهبط جبريل عليه السلام الى الأرض .. حمل الى نوح فى السفينة من كل حيوان وطيء ووحش زوجين اثنين .. بقرة وثورا . فيلا وفيلة . عصفورا وعصفورة .. نمرا ونمرة .. الى آخر المخلوقات .

كان نوح قد صنع أقباسا للوحوش وهو يصنع السفينة .. وساق جبريل عليه السلام أمامه من كل زوجين اثنين ، لضمان بقاء نوع الحيوان والطيء على الأرض ، وهذا معناه ان الطوفان أغرق الأرض كلها ، فلولا ذلك ماكان هناك معنى لحمل هذه الأنواع من الحيوان والطيء .

وبدا صعود السفينة .

صعدت الحيوانات والوحوش والطيور ، وصعد من آمن بنوح ..

وكان عدد المؤمنين قليلا ..

قال تعالى فى سورة هود :

« حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل » [١] .

لم تكن زوجة نوح مؤمنة به فلم تصعد .. وكان احد أبنائه يخفى كفره ويبدى الايمان أمام نوح .. فلم يصعد هو الآخر .. وكانت أغلبية الناس غير مؤمنة هى الأخرى .. فلم تصعد .. وصعد المؤمنون ..

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : آمن من قوم نوح ثمانون انسانا ..

.....

ارتفعت المياه من فتحات الأرض .. لم تبق هناك فتحة فى الأرض الا خرج منها الماء .. انهمرت من السماء أمطار غزيرة بكميات لم تر مثلها الأرض قبلها ، ولن ترى بعدها .. وراحت المياه تسقط من السماء وتخرج من فتحات الأرض ، وترتفع ساعة بعد ساعة .. فتدت البحار هدوءها ، وانفجرت أمواجهما تجور على اليابسة ، وتكتسح الأرض .. كان باطن الأرض يتحرك حركة غير عادية .. ارتفعت قيعان المحيطات ارتفاعات مفاجئة ، واندمج موج البحار يكتسح أمامه الجزء اليابس من الأرض ..

وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى فى المياه ..

كانت أثناء الطوفان هى الكرة المائية .. لم تعد كرة أرضية ..

(١) الآية ٤٠ .. محية ..

قال تعالى فى سورة القمر :

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى
الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر .. » [١].

ارتفعت المياه أعلى من الناس .. تجاوزت قمم الأشجار ، وقمم الجبال ،
وغطت سطح الأرض كله .. وفى بداية الطوفان نادى نوح ابنه ..

كان ابنه يقف بمعزل عنه .. ناداه قائلاً :

« يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » [٢] .

ورد الابن على نداء أبيه :

« قال : سأوى الى جبل يعصمنى من الماء » [٣] .

عاد نوح يخاطبه :

« قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » [٤] .

وانتهى الحوار بين نوح وابنه ..

« وحال بينهما الموج فكان من المفرقين » [٥] .

انظر الى تعبير القرآن الكريم : « وحال بينهما الموج » [٦] .. أنهى الموج
حوارهما فجأة .. نظر نوح فلم يجد ابنه .. لم يجد غير جبال الموج التى
ترتفع وترفع معها السفينة ، وتفقدتها رؤية كل شئ غير المياه .. وثأعت
رحمة الله أن يغرق الابن بعيداً عن عين الأب ، رحمة منه بالأب ، واعتقد نوح
أن ابنه المؤمن تصور أن الجبل سيعصمه من الماء .. فغرق ..

.....

واستمر الطوفان ..

استمر يحمل سفينة نوح ..

بعد ساعات من بدايته ، كانت كل عين تطرف على الأرض قد هلكت غرقاً
.. لم يعد باقياً من الحياة والأحياء غير هذا الجزء الخشبى من سفينة نوح ،
وهو ينطوى على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض ..

وانواع الحيوانات والطيور التى اختيرت بعناية . .

ومن الصعب اليوم أن نتصور هول الطوفان أو عظمتة .. كان شيئاً
مروعاً يدل على قدرة الخالق .. كانت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال
.. ويعتقد بعض العلماء اليوم ان انفصال القارات وتشكل الأرض فى
صورتها الحالية ، قد وقع نتيجة طوفان قديم جبار .. ثارت فيه المياه ثورة

(١) الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ مكية .

(٢) من الآية ٤٢ من سورة هود .. مكية .. (٣) من الآية ٤٣ مكية من سورة هود ..

(٤) من الآية ٤٣ من سورة هود .. مكية ..

(٥) من الآية ٤٣ من سورة هود مكية .. (٦) نفس الآية ..

غير مفهومة .. حتى غطت سطح الجزء اليابس من الأرض .. وارتفعت فيه
قيعان المحيطات ، ووقع فيه ما نستطيع تسميته بالثورة الجغرافية .

استمر طوفان نوح زمنا لا نعرف مقداره .. ثم صدر الأمر الالهي الى
السماء أن تكف عن البكاء .. والى الأرض أن تستقر وتبتلع الماء .. والى
أخشاب السفينة أن ترسو على الجودي .. وهو اسم مكان قديم ، يقال أنه
جبل فى العراق .

وبصدور الأمر الالهي ، عاد الهدوء الى الأرض .. وانحسرت المياه عنها ،
وعاد الجزء اليابس فيها يلمع تحت أشعة الشمس ..

طهر الطوفان الأرض وغسلها ..

قال تعالى فى سورة هود :

« وقيل : يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء اقلعى ، وغيض الماء
وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل : بعدا للقوم
الظالمين » [١] .

« غيض الماء » بمعنى نقص الماء وانصرف عائدا الى فتحات الأرض ..

« وقضى الأمر » بمعنى انه أحكم وفرغ منه ، يعنى هلك الكافرون من قوم
نوح تماما ..

ويقال ان الله أعظم أرحامهم أربعين سنة قبل الطوفان ، فلم يكن فيمن هلك
طفل أو صغير ..

« واستوت على الجودي » بمعنى رست عليه ، وقيل كان ذلك يوم
عاشوراء .. فصامه نوح ، وأمر من معه بصيامه ..

« وقيل بعدا للقوم الظالمين » أى هلاكاً لهم .. طهر الطوفان الأرض منهم
وغسلها ..

ذهب الهول بذهاب الطوفان ..

وانتقل الصراع من الموج الى نفس نوح ..

تذكر ابنه الذى غرق ..

لم يكن نوح يعرف حتى هذه اللحظة ان ابنه كافر .. كان يتصور انه مؤمن
عنيد ، أثر النجاة باللجوء الى جبل .. وكان الموج قد أنهى حوارهما قبل أن
يتم .. فلم يعرف نوح حظ ابنه من الايمان .

تحركت فى قلب الاب عواطف الأبوة ..

قال تعالى فى سورة هود :

« ونادى نوح ربه فقال : رب ان ابني من أهلى ، وان وعدك الحق ،
وأنت احكم الحاكمين » [٢] .

(١) الآية ٤٤ من سورة هود .. مكة ..

(٢) الآية ٤٥ من سورة هود مكة ..

أراد نوح أن يقول لله ان ابنه من أهله المؤمنين .. وقد وعده الله بنجاة أهله المؤمنين ..

قال الله سبحانه وتعالى ، مطلقا نوحا على حقيقة ابنه للمرة الاولى :

« يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين » [١] .

قال القرطبي — نقلا عن شيوخته من العلماء — وهو الراى الذى نؤثره :

[كان ابنه عنده — أى نوح — مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه « ان ابنى من أهلى » [٢] .. الا وذلك عنده كذلك ، اذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى انجاء بعضهم .. وكان ابنه يسر الكفر ويظهر الايمان ..

فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب .. أى علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت .

وكان الله حين يعظه أن يكون من الجاهلين ، يريد أن يبرئه من تصور أن يكون ابنه مؤمنا .. ثم يهلك مع الكافرين ..

وثمة درس هام تنطوى عليه الآيات الكريمة التى تحكى قصة نوح وابنه ..

أراد الله سبحانه وتعالى أن يقول لنبيه الكريم ان ابنه ليس من أهله .

لأنه لم يؤمن بالله .. وليس الدم هو الصلة الحقيقية بين الناس ..

ابن النبى هو ابنه فى العقيدة .. هو من يتبع الله والنبى .. وليس ابنه من يكفر به ولو كان من صلبه ..

هنا ينبغى أن يتبرا المؤمن من غير المؤمن ..

وهنا أيضا ينبغى أن تتصل بين المؤمنين صلوات العقيدة فحسب ..

لا اعتبارات الدم أو الجنس أو اللون أو الأرض ..

واستغفر نوح ربه وتاب اليه .. ورحمه الله وأمره أن يهبط من السفينة محاطا ببركة الله ورعايته ..

« قال : رب ، انى أعوذ بك أن أسالك ما ليس لى به علم ، والا تففر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » [٣] .

قييل : يا نوح ، اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » [٣] .

.....

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود مكية ..
(٢) من الآية ٤٥ من سورة هود مكية ..
(٣) من الآية ٤٨ من سورة هود مكية .

وهبط نوح من سفينته ..
أطلق سراح الطيور والوحوش فتفرقت فى الأرض
نزل المؤمنون بعد ذلك ..
وضع نوح جبهته على الأرض وسجد .
لم تزل الأرض مبللة من أثر الطوفان .
نهض نوح بعد صلاته وحفر الأساس لبناء معبد عظيم لله ..
أشعل الناجون النار وجلسوا حولها .. كان اشعال النار ممنوعا فى
السفينة ، حتى لا تمتد النار الى أخشابها فتحترق ..
ولم يكن أحدهم قد أكل طعاما ساخنا طوال مدة الطوفان .
ومر يوم صيام الشكر لله ..
.....
ويسدل القرآن الكريم الستار على قصة نوح بعد الطوفان
لا ندرى ماذا كان من أمره مع قومه .
كل ما ندرىه ، أو نستطيع أن نؤكدده ، أن نوحا أوصى أبناؤه وهو يموت
أن يعبدوا الله وحده ..
ومضى نوح إلى الرفيق الأعلى ..

قصة هود

[عليه الصلاة والسلام]

مضى قوم نوح في التاريخ ..

الأكثرون المكذبون انطبقت عليهم صفحات الطوفان .. استبعدوا من الحياة ، ومن رحمة الله ، ومن حساب الناس واهتمامهم على السواء والناجون — وهم أقلية — استخلفوا في الأرض ، تحقيقا لسنة الله ووعده .. « **والعاقبة للمتقين** » [١] .

ولقد كان وعد الله لنوح :

« **يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب أليم** » [٢] .

.....

دارت عجلة الزمن .. وجاء وعد الله ..

بعد الطوفان لم يكن على الأرض من البشر غير المؤمنين .. لم يكن هناك قلب واحد كافر في الأرض .. وبدأ الشيطان يشكو من البطالة

ومرت سنوات وسنوات .. مات الآباء والأبناء ، وجاء أبناء الأبناء .. نسي الناس وصية نوح ، وعادت عبادة الأصنام .. انحرف الناس عن عبادة الله وحده ، وتم الأمر بنفس الخدعة القديمة .. قال أحفاد قوم نوح : لا نريد أن ننسى آباءنا الذين نجاهم الله من الطوفان .. وصنعوا للناجين تماثيل ليذكروهم بها ، وتطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل ، فإذا الأمر ينقلب الى العبادة ، وإذا بالتماثيل تتحول بفضل الشيطان الى آلهة مع الله .. وعادت الأرض تشكو من الظلام مرة ثانية .. وأرسل الله « **سيدنا هودا** » الى قومه ..

يرتفع الستار عن قصته بعد بعثته بالرسالة الى الناس .

كان « **هود** » من قبيلة اسمها « **عاد** » وكانت هذه القبيلة تسكن مكانا يسمى الأحقاف .. وهو صحراء تمتلئ بجبال الرمل المائلة .. وتطل على البحر .. أما مساكنهم فكانت خياما كبيرة لها أعمدة شديدة الضخامة والارتفاع ، وكان قوم عاد أعظم أهل زمانهم في قوة الأجسام ، والطول ،

(١) من الآية ٨٣ من سورة القصص مكية

(٢) الآية ٤٨ من سورة هود مكية .

والشدة .. كانوا عمالقة وأقوياء ، الى الدرجة التى قالوا فيها ، كما حكى الله عنهم :

« وقالوا : من أشد منا قوة » [١] .

لم يكن فى زمانهم أحد فى قوتهم .. ورغم ضخامة أجسامهم ، كانت لهم عقول مظلمة .. كانوا يعبدون الأصنام ، ويدافعون عنها ، ويحاربون من أجلها ، ويتهمون نبيهم ويسسخرون منه .. وكان المفروض ، ما داموا قد اعترفوا أنهم أشد الناس قوة .. أن يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة .. غير أنهم كانوا لا يبصرون غير كبريائهم الكافرة .

قال لهم هود :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » [٢] .

نفس الكلمة التى يقولها كل رسول .. لا تتغير ولا تنقص ولا تتردد ولا تخاف ولا تتراجع .. كلمة واحدة هى الشجاعة كلها ، وهى الحق وحده .. وسأله قومه : هل تريد أن تكون سيديا علينا بدعوتك .. وأى أجر تريده ؟

أفهمهم هود أن أجره على الله ، انه لا يريد منهم شيئا غير أن يفسلوا عقولهم فى نور الحقيقة .. حدثهم عن نعمة الله عليهم ، كيف جعلهم خلفاء من بعد نوح ، كيف أعطاهم بسطة فى الجسم ، وشدة فى البأس .. كيف أسكنهم الأرض التى تمنح الخير والزرع .. كيف أرسل عليهم المطر الذى يحيى به الأرض .. وتلفت قوم هود حولهم فوجدوا أنهم أقوى من على الأرض ، وأصابتهم الكبرياء وزادوا فى العناد .

قالوا لهود : كيف تتهم آلهتنا التى وجدنا آباءنا يعبدونها ؟

قال هود : كان آباؤكم مخطئين .

قال قوم هود : هل تقول يا هود أننا بعد أن نموت ونصبح ترابا يتطاير فى الهواء .. سنعود الى الحياة ؟

قال هود : ستعودون يوم القيامة ، ويسأل الله كل واحد فيكم عما فعل .

انفجرت الضحكات بعد هذه الجملة الأخيرة ..

ما أغرب ادعاء هود .. هكذا تهامس الكافرون من قومه .. ان الانسان يموت ، فاذا مات تحلل جسده ، فاذا تحلل جسده تحول الى تراب ، ثم يهب الهواء ويتطاير التراب .. كيف يعود هذا كله الى أصله ..

ثم ما معنى وجود يوم للقيامة ... ؟

لماذا يقوم الأموات من موتهم ... ؟

استقبل هود كل هذه الأسئلة بصبر كريم .. ثم بدأ يحدث قومه عن يوم القيامة .. أنهمهم أن ايمان الناس بالآخرة ضرورة تتصل بعبد الله ،

(١) من الآية ١٥ من سورة فصلت مكية ..

(٢) من الآية ٥٠ من سورة هود مكية .

مثلها هي ضرورة تتصل بحياة الناس .. قال لهم ما يقوله كل نبي عن يوم
القيامة ..

ان حكمة الخالق المدبر لا تكتمل بمجرد بدء الخلق ، ثم انتهاء حياة
المخلوقين في هذه الأرض .. لا يسدل الستار بعدها .. هذا هو الفصل
الأول من الامتحان ..

والامتحان لا ينتهى بتسليم أوراق الاجابة .. لابد من تصحيح هذه
الأوراق ، واعطاء درجات ، وبيان الناجحين والراسبين .. وليست تصرفات
الناس في الدنيا واحدة ، هناك من يظلم ، وهناك من يقتل ، وهناك من
يعتدى .. وكثيرا ما نرى الظالمين يذهبون بغير عقاب ، كثيرا ما نرى المعتدين
يتمتعون في الحياة بالاحترام والسلطة .. أين تذهب شكاة المظلومين ، وأين
يذهب ألم المضطهدين .. هل يدفن معهم في التراب بعد الموت .

ان العدالة تقتضى وجود يوم للقيامة

ان الخير لا ينتصر دائما في الحياة .. أحيانا ينظم الشر جيوشه ويقتل
حملة الخير ..

هل تذهب هذه الجريمة بغير عقاب ؟

ان ظلما عظيما يتأكد لو افترضنا ان يوم القيامة لن يجرى .. ولقد حرم
الله تعالى الظلم على نفسه وجعله محرما بين عباده .. ومن تمام عدل الله
وجود يوم للقيامة والحساب والجزاء ..

ذلك ان يوم القيامة .. هو اليوم الذى تعاد فيه جميع القضايا مرة أخرى
إمام الخالق ، ويعاد نظرها مرة ثانية .. ويحكم فيها رب العالمين سبحانه ..
هذه هي الضرورة الأولى ليوم القيامة ، وهي تتصل بعدل الله ذاته ..

وثمة ضرورة أخرى ليوم القيامة ، وهي تتصل بسلك الانسان نفسه ..
ان الاعتقاد بيوم الدين ، والايان بيعث الأجساد ، والوقوف للحساب ، ثم
تلقى الثواب والعقاب ، ودخول الجنة أو النار ، هذا شيء من شأنه أن يعلق
أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ، فلاتستبد بهم ضرورات
الأرض ، ولا يستعبدهم الطمع ، وتملكهم الأثانية ، ولا يقلقهم أنهم لم يحققوا
جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود ، وبذلك يسمو الانسان على الطين
الذى خلق منه الى الروح الذى نفخه ربه فيه ..

ولعل مغرق الطريق بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها ..
والتعلق بقيم الله العليا ، والانطلاق اللائق بالانسان .. يكمن في الايمان
بيوم القيامة ..

حدثهم هود بهذا كله فاستمعوا اليه وكذبوه ..

حكى الله تعالى موقف القوم من يوم القيامة في سورة (المؤمنون) :

« وقال الملأ من قومه ، الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم
في الحياة الدنيا : ما هذا الا بشر مثلكم ، ياكل مما تاكلون منه
ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون .

ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » [١] ..

هكذا كذب قوم هود نبيهم ..

قالوا له : هيهات هيهات .. واستغربوا ان يبعث الله من فى القبور ، استغربوا ان يعيد الله خلق الانسان بعد تحوله الى التراب ، رغم انه خلقه من قبل من التراب .. وطبقا للمقياس البشرية ، كان ينبغي ان يحس المكذبون للبعث ان اعادة خلق الانسان من التراب والعظام أسهل من خلقه الاول .. لقد بدأ الله الخلق فأى صعوبة فى اعادته .. ان الصعوبة — طبقا للمقياس البشرى — تكمن فى الخلق .. وليس المقياس البشرى غير مقياس بشرى ينطبق على الناس ، أما الله ، فليست هناك أمور صعبة أو سهلة بالنسبة اليه سبحانه ، تجرى الأمور بالنسبة اليه سبحانه بمجرد الأمر ..

« بديع السماوات والأرض ، واذا قضى أمرا فانما يقول له : كن فيكون » [٢] ..

نريد ان نلتفت لقوله تعالى :

« وقال الملا من قومه ... » [٣] ..

الملا هم الرؤساء .. يسمون الملا لانهم مليونون بما يقولون .. ولهم مصلحة فى استثمار الأوضاع الفاسدة .. سنرى هؤلاء الملا فى كل قصص الانبياء .. سنرى رؤساء القوم واغنياءهم ومترفيهم يقفون ضد الانبياء .. يصفهم الله تعالى بقوله :

« واترفاهم فى الحياة الدنيا » [٤] .

من مواقع الثراء والغنى والترف ، يولد الحرص على استثمار المصالح الخاصة .. ومن مواقع الثراء والغنى والترف والرياسة ، يولد الكبرياء .. ويلتفت الرؤساء فى القوم الى انفسهم ويتساعلون :

— اليس هذا النبى بشرا مثلنا ، ياكل مما ناكل ، ويشرب مما نشرب ؟ .. بل لعله بقره ياكل اقل مما ناكل ، ويشرب فى اكواب صدئة ، ونحن نشرب فى اكواب من الذهب والفضة .. كيف يدعى انه على الحق ونحن على الباطل ؟ .. هذا بشر .. كيف نطيع بشرا مثلنا ؟

ثم .. لماذا اختار الله بشرا من بيننا ليوحى اليه ؟

قال رؤساء قوم هود : اليس غريبا ان يختار الله من بيننا بشرا ويوحى اليه ...

(١) الايات ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة المؤمنون مكية .

(٢) الآية ١١٧ من سورة البقرة مدنية .

(٣) من الآية ٣٣ من سورة المؤمنون مكية .

(٤) من الآية ٣٣ المؤمنون مكية .

تساءل هو : ما هو الغريب فى ذلك ؟ .. ان الله يحبكم ولهذا ارسلنى اليكم لأحذركم .. ان سفينة نوح ، وقصة نوح ليست بعيدة عنكم ، لا تنسوا ما حدث ، لقد هلك الذين كفروا بالله ، وسيهلك الذين يكفرون بالله دائما ، مهما يكونوا اقوياء ..

قال رؤساء قوم هود : من الذى سيهلكنا يا هود ؟

قال هود : الله ..

قال الكافرون من قوم هود : ستنجينا آلهتنا .

وأفهمهم هود أن هذه الآلهة التى يعبدونها لتقريبهم من الله ، هى نفسها التى تبعدهم عن الله ، أفهمهم أن الله هو وحده الذى ينجى الناس ، وأن أى قوة أخرى فى الأرض لا تستطيع أن تضر أو تنفع .

واستمر الصراع بين هود وقومه .

وكلما استمر الصراع ومرت الأيام ، زاد قوم هود استكبارا وعنادا وطغيانا وتكديبا لنبيهم .. وبدأوا يتهمون « هودا » ، عليه السلام ، بأنه سفیه مجنون ، قالوا له يوما :

— لقد فهمنا الآن السر فى جنونك .. انك تسب آلهتنا وقد غضبت آلهتنا عليك ، وبسبب غضبها صرت مجنونا ..

حكى الله ما قالوه فى سورة هود :

« قالوا : يا هود ، ما جئنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . ان نقول : الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » [١]

الى هذا الحد بلغ الانحراف فى نفوسهم ، الى حد ان يتصوروا ان هودا يهذى ، لأن أحد آلهتهم المفضلة قد غضب عليه ، فمسه بسوء .

لم يتوقف هود عند هذيانهم ، ولم يغضبه أن يظنوا به الجنون والهذيان ، ولكنه توقف عند قولهم :

« وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك . وما نحن لك بمؤمنين » [٢] .

بعد هذا التحدى . لم يبق لهود الا التحدى .

لم يبق له الا التوجه الى الله وحده .

لم يبق أمامه الا انذار أخير ينطوى على وعيد للمكذبين وتهديد .

وتحدث هود ..

« قال : انى أشهد الله ، وأشهدوا انى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . انى توكلت على الله ربى

(١) من الآيتين ٥٣ ، ٥٤ من سورة هود مكة .

(٢) من الآية ٥٢ من سورة هود مكة .

وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربي على صراط مستقيم . فان تولوا فقد ابلغنكم ما ارسلت به اليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، ان ربي على كل شيء حفيظ)) [١] .

ان الانسان ليشعر بالدهشة لهذه الجراءة فى الحق .
رجل واحد يواجه قوما غلاظا شدادا وحمقى .. يتصورون ان اصنام الحجارة تستطيع الايذاء .

انسان بمفرده يقف ضد جبارين فيسفه عقيدتهم ، ويتبرأ منهم ومن آلهتهم ، ويتحداهم ان يكيدوا له بغير ابطاء او امهال ، فهو على استعداد لتلقى كيدهم ، وهو على استعداد لحربهم ، فقد توكل على الله . والله هو القوى بحق . وهو الآخذ بناصية كل دابة فى الأرض . سواء الدواب من الناس او دواب الوحوش او الحيوان . لا شيء يعجز الله .

بهذا الايمان بالله . والثقة بوعده . والاطمئنان الى نصره .. يخاطب هود الذين كفروا من قومه .. وهو يفعل ذلك رغم وحدته وضعفه ، لانه يقف مع الأمن الحقيقى ويبلغ عن الله .

وهو فى حديثه يفهم قومه انه ادى الأمانة . وبلغ الرسالة . فان كفروا فسوف يستخلف الله قوما غيرهم ، سوف يستبدل بهم قوما آخرين . وهذا معناه ان عليهم ان ينتظروا العذاب .

وهكذا أعلن هود لهم براعته منهم ومن آلهتهم .. وتوكل على الله الذى خلقه ، وادرك ان العذاب واقع بمن كفر من قومه . هذا قانون من قوانين الحياة . يعذب الله الذين كفروا ، مهما يكونوا اقوياء او اغنياء او جبابرة او عمالقة .

انتظر هود وانتظر قومه وعد الله .

وبدا الجفاف فى الأرض .. لم تعد السماء تمطر .. كانت الشمس تلهب رمال الصحراء وتبدو مثل قرص من النار يستقر على رؤوس الناس ، وهرع قوم هود اليه .. ما هذا الجفاف يا هود ؟ . قال هود : ان الله غاضب عليكم ، ولو آمنتم فسوف يرضى الله عنكم ويرسل المطر فيزيدكم قوة الى قوتكم . وسخر قوم هود منه وزادوا فى العناد والسخرية والكفر . وزاد الجفاف ، وأصفرت الأشجار الخضراء ، ومات الزرع . وجاء يوم فاذا سحب عظيم يملأ السماء .. وفرح قوم هود وخرجوا من بيوتهم يقولون : هذا عارض ممطرنا .

تغير الجو فجأة ..

من الجفاف الشديد والحر الى البرد الشديد القارس .. بدأت الرياح تهب .. ارتعش كل شيء ، ارتعشت الأشجار والنباتات والرجال والنساء

(١) الآيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ سورة هود مكة .

والخيام .. ارتعش الجلد واللحم والعظام والنخاع .. واستمرت الرياح ..
ليلة بعد ليلة ويوما بعد يوم .. كل ساعة كانت برودتها تزداد ..

وبدا قوم هود يفرون ، أسرعوا الى الخيام واختبأوا داخلها ، اشتد هبوب الرياح واقتلعت الخيام ، واختبأوا تحت الأغطية ، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية . كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره .

لا تكاد الرياح تمس شيئا الا قتلته ودمرته وامتصت قلبه ، وجعلته كالرميم .

استمرت الرياح مسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيا مثلها قط .. ثم توقفت الرياح باذن ربها ..

قال تعالى في سورة الأحقاف :

« فلما راه عارضا مستقبل أوديتهم ، قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بامر ربها » [١] .

وقال تعالى في سورة الحاقة :

« سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، ففرى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » [٢] .

لم يعد باقيا من قوم هود الا ما يبقى من النخل الميت .. مجرد غلاف خارجي لا تكاد تضع يدك عليه حتى يتطاير ذرات في الهواء .. نجا هود ومن آمن معه .. وهلك الجبابرة .. ونزل الستار على قوم هود .

(١) الإيتان ٢٤ و ٢٥ من سورة الاحقاف مكية .
(٢) الآية ٧ من سورة الحاقة مكية .

قصة صالح

[عليه الصلاة والسلام]

انحدرت سنوات وسنوات .. ولد رجال ومات رجال ..
وجاء بعد قوم عاد قوم ثمود ، وتكررت قصة العذاب بشكل مختلف
مع ثمود ..

كانت ثمود قبيلة تعبد الأصنام هي الأخرى ، فأرسل الله « سيدنا
صالحا » اليهم .. وقال صالح لقومه :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » [١] .

نفس الكلمة التي يقولها كل نبي .. لا تتبدل ولا تتغير ، كما ان
الحق لا يتبدل ولا يتغير .. فوجيء الكبار من قوم صالح بما يقوله ..
انه يتهم آلهتهم بانها بلا قيمة ، وهو ينهاهم عن عبادتها ويأمرهم بعبادة
الله وحده . وأحدثت دعوته هزة كبيرة في المجتمع .. وكان صالح معروفا
بالحكمة والنقاء والخير ، كان قومه يحترمونه قبل أن يوحى الله اليه ويرسله
بالدعوة اليهم .

وقال قوم صالح له :

« يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. اتنهانا أن نعبد ما يعبد
آباؤنا ، واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب » [٢] .

تأمل وجهة نظر الكافرين من قوم صالح ..

انهم يدلفون اليه من باب شخصي بحت .. لقد كان لنا رجاء فيك ..
كنت مرجوا فينا لعملك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك . ثم خاب
رجاؤنا فيك .. اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا .

يا للكارثة .. كل شيء يا صالح الا هذا . ما كنا نتوقع منك أن تعيب
آلهتنا التي وجدنا آباءنا عاكفين عليها .. وهكذا يعجب القوم
مما لا عجب فيه .

ويستتكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم
صالح الى عبادة الله وحده ..

لماذا ؟

(١) من الآية ٦١ من سورة هود مكية ..

(٢) الآية ٦٢ من سورة هود مكية ..

لا حجة لديهم ولا برهان ولا تفكير .. ولكن لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة .

هكذا تفعل العادة في الإنسان فعملها القسوى ، وهكذا يفعل التقليد في الإنسان فعلة العتي . وهكذا يجيء النبي فيفجر هذا التقليد الأبلي ويحطم العادات المهلكة .

وهكذا تعلن عقيدة التوحيد عن نفسها كدعوة للتحرر الفكري قبل كل شيء ، دعوة الى اطلاق العقل البشرى من حبال التقاليد ، وخرافات السابقين ، وأوهام العادات المستقرة .

هذه هي دعوة التوحيد في صميمها .. اعلان بميلاد الحرية العقلية وكل أنواع الحريات الأخرى .

وهي دعوة لا يقف ضدها غير من تحجر عقله على أفكار السابقين وعادات الموتى وأوهام الآباء والجدود .

ورغم نصاعة دعوة صالح عليه الصلاة والسلام .. فقد بدا واضحا أن قومه لا يصدقونه .. كانوا يشكون في دعوته ، واعتقدوا أنه مسخور ، وطالبوه بمعجزة تثبت أنه رسول من الله اليهم .. وشاعت ارادة الله أن تستجيب لطلبهم .. وكان قوم ثمود ينحتون من الجبال بيوتا عظيمة .. كانوا يستخدمون الصخر في البناء ، وكانوا أقوياء قد فتح الله عليهم رزقهم من كل شيء .. جاءوا بعد قوم عاد فسكنوا الأرض واستعمروها ..

قال صالح لقومه حين طالبوه بمعجزة ليصدقوه :

((يا قوم ، هذه ناقمة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب)) [١] .

والآية هي المعجزة ، ويقال ان الناقمة كانت معجزة لان صخرة في الجبل انشقت يوما وخرجت منها الناقمة وخرج وراءها وليدها الصغير .. ولدت من غير الطريق المعروف للولادة ، ويقال انها كانت معجزة لأنها كانت تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم فلا تقترب بثنية الحيوانات من المياه في هذا اليوم ، وقيل انها كانت معجزة لأنها كانت تدر لبنا يكفي لشرب الناس جميعا في اليوم الذي تشرب فيه الماء فلا يبقى منه شيء للناس .

كانت هذه الناقمة معجزة ، وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله :

((ناقمة الله ..)) [٢] .

أضافها لنفسه سبحانه بمعنى أنها ليست ناقمة عادية وإنما هي معجزة من الله .

وأصدر الله أمره الى صالح أن يأمر قومه بعدم المساس بالناقمة أو أيدائها أو قتلها ، أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، والا يمسوها

(١) من الآية ٦٤ من سورة هود مكية ..

(٢) من الآية ٦٤ من سورة هود مكية .

بسوء ، وحذرهم انهم اذا مدوا ايديهم بالاذى للناقة فسوف يأخذهم عذاب قريب .

فى البداية تعاطمت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور الجبل ..

كانت ناقة مباركة .. كان لبنها يكفى آلاف الرجال والنساء والاطفال .. وكانت اذا نامت فى موضع هجرته كل الحيوانات الاخرى . كان واضحا انها ليست مجرد ناقة عادية .. وانما هى آية من الله . وعاشت الناقة بين قوم صالح ، آمن منهم من آمن وبقي أغلبهم على العناد والكفر .. وتحولت الكراهية عن سيدنا صالح الى الناقة المباركة .. تركزت عليها الكراهية ، وبدأت المؤامرة تنسج خيوطها ضد الناقة .. كره الكافرون هذه الآية العظيمة ، ودبروا فى انفسهم أمرا ..

كان طبيعيا — كما رأينا من قبل — أن يجيء التدبير من رؤساء قومه .. مرة أخرى نلتقى بالملا الذين استكبروا من قومه .

قال تعالى فى سورة (الأعراف) :

« والى ثمود اخاهم صالحا ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تاكل فى ارض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبواكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : اتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا : انا بما ارسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا : انا بالذى آمنتم به كافرون » [٧] .

ان صالحا عليه الصلاة والسلام يحدث قومه برفق وحب ، وهو يدعوهم الى عبادة الله وحده ، وينبهم الى أن الله قد أخرج لهم معجزة هى الناقة ، دليلا على صدقه وبينة على دعوته ، وهو يرجو منهم أن يتركوا الناقة تأكل فى أرض الله ، وكل الأرض أرض الله ، وهو يحذرهم أن يمسوها بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم ، وهو يلفتهم الى انعام الله عليهم . كيف جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد ، كيف أنعم عليهم بالقصور والجبال المنحوتة والنعيم والرزق والقوة .

يفعل صالح هذا كله .. فاذا قومه يجيبونه أغرب اجابة .

انهم يتجاوزون كلمات نبيهم ويتركونه .

يتجهون الى الذين آمنوا بصالح . يسألونهم سؤال استخفاف وزراية :

— اتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟

(١) الآيات ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .. مكة

سؤال لا محل له بعد معجزة الناقة .. كل ما فى الأمر أنهم يستخفون ويسخرون . قالت الفئة الضعيفة التى آمنت بصالح : انا بما أرسل به مؤمنون .

لاحظ جواب المؤمنين الموضوعى .

ان سؤال السادة المترفين يصطدم بهذا الجواب الموضوعى .. ان السادة يشكون فى ان صالحا مرسل من ربه .. لكن المؤمنين يردونهم الى الحق الذى جاء به صالح ..

وهذا الحق الذى جاء به صالح لا علاقة له بالناقة . انما له علاقة بدعوته ورسالته نفسها .. انا بما أرسل به مؤمنون . لم يقولوا لهم انا بناقته مؤمنون ، لم يقولوا لهم ان الناقة تثبت نبوته ، تجاوز المؤمنون هذه المعجزة الخارقة الى حقيقة رسالة صالح .

عند هذا الحد من الحوار .. نرى الذين كفروا وقد أخذتهم العزة بالاثم .. وللآثم عزة عند الكافرين والمستكبرين :

« قال الذين استكبروا : انا بالذى آمنتم به كافرون » [١] .

هكذا باحتقار واستعلاء وغضب .

عبثا تفتش عن أى دليل موضوعى فى حوار الكافرين .. انهم يرفضون الايمان فحسب .. وهم أحرار تماما فى ذلك .

.....

سقط الليل على مدينة ثمود .

انتصبت الجبال شامخة تحتضن البيوت المنحوتة فيها . وبدا واضحا للكافرين ان احدا لا يمكن ان ينالهم بسوء .

أضيت المشاعل داخل قصر منحوت فى الجبل .. وادبرت كؤوس الشراب على الجالسين فى شبه دائرة ..

لم يكن هناك أحد من رؤساء القوم قد تغيب عن الجلسة الخطيرة .

انعقدت الجلسة ودار الحوار .

قال أحد الكافرين :

« ابشرا منا واحدا نتبعه ، انا اذا لقى ضلال وسمر » [٢] .

وقال كافر آخر :

« ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب اشر » [٣] .

وعادت كؤوس الشراب تدور .. وانتقل الحوار من صالح الى ناقة الله .

(١) الآية ٧٦ من سورة الاعراف مكية ..

(٢) الآية ٢٤ من سورة القمر مكية ..

(٣) الآية ٢٥ من سورة القمر مكية ..

قال أحد الكافرين : اذا جاء الصيف جاءت الناقة الى ظل الوادى
البارد فتهرب منه المواشى الى الحر .

وقال كافر آخر : واذا جاء الشتاء بحثت الناقة عن ادفأ مكان واستراحت
فيه فتهرب مواشينا الى البرد وتتعرض للمرض .

وعادت كؤوس الشراب تدور وهى تهتز فى أيدى الشاربين .. وأمر
أحد الجالسين أن تكف المغنية عن الغناء لأنه يفكر .. وانطبق الصمت ..
وراح هو يفكر .. رأس من رؤوس الكفر منكس على صدره وهو يفكر
بعمق . استعان المفكر بكأسين من شراب قوى مسكر وهمس :

— ليس هناك غير حل واحد .

تساءل الجالسون عن الحل . قال كبيرهم :

— ينبغي ازاحة صالح من طريقنا .. أقصد ناقته .. نقتل الناقة
وبعدها نقتله هو ..

تلك منذ أقدم العصور الى اليوم أساليب الأنظمة الكافرة .. وهذا
سلاحهم منذ أقدم أيام الخليقة .. لا يعمدون الى العقل أو الفكر أو الجدل
والبرهان .. إنما تمتد الأيدى الى السلاح وتقتل .

هذا أسلم الحلول عندهم وذلك تصورهم . ان القتل يطوى المشكلة
كلها ، ويدفنها فى التراب .

انبعثت الهمسات حول صالح وناقته . قال أحدهم وكان فى عقله
بقية لم يطمسها الشراب .. حذرنا صالح من المساس بالناقاة ،
وهددنا بالعذاب القريب .

أحمد الجالسون هذا الصوت العاقل بكأسين من الخمر ، وتصاعدت
كلمات الحوار تتحدث عن صالح .

— كم نشاءم منه ونطير .

هو وناقته .

— ومن معه .

أفضل الحلول قتله .

— نبدأ بقتل الناقة ، ثم ننثى اليه .

من الذى يقتله .

استلقى السؤال بينهم جسدا بغير رأس . قال أحدهم بعد لحظة
صمت .

— أعرف واحدا يستطيع قتله .

تناقلوا الاسم بينهم فى سرور واضح . ذلك جبار من جبابرة المدينة .
رجل يعيث فسادا فى الأرض ولا يكف عن الشراب ، والويل لمن يعترضه

وهو مخمور .. تساءلوا من يساعده على القتل ، فقيل أن له زملاء في المدينة .

«وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون» [١] ..

هؤلاء هم أداة الجريمة .. مجرمو المدينة المشهورون ..
اتفق على موعد الجريمة ومكان التنفيذ .. وازداد الظلام الساقط على
الجبال ظلمة ..
وجاءت ليلة المأساة .

.....

الناقطة المباركة تنام وهي تضم لصدرها طفلها الصغير .. كان الطفل
يحس البرد ويستدفئ بأمه ..

انتهى المجرمون التسعة من اعداد أسلحتهم وسيوفهم وسهامهم ،
وخرجوا في جوف الظلام كما تخرج الخيابة ، شرب زعيمهم كثيرا من الخمر
حتى لم يعد يرى ما أمامه .. «فنادوا صاحبهم فتعاطى فقهر» [٢] .
انظر الى استخدام لفظ «تعاطى» وكيف ذهب عقله مما تعاطاه ...
هجم الرجال التسعة على الناقطة فنهضت الناقطة ونهض طفلها مغزوعا .
امتدت الايدي الآثمة القاتلة الى الناقطة .

وسالت دماء الناقطة .

قتل طفلها أيضا ..

علم النبي صالح بما حدث فخرج غاضبا على قومه .. قال لهم : ألم
أحذركم من أن تمسوا الناقطة . قالوا : قتلناها فأنتنا بالعذاب واستعجله لنا
لو سمحت .. ألم تقل أنك من المرسلين ..

قال صالح لقومه :

«تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب» [٣] .

بعدها غادر صالح قومه . تركهم ومضى . أنهى الامر ووعده الله
بهلاكهم بعد ثلاثة أيام .

كانت الناقطة وهي تموت قد تنهدت ثلاث مرات .

ومرت ثلاثة ايام على الكافرين من قوم صالح وهم يهزأون من العذاب
وينتظرون ، وفي فجر اليوم الرابع :

انشقت السماء عن صيحة جبارة واحدة ... انقضت الصيحة على

(١) الآية ٤٨ من سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٢٩ من سورة القمر مكية ..

(٣) من الآية ٦٥ من سورة هود مكية ..

الجبال فهلك فيها كل شيء حتى .. وارتجفت الأرض رجفة جبارة فهلك
فوقها كل شيء حتى ..
هي صرخة واحدة .. لم يكذب أولها يبدأ وآخرها يجيء حتى كان كفار.
قوم صالح قد صعقوا جميعاً صعقة واحدة ..
قال تعالى في سورة القمر :

« انا مرسلوا الناقة فتنه لهم ، فارنقبحهم واصطبر . ونبئهم ان الماء
قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر .
فكيف كان عذابي ونذر . انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا
كهشيم المحتظر » [١] .

هلكوا جميعاً قبل ان يدركوا ما حدث ..
أما الذين آمنوا بسيدنا صالح .. فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم
ونجوا .

(١) الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من سورة القمر مكة .

قصة ابراهيم الخليل

[عليه الصلاة والسلام]

استوحش من الاكوان كلها ووصل الى مقام الانس بالله وحده ..
ولذلك انفرد ابراهيم عليه الصلاة والسلام بمكانة خاصة بين انبياء الله
هو أحد أولى العزم الخمسة الكبار الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا .
وهم : نوح و ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. بترتيب بعثهم .
وهو النبي الذي ابتلاه الله ببلاء مبين .. بلاء فوق قدرة البشر وطاقة
الاعصاب .. ورغم حدة الشدة وغنت البلاء .. كان ابراهيم هو العبد الذي
وفى .. وزاد على الوفاء بالاحسان .

قال تعالى فى سورة النجم : « **ابراهيم الذى وفى** » [١] .

وقد كرم الله تبارك وتعالى ابراهيم تكريما خاصا .. فجعل ملته هى
التوحيد الخالص النقى من الشوائب . وجعل العقل فى جانب الذين يتبعون
دينه .

قال تعالى فى سورة البقرة : « **ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا
من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن
الصالحين** » [٢] .

وأثنى الله سبحانه على ابراهيم فقال فى سورة النحل :

« **ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين** » [٣] .

وكان من فضل الله على ابراهيم ان جعله الله اماما للناس ، وجعل فى
ذريته النبوة والكتاب . فاذا كل الانبياء بعد ابراهيم هم اولاده وأحفاده ،
وتحقق وعد الله له فلم يبعث بعده نبي الا جاء من نسله .

.. حتى اذا جاء آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم .. جاء
تحقيقا واستجابة لدعوة ابراهيم التى دعا الله فيها .. ان يبعث فى الاميين
رسولا منهم .

ولو مضينا نبحث فى فضل ابراهيم وتكريم الله له فسوف نمثله
بالدهشة .

(١) الآية ٢٧ من سورة النجم مكية ..

(٢) الآية ١٢٠ من سورة البقرة مدنية ..

(٣) الآية ١٢٠ من سورة النحل مكية ..

نحن أمام بشر جاء ربه بقلب سليم . انسان لم يكذ الله يقول له أسلم حتى قال أسلمت لرب العالمين . نبي هو أول من سمانا المسلمين . نبي أثمرت دعوته المستجابة عن بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

نبي كان جدا وأبا لكل أنبياء الله الذين جاءوا بعده ..

نبي هادئ متسامح حلیم أوامه منيب .

قال تعالى في سورة هود : « ان ابراهيم لحليم اوامه منيب » [١]

وقال في سورة الصافات : « سلام على ابراهيم » [٢]

هكذا تحدث الجلال الخالق عن عبده ابراهيم .

هذا الذي سبق كله في كفة ..

وهذا الذي قاله الحق عنه كفة ترجح ..

لم يرد في كتاب الله ذكر لنبي .. اتخذ الله خليلا .. غير ابراهيم .

هو وحده الذي اختصه الله عز وجل بقوله في سورة النساء .

« واتخذ الله ابراهيم خليلا » [٣]

قال العلماء : الخلّة هي شدة المحبة . وبذلك تعنى الآية .. واتخذ الله ابراهيم حبيبا .

يرتد نظر العقل وهو يحاول استشراف هذه القمة ..

مجرد تصعيد النظر نحو هذه القمة الشامخة يثير الدوار .

فوق هذه القمة الشامخة يجلس ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

كيف ؟

بم استحق ما استحق ؟

أى قلب كان قلبه ..

بأى رحمة خلق .. من أى نبل صيغ .. وأى حب كان يسع ؟

ان منتهى أهل السالكين ، وغاية هدف المحققين والصوفية .. ان يحبوا الله عز وجل .

اما ان يحلم احدهم ان يحبه الله . ان يفرد به بالحب . ان يختصه بالخلّة وهي شدة المحبة ..

ذلك شيء وراء آفاق التصور .

(١) الآية ٧٥ .. مكية .. (٢) الآية ١٠٩ مكية ..

(٣) من الآية ١٣٥ من سورة النساء ..

كان ابراهيم هو هذا العبد الربانى الذى استحق أن يتخذ الله خليلاً ..

تلك درجة من درجات الانبياء لا نعرف مقدارها .. ولا نعرف كيف نصفها ، ونعتقد أن أى كلمات بشرية تقال عنها ، تكون سجنًا يظلمها ويسئ إليها .. نحن أمام فيض الهى من نور السماوات والارض .

نعرف ان محار البحار الذى يصنع اللؤلؤ ، يصنعه حين يقتحم جسم غريب عالم اللؤلؤ الداخلى ، كأن الجراح تلد اللالىء .

نحسب بيتين .. إن المحار الذى يصنع اللؤلؤ كان يقلد قلب ابراهيم فيما يفعل ، نحن أمام قلب التى فى هذا العالم .. كلما أصابه منه جرح صنع لؤلؤة ..

ومن الدهش أن هذا القلب أدرك رشدته من طفولته .

لا يتحدث القرآن عن ميلاده أو طفولته ، ولا يتوقف عند عصره سراحة ، ولكنه يرسم صورة لجو الحياة فى أيامه ، فتدب الحياة فى عصره ونرى الناس قد انقسموا ثلاث فئات :

فئة تعبد الاصنام والتماثيل الخشبية والحجرية .

وفئة تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

وفئة تعبد الملوك والحكام .

أطفئت أنوار العقل فى مشارق الارض ومغاربها .. وجلس الظلام على عروش المتعددة . واشتد ظمأ الأرض الى الرحمة .. واشتد جوعها الى الحق .

وفى هذا الجو ولد ابراهيم .

ولد فى أسرة من أسر ذلك الزمان البعيد .

لم يكن رب الأسرة كافراً عادياً من عبدة الاصنام .. كان كافراً ممتازاً يصنع بيديه تماثيل الالهة ..

قيل أن أباه مات قبل ولادته فرباه عمسه ، وكان له بمثابة الأب ، وكان ابراهيم يدعوه بلفظ الابوة ، وقيل ان أباه لم يمت وكان آزر هو والده حقا .

وقيل ان آزر اسم صنم اشتهر أبوه بصناعته .. ومهما يكن من أمر فقد ولد ابراهيم فى هذه الأسرة .

رب الأسرة أعظم نحات يصنع تماثيل الالهة . فنان تجود على نحته تماثيل الالهة وتكرار نفسه ، ومهنة الأب تضىف عليه قداسة خاصة فى قومه . وتجعل لأسرته كلها مكاناً ممتازاً فى المجتمع .

هى أسرة مرموقة من الاسر الارستقراطية بتعبير زماننا ..

أسرة من الصفوة الحاكمة .

من هذه الأسرة المقدسة .. ولد طفل قدر له أن يثقف ضد أسرته
و ضد نظام مجتمعه و ضد اوهام قومه و ضد ظنون الكهنة و ضد العروش
القائمة و ضد عبدة النجوم والكواكب و ضد كل انواع الشرك باختصار .

وكان طبيعيا أن يكون جزاؤه الاتقاء فى النار حيا .

لا نريد ان نسبق الاحداث .

لنبدا معه منذ طفولته .

كان عقله مضيئا من طفولته .

اضاء الله قلبه وعقله و آتاه رشده و آتاه الحكمة من طفولته .

ادرك ابراهيم وهو طفل أن آياه يصنع تماثيل غريبة .

وسأله يوما عما يصنع ، فأخبره أنها تماثيل الآلهة ، ودهش ابراهيم
وأحس داخل عقله بالرفض .. كان يلعب وهو طفل بهذه التماثيل ويمتطى
ظهورها مثلما يمتطى الناس ظهور الحمر والبغال .. وشاهده أبوه يوما
يركب ظهر تمثال مردوخ ، وغضب الاب وأمر ابنه الا يلعب بهذا التمثال
مرة ثانية .

سأل ابراهيم :

— اى تمثال هذا يا أبى .. ان اذنيه كبيرتان .. اكبر من آذاننا .

قال أبوه :

— أنه مردوخ رب الارباب يا ولدى ، وهاتان الاذنان الكبيرتان ترمزان
الى فهمه العميق .

ضحك ابراهيم بينه وبين نفسه .. كان عمره ٧ سنين .

يحدثنا القديس برنابا على لسان عيسى كيف سخر ابراهيم من ابيه وهو
طفل .. يقول ان ابراهيم سأل والده يوما : من صنع الانسان يا أبى ؟

قال الاب : الانسان ، لانى انا صنعتك و ابنى صنعتنى

أجاب ابراهيم : ليس الامر كذلك يا أبى .. لانى سمعت شيخا ينتحب
ويقول : يا الهى .. لماذا لم تعطنى اولادا .

قال الاب : حقا يا بنى .. الله يساعد الانسان ليصنع انسانا ، ولكنه
لا يضع يده فيه فلا يلزم الانسان الا ان يتقدم ويضرع الى الهه ويقدم له
حملانا وغنما فيساعده الهه .

قال ابراهيم : كم الها هناك يا أبى ؟

أجاب الشيخ : لا عدد لهم يا بنى .

قال ابراهيم : ماذا أفعل يا أبى اذا خدمت الها واراد بى الآخر شرا
لانى لا أخدمه ، ماذا لو وقع شقاق وخصام بين الآلهة ، ماذا لو قتل
الاله الذى يريد بى شرا الهى .. ماذا أفعل .. من المؤكد أنه يقتلنى
انا أيضا .

اجاب الشيخ ضحكا : لا تخف يا بنى لانه لا يخاصم اله الها آخر ..
فى الهيكل الكبير الوف من الالهة مع الاله الكبير بعلم ، وقد بلغت الآن
سبعين سنة من العمر ومع ذلك لم ار الها قط ضرب الها آخر .

قال ابراهيم : اذن يوجد وفاق بينهم .

اجاب ابوه : نعم يوجد .

قال ابراهيم : من اى شىء تصنع الالهة ؟

قال الشيخ : هذا من خشب النخل ، وذاك من الزيتون ، وذاك التمثال
الصغير من العاج .. انظر ما أجمله .. حقا لا ينقصه الا التنفس .

قال ابراهيم : اذا لم يكن للالهة نفس فكيف يهبون الانفاس .. ولما لم
تكن لهم حياة فكيف يعطون الحياة ، من المؤكد يا ابنى ان هؤلاء ليسوا
هم الله .

حقق الشيخ لهذا الكلام وقال ثائرا : لو كنت بالغا من العمر ما تتمكن
معه من الادراك لشججت رأسك بهذه الفأس .

قال ابراهيم : يا ابنى .. ان كانت الالهة تساعد على صنع الانسان
فكيف يتأتى للانسان ان يصنع الهة .. اذا كانت الالهة مصنوعة من
الخشب فان احراق الخشب خطيئة كبرى ، ولكن قل لى يا ابنى ..
كيف وأنت تساعد الالهة وتصنع منها اعدادا هائلة .. كيف لم تساعدك
الالهة لتصنع اولادا كثيرين فتصير اقوى رجل فى العالم .

انتهى الحوار بينهما بأن مد الأب يده وضرب ابراهيم ..

ومرت الايام .. وكبر ابراهيم .. كان قلبه يمتلىء من طفولته بكراهية
صادقة لهذه التماثيل التى يصنعها والده . لم يكن يفهم كيف يمكن لانسان
عاقل ان يصنع بيديه تماثالا ، ثم يسجد بعد ذلك لما صنع بيديه . لاحظ
ابراهيم ان هذه التماثيل لا تشرب ولا تأكل ولا تتكلم ولا تستطيع ان تعتلد
لو قلبها احد على جنبها .. كيف يتصور الناس ان هذه التماثيل تضر
وتنفع .

عذبت هذه الفكرة ابراهيم طويلا ..

أيمكن أن يكون كل قومه على خطأ ، وهو وحده على الحق .

اليس هذا شيئا مدهشاً .

.....

كان لقوم ابراهيم معبد كبير يمتلىء بالتماثيل ..

وكان فى وسط المعبد محراب توضع فيه تماثيل اكبر الالهة .. وكانت
الالهة انواعا واصنافا واشكالا .. وكان ابراهيم يزور المعبد مع والده
وهو طفل ، كان يحس باحتقار عظيم لكل هذه الاخشاب والحجارة ، الامر
المدهش هو الناس .. قومه .. كانوا اذا دخلوا المعبد خفضوا رؤوسهم

وحنوا ظهورهم . وبدأوا ييكون ويتوسلون ويسألونها أشياء كأنها تسمع أو تفهم .

فى البداية كان هذا المنظر يبدو مضحكا لابراهيم ، ثم بدأ ابراهيم يحس الغضب .. اليس شيئا عجيبا ان يكون كل هؤلاء الناس مخدوعين . وزادت المشكلة . ان والد ابراهيم كان يريد ان يكون ابراهيم كاهنا حين يكبر .. ولم يكن والد ابراهيم يريد من ابنه شيئا أكثر من ان يحترم هذه التماثيل ، غير ان ابراهيم كان لا ينقطع عن التصريح باحتقاره وكراهيته لها .

وذات يوم دخل ابراهيم المعبد مع أبيه .

وبدأت الاحتفالات بالتماثيل .. ووسط الاحتفال راح كبير الكهنة يوجه الحديث الى تمثال كبير الآلهة .. وكان الكاهن يتحدث بصوت عميق مؤثر ويسأل التمثال ان يرحم قومه ويرزقهم .

وخرج صوت ابراهيم فى سكون المعبد وهو يخاطب كبير الكهنة :

— انه لا يسمعك ياسيدى الكاهن .. الا تلاحظ انه لا يسمع ؟

والفتت الناس لهذا الصبى فوجدوه ابراهيم .. شعر كبير الكهنة بالاحراج والغضب ، واعتذر الاب مدعيا ان ابنه مريض ولا يعرف ما يقول .. وخرج الاثنان من المعبد ، سحب الوالد ابراهيم الى فراشه وأرقده فيه .. وتركه ومضى .

.....

اطمان ابراهيم الى نوم الناس جميعا فنهض من فراشه .. لم يكن مريضا .. كان يحس انه مقبل على اكتشاف عظيم .. يستحيل ان يكون الله هو هذه اللعب الخشبية او التماثيل الحجرية التى يصنعها قومه .

خرج ابراهيم من بيته الى الجبل .. سار وحده فى الظلام .. اختار كهفا فى الجبل وأسند ظهره لحجارته وجلس .

نظر الى السماء ..

سئم النظر الى الأرض التى تموج بجاهلية تنكفىء على الاصنام .. لم يكد ينظر فى السماء حتى تذكر أنه ينظر لكواكب ونجوم تعبد فى الأرض . وامتأ قلب الفتى الصغير بحزن رحيم كبير .

نظر الى ما وراء القمر والنجوم والكواكب وادهشه ان يعبدها الناس وهى مخلوقة تعبد خالقها ، وتظهر بأذنه وتأفل بأذنه .

وأدار ابراهيم بينه وبين نفسه حوارا داخليا ، لم يلبث أن مده الى حوار مع قومه الذين يعبدون هذه الكواكب .

حكى الله تعالى هذه المواقف بقوله تعالى فى سورة الانعام :

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر : اتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض

وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربي « [١] » .

لا يحدثنا القرآن عن الجو الذي أعلن فيه ابراهيم ذلك . غير اننا نحس من سياق الآيات أن هذا الإعلان كان بين قومه ، ويبدو أن قومه اطمأنوا له ، وحسبوا أنه يرفض عبادة التماثيل ويهوى عبادة الكواكب . . وكانت الملاحه حرة بين الوثنيات الثلاث : عبادة التماثيل والنجوم والملوك . .

غير أن ابراهيم كان يدخر لقومه مفاجأة مذهلة في الصباح . . لقد أفل الكوكب الذي التحق بديانته بالأمس . و ابراهيم لا يحب الأفلين . قال تعالى :

« فلما أفل قال : لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربي » [٢] .

عاد ابراهيم في الليلة الثانية يعلن لقومه أن القمر ربه . لم يكن قومه على درجة كافية من الذكاء ليدركوا أنه يسخر منهم برفق ولطف وحب .

كيف يعبدون ربا يختفى ثم يظهر . . يأفل ثم يشرق . . بانتظام يشي بعبوديته لله .

لم يفهم قومه هذا في المرة الأولى فكرره مع القمر . . لكن القمر كالزهرة كأي كوكب آخر . . يظهر ويختفى . . قال تعالى :

« فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين » [٣] .

سنلاحظ هنا أنه يحدث قومه عن رفضه لالوهية القمر . . انه يمزق العقيدة القمرية بهدوء ولطف . كيف يعبد الناس ربا يختفى ويأفل . لئن لم يهدني ربي . . يفهمهم أن له ربا غير كل ما يعبدون . .

غير أن اللفتة لا تصل اليهم . . ويعاود ابراهيم محاولته في اقامة الحجة على الفئة الأولى من قومه . . عبدة الكواكب والنجوم .

قال تعالى :

« فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين » [٤] .

(١) من الآيات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ مكية . .

(٢) من الآية ٧٦ من سورة الانعام . .

(٣) من الآية ٧٧ من سورة الانعام مكية . .

(٤) الايتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة الانعام مكية . .

كان تنفيذها للعقيدة الشمسية هو ختام جولته مع عبدة الكواكب
والنجوم . أعلن أن الشمس ربه لأنها أكبر .

سخرية مرت على آذان قومه فلم تلتقطها القلوب الموصدة .

لم يفهم عبدة الشمس أنهم يعبدون مخلوقا . . لا يفنى فيه أنه
كبير . . الله أكبر .

بعد أن أعلن إبراهيم أن الشمس ربه . انتظر حتى جاء المغيب ،
وغربت الشمس . أفلت هي الأخرى مثل كل المعبودات التي تأفل .

بعدها أعلن براعته من عبادة النجوم والكواكب . . أنهى جولته الأولى
بتوجيهه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حينها . . ليس مشركا
مثلهم . .

استطاعت حجة إبراهيم أن تظهر الحق . . وبدأ صراع قومه معه . .
لم يسكت عنه عبدة النجوم والكواكب . . بدأوا جدالهم وتخويفهم له
وتهديده .

ورد إبراهيم عليهم قال :

« اتحاجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن
يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما ، أفلا تتذكرون .
وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل
به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون » [١] .

لا نعرف رهبة الهجوم عليه . ولا حدة الصراع ضده . ولا أسلوب
قومه الذي اتبعوه معه لتخويفه .

تجاوز القرآن هذا كله الى رده هو . . كان جدالهم باطلا فأسقطه
القرآن من القصة ، وذكر رد إبراهيم المنطقي العاقل . كيف يخوفونه
ولا يخافون هم . . أى الفريقين أحق بالأمن .

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم
مهدتون » [٢] .

يسدل الستار هنا على المشهد الأول ، ليرتفع بعد ذلك على مشهد آخر
مع الفئة التي تخصصت فى عبادة الأصنام . فرغ من عبدة الكواكب
والنجوم والتفت لعبدة الأصنام . آتاه الله الحجة فى المرة الأولى كما سيؤتيه
الحجة فى كل مرة :

« وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء
ان ربك حكيم عليم » [٣] .

(١) الآية ٨٠ ، ٨١ من سورة الانعام مكة .

(٢) الآية ٨٢ من سورة الانعام مكة .

(٣) الآية ٨٢ من سورة الانعام مكة . .

.. سبحانه ..

كان يؤيد ابراهيم ويريه ملكوت السموات والارض .

لم يكن معه غير اسلابه حين بدأ صراعه مع عبدة الاصنام .. هذه المرة يأخذ الصراع شكلا أعظم حدة . أبوه فى الموضوع .. هذه مهنة الأب وسر مكانته وموضع تصديق القوم .. وهى العبادة التى تتبعها الاغلبية ..

خرج ابراهيم على قومه بدعوته . قال بحسم غاضب وغيره على الحق :

« ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون ؟ » .

« قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » .

« قال : لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين . »

« قالوا : اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين ؟ » .

« قال : بل ربكم رب السماوات والارض الذى فطرهن وأنا على

ذلكم من الشاهدين » [١] .

انتهى الامر وبدأ الصراع بين ابراهيم وقومه .. كان أشدهم ذهولا وغضبا هو أبوه أو عمه الذى رباه كآب ..

.. واشتبك الاب والابن فى الصراع .. فصلت بينهما المبادئ فاختلفا .. الابن يقف مع الله ، والاب يقف مع الباطل .

قال الاب لابنه : مصيبتى فيك كبيرة يا ابراهيم .. لقد خذلتنى وأسأت الى .

قال ابراهيم :

« يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنك شيئا ؟ .
يا أبت انى قد جاعنى من العلم ما لم ياتك ، فاتبعنى اهدك صراطا
سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، ان الشيطان كان للرحمن عصيا .
يا أبت انى أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان
وليا » [٢] .

انتفض الاب واقفا وهو يرتعش من الغضب .

قال لابراهيم وهو ثائر :

« أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى
مليسا » [٣] .

(١) الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ من سورة الانبياء مكية .

(٢) الآيات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ من سورة مريم مكية .

(٣) الآية ٤٦ من سورة مريم مكية .

إذا لم تتوقف عن دعوتك هذه فسوف أرجمك ، سأقتلك ضرباً بالحجارة .. هذا جزاء من يقف ضد الآلهة .. أخرج من بيتي .. لا أريد أن أراك .. أخرج .

.....

انتهى الأمر وأسفر الصراع عن طرد إبراهيم من بيته .. كما أسفر عن تهديده بالقتل رمياً بالحجارة . رغم ذلك تصرف إبراهيم كابن بار ونبي كريم . خاطب والده بأدب الأنبياء . قال لأبيه رداً على الإهانات والتجريح والطرد والتهديد بالقتل .

« سلام عليك .. ساستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . واعتزلکم وما تدعون من دون الله وادعو ربى ، عسى أن لا اكون بدعاء ربى تسقيا » [١] .

وأخرج إبراهيم من بيت أبيه .. هجر قومه وما يعبدون من دون الله .. وقرر فى نفسه أمراً .. كان يعرف أن هناك احتفالاً عظيماً يقام على الضفة الأخرى من النهر ، وينصرف الناس جميعاً إليه .. وانتظر حتى جاء الاحتفال وخلت المدينة التى يعيش فيها الناس .

.....

وأخرج إبراهيم حذراً وهو يقصد بخطاه المعبد .

كانت الشوارع المؤدية الى المعبد خالية . وكان المعبد نفسه مهجوراً .. انتقل كل الناس الى الاحتفال .. دخل إبراهيم المعبد ومعه فأس حادة .

نظر الى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر والخشب .. نظر الى الطعام الذى وضعه الناس أمامها كذئور وهدايا .

أقترب إبراهيم من تمثال لأحد الآلهة وسأله :

— لقد برد الطعام أمامك .. لماذا لا تأكل ؟ .

وظل التمثال صامتا جامداً .

وسأل إبراهيم عدداً من التماثيل حوله :

« الا تاكلون ؟ » [٢] .

كان يسخر منهم ويعرف أنهم لا يأكلون .. وعاد يسأل التماثيل :

« مالكم لا تنطقون ؟ » [٣] .

ورفع يده بالفأس وبدأ يحطم الآلهة الكاذبة التى يعبدها الناس .. حطم الأصنام جميعاً ، وترك تماثلاً واحداً علق فى رقبته الفأس .. وانصرف الى الجبال بعد أن بر بقسمه ، وكان قد أقسم أن يطلق قومه بالدليل

(١) الأيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة مريم مكية .

(٢) الآية ٩٢ من سورة الصافات مكية ..

(٣) الآية ٩١ من سورة الصافات مكية .

العملى على غيابهم فى عبادة غير الله . وانتهى الاحتفال فى الضفة الأخرى وعاد الناس .. لم يكدا أول واحد يدخل المعبد حتى صرخ .. وتجمع الناس على صرخته فاكشفوا أن الآلهة جميعها قد تحطمت ما عدا واحدا . وبدأوا يفكرون فىمن يكون عساه مرتكب هذه الفعلة .

وقفزت الى عقولهم صورة ابراهيم وهو يحدثهم ويدعوهم الى الله ..

« قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم .. » [١] .

— احضروا ابراهيم على الفور وحققوا معه .

هكذا قال الحاكم .

وجاء ابراهيم .. وسألوه :

« أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم .. » [٢] .

ابتسم ابراهيم وقال وهو يشير الى كبير الآلهة الذى علق الفأس فى رقبته :

« بل فعله كبيرهم هذا .. فاسألوهم ان كانوا ينطقون » [٣] .

قال الكهنة : نسال من ؟

قال ابراهيم : اسألوا آلهتكم .

قال المحقق : أنت تعرف أن الآلهة لا تنطق .

قال ابراهيم : كيف تعبدون شيئا لا ينطق .. ولا ينفع .. ولا يضر ؟ ..
الآ تفكرون قليلا ؟ .. أين ذهبت عقولكم ؟ لقد حطمت آلهتكم وكبير الآلهة واقف ينظر .. لم يستطع هؤلاء الآلهة أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى فكيف يحضرون لكم الخير .. الآ تفكرون قليلا ؟ .. لقد علقت الفأس فى عنق كبير الآلهة فلم يقل لماذا فعلت ما فعلت .

انه لا ينطق ولا يسمع ولا يرى ولا يتحرك ولا يضر ولا ينفع .

انه لا شىء .. مجرد حجر .

كيف يعبد الناس حجرا ؟ ..

أين ذهبت عقولكم ؟ ..

.....

أجمل الله تعالى فى سورة الأنبياء هذه المشاهد . قال تعالى :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه

وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا

آباءنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء مكة .. (٢) الآية ٦٢ من سورة الأنبياء مكة .

(٣) الآية ٦٣ من سورة الأنبياء مكة ..

قالوا : أجبنا بالحق أم أنت من اللاعين ؟ . قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .
وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بآلهتنا أنه ابن الظالمين .
قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا : فأتوا به على عين الناس لعلهم يشهدون . قالوا : أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ . قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟ . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : انكم أنتم الظالمون . ثم تكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟ .

قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين)) [١] .

الزمهم الحجة وأسكتهم بالبرهان وناقشهم بمنطق الفكر .. فقرروا اعدامه حرقا فى النار .
ثار المحققون وهاج أتباعهم وانعقدت محاكمة مضحكة اتهمته تها عقوبتها الحرق .

لم تعد المسألة مسألة صراع بين أفكار .. أو مبادئ .. أو قيم ..
لقد أحالهم إبراهيم — بسخرية توقظ القلب — إلى كبير الآلهة واتهمه بأنه هو الذى حطم الآلهة . وطالبهم أن يسألوا الآلهة عن حطما .. ولكن الآلهة لا تنطق .. كيف يعبد الناس ما لا ينطق ولا يعى .. حين تهاوت الحجة نهضت الكبرياء . وحين أسقط دليلهم ميتا نهض العناد .. وتقرر اعدامه حرقا .

لقى القبض عليه ، وبدأ اعداد المحرقة . كانت حيثيات الحكم الباطل تتلخص فى جملة موجزة تقول : حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين .

.....

وفعلوا ..

بدأ الاستعداد لاحتراق إبراهيم .. انتشر النبأ فى المملكة كلها .

وجاء الناس من القرى والجيال والمدن ليشهدوا عقاب الذى تجرأ على الآلهة وحطما واعترف بذلك وسخر من الكهنة .

وحفروا حفرة عظيمة مألوها بالحطب والخشب والأشجار .. وأشعلوا فيها النار .. واحضروا المنجنيق وهو آلة جبارة ليذفوا إبراهيم منها فيسقط فى حفرة النار .. ووضعوا إبراهيم بعد أن قيدوا يديه وقدميه فى المنجنيق . واشتعلت النار فى الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء .. وكان

(١) الآيات من ٥١ إلى ٦٨ من سورة الانبياء مكية ..

الناس يقفون بعيدا عن الحفرة من فرط الحرارة اللاهبة .. وأصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق ابراهيم فى النار .

جاء جبريل عليه السلام ووقف عند رأس ابراهيم وسأله :

— يا ابراهيم .. ألك حاجة .

قال ابراهيم : أما اليك فلا .

انطلق المنجنيق ملقيا ابراهيم فى حفرة النار .

هبط ابراهيم فى النار مثلما يهبط بقدمه درجة سلم فى حديقة ندية .

كانت النار موجودة فى مكانها .. ولكنها لم تكن تمارس وظيفتها فى الاحراق .

أصدر الله جل جلاله الى النار أمرا .

قال تعالى :

« قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » [١] .

أطاعت النار فكانت بردا وسلاما على ابراهيم . أحرقت قيوده فقط . وجلس ابراهيم وسطها كأنه يجلس وسط حديقة . كان يسبح بحمد ربه ويبجده . لم يكن قلبه يسع غير حب الله .

لم يكن فى قلبه مكان خال يمكن أن يمتلىء بالخوف أو الرهبة أو الجزع . كان القلب مليئا بالحب وحده .

ومات الخوف .. وقضت الرهبة .. واستحالت النار الى سلام بارد يطفئ عنه حرارة الجو . ان الذين يحبون الله مثله لا يخافون .. لا توجد الكلمة فى قوايمهم أبدا .

.....

جلس الذهب والكبار والكهنة يرقبون النار من بعد .. كانت حرارتها تدفع فى وجوههم صهدا حارقا وتكاد تزهرق أرواحهم .. وظلت النار تشتعل فترة طويلة حتى ظن الكافرون أنها لن تنطفئ أبدا .. فلما انطفأت فوجئوا بابراهيم يخرج من الحفرة سليما كما دخل . وجوههم مسودة من دخان الحريق ، ووجهه يتلألأ بالنور والجلال . ثيابهم أحترق نصفها بسبب ما تساقط عليها من الأخشاب الملتهبة .. وثيابه كما هى لم تحترق .. عليهم أثر الدخان والحريق ، وليس عليه أى أثر للدخان أو الحريق .

خرج ابراهيم من النار كما لو كان يخرج من حديقة .

وتصاعدت صيحات الدهشة الكافرة .

خسروا جولتهم خسارة مريرة وساخرة .

« وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » [٢] .

(١) الآية ٦٩ من سورة الأنبياء مكية .

(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنبياء مكية .

لا يحدثنا القرآن الكريم عن عمر ابراهيم حين حطم اصنام قومه ،
لا يحدثنا عن السن التي كلف فيها بالدعوة الى الله ..
ويبدو من استقراء النصوص القديمة أن ابراهيم كان شابا صغيرا
حين فعل ذلك ، بدليل قول قومه عنه :

« سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » [١] .

والفتى تطلق على السن الذى يسبق العشرين .. ويحدثنا القديس
برنابا فى انجيله أن ابراهيم حطم الاصنام قبل أن يكلفه الله تعالى بالدعوة .
يقول برنابا فى الفصل التاسع والعشرين أن ابراهيم سمع صوتا
يناديه ..

سأل ابراهيم : من ينادينى ؟

حينئذ سمع قائلا يقول : « أنا ملاك الله جبريل »

فارتاع ابراهيم ولكن الملاك سكن روعه قائلا :

لا تخف يا ابراهيم لانك خليل الله ، فانك لما حطمت آلهة الناس
تحطيمها اصطفاك اله الملائكة والانبياء حتى أنك كتبت فى سفر
الحياة .

وتمضى كلمات برنابا فيقول : ان ابراهيم تساءل ماذا يفعل ليعبد اله
الملائكة والانبياء .. وأجابه جبريل أن يذهب لهذا ينبوع ويغتسل ويصعد
الجبل ليكلمه الله تعالى .

وارتقى ابراهيم الجبل وجثا على ركبتيه وناداه الله تعالى ..

أجاب ابراهيم : من ينادينى .

قال الله تعالى : أنا الهك يا ابراهيم ..

وارتاع ابراهيم وسجد على الأرض معفرا وجهه وهو يقول :

— كيف يصغى عبدك اليك يارب وهو تراب ورماد ..

هنالك يأمره الله تعالى أن ينهض لأنه اصطفاه عبدا له ، وباركه هو
ومن يتبعه ..

.....

هذه الرواية تحدد زمن اصطفاء ابراهيم وتكليفه بالنبوة بعد تحطيمه
لعباداة الاصنام والكواكب ..

ولعل هذه اللحظات المضيئة التى تجلى فيها الحق تبارك وتعالى على
عبده ابراهيم هى التى تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى فى
سورة البقرة :

« اذ قال له ربه : اسلم . قال : اسلمت لرب العالمين » [٢] .

.....

(١) من الآية ٦٠ سورة الانبياء مكية .

(٢) الآية ١٣١ مدنية .

وعلى أى حال ..

فان زمن اصطفاء الله تعالى لأبراهيم غير محدد فى القرآن .. وبالتالى فنحن لا نستطيع أن نقطع فيه بجواب نهائى ..

كل ما نستطيع أن نقطع فيه برأى ، أن ابراهيم اقام الحجة على عبدة التماثيل بشكل قاطع ، كما اقامها على عبدة النجوم والكواكب من قبل بشكل حاسم ، ولم يبق الا أن تقام الحجة على الملوك المتألهين وعبادهم .
وبذلك تقوم الحجة على جميع الكافرين .

.....

وهكذا يرفع الستار على هذا المشهد .

ابراهيم فى حوار مع ملك يعتقد انه اله .

نقول يعتقد والله أعلم بما فى نفسه .. ربما كان قومه يعبدونه ، وهو يوافقهم على عبادته استخفافا بعقولهم ، واحتقارا لهم ، وحفاظا على مصالحه .. وربما كان حقا قد تصور أنه اله لأن الله آتاه الملك .

نسى أنه مجرد بشر ، وطمس السلطان على قلبه فلم يعد يبصر بشريته .. لا يهم أى نوع منهما كان الملك الذى اشتبك ابراهيم معه فى حوار .. ولا ندري هل كان ملكا على قوم ابراهيم وسمع بخبر معجزته فاستدعاه ليجادله .. أم كان ملكا آخر .. كل ما ندريه أن اللقاء بينهما أسفر عن سقوط آخر حجج القلاع الكافرة .

قال الله تعالى فى سورة البقرة :

((ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ؟ ان قال ابراهيم : ربي الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم : فان الله ياتى بالنسيم من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين)) [١] .

تجاوز الله تعالى اسم الملك لانعدام أهميته ، كما تجاوز حقيقة مشاعره ، كما تجاوز الحوار الطويل الذى دار بين ابراهيم وبينه ..

ربما قال الملك لابراهيم : سمعت انك تدعوا لاله جديد ..

قال ابراهيم : أهناك اله جديد واله قديم ؟ . ليس هناك غير اله واحد أيها الملك هو الله ..

قال الملك : ما الذى يستطيع ربك أن يفعله ولا أفعله أنا .

كان الملك مصابا بكبرياء الملك ومرض الغرور ، وكان استسلام الناس له يزيد من احساسه بالكبرياء والغرور .. استمع ابراهيم الى الملك وأدرك كل شئ .. وقال ابراهيم بهدوء :

« ربي الذى يحيى ويميت .. » [٢] .

(١) الآية ٢٥٨ مدنية . (٢) من الآية نفسها .

قال الملك :

« أنا أحيى وأميت .. » [١] .

لم يتساءل ابراهيم كيف يحيى الملك ويميت .. كان يعرف انه كاذب .. عاد الملك يقول :

— أستطيع أن احضر رجلا يسير فى الشارع وأقتله ، وأستطيع أن أعفو عن محكوم عليه بالاعدام وأنجيه من الموت .. وبذلك اكون قادرا على الحياة والموت ..

ابتسم ابراهيم لسذاجة ما يقوله الملك .. وأحس الحزن فى نفسه .. غير أنه أراد أن يثبت للملك أنه يتوهم فى نفسه القدرة وهو فى الحقيقة ليس قادرا ..

قال ابراهيم :

« فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » [٢].

استمع الملك الى تحدى ابراهيم صامتا .. فلما انتهى كلام النبى بهت الملك .. أحس بالعجز ولم يستطع أن يجيب .. لقد أثبت له ابراهيم أنه كاذب .. قال له أن الله يأتى بالشمس من المشرق .. فهل يستطيع هو أن يأتى بها من المغرب .. ان للكون نظما وقوانين يمضى طبقا لها .. قوانين خلقها الله ولا يستطيع أى مخلوق أن يتحكم فيها .. ولو كان الملك صادقا فى ادعائه الالهوية فليغير نظام الكون وقوانينه ..

ساعتها أحس الملك بالعجز .. وأخرسه التحدى .. ولم يعرف ماذا يقول ، ولا كيف يتصرف .. انصرف ابراهيم من قصر الملك ، بعد أن بهت الذى كفر ..

.....

انطلقت شهرة ابراهيم فى المملكة كلها .. تحدث الناس عن معجزته ونجاته من النار ، وتحدث الناس عن موقفه مع الملك وكيف أحرس الملك فلم يعرف ماذا يقول .. واستمر ابراهيم فى دعوته لله تعالى .. بذل جهده ليهدى قومه ، حاول اقناعهم بكل الوسائل ، ورغم حبه لهم وحرصه عليهم فقد غضب قومه وهجروه ، ولم يؤمن معه من قومه سوى امرأة واحدة ورجل واحد .. امرأة تسمى سارة .. وقد صارت فيما بعد زوجته ، ورجل هو لوط ، وقد صار نبيا فيما بعد . وحين أدرك ابراهيم أن أحدا لن يؤمن بدعوته .. قرر الهجرة .

قبل أن يهاجر دعا والده للايمان ، ثم تبين لابراهيم أن والده عدو لله ، وأنه لا ينوى الايمان ، فتبرا منه وقطع علاقته به .

للمرة الثانية فى قصص الأنبياء نصادف هذه المفاجأة ..

(١) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة مدنية .

(٢) من الآية ٢٥٨ سورة البقرة مدنية .

فى قصة نوح كان الأب نبيا والابن كافرا ، وفى قصة ابراهيم كان الابن كافرا والابن نبيا ، وفى القصتين نرى المؤمن يعلن براءته من عدو الله رغم كونه ابنه أو والده ، وكان الله يفهمنا من خلال القصة أن العلاقة الوحيدة التى ينبغى أن تقوم عليها الروابط بين الناس .. هى علاقة الايمان لا علاقة الميلاد أو الدم .

قال تعالى فى سورة التوبة :

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ، أن ابراهيم لأواه حلیم » [١] .

خرج ابراهيم عليه السلام من بلده وبدأ هجرته .

سافر الى مدينة تدعى أور .. ومدينة تسمى حاران .. ثم رحل الى فلسطين ومعه زوجته .. المرأة الوحيدة التى آمنت به .. وصحب معه لوطا .. الرجل الوحيد الذى آمن به .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

« فآمن له لوط ، وقال : انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم » [٢] .

.....

بعد فلسطين ذهب ابراهيم الى مصر .. وطوال هذا الوقت وخلال هذه الرحلات كلها ، كان يدعو الناس الى عبادة الله ، ويحارب فى سبيله ، ويخدم الضعفاء والفقراء ، ويعدل بين الناس ، ويهديهم الى الحقيقة والحق .

وكانت زوجته « سارة » لا تلد .. وكان ملك مصر قد أعطاها سيدة مصرية لتكون فى خدمتها ، وكان ابراهيم قد صار عجوزا ، وأبيض شعره خلال عمر أبيض أنفقه فى الدعوة الى الله ، وفكرت سارة أنها و ابراهيم وحيدان ، وهى لا تنجب اولادا ، ماذا لو قدمت السيدة المصرية لتكون زوجة لزوجها ، وكان اسم المصرية « هاجر » وهكذا زوجت سارة سيدنا ابراهيم من هاجر ، وولدت هاجر ابنها الأول فأطلق والده عليه اسم « اسماعيل » .

كان ابراهيم عجوزا حين ولدت له هاجر أول ابنائه اسماعيل .

.....

عاش ابراهيم فى الأرض تلبا يعبد الله ويسبح بحمده ويقدم له .
ولسنا نعرف أبعاد المسافات التى قطعها ابراهيم فى رحلته الى الله . كان دائما .. هو المسافر الى الله ..

سواء استقر به المقام فى بيته أو حملته خطواته سائحا فى الأرض .

(١) الآية ١١٤ مدنية .

(٢) الآية ٢٦ مكية .

ميسافر الى الله يعلم أنها أيام على الأرض وبعدها يجيء الموت ثم ينفخ فى الصور وتقوم قيامة الأموات ويقع البعث .

ملاً اليوم الآخر قلب ابراهيم بالسلام والحب واليقين . وأراد أن يرى يوماً يد الجلال الخالق وهى تعمل .. أراد أن يرى يوم القيامة قبل وقوعه .. حكى الله هذا الموقف فى سورة البقرة .. قال تعالى :

« واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى » [١] .

لا تكون هذه الرغبة فى طمأنينة القلب مع الايمان الا درجة من درجات الحب لله ..

« قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن ياتينك سعياً ، وأعلم أن الله عزيز حكيم » [٢] .

فعل ابراهيم ما أمره به الله .

ذبح أربعة من الطير وفرق أجزاءها على الجبال .. ودعاها باسم الله فنهض الريش يلحق بجناحه ، وبحثت الصدور عن رؤوسها ، وتطأيرت أجزاء الطير مندفعة نحو الالتحام ، والتقت الضلوع بالقلوب لقاء العشاق ، وسارعت الأجزاء الذبيحة للالتئام ، ودبت الحياة فى الطير ، وجاءت طائرة مسرعة ترمى بنفسها فى أحضان ابراهيم .

اعتقد بعض المفسرين أن هذه التجربة كانت حب استطلاع من ابراهيم .. واعتقد بعضهم أنه أراد أن يرى يد الجلال الخالق وهى تعمل ، فلم ير الأسلوب وان رأى النتيجة . واعتقد بعض المفسرين انه اكتفى بما قاله له الله ولم يذبح الطير .

ونعتقد أن هذه التجربة كانت درجة من درجات الحب قطعها المسافر الى الله ، ابراهيم .

يظل من يحب دائماً فى موقع الرغبة والخشوع والاستزادة .

وإذا كان من نحب — سبحانه — يتعالى عن ادراك الأبصار .. فلتكن الرحلة تأملاً فى آثاره وقدرته ..

وكذلك كانت رحلة ابراهيم . وكذلك كان حبه .. يزيد عطشه كلما ارتوى ..

.....

استيقظ ابراهيم يوماً فأمر زوجته هاجر أن تحمل ابنها وتستعد لرحلة طويلة . وبعد أيام بدأت رحلة ابراهيم مع زوجته هاجر ومعها ابنهما اسماعيل .. وكان الطفل رضيعاً لم يقطم بعد .

وظل ابراهيم يسير وسط أرض مزروعة تأتى بعدها صحراء

(١) من الآية ٢٦٠ مدنية .

(٢) من الآية ٢٦٠ مدنية .

تجىء بعدها جبال .. حتى دخل الى صحراء الجزيرة العربية ،
وقصد ابراهيم وادبا ليس فيه زرع ولا ثمر ولا شجر ولا طعام ولا مياه
ولا شراب . كان الوادى يخلو تماما من علامات الحياة . وصل ابراهيم الى
الوادى ، وهبط من فوق ظهر دابته .. وانزل زوجته وابنه وتركهما هناك ،
ترك معهما جرابا فيه بعض الطعام ، وقليلًا من الماء لا يكفى يومين ..
ثم استدار وتركهما وسار ..

أسرعت خلفه زوجته وهى تقول له :

— يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه شىء ؟ ..
لم يرد عليها سيدنا ابراهيم .. ظل يسير .. عادت تقول له ما قالته
وهو صامت ، أخيرا فهمت أنه لا يتصرف هكذا من نفسه ، أدركت أن
الله أمره بذلك وسألته : هل الله أمرك بهذا ؟

قال ابراهيم عليه السلام : نعم ..

قالت زوجته المؤمنة العظيمة : لن نضيع مادام الله معنا وهو الذى
أمرك بهذا .

وسار ابراهيم حتى اذا اخفاه جبل عنهما وقف ورفع يديه الكريمتين الى
السماء وراح يدعو الله :

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بينك
المحرم » [1] .

لم يكن بيت الله قد أعيد بناؤه بعد ، لم تكن الكعبة قد بنيت ، وكانت هناك
حكمة عليا فى هذه التصرفات الغامضة ، فقد كان اسماعيل الطفل الذى ترك
مع أمه فى هذا المكان ، كان هذا الطفل هو الذى سيصير مسئولا مع والده
عن بناء الكعبة فيما بعد .. وكانت حكمة الله تقضى أن يمتد العمران الى هذا
الوادى ، وأن يقام فيه بيت الله الذى نتجه جميعا اليه أثناء الصلاة بوجوهنا .

ترك ابراهيم زوجته وابنه الرضيع فى الصحراء وعاد راجعا الى كفاحه
فى دعوة الله .. أرضعت أم اسماعيل ابنها وأحست بالعطش .. كانت
الشمس ملتهبة وساخنة وتثير الاحساس بالعطش .. بعد يومين انتهى الماء
تماما ، وجف لبن الأم .. وأحست هاجر واسماعيل العطش .. كان الطعام
قد انتهى هو الآخر .. وبدا الموقف صعبا وحرًا للغاية ..

بدأ اسماعيل يبكى من العطش .. وتركته أمه وانطلقت تبحث عن ماء ..
راحت تمشى مسرعة حتى وصلت الى جبل اسمه « الصفا » .. فسعدت اليه
ووضعت يديها فوق جبينها لتحمى عينيها من الشمس وضيقت عينيها وراحت
تبحث بهما عن بئر أو انسان أو قافلة أو حس أو خير ..
لم يكن هناك شىء ..

ونزلت مسرعة من الصفا حتى اذا وصلت الى الوادى راحت تسعى
سمى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ووصلت الى جبل « المروة » ،
فسعدت عليه ونظرت لترى أحدا لكنها لم تر أحدا .

وعادت الأم الى طفلها فوجدته يبكى وقد اشتد عطشه .. وأسرعت الى
الصفا فوقفت عليه ، وهرولت الى المروة فنظرت من فوقه .. وراحت تذهب

(1) من الآية ٣٧ سورة ابراهيم مكة .

وتجىء سبع مرات بين الجبلين الصغيرين .. سبع مرات وهى تذهب وتعود .. ولهذا يذهب الحجاج سبع مرات ويعودون بين الصفا والمروة احياء لذكرىات أمهم الاولى ونبيهم العظيم اسماعيل .

عادت هاجر بعد المرة السابعة وهى مجهدة متعبة تلهث .. وجلست بجوار ابنها الذى كان صوته قد بح من البكاء والعطش .

وفى هذه اللحظة اليايسة أدركتها رحمة الله ، وضرب اسماعيل بقدمه الأرض وهو يبكى فانفجرت تحت قدمه بئر زمزم ..

وفار الماء من البئر ..

أنقذت حياة الطفل والام ..

راحت الأم تغرف الماء بيدها وهى تشكر الله .. وشربت وسقت طفلها وبدأت الحياة تدب فى المنطقة ..

صدق ظنها حين قالت : لن نضيع مادام الله معنا .

وبدأت بعض القوافل تستقر فى المنطقة .. وجذب الماء الذى انفجر من بئر زمزم .. عديدا من الناس .. وبدأ العمران يبسط أجنحته على المكان .

وكبر اسماعيل قليلا ..

وتعلق به قلب ابراهيم ..

جاءه العقب على كبر فأحبه ..

وابتلى الله تعالى ابراهيم بلاء مبينا بسبب هذا الحب .

حكى الله تبارك وتعالى موقف ابتلاء ابراهيم فى سورة الصافات . قال عز وجل :

((وقال : انى ذاهب الى ربي سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى ، قال : يابنى : انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : ياأبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان نساء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناينا ان يا ابراهيم : قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخريين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزى المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين)) [١] .

أنظر كيف يختبر الله عباده .

تأمل أى نوع من انواع الاختبار ..

نحن أمام نبى قلبه أرحم قلب فى الأرض . اتسع قلبه لحب الله وحب

(١) الآيات من ٩٩ الى ١١١ مكية .

من خلق .. جاءه ابن على كبر .. وقد طعن هو فى السن ولا أهل هناك فى أن ينجب .. ثم ها هو ذا يستسلم للنوم فيرى فى المنام أنه يذبح ابنه وبكره ووحيدته الذى ليس له غيره .

أى صراع نشب فى نفسه .

أى نوع من الصراع نشب فى نفسه .

يخطيء من يظن أن صراعا لم ينشأ قط . لا يكون بلاء مبينا هذا الموقف الذى يخلو من الصراع .. نشب الصراع فى نفس ابراهيم .. صراع أثارتها عاطفة الأبوة الحانية .. فكر ابراهيم لماذا .. وجاءه الجواب انه هكذا أراه الله .. ورؤيا الأنبياء حق .. لقد رأى نفسه فى المنام يذبح ولده الوحيد .. هذا وحى من الله أن يذبح ولده الوحيد .

لماذا .. ؟

أزاحها ابراهيم من تفكيره .. ليس ابراهيم هو الذى يسأل الله لماذا أو لآى سبب ؟

لا يسأل المحب لماذا ..

وابراهيم سيد العاشقين ..

فكر ابراهيم فى ولده .. ماذا يقول عنه اذا أرتده على الأرض ليذبحه . الأفضل أن يقول لولده ليكون ذلك أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قهرا ويذبحه قهرا .

هذا أفضل .. انتهى الأمر وذهب الى ولده .

« قال : يا بنى : انى أرى فى المنام انى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ » [١]

أنظر الى تلاففه فى ابلاغ ولده ، وترك الأمر لينظر فيه الابن بالطاعة .. ان الأمر مقضى فى نظر ابراهيم لأنه وحى من ربه .. فماذا يرى الابن الكريم فى ذلك . أجاب اسماعيل بن ابراهيم بنفس جواب ابراهيم .. هذا أمر يا أبى فبادر بتنفيذه ..

« يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » [٢] .

تأمل رد الابن .. انسان يعرف أنه سيذبح فيمتثل للأمر الإلهى ويقدم المشيئة ويطمئن والده أنه سيجده .. ان شاء الله .. من الصابرين .

هو الصبر على أى حال وعلى كل حال .

وربما استعذب الابن أن يموت ذبحا بأمر من الله .. ها هو ابراهيم يكتشف أن ابنه ينافس فى حب الله .

لا نعرف أى مشاعر جاشت فى نفس ابراهيم بعد استسلام ابنه الصابر .

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكة .
(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكة ..

لا نعرف ..

ينقلنا الحق نقلة خاطفة فاذا اسماعيل راقد على الأرض ، وجهه فى الأرض رحمة به كيلا يرى نفسه وهو يذبح .

وإذا ابراهيم يرفع يده بالسكين .. وإذا أمر الله مطاع ..

((فلما أسلما ..)) [١] .

استخدم القرآن هذا التعبير .

فلما أسلما .

هذا هو الاسلام الحقيقى .

تعطى كل شىء فلا يتبقى لك منك شىء .

عندئذ فقط .. وفى اللحظة التى كان السكين فيها يتهيا لامضاء أمره .. نادى الله ابراهيم .

انتهى اختباره ، وفدى الله اسماعيل بذبح عظيم ، وصار اليوم عيداً لقوم لم يولدوا بعد .. هم المسلمون ..

صارت هذه اللحظات عيداً للمسلمين ..

عيداً يذكرهم بمعنى الاسلام الحقيقى الذى كان عليه ابراهيم واسماعيل .

ومضت قصة ابراهيم .

ترك ولده اسماعيل وعاد يضرب فى أرض الله داعياً اليه ، خليلاً له وحده ..

ومرت الأيام .. كان ابراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه فى العراق وعبر الأردن وسكن فى أرض كنعان فى البادية .. ولم يكن ابراهيم ينسى خلال دعوته الى الله أن يسأل عن أخبار لوط مع قومه ، وكان لوط أول من آمن به ، وقد أثابه الله بأن بعثه نبياً الى قوم من الفاجرين العصاة

.....

الوقت يثرب من الظهيرة ..

ابراهيم يجلس خارج خيمته .. يفكر فى ولده اسماعيل وقصة الرؤيا . وهما لله له بذبح عظيم .. قلبه يمتلىء بالخشوع والحب .. لا يعرف كيف يحصى ثناءه على ربه .. تفيض عيناه نيابة عنه فى الشكر . انحدرت قطرة كبيرة من دموع ابراهيم ، فتذكر ابتعاد اسماعيل عنه وشوقه اليه .

نفس هذه اللحظة .

هبطت على الأرض أقدام ثلاثة من الملائكة :

جبريل واسرافيل وميكائيل .

(١) من الآية ١٠٣ سورة الصافات مكة .

ينشككون فى صور بشرية . ثلاث صور بشرية من الجمال الخارق .
ساروا صامتين . مهمتهم مزدوجة . المرور على ابراهيم وتبشيريه . . ثم
زيارة قوم لوط ووضع حد لجرائمهم .

سار الملائكة الثلاثة قليلا . .

التي احدثهم حصاة امام ابراهيم . . رفع ابراهيم رأسه . . تأمل وجوههم
. . لا يعرف احدا فيهم . . بادروه بالتحية .

قالوا : سلاما .

قال : سلام .

نهض ابراهيم ورحب بهم . . ادخلهم بيته وهو يظن انهم ضيوف وغرباء . .
اجلسهم واطمان انهم قد اطمانوا ، ثم استأذن وخرج . . راغ الى اهله .

نهضت زوجته سارة حين دخل عليها . . كانت عجوزا قد ابيض شعرها
ولم يعد يتوهج بالشباب فيها غير وميض الايمان الذى يطل من عينيها .

قال ابراهيم لزوجته : زارنا ثلاثة غرباء .

سألته : من يكونون ؟

قال : لا اعرف احدا فيهم . . وجوه غريبة على المكان . . لا يرب انهم من
مكان بعيد . . غير ان ملابسهم لا تشى بالسفر الطويل . . اى طعام جاهز
لدينا ؟ .

قالت : نصف شاة .

قال : وهو يهم بالانصراف — نصف شاة . . اذبحى لهم عجلا سمينا . .
هم ضيوف وغرباء . . ليست معهم دواب أو أحمال أو طعام . . ربما كانوا
جوعى وربما كانوا فقراء .

اختار ابراهيم عجلا سمينا وأمر بذبحه ، فذكروا عليه اسم الله وذبحوه . .
وبدا شواء العجل على الحجارة الساخنة . . وأعدت المائدة . . ودعا ابراهيم
ضيوفه الى الطعام ، وأوقف زوجته فى خدمتهم زيادة فى الاكرام والحفاوة
. . ووضع العجل المشوى امام الضيوف .

وأشار ابراهيم بيده أن يتفضلوا باسم الله ، وبدأ هو يأكل ليشجعهم .

كان ابراهيم كريما يعرف أن الله لا يتخلى عن الكرماء . . وربما لم يكن فى
بيته غير هذا العجل . . وضيوفه ثلاثة . . ونصف شاة يكفيهم ويزيد ، غير
أنه كان سيدا عظيم الكرم .

راح ابراهيم يأكل ثم استرق النظر الى ضيوفه ليطمئن انهم يأكلون . لاحظ
أن احدا لا يمد يده الى الطعام . . قرب اليهم الطعام وقال : ألا تأكلوا . عاد
الى طعامه ثم احتلس اليهم نظرة فوجدهم لا يأكلون . . رأى أيديهم لاتصل
الى الطعام . .

عندئذ أوجس منهم خيفة . فى تقاليد البادية التى عاش فيها ابراهيم . .
كان معنى امتناع الضيوف عن الاكل انهم يقصدون شرا بصاحب البيت .

ولاحظ ابراهيم بينه وبين نفسه أكثر من ملاحظة تؤيد غرابة ضيوفه .
لاحظ أنهم دخلوا عليه فجأة . لم يرههم الا وهم عند رأسه . لم يكن معهم
دواب تحملهم ، لم تكن معهم أحمال . . وجوههم غريبة تماما عليه . كانوا
مسافرين وليس عليهم أثر لترايب السفر . ثم هاهو يدعوهم الى طعامه
فيجلسون الى المائدة ولا يأكلون . .
ازداد خوف ابراهيم . . رفع نظره فوجد امراته سارة تقف في نهاية
الحجرة .

حاول أن يقول لها بنظراته الصامتة أنه خائف من ضيوفه فلم تفهم المرأة . .
ونكر ابراهيم في رجاله وخدمه وقومه . ان عدد ضيوفه ثلاثة . .
وهم في مقبل الشباب ، وهو رجل عجوز وشيخ .
كان الملائكة يقرأون أفكاره التي تدور في نفسه ، دون أن يشي بها وجهه .
قال له أحد الملائكة : لا تخف .

رفع ابراهيم رأسه وقال بصدق عظيم وبراعة : أعترف أنني خائف .
لقد دعوتكم الى الطعام ورحبت بكم ، ولكنكم لا تمدون أيديكم اليه . هل
تسوون بي شرا .

ابتسم أحد الملائكة وقال : نحن لا نأكل يا ابراهيم . . نحن ملائكة الله . .
وقد أرسلنا الى قوم لوط .
ضحكت زوجة ابراهيم . . كانت قائمة تتابع الحوار بين زوجها وبينهم
فضحكت .

التفت اليها أحد الملائكة وبشرها بأسحق . .

— يبشرك الله بأسحق . .

صكت العجوز وجهها تعجبا وقالت :

« يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا » [١] .

عاد أحد الملائكة يقول لها :

« ومن وراء أسحق يعقوب » [٢] . سنشهدين ولادة ابن ابنك .

جاشت المشاعر في قلب ابراهيم وزوجته . . شف جو الحجرة وانسحب
خوف ابراهيم واحتل قلبه نوع من أنواع الفرح الغريب المختلط . . كانت
زوجته المعاصر تقف هي الأخرى وهي ترتجف . . ان بشارة الملائكة تهز روحها
هزا عميقا . . انها عجوز عقيم . . وزوجها شيخ كبير . . كيف . . كيف يمكن ؟
وسط هذا الجو الندى المضطرب تساءل ابراهيم :

« أبشروني على أن مسنى الكبر ، فبم تبشرون » [٣] .

(١) الآية ٧٢ سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٧١ من سورة هود مكية .

(٣) الآية ٥٤ من سورة الحجر مكية .

أكان يريد أن يسمع البشارة مرة أخرى .. أكان يريد أن يطمئن قلبه
ويسمع للمرة الثانية منة الله عليه .

أكان ما بنفسه شعور بشرى يريد أن يستوثق .. ويهتز بالفرح مرتين بدلا
من مرة واحدة .. أكد له الملائكة أنهم بشروه بالحق ..

« قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين » [١] .

« قال : ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » [٢] .

لم يفهم الملائكة احساسه البشرى ، فنهوه عن أن يكون من القانطين ،
وأفهمهم أنه ليس قانطا .. إنما هو الفرح . كان رد الفعل على زوجة ابراهيم
عليه الصلاة والسلام مدهشا .. عادت للمرة الثانية تتدخل فى الحديث ..
تساءلت بين الدهول والدهشة :

— أألد وأنا عجوز .. ان هذا لشيء عجيب .

رد الملائكة : **« قالوا : أتعجبين من أمر الله + رحمة الله وبركاته عليكم أهل
البيت انه حميد مجيد » [٣]** .

لم تكن البشرى شيئا بسيطا فى حياة ابراهيم وزوجته .. لم يكن لابراهيم
غير ولد واحد هو اسماعيل ، تركه هناك بعيدا فى الجزيرة العربية .

ولم تكن زوجته سارة قد أنجبت خلال عشرتها الطويلة لابراهيم ، وهى
التي زوجته من جاريتها هاجر .. ومن هاجر جاء اسماعيل .. أما سارة ،
فلم يكن لها ولد .. وكان حنينها الى الولد عظيما ، لم يطفىء مرور الأيام من
توجهه .. ثم دخلت شيخوختها واحتضر طمها ومات .

كانت تقول : انها مشيئة الله عز وجل .

هكذا أراد لها .. وهكذا أراد لزوجها .

ثم ها هى فى مغيب العمر تتلقى البشارة .

ستلد غلاما ..

ليس غلاما عاديا ..

قالت الملائكة : غلام عليم .

ليس هذا فحسب .. بشرتها الملائكة أن ابنها سيكون له ولد تشهد مولده
وتشهد حياته .. لقد صبرت طويلا ثم يئست ثم نسيت .

ثم يجيء جزاء الله مفاجأة تحو هذا كله فى لحظة ..

فاضت دموعها وهى تقف .. هزتها الفرحة فانخرطت فى بكاء صامت
لا تعرف كيف طاوعتها نفسها عليه أمام أغراب ..

وأحس ابراهيم عليه الصلاة والسلام باحساس محير .. جاشت نفسه

(١) الآية ٥٥ من سورة الحجر مكية .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الحجر مكية .

(٣) الآية ٧٣ من سورة هود مكية .

بمشاعر الرحمة والقرب ، وعاد يحس أنه ازاء نعمة لا يعرف كيف يوفيها
حقها من الشكر .

وخر ابراهيم ساجدا على وجهه .

ان ابنه اسماعيل هناك .. بعيدا منه ولا يراه .. وهو موجود هناك
بأمر الله .. أمره الله أن يحمله مع أمه ويتركهما في واد غير ذى زرع وماء .
هكذا بغير تفسير أو ايضاح .

وصدع ابراهيم بالأمر .. وعاش يدعو الله وحده .. ها هو الله تعالى
يشره بعد شيخوخته أنه سينجب اسحق من سارة .. ومن بعده يعقوب .

انتهى الأمر واستقرت البشرى في ذهنيهما معا .. نهض ابراهيم من
سجوده فوقعت عينه على الطعام .. أحس أنه لا يستطيع أن يستمر في
الأكل من فرط فرحته . أمر خدمه أن يحملوا الطعام والتفت الى الملائكة .

ذهب عنه خوفه ، واطمأنت حيرته ، وغادره الروح ، وسكنت قلبه البشري
التي حملوها اليه . وتذكر انهم أرسلوا الى قوم لوط .. ولوط ابن أخيه
النازح معه من مسقط رأسه ، والسكن على مبعدة قريبة منه .. وابراهيم
يعرف معنى ارسال الملائكة الى لوط وقومه .. هذا معناه وقوع عذاب مروع
.. وطبيعة ابراهيم الرحيم الودود لا تجعله يطيق هلاك قوم في تسليم
.. ربما رجع قوم لوط وأقلعوا وأسلموا وأجابوا رسولهم .. ربما حدث هذا

وبدا ابراهيم يجادل الملائكة في قوم لوط .

حدثهم عن احتمال ايمانهم ورجوعهم عن طريق الفجور ، وأنهم الملائكة ان
هؤلاء قوم مجرمون .. وأن مهمتهم هي ارسال حجارة من طين مسومة عند
ربك للمسرفين .. وعاد ابراهيم ، بعد أن سد الملائكة باب هذا الحوار ،
عاد يحدثهم عن المؤمنين من قوم لوط . سألهم : اهلكون قرية فيها ثلاثمائة
مؤمن . قال الملائكة : لا .. فراح ينقص من عدد المؤمنين ويسألهم اهلكون
القرية وفيها هذا العدد من المؤمنين ..

ردته الملائكة بقولهم : نحن أعلم بمن فيها .

ثم أفهموه أن الأمر قد قضى .. وأن مشيئة الله تبارك وتعالى قد اقتضت
نفاذ الأمر وهلاك قوم لوط .. أفهموا ابراهيم أن عليه أن يعرض عن هذا
الحوار .. ليوفر حلمه ورحمته لقد جاء أمر ربه ، وتقرر عليهم عذاب غير
مردود .. عذاب لن يرده جدال ابراهيم ..

هذا النبي الحليم الأواه المنيب .

تسال تعالى في سورة هود :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا : سلاما ، قال : سلام ،
فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم
وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف ، انا أرسلنا الى قوم لوط .

وامراته قائمة فضحكت ، فبشرناها بأسحق ، ومن وراء اسحق يعقوب . قالت : ياويلتى ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ ان هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، انه حميد مجيد . فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى ، يجادلنا فى قوم لوط . ان ابراهيم لحليم اواه منيب . يا ابراهيم اعرض عن هذا انه قد جاء امر ربك ، وانهم آتيتهم عذاب غير مردود . . [١] .

كانت كلمة الملائكة ايدانا بنهاية الجدل . .

سكت ابراهيم .

واسدل الستار على هذا المشهد . . ليرتفع على نهاية قوم لوط . .

نستأذن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قليلا لنرى ماذا كان من امر لوط وقوم لوط .

قصة لوط

[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة الشعراء :

« كذبت قوم لوط المرسلين • اذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون • انى لكم رسول أمين • فاتقوا الله وأطيعون » [١]

.....

بهذا الرفق الندى والود المشفق دعا لوط قومه الى الله .

دعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن كسب السيئات والفواحش • واصطدمت دعوته بقلوب قاسية وأهواء مريضة ورفض متكبر . وكان القوم الذين بعث اليهم لوط يرتكبون عددا من الجرائم لا يتسع لها وقت أى مجرم متفرغ . كانوا يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويتواصون بالاثم ، ولا يتناهون عن منكر ، وقد زادوا فى سجل جرائمهم جريمة جديدة كل الجدة على الأرض . وظفوا طاقاتهم الانسانية ، وروح الابتكار فى جبلتهم ، لابتكار جريمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء .

قال تعالى فى سورة النمل :

« ولوطا اذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون » [٢] .

بم تظن قومه اجابوا اخلاصه فى النصيح وصدقته معهم ؟ .

اجابة مبتكرة هى الأخرى كجريمتهم ..

« فما كان جواب قومه الا ان قالوا : اخرجوا آل لوط من قريبتكم

انهم أناس يتطهرون » [٣] .

ليس شيئا مبتكرا أن يجعلوا غاية المدح ذما يقتضى الطرد والايحراج ..

يبدو أن نفسية قوم لوط كانت معكوسة بشكل ما .. ويبدو ان ظلهم لأنفسهم ، واستكبارهم على الحق ، قد قلب الأشياء أمام أعينهم .. فصار الرجال أهدافا مرغوبة بدلا من النساء ، وصار النقاء والطهر جريمة تستوجب الطرد .. كانوا مرضى يرفضون الشفاء ويقاومونه ..

(١) الآيات ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ مكتبة .

(٢) الآيات ٥٤ ، ٥٥ مكة .

(٣) الآية ٥٦ من سورة النمل مكة .

ولقد كانت تصرفات قوم لوط تحزن قلب لوط .. كانوا يرتكبون جريمتهم علانية فى ناديتهم .. وكانوا اذا دخل المدينة غريب او مسافر او ضيف لم ينقذه من ايديهم احد .. وكانوا يقولون للوط : استضيف انت النساء ودع لنا الرجال .. واستطارت شهرتهم الوبيلة ، وجاهدهم لوط جهادا عظيما ، واقام عليهم حجته ، ومرت الايام والشهور والسنوات ، وهو ماض فى دعوته بغير ان يؤمن له احد .. لم يؤمن به غير اهل بيته .. حتى اهل بيته لم يؤمنوا به جميعا ..

كانت زوجته كافرة مثل زوجة نوح ..

((ضرب الله مثلا للذين كفروا : امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل : ادخلا النار مع الداخلين)) [١] [سورة التحريم] ..

واذا كان بيت الانسان هو راحته التى يسكن اليها ، فقد كان لوط معذبا خارج بيته وداخل بيته .. كانت حياته عذابا متصللا ، وعننا شديدا ، وكان صابرا على قومه ، واستطالت السنوات ولم يؤمن به احد ، بل راحوا يهزأون برسالته ويقولون له فيما يقولون :

« اتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » [٢] .

لما وقع هذا يئس لوط منهم ، ودعا الله ان ينصره ويهلك المفسدين ..

.....

خرج الملائكة من عند ابراهيم قاصدين قرية لوط .. وصلوا ساعة العصر ..

بلغوا اسوار سدوم .. النهر يجرى وسط ارض مشجرة خضراء .. وابنة لوط واقفة تملأ وعاءها من مياه النهر ..

رفعت وجهها فشاهدتهم .. ادهشها ان يكون فى الارض رجال بهذا الجمال الساحر ..

سألها احد الثلاثة : يا جارية .. هل من منزل ... ؟

قالت [وهى تذكر قومها] : مكانكم لا تدخلوا حتى اخبر ابي وآتيكم ..

تركت وعاءها عند النهر وطارت مسرعة نحو ابيها ..

— ابتاه .. يريدك فتيان على باب المدينة .. ما رايت مثل وجوههم قط ..

قال لوط لنفسه : هذا يوم عصيب .. وهرع يجرى نحو ضيوفه ..

لم يكذب يراهم حتى سبى بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال : هذا يوم عصيب ..

سألهم من اين جاءوا ؟ .. وما هى وجهتهم ؟ .. فصمتموا عن اجابته

(١) الاية ١٠ مدنية .

(٢) من الاية ٢٩ من سورة العنكبوت مكة .

وسألوه أن يضيفهم .. استحيى منهم وسار أمامهم قليلا ثم توقف والتفت اليهم يقول :

— لا أعلم على وجه الأرض أخبث من أهل هذا البلد ..

قال كلمته ليصرفهم عن المبيت فى القرية .. غير أنهم غضبوا النظر عن قوله ولم يعلقوا عليه ..

وعاد يسير معهم ، ويلوى عنق الحديث ويقره قسرا ويمضى به الى أهل القرية .. حدثهم أنهم خبثاء .. أنهم يخزون ضيوفهم .. حدثهم أنهم يفسدون فى الأرض .. وكان الصراع يجرى داخله ، محاولا التوفيق بين أمرين ..

صرف ضيوفه عن المبيت فى القرية ، دون احراجهم ، وبغير أخلال بكرم الضيافة .. عبثا حاول افهامهم والتلميح لهم أن يستمروا فى رحلتهم ، دون نزول بهذه القرية ..

كانوا ضيوفا فى منتهى الغرابة ..

ساروا صامتين معظم الوقت .. فلما رأى اصرارهم على المبيت فى المدينة ، سألهم أن يمكثوا بهذا البستان حتى يأتى المغرب وتنزل العتمة على المدينة .. قال لنفسه : أخذهم الى البيت بعد أن يسقط الظلام فلا يراهم أحد من أهل القرية .. وأسلمهم خارج المدينة فى الفجر ..

كان حزينا .. ضيق الصدر .. أنساه الخوف والمهم أن يقدم اليهم طعاما ..

سقط الليل على المدينة ..

صحب لوط ضيوفه الثلاثة الى بيته .. لم يرههم من أهل المدينة أحد .. لم تكذب زوجته تشهد الضيوف حتى تسللت خارجة بغير أن تشعره ..

أسرعت الى قومها وأخبرتهم الخبر ..

وانتشر الخبر مثل شرارة من الكهرباء .. وهرع قومه اليه ..

قال تعالى فى سورة هود :

« ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقال : هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون اليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات » [١] ..

ها قد تحققت نبوءة لوط ..

بدأ اليوم العصيب ..

جاءه قومه يهرعون اليه .. جاءوا محمومين مسرعين .. تساءل لوط بينه وبين نفسه : من الذى أخبرهم ؟ .. وتلفت باحثا عن زوجته فلم يرها .. وزاد حزنا على حزن .. وقف القوم على باب البيت .. خرج اليهم لوط متعلقا بأمل أخير .. ماذا لو ناشدهم العقل ؟ .. ماذا لو حدثهم عن الفطرة

(١) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ مكية .

السليمة ؟ .. ماذا لو أيقظ داخلهم هذا الاحساس السوى الذى يوجه للجنس الآخر الذى خلقه الله ؟ .. هؤلاء بنساته موجودات فى داره .. هن رمز لكل النساء فى الأرض .. والنساء أطهر للرجال من الرجال للرجال ..

« وقال : يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد [١] .

« هؤلاء بناتى هن أطهر لكم » .. ما الذى تعنيه هذه العبارة ؟

أراد أن يقول لهم . أمامكم النساء فى الأرض .. هن أطهر بمعانى الطهر النفسى والحسى .. هن يلبين الفطرة السوية .. ويثرن مشاعر كذلك نظيفة .. ثم هن أطهر حسيا ، حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة كمنا طاهرا ..

« فاتقوا الله » .. يلمس نفوسهم من جانب التقوى بعد أن لمسها من جانب الفطرة .. اتقوا الله وتذكروا أن الله يسمع ويرى .. ويغضب ويعاقب وأجدر بالعقلاء اتقاء غضبه ..

« ولا تخزون فى ضيفى » .. هى محاولة يائسة للمس نخوتهم وتقاليدهم كبذو ينبغى عليهم أكرام الضيف لا فضحه ..

« أليس منكم رجل رشيد » .. اليس فيكم رجل عاقل ؟ .. ان ما تريده — لو تحقق — هو عين الجنون .. والعقل أولى بكم وأفضل .. ان الأمر أمر رشد وسفه .. الى جوار انها قضية فطرة ودين ومروءة ونخوة ..

انتظر قومه حتى فرغ من موعظته القصيرة وضجوا بالضحك .. لو انه فجر بينهم قنبلة من النكت ما فعلوا مثلما فعلوا .. لم تلمس كلماته الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلب الجامد الميت ، ولا العقل المريض الاحمق .. ظلت الفورة الشاذة على اندفاعها المحموم ..

« قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وانك لتعلم ما نريد » [٢] .

هكذا بصراحة تختبئ وراء تجهيل الأمر الذى تعرفه الدنيا كلها .. لم يقولوا له ما يريدونه لأن الدنيا تعرف ، وهو بالتالى يعرف .. اشارة سيئة الى العمل السيئ ..

سقط فى يد لوط ..

أحس ضعفه وهو غريب بين القوم .. نازح اليهم من بعيد بغير عشيرة تحميه ، ولا أولاد ذكور يدفعون عنه .. دخل لوط غاضبا وأغلق باب بيته .. وضع المزلاج فى الباب ووقف يستمع الى الضحكات والضربات التى تنهال على الباب ، فيصر الخشب القديم صريرا مزعجا ، يوحى بأنه سيكف عن مقاومته .. وقف لوط يرتعد وراء الباب خجلا وحزنا وأسفا ..

(١) من الآية ٧٨ من سورة هود مكية .

(٢) الآية ٧٩ من سورة هود مكية .

كان الغرباء الثلاثة الذين استضافهم لوط يجلسون هادئين صامتين ..
يحف بهم جو من الجلال .. ودهش لوط بينه وبين نفسه من هدوئهم ..
وزاد احساسه بالألم لأنهم وثقوا فيه واطمأنوا اليه .. لا يعرفون أنه غير
قادر على حمايتهم .. وازدادت ضربات القوم على الباب ..
بدأت أخشابه تنقوس وتتجه داخل البيت وتئن .. وصرخ لوط في لحظة
يأس خانق ..

« قال : لو ان لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد !! » [١] .

تمنى أن تكون له قوة تصدهم عن ضيفه .. وتمنى لو كان له ركن شديد
يحتمى فيه ويأوى اليه .. غاب عن لوط في شدته وكربته أنه يأوى الى ركن
شديد .. ركن الله الذى لا يتخلى عن أنبيائه وأوليائه .. قال رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ هذه الآية : « رحمة الله على لوط .. كان
يأوى الى ركن شديد » ..

عندما بلغ الضيق ذروته .. وقال النبى كلمته فطاربت مثل عصفور يائس
.. تحرك ضيوفه ونهضوا فجأة .. أفهموه أنه يأوى الى ركن شديد ..

« قالوا : يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك [٢] .

لا تجزع يا لوط ولا تخف .. نحن من الملائكة .. ولن يصل اليك هؤلاء
القوم ..

انكسر الباب فجأة ، واندمع الاعصار المحموم داخل بيت لوط ..

نهض جبريل ، عليه السلام ، وأشار بيده اشارة سريعة ، ففقد القوم
أبصارهم .. راحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم يظنون
أنهم يدخلونه .. طمست اشارة جبريل عليه السلام أبصارهم .. قال تعالى :

**« ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد
صبحهم بكرة عذاب مستقر » [٣] .**

التفت الملائكة الى لوط وأصدروا اليه أمرهم أن يصحب أهله أثناء الليل
ويخرج .. سيسمعون أصواتا مروعة تزلزل الجبال .. لا يلتفت منهم أحد
.. كى لا يصيبه ما يصيب القوم .. أى عذاب هذا ؟ .. هو عذاب من نوع
غريب ، يكفى لوقوعه بالمرء مجرد النظر اليه .. أفهموه أن امرأته كانت من
الغابرين .. امرأته كافرة مثلهم وستلتفت خلفها فيصيبها ما أصابهم ..

أخرج يا لوط فقد جاء أمر ربك ..

سأل لوط الملائكة : أينزل العذاب بهم الآن .. أنبأوه أن موعدهم مع
العذاب هو الصبح .. أليس الصبح بقريب ؟

قال تعالى :

« فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . انه

(١) الآية ٨٠ من سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .

(٣) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة القمر مكية .

**مصيبيها ما أصابهم ، ان موعدهم المصبح ، اليس المصبح
بقريب ؟» [١] .**

خرج لوط مع بناته وزوجته .. ساروا فى الليل وغذوا السير .. واقترب
المصبح ..

كان لوط قد ابتعد مع أهله ..

ثم جاء أمر الله تعالى ..

.....

**« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة
من سجيل منضود . مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين
ببعيد » [٢] .. [سورة هود] ..**

.....

قال العلماء : اقتلع جبريل ، عليه السلام ، بطرف جناحه مدنهم السبع
من قرارها البعيد .. رفعها جميعا الى عنان السماء حتى سمعت الملائكة
أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، قلب المدن السبع وهوى بها فى الأرض ..

أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم .. حجارة صلبة
قوية يتبع بعضها بعضا ، ومعلمة بأسمائهم ، ومقدرة عليهم ..

استمر الجحيم يمطرهم ..

وانتهى قوم لوط تماما ..

لم يعد هناك أحد .. نكست المدن على رؤوسها ، وغارت فى الأرض ،
حتى انفجر الماء من الأرض ..

هلك قوم لوط ومحيت مدنهم ..

تحولوا الى بحيرة من الموت ..

.....

كان لوط يسمع أصواتا مروعة .. وكان الهواء خلفه يتمزق .. وكان
يحاذر أن يلتفت خلفه ..

نظرت زوجته نحو مصدر الصوت فانتهت ..

نهراً جسدها وتفتت مثل عمود ساقط من الملح ..

قال تعالى عن مدن لوط :

**« فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت
من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » [٣] .**

(١) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .

(٢) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود مكية .

(٣) الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة الذاريات مكية .

هى آية لم تندثر ..

يؤكد ذلك قوله تعالى :

((وانها لبسبيل مقيم)) [١] .. اى بطريق مسلك الى الآن
[سورة الحجر] ..

وقوله تعالى فى الصافات :

((وانكم لتمرون عليهم مصبحين • وبالليل ، افلا تعقلون ؟)) [٢] •

يعنى انها آية ظاهرة .. قال العلماء : ان مكان المدن السبع .. بحيرة
غربية .. ماؤها اجاج .. وكثافة الماء اعظم من كثافة مياه البحر الملحة ..
وفى هذه البحيرة صخور معدنية ذاتية .. توحى بأن هذه الحجارة التى
ضرب بها قوم لوط كانت شهابا مشتعلة •

يقال ان البحيرة الحالية التى نعرفها باسم « البحر الميت » فى فلسطين ..
هى مدن قوم لوط السابقة ..

.....

انطوت صفحة قوم لوط .. انمحت مدنهم وأسماؤهم من الأرض ..
سقطوا من ذاكرة الحياة والأحياء .. وطويت صفحة من صفحات
الفساد ..

وتوجه لوط اول ما توجه الى ابراهيم ..

زار ابراهيم وقص عليه نبأ قومه ..

وادهشه ان ابراهيم كان يعلم ..

ومضى لوط فى دعوته الى الله .. مثلما مضى الحليم الاواه المنيب ابراهيم
فى دعوته الى الله ..

مضى الاثنان ينشران الاسلام فى الأرض ..

(١) الآية ٧٦ مكة •

(٢) الايتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات مكة •

قصة إسماعيل

[عليه الصلاة والسلام]

كان اسماعيل طفلاً حين بدأ سفره القاصد الى الله ..
حملته أمه وأرقدته على الأرض .. نفس المكان الذى نعرفه الآن باسم
بئر زمزم فى الكعبة ..

أيامها لم تكن البئر قد انفجرت تحت قدميه بعد ..
كان المكان قفراً ..

صحراء يخطف وهجها البصر .. وتمتد الرمال فيها الى الأفق .. ويشيع
اللون الأصفر على امتداد البصر .. وليست هناك قطرة ماء واحدة ..

تعلقت هاجر بثياب ابراهيم وهو يتركها مع رضيعها وينصرف ..

— يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى المقفر ... ؟

— يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا ... ؟

— يا ابراهيم أين تذهب ... ؟

راحت الأم تكرر ما تقوله ، و ابراهيم صامت لا يجيب ..

لا نعرف على وجه التحقيق ماذا كان احساس ابراهيم وهو يتركها
بواد غير ذى زرع .. غير ذى ماء ..

لقد أمره الله بذلك ، وها هو يصدع بالأمر راضياً .. جاء فى الاسرائيليات
أن سارة زوجته الاولى أدركتها الغيرة من هاجر زوجته الثانية فاضطرته
اضطراباً لابعادها وابنها ..

ونعتقد أن هذه القصة موضوعة .. ان تأمل شخصية ابراهيم يقطع بأنه
لم يكن يتلقى أوامره من أحد غير الله ..

لا نحسب أنه كان يلتفت لمشاعر الغيرة الأنثوية ، ولا نحسب أنه كان
يتصرف بشكل يثير هذه المشاعر ، ولا نحسب أن شخصية سارة نفسها
كانت تدور حول ذاتها أنانية .. لقد زوجته من جاريتها هاجر لينجب ، كانت
تعلم أنها عجوز عقيم .. زوجته بنفسها وقامت على خدمته .. ومنحت كل
وجودها لرجل ليس فى قلبه مكان لحب أحد غير حب خالقه ..

نستبعد أن تكون سارة مسئولة عن رحلة اسماعيل وأمّه الى الجزيرة
العربية ..

قال الله تعالى عن سارة وهاجر :

((رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، انه حميد مجيد)) [١] ..

[سورة هود] ..

ليس الأمر أمر غيرة نسائية .. انما هو تكليف الهى اخفيت حكمته ، ولعل
سارة دهشت أكثر مما دهشت هاجر ، حين أمرها ابراهيم أن تحمل
ابنها اسماعيل وتتبعه ..

— الى أين يا ابراهيم ؟

ربما تساءلت هاجر فى البداية ، وربما تساءلت سارة هى الأخرى ..

صمت ابراهيم ، فصمتت المرأتان ..

ثمة حكمة خافية لا يريد ابراهيم أن يفصح عنها .. لم يفصح له الله عنها ،
فهو لا يدري مثلها ، وأذن فهما تصمتان بأدب زوجات الأنبياء ..

.....

ها هو الستار يرتفع عن هاجر وهى وحيدة مع ابنها فى الوادى المهجور
الخالى ، الجذب ..

ها هو اسماعيل رضيعا يبدأ أولى رحلاته الى الله ..

بلاء له وهو طفل ..

وبلاء لأبيه وهو شيخ جاءه الطفل على كبر ..

لكنك يا ابراهيم تعلم أن ليس للانسان فى نفسه شئ .. ومن يحب الله
يمنح نفسه لله ، ويمنح ما تحبه نفسه لله بغير سؤال ..

ذلك قانون من قوانين الحب العريقة ، تذوب الأسئلة عندما نحب ..

ترتفع أعلام الطاعة فحسب ..

لا نعتقد أن ابراهيم كان يعلم لماذا يترك اسماعيل وامه فى هذا المكان ..

لا نظن أن الله تعالى قد أخبره ..

انما أصدر الله أمره فحسب .. وأطاع ابراهيم فحسب .. هنا تبدو شدة
البلاء وصعوبته .. وهنا يكشف الحب عن أعماقه ، وأعظم أصالته ..

يتمتحن الله خليله ابراهيم .. يتمتحنه فى أحب ما يعتبره الآباء أحب شئ
لديهم ..

وليس معنى حب الله لابراهيم ، وحب ابراهيم لله ، ان ابراهيم كان خلوا
من المشاعر الانسانية ..

ان طاقته على الحب الالهى تعنى انه كان بحرا من المشاعر الانسانية ،
بحرا بغير شيطان ..

كان احساسه باسماعيل اعظم وأرق وأحنى من احساس أى والد بابنه ،
ورغم ذلك القاه على الأرض فى مكان مهلك ، لأن الله أمره بذلك ..

قام الصراع فى نفسه ، واجتاز محنته ، واختار ربه على ولده ..
حين أحب ابراهيم ابنه أكثر مما ينبغى ، أمره الله بذبحه .. لا يريد الله
أغيارا فى قلب أنبيائه .. من أحب الله فعليه أن يكون محبا فى الحقيقة ،
والمحب فى الحقيقة من يملأ قلبه حب خالقه وحده ..

.....

ورث اسماعيل حلم أبيه ..

دعا ابراهيم ربه من قبل :

« رب هب لى من الصالحين » [١] ..

قال تعالى :

« فبشرناه بغلام حليم » [٢] ..

نفس حلم أبيه .. نفس صلاحه ، وتقواه ، وادب النبوة ..

التقى اسماعيل بأول محنة له وهو طفل .. وانتهت المحنة بأن فجر الله

تحت قدميه زمزم لتشرب الأم ، ويرضع الوليد ..

والتقى اسماعيل بالمحنة الثانية فى حياته وهو شاب ..

« فلما بلغ معه السعى قال : يا بني : انى ارى فى المنام انى اذبحك .

فانظر ماذا ترى ؟ » [٣] .. [سورة الصافات] ..

بم تظن الابن أجاب ؟ .. لم يسأل ماذا كانت صفات الرؤيا .. لم يستوثق
أهى رؤيا أم مجرد حلم ، لم يناقش والده فى رؤياه .. كل ما قاله :

« يا ابت افعل ما تؤمر » [٤] .. لا تتلق من جهتى ، ولا يدركك

الأسى والجزع ..

« ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » [٥] .. هكذا يواجه الابن

الصالح والده الصالح الى الصبر .. ان صاحب الشئان .. ان الضحية
والذبيح نفسه صابر ، والأولى بالاب أن يصبر ..

هو سباق بينهما أيهما يصبر أكثر ..

سباق غايته الله ..

قال تعالى فى سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادقا الموعد ، وكان رسولا

نبيا .. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه

مرضيا » [٦] ..

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات مكة .

(٢) الآية ١٠١ من سورة الصافات مكة .

(٣) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكة .

(٤) من الآية نفسها .

(٥) الآية نفسها .

(٦) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ مكة .

بيت الله تعالى

عاش اسماعيل فى شبه الجزيرة العربية ما شاء الله له أن يعيش ..
روض الخيل واستأنسها واستخدمها ، وساعدت مياه زمزم على سكنى
المنطقة وتعميرها ..

استقرت بها بعض القوافل .. وسكنتها القبائل .. وكبر اسماعيل
وتزوج ، وزاره ابراهيم فلم يجده فى بيته ووجد امراته .. سألها عن عيشتهم
وحالهم ، فشكت اليه من الضيق والشدة .. قال لها ابراهيم : اذا جاء
زوجك مريه أن يغير عتبة بابه .. فلما جاء اسماعيل ، ووصفت له زوجته
الرجل .. قال : هذا أبى وهو يأمرنى بفراقك .. الحقى بأهلك ..

وتزوج اسماعيل امرأة ثانية .. زارها ابراهيم ، يسألها عن حالها ، فحدثته
أنهم فى نعمة وخير .. وطاب صدر ابراهيم بهذه الزوجة لابنه .. ولعل
ابراهيم هنا كان يتصرف بحدس داخلى ونور كاشف .. ان ابراهيم يهيب
اسماعيل لمهمة عظمى .. وهى مهمة تحتاج الى جهده الانسانى كله ووقته
كله وراحته كلها .. ولو كان اسماعيل منغصا فى بيته لضاع نصف مجهوده
.. انه يفرغه لمهمة لم يكشف عنها الستار بعد ..

كبر اسماعيل .. وبلغ أشده ..

وجاءه ابراهيم ..

جاءت اللحظة المناسبة لتبرير حكمة الله فيما وقع من أمور غامضة ..

قال ابراهيم لاسماعيل : يا اسماعيل .. ان الله أمرنى بأمر ..

حين جاءه أمر ذبحه عرض عليه الأمر صراحة ، وها هو الآن يعرض عليه
الأمر مبهما ليحصل على موثق منه أن يعينه فيه .. نحن أمام أمر أخطر من
الذبح والتضحية .. أمر لا يمسه ذات النبى ، وانما يمسه ملايين الخلق ..

قال اسماعيل : فاصنع ما أمرك به ربك ..

قال ابراهيم : وتعيننى ؟

قال : وأعينك ..

قال : فان الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا ..

أشار بيده لئل مرتفع هناك ..

انتهى الأمر .. وصدر الأمر ببناء بيت الله الحرام ..

هو أول بيت وضع للناس فى الأرض .. وهو أول بيت عبد فيه الانسان

ربه .. ولما كان آدم هو أول انسان هبط الى الأرض .. فاليه يرجع فضل بنائه أول مرة .. قال العلماء : ان آدم بنسائه وراح يطوف حوله مثلما يطوف الملائكة حول عرش الله تعالى ..

بنى آدم خيمة يعبد فيها الله .. شىء طبيعى ان يبنى آدم — بوصفه نبيا — بيتا لعبادة ربه .. وحفت الرحمة بهذا المكان .. ثم مات آدم وممرت القرون ، وطل عليه العهد فضاع اثر البيت وخفى مكانه ..

وها هو ابراهيم يتلقى الأمر ببنائه مرة ثانية .. ليظل فى المرة الثانية قائما الى يوم القيامة ان شاء الله ..
وبدا ببناء الكعبة ..

والكعبة مجموعة من الحجارة التى لا تضر ولا تنفع .. ولا تزيد عن غيرها من الحجارة ولا تقل ، لكنها رغم ذلك رمز للتوحيد الإسلامى ، وتنزيه الله ..
كان آدم على التوحيد الرفيع والإسلام والتنزيه المطلق ..
وكان ابراهيم حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين ..

ولقد بنيت حجارتها من طمأنينة قلب آدم ، وسكينة ابراهيم وحيه ، وحلم اسماعيل وصدقه .. لا تكاد تدخل المسجد الحرام حتى يفيض داخلك تيار من الأمن العميق والسلام .. تشفى ذاتك .. تدور حول الكعبة .. مثل حركة الذرات وهى تمضى حول النواة ..

سلام عظيم يملأ المكان والزمان ، ويملؤك كجزء من المكان والزمان ..
قد ترى نفسك فى المرة الأولى ولا ترى البيت ولا ربه ..
وربما رأيت البيت فى المرة الثانية ، ولم تر نفسك ولا ريك ..

فاذا ذهبت الى الحج ، فلم تر نفسك ولا البيت .. ورأيت رب البيت وحده ، فهذا هو الحج الحقيقى .. وهذه هى الحكمة الأولى من بناء الكعبة ..

قال تعالى :

((واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا امة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم)) [١] ..

الكعبة حجرة جبارة من الحجارة .. تمتد فى الأرض لعقب الأساس القديم الذى حفره ابراهيم واسماعيل .. هدمت فى التاريخ أكثر من مرة ، وكان بناؤها يعاد فى كل مرة .. فهى باقية منذ عهد ابراهيم الى اليوم .. وحين بعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحققتا لدعوة ابراهيم .. وجد

(١) الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، من سورة البقرة مدنية .

الرسول الكعبة حيث بنيت آخر مرة ، وقد قصر الجهد بمن بناها فلم يخفر
أساسها كما حفره إبراهيم ..

نفهم من هذا أن إبراهيم واسماعيل بذلا فيها وحدهما جهدا استحال
— بعد ذلك — محاكاته على آلاف الرجال .. ولقد صرح الرسول بأنه يحب
هدمها وأعادتها الى أساس إبراهيم ، لولا قرب عهد القوم بالجاهلية ،
وخشيته أن يفتن الناس هدمها وبنائها من جديد ..

بنائها بحيث تصل الى قواعد إبراهيم واسماعيل ..

.....

أى جهد شاق بذله النبيان الكريمان وحدهما ؟

كان عليهما حفر الأساس لعمق غائر فى الأرض ، وكان عليهما قطع
الحجارة من الجبال البعيدة والقريبة ، ونقلها بعد ذلك ، وتسويتها ، وبنائها ،
وتعليتها .. وكان الأمر يستوجب جهد جيل من الرجال ، ولكنهما بنياها معا

لا نعرف كم هو الوقت الذى استغرقه بناء الكعبة ، كما نجهل الوقت الذى
استغرقه بناء سفينة نوح ، المهم أن سفينة نوح والكعبة كانتا معا ملاذا
للناس ومثوبة وأمنا .. والكعبة هى سفينة نوح الثابتة على الأرض أبدا ..
وهى تنتظر الراغبين فى النجاة من هول الطوفان دائما ..

لم يحدثنا الله عن زمن بناء الكعبة .. حدثنا عن أمر أخطر وأجدى ..
حدثنا عن تجرد نفسية من كان بينها .. ودعائه وهو بينها ..

« ربنا تقبل منا ، انك أنت السميع العليم » [١]

ها هو الرمز يسفر عن أفنعتة الشفافة لنرى وجه الحقيقة الخالد وراءه
.. الغرض الاصلى هو الرجوع الى الله .. أن يتقبل السميع العليم ..

وتلك غاية اخلاص المخلصين .. وطاعة الطائعين .. وخوف الخائفين
.. وعشق العاشقين ..

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » [٢]

ان أعظم مسلمين على وجه الأرض يومها يدعوان الله أن يجعلهما مسلمين
له .. يعرفان أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن — سبحانه —
ولا يأمن أحدهما مكر الله تعالى ، وهما يعبدان الله أسمى ما تكون العبادة ،
وبينيان بيته المعمور ، ويسألانه أن يتقبل عملهما .. ويسألانه بعدها الاسلام
وتبلغ الرحمة بهما أن يسألا الله أن يخرج من ذريتهما أمة مسلمة له سبحانه
.. يريدان أن يزيد عدد العابدين الموجودين والطائفين والركع السجود ..

ان دعوة إبراهيم واسماعيل تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن .. انه
يبنى لله بيته ، ومع هذا يشغله أمر العقيدة .. ذلك احياء بأن البيت رمز
العقيدة ..

(١) من الآية ١٢٧ سورة البقرة مدنية .

(٢) من الآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .

« وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » [١]

أرنا أسلوب العبادة الذي ترضاه .. أرنا كيف تحب أن نعبدك في الأرض ..

وتب علينا .. انك أنت التواب الرحيم ..

بعدها يتجاوز اهتمامها هذا الزمن الذي يعيشان فيه .. يجاوزانه بالحدس ويدعوان الله ..

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم * انك أنت العزيز الحكيم » [٢] .. [سورة البقرة]

تحققت هذه الدعوة الأخيرة .. حين بعث محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ..

تحققت بعد أزمنة وأزمنة ..

انتهى بناء البيت ، وأراد إبراهيم حجرا مميذا ، يكون علامة خاصة يبدأ منها الطواف حول الكعبة ..

أمر إبراهيم اسماعيل أن يأتيه بحجر مميز يختلف عن لون حجارة الكعبة ..

كان اسماعيل قد بذل جهدا فوق طاقة البشر .. كان جسده محطبا من العمل .. وسار على قدر ما وسعه الجهد ، تلبية لأمر والده ..

حين عاد ، كان إبراهيم قد وضع الحجر الأسود في مكانه ..

— من الذي أحضره إليك يا أبت ؟

قال إبراهيم : أحضره جبريل عليه السلام ..

انتهى بناء الكعبة ..

وبدأ طواف الموحدين والمسلمين حولها ..

ووقف إبراهيم يدعو ربه نفس دعائه من قبل ..

أن يجعل أفئدة من الناس تهوى الى المكان .. قال تعالى :

((فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم)) [٣] .. أنظر الى التعبير ..

أن الهوى يصور انحدارا لا يقاوم نحو شيء .. وقمة ذلك هوى الكعبة ..

من هذه الدعوة ولد الهوى العميق في نفوس المسلمين ، رغبة في زيارة البيت الحرام ..

وصار كل من يزور المسجد الحرام ويعود الى بلده .. يحس أنه يزداد عطشا كلما ازداد ريا منه ، ويعمق حنينه اليه كلما بعد منه ، وتجيء أوقات

(١) من الآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ١٢٩ سورة البقرة مدنية .

(٣) من الآية ٢٧ من سورة إبراهيم مكة .

الحج في كل عام .. فينشرب الهوى الغامض اظافره في القلب نزوعا الى
رؤية البيت ، وعطشا الى بئر زمزم ..

وأخطر من هذا وذاك .. ودا عميقا لرب البيت والبئر .. رب العالمين ..

.....

قال تعالى حين جادل المجادلون في ابراهيم واسماعيل :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما
وما كان من المشركين » [١] .. [سورة آل عمران] ..

عليه الصلاة والسلام .. استجاب الله دعاءه .. وكان ابراهيم اول من
سمانا المسلمين ..

قال تعالى في سورة الحج :

« وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم ، هو
سماكم المسلمين من قبل » [٢]

(١) الآية ٦٧ مدنية .
(٢) من الآية ٧٨ مدنية .

قصة إسحاق ويعقوب

[عليهما الصلاة والسلام]

لا يذكر القرآن الكريم غير ومضات سريعة عن قصة اسحق ..
كان ميلاده حدثا خارقا ، بشرت به الملائكة ، وورد في البشري اسم ابنه
يعقوب ..

وقد جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة أخيه اسماعيل الذي لم تكتحل به
عين الأب طوال طفولته ..

ولقد قر قلب سارة بمولد اسحق ومولد ابنه يعقوب ، عليهما الصلاة
والسلام ..

غير أننا لا نعرف كيف كانت حياة اسحق ، ولا نعرف بماذا أجابه قومه ..
كل ما نعرفه أن الله أثنى عليه كنبى من الصالحين ..

أما يعقوب فأول نبى من صلبه .

وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم .. اسمه اسرائيل .. كان نيا الى
قومه .. ذكر الله تعالى ثلاثة أجزاء من قصته ..

بشارة ميلاده .. وقد بشر الملائكة به ابراهيم جده .. وسارة جدته ..
أيضا ذكر الله تعالى وصيته عند وفاته ..

وسيدكره الله فيما بعد — بغير اشارة لاسمه — فى قصة يوسف ..

نعرف مقدار تقواه من هذه الاشارة السريعة الى وفاته .. نعلم أن الموت
كارثة تدهم الانسان فتنسيه اسمه ، ولا يذكر غير همه ومصيبته .. غير أن
يعقوب لا ينسى وهو يموت أن يدعو الى ربه ..

قال تعالى فى سورة البقرة :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون
من بعدى ؟ قالوا : نعبد آلهك وآله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق
الها واحدا ، ونحن له مسلمون » [١] ..

ان هذا المشهد بين يعقوب وبينه فى ساعة الموت ولحظات الاحتضار ،
مشهد عظيم الدلالة ..

نحن أمام ميت يحتضر ..

(١) الآية ١٣٣ مدنية .

ما هي القضية التي تشغل باله ساعة الاحتضار ... ؟
ما هي الأفكار التي تعبر ذهنه الذي يتهيأ للانزلاق مع سكرات الموت ... ؟
ما هو الأمر الخطير الذي يريد أن يطمئن عليه قبل موته ... ؟
ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه وأحفاده ... ؟
ما هو الشيء الذي يريد أن يطمئن — قبل موته — على سلامة وصوله للناس .. كل الناس ... ؟
ستجد الجواب على هذه الأسئلة كلها في سؤاله هو :

« ما تعبدون من بعدى ؟ » [١] .

هذا ما يشغله ويؤرقه ويقلقه ويحرص عليه في سكرات الموت ..
قضية الايمان بالله ..

هي القضية الاولى والوحيدة ، وهي الميراث الحقيقي الذي لا ينخره
السوس ولا يفسده .. وهي الذخر والملاذ ..
قال أبناء اسرائيل : نعبد الهك واله آباءك ابراهيم واسماعيل واسحق
الها واحدا ونحن له مسلمون ..

والنص قاطع في انهم بعثوا على الاسلام ..
ان خرجوا عنه خرجوا من رحمة الله .. وان ظلوا فيه أدركتهم الرحمة ..
.....

مات يعقوب وهو يسأل ابناءه عن الاسلام ويطمئن على عقيدتهم ..
وقبل موته ابتلى بلاء شديدا في ابنه يوسف ..
وكان يوسف نبيا مثل يعقوب .. وقد أرسله الله تعالى الى أهل مصر ..

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة مدنية .

قصة يوسف [عليه الصلاة والسلام]

أنزلت قصة يوسف في القرآن الكريم في سورة كاملة بالاسم نفسه . .
روى في أسباب نزولها أن اليهود سألوا الرسول أن يحكى لهم عن يوسف . .
أحد أنبيائهم القدامى . . وكانت قصته تهرأت في أجزاء وبلبيت في أجزاء
وأضيفت إليها أجزاء ونقصت منها أجزاء . . فنزلت في كتاب الله كاملة
بتفصيلاتها الصغيرة الدقيقة . . قال تعالى في سورة يوسف :

**« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن
كنت من قبله لمن الغافلين » [١] . .**

و اختلف العلماء لم سميت هذه القصة أحسن القصص ؟
قيل أنها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر
والحكم . .

وقيل لأن يوسف تجاوز عن أخوته وصبر عليهم وعفا عنهم . .
وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والعفة والغواية ، وسير الملوك
والممالك ، والرجال والنساء ، وحيل النساء ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد
والفقه ، وتعبير الرؤيا وتفسيرها ، فهي سورة غنية بالمشاهد والانفعالات . .
وقيل : أنها سميت أحسن القصص لأن مآل من كانوا فيها جميعا كان إلى
السعادة . . ومع تقديرنا لهذه الأسباب كلها . . نعتقد أن ثمة سببا هاما يميز
هذه القصة . .

انها تمضى في خط واحد منذ البداية إلى النهاية . . يلتحم مضمونها
وشكلها ، ويفضى بك لإحساس عميق بقهر الله وغلبته ونفاذ أحكامه رغم
وقوف البشر ضدها . .

**« والله غالب على أمره . . . » [٢] . هذا ما تثبته قصة يوسف
بشكل حاسم ، لا ينفى جسمه أنه تم بنعمته واعجازه . .**

لقد تعرض يوسف طوال حياته لمؤامرات كانت تأتيه من الصق الناس
بـه . .

أخوته . . كاد له أخوته جريمة قتل للتخلص منه ، ثم عدلوا عنها واختاروا
نقيه . .

(١) الآية ٣ مدنية ،

(٢) من الآية ٢١ من سورة يوسف بكية

وقع هذا وهو صبى .. وبيع يوسف فى سوق العبيد فى مصر ، واشتراه من اشتراه بثمن بخس .. ثم تعرض لاغواء زوجة رجل هام .. فلما رفض اغواها القى به فى السجن .. وظل سجيناً فترة .. ورغم هذا الهوان كله ، فقد وصل أخيراً الى حكم مصر .. اعتلى عرشها وصار وزير الملك الأول .. وبدأ دعوته الى الله من موقع السلطة الحاكمة ..

ونفذ تدبير الله ، وقضى أمره ..

هذا مضمون القصة ..

أما الشكل الذى قدمت به فكان آية فى العجب ..

قدمت القصة صوراً متعاقبة مثل فيلم سينمائى معجز ..

يسلمك المشهد الى المشهد ، ويجيء النقل أو القطع موحياً ذكياً مثيراً للخيال ، وثمة فجوات فنية تترك لخيال المشاهد أن يكملها هو ، وثمة عمق فى الصورة يعجز أى فنان بشرى أن يأتى بمثله ..

والقصة تبدأ بحلم ..

وتنتهى بتفسير هذا الحلم ..

وليس حلم الأنبياء غير رؤيا صادقة يكشف الله لهم فيها أحداثاً لم تقع بعد .. غير أننا فى بداية القصة لا نعرف أن يوسف نبي .. أيضاً يخفى السياق القرآنى اسم أبيه ، وهو يعقوب ، كما حدث المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ..

من حقنا اذن أن نتأمل الحلم بالدهشة ..

تضئ شاشة العقل أول ما تضئ بمشهد حلم .. وانظر الى تحدى الفيلم الذى يبدأ بحلم .. ان الحلم مرادف للنوم .. وبداية أى قصة بالنوم أمر يوحى بالنعاس .. غير ان ما يقتضى الانصراف هو نفسه أحد أسباب شد القصة ، وأحد عوامل جذبها .. يتجاوز القرآن الحلم الى مشهد يوسف وهو صبى صفير يحدث والده عن رؤياه ..

« اذ قال يوسف لأبيه : يا أبت : انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس

والقمر رأيتهم لى ساجدين » [١] ..

تصور نوع التحدى الذى يفرضه وجود الحلم على المخيلة ، وتأمل طاقة الخيال كيف تنشط لتصوره .. ان الذهن البشرى مطالب بأن يخلق داخله صورة لسجود الشمس والقمر والكواكب .. ليستطيع أن يمضى فى القصة ..

بهذه الصورة المعجزة التى تتحدى خيال أعظم الفنانين السينمائيين .. تبدأ قصة يوسف .. أو يبدأ الشريط المرئى من قصة يوسف كما عرضه الله تبارك وتعالى فى كتابه ..

رأى يوسف حلماً .. وها هو يحكيه الآن لأبيه ..

(١) الآية ٤ من سورة يوسف مكية .

« قال : يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا . ان الشيطان للانسان عدو مبين » [١] .

حذر الأب ولده ان يظهر رؤياه لاختوته .. ان اخوة يوسف لا يحبونه ، ولا يحبون النصائح بأبيه ، وينكرون امتلاء قلب الأب به .. لم يكن يوسف أخا شقيقا لهم ، تزوج يعقوب زوجة ثانية غير التي أنجبت له أبناءه ، وأنجب منها يوسف وشقيقا له .. ويوسف ابن يعقوب ، ويعقوب ابن اسحق ، واسحق ابن ابراهيم .. حلقات طاهرة في سلسلة طاهرة ..

ويحس يعقوب من رؤيا ابنه انه سيكون له شأن .. بحكم جو النبوة الذي يحيط به .. وبحكم ثقائه الداخلي وشفافيته ..

.....

يقول بعض العلماء :

أحس يعقوب ان الله يختار يوسف بهذه الرؤيا ..

« وكذلك يجتبيك ربك » [٢] .

وكذلك يختارك ربك ..

« ويعلمك من تأويل الأحاديث » [٣] .

معنى التأويل هو معرفة المسأل ، وكشف النتيجة .. وادراك أسرار لم تقع بعد ..

فما الأحاديث ؟

قالوا انها الرؤى والأحلام .. سيستطيع يوسف فيما بعد ان يفسر الأحلام والرؤى فيرى من رموزها الغامضة ما سيقع من أحداث ..

وقالوا ان الأحاديث هي الأحداث .. سيعرف مآل الأحداث التي تنتهي اليه من بداياتها وأوائلها .. سيلهمه الله الهاما أن يعرف ..

« ان ربك عليم حكيم » [٤] .

رد النبي العلم والحكمة الى الله في ختام حديثه .. فجاء ذلك مناسبا للبدء ..

.....

وفي العلماء من يقول ان الآية السابقة ليست جزءا من حوار يعقوب مع ابنه يوسف .. وانما هي ثناء من الله تعالى على يوسف .. أدخلت في نسيج القصة منذ بدايتها .. وهي ليست منها .. فالمفروض الا يعرف يوسف ويعقوب تأويل الحلم وتفسيره منذ البداية .. ونحن نختار هذا الرأي [ذهب اليه القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن] ..

(١) من الآية ٥ من سورة يوسف مكية .

(٢) من الآية ٦ من سورة يوسف مكية . (٣) من نفس الآية .

(٤) من الآية نفسها .

واذن نفهم الحوار فهما آخر ..

ان الله يتحدث هنا عن اختياره ليوسف .. وهذا يعنى نبوة يوسف .. وليس تعليمة تأويل الاحاديث ، واطلاعه على حقائق الرموز التى تقع فى الحياة أو الحلم ، غير معجزات له كنبى .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .. تجد حكمته أسبابها ، وعلمه محيط ..

استمع الأب الى رؤيا ابنه وحذره أن يحكيها لآخوته ..

استجاب يوسف لتحذير أبيه .. لم يحدث أخوته بما رأى ، وأغلب الظن انهم كانوا يكرهونه الى الحد الذى يصعب فيه ان يطمئن اليهم ويحكى لهم دخاله الخاصة وأحلامه ..

يخفى مشهد يعقوب وابنه .. وتضىء الشاشة بمشهد آخر .. ثمة قطع ونقطة .. ها هم أخوة يوسف يتآمرون عليه ..

« لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين .

« اذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ، ان ابانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجهه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين [١]

تقول أوراق العهد القديم ان يوسف حدثهم عن رؤياه ..

ولا يفيد السياق القرآنى أن ذلك وقع .. ولو وقع لجاى ذكره على السننهم .. ولكن ادعى أن يهيج حقدهم عليه فيقتلوه .. ان يوسف استسلم لأمر أبيه ولم يحدث أخوته عن رؤياه .. ومع ذلك جلس الاخوة يكيدون له ويدبرون له مؤامرة .. ذلك ادعى لاتصافهم بالظلم ..

قال أحدهم : لماذا يجب ابونا يوسف أكثر منا ؟

قال الثانى : ربما لجماله ..

قال الثالث : يوسف وأخوه .. احتل الاثنان قلب الاب ..

قال الأول : ضل ابونا ضلالا مبينا ..

اقترح أحدهم حلا للموضوع ..

— اقتلوا يوسف ..

□ لماذا نقتله .. نبعده عن هذه الأرض .. نطرحه فى أرض بعيدة ..

— ولماذا لا نقتله ونستريح .. نريد أن يخلو لنا وجه أبينا ..

قال قائل منهم — حرك الله أعماقه بشفقة خفية ، أو أثار الله فى أعماقه رعبا مهولا من القتل — قال هذا القائل :

(١) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من صورة يوسف مكية .

— ما الداعي لقتله .. أنتم تريدون الخلاص منه .. عظيم جدا .. تعالوا
نلقه في بئر تمر عليها القوافل .. ستلتقطه تاملقة وترحل به بعيدا ..
سيخنتقى عن وجه أبيه .. ويتحقق غرضنا من إبعاده .. ثم نتوب بعد ذلك
من جريمتنا ونعود ثوما صالحين .

استمر الحوار بعد فكرة البئر .. غير انه كان يعود إليها كحل من أسلم
الحلول .. انهزمت فكرة القتل ، واختيرت فكرة النفى والابعاد .. كانت
اذكى فكرة ..

نفهم من هذا ان الاخوة ، رغم شرهم وحسدهم ، كان في قلوبهم ، او في
قلوب بعضهم ، بعض خير لم يمت بعد ..

استقر الراى على القائه في البئر والتخلص منه .. وتم الاتفاق على موعد
التنفيذ ..

وما هي المنزلة التالية تكشف عن مشهد جديد بينهم وبين الاب ..

**« قالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون . أرسله
معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون . قال : انى ليحزننى ان
تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكله
الذئب ونحن عصبة أنا أذن لخاسرون » [١] ..**

دار الحوار بينهم وبين أبيهم بنعومة وعتاب خفى ، واثارة للمشاعر ..

— مالك لا تأمنا على يوسف ... ؟

أيمكن أن يكون يوسف شقيقنا ، وأنت تخاف عليه بينما ولا تستأمننا عليه ،
ونحن نحبه وننصح له ونرعاه .. لماذا لا ترسله معنا غدا يرتع ويلعب ..
أفضل لصحته الخروج واللعب والانطلاق .. أنظر الى وجهه الأصفر من فرط
البقاء في البيت .. ان الطفل يشحب لأنه لا يمارس في طفولته اللعب ..

وأثار يعقوب نقطة لم ترد في حوارهم ..

المسألة انه يخاف عليه من ذئاب الصحراء .. أكان يقصد الذئاب الداخلية
فيهم ، أم ذئاب الوحوش .. لا أحد يدري ..

ورأوده عن اصطحاب يوسف ، وفندوا فكرة الذئب الذى يخاف أبوه أن
يأكله ..

أهذا معقول ؟ .. نحن عشرة من الرجال .. فهل نفعل عنه ونحن كثرة ؟
.. نكون خاسرين غير أهل للرجولة لو وقع ذلك .. لن يأكله الذئب ولا داعى
للخوف عليه ..

وافق الأب تحت ضغط أبنائه ..

صحبوا يوسف في اليوم التالي وذهبوا به الى الصحراء .. ابتعدوا أكثر
مما يفعلون في كل مرة .. اختاروا بئرا لا ينقطع عنها مرور القوافل وحملوه
وهموا بالقائه في البئر ..

(١) الآيات من ١١ الى ١٤ من سورة يوسف مكة .

وأوحى الله الى يوسف انه ناج فلا يخاف .. وأنه سيلقاهم بعد يومهم هذا
ويبئتهم بما فعلوه ..

يذوب المشهد ويضئ مشهد آخر ..

ثمة فجوة هنا .. لا نراهم وهم يلقون يوسف فى البئر .. نستطيع أن
نتخيل انه قاومهم فضربوه .. أمروه أن يخلع قميصه والقوه عاريا فى البئر
.. ثم أوحى الله اليه انه ناج فلا يجزع ..

كان فى البئر ماء فتلقى جسم يوسف فلم يصب بسوء .. جلس وحده فى
مياه البئر ثم تعلق بصخرة نائثة واعتلاها ..

« وجاءوا اباهم عشاءم يكون » [١] ..

المشهد هنا ليل خارجى اسود .. يقطعه صوت بكاء عشرة رجال ..
والأب يجلس فى بيته فيدخل عليه ابناؤه أثناء الليل .. حيث تخفى ظلمة الليل
ظلمة القلوب ، وظلمة الأكذوبة التى تنهيا للظهور ..

تسائل يعقوب : لماذا تبكون ؟ .. هل جرى فى الغنم شئ ؟ .. قالوا وهم
يزدادون بكاء :

« يا أبانا انا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ،
وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » [٢] ..

فوجدنا بعد عودتنا من السباق بأن يوسف قد استقر فى بطن الذئب ..
لم نجد يوسف .. انك لن تصدقنا ولو كنا صادقين ، ولكننا نحكى لك ما حدث
.. لا نكذب عليك .. لقد أكل يوسف ذئب .. ها هو قميص يوسف ..
وجدنا القميص ملطخا بالدم ولم نجد يوسف ..

« وجاءوا على قميصه بدم كذب » [٣] .

ذبحوا شاة أو غزالا ولطخوا قميص يوسف بالدم الكاذب ، ونسوا فى
انفعالهم أن يمزقوا قميص يوسف .. جاءوا بالقميص كما هو سليما ، ولكن
ملطخا بالدم .. وألقى أحد الأبناء ما يتصور انه دليل البراءة ..

لقى قميص يوسف أمام أبيه الذى كان يجلس ..

وأمسك يعقوب بقميص ابنه .. ورفع وتأمل فى ضوء المشعل الموجود
فى الغرفة .. راح يقلبه فى يده فوجده سليما بغير خدش واحد .. أى ذئب
هذا الذى أكل يوسف ؟ .. هل أكله من داخل القميص بغير أن يمزق
قميصه ؟ !

لو كان يوسف يرتدى قميصه والذئب يأكله لتمزق القميص ، ولو كان قد
خلع قميصه ليلعب مع اخوته فكيف تلتخ القميص بالدم ولم يكن يرتديه
ساعتها .. أدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، ومن الأكذوبة
الواضحة ، أن يوسف لم يأكله الذئب .. لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك

(١) الآية ١٦ من سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ١٧ من سورة يوسف مكية .

(٣) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

أكذوبتهم .. ولو كانوا أهدأ أعصابا لما التقطوا حكاية الذئب من فم أبيهم في حوارهم معهم ليلة الأمس ، ليقيموا الليلة بتمثيلها أمامه ..

أدرك الأب أنهم يكذبون .. وعبر عن هذا بقوله :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » [١] .

تصرف نبي حكيم .. يسأل الصبر الجميل الذى يخلو من الشكاة .. ويستعين بالله على ما دبروه له ولابنه ..

ينطفئ هذا المشهد وتضىء صورة للبئر التى التى فى فيها يوسف ..

صورة عريضة لصحراء عريضة يبدو هناك فى آخرها خط طويل من الإبل والخيل والرجال ..

قافلة فى طريقها الى مصر .. قافلة كبيرة .. سارت طويلا حتى سميت سيارة .. القافلة كلها تتجه الى البئر ..

توقفوا للتزود بالماء .. ادلى الدلو فى البئر .. تعلق يوسف به .. ظن من دلاه أنه امتلأ بالماء فسحبه .. يا للبشرى .. هذا غلام .. حكمه حكم الأثياع المفتودة التى يلتقطها أحد . يصير عبدا لمن التقطه .. هكذا كان قانون ذلك الزمان البعيد . فرح به من وجدته فى البداية ، ثم زهد فيه حين فكر فى همه ومسئوليته ، وزهد فيه لأنه وجدته صبيا صغيرا ، وربما قسال لنفسه أنه لن يباع بشيء يذكر .. وعول على التخلص منه لدى وصوله الى مصر .. ولم يكذب يصل الى مصر حتى باعه فى سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة . ومن هناك اشتراه رجل تبدو عليه الأهمية .

« وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى ، هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تاويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [٢] .

انظر كيف يكشف الله تعالى مضمون القصة البعيد فى بدايتها ..

« والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [٣] .

لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف .

اللقى فى البئر . أهين . حرم من أبيه . التقط من البئر . صار عبدا يباع فى الأسواق . اشتراه رجل من مصر .. صار مملوكا لهذا الرجل .

انطبقت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة .. هكذا يظن أى انسان .. غير أن الحقيقة شىء يختلف عن الظن تماما ..

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ سورة يوسف مكية .

(٣) من الآية ٢١ سورة يوسف مكية .

ما نتصور نحن أنه مأساة ومحنة وفتنة .. كان هو أول سلم يصعده يوسف في طريقه الى مجده .. والله غالب على أمره .. ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين .. ينفذ من خلال تدبير الآخرين فيفسده ويتحقق وعد الله ، وقد وعد الله يوسف بالنبوة . وها هو يلتقى محبته على صاحبه الذي اشتراه وها هو السيد يقول لزوجته اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وليس هذا السيد رجلا هين الشأن . انما هو رجل مهم . رجل من الطبقة الحاكمة في مصر .. سنعلم بعد قليل أنه وزير من وزراء الملك . وزير خطير سماه القرآن « العزيز » ، وكان قداماء المصريين يطلقون الصفات كأسماء على الوزراء . فهذا العزيز . وهذا العادل . وهذا القوى . الى آخره . وأرجح الآراء أن العزيز هو رئيس وزراء مصر .

وهكذا مكن الله ليوسف في الأرض .

سيتربى كصبي في بيت رجل يحكم ، وسيعلمه الله من تأويل الأحاديث والرؤى . وسيحتاج اليه الملك في مصر يوما . والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

تم هذا كله من خلال فتنة قاسية تعرض لها يوسف .

كان يوسف أجمل رجل في عصره .. كان وجهه يحمل طائفة من الجمال البشري المدهش .. وكان نقاء أعمائه وصفاء سريره يصفيان على وجهه مزيدا من الجمال .

وتمر الأيام ..

يكبر يوسف ..

« ولما بلغ أشده آتياه حكما وعلمًا ، وكذلك نجزي المحسنين » [١] .

أوتى صحة الحكم على الأمور . وأوتى علما بالحياة وأحوالها . وأوتى أسلوبا في الحوار يخضع قلب من يستمع اليه .. وأوتى نبلا وعفة ، جعلاه شخصية انسانية لا تقاوم .

وأدرك سيده أن الله قد أكرمه بإرسال يوسف اليه . اكتشف أن يوسف أكثر من رأى في حياته أمانة واستقامة وشهامة وكرما . وجعله سيده مسئولا عن بيته وأكرمه وعامله كابنه .

وكانت امرأة العزيز ترقب يوسف يوما بعد يوم . كانت تجلس اليه وتتحدث معه وتتأمل صفاء عينيه وتساله وتسمع ، ويزداد اعجابها به لحظة بعد أخرى .

حتى جاء اليوم الذي اكتشفت فيه المرأة أنها عاشقة .. وبدأت تظهر حبها ليوسف .

يرفع القرآن الستار عن المشهد الختامى في هذا الحب المشوب بالصراع والتهاك من جانب امرأة العزيز .

(١) الآية ٢٢ سورة يوسف مكية .

قال تعالى :

((وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون . وأقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين)) . [١] .

لا يذكر السياق القرآني شيئا عن سننها وسنه ، فلننظر في ذلك من باب التقدير . لقد أحضر يوسف صبيا من البئر ، كانت هي زوجة في الثالثة والعشرين مثلا ، وكان هو في الثانية عشرة . بعد ثلاثة عشر عاما صارت هي في السادسة والثلاثين ووصل عمره الى الخامسة والعشرين . .

أتكون الحادثة قد وقعت في هذه السن . .

أغلب الظن أن الأمر كذلك . ان تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى انها مكتملة جريئة ، ولقد كان هذا المشهد الذي يرفع القرآن الستار عنه ، ذروة في مشاهد قديمة يتركها السياق لخيالنا نحن . .

لقد أحبت زوجة العزيز يوسف . .

وراودته صراحة عن نفسه ، وأغلقت الأبواب وقالت هيت لك . لن نفر منى هذه المرة . هذا يعنى انه كانت هناك مرات سابقة فر فيها منها . مرات سابقة لم تكن الدعوة فيها بهذه الصراحة وهذا التعرى .

لقد تربى يوسف في قصر كبير وزراء مصر . . تصور أنت بيئة مترفة وفراغا عريضا ، وامرأة حسناء وصغيرة ، وفتى اشتراه زوجها وصار عبدا لها . . فهي تستدعيه في حجرة نومها ، وتأمره أن يحضر لها كوبا من الماء مثلا . . أو تظهر عليه بملابسها الشفافة ، أو تظهر له مفاتها كأنها لا تقصد شيئا أو تغريه بما تغرى به النساء الرجال ، تصور أنت هذا كله فترة تمتد لسنوات

سنوات وهما يعيشان في بيت واحد . . تحت سقف واحد . .

وهي تستميله اليها وتغريه وتغويه . . وهو على تقواه ، وهي على هواها ثم جاء يوم أخير . .

سئمت المرأة هذا التجاهل المستمر والاباء . قررت أن تغير خطتها . . خرجت من التلميح الى التصريح . . أغلقت الأبواب ومزقت ائتمة الحياء وصرحت بحبها وطالبته بنفسه .

لعلها قالت : يوسف . . ما أجمل وجهك .

وربما قال : هكذا صورنى ربي قبل أن أخلق . لست مسئولا عن ذلك

فالتت وهي تقترب منه : يوسف . . ما أشد نعومة شعرك .

قال : أول شيء يبلى في القبر منى .

(١) الايتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة يوسف مكية .

قالت : يوسف .. ما أصفى عينيك .
قال : بهما أنظر الى ماخلق ربى .
قالت : ألسنت شبيئا خلقه ربك ؟ .. ارفع بصرك فانظر فى وجهى .
قال : أخاف يوم القيامة .
قالت : أدنو منك وتتباعد عنى ..
قال : أريد القرب من ربى .
قالت : ملأنى حبك .. صرت جزءا من الهواء الذى اتنفسه .. أحببتك
حبا صرت بعده أراك من حقى .. لن تغفلت منى .
وأدرك يوسف أنها تدعوه اليها وتقال :
معاذ الله .

استغفر الله العظيم .. لقد أكرمنى رب العالمين بهذا البيت . وأكرمنى
سيد هذا البيت بثقته . فأيهما أخون . وأى نجاح أنتظره لنفسى لو فعلت .
قال تعالى :

« ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » [١] .

اتفق المفسرون حول همها بالمعصية ، واختلفوا حول همه .. فمن قائل :
أنها هممت به تقصد المعصية وهم بها يقصد المعصية ولم يفعل . ومن قائل :
أنها هممت به لتقبله وهم بها ليضربها ، ومن قائل : أن هذا الهم كان بينهما قبل
هذا الحادث .. كان حركة نفسية داخل نفس يوسف فى السن التى اجتاز
فيها فترة المراهقة .. ثم صرف الله عنه . وأفضل تفسير تطمئن اليه نفسى
أن هناك تقديما وتأخيرا فى الآية ..

قال أبو حاتم : كنت اقرا غريب القرآن على أبى عبيدة ، فلما أتيت على
قوله تعالى :

« ولقد هممت به وهم بها » [١] .

قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير .
بمعنى ولقد هممت به .. ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها .
يستقيم هذا التفسير مع عصمة الأنبياء .. كما يستقيم مع روح الآيات التى
تلحقه مباشرة :

« كذلك أنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين » [١] .

وهذه الآية التى تثبت أن يوسف من عباد الله المخلصين ، تقطع فى نفس
الوقت بنجاته من سلطان الشيطان . قال تعالى لابليس يوم الخلق :

(١) من الآية ٢٤ سورة يوسف مكية .

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » * [١]

ومادام يوسف من عباده المخلصين ، فقد وضع الأمر بالنسبة اليه . لايعنى هذا أن يوسف كان يخلو من مشاعر الرجولة ، ولا يعنى هذا أنه كان فى نقاء الملائكة وعدم احتفالهم بالحس . انما يعنى أنه تعرض لاغراء طويل قاومه فلم تمل نفسه يوما ، ثم اسكنها تقواها كونه مطلعاً على برهان ربه .

عارفاً أنه يوسف بن يعقوب النبى ، ابن اسحق النبى ، ابن ابراهيم جد الأنبياء و خليل الرحمن ..

.....

وقع تطور على الصراع بينهما .

تطور الحوار من الكلمات الى الأيدي .

مدت امرأة العزيز يديها اليه وحاولت أن تحتضنه .

استدار يوسف مصفر الوجه يجرى الى الباب . انطلقت وراءه امرأة العزيز وهى تتعلق بقميصه مثل غريق يتشبث بسفينة .

وصلا الى الباب معا .

انفتح الباب عن مفاجأة .

زوجها واحد أقاربها .

« واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وأفيا سيدها لدى

الباب » [٢] .

لم تكذ العاشقة ترى زوجها يبرز على مسرح الحادثة .. حتى تصرفت بدهاء وسرعة .

كان واضحاً أن هناك صراعا .. يوسف يرتعش حياء وينعقد العرق على جبينه .. وهى محلولة الشعر متضرجة الوجنتين مضطربة .. وقبل أن يفتح زوجها فمه بكلمة ليسأل ، بادرت به بالفاء التهمة على يوسف .

« قالت ما جزاء من أراد باهلك سوءا ، الا أن يسجن أو عذاب

الليم » [٣] .

اتهمته أنه راودها عن نفسها . قالت أنه حاول اغتصابها .. نظر يوسف فى وجهها ببراءة وحلم . كان ينوى أن يكتفم سرها ويستتر عليها ، فلما اتهمته اضطر اضطرارا للدفاع عن نفسه .

« قال : هى راودتنى عن نفسى » * [٤] .

يمر السياق على رد الزوج . ونحسب أنه قال :

— اخفضا صوتيكما . ان فى البيت عديدا من العبيد والخدم . هذه مسألة خاصة .

(١) من الآية ٤٢ من سورة الحجر مكية .

(٢) من الآية نفسها .

(٣) من الآية ٢٥ من نفس السورة يوسف .

(٤) من الآية ٢٦ نفس السورة .

كان رئيس وزراء مصر شيخا هادئ الأعصاب . والطبقة التي تجرى فيها أحداث القصة طبقة مترفة وليست رجعية ، وهي تعامل الجنس معاملة عاقلة . . وهكذا جلس رئيس الوزراء وفتح تحقيقا فسأل زوجته وسأل يوسف ثم التفت الى قرييها واستنار برأيه .

قال قرييها : ان دليل القضية يكمن فى قميص يوسف . اذا كان ممزقا من الأمام كان هذا معناه انه حاول اغتصابها . من الطبيعى ان تمزق قميصه دفاعا عن نفسها .

قال الزوج : فان كان قميصه ممزقا من الخلف .

قال الشاهد من أهلها : تكون هى التى راودته من نفسه .

مشهد خاص للقميص . .

القميص ينتقل بين أيديهم وهى تقلب فيه .

نظر فيه الشاهد من أهلها . فوجده مقطوعا من الخلف . ونظر فيه رئيس الوزراء فوجده ممزقا من الخلف . ثبتت التهمة على الزوجة . .

حكى الله تعالى هذا المشهد فى قوله :

« وشهد شاهد من أهلها : ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلها رأى قميصه قد من دبر قال : انه من كيدكن ، ان كيدكن عظيم » [١] .

لما تاكد الزوج من خيانة زوجته . . لم يثر دمه فى عروقه ولم يصرخ ولم يفضرب .

فرضت عليه قيم الطبقة الراقية التى وقع فيها الحادث ان يواجه الموقف بلباقة وتلطف .

قال : انه من كيدكن .

نسب ما فعلته الى كيد النساء عموما . وصرح بأن كيد النساء عموما عظيم . وهكذا سيق الأمر كما لو كان ثناء يساق .

ولا نحسب أنه يسوء المرأة أن يقال لها : ان كيدكن عظيم . فهو دلالة فى حسنها على أنها أنثى كاملة مستوفية لقدرة الأنثى الكاملة على الكيد .

بعدها التفت الزوج الى يوسف قائلا له :

« يوسف : أعرض عن هذا » [٢] .

اهمل هذا الموضوع ولا تعره اهتماما ولا تتحدث به .

هذا هو المهم . . المحافظة على الظواهر . . لا نريد ثرثرة حول هذا الموضوع . ثم يحس الزوج أنه لم يثقل شيئا لزوجته غير تصريحه المتصل بكيد النساء عموما .

(١) من الآيتين ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة يوسف مكية .

(٢) من الآية ٢٩ سورة يوسف مكية .

ويحاول أن يقول لها شيئاً خاصاً . يحاول أن يعنفها ولكن التعنيف ينتهى به الى لين يتمثل فى قوله :

« واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين » [١] .

بعد التصريح الأول .. والعظة الأخيرة . انتهى الزوج الموضوع وصرف يوسف .

• لم يفصل سيد البيت بين المرأة وفتاها .. كل ما طلبه هو اغلاق الحديث فى هذا الموضوع . غير أن هذا الموضوع بالذات . فى هذه الطبقة الراقية بالتحديد . لم يكن ممكناً أن يغلق .

للقصور جدران وآذان وعبيد وخدم وحشم . وربما حدث أحد خدم القصر خادمة يجبها فى قصر آخر . ربما حكى هذه الخادمة لخدام تحبه فى قصر ثالث وربما حكى الزوجة لوصيفتها من باب استشارتها فى الخطوة التالية ..

المهم أن الموضوع بدأ ينتشر .. خرج من القصر الى تصور الطبقة الحاكمة أو الراقية يومها .. ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث . ان خلو حياة هذه الطبقات من المعنى ، وانصرافها الى اللهو ، يخلق أهمية قصوى على الفضائح التى ترتبط بشخصيات شهيرة . وزاد حديث المدينة .

« وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، انا لئراها فى ضلال مبين » [٢] .

ها نحن نعرف للمرة الأولى ان المرأة هى امرأة العزيز . وان الرجل الذى اشتراه من مصر هو عزيز مصر — أى كبير وزرائها — ربما كان مجرد وزير حين اشتراه ثم ترقى ..

المهم أنه الآن عزيز مصر .

وانتقل الخبر من فم الى فم . ومن بيت الى بيت .. حتى وصل لامرأة العزيز .

ربما قيل لها : تتحدث المدينة عن قصة غرامك .

قالت : غرامى بمن ؟

قيل : بيوسف .

قالت : لا أنكر أننى أحبه .

قيل : تتحدث نساء الوزراء عن تهالكك عليه ..

قالت : ماذا يقلن .

قيل : انك فى ضلال مبين .

قالت وقد بدأت تثور : أى ضلال . ان يوسف لا يقاوم .. من الذى يقول

(١) من الآية ٢٩ سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ٣٠ من نفس السورة .

اننى فى ضلال .. هل رأين يوسف . هل يعرفن مقدار سحره . من القائلات
حدثونى بأسماء من يثرثن .

اعتكفت زوجة العزيز فترة وراحت تفكر .

انتهت الى قرار : أصدرت أوامرها باحضار الطهارة . وصل طهارة القصر .

أنبأتهم أنها تعد مأدبة كبيرة فى القصر .. واختارت ألوان الطعام والشراب
وأمرت أن توضع السكاكين الحادة الى جوار التفاح المقدم .. وأن توضع
المفارش البيضاء الى جوار أطباق التفاح . وأن توضع الوسائد والحشايا
على عادة الشرق فى ذلك الزمان . ووجهت الدعوة لكل من تحدثت عنها ،
ولاكت قصة حبها ليوسف . وجاء يوم المأدبة . وهرعت نساء الطبقة الراقية
الى قصر رئيس الوزراء . كانت المناسبة فرصة لاستعراض أفن الثياب
وأحدثها ، وأعظم أدوات الزينة والتبرج ، واقتصرت الدعوة على النساء
فاستمتعن بحرية أكبر . وجلسن متكئات على الوسائد والحشايا يأكلن
ويشربن .. واستمرت المأدبة ، وفعل الطعام الجيد والشراب البارد فعل
السحر فى النفوس ، فانطلقت على مسجيتها ، وارتفعت الضحكات ودارت
الثرثرة .. ونحسب ان كل امرأة فى الحاضرات كانت تمسك لسانها أن ينحرف
الى قصة يوسف . كن يعلمن جميعا وتخفى كل واحدة فيهن أنها تعلم ..
هكذا تنقضى الأصول فى الطبقات الراقية !

ولذلك وقعت كلمات المضيئة عليهن وقعا مثيرا حين فتحت هى الموضوع :

— سمعت من يردد أننى واقعة فى هوى الفتى العبرانى يوسف ..

سقط الصمت على المائدة فجأة . وتوقفت أيدي المدعوات . وسرقت زوجة
العزيز المشهد منهن تماما .. قالت وهى تأمر باحضار التفاح ..

— أعترف أنه فتى ساحر .. لا أنكر أننى أحبه .. لقد أحببته من زمان بعيد

أزاح اعترافها عن الحاضرات احساسا ثقيل بالحرج ، فعادت النفوس الى
ارتياحها السابق وعادت المدعوات الى طعامهن فى هدوء .

بدان تقشير التفاح .

كانت الحضارة فى مصر قد بلغت شأوا بعيدا ، وكان الترف فى
القصور عظيما ..

وكان اعتراف زوجة العزيز قد أطلق ارتياحا عاما فى الغرفة .. اذا كانت
زوجة العزيز تعترف بأنها تحب ، فهذا يعنى أن الحب من حقهن هن الأخريات
.. ورغم أن امرأة منهن قد قالت جملة تعنى أن زوجة العزيز لا ينبغى أن تحب
.. انما ينبغى أن تكون موضع حب . المفروض أن يتهالك
عليها الرجال .. وذابت الجمالمة فى جو الغرفة مثلما ذابت أبخرة المر
والعنبر التى كان يطوف بها الخدم ..

رفعت امرأة العزيز يدها وأشارت أن يدخل يوسف .

ودخل يوسف حجرة الطعام . استدعته سيدته فجاء . كانت النساء
مازلن يقشرن الفاكهة .

لم يكد يدخل الغرفة حتى وقع ما توقعته امرأة العزيز .
بهتت كل المدعوات فجأة .

ان وجهه يتلألا برجولة نادرة وجمال ملائكى . . وتعكس عيناه تعبيراً
من الصفاء المطلق حتى ليرى الانسان اعلام الحنو وهى ترفرف فى اعناق
روحه البعيدة . .

بهتت النساء واكبرنه . . واستمر تقطيع الفاكهة بالسكاكين . .
هذه المرة كانت النظرات مسلطة كلها على يوسف . . لم تكن اى امرأة
فيهن تنظر الى الفاكهة التى تقطعها بالسكين .

وبدأت النساء يغطعن أيديهن فى ذهول وبغير أن يشمرن .

كان حضور يوسف على مسرح المكان قويا الى الحد الذى اذهلهن عن
الالم والدم طوال لحظات .

قالت احدى النساء بصوت خفيض :

— سبحان الله .

وقالت امرأة أخرى بصوت ناعم تسجنه الدهشة :

— ما هذا بشرا ؟

وتمتت امرأة ثالثة وهى تزيج خصلة من شعرها ارتجت على عينيها
وكادت تعوق الرؤية :

— ان هذا الاملك كريم . .

وقفت امرأة العزيز فجأة وقالت :

— هذا الذى وجه الى اللوم بسببه . . لا أنكر اننى راودته عن
نفسه . . أمامك مناشف بيضاء لتضميد الجراح . . لقد استولى عليك
يوسف فانظرن ما حدث لايدىكن .

ينتقل المشهد بين يوسف والاصابع التى حزت فيها السكاكين فلم
تشمع صاحباتها بشيء . . نحسب أن يوسف كان ينظر فى الأرض
أو يمد نظراته أمامه فى اتجاه لاشيء . . فلما جاء ذكر الدماء نظر الى المادبة
وفوجيء بأن الدماء تسيل الى جوار التفاح من أصابع النسوة . . وأسرع
يوسف لاحضار الضمادات والماء كفتى يعمل فى القصر . . نحسب أن امرأة
العزيز قالت وهو يضمد جراح امرأة . .

— لقد راودته عن نفسه فاستعصم . . ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن
وليكونا من الصاغرين . . نحسب أن يوسف ابتلع كلماتها فى نفسه ولم
يعلق . . انه نبى . . مأساة هذه المرأة أنها أحببت نبيا . . نحسب أيضا أن
النساء راودنه عن نفسه فى المادبة .

قالت امرأة خارقة فى الجمال من المدعوات ليوسف وهو يضمد جراحها :

— ان مجرد نظرتك الى يدي يا يوسف تكفييني عن اصابعى التى
تطعت ..

او قيل له :

— يوسف .. الا تريد جارية تنظف نعلك وتغسل قميصك
وتسجد لك ..

وربما كانت نساء هذه الحقبة يملكن اسلوبا مختلفا من الاغراء .. ربما
استخدمت احدهن سلاح العينين او سلاح الاهداب او سلاح الجسد ..
لا نعرف ماذا وقع فى المأدبة . ندع خيالننا يتمثل ما حدث .. ويبدو
ان الاغراء وجه اليه من كل النساء المدعوات .. ويبدو ان الدعوة ألفت
تحت اقدمه من كل الحاضرات . ويبدو أنهم رحن يهددنه هن الأخرىات ..
ووقف يوسف وسط هذه الفتنة الثقيلة محرجا حائرا .

((قال : رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه)) [١] .

لم يقل مما تدعوننى اليه . واضح ان مجرد ظهوره على النساء جعل
الدعوة جماعية .

اشتركن جميعا فى الدعوة سواء باللفات أو الحركات أو التلميح
أو التصريح .. واستنجد يوسف بالله أن ينقذه من كيدهن . دعا الله كثيرا
يعرف بشريته ، ولا يغتر بعصمته ونبوته .. دعا الله أن يصرف عنه كيدهن ،
كيلا يميل اليهن ويكون من الجاهلين .

واستجاب له الله .. فبدأت الأيدي المقطوعة النازفة توجع بالالم
.. وانصرف هو من صالة الطعام .. وانشغلت كل امرأة فيهن بتضميد
جراحها ، والتفكير فى حجة تقولها لزوجها الوزير اذا سألها لماذا قطعت
يدها .. وأين كانت .

.....

حكى الله تعالى مشهد المأدبة فى قوله :

**((فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن ، وأعدت لهن متكأ ، وآنت
كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : أخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه
وقطعن أيديهن وقلن : حائش لله ما هذا بشراً ان هذا الا ملك
كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودنه عن نفسه
فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين .
قال : رب : السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ، والا تصرف عنى
كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف
عنه كيدهن ، انه هو السميع العليم)) [٢] .**

صرف الله عن يوسف كيد النساء ..

أوقع فى قلوب النسوة ياسا كاملا منه ومن حبه . صار حبهن

(١) الآية ٣١ من سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات من ٣١ الى ٣٤ سورة يوسف مكية .

له نوعا من انواع الرغبات المستحيلة .. وأجبت هذه الرغبات المستحيلة ذكرى يوسف أكثر من ذى قبل .. راحت النساء يتحدثن عنه وعن تأثيره ومهابتة ونبله .. ويحكين كيف قطعن أيديهن بالسكاكين حين رأيته .. وانتشر الخبر من الطبقة العليا الى طبقات الشعب .. بدأ الناس يتحدثون عن الفتى العبرانى الذى رفض زوجة كبير الوزراء ، وقطعت زوجات الوزراء أيديهن بسببه ، ولو اقتصر الأمر على ردهات القصور وغرفها المغلقة لما اهتم أحد ، لكن الأمر يتسرب الى الشعب .. هية الحكم كله فى الميزان .. وتحرك الجهاز الحاكم واعتقل يوسف .

أدخل السجن .. اسكاتنا للألسنة . واسباغا لظلال الشبهات عليه .. ومحاولة للقضاء على القصة برمتها . ولقد قال يوسف حين دعتة النساء الى الخطيئة أن السجن أهون عليه وأحب اليه مما يدعونه اليه . ها هي يد العناية العليا تمضى به فى التجربة الى نهايتها .. وها هو يدخل السجن رغم براعته .

يدخله رغم ظهور الآيات على براعته ، ووضوح الأدلة على ادانة غيره .. لا نعتقد أن امرأة العزيز هي السبب فى ادخاله السجن ، نعرف أن رفضه الحاسم لها أثار كبرياءها ، ووطن كرامتها طعنة عميقة ، لكننا نعتقد أنها أحبتة حبا عظيما .

وربما كان دخول يوسف السجن نقطة تحول أساسى فى علاقتها به .. كانت تهفو اليه وتحبه ، فلما ابتعد عنها أنشبت الحنين اليه اظافره فى قلبها ، وتمنت لو كان خارج السجن ولو لم تلهه هي ..

ولعل دليلنا على تحول حبها له ، وصدقها بعد ذلك فى الحب ، انها اعترفت بعد ذلك انها حاولت ايقاعه فرفض . وبررت اعترافها بقولها : ليعلم انى لم أخنه بالغييب .. كان حرصها على صورتها فى قلبه أهم من سلامها مع زوجها أو احتفاظها بمتعتها كسيدة ثانية فى مصر . وكان حبها له — وهو غائب — كان يختلف فى نوعه وعمقه عن حبها له وهو فى يخدمها فى القصر بالأمر ..

حين استطالت بينهما المسافة .. وامتد البعد .. وحرمت من رؤيته .. أحبتة نوعا من الحب لا يجعلها تخونه — حتى فى غيابه .

كم تعذبت امرأة العزيز بحبها البشرى .. ان مأساتها انها اختارت بقلبها الذى يقف على الأرض . رجلا .. قلبه أبحر فى بحار الحب الالهى منذ أزمنة ..

دخل يوسف السجن .

قال تعالى فى سورة يوسف :

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » . [١]

ظهر لهم .. واستقر رأيهم .. رغم بزاعته وظهر آيات البراءة . استقر رأيهم على سجنه حتى حين .. الى أجل غير مسمى .. الى مدة غير

(١) الآية ٣٥ من سورة يوسف مكية .

محددة . حتى ينطفئ الحديث عن القصة ، وتخبو النيران التي أشعلتها وسط الناس . وإذا كان الوزراء وكبيرهم قد عجزوا عن كبح جماح نسايتهم ، فانهم ليسوا عاجزين عن سجن برىء . . هذه مهنتهم ولعبتهم التي يجيدونها باتقان ويسر .

وهكذا يرسم الآية الموجزة جو هذا العصر بأكمله . . جو الفساد الداخلى فى انقبور ، جو الأوساط الارستقراطية . . وجو الحكم المطلق . ان حلول المشاكل فى الحكم المطلق هى السجن . . ولو نظرنا فى نوع المجتمع المصرى يومها ، ورأينا ماذا كان يعبد ، لعرفنا لماذا اظله الحكم المطلق . .

كان المصريون يعبدون آلهة متعددة ، كانوا على عبادة غير الله . . ولقد رأينا من قبل كيف تضيع حريات الناس حين ينصرفون عن عبادة الله الى عبادة غيره ، وها نحن نرى فى قصة يوسف شاهدا حيا يصيب حتى الأنبياء . صدر قرار باعتقاله وأدخل السجن . بلا قضية ولا محاكمة ، ببساطة ويسر . . نحن فى مجتمع يعبد آلهة متعددة ، وبالتالي تحكمه آلهة متعددة . ولذلك لا يصعب فيه سجن برىء . . بل لعل الصعوبة تكمن فى محاولة شىء غير ذلك .

دخل يوسف السجن ثابت القلب هادىء الأعصاب اقرب الى الفرح لانه نجا من الحاح زوجة العزيز ، ومن أسئلة الوزراء ، وتطفلات الكهنة ، وثرثرة الخدم ، وهذا الصداق الغريب الذى حاصره فى الفترة الأخيرة ، بسبب حب امرأة العزيز وتقطيع النسوة لأيديهن .

كان السجن بالنسبة اليه مكانا هادئا يخلو فيه ويفكر فى ربه .

لقد أحس يوسف فى الفترة الأخيرة أن أشرعة الهوى البيضاء التي نشرها فى سفينته لم تعد تمتلىء بالهواء . لم يتوقف ابحاره الى الله لكن المحنة شوشت عليه اتصاله بربه . .

وها هو الهدوء يعود .

وها هى أجهزة استقبال فى وجدانه تنصت وتتسمع ويزداد امتلاؤها بالحب والرحمة والوحى .

وانتهز يوسف فرصة وجوده فى السجن ، بين قوم أبرياء يحسون بظلم الأبرياء . . ليقوم بالدعوة الى الله . ان الظلم البشرى يجعل النفوس اقرب الى سماع الهدى ، ويجعل استجابتها أعمق فى التوجه الى الله مفرج الكرب . كان يحدث الناس عن رحمة الخالق وعظمته وحبه لمخلوقاته ، كان يسأل الناس : أيهما أفضل . . أن ينهزم العقل ويعبد أربابا متفرقين . أم ينتصر العقل ويعبد رب الكون العظيم . وكان يقيم عليهم الحجة بتساؤلاته الهادئة وحواره الذكى وصفاء ذهنه ، ونقاء دعوته .

ودخل معه السجن فتيان : أحدهما رئيس الخبازين عند الملك . . والثانى رئيس السقاة الذى يتناول منه الملك كؤوس الخمر لشربها .

وشاهد الخباز حلما رأى نفسه فيه يقف فى مكان يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه .

وشاهد الساقى حلما رأى نفسه فيه يسقى الملك خمرا .

وذهب الاثنان الى يوسف . حدثه كل واحد عن حلمه وطلب تفسير ما رآه . وانتهد يوسف الفرصة وراح يدعو الله ، ثم حدث الخباز انه سيصلب ويموت ، أما الساقى فسوف يخرج من السجن ويعود الى الملك ، وقال للساقى اذا ذهبت الى الملك فاذكري عنده . . قل له : ان هناك سجينا مظلوما اسمه يوسف .

ووقع ما تنبأ به يوسف تماما . قتل الخباز وعفى عن الساقى وعاد الى القصر . . غير أنه نسي أن يحدث الملك عن يوسف . انساه الشيطان أن يذكر يوسف . . ومكث يوسف فى السجن سنوات .

قال تعالى :

((ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : انى أرانى اعصر خمرا ، وقال الآخر : انى أرانى أحمل فوق راسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، انا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن : أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ . ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتوها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) [١]

بعد هذه الدعوة العميقة الى الله .

بعد اثبات حجته على السائلين . . فسر لهما يوسف ما راياه من احلام :

((يا صاحبي السجن : أما أحكما فسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك ، فانساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين)) [٢]

لاحظ كيف يقص السياق القرآنى القصة ، فنرى يوسف لا يحدد صاحب البشرى وصاحب المصير السىء . تخرجنا وتطفنا منه بهما . . غير أنهما فهما قصده حين نفذ الحكم فى أحدهما وحكم ببراءة الثانى . .

يسقط السياق القرآنى أن التأويل قد تحقق . وأن الأمر قد قضى على ما أوله يوسف . ويترك هنا فجوة للخيال يسبح فيها ليصرف أن هذا كله قد كان . . ويخرج الناجى الى القصر . . عاد يسقى الملك مرة ثانية . كان المفروض أن يذكر يوسف الذى تنبأ له بالنجاة . . غير أن قصة

(١) الآيات من ٣٦ الى ٤٠ من سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات ٤١ ، ٤٢ من سورة يوسف مكية .

يوسف سقطت تماما من ذاكرته . . نسي تأويله لرؤياه ودعوته لله . شغله
ترف القصر الملكي . وأنساه انشغاله بسيدة الملك أو [ربه] كما كانوا
يسمون سادتهم في ذلك العصر . أنساه هذا كله ذكر يوسف .
وأسدل الشيطان ستارا سابغا على موضوع يوسف في ذهنه .

ولبت يوسف في سجنه بضع سنين .

تحملها صابرا راضيا داعيا غير قانط .

يظلم المنظر في السجن ويضئ في حجرة الملك .

الملك نائم يحلم . تنتقل الصورة الى حلمه . رأى نفسه يقف على
شاطيء النيل . كان ماء النيل يهبط أمام عينيه . راح ماؤه يفيض حتى
تحول النهر الى خيط من الطين الخالي من الماء .

وراحت الأسماك تقفز وتتواشب حتى اختفت في طين النهر . خرجت
من النهر سبع بقرات سمان . خرجت وراءهن سبع بقرات هزيلة . هاجمت
الأبقار الهزيلة الأبقار السمينية . . تحولت الأبقار الهزيلة الى وحوش
والتهمن الأبقار السمينية . كان الملك واقفا يشهد بالرعب صرخات الأبقار
السمينة وهي تغيب في جوف الأبقار الهزيلة . نبتت على شاطئ النيل
سبع سنبلات خضر . . ثم غابت السنابل الخضر في الطين ونبتت في
نفس الموضع سبع سنبلات يابسات . . استيقظ الملك فزعا من نومه . .

أحس بانقباضة لا يديرها في صدره .

أرسل الى العرافين والكهنة وكبير الوزراء . قص عليهم حلمه وطلب
تفسير رؤياه .

قال العراف : هذه أشياء مختلطة . كيف تأكل سبع بقرات هزيلة
سبع بقرات سمينية . هذه أضغاث أحلام .

قال الكاهن : لعل مولاي أثقل على نفسه في العشاء قليلا . أتحدث
عن موضوع السنابل الخضر واليابسة . .

وقال كبير الوزراء : أكون مولاي يقدف غطاءه بقدميه ويتمرئ أثناء
الليل . تقول النساء أن ذلك يستدعي الأحلام .

وقال مهرج الملك له وهو يمازحه : بدأ مولاي يكبر في السن وتخلط
أحلامه .

وهكذا اتفقت آراء الخبراء على أن حلم الملك بلا معنى . . وأنه أضغاث
أحلام . . .

وصل الخبر الى الساقى . . تداعت أفكاره وذكره حلم الملك بحلمه
الذي رآه في السجن . وذكره السجن بتأويل يوسف لحلمه . وأسرع الى الملك
وحده عن يوسف . . قال له : ان يوسف هو الوحيد الذي يستطيع تفسير
رؤياك . لقد أوصاني أن أذكره عندك ولكنني نسيت .

وأرسل الملك ساقية الى السجن ليسأل يوسف .

قال تعالى :

« وقال الملك : انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ،
وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى
ان كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام
بعالمين . وقال الذى نجا منهما وأدكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله
فأرسلون . يوسف أيها الصديق : أفتنا فى سبع بقرات سمان
يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ، لعلنى
أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » . [١]

اظلمت حجرة الملك وأضاعت الشاشة بمشهد السجن .

يوسف فى سجنه . .

ساقى الملك يلجا اليه . .

جاء الوقت واحتاج الملك الى رايه . . والله غالب على أمره ، ولكن اكثر
الناس لا يعلمون . سئل يوسف عن تفسير حلم الملك . فلم يشترط خروجه
من السجن مقابل تفسيره . . لم يساوم ولم يتردد ولم يقل شيئا غير
تفسير الرؤيا . . هكذا ببراءة النبى حين يلجا اليه الناس فيغيثهم . . وان
كان هؤلاء أنفسهم سجانيه وجلاديه .

قال يوسف لساقى الملك :

« قال : تزرعون سبع سنين دابا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله
الا قليلا مما تاكلون . ثم ياتى من بعد ذلك سبع شداد ياكلن
ما قدمت لهن الا قليلا مما تحصنون . ثم ياتى من بعد ذلك عام فيه
يغات الناس وفيه يعصرون . » [٢] .

افهم يوسف رسول الملك ان مصر ستمر عليها سبع سنوات مخصبة
تجود فيها الأرض بالغللات . وعلى المصريين الا يسرفوا فى هذه السنوات
السبع . لأن وراءها سبع سنوات مجدبة ستاكل ما يخزنه المصريون ،
وأفضل خزن للفلال أن تترك فى سنابلها كى لا تفسد أو يصيبها
السوس أو يؤثر عليها الجو .

بهذا انتهى حلم الملك . وزاد يوسف تأويله لحلم الملك بالحديث عن
عام لم يحلم به الملك . عام من الرخاء . عام يغات فيه الناس بالزرع
والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرون خيرا ، وينمو سمسهم وزيتونهم فيعصرون
زيتا .

كان هذا العام الذى لا يقابله رمز فى حلم الملك . . علما خاصا
أو تيه يوسف . فبشر به الساقى ليبشر به الملك والناس .

عاد الساقى الى الملك . أخبره بما قال يوسف . دهش الملك دهشة
شديدة .

(١) الآيات ٤٣ الى ٤٦ من نفس السورة .
(٢) الآيات ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ نفس السورة .

ما هذا السجين .. انه يتنبأ لهم بما سيقع ، ويوجههم لمعالجه ..
دون أن ينتظر اجرا أو جزاء .. أو يشترط خروجاً أو مكافأة ..

اصدر الملك أمره بإخراج يوسف من السجن واحضاره فوراً اليه .
ذهب رسول الملك الى السجن .

لم يكن هو المسألي هذه المرة . كان شخصية رفيعة . أغلب الظن
انه كان أحد الوزراء . ذهب اليه فى سجنه . رجائمه أن يخرج للقاء الملك
.. فهو يطلبه على عجل .

رفض يوسف أن يخرج من السجن الا اذا ثبتت براءته .

يبدو أنهم كانوا قد اتهموه بشيء يدور حول النساء اللاتي قطعن
أيديهن ..

لعلهم قالوا مثلاً انه حاول الاعتداء عليهن فدافعن عن أنفسهن ومزقن
أيديهن بالسكاكين .. لعلهم افتروا عليه أى افتراء متهافت يستحيل
هضمه .

كل شيء جائز فى القصور والحكم المطلق !

لا نعرف ماذا قيل بالضبط أمام الناس فى تبرير دخول يوسف
السجن .. كل ما نعرفه أن يوسف رفض أن يخرج من السجن الا اذا ثبتت
براءته .. وهاهو يحيل الملك الى سؤال النسوة .. بطلات معركة
المادبة الشهيرة التى انتهت بتقطيع أيديهن .

« وقال الملك : ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال : ارجع الى
ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، أن ربى
يكيدهن عليم . » [١]

عاد الرسول الى الملك .

صرح الملك حين رآه : أين يوسف ؟

قال رسول الملك : فى السجن .

نهض الملك من مشعده وقال : ألم آمرك باحضاره .

قال رسول الملك : رفض أن يخرج من السجن الا اذا ثبتت براءته ،
وحققتم جلاتكم فى موضوع النسوة اللاتي قطعن أيديهن .

قال الملك : استدع زوجات الوزراء وأحضروا امرأة العزيز ..
الآن . ليحضر الجميع على الفور ..

كان الملك مهتاجاً يحس أن يوسف قد تعرض لحنة لا يديرها الملك
على وجه التحقيق .. ربما سمع الملك ثنائعات قديمة تتردد عن زوجة
كبير وزرائه وقصة حبها لفتى عبرانى اشتراه زوجها .. غير أن الملك لم

(١) الآية ٥٠ سورة يوسف مكية .

يعر ما سمع اهتماها ، فقد كانت هذه القصص شيئا معتادا مكررا
ولا يبدو غريبا في دنيا القصور .

حضرت امرأة العزيز ونساء المأدبة .

سأل الملك : ما هى قصة يوسف .. ما الذى تعرفنه عنه .. هل
صحيح أنه ..

قاطعت احدى النساء الملك قائلة : حاشى الله .

وقالت امرأة أخرى : لا نعرف أنه ارتكب سيئة واحدة ..

وتالت امرأة ثالثة : كان فى طهر الملائكة .

التفتت الانظار لامرأة العزيز .. كانت شاحبة الوجه قد نقص وزنها
الى النصف .. هدها الحزن على يوسف وهو فى سجنه .. وزادت حنينا
الى رؤيته . وتغير نوع حبها له بعد محنته .

اعترفت بشجاعة العاشقة أنها كانت كاذبة وهو صادق . لقد راودته
عن نفسه فرفض . أكدت أنها تقول ما تقول لا خوفا من الملك أو من
النساء ، وانما ليعلم يوسف أنها لم تخنه بالغيب . لم يزل ذهنها يدور
حول يوسف ، هو الذى يعينها وحده دون سائر الخلق . وثبتت براءة
يوسف أمام الجميع . حكى الله نبأ هذا التحقيق والمحاكمة فى قوله تعالى :

« قال : ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن : حاشى الله
ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن ححصص الحق ،
انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين . ذلك ليعلم انى لم اخنه
بالغيب ، وان الله لا يهدى كيد الخائنين » [1]

يصور السياق القرآنى لنا اعتراف امرأة العزيز ، بالفاظ موحية ،
تشى بما وراءها من انفعالات ومشاعر عميقة .

— انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين .

شهادة كاملة باثمها هى ، وبراءته ونظافته وصدقته هو .

شهادة لا يدفع اليها خوف أو خشية أو أى اعتبار آخر .. يشى السياق
القرآنى بحافز أعمق من هذا كله . حرصها على أن يحترمها الرجل الذى
أهان كبرياءها الأثوية ، ولم يعبا بفتنتها الجسدية . ومحاوله يائسة
لتصحيح صورتها فى ذهنه . لا تريده أن يستمر على فعاليه واحتقاره
لها كخاطئة . تريد أن تصحح فكرته عنها .

— ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب .

لست بهذا السوء الذى يتصوره فى .

لعلها بدأت تبكى وهى تقول :

(1) الإيتان ٥١ ، ٥٢ سورة يوسف مكية .

« وما أبرئ نفسي ، ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ،
ان ربي غفور رحيم » . [١] .

ان تأمل الآيات يوحى ان امرأة العزيز قد تحولت الى دين يوسف .
تحولت الى التوحيد . ان سجن يوسف كان ثقلة هائلة فى حياتها . آمنت
بربه واعتنقت ديانته ، وأحبته على البعد ، ولا زالت هى المرأة العاشقة
التي لا تملك الا أن تظل معلقة بكلمة منه . أو خاطرة ارتياح . . ولو بالغيب
. . وعلى البعد . . ودون لقاء أو أمل فى لقاء .

« وقال الملك : اتئوتى به استخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال : انك
اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ
عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء ،
نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة
خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » [٢] .

.....

يهمل السياق القرآنى بعد ذلك قصة امرأة العزيز تماما ، يسقطها من
المشاهد ، فلا نعرف ماذا كان من أمرها بعد شهادتها الجريئة التي أعلنت فيها
ضمنا إيمانها بدين يوسف . .

وقد لعبت الأساطير دورها فى قصة المرأة . .

قيل : ان زوجها مات وتزوجت من يوسف ، فاكتشف انها عذراء ،
واعترفت له أن زوجها كان شيخا لا يقرب النساء . .

وقيل : ان بصرها ضاع بسبب استمرارها فى اليكاء على يوسف ، خرجت
من قصرها وتاهت فى طرقات المدينة ، فلما صار يوسف كبيرا للوزراء ،
وبضى موكبه يوما هتفت به امرأة ضريرة تتكفف الناس : سبحان من جعل
الملوك عبيدا بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكا بالطاعة . .

سأل يوسف : صوت من هذا ؟ . . قيل له : هذه امرأة العزيز ، انحدر
حالتها بعد عز . . واستدعاها يوسف وسألها : هل تجدين فى نفسك من حبك
لى شيئا ؟

قالت : نظرة الى وجهك أحب الى من الدنيا يا يوسف . . تناولنى نهاية
سوطك . . فناولها ، فوضعتة على صدرها ، فوجد السوط يهتز فى يده
اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها . .

وقيلت أساطير أخرى عديدة ، يبدو فيها أثر الخيلة الشعبية وهى تنسج
قبة الدراما بانهار العاشقة الى الحضيض . . غير ان السياق القرآنى
تجاوز تماما نهاية المرأة . . أغفلها من سياق القصة ، بعد أن شهدت ليوسف
. . وهذا يخدم الغرض الدينى فى القصة ، فالقصة أساسا قصة يوسف
وليست قصة المرأة . . وهذا أيضا يخدم الغرض الفنى . . لقد ظهرت المرأة

(١) الآية ٥٣ سورة يوسف مكة .

(٢) الآيات من ٥٤ الى ٥٧ سورة يوسف مكة .

ثم اخنفت فى الوقت المناسب .. اخنفت فى قمة مأساتها .. وشباب
اختفائها غموض فنى معجز .. ولربما بقيت فى الذاكرة باختفائها هذا زمنا
أطول مما كانت تقضيه لو عرفنا بقية قصتها ..

.....

قال الملك : اثتوني به استخلصه لنفسى ..

دخل يوسف على الملك ، تحدث معه الملك بلغته وأجاب يوسف ..

تحدثت الملك بلغة ثانية ، فجاوبه يوسف بالعربية .. سأله الملك : أى
لسان هذا ؟ .. قال يوسف هذا لسان اسماعيل عم أبى ..

تحدثت مع الملك بالعبرانية .. سأله الملك ما هذا اللسان ؟ .. قال : هذا
لسان آبائى إبراهيم واسحق ويعقوب .. وكان الملك يتكلم بأكثر من لسان ،
كان يجيد أكثر من لغة .. ووجد يوسف يجيد أكثر من لغة ..

ادهشت الملك ثقافة يوسف .. ومعرفته العميقة .. ودلف الحديث الى
الحلم .. ونصح يوسف الملك بأن تخطيطا صارما لجمع الطعام وخرنه ،
لمواجهة سنوات القحط .. وأفهم الملك أن المجاعة ستعم مصر وما حولها من
الديار .. وينبغى ان تستعد مصر لمواجهة الموقف بالنسبة لها وغيرها من
البلاد المحيطة بها .. نفهم من هذا أن مركز مصر الممتاز كان حقيقة تاريخية
قديمة ..

وتساءل الملك عن تنفيذ الخطة .. قال فيما قاله ، كما أورد تفسير
القرطبي :

— لو جمعت أهل مصر ما أطاقوا هذا الأمر .. ولم يكونوا فيه أمناء .

كان الملك يقصد الطبقة الحاكمة وما حولها من طبقات .. ان العثور على
الامانة فى الطبقة المترفة شديد الصعوبة ..

بعد اعتراف الملك ليوسف بهذه الحقيقة ..

قال يوسف : اجعلنى على خزائن الأرض .. انى حفيظ عليم .

لم يكن يوسف فى كلمته يقصد النفع أو الاستفادة .. على العكس من
ذلك .. كان يحتمل امانة اطعام شعوب جائعة لمدة سبع سنوات .. شعوب
يمكن أن تمزق حكامها لو جاعت .. كان الموضوع فى حقيقته تضحية من
يوسف ..

* * *

لا يثبت السياق الثرائى ان الملك وافق .. فكأنما يقول القرآن الكريم ان
الطلب تضمن الموافقة .. زيادة فى تكريم يوسف ، واطهار مكانته عند الملك
.. يكفى ان يقول ليجاب .. بل ليكون قوله هو الجواب ، ومن ثم يحذف
رد الملك .. ويفهمنا شريط الصور المعروضة أن يوسف قد صار فى المكان
الذى اقترحه ..

وهكذا مكن الله ليوسف فى الأرض ..

صار مسئولاً عن خزائن مصر واقتصادها .. صار كبيراً للوزراء ..

ولعل الجمع بين وظيفتى رئيس الحكومة ورئيس الخزانة قد أرسيت
تقاليده يومها ..

ولا ينبئنا السياق القرآنى كيف تصرف يوسف فى مصر .. نعرف انه حكيم
عليم .. نعرف انه أمين وصادق .. لا خوف اذن على اقتصاد مصر ..
دارت عجلة الزمن ..

طوى السياق دورتها ، ومر مرورا سريعا على سنوات الرخاء ، وجاءت
سنوات المجاعة .. وهنا يغفل السياق القرآنى ذكر الملك والوزراء .. كأن
الأمر كله قد صار ليوسف .. وها هو القرآن لا يذكر لنا أن المجاعة بدأت ..
لا يصف لنا بدءها ، إنما يعرض مشهدا مصورا لآخوة يوسف وقد جاعوا من
فلسطين لابتتياع طعام من مصر .. طعام كان يوزع بنظام يشبه نظام
البطاقات ، وهو نظام لم يعرفه العالم الا فى قمة حضارته ، بعد نشوء علم
التخطيط والاقتصاد الموجه ، وكان قصد يوسف أن يوازن بين حاجات
المحتاجين والزمن الطويل الذى يضطلع فيه بالتموين .. ولم يكن كل من يملك
الشراء يشتري المقادير التى يستطيع شراءها ليخزنها ويموت الآخرون ..
وقيل انه كان يعطى كل فرد فى الفترة الواحدة حمل بعير ..

جاء أخوة يوسف من الصحراء .. جاعوا يبتاعون طعاما من مصر ..

تقول الأمثال العامية المصرية : « لو شبعت مصر وجاع العالم .. فان مصر
تطعمه .. ولو جاعت مصر لم يشبعها العالم » .. هى الام الاولى ، ويدها
المدودة بالخير على الأرض قديمة وعريقة ..

جاء الاخوة الذين القوه فى البئر ..

جاء أولاد يعقوب فى صفوف الجماهير الطويلة صاحبة الحاجة ..

وهو يجلس على عرش مصر .. حاكما مطاعا يأمر وينهى .. ويتحكم فى
لقمة عيش الناس .. يحف من حوله وزراؤه ورجاله وجنده وأبته ..
عرف يوسف أخوته على الفور .. ولم يعرفوه هم ..

يستحيل ان يعبر طيف يوسف أفكارهم الآن .. لقد تخلصوا منه من زمان
بعيد .. وضاق بهم الحال فجاعوا من فلسطين يبحثون عن الطعام فى
مصر ..

وأجرى يوسف حواراه مع أخوته ، بغير ان يكشف لهم عن نفسه ..

كان عدد الاخوة عشرة ..

وكان معهم أحد عشر بعيرا ..

سألهم يوسف — مستخدما أحد المترجمين — لكى لا يتحدث لغتهم
العبرانية :

— نظامنا يقضى باعطاء كل انسان قدر بعير من الطعام .. كم عددكم ؟

قالوا : نحن أحد عشر ..

قال يوسف للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا .. وزيكم يخالف زينا .. فلعلمكم جواسيس ..

قالوا : والله ما نحن بجواسيس .. بل نحن بنو أب واحد .. شيخ طيب ..

سأل يوسف : قلتم أن عددكم أحد عشر .. ولكنكم عشرة ... ؟

قالوا : كنا اثني عشر أخا .. هلك لنا أخ في البرية .. ولنا أخ آخر يحبه أبونا ، ولا يستطيع أن يصبر على فراقه .. جئنا ببعيره بدلا منه ..

قال يوسف : كيف أتأكد من صدقكم ؟

قالوا : اختر شيئا تسكن إليه نفسك ..

قال يوسف : يقضى النظام إلا نصرف لأحد غير موجود .. اثنتونى بأخيكم لأصرف له طعامه .. إلا ترون أنى أوفى الكيل ... ؟

استمر الحوار بين أخوة يوسف ويوسف .. أفهمهم يوسف انه سيستثنيهم هذه المرة .. فاذا جاعوا في المرة القادمة بغير أخيهم فلن يصرف لهم .. قالوا له سنحاول اقتناع والده بأن يتركه معنا ..

قال تعالى :

« وجاء أخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : اثنتونى باخ لكم من أبيكم ، إلا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ . فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا : سنراود عنه أباه وأنا لفاعلون . وقال لفتياناه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » [١] ..

يذوب المشهد فى مصر ، ويضىء فى أرض كنعان ..

رجع الأخوة الى أبيهم .. قبل أن ينزلوا أحمال الجبال ويفكوا متاعهم دخلوا على أبيهم ..

— منع عنا الكيل ..

□ وقع هذا بسبب احتفاظك بابنك ..

— قالوا لن نصرف طعاما لمن لا يحضر ..

□ لماذا لا تأمنا عليه ؟ .. أرسله معنا وأنا له لحاظون ..

كان واضحا أن الحوار يستهدف احراج الأب وتحميله مسؤولية عدم صرف الطعام لهم ..

ورد الأب بأدب الأنبياء :

قال انه لا يأمنهم على ابنه الصغير الا كما أمنهم على يوسف من قبل ، وانه

(١) الآيات من ٥٨ الى ٦٢ سورة يوسف مكية .

لا يعبا بقولهم : انا له لحافظون .. فإله خير حافظا ، وهو أرحم
الراحمين ..

وفتح الأبناء أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال .. فإذا هم يجدون فيها
بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها .. مردودة اليهم مع الغلال والطعام ..
ورد الثمن يشير الى عدم الرغبة فى البيع ، أو هو أذار بذلك .. وربما كان
أحراجا لهم ليعودوا لسداد الثمن مرة أخرى ..
وأسرع الأبناء الى أبيهم ..

قالوا : يا أبانا ما نبغى .. لم نكذب عليك .. لقد رد الينا الثمن الذى
ذهبنا نشترى به ..

هذا معناه أنهم لن يبيعوا لنا الا اذا ذهب أخونا معنا ..

واستمر حوارهم مع الأب .. أفهموه أن حبه لابنه والتصالقه به يفسد
مصالحهم ، ويؤثر على اقتصادهم ، وهم يريدون أن يتزودوا أكثر ، وسوف
يحفظون أخاهم أشد الحفظ وأعظمه ..

وانتهى الحوار باستسلام الأب لهم .. بشرط أن يعاهدوه على العودة
بإبنة ، الا اذا خرج الأمر من أيديهم وأحيط بهم .. نصحهم الأب ألا يدخلوا
— وهم أحد عشر رجلا — من باب واحد من أبواب مصر .. كى لا يلفتوا
انتباه أحد .. وربما خشى عليهم أبوهم شيئا كالسرقة أو الحسد .. لا يقول
لنا السياق ماذا كان يخشى الأب ، ولو كان الكشف عن السبب مهما لقل ..
توكل يعقوب على الله وأسلمهم ولده ..

قال تعالى :

((فلما رجعوا الى أبيهم قالوا : يا أبانا : منع منا الكيل ، فأرسل معنا
أخانا نكتل ، وانا له لحافظون . قال : هل آمنكم عليه الا كما آمنكم
على أخيه من قبل ، فإله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما
فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم . قالوا : يا أبانا : ما نبغى ،
هذه بضاعتنا ردت الينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل
بغير ، ذلك كيل يسير . قال : ان أرسله معكم حتى تؤتون موثقا
من الله لتأتينى به الا ان يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال : الله
على ما نقول وكيل . وقال : يا بنى لاتدخلوا من باب واحد ، وادخلوا
من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، ان الحكم
الا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من
حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء ، الا حاجة
فى نفس يعقوب قضاها ، وانه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر
الناس لا يعلمون)) [١] ..

.....

عاد أخوة يوسف الأحد عشر هذه المرة ..

(١) الآيات ٦٣ الى ٦٨ سورة يوسف مكية .

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال : انى أنا اخوك
فلا تبتئس بما كانوا يعملون » [١] .

يقفز السياق قفزا الى مشهد يوسف وهو يحتضن أخاه ويكشف له وحده سر قرابته ، ولا ريب ان هذا لم يحدث فور دخول الاخوة على يوسف ، والا لانكشفت لهم قرابة يوسف ، انما وقع هذا فى خفاء وتلطف ، فلم يشعر اخوته ، غير ان السياق المعجز يقفز الى أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ورؤيته لأخيه . .

وهكذا يجعله القرآن أول عمل ، لأنه كان أول خاطر ، وهذه من دقائق التعبير فى هذا الكتاب العظيم . .

يطوى السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف واخوته ، ويعرض مشهد الرحيل الأخير . .

ها هو يوسف يدبر شيئا لأخوته . .

يريد أن يحتفظ بأخيه الصغير معه . .

يعلم أن احتفاظه بأخيه سيثير احزان أبية ، وربما حركت الاحزان الجديدة احزانه القديمة ، وربما ذكره هذا الحادث بفقد يوسف . .

يعلم يوسف هذا كله . . وها هو يرى أخاه . . وليس هناك دافع قاهر لاحتفاظه به ، لماذا يفعل ما فعل ويحتفظ بأخيه هكذا ؟

يكشف السياق عن السر فى ذلك . . ان يوسف يتصرف بوحي من الله . . يريد الله تعالى أن يصل بابتلائه ليعقوب الى الذروة . . حتى اذا جاوز به منطقة الألم البشرى المحتمل وغير المحتمل ، وراه صابرا ، رد اليه ابنه معا ورد اليه بصره . .

انتهى يوسف من تدبيره . .

أمر رجاله ان يخفوا كأس الملك الذهبية فى متاع أخيه خلسة . . وكانت الكأس تستخدم كمقياس للفلال . . وكانت لها قيمتها كمييار فى الوزن الى جوار قيمتها كذهب خالص . .

أخفى الكأس فى متاع أخيه . . وتهيأ اخوة يوسف للرحيل ومعهم أخوهم . . ثم أغلقت ابواب العاصمة . . وأذن مؤذن :

— أيتها العير . . انكم لسارقون . .

كانت صرخة الجند تعنى وقوف القوافل جميعا . . وانطلق الاتهام فوق رؤوس الجميع كتضاء خفى غامض . .

أقبل الناس وأقبل معهم اخوة يوسف . .

— ماذا تفقدون ؟

هكذا تساءل اخوة يوسف . .

(١) ٦٩ سورة يوسف مكية .

قال الجنود : نفقد صواع الملك .. ضاعت كأسه الذهبية .. ولن يجيء بها مكافأة .. سنعطيه حمل بعير من الفلال ..

قال اخوة يوسف ببراءة : لم نأت لنفسد فى الارض ونسرق ..

قال ضباط يوسف [وكان يوسف قد وجههم لما يقولونه] : اى جزاء تحبون توقيعه على السارق ؟

قال اخوة يوسف : فى شريعتنا نعتبر من سرق عبدا لمن سرقه ..

قال الضابط : سنطبق عليكم قانونكم الخاص .. لن نطبق عليكم القانون المصرى الذى يقضى بسجن السارق .. كانت هذه الاجابة كيدا وتدييرا من الله تعالى ، اللهم يوسف ان يحدث بها ضباطه .. ولولا هذا التدبير الالهى لامتنع على يوسف ان يأخذ أخاه .. فقد كان دين الملك او قانونه لا يقضى باسترقاق من سرق ..

التفت كبير الضباط وأمر : ابدأوا التفتيش ..

كان يوسف يرقب هذا كله من مكانه على العرش ..

كان قد أصدر امره لضباطه ان يبدأوا تفتيش اخوته اولا .. فلا يخرجون كأس الملك الا فى التفتيش الأخير ..

تم تفتيش الاخ الاول ، والثانى ، حتى وصلوا الى العاشر .. لم يجدوا شيئا ..

اطمان اخوة يوسف الى براءتهم من السرقة وتنفسوا الصعداء ، وقالوا لم يبق الا شقيقنا الصغير ..

قال يوسف [وهو يتدخل للمرة الاولى] : لا داعى لتفتيشه .. لا يبدو انه سارق ..

قال اخوة يوسف : لن نرحل الا اذا فتش مئاعه .. ليطمئن قلبنا وتطمئن قلوبكم .. اننا أبناء شيخ طيب ، ولسنا سارقين ..

وامتدت ايدى الضباط الى رجل أخيه ، وأخرجت كأس الملك ..

صار أخو يوسف عبدا ليوسف بمقتضى قانونهم الذى طبقه القضاء على الحادث ..

اعتب ذلك مشهد عنيف المشاعر ..

ان احساس الاخوة براحة الانقاذ والنجاة من التهمة ، جعلهم يستندون باللوم على شقيق يوسف ..

قالوا : ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل ..

انهم يتصلون من تهمة السرقة ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب ..

سمع يوسف بأذنيه اتهامهم له ، وأحس بحزن عميق .. كتم يوسف

احزانه فى نفسه ولم يظهر مشاعره .. قال بينه وبين نفسه .. انتم شر مكانا ، والله اعلم بما تصفون ..

لم يكن هذا سببا لهم ، بقدر ما كان تقريرا حكيما لقاعدة من قواعد الأمانة ..

أراد أن يقول بينه وبين نفسه .. انكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المذوف ، لانكم تذفون بريئين بتهمة السرقة .. والله اعلم بحقيقة ما تقولون ..

سقط الصمت بعد تعليق الاخوة الأخير .. ثم انمحن احساسهم بالنجاة ، وتذكروا يعقوب .. لقد أخذ عليهم عهدا غليظا ، أن لا يفرطوا فى ابنه ..

وبدأوا استرحام يوسف

يوسف أيها العزيز ..

يوسف أيها الملك ..

ان له أبا شيخا .. فخذ أحدنا مكانه .. انا نراك من الحسين ..

قال يوسف بهدوء : كيف تريدون أن نترك من وجدنا كأس الملك عنده .. وتأخذ بدلا منه انسانا آخر .. هذا ظلم .. ونحن لا نظلم ..

حاول الاخوة ان يستمروا فى استرحامه ، ولكن الضباط والجنود أفهموهم ان عزيز مصر .. يوسف الصديق .. قد تكلم وانتهى الأمر .. لينصرفوا ويتركوا أخاهم عبدا عنده ..

وتحرك أخوة يوسف ..

لا يدرون كيف يتصرفون فى مصيبتهم الجديدة .. ولا كيف يواجهون أباهم بما حدث ..

جلس أكبرهم على الأرض وقال : لن اتحرك من مكثى .. لقد فرطتم من ثبل فى يوسف .. وها أنتم تفرطون فى أخيه .. ارجعوا الى أبيكم بخيرى .. فقولوا له ما حدث ..

.....

قال تعالى :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم : ماذا تفقدون . قالوا : نفقد صواع الملك، ولئن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين . قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعينهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان لياخذ أخاه فى دين الملك — الا أن يشاء الله — نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم . قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل ،

فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم
بما تصفون . قالوا : يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا
مكانه ، أنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا
مناعنا عنده ، أنا إذا لظالمون . فلما استنأسوا منه خلصوا نجيا ،
قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن
قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى أو
يحكم الله لي وهو خير الحاكمين « [١] » ..

.....

استقر رأى الاخوة على العودة بغير شقيقتهم الكبير وأخيهم الصغير ..
دخلوا على أبيهم فقالوا :
— يا أبانا ان ابنك سرق ..

تساءل الأب مندهشا ، وكأنه يكذب سمعه : ماذا تقولون ؟

حدثوه عما وقع .. أخبروه أنهم يقولون له ما شهدوه بأعينهم ، وليسأل
من كانوا معهم في مصر .. ليسأل القافلة التي جاعوا فيها .. أنهم صادقون
هذه المرة فقد كان هناك شهود طيلة الوقت ..

استمع يعقوب اليهم وقال بحزن صابر ، وعين دامعة :

— بل سولت لكم أنفسكم أمرا .. فصبر جميل .. عسى الله أن يأتيني بهم
جميعا .. انه هو العليم الحكيم ..

لم يصدق يعقوب .. جريهم من قبل فلم ير لهم صدقا .. انتهى الأمر
وأغلقت عليه ابواب الوحدة .. صار وحيدا بغير ابنه اللذين أحبهما أكثر مما
أحب بقية ابنائه .. كان يعقوب شيخا عجوزا ، وها هو الله يبتليه في
شيخوخته بوحدة موحشة .. غير أن يعقوب يوصى نفسه بالصبر ، ويتوكأ
عليه ، وينوى أن يكون صبره جميلا بغير شكاة لأحد .. الا الله .. وهو يؤمل
في الله خيرا ، ويرجوه أن يأتيه بابنائه جميعا .. انه هو العليم بحاله ،
الحكيم ، الرؤوف ، الودود ..

انكفا يعقوب عائدا لغرفته ..

لم يكذب يستدير ويمضى حتى هاج الحادث الجديد حزنه القديم على
يوسف ..

— يا أسفا على يوسف ..

خرجت من قلبه مرتعشة ترتجف بالحب .. وامتألت عيناه بدموع كبيرة
راحت تزيد حزنه اشتعالا ، بدلا من تسكينه واطفائه ..

يطلعا الله على حوار الاخوة ولقائهم بأبيهم في قوله تعالى :

« ارجعوا الى أبيكم فقولوا : يا أبانا : ان ابنك سرق . وما شهدنا الا

(١) الآيات من ٧٠ الى ٨٠ سورة يوسف مكية .

بما علمنا ، وما كنا للغييب حافظين • واسأل القرية التي كنا فيها ،
والعبر التي أقبلنا فيها ، وأنا لصادقون • قال : بل سولت لكم أنفسكم
أمرا فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ، انه هو العليم
الحكيم » ••

« وتولى عنهم ، وقال : يا أسفا على يوسف • وابيضت عيناه
من الحزن فهو كظيم » [١] ••

أسلمه البكاء الطويل الى فقد بصره •• أو ما يشبه فقد بصره ••
أهناك من يقول : كان نبيا ويبيكى هذا البكاء •• اليس البكاء لونا من ألوان
اليأس ؟ •• ونقول ردا على ذلك : ان الأنبياء هم أعظم الناس احساسا
بالمشاعر ، وأعمقهم تأثرا ، وأشدهم استجابة للمؤثرات ••
والبكاء درجة من درجات الحب •• ولون من ألوان الشكوى الى الله ••
ولقد كان يعقوب يبكي لأنه صاحب قلب كبير •• ولم يكن يبكي أمام أحد ••
كان بكاؤه شكوى الى الله لا يعلمها الا الله •• ثم لاحظ أبنائه أنه لم يعد يبصر
ورجحوا انه يبكي على يوسف ، وهاجموه فى مشاعره الانسانية كأب ••
حذروه بأنه سيهلك نفسه ••

« قالوا : تالله تفننا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من
المهلكين • قال : انما أشكو بثى وحزنى الى الله ، وأعلم من الله
ما لا تعلمون » [٢] ••

ردهم جواب يعقوب الى حقيقة بكائه ••
انه يشكو همه الى الله •• ويعلم من الله ما لا يعلمون •• فليتركوه فى
بكائه وليصرفوا همهم لشيء أجدى عليهم ••

« يا بني : اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تياسوا من روح
الله ، انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون » [٣] ••

انه يكشف لهم فى عمق أحزانه عن أملة فى روح الله •• انه يشعر بأن
يوسف لم يمت كما أنبأوه •• لم يزل حيا ، فليذهب الاخوة بحثا عنه ••
ولیکن دليلهم فى البحث ، هذا الأمل العميق فى الله ••
تحركت القافلة فى طريقها الى مصر ••

أخوة يوسف فى طريقهم الى العزيز •• تدهور حالهم الاقتصادى والنفسى
•• ان فقرهم وحزن أبيهم ومحاصرة المتاعب لهم ، قد هدت قواهم تماما ••
ها هم يدخلون على يوسف •• معهم بضاعة رديئة •• جاعوا بثمن لا يتيح
لهم شراء شيء ذى بال ••

(١) الآيات من ٨٠ الى ٨٤ سورة يوسف بكية .
(٢) الآيات ٨٥ ، ٨٦ سورة يوسف بكية .
(٣) الآية ٨٧ سورة يوسف بكية .

قال تعالى :

« فلما دخلوا عليه قالوا : ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا
ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، ان الله يجزى
المتصدقين » [١] ..

انتهى الأمر بهم الى التسول ..

انهم يسألونه ان يتصدق عليهم .. ويستميلون قلبه ، بتذكيره ان الله
يجزى المتصدقين ..

عندئذ ...

وسط هوانهم وانحدار حالهم ..

حدثهم يوسف بلغتهم ، بغير واسطة ولا مترجم ..

« قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ أنتم جاهلون . قالوا :
أنتك لآنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد من الله
علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا :
تالله لقد آثرك الله علينا ، وان كنا لخاطئين » [٢] ..

يكاد الحوار يتحرك بأدق تعبير عن مشاعرهم الداخلية .. فاجأهم عزيز
مصر بسؤالهم عما فعلوه بيوسف .. كان يتحدث بلغتهم فأدركوا أنه يوسف
.. وراح الحوار يمضى فيكشف لهم خطيئتهم معه ..

لقد كادوا له والله غالب على أمره ..

مرت السنوات ، وذهب كيدهم له .. ونفذ تدبير الله المحكم الذى يقع
بأعجب الأسباب .. كان القاؤه فى البئر هو بداية صعوده الى السلطة
والحكم .. وكان ابعادهم له عن أبيه سببا فى زيادة حب يعقوب له ..
وها هو الستار يفتح عليهم .. وهو يملك رقابهم وحياتهم ، وهم يفتنون فى
موقف استجداء عطفه .. أنهم يختمون حوارهم معه بقولهم :

— تالله لقد آثرك الله علينا .. وان كنا لخاطئين ..

ان روح الكلمات واعترافهم بالخطأ يثى بخوف مبهم غامض يجتاح نفوسهم
.. ولعلمهم فكروا فى انتقامه منهم وارتعدت فرائصهم .. ولعل يوسف أحس
ذلك منهم فطمأنهم بقوله :

« لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ..

لا مؤاخذة ، ولا لوم ، انتهى الأمر من نفسى وذابت جذوره .. لم يقل لهم
اننى أسامحكم أو أغفر لكم ، انما دعا الله ان يغفر لهم ، وهذا يتضمن أنه عفا
عنهم وتجاوز عفوه ، ومضى بعد ذلك خطوات .. دعا الله أن يغفر لهم ..
وهو نبي ودعوته مستجابة .. وذلك تسامح نراه آية الآيات فى التسامح ..

(١) الآية ٨٨ سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات من ٨٩ الى ٩١ سورة يوسف مكية .

ها هو يوسف ينهى حوارهم معهم بنقطة مفاجئة لأبيه .. يعلم ان أباه قد
أببضت عيناه من الحزن عليه .. يعلم انه لم يعد يبصر .. لم يدرك الحوار
حول أبيه لكنه يعلم .. يحس قلبه .. خلع يوسف قميصه وأعطاه لهم ..

« اذهبوا بقميصي هذا فآلقوه على وجه ابي يأت بصيرا ، وأتوني

بأهلكم أجمعين » [١] .

وعادت القافلة الى فلسطين ..

يذوب المشهد في مصر ، ويضئ في فلسطين ..

نحن في بيت يعقوب ..

يجلس الرجل في حجرته ، أبيض العينين ، قد حفر البكاء أخدودين في
وجهه ..

ينهض الرجل فجأة ..

ثمّة تحول في وجه الشيخ المحزون الأعمى .. ها هو يبذل ثيابه ويخرج
على زوجات أبنائه ..

وقف في فناء الدار ، ورفع رأسه الى السماء ، وتشمم الهواء بقوة ..
مأ صدوره من الرياح القادمة من مصر .. ثم استدار عائداً لغرفته ..

قالت زوجة الابن الأكبر لزوجات الأبناء الآخرين :

— خرج يعقوب اليوم على غير عادته .. قلبى يحدثنى بشيء .. هجر
عزلته ووقف في الفناء .. نظر الى السماء وهو أعمى فكيف نظر الى السماء
.. لا أعرف .. ولكننى أقسم أننى لمحت ظل ابتسامته في وجهه ..

تساءلت نساء الأبناء بالدهشة :

— تقولين انه ارتدى ثيابا جديدة ؟ .. وتقولين انه ابتسم ؟

وتهرع النساء اليه .. لا ظل لابتسامته في وجهه .. اكان وهما ما رآته
المرأة ... ؟

سألته النسوة : بم تحس اليوم أيها الجليل ؟

قال الشيخ : انى لأجد ريح يوسف ..

وزامت النسوة .. فأضاف : لولا أن تفندون ..

انفضت عنه زوجات الأبناء ، ودار بينهن الحوار :

— لا أمل في الشيخ .. سيهلكه البكاء على يوسف ..

□ هل تحدث عن قميصه ؟

— لا أعرف .. قال : انه يجدر يرحه ..

(١) الآية ٩٣ سورة يوسف مكة .

□ تتآكل ذاكرة الشيوخ مع الوقت وهذا على العكس .. تزداد ذاكرته
مضاء وحدة ..

— لم يزل الحادث طريا فى ذهنه ..

□ تقولين انه بدل ثيابه ..

— لعله جن ..

□ الجنون وحده هو الذى يبعث صور من نحب ورائحتهم ..

يومها طلب الشيخ كوبا من اللبن .. كان صائما فأنظر عليه ، ولأول مرة
يطلب الطعام ولا يفرض عليه .. وراح المساء يبدل ثيابه ببطء .

القافلة تسير بقميص يوسف .. كان القميص مخبأ فى القمح .. كان
مختلطا بندى الحقول ورائحة الأرض الطيبة وعطر يوسف ودفء الشمس
التي أنضجت القمح ..

وتقترب القافلة من قرية الشيخ ..

الشيخ يدور فى غرفته ..

يصلى طويلا ، ويرفع يديه للسماء ، ويعاود استنشاق الهواء ، والبكاء ..
بينما القميص المندى بالشمس ورائحة يوسف فى طريقه اليه ..

« ولما فصلت العير قال أبوهم : انى لأجد ربح يوسف لولا أن
تفقدون . قالوا نالله أنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير
القاه على وجهه فارتد بصيرا . قال أم أقل لكم انى أعلم من الله
ما لا تعلمون ؟ قالوا : يا أبانا : استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين .
قال : سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم » [١] ..

ها هو المشهد الأخير فى قصة يوسف ..

بدأت قصته برؤيا .. وها هو الختام تأويل رؤياه ..

« فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر
— ان شاء الله — آمين . ورفع أبويه على العرش وخروا له
سجدا ، وقال : يا أبت : هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها
ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من
البدو من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين أخوتى ، ان ربى لطيف
لما يشاء ، انه هو المليم الحكيم » [٢] .

تأمل الآن مشاعره ورؤياه تتحقق .. اته يدعو ربه ..

« رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر
السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ،
والحقنى بالصالحين » [٣] .

.....

(١) الآيات من ٩٤ الى ٩٧ سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات ٩٩ ، ١٠٠ سورة يوسف مكية .

(٣) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

هي دعوة واحدة ..

— توفنى مسلماً ..

.....

لا نريد أن نترك قصة يوسف الكريم ابن يعقوب الكريم ، قبل أن نلاحظ هذه الملاحظة ..

فى قصة سيدنا ابراهيم ، ينزع الحب الغريزى من قلبه لابنه سيدنا اسماعيل ، حتى يصير القلب خالصاً لله وحده ، فاذا تحقق الأمر يرفع أمر الذبح ويأتى الفداء ..

وثمة مماثلة فى قلب سيدنا يعقوب .. بالنسبة لابنه يوسف ، أحب يوسف فابتلى بضياعه ، فلما صار قلبه خالصاً لله دون أغيار من يوسف وأخيه ، رد الله اليه ولداه ..

وثمة مماثلة فى قصة الافك .. اذ ينزع ميل سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الى السيدة عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، حتى يصير القلب خالصاً لله دون أغيار .. بعدها تنزل براعتها وتحتل مكانتها باسم الله .. بكلمة الله ..

قصة شعيب [عليه الصلاة والسلام]

يعتقد كثير من الناس في زماننا أن الدين مجموعة من القضايا
المجردة ، والقيم الأخلاقية ..

وهذا اعتقاد قديم وخاطئ .. ان الدين في حقيقته الثانية أسلوب للحياة والتعامل ..
حقيقته الأولى انه صلة بالله ..

ولهذا كان الفصل بين قضايا التوحيد والألوهية ، والقيم الأخلاقية ، وسلوك
الناس في حياتهم اليومية ، يعنى تجريد الدين من حياته ، وتحويله إلى مجموعة من
الطقوس المزركشة والمراسم الميتة ..

ولقد أبرزت قصة شعيب هذا المعنى بشكل واضح ..

أرسل الله تعالى شعيبا الى أهل « مدين » ..

**« والى مدين آخاهم ثسمييا • قال : يا قوم : اعبدوا الله ما لكم من
اله غيره » [١] ..**

نفس الدعوة التي يدعوها كل نبي .. لا تختلف من نبي الى آخر ..
لا تتبدل ولا تتردد ..

هى أساس العقيدة .. وبغير هذا الأساس يستحيل أن ينهض بناء ..

بعد وضع الأساس .. يبدأ شعيب فى تفصيل دعوته ..

**« ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم
عذاب يوم محيظ » [٢] .. [سورة هود] ..**

بعد قضية التوحيد مباشرة .. ينتقل النبى الى قضية المعاملات اليومية
.. قضية الأمانة والعدالة .. كان أهل مدين ينقصون المكيال والميزان ،
ولا يعطون الناس حقهم .. وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد .. كما
تمس كمال المروءة والشرف ، وكان أهل مدين يعتبرون بخس الناس أشياءهم
.. نوعا من أنواع المهارة فى البيع والشراء ، ، ودهاء فى الأخذ والعطاء ..
ثم جاء نبينهم وأفهمهم أن هذه دناءة وسرقة .. أفهمهم أنه يخاف عليهم بسببها
من عذاب يوم محيظ ..

(١) من الآية ٨٤ سورة هود مكة .

(٢) من الآية ٨٤ سورة هود مكة .

انظر الى تدخل الاسلام الذى بعث به شعيب فى حياة الناس ، الى الحد الذى يرقب فيه عملية البيع والشراء ..

((ويا قوم : أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)) [١] ..

لم يزل شعيب ماضيا فى دعوته .. ها هو يكرر نصحه لهم بصورة ايجابية بعد صورة النهى السلبية .. انه يوصيهم أن يوفوا المكيال والميزان بالقسط .. بالعدل والحق .. وهو يحذرهم أن يبخسوا الناس أشياءهم .. وليس بخس الناس أشياءهم أو حقوقهم مقصورا على البيع والشراء ، انها هو أمر عام يمس علاقات العمل .. ويحكمها بمعيار جديد كل الجودة .. هو معيار الأمانة .. وهكذا تبدو عقيدة التوحيد طفرة ضخمة فى طريق الأمانة والعدالة وتغيير أسلوب الناس وسلوكهم وتصرفاتهم فى الحياة اليومية ، سواء فى علاقات العمل والانتاج ، أو علاقات التبادل ، أو التصرفات الشخصية البحت ..

ان التعبير القرآنى يقول :

((ولا تبخسوا الناس أشياءهم)) [١] .. وكلمة الشيء تطلق على الأشياء المادية والمعنوية .. وتدخل فيها الأعمال وعلاقات الانتاج .. ويعنى النص تحريم الظلم ، سواء كان ظلما فى وزن الفاكهة أو الخضروات ، أو ظلما فى تقييم مجهود الناس وأعمالهم ..

ذلك أن ظلم الناس يشيع فى جو الحياة مشاعر من الألم واليأس واللامبالاة ، وتكون النتيجة أن ينهزم الناس من الداخل ، وتنهار علاقات العمل ، وتلحقها القيم .. ويشيع الاضطراب فى الحياة .. ولذلك يستكمل النص تحذيره من الافساد فى الأرض ..

((ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين)) [٢] ..

العثو .. هو تعمد الافساد .. والقصد اليه ..

ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .. لا تفسدوا فى الأرض متعمدين قاصدين .. بقية الله خير لكم .. ما عند الله خير لكم .. ان كنتم مؤمنين ..

بعدها يخلى بينهم وبين الله الذى دعاهم اليه ..

ينحى نفسه ويفهمهم انه لا يملك لهم شيئا .. ليس موكلا عليهم ولا حفيظا عليهم ولا حارسا لهم .. انما هو رسول يبلغهم رسالات ربه ..

((وما أنا عليكم بحفيظ)) [٣] .

.. .. .

بهذا الأسلوب يشعر شعيب ثومه بأن الأمر جد ، وخطير ، وثقيل .. وهو يرفع الستار عن عاقبة افسادهم ويتركهم أمام العاقبة وحدهم ..

(١) من الآية ٨٥ من سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٨٥ وآية ٨٦ من سورة هود مكية .

(٣) من الآية ٨٦ سورة هود مكية .

انتهى الجزء الأول من حوار شعيب ..
كان هو الذى يتكلم .. وكان قومه يستمعون .. توقف هو عن الكلام
وتحدث قومه ..

« هاويا : يا شعيب : أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ أو أن
نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ أنك لأنت الحليم الرشيد » [١] ..

كان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ، ويخيفون المارة ، ويعبدون
الأيكة ..

وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها .. وكانوا من أسوأ الناس
معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ويطفون فيهما ، ويأخذون بالزائد
ويدفعون بالناقص .. انظر بعد هذا كله الى حوارهم مع شعيب ..

قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك ... ؟

كأن هذه الصلاة قعيدة هناك تدفع شعيبا وتوسوس له وتأمره فيطيع دون
تردد ودون تفكير .. لقد تحول شعيب — بسبب صلاته — الى آلة متحركة
وأداة لا تعى ..

« أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ » [٢]

بهذا التهكم الخفيف والسخرية المدهشة .. واستهوال الأمر .. لقد
تجرات صلاة شعيب وجنت وأمرته أن يأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم
.. ولقد كان آباؤهم يعبدون الأشجار والنباتات .. وصلاة شعيب تأمرهم
أن يعبدوا الله وحده .. أى جراءة من شعيب .. أو فلنقل أى جراءة من صلاة
شعيب .. بهذا المنطق الساخر الهازيء وجه قوم شعيب خطابهم الى نبيهم
.. ثم عادوا يتساءلون بدهشة ساخرة :

« أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » [٣] .

تخيل يا شعيب أن صلاتك تتدخل فى ارادتنا ، وطريقة تصرفنا فى
أموالنا ..

ما هى علاقة الايمان والصلاة بالمعاملات المادية ؟

بهذا التساؤل الذى ظنه قوم شعيب قمة فى الذكاء .. طرحوا أمامه
قضية الايمان ، وأنكروا ان تكون لها علاقة بسلوك الناس وتعاملهم ..
واققتصادهم ..

هى قضية قديمة اذن ..

هذه المحاولة للتفريق بين الحياة الاقتصادية والاسلام ، وقد بعث به كل
الأنبياء ، وان اختلفت أسماؤه ..

هذه المحاولة قديمة من عمر قوم شعيب ..

(١) الآية ٨٧ من سورة هود مكية .

(٢) نفس الآية ٨٧ من سورة هود مكية .

(٣) من الآية ٨٧ سورة هود مكية .

لقد أنكروا أن يتدخل الدين فى حياتهم اليومية ، وسلوكهم ، واقتصادهم ، وطريقة انفاقهم لأموالهم بحرية .. ان حرية انفاق المال أو اهلاكه أو التصرف فيه شيء لا علاقة له بالدين .. هذه حرية الانسان الشخصية .. وهذا ماله الخاص ، ما الذى أتحم الدين على هذا وذاك ؟

هذا هو فهم قوم شعيب للإسلام الذى جاء به شعيب ، وهو لا يختلف كثيرا أو قليلا عن فهم عديد من الأتوام فى زماننا الذى نعيش فيه ..

ما للإسلام وسلوك الناس الشخصى ، وحياتهم الاقتصادية ، وأسلوب الإنتاج ، وطرق التوزيع ، وتصرف الناس فى أموالهم كما يشاءون .. ما للإسلام وحياتنا اليومية ... ؟

« انك لانت الحليم الرشيد » [1] .

يريدون ان يقولوا له ، لو كنت حليما رشيدا لما قلت ما تقول ..

انهم يعودون الى السخرية منه والاستهزاء بدعوته ..

ولو انك سألت قوم شعيب عن تصورهم للدين : ما داموا ينكرون انه أسلوب فى الحياة يجعلها أرشد وأنظف وأعدل وأجدر بخلافة الله فى الأرض .. لو انك سألتهم عن الدين لأنبأوك انه مجموعة من القيم الروحية الطيبة التى لا تتدخل فى الحياة اليومية .. وبهذا الفهم يتحول الدين الى حلية من حلى الزينة ..

وهذا فهم مضحك .. لأن الله لا يرسل الأنبياء والرسالات للزينة أو اللهو .. سبحانه وتعالى علوا كبيرا على ذلك ..

انما يرسل الله أنبياءه بأسلوب جديد للحياة ..

أسلوب ينطوى على قيم وأفكار لا يكون لها أى معنى اذا لم تتحول الى نظام يحكم الحياة العامة ، ويحكم الحياة الخاصة .. يحكم هذه وتلك على امتداد الوقت ..

بهذا الفهم يستقيم معنى الدين .. وبهذا التصور نفهم تدخل الدين فى أمور الحياة اليومية ، ابتداء من علاقات الحب ، الى نظم الزواج ، الى أسلوب قضاء الاجازات على الشواطىء ، الى طريقة انفاق النقود وتوظيفها الى نظام توزيع الثروات وانمائها ، واستغلال العمل البشرى وتهيئة الظروف للإنتاج ..

يحكم الدين هذا كله .. اذا فهم الناس هذا ، صار الدين دينا بحق ، والا كان الأمر هزلا فى هزل .. ولقد أدرك شعيب ان قومه يسخرون منه لاستبعادهم تدخل الدين فى الحياة اليومية .. ولذلك تلطف معهم تطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذى معه ، وتجاوز سخريتهم لا يبالىها ، ولا يتوقف عندها ، ولا يناقشها .. تجاوز السخرية الى الجد .. أفهمهم انه على بينة من ربه .. انه نبي يعلم .. وهو لا يريد أن يخالفهم الى ما ينهاهم عنه ، انه لا ينهاهم عن شيء ليحقق لنفسه نفعا منه .. انه لا ينصحهم

(1) من الآية ٨٧ سورة هود مكة .

بالإمانة ليخلو له السوق فيستفيد من التلاعب .. انه لا يفعل شيئا من ذلك .. انما هو نبي .. وها هو يلخص لهم كل دعوات الانبياء هذا التلخيص المعجز :

« ان أريد الا الاصلاح ما استطعت » [١] .. ان ما يريده هو الاصلاح .. هذه هي دعوات الانبياء فى مضمونها الحقيقى وعمقها البعيد .. انهم مصلحون اساسا ، مصلحون للعقول .. والقلوب .. والحياة العامة .. والحياة الخاصة ..

« قال : يا قوم : ارايتم ان كنت على بينة من ربى ، ورزقتى منه رزقا حسنا ، وما أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب » [٢] ..

بعد أن أوضح أهدافه لهم ، وكشف عن حقيقة دعوته .. استعمار لعقولهم أجنحة وطاف بها فى كتاب التاريخ البشرى ، أراهم مصارع من كان قبلهم من الناس .. قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح .. وما قوم لوط ببعيد .. ويبدأ شعيب حوارهم معهم بأن ينبههم الى أن عنادهم معه قد يحملهم على تكذيبه ومخالفته .. ومخالفة الانبياء تنتهى الى نتائج مؤسفة .. يهلك المكذبون دائما ..

« ويا قوم : لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد + واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود » [٣] ..

بعد دعوتهم الى الله ، وبيان أسلوب الاصلاح ، وتحذيرهم من العناد ، وتخويفهم من مصارع المكذبين السابقين .. يفتح لهم النبى باب الاستغفار والتوبة .. ويلفتهم بالرفق الى ربه الرحيم الودود ..

ويبدو أن قوم شعيب كانوا قد اختاروا العذاب .. ان قسوة قلوبهم واصرارهم على مكاسبهم الحرام ، ورضاء النظام الحاكم عن نفسه ، واصرارهم على الوقوف ضد شعيب ، نجح هذا كله فى أن يصوغ الجواب التالى على السنة الكفار :

« قالوا : يا شعيب : ما نفقه كثيرا مما تقول » [٤] ..

لا نفهم عنك .. أنت تخرف .. لا تقول ما يفهم ..

« وانا لترك فينا ضعيفا » [٥] ..

ضعيف لأن الفقراء والتعساء هم الذين آمنوا به ، أما الأغنياء والكبراء وأتباعهم فقد وقفوا جميعا ضده .. وهو بالحساب البشرى لا يملك قوة كافية لفرض دعوته .. هو اذن ضعيف ..

(١) من الآية ٨٨ سورة هود مكية .

(٢) الآية ٨٨ سورة هود مكية .

(٣) الآيتان ٨٩ ، ٩٠ سورة هود مكية .

(٤) الآية ٩١ سورة هود مكية .

« ولولا رهطك لرجمناك » [١] .

لولا أهلك وقومك ومن يتبعك لحفرنا لك حفرة وقتلناك ضربا بالحجارة ..

« وما أنت علينا بعزيز » [٢] .

انتقل القوم من السخرية به الى الهجوم عليه .. أقام عليهم الحجة بعد سخريتهم الجاهلة ، فغيروا أسلوبهم فى الحوار .. أفهموه أنهم لا يفهمون ما يقول ، وأنهم يرونه ضعيفا وذليلا ، ولولا أنهم يخافون من أهله أو يصعب عليهم أهله لقتلوه .. كشفوا عن كراهيتهم له وتمنيهم قتله لولا أسباب تتصل بأهله ..

وتلطف معهم شعيب ..

تجاوز عن اساعتهم اليه وسألهم سؤالا كان هدفه ايقاظ عقولهم ..

« قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله » [٣] .

أمن العقل أن يتصوروا ذلك .. أنهم يسيئون تقدير حقيقة القوى التى تتحكم فى الوجود .. ان الله هو وحده العزيز .. وهو وحده القوى .. والمفروض أن يدركوا ذلك .. المفروض الا يقيم الانسان وزنا فى الوجود لغير الله .. ولا يخشى فى الوجود غير الله .. ولا يعمل حسابا فى الوجود لقوة غير الله .. ان الله هو القاهر فوق عباده ..

ويبدو أن قوم شعيب ضاقوا ذرعا بشعيب ..

واجتمع رؤساء قومه ..

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجك يا شعيب والذين

آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » [٤] .

دخلوا مرحلة جديدة من التهديد .. هددوه بالقتل ، وها هم يهددونه بالطرده من قريتهم .. خيروه بين التشريد ، والعودة الى ديارهم وملتهم التى تمعد الأشجار والجمادات .. وأفهمهم شعيب ان مسألة عودته فى ملتهم مسألة ليست ضمن المسائل الواردة فى المفاوضات .. لقد نجاه الله من ملتهم ، فكيف يعود اليها ؟ .. انه هو الذى يدعوهم الى ملة التوحيد .. فكيف يدعوهم الى الشرك والكفر ؟ .. ثم أين تكافؤ الفرص ؟ .. انه يدعوهم برفق ولين وحب .. وهم يهددونه بالقوة ..

واستمر الصراع بين قوم شعيب ونيهم ..

حمل أمانة الدعوة ضده الرؤساء والكبراء والحكام .. وبدا واضحا الا أمل فيهم .. لقد أعرضوا عن الله .. أداروا ظهورهم لله ..

« واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربي بما تعملون محيط . ويا قوم :

اعملوا على مكانتكم انى عامل ، سوف تعلمون من ياتيه عذاب

يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب » [٥] .

(٢٤١) الآية ٩١ سورة هود مكية .

(٣) من الآية ٩٢ سورة هود مكية .

(٤) من الآية ٨٨ من سورة الاعراف مكية .

(٥) من الآية ٩٢ ، وآية ٩٣ من سورة هود مكية .

نفذ شعيب يديه منهم ..
لقد هجروا الله ، وكذبوا نبيه ، واتهموه بأنه مسحور وكاذب ..
فليعمل كل واحد .. ولينتظروا جميعا أمر الله ..
وانتقل الصراع الى تحد من لون جديد ..
راحوا يطالبونه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء ان كان من
الصادقين ..
راحوا يسألونه عن عذاب الله .. أين هو ؟ .. أين هو ؟ .. ولماذا
تأخر ... ؟
سخرؤا منه .. وانتظر شعيب أمر الله ..
وأوحى الله اليه أن يخرج المؤمنين ويخرج معهم من القرية .. وخرج
شعيب .. وجاء أمره تعالى ..
**((ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت
الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين ، كان لم يغنوا
فيها ، الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود))** [١] .
هي صيحة واحدة ..
صوت جاءهم من غمامة اظلمتهم .. ولعلمهم فرحوا بما تصوروا انها تحمله
من المطر ..
ثم فوجئوا انهم أمام عذاب عظيم ليوم عظيم ..
انتهى الأمر ..
أدركتهم صيحة جبارة جعلت كل واحد فيهم يجثم على وجهه في مكانه
الذي كان فيه في داره .. صعقت الصيحة كل مخلوق حي ..
لم يستطع ان يتحرك أو يجرى أو يختبئ أو ينقذ نفسه ..
جثم في مكانه مصروعا بصيحة ..
وأسدل الستار على القوم ..

(١) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة هود مكية .

الياس [عليه الصلاة والسلام]

هو نبي الله الياس ، عليه الصلاة والسلام ..
جرى الصراع بينه وبين قومه حول صنم يقال له « بعل » ..
دعاهم الى الله .. فأبوا الا أن يدعوا بعلا .. وانطوت صفحة الحياة
واختصر السياق فترة الحياة الدنيا ، فاذا هم محضرون أمام الله يوم
القيامة ..
قال تعالى فى سورة الصافات :

« وان الياس لمن المرسلين • اذ قال لقومه : الا تتقون • اندعون بعلا
وتذرون أحسن الخالقين • الله ربكم ورب آبائكم الأولين • فكذبوه
فانهم لمحضرون • الا عباد الله المخلصين • وتركنا عليه فى الآخريين •
سلام على الياسين • انا كذلك نجزي المحسنين • انه من عبادنا
المؤمنين » [١] ..

.....

هذه الآيات القصار هى كل ما يذكره الله تعالى من قصة الياس .. وأرجح
الآراء ان الياس هو النبي المسمى ايليا فى التوراة .. ويورد القديس برنابا
نص نصائح ايليا ، وهو نص غير معروف فى التوراة .. وهو نص نوره لما
يضمه من حكمة عميقة وصفاء خالص ، وهو نص يبدأ من الآية ٢٣ الى الآية
٤٩ من انجيل برنابا ..

يبدأ الكتيب هكذا : « ايليا عبد الله يكتب هذا لجميع الذين يبتغون ان
يسيروا مع الله خالقهم . ان من يحب ان يتعلم كثيرا يخاف الله قليلا ، لأن
من يخاف الله يقنع بأن يعرف ما يريد الله فقط ..

ان من يطلب كلاما مزوقا لا يطلب الله الذى لا يفعل الا توبيخ خطايانا ..
على من يشتهون ان يطلبوا الله ان يحكموا اغلاق أبواب بيتهم ونوافذه ،
لأن السيد لا يرضى أن يوجد خارج بيته ، حيث لا يحب ، فاحرسوا مشاعركم
واحرسوا قلوبكم ، لأن لا يوجد خارجا عنا فى هذا العالم الذى يكرهه ..
على من يريدون ان يعملوا أعمالا صالحة ، أن يلاحظوا انفسهم ، لأنه
لا يجدى المرء نفعا ان يربح كل العالم ويخسر نفسه ..

(١) الآيات من ١٢٣ الى ١٢٢ من سورة الصافات مكية .

على من يريدون تعليم الآخرين ان يعيشوا أفضل من الآخرين ، لأنه لا استفاد بشيء ممن يعرف أقل منا نحن ، فكيف اذن يصلح الخاطيء حياته وهو يسمع من هو شر منه يعلمه ..

على من يطلبون الله أن يهربوا من محادثة البشر ، لأن موسى لما كان وحده على جبل سيناء ، وجد الله وكلمه كما يكلم الخليل خليله .

على من يطلبون الله ان يخرجوا مرة كل ثلاثين يوما الى حيث يكون أهل العالم ، لأنه يمكن ان يعمل فى يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذى يطلب الله ..

عليه متى تكلم ، أن لا ينظر الا الى قدميه ..

عليه متى تكلم ، ان لا يقول الا ما كان ضروريا ..

وعليهم متى أكلوا ، ان يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع .. مفكرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالى .. وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء ..

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا ..

على كتلة التراب أن تنام على الاديم ..

ليكف كل ليلة ساعتان من النوم ..

عليه ألا يبغض أحدا الا نفسه ..

وعليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف ، كأنهم أمام الدينونة الآتية ..

فانملوا اذن هذا فى خدمة الله مع الشريعة التى أعطاكم اياها الله على يد موسى .. لأنه بهذه الطريقة تجدون الله ، وأنكم ستشعرون فى كل زمان ومكان انكم فى الله ، وان الله فيكم « ..

انتهى ما أورده انجيل برنابا عن كتيب ايليا .

قصة إدريس [عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا
عليا » . [١]

لا نعرف متى عاش ادريس . ولا من كان قومه . ولا كيف رفعه
الله مكانا عليا .

ان الأساطير تقول ان ادريس هو أوزيريس بطل الأسطورة المصرية
القديمة . وقد كان الها وثنيا مزقه « ست » . . ولعبت ايزيس زوجته دورا
فى اعادته الى الحياة . وليس بين أيدينا ما نطمئن اليه من مصادر لنحكم
برأى فى موضوع ادريس .

ربما كان ادريس نبيا كريما بعث فى مصر ورفع الله اليه مثل عيسى
ابن مريم ، فلما رفع أفتتن قومه به وصار الها فى الأسطورة ..

وربما كان ما حدث شيئا آخر تماما .

لم يرد فى كتاب الله عنه ما يكشف الغموض الذى أحاط به .

ونحن لا نعرف الا انه كان صديقا نبيا . . رفعه الله مكانا عليا .

(١) الآيات ٥٦ ، ٥٧ من سورة مريم مكية .

قصة اليسع

[عليه الصلاة والسلام]

من أنبياء الله تعالى ، الذين يذكر الحق أسماءهم ويثنى عليهم ، ولا يحكى قصصهم .. نبي الله تعالى « اليسع » .

قال تعالى فى سورة ص :

« واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب اولى الأيدى والأبصار .
انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وانهم عندنا لمن المصطفين
الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار [١]

وأرجح الأتموال أن اليسع هو اليشع الذى تتحدث عنه التوراة ..
ويذكر القديس برنابا انه أقام من الموت انسابنا كمعجزة ..

(١) الآيات ٤٥ الى ٤٨ مكية .

قصة ذا الكفل [عليه الصلاة والسلام]

أدخل الله تعالى ذا الكفل في رحمته .

أثنى عليه كعبد صابر . وذكره مع اسماعيل وأدريس .

قال تعالى في سورة الأنبياء :

« واسماعيل وأدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وادخلناهم
في رحمتنا أنهم من الصالحين » [١] .

قيل انه تكفل لبني قومه أن يقضى بينهم بالعدل ويكنيهم أمرهم .. ففعل
.. فسمى ذا الكفل .

نسجت الأساطير حوله عديدا من الحكايات . وذكره القرآن مجرد ذكر
وأثنى عليه بغير أن يقدم قصته ..

حتى زمن دعوته مجهول .. لا نعرف من كان قومه ، ولا كيف بعث اليهم ،
ولا بماذا أجابوه .

(١) الآيتان ٨٥ ، ٨٦ مكية .

أنبياء قوم ياسين [عليهم الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة [يس] :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون . اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : انا اليكم مرسلون . قالوا : ما أنتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، ان أنتم الا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون . وما علينا الا البلاغ المبين . قالوا : انا تطرنا بكم ، لأن لم نفتنهموا لنرجمنكم ولبيسناكم منا عذاب اليم . قالوا : طائركم معكم أنن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » . [١]

يحكى الحق تبارك وتعالى قصة أنبياء ثلاثة بغير أن يذكر أسماءهم . كل ما يذكره السياق أن القوم كذبوا رسولين فأرسل الله ثالثا يعززهم . وانكر الناس أنهم رسل ، كذبوهم ، فلما أقام الرسل عليهم الحجة ، قال قومهم أنهم تشاءموا منهم . وهددوهم بالرجم والقتل والعذاب الاليم . ورفض الأنبياء هذا التهديد ، واتهموا قومهم بالاسراف . . اسرافهم فى ظلم أنفسهم .

لا يقول لنا السياق ماذا كان من أمر هؤلاء الأنبياء ، انما يذكر ما كان من أمر انسان آمن بهم . آمن بهم وحده . ووقف بايمانه اقلية ضعيفة ضد اقلية كافرة .

انسان جاء من اقصى المدينة يسعى . .

جاء وقد تفتح قلبه لدعوة الحق . لم يكذب يعلن ايمانه حتى قتله الكافرون .

قال تعالى :

(وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا قوم : اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون . ومالى لا اعبد الذى فطرني واليه ترجعون . اأتخذ من دونه آلهة ، ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتكم شيئا ولا ينقذون . انى اذا لقي ضلال مبين . انى آمنتم بربكم فاسمعون » . [١]

(١) الآيات من ١٣ الى ١٩ مكية .

(٢) الآيات من ٢٠ الى ٢٥ سورة يس مكية .

اختصر السياق القرآني ذكر القتل ، وكشف الستار عن لحظة ما بعد الموت .

لم يكد الرجل المؤمن يلفظ آخر أنفاسه حتى صدر إليه أمر الله تعالى

« قيل : ادخل الجنة ، قال : يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » [١] .

تجاوز السياق أسماء الأنبياء وقصصهم ليبرز قصة رجل آمن . . لم يذكر لنا السياق اسمه .

اسمه لا يهم . . المهم ما وقع له . . لقد آمن بأنبياء الله . . قيل له ادخل الجنة .

ليكن ما كان من أمر تعذيبه وقتله .

ليس هذا في الحساب النهائي شيئاً له قيمته .

تكن الثيمة في دخوله فور اعلانه أنه آمن . فور قتله .

« انى آمنتم بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة » [٢] .

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ سورة يس مكية .
(٢) من الآيتين ٢٥ ، ٢٦ سورة يس مكية .

قصة أيوب

[عليه الصلاة والسلام]

يقول البشر عن صبر اعظم الصابرين فيهم حين يبلغ ذروته . . . انه كصبر أيوب ، وقد ذهب أيوب مثالا على الصبر في كل لغة ودين وثقافة . .
وقد اثنى الله تبارك وتعالى على عبده أيوب في محكم كتابه . .
قال تعالى :

« انا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، انه اواب » [١] .

والأوبة هي العودة الى الله تعالى . وقد كان أيوب دائم العودة الى الله بالذكر والشكر والصبر . وكان صبره سبب نجاته وسر ثناء الله عليه .
والقرآن يسكت عن نوع مرضه فلا يحدده . . وقد نسجت الأساطير عديدا من الحكايات حول مرضه . . قيل انه مرض مرضا جلديا منفرا تجنب الناس الاقتراب منه بسببه .

يقول سفر أيوب في التوراة :

فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه الى هامته . فأخذ لنفسه شقفة ليحكك بها وهو جالس في وسط الرماد . ص ٢ .

وقال هذا السفر نفسه على لسان أيوب :

« لانه مثل خبزي يأتيني أنيني ، ومثل المياه تنسكب زفرتي » . ص ٣ .

وقال هذا السفر نفسه :

قد كرهت نفسي حياتي . اسبب شكواي . أتكلم في مرارة نفسي . ص ١٠ .

ونحن نرفض هذا كله كحقيقة واقعة ، ولا نرى بأسا من قبوله كعمل فني حكاة بعد ذلك الشعراء على لسانه ، وبالغوا في وصف احساسه هذه البالغة الأدبية التي نراها في قول القائل :

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى
وأيقاد نيران الخليل كلوعتى
فلولا زفيرى أغرقتنى مدامعى
ولولا دموعى أحسرتنى زفرتى

(١) الآية ٢٤ سورة ص مكية .

ان ابن الفارض فى البيتين السابقين يتحدث عن احساسه ، فىرى ان دموعه اعظم من طوفان نوح او هى مثله ، ويرى ان نيران هواه تشبه النار التى لقى فيها ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .. وهذا كله من الصور الفنية الساحرة التى لا يعول عليها فى نطاق الحقائق ، ولا يلتفت اليها خارج منطقة الأدب والفن .

انظر الى تعبير التوراة :

فخرج الشيطان من حضرة الرب .

نعلم كمسلمين ان الشيطان قد خرج من حضرة الرب منذ ان خلق الرب آدم عليه الصلاة والسلام .. فمتى عاد الشيطان الى حضرة الرب .

نحن امام تعبير ادبى ولسنا امام حقيقة مادية .

.....

ماهى حقيقة مرض ايوب وما هى قصته ..

ان اشهر رواية عن فتنة ايوب وصبره هى الرواية التالية ..

تحدث ملائكة الأرض فيما بينهم عن الخلق وعبادتهم .. قال قائل منهم :

— ما على الأرض اليوم خير من ايوب .. هو اعظم المؤمنين ايماناً واكثرهم عبادة لله ، وشكراً على نعمه ، ودعوة له .

وسمع الشيطان ما يقال .. فسأه ذلك .. وطار الى ايوب محاولاً اغواؤه .. ولكن ايوب نبى .. قلبه هو الصفاء لله والحب لله .. وليس للشيطان عليه سبيل . حين ينس الشيطان من اغواء ايوب ، قال الله تعالى :

— يارب .. ان عبدك ايوب الذى يعبدك ويقدمك .. لا يعبدك حبا وانما يعبدك لاغراض .

يعبدك ثمنا لما منحته من مال وبنين ، وما اعطيته اياه من ثروة وعقار .. وهو يطمع ان تحفظ عليه ماله وثراه واولاده .. وكأن النعم العديدة التى منحها له هى السر فى عبادته .. انه يخاف ان يمسه الفناء او تزول .. وعلى ذلك فعبادته مشوبة بالرغبة والرغبة .. يشيع فيها الخوف والطمع .. وليست عبادة خالصة ولا حبا خالصا .

وتقول الرواية ان الله تعالى قال لابليس : ان ايوب عبد مؤمن خالص الايمان .. وليكون ايوب قبسا فى الايمان ومثلا عاليا فى الصبر .. قد ابحتك ماله وعثاره .. افعل بها ما تريد .. ثم انظر الى ما تنتهى .

وهكذا انطلقت الشياطين فأتت على أرض ايوب وأملاكه وزروعه ونعمه ودمرتها جميعا .. وانحدر ايوب من قمة الثراء الى حضيض الفقر فجأة .. وانتظر الشيطان تصرف ايوب .. وقال ايوب :

عارية لله استردها .. ووديعة كانت عندنا فأخذها ، نعمنا بها دهرا ، فالحمد لله على ما أنعم ، وسلبنا اياها اليوم ، فله الحمد معطيا وسالبا ، راضيا وساخطا ، نافعا وضارا ، وهو مالك الملك يؤتى الملك

من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

ثم خر أيوب ساجدا .. وترك إبليس وسط دهشته المخزية .
وعاد الشيطان يقول لله تعالى :

— يارب .. إذا كان أيوب لم يقابل النعمة إلا بالحمد ، والمصيبة إلا بالصبر ، فليس ذلك إلا اعتدادا بما لديه من أولاد .. انه يطمع أن يشتد بهم ظهره ويسترد بهم ثروته ..

تقول الرواية أن الله أباح للشيطان أولاد أيوب .. فزلزل عليهم البيت الذى يسكنون فيه فقتلهم جميعا .. وهنا قال أيوب داعيا ربه :

— إله أعطى .. والله أخذ .. فله الحمد معطيا وسالبا ، ساخطا وراضيا ، نافعا وضارا .

ثم خر لله ساجدا وترك إبليس وسط دهشته المخزية ..

وعاد إبليس يدعو الله ، أن أيوب لم يزل صابرا لأنه معافى فى بدنه .
ولو أنك سلطتني يارب على بدنه .. فسوف يكف عن صبره ..

تقول الرواية أن الله تعالى أباح جسد أيوب للشيطان يتصرف فيه كيف يشاء . فضرب الشيطان جسد أيوب من رأسه حتى قدميه ، فمرض أيوب مرضا جلديا راح لحمه فيه يتساقط ويتقيح .. حتى هجره الأهل والصحاب ، ولم يعد معه إلا زوجته ..

وظل أيوب على صبره وشكره لله تعالى .. حمد الله على أيام الصحة ، وحمده تعالى على بلاء المرض .. وشكره فى الحالتين ..

وازداد غيظ الشيطان فلم يعرف ماذا يفعل ، وهنا جمع إبليس مستشاريه من الشياطين وحدثهم بقصة أيوب وطلب رأيهم بعد أن أعلن يأسه من اغوائه أو أخراجه من صبره وشكره .

وقال احد الشياطين : لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة . فمن أين أتيته .

قال إبليس : أه .. تقصد حواء ..

وانقدحت فى عقل إبليس [لو كان له عقل] فكرة جديدة .. ذهب الى امرأة أيوب وملا قلبها باليأس حتى ذهبت الى أيوب تقول له :

— حتى متى يعذبك الله . أين المال والعيال والصديق والرفيق ، أين شبابك الذاهب وعزك القديم .

وأجاب أيوب امراته : لقد سول لك الشيطان أمرا .. اتراك تبكين على عز فات وولد مات ..

قالت : لماذا لا تدعو الله أن يزيح بلواك ويشفيك ويكشف حزنك .

قال أيوب : كم مكثنا فى الرخاء ؟

قالت : ثمانين سنة .

قال : كم لبثنا في البلاء ؟

قالت : سبع سنوات ..

قال : استحي أن أطلب من الله رفع بلائى ، وما قضيت فيه مدة رخائى .

لقد بدأ إيمانك يضعف .. وضائق بقضاء الله قلبك .. لئن برئت وعادت
الى القوة لأضربك مائة عصا .. وحرام بعد اليوم أن آكل من يديك طعاما
أو شرابا أو أكلفك أمرا .. فأذهبى عنى ..

وذهبت زوجته وبقي أيوب وحيدا صابرا .. يحتمل ما لا تحتمله الجبال
.. أخيرا فزع أيوب الى الله داعيا متحننا لا متبرما ولا متسخطا .. ودعا
الله أن يشفيه فاستجاب له الله ..

.....

هذه أشهر رواية عن فتنة أيوب وصيره ، ونحن نحس أنها موضوعة ..
لأنها تتفق مع نص التوراة حول مرض أيوب ..

أيضا نستبعد أن يكون مرضه منفرا أو مشوها كما تقول أساطير
القدماء .. نستبعد ذلك لتنافيه مع منصب النبوة .. كل ما نستطيع أن نقطع
به هو ما حدثنا عنه القرآن . وهو وحده الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه .

قال تعالى فى سورة [الأنبياء] :

**« وأيوب إذ نادى ربه : أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين .
فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة
من عندنا وذكرى للعابدين » [١] .**

نفهم مما سبق أن أيوب كان عبدا صالحا من عباد الله . أراد الله
امتحانه فى ماله وأهله وجسمه . ضاع ماله وأصبح فقيرا بعد أن كان أغنى
الأغنياء . وفقد أهله وبدأ يعرف معنى الوحدة . ومرض جسمه مرضا عظيما
كان يتألم له . ولكنه صبر على هذا كله وشكر .

وطال مرضه واستطال بلاؤه وعظم هجران الناس له ، حتى صار
يقضى أيامه كلها وحيدا مع المرض والحزن والوحدة .

وانطبقت أضلاع المثلث الكئيب على حياته : المرض والحزن والوحدة .
ورغم ذلك لم ينس الصبر .. كان صبره متجاوزا لبلائه ومتفوقا عليه .

وجاعته يوما احدى الأفكار الشيطانية .. راحت تحوم حول قلبه .
قالت له الفكرة : يا أيوب : هذا الألم والعذاب الذى تحسه بسبب مس
منى . ولو أنك توقفت عن الصبر يوما واحدا لذهب عنك الألم وشفيت .

وتهامس الناس حول أيوب فقالوا : لو كان الله يحبه ما ابتلاه بكل
ما ابتلاه به .

(١) الإيتان ٨٣ ، ٨٤ مكية .

وكلتا الفكرتين متهافتتان ، فان الشيطان لا يستطيع أن يمس أحدا الا بإذن الله . كما أن الله تبارك وتعالى لا يجعل حبه للناس مرادفا لسلامتهم ، انما يمتحنهم كما يشاء ويبتليهم كما يحب .

.....

راحت فكرة الشيطان تدور حول قلب أيوب مثلما تدور ذبابة صيف حول رأس انسان محقق . وأزاح أيوب بيده الفكرة وهو يبتسم لنفسه ويقول :

— أخرج أيها الشيطان . لن أتوقف عن الصبر والشكر أو العبادة . وخرجت الفكرة يائسة من عقل أيوب . وجلس أيوب غاضبا لأن الشيطان تجرأ عليه وتصور أنه يمكن أن يغيره أو يفويه ، مستغلا وحدته وأساه ومرضه .

وحضرت زوجة أيوب متأخرة فوجدت أيوب غاضبا . كانت تلف رأسها بغطاء .. وكانت قد أحضرت إليه طعاما طيبا .. وسألها أيوب : من أين جاءتك النقود . وأقسم أيوب أن يضرها مائة ضربة بالعصا عندما يشقى . كان صبره واسعا مثل نهر عظيم . ثم اكتشف في المساء أن زوجته قد قصت شعرها لتحضر إليه طعاما يأكله .

وخرج نبي الله تعالى الى الجبال يدعو ربه .

قال تعالى فى سورة [ص] :

« واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه : انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنت ، انا وجدناه صابرا ، نعم العبد انه أواب » [١] .

.....

كيف نفهم قول أيوب :

« انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » [٢] .

يريد أيوب أن يشكو لربه جرأة الشيطان عليه وتصوره انه يستطيع أن يفويه . ولا يعتقد أيوب أن ما به من مرض قد جاء بسبب الشيطان . هذا هو الفهم الذى يليق بعصمة الانبياء وكمالهم .

أمره الله تعالى أن يستحم فى عين من عيون المياه فى الجبل .. أمره أن يشرب من ماء هذه العين .. وجرى أيوب فاغتسل وشرب .. ولم يكذب

(١) الآيات من ٤١ الى ٤٤ مكية .

(٢) من الآية ٤١ من سورة ص مكية .

يشرب آخر جرعة من الماء حتى أحس أنه شفى فجأة .. زائلت الحمى ،
وذهب عنه الألم ، وعادت حرارته الى درجة الحرارة العادية ..

ووهب الله لايوب أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده سبحانه .. ولم يعد
ايوب وحيدا .

وهبه الله أضعاف ثروته كرما من عنده ، فلم يعد أيوب فقيرا . .

عاد اليه صحته بعد طول المرض .. وشكر أيوب الله ، وكان قد
أقسم أن يضرب امرأته مائة ضربة بالعصا عندما يشفى ، وها هو قد
شفى ، وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لا يتصد ضرب امرأته .. ولكي
لا يحتث في قسمه أو يكذب فيه ، أمره الله أن يجمع حزمة من أعواد
الريحان عددها مائة ، ويضرب بها امرأته ضربة واحدة ، وبذلك يكون قد
بر في قسمه ولم يكذب ..

وجزى الله أيوب على صبره أن مدحه في القرآن الكريم وقال عنه :

« **أنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب** » [١] .

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص مكة .

قصة يونس [عليه الصلاة والسلام]

هو النبي الكريم يونس بن متى .
قال عنه سيد الخلق وأمام البشر والرحمة المهداة للعالمين .. محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم :
« لا تفضلوني على يونس بن متى » .

.....

كانوا يسمونه يونس .. وذا النون .. ويونان .
وكان نبيا كريما أرسله الله الى قومه فراح يعظهم ، وينصحهم ، ويرشدهم الى الخير ، ويذكرهم بيوم القيامة ، ويخوفهم من النار ، ويحببهم الى الجنة ، ويأمرهم بالمعروف ، ويدعوهم الى عبادة الله وحده .
وظل ذو النون ينصح قومه فلم يؤمن منهم أحد ..
وجاء يوم على يونس فأحس باليأس من قومه .. وامتأ قلبه بالغضب عليهم لأنهم لا يؤمنون ، وخرج مغاضبا وقرر هجرهم .
حكى الله تعالى حكايته مبتدئا بقوله :

« **ذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه ..** » [1] .

لا أحد يعرف عنف المشاعر والاحاسيس التي راحت تعتمل في نفس يونس غير الله وحده .. كان يونس غاضبا من قومه ، كان حائقا آسفا وحزينا فخرج ..

ذهب الى شاطئ البحر وقرر أن يركب سفينة تنقله الى مكان آخر ..
لم يكن الامر الالهى قد صدر له بأن يترك قومه او ييأس منهم ، وظن يونس أن الله لن يقدر عليه عقوبة لأنه ترك قومه ، غاب عن يونس عليه السلام أن النبي مأمور بالدعوة الى الله فقط ، ولا عليه أن تنجح الدعوة أو لا تنجح .. المفروض أن يدعو لله ويترك مسألة النجاح أو عدمه لخسالق الدعوة .

كانت السفينة ترسو في الميناء الصغير ، والشمس تنحدر نحو الغروب ، والأمواج تضرب الشاطئ وتتكسر على الصخور ، ولاحظ يونس أن سمكة

(1) من الآية ٨٧ من سورة الانبياء مكة ..

طفلة تقاوم الموج ولا تعرف كيف تتصرف ، وأقبلت موجة كبيرة فرفعت السمكة وحطمتها على الصخور ، وأحس يونس فى قلبه بالحزن والأسف على السمكة الصغيرة . قال لنفسه لو كانت معها سمكة كبيرة فربما نجت .

وتذكر حاله وكيف يترك قومه . وزاد احساسه بالغضب والحزن .
ركب يونس السفينة .

كان مضطربا لا يعرف أنه يفر من قدر الله الى قدر الله .

لم يكن معه طعام ولا كيس أمتعة ولا أصدقاء يصحبونه الى الرصيف مودعين .

كان وحده تماما .

خطا بقدميه على سطح السفينة ، فصر الخشب صريحا مزعجا زاد فى انقباضة قلبه .

سأل القبطان وهو يجلس الى طاولة عمله ؟

— ماذا تريد ؟

وقع السؤال على يونس وقوع الصاعقة .

— أود أن أسافر على سفينتكم .. هل بقى على ابحاركم وقت طويل ؟

كان صوت يونس مضطربا يشى بالغضب والخوف والرهبه والقلق .

قال القبطان وهو يرفع رأسه : نبحر مع ارتفاع المد التالى .

لم يزل القبطان يحدق فى وجه يونس .

قال يونس بنقاد صبر وقلق : الا تبادرون بالأبحار قبل ذلك يا سيدى .

قال القبطان : ابحارنا مع المد مبادرة يرضى بها كل مسافر شريف .

واها لك يا يونس .. ها هى طعنة أخرى ..

أسرع يونس يحول فكر القبطان عن ريبته بأن تساءل :

— سأسافر معكم . كم تبلغ أجرة السفر ؟ سأدفع على التو .

قال القبطان ، لا نقبل غير الذهب .

قال يونس : لا بأس .

نظر القبطان الى يونس . كان قبطان السفينة حصيفا المعيا يستطيع أن يستشف بنافذ بصره خوف الناس أو قلقهم ، وكان تردده على الموانىء وزيارته للعالم ورؤيته للعالم وللناس قد جعلته رجلا يستطيع أن يخمن مشاعر الناس .. وأدرك القبطان أن يونس يفر من شىء ما .. وتصور القبطان أن يونس قد ارتكب جريمة ما .. ولم يكن جشع القبطان يسمح له بأن يفضح أى جريمة لدى مرتكبها ، الا اذا كان مقترفها مفلسا .

ان الخطيئة التي تتمكن من دفع الأجرة في عالم القبطان .. تستطيع أن تسافر حرة طليقة دون جواز سفر . فإذا كانت الفضيلة مسكينا مدقعا أوقفوه عند كل الحدود . لذلك أراد القبطان أن يختبر يونس قبل أن يسمح له بركوب السفينة .

سأله ثلاثة أضعاف الأجرة. التي يدفعها غيره من المسافرين . وكان يونس في حالة من ضيق الصدر والغضب العنيف والرغبة في الخروج من هذا البلد فدمع ما طلبه منه القبطان . وأمسك القبطان القطع الذهبية وراح يعضها بأسنانه ويحاول أن يجد فيها قطعة مزيفة .. فلم يجد . ووقف يونس ينلقى هذه الطعنات كلها وصدرة يعلو ويهبط مثل الرجل .. وأخيرا سمح له القبطان بالسفر .

قال يونس : حدد لي غرفتي ياسيدي ، فاننى متعب أريد أن أرتاح قليلا .

قال القبطان : ذلك يبدو من ملامحك .. هاك غرفتك .

أشار القبطان بيده .

لقى يونس نفسه على الفراش بملابسه كما هو .. وحاول النوم عبثا . كانت صورة السمكة الصغيرة وهي تتمزق على الصخور لا تريد أن تغادر مخيلته . وأحس يونس أن سقف الغرفة جاثم على جبهته . أخذ يتنهد ضيق الصدر في هواء محصور راكد . وكان في غرفة يونس تنديل معلق يتأرجح تأرجحا وأهنا وقد شد عند وسطه الى الجدار بلولب . وعندما ترنحت السفينة بسبب ثقل الرزم الأخيرة التي ألقيت فيها بقى القنديل والهب وكل ما يتصل بهما في وضع انحراف مستمر بالنسبة للغرفة .. ومع أنه كان في الحقيقة مستقيما استقامة لا تخطئها العين ، فانه بدا للعين منحرفا في المستويات الخادعة التي كان معلقا بينها . وراح يونس وهو راقد على فراشه يدور بعينه في سقف الغرفة ، لم تجد نظراته الثلثة أى ملاذ لها .. ان أرض الغرفة وسقفها وجوانبها تبدو جيبعا مائلة . والقنديل معلق ومائل فيها .. ويئن يونس قائلا :

— كذلك هو ضميري معلق داخل نفسى على استقامة ، وهو يتوهج مضيئا الا أن الغرفة التي تحتلها روى مائلة .

ويعد صراع اليم نشب في نفس يونس وهو ملقى على فراشه ، أثقله عبء تعاسته الباهظة ، وهوى به غريقا متخططا في نوم قلق لا يكاد يستسلم فيه للنعاس حتى يفيق فزعا بلا سبب مفهوم ..

.....

وحان وقت المد .. وألقت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء مبتعدة عن الرصيف .

مضت السفينة طوال النهار وهي تشق مياهها هادئة وتهب عليها ربح طيبة .

وجاء الليل على السفينة ..

وانقلب البحر فجأة ..

هبت عاصفة مخيفة كادت تشق السفينة .. وبدت الأمواج كمن فقدت عقلها فراحت ترتفع كالجبال وتهبط كالوديان وتلعب بأخشاب المركب .
راححت الأمواج تكعشح سطح المركب وتصدم الواقفين فوقه وتغرق ملابسهم بالمياه .

ووراء السفينة كان حوت عظيم يشق المياه وهو يفتح فمه ..

صدرت الأوامر الى أحد الحيتان العظيمة في قاع البحر أن يتحرك الى السطح . وأطاع الحوت الأمر الصادر اليه من الله وأسرع الى سطح البحر .. مضى يتعقب السفينة كما تقضى الأوامر .

واستمرت العاصفة . وأهاب رئيس النوتية بالأيدي أن تخفف أحمال السفينة ، وطرح الصناديق والرزم والجرار فضاع صوت جلبتها وهي تلقى فى الماء . وزاد صراخ الرياح وهب يونس فزعا من نومه فرأى كل شئ يهتز فى الغرفة . عثا حاول أن يقف معتدلا فلم يستطع . صعد الى السطح لم يكده يراه القبطان حتى تذكر شكوكه وصرخ .

— لقد ثارت العاصفة فى غير وقتها المعهود .. معنا على سطح السفينة رجل خاطيء ثارت بسببه العاصفة .. سنجرى القرعة على الركاب .. من خرج اسمه القيناه فى البحر ..

كان يونس يعرف أن هذا تقليد من تقاليد السفن عندما تواجه العواصف ، وهو تقليد وثنى غريب ، ولكنه كان متعبا أيامه . وبدأ يلاء يونس ومحنته . فما هو النبى الكريم يتعرض للخضوع للقوانين الوثنية التى كانت تعتبر أن للبحر آلهة تثور وللريح آلهة تفور ولا بد من ارضاء هؤلاء وهؤلاء .

وساهم يونس كارها فوضع اسمه مع أسماء الركاب .. وأجريت القرعة فخرج اسمه .

واعيدت القرعة مرة ثانية كما هى العادة فخرج اسم يونس ..

لم يعد هناك غير إجراء القرعة مرة ثالثة ثم يستقر الراى على من يلقونه فى البحر . وأحاطت الأنظار بيونس .. التفت حوله نظرات الشك مثل ثوب من النار ..

وأجريت القرعة للمرة الثالثة ..

ودق قلب يونس وقبطان السفينة يقرأ اسمه للمرة الثالثة ..

انتهى الأمر وتقرر أن يرمى يونس نفسه فى البحر .. أدرك يونس وهو يعتلى خشب السفينة أنه قد أخطأ حين ترك قومه غاضبا وظن أن الله لن يوقع عليه عقوبة ..

أخطأ يونس لأنه ترك قومه بغير إذن الله .. وما هو الله سبحانه وتعالى يعاقبه .. وقف يونس على حاجز السفينة ينظر الى البحر الهائج والأمواج السوداء .. كانت الدنيا ليلا ، وليس هناك قمر ، والنجوم تخفى وراء ضباب أسود .. ولون المياه أسود ، والبرد ينفذ الى العظام .. والمياه تغطى كل شئ ..

وصرخ صوت القبطان :

— انقز أيها المسافرين المجهول ..

واشدد عواء العاصفة الغاضبة .. وجاهد يونس ليحتفظ بتوازنه ويسقط
فى البحر معتدل القامة محتفظا بشجاعته .

وخيل الى بحارة السفينة انه يتباطأ فى الثناء نفسه .. فرمعو الى
آلهة البحر يدا داعية ، وأمسكوا يونس بالأخرى وطرحوه فى البحر وهم
مشفقون .

هوى يونس كأنه المرساة المطروحة .

وجد الحوت أمامه يونس وهو يطفو على الموج .. ابتسم الحوت .
ها قد أرسل الله اليه طعام العشاء ..

تلقف الحوت يونس من جوف الهياج الجامح . وأغلق أنيابه العاجية
عليه كأنها مزايح بيضاء يفتل بها باب سجنه .

وعاد الحوت الى أعماق البحر .

عاد راضيا قد ملاً معدته .

وفوجيء يونس بنفسه فى بطن الحوت ، والحوت يجرى به فى جوف
البحر ، والبحر يجرى به فى جوف الليل .. ظلمات ثلاث .. بعضها فوق
بعض .

ظلمة جوف الحوت ..

وظلمة قاع البحر ..

وظلمة الليل ..

تصور يونس أنه مات .. حرك حواسه فوجد نفسه يتحرك .. هو
حتى أذن .. لكنه سجين وسط ظلمات ثلاث ..

وبدا يونس يئس .. ويسبح الله ..

بدأ رحلة العودة الى الله وهو سجين وسط الظلمات الثلاث .

تحرك قلبه بالتسبيح لله وتحرك بعدها لسانه بقوله :

« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .. »

« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .. »

« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .. » [١]

كان يونس منكفئا على وجهه فى بطن الحوت . ورغم ذلك فقد راح
يسبح الله .. وكان الحوت قد تعب من السباحة فرقد على بطنه فى قاع
البحر واستسلم للنوم .. واستمر يونس فى تسبيحه لله .. لا يتوقف ولا

(١) من الآية ٨٧ سورة الانبياء مكة .

يهدا ولا ينقطع بكاؤه . لم يكن يأكل أو يشرب أو يتحرك . كان صائما طعامه هو التسبيح .

وسمعت الأسماك والحيتان والنباتات وكل المخلوقات التى تعيش فى أعماق البحر صوت تسبيح يونس .. كان التسبيح يصدر من جوف هذا الحوت دون غيره .. واجتمعت كل هذه المخلوقات حول الحوت وراحت تقوم بتسبيح الله هى الأخرى . كل واحد بطريقته الخاصة ولغته الخاصة .

واستيقظ الحوت الذى ابتلع يونس على أصوات التسبيح هو الآخر .. فمشاهد فى قاع البحر مهرجانا عظيما من الحيتان والأسماك والحيوانات البحرية والطحالب والصخور والرمال وهى تسبح الله .. واشترك الحوت فى التسبيح وأدرك أنه ابتلع نبيا .. أحس الحوت بالخوف ولكنه قال لنفسه :

— لماذا أخاف .. الله هو الذى أمرنى بابتلاعه ..

ومكث يونس فى بطن الحوت زمنا لا نعرف مقداره ..

ظل طول الوقت يقوم بتسبيح الله ويقول بقلبه ولسانه ودموعه :

« لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين » [١] .

ورأى الله سبحانه وتعالى صدق يونس فى توبته .. سمع الله تعالى تسبيحه فى جوف الحوت .. وصدرت الأوامر للحوت أن يخرج الى سطح البحر ويؤذف بيونس من جوفه عند جزيرة حددتها الأوامر .. وأطاع الحوت ..

كان الحوت قد أرسى جسده على أقصى عظام المحيط .

ثم سمع الله عز وجل من الظلمات نداء النبي السجين التائب .. وأمر الله تعالى الحوت فجاء من عالم البرد الزمهرير وظلمة البحر يضرب سعدا نحو الدفء والشمس المنعشة ومتع الأرض .

وقذف يونس الى البر فوق جزيرة عارية .

ان جسده ملتهب بسبب الأحماض فى معدة الحوت . وكان هو مريضا ، وأشرقت الشمس فلسعت أشعتها جسده الملهب فكاد يصرخ من الألم لولا أنه تماسك وعاد للتسبيح .

وأنتب الله تعالى عليه شجرة من يقطين .. وهو نبات أوراقه عريضة تقى من الشمس .. ثم شفاه الله تعالى وعفا عنه . وأرسله الى مائة الف أو يزيدون . وأفهمه الله تعالى أنه لولا التسبيح لظل فى جوف الحوت الى يوم القيامة .

قال تعالى فى سورة الصافات :

« وان يونس لمن المرسلين . اذ أبى الى الفلك المشحون . فسأهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان

(١) من الآية ٨٧ سورة الانبياء مكة .

من المسيحين . للبت في بطنه الى يوم يبعثون . فنبدناه بالعراء
وهو سقيم . وانبثنا عليه شجرة من يفتين . وارسلناه الى مائة
الف أو يزيدون . فآمنوا فمغنناهم الى حين» [١] .

وقال تعالى في سورة الانبياء :

((وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه ، فنادى في
الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .
فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)) [٢] .

نريد الآن ان ننظر فيما يسميه العلماء ذنب يونس .

هل ارتكب يونس ذنبا بالمعنى الحقيقي للذنب ..
وهل يذنب الانبياء ؟

الجواب ان الانبياء معصومون .. غير ان هذه العصمة لا تعنى انهم
لا يرتكبون اشياء هي عند الله امور تستوجب العتاب .

المسألة نسبية اذن ..

يقول العارفون بالله : ان حسنات الأبرار سيئات المقربين .. وهذا صحيح .

فلننظر فى فرار يونس من قريته الجاحدة المعاندة .

لو صدر هذا التصرف من أى انسان صالح غير يونس .. لكان
ذلك منه حسنة يثاب عليها . فهو قد فر بدينه من قوم مجرمين ..
ولكن يونس نبى أرسله الله اليهم . والمفروض ان يبلغ عن الله ولا يعبا
بنهاية التبليغ او ينتظر نتائج الدعوة .. ليس عليه الا البلاغ ..

خروجه من القرية اذن .. فى ميزان الانبياء .. أمر يستوجب
تعليم الله تعالى له وعقابه .

ان الله يلقن يونس درسا فى الدعوة اليه .

ليدعو النبى الى الله فقط .

انما أرسله ليدعوا فحسب .. هذه حدود مهمته وليس عليه أن يتجاوزها ببصره أو
قلبه ثم يحزن لأن قومه لا يؤمنون .. ان لوطا مكث فى قومه يدعوهم سنوات عديدة فلم
يؤمن فيهم أحد .. ورغم ذلك لم يخرج لوط فرارا بأهله ونفسه ودينه من قريته .. ظل
يدعوهم حتى جاءه أمر الله وأرسل إليه ملائكته باذن الخروج .

ساعتها خرج لوط ..

لو خرج قبلها لعوقب مثل يونس .

(١) الآيات ١٣٩ الى ١٤٨ من سورة الصافات مكية .
(٢) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ مكية .

ولقد خرج يونس بغير اذن فانظر ماذا وقع لقومه . لقد آمنوا به
بعد خروجه ..

قال تعالى فى سورة يونس :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها ، الا قوم يونس ، لما آمنوا
كشفتنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » [١]

• • • • •

وهكذا آمنت قرية يونس ..

ولو انه مكث فيهم لأدرك ذلك وعرفه واطمأن قلبه وذهب غضبه .
غير انه كان متسرعاً .. وليس تسرعه هذا سوى فيض فى رغبته أن
يؤمن الناس ، وانما اندفع الى الخروج كراهية لهم لعدم ايمانهم ..
فعاقبه الله وعلمه أن على النبى أن يدعو للاسلام فحسب ..

ليس عليه أن يؤمن الناس .

ليس عليه هداهم .

(١) الآية ٩٨ مكة .

قصة موسى وهارون [عليهما الصلاة والسلام]

مكث يعقوب أو إسرائيل في مصر مذ جاءها ليلتقى بابنه يوسف .. حتى اذا حضرته الوفاة دفنوه حيث ولد في فلسطين .. وفضل أبناء إسرائيل أن يعيشوا في مصر في ظل يوسف . شددهم الى الحياة في مصر خيرها الكثير واستواء أرضها واعتدال المناخ .

عاش أبناء إسرائيل في مصر زمنا . تزوجوا وتكاثروا وزاد عددهم . ومرت سنوات .. ومات يوسف ..

كان يوسف قد حول مصر الى دين الاسلام اثناء حكمه . كان يوسف على الاسلام . وكل انبياء الله تعالى على الاسلام ، ابتداء من آدم الى محمد . وينصرف الاسلام هنا الى معنى توحيد الله تعالى بالعبادة والقصد والسؤال . واسلام الوجه والعمل والنية لله . هذا ما نقصده من كلمة الاسلام اذا اطلقت ، ولا نقصد النظام الاجتماعي الذي جاء به خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم . فقد كان هذا النظام متقدما عن الأنظمة الاجتماعية التي جاء بها الانبياء ، وان بقي جوهر العقيدة واحدا لا يختلف من آدم الى محمد .

وحين صار يوسف عزيزا لمصر وكبيرا للوزراء فيها تحولت ديانة مصر الى التوحيد والاسلام ، لقد كان يدعو للاسلام في سجنه بقوله :

« أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » [١] .

ودعا يوم تحقيق رؤياه بقوله :

« توفني مسلما والحقني بالصالحين » [٢] .

وحين مات يوسف هجرت مصر نظام التوحيد الى تعدد الالهة مرة اخرى . واغلب الظن ان هذا تم بكيد الطبقة الحاكمة وتدبيرها ، فقد كانت هذه الطبقة في ظل نظام التوحيد لا تكاد تتميز بشيء عن الجماهير العريضة .. وكان من مصلحتها اذن ان يعود نظام الأرباب المتفرقين .. ويعود نظام الفرعون الاله .. وهكذا توالى على مصر أسر من الفراعنة الذين زعموا انهم آلهة او يمثلون الالهة او ينطقون باسمها .

والاصل في الشعب المصرى انه شعب متحضر ، يعنيه بناء الحضارة ، ويملك وجدانا دينيا عميقا ، وربما آمنت طبقات عديدة من الشعب المصرى

(١) من الآية ٣٩ من سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

ان الفرعون ليس لها ، غير أن ايمان المصريين الكامن فى أعماقهم لم يكن يعنى الحاكم ، طالما أنه لا يتحول الى الظهور أو الثورة ويسفر عن وجهه . كان الفرعون لا يريد من قومه غير الطاعة . ليؤمنوا فى قرارة أنفسهم بما يحبون من آلهة . الآلهة الوثنية المتعددة فى مصر كثيرة . أهم شيء أن يكون مفهوما أن الفرعون يهيمن على جميع أنواع الآلهة ويرمز لها ويتكلم باسمها . وكان هذا مفهوما فى مصر ..

وعلى حين تعددت آلهة الشعب المصرى . مع ايمانه باله مركزى هو الفرعون .. كانت الطبقة الحاكمة تقتصر على عبادة الفرعون وانفاذ أوامره وتصديق استبداده .. ومطاوعة أعظم نزواته جنونا ..

ولسوف نحس ونحن نتصفح معا أوراق موسى عليه الصلاة والسلام ، كيف كان الشعب المصرى يعيش فى عصره . كانت الجماهير مستذلة مستعبدة تطيع الفرعون ، وتمضى خائفة تحت ظل وزرائه وقادة جنده ، وتسمع الى ادعائه الألوهية دون أن تحرك ساكنا .

حكى الله تعالى فى قرآنه الكريم عن فرعون موسى قال فى سورة النازعات :

« فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى » [١] .

وحنى الناس رؤوسهم للكفرة وأطاعوا — ربما على كره — مقالة الفرعون .

ودفع الشعب ثمن خنوعه لفرعون .. وقد كان ثمنا باهظا لو قيس بالثورة عليه .

عادت مصر الى نظام تهدد الآلهة بعد فترة التوحيد المضيئة القصيرة التى قضأها فيها يوسف .

أما أبناء يعقوب ، أو أبناء إسرائيل ، فقد انحرفوا عن التوحيد وقلدوا المصريين .. لولا بعض أسر ظلت على التوحيد وأن أخفت ذلك ..

وقد جاء وقت على أبناء إسرائيل تزايدوا فيه وتكاثروا واشتغلوا فى عديد من الحرف وملأوا أسواق مصر .

.....

مرت أيام ..

وحكم مصر ملك جبار كان المصريون يعبدونه .

ورأى هذا الملك بنى إسرائيل يتكاثرون. ويزيدون ويملكون .. سمعهم يتحدثون عن نبوءة غامضة تقول أن واحدا من أبناء إسرائيل سيستقط فرعون مصر عن عرشه ، وربما كانت النبوءة حلما من أحلام اليقظة التى تجيش بها قلوب الأتلية المضطهدة ، وربما كانت بشارة فى صفتهم . مهما يكن من أمر ، فقد بلغت هذه النبوءة أسماع الفرعون ، وأصدر الفرعون أمره العجيب ألا يلد أحد من بنى إسرائيل .

(١) الايتان ٢٣ ، ٢٤ مكية .

كان معنى هذا الأمر ببساطة أن يقتل كل من يولد من الاولاد الذكور .
وبدا تطبيق النظام ، ثم قال خبراء الاقتصاد لفرعون أن الكبار من
بنى اسرائيل يموتون بأجلهم ، والصفار يذبحون ، وهذا سينتهى الى
افناء بنى اسرائيل فتضيع على الفرعون ثروة بشرية تعمل له ويستعبدوها
ويستحيي نساءها .. والأفضل أن تنظم العملية بالشكل التالي ..
يذبحون الذكور في عام ويتركونهم في العام الذى يليه .

• ووجد الفرعون أن هذا الحل أسلم من الناحية الاقتصادية .

وحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يقتل فيه الغلمان ، فولدته
علانية آمنة .

• فلما جاء العمام الذى يقتل فيه الغلمان ولد موسى .

• حصل ميلاده خوفا عظيما لأمه .. خافت عليه من القتل .. راحت
ترضعه فى السر . ثم جاءت عليها ليلة مباركة أوحى الله اليها فيها ..

« وأوحينا الى أم موسى ، أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فالقيه فى اليم ،

ولا تخافي ولا تحزنى ، أنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » [١] .

سورة القصص

لم يكد وحى الله ينتهى حتى اطاعت أم موسى هذا النداء الرحيم
المقدس .. أمرت بصنع صندوق صغير لموسى .. أرضعته ووضعتة فى
الصندوق .. وذهبت الى شاطئ النيل وألقته فى المياه ..

كان قلب الأم ، وهو أرحم القلوب فى الدنيا ، يمتلئ بالآلم وهى ترمى
ابنها فى النيل ، لكنها كانت تعلم أن الله أرحم بموسى منها ، أن الله يحبه
أكثر منها ، والله هو ربه ورب النيل ..

لم يكد الصندوق يلمس مياه النيل حتى أصدر الخالق أمره الى
الأمواج أن تكون هادئة حانية وهى تحمل هذا الرضيع الذى سيكون نبيا
فيما بعد ، ومثلما أصدر الله تعالى أمره للنار أن تكون بردا وسلاما على
ابراهيم ، كذلك أصدر أمره للنيل أن يحمل موسى بهدوء ورفق حتى
يسلمه الى قصر فرعون .. وحملت مياه النيل هذا الصندوق العزيز الى
قصر فرعون .. وهناك أسلمه الموج للشاطئ وأوصى عليه الشاطئ ..
وقالت الرياح للعشب الذى يرقد بجوار الصندوق : لا تتحرك كثيرا فان
موسى نائم . ، وأطاع العشب أمر الرياح وظل موسى نائما ..

• أشرقت الشمس فى ذلك الصباح على قصر فرعون .

• وخرجت زوجة فرعون تمشى فى حديقة القصر كعادتها كل يوم ..
لا تعرف ما الذى جعلها تمشى مسافة أطول مما تمشيه عادة كل يوم فى
الحديقة ..

كانت زوجة فرعون تختلف كثيرا عن فرعون .. كان هو كافرا وكانت
هى مؤمنة .. كان هو قاسيا وكانت هى رحيمة .. كان جبارا

(١) الآية ٧ مكية .

وكانت رقيقة وطيبة .. وأيضا كانت حزينة .. لم تكن تلد .. وكانت تتمنى أن يكون عندها ولد .

توقفت زوجة الفرعون عند حديقة من أشجار الفل .. حملت الرائحة المعطرة اليها احساسا محزنا بالوحدة .

فى نفس هذا الوقت .. كان جواربها يملأن الجرار من النهر ..

كان الصندوق يرقد عند أقدامهن .. حملن الصندوق كما هو الى زوجة فرعون .. أمرتهم أن يفتحوه ففتحوه .. رأت موسى داخله فأحست أنها تحبه كابنها ، ألقت الله فى قلبها محبته فانهمرت دموعها وحملته من الصندوق ، راحت تقبله وهى تبكى . استيقظ موسى وبدأ يبكى هو الآخر .. كان جائعا يحتاج الى رضعة الصباح فبكى ..

جلس فرعون على مائدة الانظار ينتظر زوجته فلم تحضر .. خرج غاضبا يبحث عنها .. فوجيء بها تحمل موسى وهى تغرقه بالقبلات والدموع ..

سأل فرعون من أين جاء هذا الرضيع ، فحدثوه أنهم وجدوه فى صندوق بجوار الشاطئ .. قال فرعون بغباء :

آه .. هذا أحد أطفال بنى اسرائيل .. اليس المفروض أن يقتل أطفال هذه السنة ؟

صرخت زوجته وهى تضم موسى الى صدرها اكثر :

« وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا » [١] .

دهش فرعون كثيرا وهو يرى زوجته تضم لصدرها هذا الرضيع الذى وجدوه على الشاطئ . دهش أكثر لأن زوجته كانت تبكى من الفرح وهو لم يرها تبكى قبل ذلك من الفرح ، وأحس فرعون أن زوجته تتمسك بهذا الطفل كما لو كان ابنها ، قال فى نفسه لعلها تذكرت انها لا تنجب أطفالا وتريد هذا الطفل ..

أخيرا وافق فرعون على ما تقوله زوجته .. استجاب لرغبتها وسمح لها أن تربي هذا الطفل فى قصره .

.....

لم يكد فرعون يستجيب لزوجته حتى شاهد وجهها يضىء من الفرح . لم ير فرعون زوجته فرحة قبل ذلك أبدا .. كان يحضر لها الهدايا والجواهر والعبيد فلا تبسّم ابتهامة وأحدة ، وظن فرعون انها لا تعرف معنى الابتسام ، وها هو ذا يراها الآن وكل وجهها ابتهامة مضيئة واحدة ..

(١) من الآية ٩ سورة القصص مكية .

بكى موسى من الجوع فانتبهت زوجة فرعون الى انه جائع ..
قالت لفرعون :

— ابنى الصفير جائع ..

قال فرعون : احضروا له المراضع ..

حضرت مرضعة من القصر واخذت موسى لترضعه فرفض أن
يرضع منها ..

— احضروا مرضعة ثانية !

حضرت مرضعة ثانية وثالثة وعاشرة وموسى يبكى ولا يريد أن يرضع
.. وبدأت زوجة فرعون تبكى هي الأخرى بسبب بكائه ، ولم تكن تعرف
ماذا تفعل .

لم تكن زوجة فرعون هي وحدها الحزينة الباكية .. كانت أم موسى
هي الأخرى حزينة باكية .. لم تكذب ترمى موسى فى النيل حتى أحست
انها ترمى قلبها فى النيل . غاب الصندوق فى مياه النهر واختفت أخباره
.. وجاء الصباح على أم موسى فاذا قلبها فارغ يذوب حزنا على ابنها ،
وكادت تذهب الى قصر فرعون لتبلغهم نبأ ابنتها وليكن ما يكون .. لولا
أن الله تعالى ربط على قلبها وملا بالسلام نفسها مهدات واستكانت
وتركت أمر ابنها لله .. كل ما فى الأمر انها قتلت لأختها : اذهبي بهدوء الى
جوار قصر فرعون وحاولي أن تعرفي ماذا حدث لموسى .. واياك أن
يشعروا بك ..

وذهبت أخت موسى بهدوء ورفق فاذا بها تسمع القصة الكاملة ..
رأت موسى من بعيد وسمعت بكاءه ، ورأتهم حائرين لا يعرفون
كيف يرضعونه ، سمعت أنه يرفض كل المراضع .. وقالت أخت موسى
لحرس فرعون :

هل أدلكم على أهل بيت يرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره ويخدمونه ؟
قالت زوجة فرعون :

— لو أحضرت لنا مرضعة يقبل الرضاعة منها فسوف أمنحك
جائزة عظيمة . أى شىء تطالبينه ستحصلين عليه ..

وعادت أخت موسى وأحضرت أمه .. وأرضعته أمه فرضع .. وتهللت
زوجة فرعون وقالت « خذيه حتى تنتهى فترة رضاعته وأعيديه اليها
بعدها ، وسنعطيك أجرا عظيما على تربيتك له » .

وهكذا رد الله تعالى موسى لأمه كي تقرر عينها ويهدأ قلبها ولا تحزن
ولتعلم أن وعد الله حق وأن كلماته سبحانه تنفذ رغم أى شىء ..
ورغم كل شىء !

.....
.....

قال تعالى فى سورة القصص :

((وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به ، لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين • وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون • وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ • فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون)) [١] .

.....

اتمت أم موسى رضاعته واسلمته لبيت فرعون .. كان موضع حب الجميع .. قال تعالى فى سورة طه :

((وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني)) [٢] .

كان لا يراه أحد الا أجه .. وها هو فى أعظم قصور الأرض يتربى بحفظ الله وعنايته ..

بدأت تربية موسى فى بيت فرعون .. وكان هذا البيت يضم أعظم المربين والمدرسين فى ذلك الوقت .. كانت مصر أيامها أعظم دولة فى الأرض ، وكان فرعون أقوى ملك فى الأرض ، ومن الطبيعى أن يضم قصره أعظم المدرسين والمثقفين والمربين فى الأرض .. وهكذا شاعت حكمة الله تعالى أن يتربى موسى أعظم تربية وأن يتعهدده أعظم المدرسين ، وأن يتم هذا كله فى بيت عدوه الذى سيصطدم به فيما بعد تنفيذاً لمشينة الخالق ..

وكبر موسى فى بيت فرعون .. تعلم الحساب والهندسة والفلك والكيمياء والطبيعة واللغات .. كان ينام فى حصة الدين ، لهذا لم يكن يسمع الكلام الفارغ الذى يقوله المدرس عن الوهية فرعون ، وفى المرات القليلة التى سمع فيها أن فرعون اله ، كان يسخر فى نفسه من هذا الكلام ، فهو يعيش مع فرعون فى بيت واحد ويعرف أكثر من غيره أن فرعون مجرد انسان ولكنه ظالم .

كان موسى يعلم أنه ليس ابناً لفرعون ، انها هو واحد من بنى اسرائيل .. وكان يرى كيف يضطهد رجال فرعون وأتباعه بنى اسرائيل .. وكبر موسى وبلغ أشده ..

دخل المدينة على حين غفلة من أهلها .

وراح يتمشى فيها .

.....

وجد موسى رجلاً من أتباع فرعون وهو يقتتل مع رجل من بنى

(١) الآيات من ١٠ الى ١٣ سورة القصص مكية .

(٢) من الآية ٣٩ مكية .

اسرائيل ، واستغاث به الرجل الضعيف فتدخل موسى وازاح بيده الرجل
الظالم فقتله . كان موسى قويا الى الحد الذى يكفى فيه أن يضرب بيده
ضربة واحدة ليزيح خصمه فاذا هو يقتله .. ولم يكن موسى يقصد
قتل الرجل الآخر ، وفوجيء به وقد مات ..

قال موسى لنفسه :

هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ..
ودعا موسى ربه .. قال :

رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى .

وغفر الله تعالى له ، انه هو الغفور الرحيم ..

.....
.....

قال تعالى فى سورة القصص :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكما وعلما ، وكذلك نجزي
المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين
يقنتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته
على الذى من عدوه ، فوكزه موسى ففضى عليه ، قال : هذا من عمل
الشيطان انه عدو مضل مبين . قال : رب : انى ظلمت نفسى فاغفر لى ،
فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم . قال : رب بما انعمت على فلن
أكون ظهيرا للمجرمين » [١]

أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب ..

تعبير مصور لهيئة معروفة .. هيئة انسان فزع يتوقع الشرف فى كل
خطوة ، ويلتفت لأوهى الحركات وأخفاها ..

ويبدو أن موسى كان نموذجا لمزاج عصبى مندفع .

ان موسى يندفع لنجدة الاسرائيلى .

يده تندفع بوكزة هدفها ابعاد المصرى وتحييته .. فاذا هو يقتل .

يعتبر هذا القتل فى القوانين الوضعية قتلا خاطئا . لا يقصده من فعله
ولا تتعقد عليه نيته ، وبالتالي لا يكون الجزاء فيه عميرا .. انما ينظر القضاء
بالتخفيف الى الواقعة باعتبارها قتلا خطأ .

لا يمكن اعتبار الواقعة بالتكليف القانونى ضربا انضى الى موت .. لان
الضرب لم يكن مقصودا هو الآخر . لم يكن موسى يضرب الرجل . كل ما فعله
انه وكزه [بمعنى دفعه بيده أو ازاحه بيده] .

ولسوف نلاحظ ان موسى يكاد يكون هو الوجه الآخر لابراهيم .

كلاهما من أولى العزم الكبار . غير أن ابراهيم نموذج للحلم والرفقة ،
وموسى نموذج للاندفاع والقوة .

(١) الآيات من ١٤ الى ١٧ سورة القصص مكة .

هو تكوين نفسى خلقه الله تعالى عليه . .

أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب . . وعد بالأمس أنه لن يكون ظهيرا للمجرمين . . لن يتدخل فى المشاجرات بين المجرمين والمشاغبين ليدفع عن أحد من شيعته .

وفوجيء موسى أثناء سيره بنفس الرجل الذى أنقذه موسى بالأمس وهو يناديه ويستصرخه اليوم . . كان الرجل مشتبكا فى عراك مع أحد المصريين . . وأدرك موسى أن هذا الاسرائيلى مشاغب . .

أدرك أنه من هواة المشاجرات .

وصرخ موسى فى الاسرائيلى يعنفه قائلا : انك لغوى مبين .

قال موسى كلمته واندفع نحوهما يريد البطش بالمصرى .

واعتقد الاسرائيلى أن موسى سيبطش به هو . . دفعه الخوف من موسى الى استرحامه صارخا .

— يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس . ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين .

لم تكذ كلمات الاسرائيلى تقع من لمة أمام موسى حتى توقف موسى . سكنت عنه الغضب وتذكر ما فعله بالأمس ، وكيف استغفر وتاب ووعده الا يكون ظهيرا للمجرمين . . استدار موسى عائدا ومضى وهو يستغفر ربه .

وأدرك المصرى الذى كان يتشاجر مع الاسرائيلى أن موسى هو قتائل المصرى الذى عثروا على جثته أمس . وكانت سلطات البوليس المصرى قد فشلت فى معرفة قاتله . . وطار المصرى عدوا الى رجال الأمن . . وانكشف سر موسى . . ظهر أمره . . وجاء رجل مصرى مؤمن من أقصى المدينة مسرعا همس فى أذن موسى أن هناك أتاها لقتله . نصحه أن يخرج من مصر على عجل .

.....

قال تعالى :

« فاصبح فى المدينة خائفا يترقب ، فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : انك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى ان الملا ياتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين . » [١]

.....

يخفى الله عنا اسم الرجل الذى جاء يحذر موسى .

(١) الآيات من ١٨ الى ٢٠ سورة القصص مكية .

ونرجح انه كان رجلا مصريا [من ذوى الأهمية] بنص الآيات ، فقد اطلع على مؤامرة تحاك لموسى من مستويات عليا ، ولو كان شخصية عادية لما عرف .. يعرف الرجل أن موسى لم يكن يستحق القتل على ذنبه بالأمس .. لقد قتل الرجل خطأ .. والجريمة فى القانون المصرى القديم عقوبتها السجن .. ما الذى أبرز فكرة قتل موسى اذن .. ان هناك عبارة فى نصيحة المصرى لموسى تضع يدنا على الجواب .

هذه العبارة هى قوله [ان الملا ياتمرون بك] .

الملا هم الرؤساء المسئولون عن الأمن . وهم يعدون له مؤامرة .. ان الجريمة عادية ، لا تقتضى غير عرض الأمر على القضاء والحكم بالسجن فيها ما الذى أدخل الملا هنا ؟ وجعلهم طرفا شخصيا فى النزاع ، ودفعهم للتآمر على قتله . نحسب أن مدير البوليس المصرى لم يكن يحب موسى . كان يعلم أنه من أبناء اسرائيل . وكان يرى فى وصول الصندوق الى قصر الفرعون مكيدة دبرها له أعداؤه الطامعون فى منصبه .. كيف أفلت منه أحد أبناء اسرائيل فى العام الذى لا ينبغى أن يفلت فيه أحد .

هذا يعنى تراخيه وتراخى رجاله .. وكم نصح الرجل بقتل موسى ، وكان الفرعون يجذب الفكرة فاذا حان التنفيذ تتقهقر أمام حب زوجته لموسى وحنوها عليه وتعلقها به .. أخيرا جاءت الفرصة .

قال له أحد رجاله ان موسى هو قاتل المصرى الذى عثروا على جثته بالأمس .. انتهى الأمر وجاءته فرصته فى قتل موسى . من يدافع الآن عنه . لقد جاء بموسى فى جناية قتل عمد ..

استخف الفرع كل من كانوا يكرهون موسى من رجال القصر .. وتقرر قتله .. ثم أرسل الله لموسى مصريا عاقلا يحذره وينصحه بالفرار من وجه الظالمين .

.....

قال تعالى :

« فخرج منها خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين » [١] .

صورة أخرى لموسى وهو مطارده ..

خرج على الفور .. خائفا يتلفت ويتسمع ويتربص .. فى قلبه دعاء لله .. رب نجنى من القوم الظالمين .. وكان القوم ظالمين حقا .. ألا يريدون تطبيق عقوبة القتل العمد عليه ، وهو لم يفعل شيئا أكثر من أنه مد يده وأزاح رجلا فقتله خطأ .

خرج موسى من مصر على عجل .. لم يذهب الى قصر فرعون ولم يغير ملبسه ولم يأخذ طعاما للطريق ولم يعد للسفر عدته .. لم يكن معه من دواب الأرض دابة تحمله على ظهرها وتوصله .. ولم يكن فى قافلة .. انما خرج بمجرد أن جاءه الرجل المؤمن وحذره من فرعون ونصحه أن يخرج .

(١) الآية ٢١ سورة القصص مكية .

اختر طريقا غير مطروق وسلكه . دخل فى الصحراء مباشرة واتجه الى حيث
قدرت له العناية الالهية ان يتجه . لم يكن موسى يسير قاصدا مكانا معيناً . .
هذه اول مرة يخرج فيها ويعبر الصحراء وحده . .

ظل يسير بنفسية المطارذ حتى وصل الى مكان . .

كان هذا المكان هو مدين . .

جلس يرتاح عند بئر عظيمة يسقى الناس منها دوابهم . .

لم يكن له طعام سوى ورق الشجر ، وكان يشرب من الآبار التى يجدها
فى الطريق . . وكان خائفا طوال الوقت ان يرسل فرعون وراءه من يقبض
عليه .

لم يكد موسى يصل الى «مدين» حتى التى بنفسه تحت شجرة واستراح .
نال منه الجوع والتعب ، وسقطت نعله بعد ان ذابت من مشقة السير على
الرمال والصخور والتراب . . لم تكن معه نقود لشراء نعل جديدة . ولم تكن
معه نقود لشراء طعام أو شراب . لاحظ موسى جماعة من الرعاة يسقون
غنهم ، وتذكر انه جائع وعطشان ، قال لنفسه : املا بطنى من الماءمادت
لا املك ثمن الطعام . . سار موسى الى مكان الماء ، قبل ان يصل وجد امرأتين
تكتان غنهما ان تختلط بغنم القوم ، احس موسى بما يشبه الالهام ان الفتاتين
فى حاجة الى المساعدة . نسى عطشه وتقدم منهما وسأل هل يستطيع ان
يساعدهما فى شىء . . قالت الفتاة الكبرى :

— نحن ننتظر ان ينتهى الرعاة من سقى غنهم لنسقى .

سأل موسى :

ولماذا لا تسقيان ؟

قالت الصغرى :

— لا نستطيع ان نزاحم الرجال .

اندهش موسى لانهما ترعيان الغنم . . المفروض ان يرعى الرجال الاغنام .
هذه مهمة شاقة ومتعبة وتحتاج الى اليقظة .

سأل موسى :

لماذا يرعيان الغنم . .

قالت الصغرى :

— ابونا شيخ كبير لا تساعده صحته على الخروج كل يوم للرعى .

قال موسى : سأسقى لكما .

سار موسى نحو الماء . . اكتشف ان الرعاة قد وضعوا على فم البئر
صخرة ضخمة لا يستطيع ان يحركها غير عشرة رجال . . احتضن موسى
الصخرة ورفعها من فم البئر . . نفرت عروق رقبته ويديه وهو يرفع الصخرة
. . كان موسى قويا . . سقى لهما الغنم واعاد الصخرة الى مكانها وتركها
وعاد يجلس تحت ظل الشجرة . .

وتذكر لحظتها أنه نسي أن يشرب .. وكان بطنه ملتصقا بظهره من الجوع .
تذكر الله وناداه في قلبه :

— رب انى لما انزلت الى من خير فقير .. [١]

قال تعالى :

« ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل .
ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يمسقون ، ووجد من
دونهم امرأتين تزدوران ، قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى
يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل ،
فقال : رب انى لما انزلت الى من خير فقير » [٢] .

.....
.....

ندع موسى جالسا تحت ظل الشجرة .. لنرى ماذا كان من أمر الفتاتين
اللتين سقى لهما .

عادت الفتاتان الى أبيهما الشيخ .

سأل الأب :

— عدتما اليوم سريعا على غير العادة ؟!

قالت الكبرى :

— كان حظنا اليوم عظيما يا أبى . . تقابلنا مع رجل كريم سقى لنا الغنم
قبل أن يسقى الرعاة .

قال الأب : الحمد لله .

قالت البنت الصغرى : أعتقد يا أبى أنه قادم من سفر بعيد .. وجائع !
رأيت وجهه مجهدا رغم قوته .

قال الأب لابنته :

— اذهبى اليه وقولى له : ان أبى يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا .

وطارت البنت تجرى لموسى وقلبها يخفق .

وقفت أمام موسى وأبلغته رسالة أبيها، ونهض موسى وبصره فى الأرض .
انه لم يسقى لهما الغنم وهو ينتظر منها اجرا ، وانما ساعدهما لوجه الله ،
غير أنه أحس فى داخله أن الله هو الذى يوجه قدميه فنهض .. سارت
البنت أمامه .. هبت الرياح فضربت ثوبها فخفض موسى بصره حياء وقال
لها :

— سأسير أنا أمامك ونبهينى أنت الى الطريق .

وصلا الى الشيخ .

(١) من الآية ٢٤ سورة القصص مكية .

(٢) الآيات من ٢٢ الى ٢٤ سورة القصص مكية .

قال بعض المفسرين ان هذا الشيخ هو النبي شعيب . عمر طويلا
بعد موت قومه . وقيل انه ابن اخى شعيب . وقيل ابن عمه . وقيل رجل
مؤمن من قوم شعيب الذين آمنوا به .

لا نعرف أكثر من كونه شيخا صالحا .

قدم له الشيخ طعام الغداء وسأله من أين هو قادم والى أين هو ذاهب .
حدثه موسى عن قصته . قال له الشيخ : لا تخف . . نجوت من القوم
الظالمين . هذه البلاد لا تتبع مصر ، ولن يصلوا اليك هنا . اطمأن موسى
ونفض لينصرف .

قالت ابنة الشيخ لأبيها همسا :

— يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين .

سألها الأب : كيف عرفت أنه قوى ؟

قالت : رفع وحده صخرة لا يرفعها غير عشرة رجال .

سألها :

— وكيف عرفت أنه أمين ؟

قالت :

رفض أن يسير خلفى وسار أمامى حتى لا ينظر الى وأنا أمشى . . وطوال
الوقت الذى كنت اكلمه فيه كان يضع عينيه فى الأرض حياء وأدبا .

وعاد الشيخ لموسى وقال له :

— أريد يا موسى أن أزوجه احدى ابنتى على أن تعمل فى رعى الغنم عندي
ثمانى سنوات ، فان أتممت عشر سنوات ، فمن كرمك ، لا أريد ان اتعبك ،
ستجدنى — ان شاء الله — من الصالحين .

قال موسى :

— هذا اتفاق بينى وبينك . . والله شاهد على اتفاقنا . . سواء قضيت
الثمانى سنوات أو العشر سنوات فأنا حر بعدها فى الذهاب . .

قال تعالى فى سورة القصص :

« فجاءته اهداهما تهمنى على استحياء ، قالت : ان ابى يدعوك
ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال :
لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت اهداهما : يا أبت استأجره
ان خير من استأجرت القوى الأمين . قال : اتى أريد أن انكحك
احدى ابنتى هاتين ، على أن تاجرني ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا
فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى — ان شاء الله — من
الصالحين . قال ذلك بينى وبينك ، أيما الاجلين قضيت فلا عدوان
على ، والله على ما نقول وكيل » [١]

• • • • •
• • • • •

(١) الآيات من ٢٥ الى ٢٨ سورة القصص مكية .

تنصرف كثير من الأقتلام حين تجيء الى هذا الموضوع ، الى اسئلة لا تتم الا عن الفضول . يتساءلون أى ابنتى الشيخ تزوج موسى . أهى الكبرى أم الصغرى ؟ وأى الأجلين قضى موسى عشر سنوات أم ثمان سنوات ؟ . وهم يظربون فى تيه من الأتصايف والروايات ، ونعتقد أن موسى تزوج إحدى ابنتى الشيخ . لا نعرف من كانت ، ولا ماذا كان اسمها . نعتقد أنه تزوج التى ذهبت اليه تدعوه لأبيها ، ثم حثت أباهما على استئجاره بعد ذلك . يكشف السياق القرآنى عن لون من ألوان الإعجاب الرأقى الذى يجيش بنفسها تجاهه .. ولعل الشيخ أدرك بحكمته أن ابنته قد اختارت بقلبها وانتهى الأمر ، ولعله حين حدث موسى عن تزويجه ترك له حرية الاختيار حياء ، ولعل موسى اختار من اختارته ، ولعل هذا تم بنفس اندفاع موسى وسرعته . أما من كانت هذه البنت : اكانت الكبرى أم الصغرى . فهذه مسألة سكت عنها السياق القرآنى ، وان كان قد أشار اليها اشارة موحية معجزة بقوله :

« فجاءته احدهما تمشى على استحياء » . [١]

ايضا يسكت السياق القرآنى عن الأجل الذى قضاه موسى ، هل قضى السنوات العشر أم اقتصر على ثمانى سنوات وان كنا نعتقد .. استنادا الى طبيعة موسى وكرمه ونبوته وكونه من أولى العزم .. انه قضى الأجل الأكبر . وهذا ما يؤكد حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وهكذا عاش موسى يخدم الشيخ عشر سنوات كاملة .

وكان عمل موسى ينحصر فى الخروج مع الفجر كل يوم لرعى الأغنام والسقاية لها .. ونحسب أن فترة السنوات العشر التى قضاه موسى فى مدين كانت تدبيرا الهيا من الله له ..

ان موسى على دين يعقوب .

أبوه البعيد هو يعقوب .

ويعقوب هو حفيد ابراهيم .. وموسى اذن من أحفاد ابراهيم .. وكل نبي بعد ابراهيم جاء من صلبه .

نفهم من هنا أن موسى كان على دين آبائه وأجداده .. كان على الاسلام والتوحيد .

وها هو الوقت يجيء عليه فيعزل عشر سنوات بعيدا عن اهله وقومه ..

وفترة السنوات العشر هذه كانت فترة هامة فى حياته ..

كانت فترة من فترات التأهيل الكبرى .

قطعا كان ذهن موسى يدور مع النجوم كل ليلة . وكان يتبع شروق الشمس وغروبها كل نهار ، وكان يتأمل النبات كيف يشق التربة ويظهر ، وينظر للماء كيف يحيى الأرض بعد موتها فتزدهر .. قطعا كان يسبح بذهنه فى كتاب الله

(١) من الآية ٢٥ سورة القصص مكة .

المفتوح للأبصار والأفئدة .. كان يسبح بذهنه في كون الله ، وتدركه
الدهشة ويدركه العجب .

غير أن هذا كله ظل كامنا في نفسه مستقرا بها .

لقد تربى موسى في قصر الفرعون المصرى .

هذا معناه أنه كان مصريا بثقافته ، مصريا بطعامه وشرابه ، مصريا بجسده
وقوته . هذا الوعاء المصرى بالميلاد والتربية .. كان يهيا ليتلقى وحيا الهيا
من لؤن جديد .. وحيا الهيا مباشرا يجيء بغير رسول من الملائكة .. انما
يكلمه الله تكليما بغير واسطة .. لأبد أذن من فترة اعداد عقلى ونفسى ..
انتهت فترة الاعداد الجسماني في مصر ، وتربى موسى في قصر أعظم ملوك
الأرض ، في دولة هي أغنى دولة في الأرض . وشب عملاقا قويا يكفى أن
يهد يده ليزيح أحدا حتى يقتله ..

بقى أذن أن يضاف الى الاعداد البدنى اعداد روحى مماثل . اعداد يتم في
عزلة تامة ، وسط صحراء ومراع لا يعرفها موسى قبل ذلك . وسط أناس
غريب لم يره من قبل .. وذلك ما وقع .

كان الصمت طريقته ..

وكانت العزلة مركبه ..

وكان الله يستكمل لنبيه وكليمه ادواته ليتحمل موسى بعد ذلك أمانة الأمر
بالحق .

*** **

جاء على موسى يوم ..

انتهت الفترة المحددة .. واستيقظ في قلب موسى حنين غامض الى مصر .

يريد أن يعود الى مصر ..

لقد سقطت عقوبته بمضى المدة .. يعلم ذلك .. لكنه يعلم أيضا أن
القانون في مصر رهن اشارة الحاكم ، أن شاء ادخله في العقوبة فعل ،
ولو لم يكن مستوجبا لها ، وان شاء العفو عنه - رغم استحقاقه للعقوبة - فعمل
.. كان موسى يعلم ذلك ، ولم يكن واثقا من نجاته في مصر مثل ثقته من
نجاته هنا ..

رغم ذلك ، انشبت الحنين أظافره في روحه برغبة في الرحيل ..

كان موسى سريما وحاسما في اتخاذ القرارات .

قال لزوجته : غدا نبدأ سفرنا الى مصر .

قالت زوجته لنفسها : في الرحيل الف خطر لم يسفر عن وجهه بعد .
غير أنها أطاعت .

لم يكن موسى نفسه يعرف السر في قراره السريع المفاجيء بالعودة الى
مصر .. منذ عشر سنوات خرج هاربا .. رأسه مطلوب في مصر ..

فلماذا يعود اليها اليوم .. هل اشتاق الى أمه وأخيه ؟ .. هل فكر فى زيارة زوجة الفرعون التى ربته كأم وأحبته كأم ؟ ..

لا أحد يعرف ماذا دار فى نفس موسى وهو عائد الى مصر .. كل ما نعرفه أن طاعة صامته لأقدار الله دفعته لاتخاذ القرار فاتخذه .

وها هى الأقدار العليا توجه خطواته لأمر شديد الأهمية عظيم الخطر .

*** ** ** ** **

خرج موسى مع أهله وسار .. اختفى القمر وراء أسراب من المسحاب الكثيف وساد الظلام . اشتد البرق والرعد وأمطرت السماء وزادت حدة البرد والظلام .. وتاه موسى أثناء سيره .. التقط قطعتين من الصخر وراح يضرب احدهما بالآخرى ليشتعل نارا يرى فى ضوءها أين يسير ، ولكنه لم يستطع . كانت الرياح القوية تطفىء الشرارة الضعيفة .. ووقف موسى حائرا يرتعش من البرد وسط أهله .. ثم رفع رأسه فشاهدها عن بعد .. شاهد نارا عظيمة تشتعل عن بعد ..

امتلا قلبه بالفرح فجأة .. قال لأهله : انى رأيت نارا هناك .. أمرهم أن يجلسوا مكانهم حتى يذهب الى النار لعله يأتيهم منها بخبر ، أو يجد أحدا يسأله عن الطريق فيهدى اليه ، أو يحضر اليهم بعض أخشابها المشتعلة لتدفئتهم .

ونظر أهله الى النار التى يشير اليها موسى فلم يروا شيئا .. أطاعوه وجلسوا ينتظرونه .. وتحرك موسى نحو النار ..

سار موسى مسرعا ليذفىء نفسه .. يده اليمنى تمسك عصاه .. جسده مبلل من المطر .. ظل يسير حتى وصل الى واد يسمونه طوى .. لاحظ شيئا غريبا فى هذا الوادى .. لم يكن هناك برد ولا رياح .. ثمة صمت عظيم ساكن .. واقترب موسى من النار .. لم يكذب يقترب منها حتى نودى :

« أن بورك من فى النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين » [١] .

توقف موسى فجأة .. وارتعش .. كان الصوت يجىء من كل مكان ولا يجىء من مكان محدد ..

نظر موسى فى النار وعاد يرتعش .. وجد شجرة خضراء من الشوك وكلما زاد تاجج النار زادت خضرة الشجر . المفروض أن تتحول الشجرة الى اللون الأسود وهى تترق .. لكن النار تزيد واللون الأخضر يزيد .. راح موسى يرتعش رغم الدفء والعرق .. كانت الشجرة فى جبل غربى عن يمينه ، وكان الوادى الذى يقف فيه هو وادى طوى .. ووضع موسى يديه على عينيه من شدة النور مهابة وخوفا على بصره ..

وتساءل فى نفسه :

— نار أم نور ؟!

(١) من الآية ٨ سورة النمل مكية .

(١) من الآية ٨ سورة النمل مكية .

ثم ارتجت الأرض بالخشوع والرهبة والله عز وجل ينادى :

— يا موسى .. [١] .

رفع موسى رأسه وقال :

نعم .

قال الله عز وجل : **انى أنا ربك** [٢] .

ازداد ارتعاش موسى وقال :

نعم يارب .

قال الله عز وجل : **فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى** [٣] .

انحنى موسى راعما وجسده كله ينتفض وخلق نعليه .

عاد الحق سبحانه وتعالى يقول :

((وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى • اننى أنا الله لا اله الا أنا
فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى • ان الساعة آتية أكاد أخفيها
لتجزى كل نفس بما تسعى • فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها
واتبع هواه فتردى)) [٤] .

زاد انتفاض جسد موسى وهو يتلقى الوحي الالهى ويستمع الى ربه وهو يخاطبه ..

قال الرحمن الرحيم :

— وما تلك بيمينك يا موسى ؟ [٥] .

ازدادت دهشة موسى .. ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يخاطبه ،
والله يعرف أكثر منه أنه يمسك عصاه .. لماذا يسأله الله اذن اذا كان يعرف
أكثر منه .. لاشك أن هناك حكمة عليا لذلك .

أجاب موسى وصوته يرتعش :

— هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غمى ولى فيها مآرب
أخرى • [٦] .

قال الله عز وجل :

— ألقها يا موسى .. [٧] .

رمى موسى العصا من يده وقد زادت دهشته .. وفوجيء بأن العصا
تتحول فجأة الى شعبان عظيم الحجم هائل الجسم .. وراح الشعبان يتحرك

(١) من الآية ١١ سورة طه مكية .

(٢) من الآية ١٢ سورة طه مكية .

(٣) من الآية ١٢ سورة طه مكية .

(٤) الآيات ١٣ الى ١٦ مكية .

(٥) الآية ١٧ سورة طه مكية .

(٦) من الآية ١٨ سورة طه مكية .

(٧) من الآية ١٩ سورة طه مكية .

بسرعة . . ولم يستطع موسى أن يقاوم خوفه . . أحس أن بدنه يتزلزل من الخوف ، فاستدار موسى فزعا وبدأ يجرى . . لم يكد يجرى خطوتين حتى ناداه الله !

يا موسى : لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون [١] [سورة النمل].

أقبل ولا تخف أنك من الأمنين [٢] [سورة القصص] .

عاد موسى يستدير ويقف . .

لم تزل العصا تتحرك . . لم تزل الحية تتحرك . .

قال الله سبحانه وتعالى لموسى :

— خذها ولا تخف . . سنعيدها سيرتها الأولى [٣] [سورة طه] .

مد موسى يده للحية وهو يرتعش . . لم يكد يلمسها حتى تحولت فى يده الى عصا . عاد الأمر الالهى يصدر له :

أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء . . واضم اليك جناحك من الرهب [٤] [سورة القصص] .

وضع موسى يده فى جيبه وأخرجها فاذا هى تتألأ كالقمر . . زاد انفعال موسى بما يحدث ، وضع يده على قلبه كما أمره الله فذهب خوفه تماما . .

اطمأن موسى وسكت . . وأصدر الله اليه أمرا بعد هاتين المعجزتين معجزة العصا ومعجزة اليد . .

لن يذهب الى فرعون ليدعوه الى الله برفق ولين ، ويأمره أن يخرج بنى اسرائيل من مصر . .

وأبدى موسى خوفه من فرعون .

قال أنه قتل منهم نفسا ويخاف أن يقتلوه . .

توسل الى الله أن يرسل معه اخاه هارون . . طمأن الله موسى أنه سيكون معهما يسمع ويرى ، وأن فرعون رغم قسوته وتجبره لن يمسهما بسوء . أفهم الله موسى أنه هو الغالب . .

ودعا موسى وابتهل الى الله أن يشرح له صدره وييسر أمره ويمنحه القدرة على الدعوة اليه . .

قال تعالى فى سورة طه :

((وهل أتاك حديث موسى ؟ . إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أنها نودى يا موسى . انى أنا ربك فأخضع تعليك أنك بالوادى

(١) من الآية ١٠ سورة النمل مكة .

(٢) من الآية ٣١ سورة القصص مكة (٣) من الآية ٢١ سورة طه مكة .

(٤) من الآية ٣٢ سورة القصص مكة .

المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى . ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . وماتلك بيمينك يا موسى . قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب اخرى . قال ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنميتها سيرتها الأولى . واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى . لتريك من آياتنا الكبرى . اذهب الى فرعون انه طغى . قال : رب : اشرح لى صدرى . ويسر لى امرى . وأحل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيراً من اهلى ، هارون أخى ، أشد به ازرى ، وأشركه فى امرى ، كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى . ولقد مننا عليك مرة اخرى . اذ أوحينا الى أمك ما يوحى . أن أفذنيه فى التابوت فأقذنيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له . وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى . اذ تمشى أخطك فنقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تفر عينها ولا تحزن . وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا . فلبيث سنين فى اهل مدين ثم جئت على قدر — يا موسى — واصطنعتك لنفسى» [١] .

لا نعرف ماذا نقول تعليقا على قول الله تعالى لعبد من عباده ..

« يا موسى .. واصطنعتك لنفسى » [٢]

أختار الله موسى واصطنعه لنفسه .. سبحانه .. وتلك قصة من قمم التشريف لا نعرف أحدا بلغها فى ذلك الزمان البعيد غير موسى عليه الصلاة والسلام .

تقل موسى راجعا لأهله بعد اصطفاء الله له واختياره رسولا الى فرعون .

انحدر موسى بأهله قاصدا مصر .

يعلم الله وحده أى أفكار عبرت ذهن موسى وهو يحث خطاه قاصدا مصر . انتهى زمان التأمل ، وانطوت أيام الراحة ، وجاءت الأوقات الصعبة أخيرا ، وها هو موسى يحمل أمانة الحق ويمضى ليواجه بها بطش أعظم جبابة عصره وأعتاهم . يعلم موسى أن فرعون مصر طاغية .. يعلم أنه لن يسلمه بنى اسرائيل بغير صراع .. يعلم أنه سيف من دعوته موقف الإنكار والكبرياء والتجاهل . لقد أمره الله تعالى أن يذهب الى فرعون . أن يدعوه بلين ورفق الى الله . أوحى الله لموسى أن فرعون لن يؤمن .. ليدعه موسى وشأنه . وليركز على اطلاق سراح بنى اسرائيل والكف عن تعذيبهم . قال تعالى لموسى وهارون :

(١) الآيات ٩ الى ١١ مكية .
(٢) الآية ١١ سورة طه مكية .

« — فأتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل
ولا تعذبهم » [١] .

هذه هى المهمة المحددة .

وهى مهمة سوف تصطمم بالآلاف العقبات . ان فرعون يعذب بنى اسرائيل
ويستعبدهم ويكلفهم من الاعمال مالا طاقة لهم به ، ويستحيى نساءهم ،
ويذبح ابناءهم ، ويتصرف فيهم كما لو كانوا ملكا خاصا ورثه مع ملك مصر .

يعلم موسى ان النظام المصرى يقوم فى بنيانه الاساسى على استعباد بنى
اسرائيل واستغلال عملهم وجهدهم وطاقاتهم فى الدولة ، فهل يفرط الفرعون
فى بناء الدولة الاساسى ببساطة ويسر .

ذهبت الافكار وجاءت ، فاختصرت مشقة الطريق . . ورفع الستار عن
مشهد المواجهة .

واجه موسى فرعون بلين ورفق كما امره الله .

((اذهب الى فرعون انه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو
يخشى)) [٢] .

حدثه عن الله . عن رحمته وجنته . عن وجوب توحيدهِ وعبادته .

حاول ايقاظ جوانبه الانسانية فى الحديث . الملح اليه انه يملك مصر ،
ويستطيع لو اراد أن يملك الجنة . وما عليه لذلك الا ان يتقى الله . .

استمع فرعون الى حديث موسى ضجرا شبه هازىء وقد تصوره مجنونا
تجرا على مقامه السامى . . ثم رفع يده وتحدث .

— ماذا تريد . قل : ماذا تريد واختصر ؟ .

قال موسى : اريد أن ترسل معنا بنى اسرائيل .

سأل فرعون : باى صفة ارسلهم معك وهم عبادى .

قال موسى : انهم عباد الله رب العالمين .

تساءل فرعون — هازئا — ألم تقل ان اسمك موسى .

قال موسى : نعم .

قال فرعون : ألسنت موسى الذى التقطناه من النيل طفلا لا حول له ولا قوة
ألسنت موسى الذى ربيناه فى هذا القصر وأكل من طعامنا وشرب من مائنا
وأغرقه خيرنا وأحسننا اليه . . ألسنت موسى القاتل فيما بعد . الفار فيما بعد
قاتل الرجل المصرى لو لم تخنى الذاكرة . الا يقولون ان القتل كفر . كنت
كافرا وانت تقتل اذن . .

(١) من الآية ٤٧ سورة طه مكية .
(٢) الايتان ٤٣ ، ٤٤ سورة طه مكية .

أنت موسى اذن .. الفار من القانون المصرى .. الهارب من وجه العدالة .. ثم تجىء الى وتحديثى ..

فيم كنت تحديثتى يا موسى .. لقد نسيت .

فهم موسى أن فرعون يذكره بماضيه ويمن عليه أنه رباه وأحسن اليه ، فهم أيضا أن الفرعون يهدده بحادث القتل القديم .. وتجاوز موسى سخريه فرعون وأفهمه أنه لم يكن كافرا حين قتل المصرى . وإنما كان ضاللا لم يوح الله اليه .

أفهمه أنه فر من مصر لأنه خاف انتقامهم منه رغم أن القتل كان خطأ ولم يكن يقصده . أفهمه أن الله وهبه حكما وجعله من المرسلين .

حكى الله تعالى فى سورة الشعراء جزءا من الحوار بين موسى وفرعون .
قال تعالى :

« واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ، الأينقون؟ .
قال : رب : انى أخاف أن يكذبون + ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى
فأرسل الى هارون + ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال : كلا
فأذهبنا بآياتنا أنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا أنا رسول
رب العالمين . أن أرسلك معنا بنى اسرائيل . قال : ألم نريك فينا وليدا
ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من
الكافرين . قال : فعلتها اذا وأنا من الصالحين . فقررت منكم لما خفتكم
فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين » [١]

.. ..
.. ..

وتغلب طبيعة موسى المندفعة عليه .. ان من الفرعون عليه وتذكيره
باحسانه عليه يثير طبيعته المندفعة .. فاذا هو يخاطب فرعون قائلا :

— وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » [٢]

يريد موسى أن يقول له .. هل تظن أن النعمة التى تمنها على .. من أنك
أحسننت الى وأنا رجل واحد من بنى اسرائيل .. هل تظن هذه النعمة تقابل
ما استخدمت هذا الشعب الكبير بأكمله ، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمتك
وأشغالك . ان كان هذا بذاك وطاوعك المنطق على ذلك فنحن متعادلون اذن
.. ليس فينا دائن ومدين ، وان لم يكن هذا بذاك فأيهما أكبر ؟ . وعلى أى
الحالات فالأمر أمر دعوة الى الله .

أمر لم آتاك به من تلقاء نفسى . لست موفدا من شعب بنى اسرائيل .
لست موفدا من قبل نفسى .. إنما أنا موفد من الله تعالى .. أنا رسول رب
العالمين . عند هذا الحد تدخل الفرعون فى الحديث .

(١) الآيات من ١٠ الى ٢١ مكية .
(٢) الآية ٢٢ سورة الشعراء مكية .

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ » [١] .

قال موسى :

« رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين » . [٢] .

التفت فرعون لمن حوله وقال هازئاً :

« ألا تستمعون » . [٣] .

قال موسى متجاوزاً سخرية الفرعون :

« ربكم ورب آبائكم الأولين » . [٤] .

قال فرعون مخاطباً من جاءوا مع موسى من بنى اسرائيل :

« ان رسولكم الذى ارسل اليكم لجنون » . [٥] .

عاد موسى يتجاوز اتهام الفرعون وسخريته ويكمل :

« رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » . [٦] .

حكى الله تعالى فى سورة الشعراء جزءاً من حوار فرعون وموسى . .

قال تعالى :

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ . قال : رب السماوات والأرض وما
بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون : قال : ربكم ورب
آبائكم الأولين . قال : ان رسولكم الذى ارسل اليكم لجنون . قال :
رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » . [٧] .

.....
.....

يذكر الله تعالى فى سورة طه جزءاً من مشهد لقاء فرعون بموسى . .

قال تعالى :

« فأتياها فقولا : انا رسولا ربك ، فارسل معنا بنى اسرائيل ولا نعذبهم
قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . انا قد اوحى
الينا ان العذاب على من كذب وتولى . قال : فمن ربكما يا موسى ؟ .
قال : ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون
الأولى . قال : علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى » [٨] .

- (١) المربع كله آية ٢٣ سورة الشعراء مكية .
- (٢) من الآية ٢٤ سورة الشعراء مكية .
- (٣) من الآية ٢٥ سورة الشعراء مكية .
- (٤) من الآية ٢٦ سورة الشعراء مكية .
- (٥) من الآية ٢٧ سورة الشعراء مكية .
- (٦) من الآية ٢٨ سورة الشعراء مكية .
- (٧) الآيات ٢٣ الى ٢٨ سورة الشعراء مكية .
- (٨) الآيات ٤٧ الى ٥٢ مكية .

نلاحظ أن فرعون لم يكن يسأل موسى عن رب العالمين أو رب موسى وهارون بقصد السؤال البريء والمعرفة . إنما كان يهزأ . ولقد أجابه موسى اجابة جامعة مانعة محكمة .

قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

هو الخالق . خالق الأجناس جميعا والذوات جميعا . وهو هاديها بما ركب فى فطرتها وجبلتها من خواص تهديها لأسباب عيشها . وهو الموجه لها على أى حال . وهو القابض على ناصيتها فى كل حال . وهو العليم بها والشاهد عليها فى جميع الأحوال .

توحى العبارة القرآنية بهذا كله وأكثر . . فتأمل ايجازها المعجز .

« ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . [1] .

انزلت العبارة على ذهن فرعون السميك مثلما تنزلق قطرة من الزئبق على سطح من الزجاج . لم تترك أثرا أو علامة . وهاهو فرعون يسأل :

— فما بال القرون الأولى لم تعبد ربك هذا ؟

لم يزل فرعون ماضيا فى استكباره واستهزائه . ويرد موسى ردا يلفتة الى أن القرون الأولى التى لم تعبد الله ، والتى عبدته معا ، لن تترك بغير مسائلة وجزاء . كل شيء معلوم عند الله تعالى . . هذه القرون الأولى علمها عند ربى فى كتاب . أحصى الله ما عملوه فى كتاب . لا يضل ربى . . أى لا يغيب عنه شيء . ولا ينسى . . أى لا يغيب عن شيء . . ليطمئن الفرعون بالا من ناحية القرون الأولى والاخيرة وما بينهما . . ان الله يعرف كل شيء ويسجل عليها ما عملته ولا يضيع شيئا من أجورهم .

عاد موسى يكمل حديثه عن ربه .

« الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . [2] .

لفت موسى نظر فرعون الى آيات الله فى الكون . ودار به مع حركة الرياح والمطر والنبات وأوصله مرة ثانية الى الأرض ، وهناك أفهمه أن الله خلق الانسان من الأرض ، وسيعيده اليها بالموت ، ويخرجه منها بالبعث .

كأن هناك بعثا اذن . .

وسيقف كل انسان يوم القيامة أمام الله تعالى . . لا استثناء لأحد . . سيقف كل عباد الله وخلقهم أمامه يوم القيامة . بما فى ذلك الفرعون .

(1) من الآية ٥٠ سورة طه مكية .

(2) الآيات من ٥٣ الى ٥٥ مكية .

بهذا جاء موسى مبشرا ومنذرا .

لم يعجب فرعون هذا النذير ، وتصاعد الحوار بينه وبين موسى ..

كان الحوار يعبر عن الصراع بينهما .. سخنت حدة الصراع فتغيرت لهجة الحوار .. أقام موسى الحجّة الدامغة على فرعون ، أقام عليه الحجّة العقلية .. ولكن فرعون انفلت خارجا من دائرة الحوار الذى بنى على المنطق ، وبدأ حوارا من نوع جديد . نوع لا يطبق موسى مجاراته فيه .. انه يهاجم موسى ويهدده ويحتقره ويسبهه .

أعطى فرعون ظهره للحق الذى جاء به موسى . وتجاهل دعوته . وبدأ يهاجمه فى شخصه وملابسه وطريقة نطقه للكلمات ..

أشار لمن حوله الى فقر موسى .. وملابسه الصوفية الخشنّة . وهذا التردد الذى يجتاح لسانه عند نطق بعض الكلمات .

بعد هذا التحقير لموسى .. عمد الفرعون الى أسلوب الحكم المطلق ..

سأل موسى كيف يجرؤ على عبادة غيره .. الا يعرف موسى أن فرعون الهه . كيف يجهل موسى هذه الحقيقة رغم أنه تربى فى قصر الفرعون ويعرف !

بعد أن أعلن فرعون عن الوهيته بصفة مبدئية . سأل موسى كيف تجرأ على عبادة غيره .. ان هذا معناه السجن .. ليس عندنا لمن يتخذ الها غير الفرعون .. سوى السجن ..

« قال : لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين » [١]

أدرك موسى أن الحجج العقلية لم تفلح . أن الحوار الهادئ ينقلب من السخرية الى المن الى التحقير الى التهديد بالسجن . أدرك موسى أن وقت اظهار المعجزة قد جاء .

قال للفرعون بعد تهديده له بالسجن ..

« قال : أولو جنتك بشيء مبين » [٢]

انه يتحدى الفرعون .. وها هو يقبل تحديه .. ويعلق صدقه على أن يأتيه بهذا الشيء المبين .

« قال : فات به ان كنت من الصادقين » [٣]

التقى موسى عصاه فى صالة القصر العظيمة .

فى البداية ، خيل الى فرعون أن العصا سقطت من موسى بسبب ارتبائه . بعد أن طالبه باظهار الدليل على صدقه .

(١) الآية ٢٩ من سورة الشعراء مكية .

(٢) الآية ٣٠ سورة الشعراء مكية .

(٣) الآية ٣١ سورة الشعراء مكية .

تحولت أنظار الواقفين جميعا الى العصا وهى ترتطم بأرض الصالة الرخامية .

لم تكد العصا تلمس الأرض حتى تحولت الى ثعبان هائل يتحرك بسرعة .
اتجه الثعبان الهائل نحو فرعون . شحب وجه فرعون من الخوف ، وانكمش
فى كرسيه ، وصرخ أن يبعدوا عنه الثعبان .

مد موسى يده الى الثعبان فعاد فى يده الى عصا كما كان .
سقط الصمت بعد هذه الآية . .

عاد موسى يكشف أمام الواقفين معجزته الثانية . أدخل يده فى جيبه
وأخرجها فاذا هى بيضاء كالقهر . شحبت كل أضواء القصر وشموعه أمام
هذا النور الجديد . وظهر وجه فرعون أخضر من الخوف .

قال تعالى : « **فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا
هى بيضاء للناظرين** » [١] سورة الشعراء .

صمتت الاصوات فى القصر . وانفرس تأثير المعجزتين فى النفوس يحمل
تيارا من الخوف أول ما يحمل . ثم اعاد موسى يده الى جيبه فعادت كما كانت .

ذاب النور المدهش الذى حملته الآية الثانية الى المكان .
قال فرعون ممتنع الوجه :

— اذهبوا الان . . نتحدث فيما بعد .
استدار موسى وخرج من القصر .

كان فرعون ذاهلا . . جال تفكيره فيما يمكن ان يقع فى المملكة لو انتشر
فيها خبر المعجزتين وتحدث الناس عن موسى وهارون . أصدر الفرعون امره
باسدال الصمت على الموضوع ، ولكن خُدم القصر وجواريه وجزء من بنى
اسرائيل شهدوا المعجزتين . وملأوا الدنيا حديثا عنهما .

بهت فرعون مصر تماما حين واجه المعجزتين . فلما خرج موسى من قصره
تحول من الذهول والخوف الى الغضب العنيف . . انفجرت ثورته فى وزرائه
ورجاله وراح يعنفهم بلا سبب . امرهم بالخروج من مجلسه وخلا بنفسه . .
حاول ان يفكر فى الموضوع بهدوء أكثر .

شرب عدة كؤوس من الخمر فلم يذهب غضبه . . ثم اصدر امره باجتماع
خطير يدعى اليه كل وزراء مصر وقادتها ومسئوليهيها . واصدر الفرعون امره
لهامان ، كبير وزرائه ، أن يشرف بنفسه على عقد الاجتماع .

واجتمع الملأ من قوم فرعون .

دخل فرعون الاجتماع ووجهه متصلب . كان واضحا انه لن يستسلم
بسهولة ، أنه يقيم ملكه على أساس انه اله يعبد المصريون . وهو يستبد
بهم ويتحكم فيهم ويستغلهم طبقا لهذه الفكرة . . وها هو موسى يجيء

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ مكية .

ليهدم كل ما بناه .. أبسط شيء أن موسى يقول أن هناك لها واحدا لا اله غيره في الكون . معنى هذا أن فرعون كاذب .

لم تكذ هذه الفكرة تستقر في رأس فرعون .. حتى التفتت الى كبير وزرائه هامان .. كانت الجلسة التاريخية منعقدة .. ولم يكن هناك من تجرأ على فتح فمه بعد . افتتح فرعون الجلسة بأن ألقى على هامان سؤاله المفاجيء :

— هل أنا كاذب يا هامان ؟

ركع هامان مندهشا وتساءل .

من الذى تجرأ على الكفر بالفرعون .

قال فرعون مقتطبا :

— موسى . ألم يقل أن هناك لها في السماء ؟ .

قال هامان مؤكدا .

— موسى يكذب يا مولاي .

قال فرعون نافذ الصبر وهو يذير وجهه الى الجهة الاخرى .

— أعرف أنه يكذب .

ثم ملتفتا الى هامان

« وقال فرعون : يا هامان : ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب .

أسباب السماوات فاطلع الى اله موسى وانى لاتفه كاذبا » [١]

سورة غافر .

اصدر الفرعون امره الملكى ببناء صرح شاهق يفترض فى ارتفاعه أن يصل الى السماء . استند الأمر الفرعونى الى حضارة مصر وولعها بالبناء ، غير انه تجاهل القوانين الهندسية الحاكمة ، ورغم ذلك رد هامان منافقا وهو يعرف باستحالة بناء مثل هذا الصرح .

— سأصدر أمرا ببنائه على الفور .. لكنك يامولاي .. واسمح لى بالاعتراض للمرة الاولى على الفرعون .. لن تجد شيئا فى السماء . ليس هناك اله غيرك .

استمع فرعون الى اعتراض رئيس وزرائه راضيا كأنه يستمع الى حقيقة مقرررة .. ثم أعلن فى اجتماعه الشهير كلمته التاريخية .

« يا أيها الملأ : ما علمت لكم من اله غيرى » [٢] . سورة القصص .

حتى الجميع رؤوسهم موافقين .

(١) الآية ٣٦ وجزء من آية ٣٧ مكة .

(٢) من الآية ٣٨ مكة .

كان بينهم اثنان او ثلاثة . لم يزل فى رؤوسهم عقل . وكان هؤلاء الثلاثة يعرفون أن فرعون هو الذى يكذب . ورغم ذلك سكتوا على الكذب ووافقوه . وقد كلفت هذه الموافقة الشعب المصرى غالياً . دفع الجنود المصريون من دمهم فيما بعد ثمن نفاق قادتهم وموافقة وزراءهم وخضوع كهنتهم لجنون الفرعون .

قال فرعون وهو يسأل مستشاريه : ماذا قلت فى موسى ؟

قال هامان : هو كاذب .

وقال وزير آخر : أعتقد أنه مجنون .

وتال كاهن أثيب — خشى أن يضيع بينهم لو لم يثقل شيئاً — : أتصور أن مسا أصابه ..

قاطع الفرعون :

— أنتم تصفون موسى ، ولكنكم لم تجيبوا عن سؤالى بعد .

ما هى حقيقة موسى .. ما هى المؤامرة التى يخفيها وراء ظهره .

سكت المستشارون خوفاً ونفاقاً من فرعون . وانتظروا أن يضع هو الكلمات فى أفواههم ليردوها بعده كالبيغاوات .

قال فرعون بعد لحظة صمت فلسفى مضحك :

— أعتقد أن موسى ساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون .

من المعروف فى أنظمة الحكم المطلق أن اجتماع وجوه القوم وكبارهم لإبداء الراى أمام الحاكم المطلق لا يعنى أكثر من اجتماعهم لتلقى الراى وترديده بعد ذلك .

قال المستشارون بعد أن أعطاهم فرعون حبل الكلمات :

— صدق فرعون . أن موسى ساحر، لقد انحلت المشكلة، سنرجىء موسى

وأخاه ونبعث بأمر الفرعون فى مصر كلها ليحضر السحرة ، فماذا حضر السحرة وقفوا أمام موسى وأثبتوا أنه ساحر وهزموه .. وبذلك نكشفه أمام المصريين وابناء إسرائيل ..

تم الاتفاق فى هذه الجلسة التاريخية على ذلك . وخرج من قصر الفرعون عشرة رجال ركبوا مركباتهم وأسرعوا ينتفرون فى مصر .. ونودى ثانى يوم فى أسواق مصر كلها : أن على جميع السحرة الماهرين التوجه الى قصر فرعون لأمر هام .. واستدعى فرعون نبي الله موسى وحاول تهديده وإخافته ، ولكن موسى ظل على هدوئه .

قال فرعون لموسى :

— أنت ساحر يا موسى .. ولقد قررت أن أكشفك أمام الجميع وبعد أيام قليلة يحضر السحرة .

سأل موسى :

متى التقى بالسحرة ؟

قال فرعون : هناك مناسبة قريبة لحشد الناس واجتماعهم .. هي يوم الزينة .. يوم شم النسيم .. يوم تتزين الارض لقدم الربيع .. سيكون الاجتماع هائلا .. وسوف تهزم .. وأنا أعطيك حق التراجع من الآن .. اننى امنحك فرصة اخيرة لانقاذ ماء وجهك .

قال موسى متجاهلا كلام الفرعون الاخير :

— اتفقنا على الموعد .

موعدهم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى ..

سأل فرعون :

— أى وقت ستحضر ؟

قال موسى :

— سأحضر ان شاء الله فى الفجر .. فى بداية النهار ..

قال تعالى فى سورة طه : ((ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال : أحيثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدهم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى)) (١) .

انصرف موسى مطمئنا ..

وبدأت وفود السحرة تصل الى قصر فرعون .

وحين اجتمعوا جميعا أمر فرعون بأدخالهم عليه .. سجد السحرة لفرعون حين دخلوا عليه .

أمرهم فرعون بالوقوف ، وراح يتمشى بينهم ويتأمل وجوههم وملابسهم وهو صامت يفكر ، ثم وقف فجأة وقال :

— ايها السحرة .. نحن نواجه مشكلة صغيرة ، وقد أمرت باحضاركم لحلها ..

حتى السحرة رؤوسهم واستمعوا .

عاد الفرعون يتحدث :

— جاءنا رجل يدعى انه رسول من الله ، رجل اسمه موسى ، ومعه اخوه هرون .. وموسى هذا ساحر أمهر منه وأقدر ..

يجب أن تهزموه هزيمة مطلقة لا يستطيع رفع رأسه بعدها ..

حتى السحرة رؤوسهم وظلوا صامتين ..

(١) الآيات من ٥٦ الى ٥٩ مكية .

قال فرعون :

— لماذا لم يسألني احدكم عن سحر موسى ؟!

رد احد السحرة بهدوء :

— نحن ننتظر من فرعون العظيم ان يحدثنا بنفسه .. لا نريد ان نقاطعك يا مولانا .

قال فرعون بغضب :

— التي عصاه فاذا هي شعبان كبير ، ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين .

لمعت الابتسامات في وجوه السحرة وقال احدهم :

— ليظن قلب الفرعون .. هذه لعبة قديمة ، لعبة العصا التي تتحول الى شعبان .. انها لا تتحول الى شعبان .. انما يخيل الى الناس انها تتحرك وهي ثابتة ..

قال فرعون :

— لا اريد ان ادخل في نقاش حول اصول صناعة السحر .. اريد ان تهزموا موسى .. لقد اتفقنا على اللقاء يوم الزينة .

سيجتمع الشعب المصرى كله ويشاهدكم وانتم تهزمونوه .

يجب ان تغلبوه ..

انتهى كلام فرعون وانتظر ان ينصرف السحرة ولكنهم ظلوا واتفين .. تساءل احدهم :

— لم يحدثنا مولانا الفرعون عن اهم شىء لو غلبنا له موسى .

سأل فرعون مندهشا :

— ماهو اهم شىء هذا ؟!

قال احد السحرة :

— اجرنا ان كنا نحن الغالبين .

قال فرعون ضاحكا :

— سأرضى عنكم ، وستكونون من المقربين .. سننشئ وظائف جديدة في القصر للسحرة .. اطمئنوا تماما للأجر ..

ابتسم فرعون وهو يرى وثوق السحرة من انفسهم ، وامرهم بالانصراف وانصرف هو الى مائدة الغداء ..

انفتحت نفسه فجلس يأكل .. قال وهو يلتهم فخذ خروف سمين .

— انسدت نفسى عن الاكل من يوم ان جاء موسى .. اقتربت نهايته على اى حال .

قال تعالى فى سورة الاعراف :

((وقال موسى : يا فرعون : انى رسول من رب العالمين . حقيق على ان لا أقول على الله الا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل . قال : ان كنت جئت باية فأت بها ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين . قال المأ من قوم فرعون : ان هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا : ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين . قال نعم ، وانكم لمن المقربين)) (١) .

.....

وجاء يوم الزينة ..

وخرج الناس من بيوتهم وهم يتحدثون عن اللقاء بين موسى وفرعون . بدأ الناس يتوجهون الى مكان الاحتفال منذ الصباح المبكر .. لم يكن هناك أحد فى مصر لم يعرف قصة التحدى واللقاء .. وهلل الناس حين وصل السحرة .. كما هللا حين وصل فرعون .. ثم ساد صمت ثقيل حين وصل موسى وهرون .

كان مكان الاحتفال مكشوفاً الا من مظلة فرعونية لتقى رأس الفرعون من حرارة الشمس .. ووقف فرعون وسط ابنته وجنوده وقواده وهو يرتدى الذهب والجواهر ، ووقف موسى مطأطء الرأس يذكر الله فى نفسه .. صممت الأصوات تماما وتقدم السحرة الى موسى ..

قال السحرة لموسى :

— اما أن تلقى واما ان نكون اول منلقى ..

قال موسى :

— بل القوا .

قال السحرة : بعزة فرعون انا لنحن الغالبون ..

قال موسى : ويلكم ، لا تفتروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب .

قال بعض اهل الحقائق .. التفت موسى فاذا جبريل على يمينه يقول له يا موسى .. ترفق بأولياء الله .. قال موسى لنفسه : هؤلاء سحرة جاءوا ينصرون دين فرعون .. عاد جبريل يقول : ترفق بأولياء الله . هم من الساعة الى صلاة العصر عندك ، وبعد صلاة العصر فى الجنة .

.....

رمى السحرة بعصيمهم وحبالهم فاذا المكان يمتلئ بالثعابين نجاة ..

(١) الآيات من ١٠٤ الى ١١٤ مكية .

سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ..
وهلل المصريون .. وابتسم الفرعون ابتسامة واسعة وقال فى
نفسه ..

— لقد تم القضاء على موسى الآن .. ان معجزته ان العصا تتحول فى
يده الى حية .. ها هو فرعون يحضر له عشرات السحرة الذين تتحول
العصى والحيال فى أيديهم الى حيات ..

زادت ابتسامة فرعون ..

ونظر موسى عليه السلام الى حبال السحرة وعصيتهم وشعر بالخوف
.. أوجس فى نفسه خيفة موسى . تذكر ما قاله له جبريل وأحس بالخوف
.. كيف يمكن أن يدخل هؤلاء السحرة الجنة ويكونوا أولياء الله .. مثلما
يطفأ النور ثانية أو ثابنتين ويسود الظلام .. شعر موسى بذلك .. ولا أحد
يعرف حقيقة الافكار التى عبرت ذهن موسى وهو يقف فى ملبسه الفخيرة
مع أخيه أمام كل هذا الحشد العظيم من حرس الفرعون وجنوده .. لم
يستمر احساس موسى بالخوف ، عاد النور يضىء داخله والله سبحانه وتعالى
يقول له :

((لا تخف انك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ماصنموا ،
انما صنموا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى)) (١) .

اطمان موسى حين سمع رب العالمين يطمئنه .. كفت يده عن ارتعاشتها
الخفيفة ، ورفع موسى عصاه والقها فجأة ..

لم تكد عصا موسى تلامس الارض حتى وقعت المعجزة .

شاهد الناس والسحرة وفرعون وجنوده شيئاً لم يشاهده أحد من
قبل فى العالم .. المعروف أن الساحر يستطيع أن يخدع أعين الناس
ويوهمهم ان الثعبان يتحرك وهو ثابت ، ان العصا تتحرك وهى ثابتة ..

لكن ما حدث ساعتها كان شيئاً مختلفاً تماماً ..

لم تكد عصا موسى تلمس الارض حتى تحولت الى ثعبان جبار سريع
الحركة ، وتقدم هذا الثعبان فجأة نحو حبال السحرة وعصيتهم التى كانت
تتحرك وبدأ يأكلها واحداً بعد آخر .. راحت عصا موسى تأكل حبال
السحرة وعصيتهم بسرعة مخيفة ..

لم تكد تمضى دقائق حتى كانت الساحة خالية تماماً من كل حبال
السحرة وعصيتهم .. اختفت الحبال والعصى فى بطن عصا موسى .. وتحرك
الثعبان العظيم نحو موسى ومد موسى يده فتحول الثعبان الى عصا ..

(١) جزء من آية ٦٨ وآية ٦٩ سورة طه بكية .

وأدرك السحرة أنهم ليسوا أمام ساحر ..
 أنهم سادة السحر وأعظم العلماء فى زمانهم .. وما رأوه منذ لحظات
 لا يدخل فى باب السحر أو العلم .. إنما هذه معجزة من الله ..
 وألقى السحرة أنفسهم على الأرض ساجدين ..
 قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .
 شهد المصريون وأبناء اسرائيل هذه المعجزة المفاجئة .. شهدوا سجود
 السحرة لموسى وهارون ..
 وأحس فرعون أن الأمر يفلت من يده فتهض واقفا وصاح فى السحرة :
 - كيف تؤمنون . به قبل أن أعطيكم اذنا بذلك ؟ .

قال السحرة :

- لا يحتاج الايمان الى اذن .

قال فرعون : انها مؤامرة واضحة .. انه لكبيركم الذى علمكم السحر
 .. ستقطع ايديكم وأرجلكم .. ستصلبون فى جذوع النخل ، انها مؤامرة
 واضحة .

قال السحرة :

- افعل ما تريد أن تفعله يا فرعون .. لن نفضلك على هذه المعجزة
 الالهية .. انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أجبرتنا عليه من السحر ..
 والله خير وأبقى : . ولو عذبنا وقتلنا وصلبنا فانك تعذبنا فى هذه الحياة
 .. وهى لا شىء بجانب الآخرة .. ونحن نطمع فى مغفرة الله ودخول الجنة
 .. وأصدر الفرعون أمره بصلب السحرة جميعا ..

ووقف الناس يتفرجون على ما يحدث .. لم تكن شهادة السحرة لموسى
 شيئاً يستهان به .. ان هؤلاء هم صفوة المجتمع المصرى .. هم علماءه ..
 وقد سجد علماء مصر للحق ، فخذلهم الناس وتركوهم لمصيرهم . كان الحق
 واضحاً ورغم ذلك اكتفى الناس بالفرجة ، ولو أن كل واحد من المصريين
 انحنى على الأرض وتناول قطعة من الطوب وقذف بها فرعون لسقط فرعون
 وتغير تاريخ مصر .. ولكن الذى حدث أن أحداً لم يتحرك من مكانه ، اكتفى
 الناس بالفرجة ، ودفع الناس فيما بعد ثمن هذه الفرجة ..

غرق الناس فيما بعد ثمناً لجبن يوم واحد .

وأسدل الستار على هذا اليوم العظيم .. وانصرف موسى وهارون ..
 وعاد الفرعون لقصره ..

.....

حكى الله تعالى فى سورة الاعراف ما كان من أمر السحرة وموسى ..
 قال تعالى :

((قالوا : يا موسى: اما ان تلقى واما ان نكون نحن الملقين . قال : القوا ، فلما القوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون . . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال : فرعون ءأمنتم به قبل أن آذن لكم . ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا : انا الى ربنا منقلبون . وما ننقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين)) [١] .

.....

انقلب السحرة المصريون الى الاسلام الذى جاء به موسى . .

آمنوا بالله . . وصعدوا بهم الى جذوع النخل لصلبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم ، وهم يسألون الله أن يتوفاهم مسلمين . وفهم موسى معنى كلمات جبريل عليه السلام : « هم من الساعة الى صلاة العصر عندك . . وبعدها فى الجنة » .

لم يكد العصر يدخل حتى كانت أجسام السحرة . . علماء مصر وخيرة عقولها . . كانت أجسادهم تشخب دما وهى مصلوبة يثبتها جنود الفرعون بالسهم القوية .

انكفأ فرعون على مشكلته الجديدة .

بدأت سلسلة اجتماعات خطيرة فى قصره . استدعى المسئول عن الجيش والبوليس ، واستدعى — ما نسميه اليوم — مدير الاستخبارات ، واستدعى الوزراء والأمراء والكهنة . . وراح يستدعى كل من يملك قوة للتأثير فى سير الحوادث ، أو يتصور انه يملك هذه القوة .

سأل الفرعون مدير استخباراته : ماذا يقول الناس ؟

قال : نشر رجالي بينهم أن كسب موسى للمباراة كان مؤامرة دبرها معه كبير السحرة . وقد تم اكتشاف المؤامرة التى يعتقد أن جهات مجهولة تمويلها .

سأل الفرعون مدير البوليس : ماذا تم فى جثث السحرة .

قال : علقتها رجالي فى الميادين العامة والأسواق لأرهاب الناس . ونحن نشيع أن الفرعون يقتل كل من له علاقة بالمؤامرة .

سأل الفرعون قائد الجيش : ماذا يقول الجيش ؟

قال : يتمنى أن تصدر له الأوامر للحركة فى أى اتجاه يحدده الفرعون .

قال فرعون : لم يأت دور الجيش بعد . سيأتى دوره .

(١) الآيات من ١١٥ الى ١٢٦ مكية .

سكت فرعون .. وتحرك هامان كبير الوزراء ورفع يده يطلب الكلمة .
سمح له فرعون فقال هامان :

— هل سنترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويتركوا عبادتك .

قال فرعون : أنت تقرا أفكارى يا هامان . سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وأنا فوقهم قاهرون .

أصدروا التعليمات بذلك . وانطلق رجال الفرعون يقتلون الأبناء وينتهكون النساء ويسجنون من يعترض .. ووقف موسى يشهد ما يحدث دون أن يملك التدخل أو يقوى على دفعه .. كل ما فعله أنه أمر قومه بالصبر . أمرهم أن يستعينوا بالله ويصبروا على المحنة . ضرب لهم مثلا بالسحرة المصريين الذين احتملوا فى الله ما احتملوه بغير شكاة . أفهمهم أن جنود فرعون يتصرفون فى الأرض كما لو كانت الأرض ملكا خاصا لهم ، غير أن هذا ليس صحيحا .. سيرث هذه الأرض من يتقى الله .. وأشاع ارهاب الفرعون فى نفوس بنى إسرائيل روحا من الانهزام والتشاؤم . وقالوا لموسى : أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا . كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا . كأنهم يقولون له ان وجودك لا يؤثر فى شىء .. نحن وحدنا تماما .. ورد موسى جهلهم وأفهمهم ان الله سيهلك عدوهم ثم يستخلفهم فى الأرض فيرى كيف يعملون .. غير أنهم استمروا على شكائهم وتأذيتهم .

وبدا موقف موسى صعبا .. انه يواجه غضب الفرعون ومؤامراته ، وتذمر قومه فى نفس الوقت . ووسط هذه الظروف تحرك قارون . كان قارون من أبناء إسرائيل ، كان من قوم موسى فبغى عليهم . ان ثراه وظروفه جعلاه أقرب طبقيًا وعاطفيًا الى نظام الفرعون . يحدثنا الله عن كنوز قارون فيقول — سبحانه وتعالى — ان مفاتيح الحجرات التى تضم الكنوز ، كان يصعب حملها على مجموعة من الرجال الأشداء . ولو عرفنا عن مفاتيح الكنوز هذا الحال ، فكيف كانت الكنوز ذاتها . كان لقارون عدد عظيم من الخيل والمركبات والرجال والحرس ، وكانت مركباته مطعمة بالفضة والذهب . وكانت سروج خيله المطهمة مصنوعة من الجلد المزين بالذهب والفضة والبرونز والنحاس .. وكان قارون اذا خرج فى زينته ، ومشى موكبه تحت الشمس ، تلالا الذهب والنحاس تحت أشعة الشمس ، وخطف الوهج أبصار اهل الدنيا .. وكان طبيعيا أن يملك قارون مع أمواله كبرياء لا يفلح معها نصح . ويبدو أن ثراه وكبريائه أسلماه معا لآحساس متصل بالفرح ، صارت ضحكته أشهر ضحكة فى بنى إسرائيل ، وصار موكبه أشهر الموكب بمد موكب الفرعون وموكب هامان . كان الاثنان يملكان مصر كلها ، ولم يكن قارون يملك غير جزء من مصر على أى حال .

ويبدو أن العقلاء من قومه نصحوه أن يفكر قليلا فى آخرته ، ولعلمهم قالوا له : أن احدا لا ينصحك بترك الدنيا كلها والانخراط فى سلك الزاهدين . انما نصحوه الا ينسى نصيبه من الدنيا ، وكان هذا النصح مأخوذا به ولا حاجة اليه ، كما نصحوه الا ينسى نصيبه من الآخرة . ويبدو أن قارون اكتفى بنصيبه من الدنيا ، وأوهمه عقله أن هذا الثراء جاءه بسبب علمه ، كما أوهمه ثراؤه ان الله يحبه . وذهبت به الظنون الى انه أفضل من موسى .. ان موسى فقير وقارون شديد الثراء . كيف يكون الفقير الذى لا يرتدى أسورة واحدة من

الذهب ، أفضل عند الله من الغنى الذى يصنع سروج خيله من الذهب .
هكذا اتفق قارون مع فرعون فى نظرتة الى موسى . . وكان فرعون يحكم
على الأفراد من واقع ثرائهم المادى ، كدأب الجاهلين . **((هذا الذى هو مهين
ولا يكاد يبين))** (١) كانت هذه كلمة فرعون عن موسى . . اتفق رأى فرعون
وقارون بالنسبة لموسى . . وكان قارون يحكم مركزه وثرأئه صديقا لفرعون
ونظام حكمه . ويبدو أن قارون وفرعون وهامان لم يكونوا وحدهم سجناء هذا
الوهم ، كان قوم فرعون . . اى المصريين ينظرون الى موسى نظرتهم الى
ساحر هزم سحرتهم . . ولا يعنى هذا أن مصر اجذبت أو خلت من الفضل ،
كان فى المصريين من يؤمن بموسى ، ويخفى ايمانه خشية بطش الفرعون .
وكان فى قوم موسى من ينظر الى موسى وقارون ويقارن بينهما ، وكان
هناك من يتساءل ببلادة : اذا كان الله يحب موسى حقا فلماذا جعله فقيرا ،
ويبدو أن قارون كان فتنة لقومه ، وللمصريين على السواء .

كان اذا خرج فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا :

((يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه لذو حظ عظيم)) [٢] .

وكان العتلاء — رغم قلتهم — يرون أن ثراء قارون العظيم لا يعنى شيئا
فى ميزان الله ، لا يرى الله الفضل فى الذهب والكنوز واللآلىء والدرر
والمائثية ، اذا كانت النفوس قد اظلمت من الداخل .
وكان موقف موسى صعبا وسط هذه الظروف كلها .

وفى هذه اللحظات الحرجة ، تحرك قارون ضد موسى . كان موسى —
كئيبى — رجلا يتصف بالنقاء العظيم . ويبدو أن قارون اتفق مع فرعون على
محاولة استقاط موسى فى عيون اتباعه ، عن طريق اتهامه بتهمة تخل بالنقاء .
وهكذا فوجيء موسى يوما وهو يقف وسط قومه ، ويدعوهم الى الله ،
فوجيء بامرأة بغى تتذفبه بتهمة مؤداها انه كان فى فراشها أمس .

ونحسب أن موسى فوجيء بهذه التهمة ، ولم يعرف ماذا يقول فيها ، أو
كيف يدفع عن نفسه اتهام البغى . . وأغلب الظن انه صلى الله ثم أقبل عليها
فسألها لماذا تتهمه بها لم يحدث ، وانهارت المرأة باكية مستغفرة تحدثه أن
قارون أعطها نقودا مقابل الصاق هذا الأفك بموسى .

ودعا موسى على قارون . .

وشاء الله تعالى أن تقع معجزة تضع الأمور فى اماكنها الصحيحة وتبين
للناس أن الله هو القادر القاهر ، وأن المال فتنة وليس فضلا تقاس به أقدار
الناس .

وكانت هذه المعجزة هى خسف الله لقارون وداره وكنوزه .

خرج قارون على قومه فى زينته . . فانشقت الأرض تحت قدميه وهوى
فى الأرض ، لا نعرف أكان ذلك زلزالا ينتظر منذ خلق الأرض لحظة ميلاده
ليقع ، أو كان ذلك زلزالا أمره الله أن يقع فى هذه اللحظة . . كل ما نعرفه أن

(١) الآية ٥٢ من سورة الزخرف مكة .

(٢) من الآية ٧٩ من سورة القصص مكة .

الأرض انشقت وابتلعت قارون .. وابتلعت معها أرضه وقصوره وماشيته
 وذهبه وفضته وكنوزه ورجاله .. وتقول بعض الأساطير أن ذلك كان
 فى الفيوم . وأن بحيرة قارون التى يعرفها المصريون بهذا الاسم .. كانت
 هى موضع أرض قارون وقصوره وكنوزه .. وعلى أى حال .. ان النص
 القرآنى لا يحدد مكان هذا الخسف ، ولا يحدد زمانه .. انما يحكى ما وقع
 فحسب .. وليس تحديد المكان أو الزمان يعنى شيئاً الى جوار العبرة
 المستخلصة مما حدث .

قال تعالى فى سورة القصص :

« ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان
 مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ، اذ قال له قومه : لا تفرح ، ان الله
 لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسى نصيبك
 من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض
 ان الله لا يحب المفسدين . قال: انما أوتيته على علم عندى ، أولم يعلم
 ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً؟
 ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال
 الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه
 ل ذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ، ثواب الله خير لمن
 آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون ، فحسبنا به وبداره
 الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من
 المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكان الله
 ييسر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف
 بنا ، ويكانه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين
 لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » (١) .

وقف كثير من القدماء امام هذا العلم الذى ادعى قارون انه قد اوتيه .
 قال بعضهم ان هذا هو علم الكيمياء الذى يتحول بسببه النحاس الى ذهب ،
 وقال بعضهم انه كان يعرف اسم الله الأعظم ، فاستخدمه فى تحويل المواد الى
 ذهب . وانكر عليه العقلاء من القدماء ان يعرف اسم الله الأعظم ، وهو
 منافق ، كما انكروا عليه صنعة الكيمياء .. ونحسب أن هذا كله أساطير
 لا تصلح لتفسير أسباب ثرائه ، نعتقد انه كان رجلاً ظالماً ، ورث ضياعاً
 واسعة فاستغلها فى تنمية ثروته ، ولا بأس بعمل غير مشروع هنا أو هناك ،
 ولا بأس من صداقة الفرعون والتسهيلات التى تتيحها مثل هذه الصداقة .
 ولا بأس من الوقوف ضد موسى ، اذا كان ذلك يتفق مع المصلحة .. ولا بأس
 من ظلم هنا وظلم هناك .. بعدها يكون من المنطقى ان يقول انه اوتى أمواله
 على علم عنده .. لقد أجهد الرجل نفسه فى الكذب والظلم حتى صنع ثروته .
 ان الانحراف عن الايمان بالله .. ولو شعرة واحدة .. ينتهى بالانسان الى
 كبرياء تضطرب معها الحقائق ، وتختلط الأمور ، ويصبح الادعاء الكاذب
 شيئاً منطقياً ومفهوماً ولا حاجة لتحليله ..

لم يكد خسف قارون يتم ، حتى ارتفعت رؤوس المؤمنين بموسى وانثشع
 غمهم بعد طول استيلاء .

(١) الآيات من ٧٦ الى ٨٣ مكية .

عاين المصريون وأبناء إسرائيل هذه المعجزة . وعاد الصراع بين موسى وفرعون يصل الى ذروته . . . وأيقن فرعون أن موسى يهدده في ملكه . . .

كان موسى — مثل كل الأنبياء — يحمل برسالاته حكما بالاعدام على شرور عصره ومراكز القوة الظالمة . . . واتحدت شرور العصر في قصر الفرعون . . . وهناك طرح فرعون مصر فكرة قتل موسى . . .

كان فرعون قد صار الى اقتناع بأن قتل موسى هو الكفيل بحل مشاكله . . .

« وقال فرعون : ذروني أقتل موسى وليدع ربه ، انى أخاف أن يبذل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » [١] .

سنلاحظ أن فرعون يرتدى مسوح الداعين الى الحق ، انه يختلس لنفسه مهام الأنبياء ، ويخاف على الناس أن يضلهم موسى . . . وهو يقترح على وزرائه وكبار رجاله أن يتركوه يقتل موسى . . . والمفهوم الطبيعي انه لن يقتل موسى بيديه ، وانما هو يطرح فكرة قتله أمامهم ، لتقوم سلطات الدولة بتنفيذها . ونعتقد أن هـامان حيدز الفكرة ، وتكونت جبهة من المنافقين الذين يؤيدون فكرة الفرعون . . . كادت الفكرة تحصل على التصديق ، لولا رجل من آل فرعون . . . رجل من رجال الدولة الكبار ، لا يذكر القرآن اسمه ، لأن اسمه لا يهم ، لم يذكر صفته أيضا لأن صفته لا تعنى شيئا . انما ذكر القرآن انه رجل مؤمن . . . ذكره بالصفة التي لاقيمة لصفة بعدها . تحدث هذا الرجل المؤمن ، وكان يكتفم ايمانه ، تحدث في الاجتماع الذي طرحت فيه فكرة قتل موسى واثبت عقم الفكرة وسطحيتها . قال أن موسى لم يقل أكثر من أن الله ربه ، وجاء بعد ذلك بالأدلة الواضحة على كونه رسولا ، وهناك احتمالان لا ثالث لهما ، أن يكون موسى كاذبا ، أو يكون صادقا ، فاذا كان كاذبا فعليه كذبه ، وهو لم يقل ولم يفعل ما يستوجب قتله . واذا كان صادقا وقتلناه ، فما هو الضمان من نجاتنا من العذاب الذي يعدنا به . تحدث المؤمن الذي يكتفم ايمانه فقال لقومه : اننا اليوم في مراكز الحكم والقوة ، مثلما كان قارون بالأمس في مركز الثراء والقوة ، ثم أصابه ما أصابه . . . من ينصرنا من بأس الله اذا جاء ، ومن ينقذنا من عقوبته اذا حلت . . . ان أسرافنا وكذبنا قد يضيعنا . . . وبدت كلماته مقنعة .

انه رجل ليس متها في ولائه للفرعون . . . وهو ليس من اتباع موسى . . . والمفروض انه يتكلم بدافع الحرص على عرش الفرعون . . . ولا شيء يسقط العروش كالكذب والأسراف وقتل الأبرياء .

ومن هذا الموضع استمدت كلمات الرجل المؤمن قوتها . . . بالنسبة الى فرعون ووزرائه ورجاله . . .

ورغم أن فرعون وجد فكرته في قتل موسى ، صريعة على المائدة ، رغم تخويف الرجل المؤمن لفرعون . . . رغم ذلك قال الفرعون كلمته التاريخية التي ذهبت مثلا بعده لكل الطغاة .

« قال فرعون : ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيلا للرشاد » [٢]

(١) الآية ٢٦ من سورة غافر مكية .

(٢) من الآية ٢٩ سورة غافر مكية .

هذه كلمة الطغاة دائما حين يواجهون شعوبهم .. ما أريكم الا ما أرى .. هذا رأينا الخاص . وهو رأى يهديكم سبيل الرشاد . وكل رأى غيره خاطيء .. وينبغى الوقوف ضده واستئصاله .

حدثنا الله عن هذا الموقف فى سورة غافر .

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه : اتقولون رجلا أن يقول ربي الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد » [١] .

لم تتوقف المناقشة عند هذا الحد ..

قال فرعون كلمته ولكنه لم يقنع بها الرجل المؤمن .. وعاد الرجل المؤمن يتحدث :

« وقال الذى آمن يا قوم : انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم : ان يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضلل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان اتاهم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » [٢] .

سنلاحظ فى هذا الحديث اختلافا عن الحديث السابق .. ان الرجل المؤمن يفاوض فى حديثه الأخير فى أعماق التاريخ ، وهو يقدم لفرعون وقومه أدلة كافية على صدق موسى .. وهو يحذرهم من المساس به . لقد سبقتهم أمم كفرت برسلاها ، فأهلكها الله . قوم نوح ، قوم عاد ، قوم ثمود .. لماذا نذهب بعيدا . ان تاريخ مصر فيه الدليل على صحة قوله ، لقد جاء يوسف بالبينات فشك فيه الناس ثم آمنوا به بعد ان كادت النجاة تفلت منهم ، ما هى الفرابة فى ارسال الله للرسول ؟ .. ان التاريخ القديم ينبغى أن يكون موضع نظر . لقد انتصرت القلة المؤمنة — حين أصبحت مؤمنة — على الكثرة الكافرة .. وسحق الله تعالى الكافرين . أغرقهم بالطوفان ، وصعقتهم بالصرخة .. أو خسف بهم الأرض .. ماذا ننتظر إذن ؟ ومن أين تعلم أن وقوفنا وراء الفرعون لن يضيعنا ويهلكنا جميعا ؟ كان حديث الرجل المؤمن المثقف ينطوى على عديد من التحذيرات المخيفة .. ويبدو أنه أفتنع الحاضرين بأن فكرة قتل موسى فكرة غير مأمونة العواقب .. وبالتالي فلأدعى لها .. بعدها حاول أن يلفتهم الى الحق الذى جاء به موسى .. انه ينتقل من التلميح الى التصريح .. الى الجهر بالحقق .

(١) الآيات ٢٨ ، ٢٩ نفس السورة .

(٢) الآيات ٣٠ الى ٣٥ نفس السورة .

« وقال الذى آمن : يا قوم : اتبعون أهدكم سبيل الرشاد • يا قوم :
انما هذه الحياة الدنيا مناع ، وأن الآخرة هى دار القرار • من عمل
سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فأولئك يدخلون الجنة • • برزقون فيها بغير حساب » [١] .

انتهى الأمر وانكشف ايمان الرجل المؤمن • • انكشف انه مؤمن لم يعد
يكتم ايمانه • أعلن ايمانه فى نهاية الحديث صراحة • • قال :

« ويا قوم : مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار • تدعوننى
لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز
الغفار • لا جرم ان ماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى
الآخرة ، وان مردنا الى الله ، وان المسرفين هم أصحاب النار •
فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض امرى الى الله ، ان الله بصير
بالعباد » [٢] .

أنهى الرجل المؤمن حديثه بهذه الكلمات الشجاعة • • بعدها انصرف • •
انصرف فتحول الجالسون من موسى اليه • • بدأوا يمكرون له • • بدأوا
يتحدثون عما صدر منه • • ايندرج هذا تحت الخيانة العظمى للنظام أم لايندرج
• • لقد اتهم فرعون ووزراءه بأنهم سيهلكون فى النار • نحسب ان الله أرسل
هذا الرجل المؤمن من رجال فرعون ، ليشغل فرعون عن موسى • يكشف سياق
النص القرآنى ان هذا الرجل • • يمثل المثقفين المصريين الذين كانوا يعرفون
التاريخ ويحللونه ، ويملكون قدرة على ربط الأحداث ومعرفة الاسباب
واستخلاص النتائج • • ثم تهديهم عقولهم الى الحق •

وقد انشغل فرعون بهذا الرجل عن موسى فترة • كان الرجل المؤمن من
أهل فرعون • قريبه واحد رجال دولته ، وايمانه يجعل قصر الفرعون يبدو
منقسما بالنسبة لموسى • • وهو يعنى انتصارا عظيما لموسى • وقتله قسد
يثير طبقة المثقفين المصريين — بوصفه واحدا منهم — وهكذا واجه فرعون
مشكلته المستحيلة الحل • • ان قتل الرجل المؤمن غير مأمون العاقبة، والابقاء
عليه غير مأمون العاقبة • • وراحوا يمكرون له ويدبرون • • وتدخلت عناية
الله تعالى « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » •

انشغل فرعون بهذه القضية الجديدة • غير انه لم يتنازل عن كبريائه
ويرسل بنى اسرائيل مع موسى • ظل على عذابه وتسخير له واستحيائه
للنساء وقتله للابناء •

وشاء الله تعالى أن يشدد على آل فرعون • • ابتلاء لهم وتخويفا ، ولكى
يصرفهم عن الكيد لموسى والرجل المؤمن ، واثباتا لنبوة موسى وصدقه فى
نفس الوقت •

وهكذا سلط الله على المصريين أعوام الجذب •

أجدبت الأرض وشح النيل ونقصت الثمار وارتفعت الأسعار وجاع الناس،
واشتد القحط وأخذ بخناق الأمة المصرية •

(١) الآيات من ٢٨ الى ٤٠ سورة غافر مكية •

(٢) الآيات من ٤١ الى ٤٤ سورة غافر مكية •

ومن المعروف أن هذه العقوبة تصيب الناس دائما حين ينصرفون عن الإيمان والتقوى . . يقول الله تعالى في محكم كتابه في سورة الاعراف :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » [١] .

انطبق القانون القديم على أهل مصر لسبيين :

وقوفهم موقف المتفرج من قتل السحرة . .

وقوفهم موقف المتفرج من طغيان حاكمهم . .

ومن المدهش أن قوم فرعون أرجعوا هذا الجذب والقحط والجوع الى سبب غريب . قالوا انهم تشاءموا من موسى . . ان ما أصابهم من جوع وفقر ونقص في الثمرات أصابهم بسبب وجود موسى بينهم .

واشتد فقرهم واشتد بعدهم عن ادراك الحق ، فاعتقدوا أن سحر موسى هو المسئول عما أصابهم من قحط . وصور لهم حمقهم ان هذا الجذب الذي أصاب أرضهم ، آية جاء بها موسى ليسحرهم بها ، وهي آية لن يؤمنوا بها . ومن المفهوم ضمنا أن هذه لم تكن أفكار العامة من الناس ، انما هي أفكار الطبقة الحاكمة التي أشاعت هذا الرأي ، وروجت له ، فردده الناس بعد ذلك . . ولقد استتبع بقاء الصراع وامتداده ، أن يعاقبهم الله تعالى ويشدد عليهم أكثر وأكثر .

قال تعالى :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وأن نصبهم سيئة يطروا بموسى ومن معه ، الا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » [٢] .

شدد الله عليهم مع اختلاف الاساليب لعلهم يرجعون الى الله ، ويطلقون بنى اسرائيل ويرسلونهم معه .

أرسل عليهم الطوفان ، بعد سنوات الجذب العديدة جاءت سنة فاض فيها النيل وأغرق الأرض فاستحالت الزراعة . وبعد أن كان عذابهم وجوعهم ينبع من قلة المياه ، نبع عذابهم وجوعهم هذه المرة من زيادة المياه . . وهرعوا الى موسى . .

كانت المشكلة تستدعى تدخله .

« قالوا : يا موسى : ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل » [٢] .

(١) من الآية ٦٦ سورة الاعراف مكية .

(٢) الآيات ١٣٠ الى ١٣٣ سورة الاعراف مكية .

(٣) من الآية ١٣٤ سورة الاعراف مكية .

ودعا موسى ربه فكشف عنهم عذاب اغراق الأرض . توقف تدفق المياه وشربت الأرض ماءها وعادت صالحة للزراعة . وطالبهم موسى بتحقيق وعدهم له باطلاق سراح بنى اسرائيل ، فلم يجيبوه .

ووقعت آية الجراد ..

ارسل الله أسرابا من الجراد حطت على الزروع والثمار ، فلما طارت عنها كانت الزروع والثمار قد اختفت . أكل الجراد طعام المصريين فهرعوا الى موسى يسألونه أن يدعو ربه ليكشف عنهم هذا العذاب . . وسوف يرسلون معه بنى اسرائيل هذه المرة . ودعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب ورحل الجراد عائدا من حيث جاء . . وعادوا يزرعون الأرض . . وطالبهم موسى باطلاق سراح بنى اسرائيل فراحوا يماطلونه ، حتى تأكد انهم ليسوا جادين فى وعودهم له .

ووقعت آية القمل ..

انتشر القمل بما يحمله من أمراض . . وتكرر لجوؤهم الى موسى وتكررت وعودهم له وتكرر دعاؤه لله . . وتكرر اخلافهم لوعدهم .

ثم وقعت آية الضفادع . . امتلأت الأرض بالضفادع فجأة . . كانت تتوابع فى أطعمة المصريين وتشاركهم بيوتهم وتزعجهم أعظم الازعاج . . وذهبوا الى موسى ووعدوه فسأل ربه فكشف عنهم فاخلفوا وعدهم .

ثم وقعت آخر الآيات وهى الدم .

تحولت مياه النيل الى دم لا يستطيع أن يسيغه أحد . .

ونلاحظ أن الآيات السابقة كانت آيات من النوع المتوقع فى بيئة زراعية تقوم حياتها على النهر . . فيضا أو امساكا .

ان نقص مياه النيل أو زيادته أو هجوم الجراد أو القمل أو الضفادع . . هذه كلها أمور ليست جديدة على المصريين . . الجديد هو وقوعها بهذا العنف المفاجيء واختفاؤها بنفس العنف المفاجيء .

أما آخر الآيات فكانت من لون لم تألفه البيئة المصرية . . كانت آية أكبر من كل ما سبقها من الآيات . . تحولت مياه النيل الى دم . . وتم هذا التحول بالنسبة للمصريين وحدهم ، فكان موسى وقومه يشربون مياهها عادية وكان أى مصرى يملأ كأسه ليشرىب ، يكتشف أن كأسه مملوء بالدم .

واهتز المصريون كما اهتز قصر الفرعون أمام هذه الآية الرهيبة الجديدة . وهرعوا الى موسى يتوسلون اليه أن يدعو ربه وسوف يطلقون سراح الاسرائيليين هذه المرة .

ودعا موسى ربه فانكشف العذاب عن المصريين ، ورغم ذلك رفض قصر الفرعون أن يسمح له باصطحاب قومه والرحيل .

على العكس من ذلك . . اشتد الفرعون صلابة وقحة . . وأعلن فرعون فى قومه أنه اله . . ليس له ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحته ، أعلن

ان موسى ساحر كاذب .. ورجل فقير لايرتدى أسورة واحدة من الذهب .
قال تعالى فى سورة الزخرف :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه ، فقال : انى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون . وقالوا : يا ايها الساحر : ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهندون . فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكتون . ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم : اليس لى ملك مصر ؟ وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين » [١] .

انظر الى التعبير القرآنى

— فاستخف قومه .. فأطاعوه .

استخف بعقولهم . واستخف بحريتهم . واستخف بمستقبلهم . واستخف بأدميتهم .. فأطاعوه ..

اليسست هذه طاعة غريبة .. تمنحى الغرابة حين نعلم انهم كانوا قوما فاسقين . ان الفسق يصرف الانسان عن الالتفات لمستقبله ومصالحه وأموره ، ويورده الهلاك . وذلك ما وقع لقوم فرعون .

يقول تعالى :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثالا للآخرين » [٢] .

بدا واضحا ان فرعون لن يؤمن لموسى .. ولن يكف عن تعذيبه لبنى اسرائيل ، ولن يكف عن استخفافه بقومه ..
هنالك دعا موسى وهارون على فرعون .

« وقال موسى : ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة واموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيببت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » [٣] سورة يونس .

وجاء الاذن لموسى بالخروج من مصر واصطحاب قومه معه .
وكان موقف قومه غريبا .. لم يؤمن كل قومه بعد . قال تعالى فى سورة يونس :

(١) الآيات من ٤٦ الى ٤٤ مكية الا ٤٥ ممدنية .
(٢) الآية ٥٥ سورة الزخرف مكية .
(٣) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ مكية .

« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم
ان يفتنهم ، وان فرعون لعال في الأرض ، وانه لمن السرفين » [١] .

انتهى الأمر وقرر الله وضع حد لجرائم فرعون بعد ان أملى له . صدر
الأمر لموسى بالخروج . . واستأذن بنو اسرائيل فرعون فى الخروج الى عيد
لهم ، فأذن لهم وهو كاره . وتجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وحملوا معهم
حليهم واستعاروا من حلى المصريين شيئاً كثيراً . . وجاء الليل عليهم فتقدمهم
موسى وسار بهم نحو البحر الاحمر قاصداً بلاد الشام . وتحركت رسل
فرعون ومخبراته ، وبلغت الأخبار فرعون ان موسى قد سحب قومه وخرج .
وأرسل فرعون أوامره فى مدن المملكة لحشد جيش عظيم . . وساق
فرعون فى أسباب جمع الجيش هذه الحجة الغريبة . . قال بالنص . . كما
قال عز وجل فى كتابه :

« وانهم لنا لغائظون » [٢] .

لقد غاظنى موسى . . غاظنى شخصياً . . وعددهم قليل . . وغيظنا عليهم
كبير . . وهى الحرب اذن . كان فرعون طاغية صريحا . . لم يحاول اخفاء
نواياه وراء كلمات كبيرة فيقول مثلاً ان أمن المملكة مهدد ، أو ان النظام
الاقتصادي يمكن ان يتعرض للانهايار لو خرجت كل هذه الأيدي العاملة
الرخيصة . . أبداً . . لم يقل ذلك واكتفى بالتصريح بأنه مغتاز . . لقد
غاظله موسى . . وهذا سبب كاف لحشد الجيش .

وصدق الناس فرعون للمرة الألف بعد كذبه . . لم يعارضه أحد ، ولم
يلفت نظرة أحد الى تفاهة السبب الذى جمع له الجيش . . كان كبرياء فرعون
الشخصى هو الامر الوارد . . وكان يكفى تماماً .

تحرك جيش فرعون فى ابهته وعظمته وسلاحه وخرج وراء موسى . .
جلس فرعون فى مركبته الحربية يتأمل الجنود حوله ويبتسم . .

ماذا لو أنه فعل ذلك من أول لحظة وانتهى من موسى وقتله . .

على أى حال . . ها هو فى طريقه لقتل موسى وانهاء المشكلة كلها . .

وتف موسى امام البحر الاحمر . .

من بعيد . . ثار غبار قوى يشى بأن جيش الفرعون يقترب . . بعدها
ظهرت أعلام الجيش . . وامثالاً قوم موسى بالرعب . كان الموقف حرجاً
وخطيراً . . ان البحر امامهم والعدو وراءهم وليست امامهم فرصة واحدة
للقتال . . انهم مجموعة من النساء والاطفال والرجال غير المسلحين .
سيذبحهم فرعون عن آخرهم . . صرخت بعض الأصوات من قوم موسى

— سيديركنا فرعون .

قال موسى — كلا . . ان معى ربي سيهدين .

(١) الآية ٨٣ من سورة يونس مكية .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الشعراء مكية .

لا نعرف كيف كان موسى يحس أو يفكر ساعتها .. غير أنه لم يكذب يلجأ الى الله بهذه الثقة ، حتى أوحى الله تعالى اليه أن يضرب بعصاه البحر .. لاحظ انعدام الصلة المنطقية بين ظهور جيش فرعون ، وضرب البحر بالعصا .. غير أن مشيئة الله تنفذ لأغرب الأسباب المتعارضة مع المنطق البشري . لقد أراد الله تعالى أن تقع المعجزة .. فأوحى الى موسى أن يضرب بعصاه البحر . كان ضرب البحر بالعصا مجرد « سبب » رتب عليه الحق انشقاق البحر .. لم يكذب موسى يرفع عصاه حتى نزل جبريل عليه السلام الى الأرض .

ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر نصفين .. انشق عن طريق صلب يابس عن يمينه الأمواج وعن يساره الأمواج .

وتقدم موسى قومه وسار بهم حتى عبر البحر .. كانت المعجزة هائلة .. أن الأمواج كانت تصطرح وتعلو وتهبط حتى إذا جاءت الى الطريق بدت كأن يدا خفية تمنعها من أن تغرقه أو حتى تبلله .

انتهى عبور موسى البحر مع قومه ..

ووصل فرعون الى البحر .. شاهد هذه المعجزة .. شاهد في البحر طريقاً يابساً يشقه نصفين .. أحس فرعون بالخوف ولكنه زاد في عناده وأمر عربته الحربية بالتقدم فتقدم الجيش وراءه ..

حين انتهى موسى من عبور البحر .. التفت الى البحر وأراد أن يضربه بعصاه ليعود كما كان . ولكن الله أوحى اليه أن يترك البحر على حاله . كان موسى يريد أن يفصل البحر بينه وبين فرعون لينجو قومه .. ولو أنه ضرب البحر بعصاه فعاد كما كان لنجا موسى ونجا فرعون .. وكان الله تعالى قد شاء اغراق الفرعون . ولهذا أمر موسى أن يترك البحر على حاله .. أوحى اليه سبحانه « **واترك البحر رهوا ، أنهم جند مغرقون** » [١] .

وصل فرعون بجيشه الى منتصف البحر .. تعدى منتصفه وكاد يصل الى الضفة الأخرى .. وأصدر الله تعالى أمره الى جبريل فحرك جبريل الموج انطبقت الأمواج على فرعون وجيشه .

وغرق فرعون وجيشه .

غرق العناد ونجا الايمان بالله ..

ورأى فرعون وهو يفرق مشعده في النار .. أدرك وقد انكشف عنه الحجاب ، ودخل في سكرات الموت ، أن موسى كان صادقاً وابه ضيع نفسه بمعاداته وجره .. وآمن فرعون .
قال تعالى :

« **حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به**

بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين » [٢] .

وقد كانت توبته غير مقبولة ولا صحيحة . فهي توبة تجيء بعد معاينة العذاب والدخول في الموت . قال له جبريل :

(١) الآية ٢٤ من سورة الدخان مكية .

(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس مكية .

« الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . [١]

بمعنى لا تسوية . .

انتهى وقت التوبة المحدد لك وهلكت . انتهى الأمر ولا نجاة لك . سينجو جسدك وحده . . ستموت وتقتذف الأمواج جثتك الى الشاطئء . لتكون آية لمن خلفك .

« فاليوم ننحيك بيدك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » . [٢]

كان ما وقع لفرعون تحقيقا لسنة ازلية خلت فى عباد الله . . لاينفع الايمان بعد العذاب . قال تعالى فى سورة غافر .

« فلما راوا باسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا باسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » [٣] .

قص الله تعالى موقف المواجهة بين فرعون وموسى فى قوله تعالى فى سورة الشعراء :

« وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون . فارسل فرعون فى المدائن حاشرين . ان هؤلاء لشردمة قليلون . وانهم لنا لغافلون . وانا لجميع حاذرون . فاخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى اسرائيل . فاتبعوهم مشركين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : انا لمدركون . قال : كلا ، ان معى ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . ان فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم » . [٤] .

اسدل الستار على طغيان الفرعون . ولفظت الأمواج جثته الى الشاطئء . لا نعرف على أى شاطئء لفظت الأمواج جثة الرجل الذى يدعى الالهية .

الرجل الذى لم يعارضه أحد ! .

أغلب الظن أن الأمواج لفظت جثته على الشاطئء الغربى . . فرآه المصريون وأدركوا أن الهمم الذى عبده وأطاعوه كان عبدا لا يقدر على دفع الموت عن رقبتة .

بعد ذلك . . نزل الستار تماما على المصريين . . لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام الفرعون وغرقه مع جيشه . لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ويشيدون . .

(١) الآية ٩١ سورة يونس بكية .

(٢) الآية ٩٢ سورة يونس مكية .

(٣) الآية ٨٤ سورة غافر مكية .

(٤) الآيات ٥٢ الى ٦٨ سورة الشعراء بكية .

يستكت السياق القرآنى عنهم .. ويستبعدهم تماما من التاريخ والأحداث .
ويلتفت السياق الى موسى وهارون .. وماذا كان من أمر بنى اسرائيل
معهما .. لقد مات فرعون مصر .. غرق أمام عيون المصريين وبنى اسرائيل
.. ورغم موته ، فقد ظل أثره باقيا فى نفوس المصريين وبنى اسرائيل .
من الصعب على سنوات القهر الطويلة والذل المكثف أن تمر على نفوس
الناس مر الكرام .

لقد صنع فرعون فى نفوس بنى اسرائيل شيئا سندركه من الآيات بعد
قليل .. لقد عودهم الذل لغير الله . كسر فى نفوسهم شيئا من الداخل .
هزم أرواحهم ، فانطوا شأن المهزومين على الاعجاب بمن هزمهم ..
أفسد فطرتهم فعذبوا موسى عذابا شديدا بالعناد والجهل ..
كانت معجزة شق البحر لم تنزل طرية فى أذهانهم .

كانت رمال البحر الرطبة لم تنزل عالقة بنعال بنى اسرائيل ، حين مروا
على قوم يعبدون الأصنام .. وبدلا من أن يظهروا استياءهم لهذا الظلم للعقل ،
ويحمدوا الله أن هداهم للإيمان .. بدلا من ذلك التفتوا الى موسى وطلبوا منه أن يجعل
لهم الها يعبدونه مثل هؤلاء الناس .. وليس هناك أحد أحسن من أحد ..

أدرکتهم الغيرة لمرأى الأصنام ، ورغبوا فى مثلها ، وعاودهم الحنين لأيام
الشرك القديمة التى عاشوها فى ظل فرعون . ولفتهم موسى الى جهلهم هذا .
قال تعالى :

**وجاوزنا بنى اسرائيل البحر ، فاتوا على قوم يعكفون على أصنام
لهم ، قالوا : يا موسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال : انكم قوم
تجهلون . ان هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون . قال :
أغير الله أبفيكم الها وهو فضلكم على العالمين ؟ . واذا أنجيناكم من آل
فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم
وفى نلكم بلاء من ربكم عظيم » [١]**

سار موسى بقومه فى سيناء .. وهى صحراء ليس فيها شجر يقى من
الشمس ، وليس فيها طعام ولا ماء .. وأدرکتهم رحمة الله فساق اليهم المن
والسلوى وظللهم الغمام .. والمن مادة يميل طعمها الى الحلاوة وتفرزها
بعض أشجار الفاكهة ، حملت الرياح اليهم هذه المادة مغلفة فى أوراق الشجر .
وساق الله اليهم السلوى وهو نوع من أنواع الطيور يقال أنه « السمان »
وحين اشتد بهم الظمأ الى الماء ، وسيناء مكان يخلو من الماء ، ضرب لهم موسى
بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من المياه .. وكان بنو اسرائيل
ينقسمون الى ١٢ سبطا . فأرسل الله المياه لكل مجموعة . ورغم هذا الاكرام
والحفاوة . تحركت فى النفوس التواءاتها المريضة .. واحتج قوم موسى
عليه بأنهم سئموا من هذا الطعام ، واشتاقت نفوسهم الى البصل والثوم
والفول والعدس ، وكانت هذه الأطعمة أطعمة مصرية تقليدية .. وهكذا

(١) الآية من ١٣٨ الى ١٤١ سورة الاعراف مكة .

سأل بنو اسرائيل نبيهم موسى أن يدعو الله ليخرج لهم من الأرض هذه الأطمعه .

وعاد موسى يلفتهم الى ظلمهم لأنفسهم ، وحينئذ لأيام هوانهم فى مصر ، وكيف أنهم يتبطرون على خير الطعام وأكرمه ، ويريدون بدله أدنى الطعام وأسوأه .

قال تعالى فى سورة البقرة :

« واذ قلتم يا موسى : لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال: أنستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » [١]

.....
.....

سار موسى بقومه فى اتجاه بيت المقدس . .

أمر موسى قومه بدخولها وقتال من فيها والاستيلاء عليها .
ها قد جاء امتحانهم الأخير . . بعد كل ما وقع لهم من المعجزات والآيات والخوارق . جاء دورهم ليحاربوا — بوصفهم مؤمنين — قوما من عبدة الأصنام . .

ورفض قوم موسى دخول الأرض المقدسة .

وحدثهم موسى عن نعمة الله عليهم . كيف جعل فيهم أنبياء ، وجعلهم ملوكا يرثون ملك فرعون ، وآتاهم ما لم يؤت احدا من العالمين .

وكان رد قومه عليه أنهم يخافون من القتال . قالوا : ان فيها قوما جبارين ، ولن يدخلوا الأرض المقدسة حتى يخرج منها هؤلاء .

وانضم لموسى وهارون اثنان من القوم . . تقول كتب القدماء أنهم خرجوا فى ستمائة ألف . . لم يجد موسى من بينهم غير رجلين على استعداد للقتال . . وراح هذان الرجلان يحاولان اقناع القوم بدخول الأرض والقتال
قالا : ان مجرد دخولهم من الباب سيجعل لهم النصر . ولكن بنى اسرائيل جميعا كانوا يتدثرون بالجبن ويرتعشون فى أعماقهم . .

مرة أخرى تعاودهم طبيعتهم التى عاودتهم قبل ذلك حين رأوا قوما يعكفون على أصنامهم . . فسدت فطرتهم ، وانهزموا من الداخل ، واعتادوا الذل ، فلم يعد فى استطاعتهم أن يحاربوا . . وان بقى فى استطاعتهم أن يتوفحوا على نبي الله موسى وربه . .

وقال قوم موسى له كلمتهم الشهيرة :

« اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » [٢] .

هكذا بصراحة وبلا التواء .

(١) من الآية ٦١ من سورة البقرة مدنية .
(٢) من الآية ٢٤ من سورة المائدة مدنية .

أدرك موسى أن قومه ما عادوا يصلحون لشيء . مات الفرعون ، ولكن آثاره فى النفوس باقية يحتاج شفاؤها لفترة طويلة . عاد موسى الى ربه يحدثه أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه .. دعا موسى على قومه أن يفرق الله بينه وبينهم ..

وأصدر الله تعالى حكمه على هذا الجيل الذى فسدت فطرته من بنى إسرائيل .. كان الحكم هو التيه أربعين عاما .. حتى يموت هذا الجيل أو يصل الى الشيخوخة . ويولد بدلا منه جيل آخر ، جيل لم يهزمه أحد من الداخل ، ويستطيع ساعته أن يقاتل وأن ينتصر .

قال تعالى فى سورة المائدة :

((وأذ قال موسى لقومه : يا قوم : انكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترفدوا على أدياركم فننقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى ان فيها قوما جبارين وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى انا ان ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون . قال : رب انى لأملك الا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين)) [١] .

بدأت أيام التيه ..

بدأ السير فى دائرة مغلقة .. تنتهى من حيث تبدأ ، وتبدأ من حيث تنتهى .

بدأ السير الى غير مقصد .. ليلا ونهارا وصباحا ومساء .

دخلوا البرية عند سسيناء ..

عاد موسى الى نفس المكان الذى التقى فيه بكلمات الله اول مرة ..

نزل بنو إسرائيل حول الطور وصعد موسى الجبل وحده .. وهناك أنزلت عليه التوراة . وكلمه ربه تعالى ..

قبل أن يصعد موسى الى ميقات ربه ، استخلف أخاه هارون فى قومه .

تركه مسئولا عنهم ومضى الى ربه .

قال تعالى فى سورة الأعراف :

((وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون : أخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين)) [٢] .

(١) الآيات من ٢٠ الى ٢٦ سورة المائدة مدنية .

(٢) الآية ١٤٢ مكة .

قول القدماء أن موسى صام ثلاثين يوماً ليلاً ونهاراً بغير أن يذوق طعاماً قط . ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه : لماذا أفطرت ، وهو أعلم بما كان . قال : أرى ربى ، كرهت أن أكلمك إلا وفضي طيب الريح . قال أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك . أرجع فصم عشرة أيام ثم اثنتى . ففعل عليه السلام ما أمره ربه به . .

ونحن لا نعرف — معرفة يقينية — لماذا صام موسى أربعين ليلة بدلاً من ثلاثين .

كل ما نعرفه أن الله تعالى قد زاد على الثلاثين ليلة عشر ليالٍ أخرى من الصوم وأنزلت التوراة على موسى . أنزلت عليه الوصايا العشر . وكانت هذه الوصايا العشر هي :

- ١ — الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له .
 - ٢ — النهى عن الحلف بالله كاذباً .
 - ٣ — الأمر بالمحافظة على السبت [بمعنى تفرغ يوم من أيام الأسبوع للعبادة] .
 - ٤ — الأمر باكرام الأب والام .
 - ٥ — معرفة أن الله وحده هو الذى يعطى ويمنح .
 - ٦ — لا تقتل .
 - ٧ — لا تزنى .
 - ٨ — لا تسرق .
 - ٩ — لا تشهد شهادة زور .
 - ١٠ — لا تمدن عينيك الى بيت صاحبك أو امرأته أو عبده أو ثوره أو حماره .
- قال علماء السلف ان مضمون هذه الوصايا العشر قد تضمنتها آيتان من القرآن ، هي قوله تعالى فى سورة الأنعام :

« قل : تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم : الا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين احساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هى احسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والجزان بالقسط ، لا تكلف نفساً الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . » [١] .

يقص الله تبارك وتعالى علينا ماذا كان من أمر موسى حين ذهب لميقات ربه . كان موسى بصومه — أربعين ليلة — يقترب من ربه أكثر . . وكان موسى

(١) الآيتان ١٥١ ، ١٥٢ مدنية .

بتكليم الله له يزداد حبا فى ربه أكثر .. ونحن لا نعرف أى مشاعر كانت تجيش فى قلب موسى عليه الصلاة والسلام حين سأل ربه الرؤية .

أحيانا كثيرة يدفع الحب البشرى الناس الى طلب المستحيل .. فما بالك بالحب الالهى ، وهو أصل الحب ..

ان عمق احساس موسى بربه ، وحبه لخالفه ، واندفاعه الذى لم يزل يميز شخصيته .. دفعه هذا كله الى أن يسأل الله الرؤية . قال تعالى فى سورة الاعراف :

((ولما جاء موسى ليقاننا وكلمه ربه . قال : رب أرنى أنظر اليك)) [١] .

هكذا بانندفاع العاشقين الكبار سأل موسى ربه ما سأل . وجاءه رد الحق عز وجل .

((قال : لن ترانى)) . [٢] .

ولو أن الله تبارك وتعالى قالها ولم يزد عليها شيئا ، لكان هذا عدلا منه سبحانه ، غير أن الموقف هنا موقف حب الهى من جانب موسى . موقف اندفاع يبرره الحب . ولهذا أدركت رحمة الله تعالى موسى ..

أفهمه انه لن يراه ، لأن أحدا من الخلق لا يصمد لنور الله .. أمره أن ينظر الى الجبل . فان استقر مكانه فسوف يراه .
قال تعالى :

((ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا)) [٣] .

لا يصمد لنور الله أحد .

أدرك موسى هذه الحقيقة وعابنها بنفسه .. والصعق هو الموت أو الاغماء . ونحن لا نعرف الفترة التى قضاها موسى غائبا عن حياته أو وعيه .. غير أنه حين أفاق ..

((فلما أفاق قال : سبحانك .. تبت اليك وأنا أول المؤمنين)) [٤] .

وقف المفسرون القدماء كثيرا أمام هذه الآيات . تساءلوا مثلا كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة .

وتنازعوا فى ذلك فذهب المعتزلة الى رأى ، وذهب أهل السنة الى رأى ، وكان مدار الحديث كله كيف لا يعلم النبى وهو أقرب خلق الله اليه أن رؤية الله مستحيلة .. وهكذا انصرفنا عن عمق الآيات البعيد ، ورحنا نبحث حول جزئيات لا تغنى ولا تسمن ..

(١) من الآية ١٤٣ مكية .

(٢) من الآية ١٤٣ مكية .

(٣) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكية .

(٤) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكية .

اعتقد أن هذا الموقف من موسى — يمثل قمة من قمم الحب ، وعمقا من أعماق الوجد — لا مثيل له في كل سيرة موسى .

نحن أمام ذروة الحب لله ..

والحب لا يريد غير الرؤية ، ورؤية الله عز وجل مستحيلة ، هذا هو منطق العقل والأعصاب ، لكن .. متى كان الحب يعبأ بالمنطق أو يستمع للأعصاب .. وهكذا يندفع موسى الى التجربة وهي تجربة قام بها بدلا عنا جميعا .. كان أجرانا في الطلب ، وكان أسبقنا الى الصعق ، وأثبت لنا بجسده الكريم وروحه الطاهر أن أحدا لا يصمد لنور الله ..

هاهو يفيق فيمجد الله ويتوب اليه ويستغفره ..

« قال : سبحانك ثبت اليك » [١] .

من أى شيء كان موسى يتوب ..

قال الصوفية كان يتوب من اندفاعه عاشق عظيم سأل المحال وهو يعلم أنه محال ..

وذلك تفسير مقنع .. يؤيد ذلك سياق الآيات ..

أنظر الى آيات الله وكيف يلفته الى ما أنعم عليه من نعم ، قال تعالى :
لموسى :

« قال : يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبتنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء . فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » [٢] .

وقف كثير من المفسرين أمام قوله تعالى لموسى :

« انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى » [٣] .

وأجريت مقارنات بينه وبين غيره من الأنبياء . فقيل ان هذا الاصطفاء كان خاصا بعصره وحده ، ولا ينسحب على العصر الذى سبقه لوجود ابراهيم فيه ، وابراهيم خير من موسى ، أيضا لا ينطبق هذا الاصطفاء على العصر الذى يأتى بعده ، لوجود محمد بن عبد الله فيه ، وهو أفضل منهما .

ونحب أن نبتعد عن هذا الجدال كله .. لا لأننا نعتقد أن كل الأنبياء سواء .. ان الله سبحانه وتعالى يحدثنا أنه فضل بعض النبيين على بعض ، ورفع درجات بعضهم على البعض .. غير أن هذا التفضيل ينبغى أن يكون منطقة محرمة علينا ، ولنقف نحن فى موقع الايمان بجميع الأنبياء لا نتعدها . ولنؤد نحوهم فروض الاحترام على حد سواء . لا ينبغى أن يخوض الخاطئون فى درجات المعصومين المختارين من الله .. ليس من الأدب أن نفاضل نحن بين الأنبياء . الأولى أن تؤمن بهم جميعا .

(١) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكية .
(٢) الأيتان ١٤٤ ، ١٤٥ سورة الاعراف مكية .
(٣) من الآية ١٤٤ سورة الاعراف مكية .

انتهى ميقات موسى مع ربه تعالى .. وعاد غضبان أسفا الى قومه .. لم يكن فى الوجود كله انسان فى مثل رضاه .. لكنه يعلم من ربه أنباء تسوءه فيقلب الى قومه غضبان أسفا ..

قال تعالى فى سورة طه :

**وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى ،
وعجلت اليك رب لترضى . قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم
السامرى . فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا** [١] .

انحدر موسى من قمة الجبل وهو يحمل الواح التوراة ، قلبه يغلى بالغضب والأسف . نستطيع أن نتخيل انفعال موسى وثورته وهو يحث خطاه نحو قومه .

لم يكد موسى يغادر قومه الى ميقات ربه .. حتى وقعت فتنة السامرى . وتفصيل هذه الفتنة أن بنى اسرائيل حين خرجوا من مصر ، صحبوا معهم كثيرا من حلى المصريين وذهبهم ، أخذوه للتمتع به فى احتفالهم الذى ادعوه ، ثم نجوا بعد معجزة شق البحر ، وانطبق البحر على فرعون وجنوده ففرغوا ، وصار ما معهم من الذهب ملكا لهم .. ويبدو أن هارون عليه السلام ، أدرك أن هذا الذهب ليس من حقهم ، فأخذه منهم ودفنه فى الأرض .. لم يكن القوم فى حاجة اليه .. كانوا يعيشون فى التيه .. يسيرون وسط صحراء لا ينفهم فيها الذهب . حفر هارون شقيق موسى حفرة وألقى فيها الذهب وأهال عليه التراب . ورآه السامرى وهو يدفن الذهب فاستخرجه بعد ذلك ، وصهره ، وصنع منه تمثالا لعجل يشبه العجل أبيس ، معبود المصريين ، وكان السامرى فيما يبدو نحاسا محترفا أو صائغا سابقا ، فصنع العجل مجوفا من الداخل ، ووضع فى اتجاه الريح ، بحيث يدخل الهواء من فتحة الخلفية ويخرج من انفه فيحدث صوتا يشبه خوار العجول الحقيقية ..

ويقال أن سر هذا الخوار ، أن السامرى كان قد أخذ قبضة من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل الى الأرض فى معجزة شق البحر .. أى أن السامرى أبصر بما لم يبصروا به ، فقبض قبضة من أثر الرسول [جبريل عليه السلام] فوضعه مع الذهب وهو يصنع منه العجل وكان جبريل عليه السلام لا يسير على شىء الا دبت فيه الحياة ، فلما أضاف السامرى التراب الى الذهب ، وصنع منه العجل ، خار العجل كالعجول الحقيقية ..

هذه قصة السامرى التى ألهاها لموسى ، ونعتقد أنه كاذب .. ان كثره يرجح عندنا كذبه ..

نعلم الآن أن التراب اذا أضيف الى الذهب وصهر ، انفصل التراب من الذهب وترك تجويفا فى مكان انفصاله ، وأغلب الظن أن السامرى استخدم هذا التراب ، كأي تراب آخر ، فى صنع تجويف داخل العجل ، بحيث تحول التمثال الى تمثال له صوت ..

بعد ذلك ، خرج السامرى على بنى اسرائيل بما صنعه ..

(١) الآيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ سورة طه مكية .

سألوه ما هذا يا سامرى ؟

قال هذا المهكم واله موسى !

قالوا : لكن موسى ذهب لميقات الهه .

قال السامرى لقد نسى موسى . ذهب لنقاء ربه هناك ، بينما ربه هنا .
وهبت موجة من الرياح فدخلت من دبر العجل الذهب وخرجت من فمسه
فخار العجل .

وعبد بنو اسرائيل هذا العجل . .

لعل دهشة القارىء تثور لهذه الفتنة . . كيف يمكن الاستخفاف بعقول
القوم لهذه الدرجة . . لقد وقعت لهم معجزات هائلة . . فكيف ينقلبون الى
عبادة الأصنام فى لحظة . .

تزول هذه الدهشة لو نظرنا فى نفسية القوم الذين عبدوا العجل . لقد
تربوا فى مصر ، أيام كانت مصر تعبد الأصنام وتقدس فيما تقدس العجل
أبيس ، وتربوا على الذل والعبودية ، وانكسر داخل أنفسهم شيء ، التوى
فى فطرتهم شيء ، ومرت عليهم معجزات الله فصادفت نفوسا تالفة الأمل .
لم يعد هناك ما يمكن أن يصنعه لهم أحد . ان كلمات الله لم تعدهم الى الحق ،
كما أن المعجزات الحسية لم تثقنهم بصدق الكلمات ، ظلوا داخل أعماقهم
من عبدة الأوثان . كانوا وثنيين مثل سادتهم المصريين القدماء . ولهذا
السبب انقلبوا الى عبادة العجل . . ولم يكن انقلابهم هذا مفاجأة لنا نحن
أهل هذا الزمان ، فانهم بعد خروجهم من معجزة شق البحر شاهدوا قوما
يعبدون الأصنام فسألوا موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها مثل هؤلاء القوم .
المسألة اذن قديمة ومزمنة . . والرغبة فى عبادة الأصنام ، هى نفسها
عبادة الأصنام ، ولقد كان كل ما فعله السامرى ، أنه استغل حنين القوم الى
عبادة الأوثان ، استغل حاجة نفسية شبيهة عامة وحققها لهم حين قدم اليهم
عجله . واختار أن يكون العجل ذهباً لأنه يعلم ضعف بنى اسرائيل ازاء
الذهب عموماً . .

وهكذا انتشرت فتنة السامرى ، وفوجىء هارون عليه الصلاة والسلام يوماً
بأن بنى اسرائيل يعبدون عجلاً من الذهب .

انقسموا الى قسمين : الأقلية المؤمنة أدركت أن هذا هراء . والأغلبية
الكافرة طاوعت حنينها لعبادة الأوثان .

وقوف هارون وسط قومه وراح يعظهم . قال لهم : انكم فتنتم به ، هذه
فتنة ، استغل السامرى جهلكم وفتنكم بعجله . . ليس هذا ربكم ولا رب
موسى .

« أن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى » . [١]

ورفض عبدة العجل موعظة هارون . كانوا مجموعة من الجاهلين الذين
مرت عليهم الكلمات مرور النسيم بالحجارة . . لم تفعل فيها شيئاً . . وعاد

(١) من الآية ٩٠ سورة طه مكية .

هارون يعظلمهم ويذكرهم بممجازات الله اللى أنقذهم بها ، وتكريمه ورعايته لهم ، فأصموا أذانهم ورفضوا كلماته ، واستضعفوه وكادوا يقتلونه ، وأنهوا مناقشة الموضوع بتأجيله حتى عودة موسى . . كان واضحا أن هارون أكثر ليانا من موسى ، لم يكن يهابه القوم لئنه وشفقته . وخشى هارون أن يلجأ الى القوة ويحطم لهم صنمهم الذى يعبدونه فتثور فتنة بين القوم . ويحدث ما يشبه الحرب الأهلية . أثر هارون تأجيل الموضوع الى أن يحضر موسى .

كان يعرف أن موسى بشخصيته القوية ، يستطيع أن يضع حدا لهـذه الفتنة دون اراقة دماء .

واستمر القوم يرقصون حول العجل . .

كان السامرى — لعنه الله تعالى — هو صاحب هذه الفتنة القديمة . . فتنة الرقص والتواجد حول الأوثان . وهى فتنة لم تزل مظاهرها حية الى اليوم رغم اندثار عبادة الأوثان ، يقوم بها الناس فى زماننا بحسن نية دون أن يدركوا أصلها القديم وكونها ديانة الكفار وعباد العجل .

أورد القرطبى فى الجزء الحادى عشر فى تفسيره لفتنة السامرى . . هذه المسألة .

قال : « سئل الامام أبو بكر الطرطوشى : ما يقول سيدنا الفقيه فى جماعة من رجال ، يكثر من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انهم يوقعون بالقضيب على شىء من الأديم . ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه . ويحضرون شيئا يأكلونه . . هل الحضور معهم جائز أم لا . افتونا مأجورين » .

اجاب القرطبى على هذه المسألة نقلا عن استاذة قال : « مذهب الصوفية [يقصد الراقصين] بطالة وجهالة وضلالة . وما الاسلام الا كتاب الله وسنة رسوله . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثهما أصحاب السامرى . لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون . فهو دين الكفار وعباد العجل .

وانما كان يجلس النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار . فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد وغيرها . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم . ولا أن يعينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين ، وبالله التوفيق » .

انتهى كلام القرطبى المتصل بهذه المسألة . فتأمل مضاء ذهنه وتقواه ، وربطه لبدعة الرقص الصوفى الحديث بعبادة العجل القديم والرقص جوله .

انحدر موسى عائدا لقومه فسمع صياح القوم وجلبتهم وهم يرقصون حول العجل . . توقف القوم حين ظهر موسى وساد صمت .

صرخ موسى يقول :

« **بئسما خلفتموني من بعدى** » ++ [١]

اتجه موسى نحو هارون وألقى ألواح التوراة من يده على الأرض .. كان
اعصار الغضب داخل موسى يتحكم فيه الآن تماما .
مد موسى يديه وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وشده نحوه
وهو يرتعش .

قال موسى :

« **يا هارون : ما منك اذ رايتهم ضلوا الا تتبعن ، اقمصيت امرى** » [٢]

ان موسى يتساءل هل عصى هارون امره . كيف سكت على هذه الفتنة ؟
كيف طاوعمهم على البقاء معهم ولم يخرج ويتركهم ويتبرأ منهم ؟ كيف سكت
عن مقاومتهم أصلا ؟ .. ان الساكت عن الخطأ مشترك فيه بشكل ما .
زاد الصمت عمقا بعد جملة موسى الغاضبة .

وتحدث هارون الى موسى .. رجا منه أن يترك رأسه ولحيته .. بسحق
انتمائهما لأم واحدة .. وهو يذكره بالأم ولا يذكره بالأب ليكون ذلك ادعى
لاستشارة مشاعر الحنو في نفسه .

« **قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي** » [٣] .

افهمه ان الامر ليس فيه عصيان له .. وليس فيه رضاء بموقف عبدة العجل
.. انما خشى أن يتركهم ويمضى ، فيسأله موسى كيف لم يبق فيهم وقد تركه
مسئولا عنهم ، وخشى لو قاومهم بعنف أن يثير بينهم قتالا فيسأله موسى كيف
فرق بينهم ولم ينتظر عودته .

« **انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم تقرب قولى** » [٤] .

افهم هارون أخاه موسى برفق ولين ان القوم استضعفوه ، وكادوا يقتلونه
حين قاومهم ، رجا منه أن يترك رأسه ولحيته حتى لا يشمت به الأعداء ،
ويستخف به القوم زيادة على استخفافهم به . افهمه أنه ليس ظالما مثلهم
حين سكت على ظلمهم .

« **يا ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى فلا تشمت بى
الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** » [٥] .

أدرك موسى انه ظلم هارون فى غضبه الذى أشعلته غيرته على الله تعالى
وحرصه على الحق .. أدرك أن هارون تصرف أفضل تصرف ممكن فى هذه
الظروف .

- (١) من الآية ١٥٠ سورة الاعراف مكية .
- (٢) الايتان ٩٢ ، ٩٣ سورة طه مكية .
- (٣) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .
- (٤) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .
- (٥) من الآية ١٥٠ سورة الاعراف مكية .

ترك رأسه ولحيته واستغفر الله له ولاخيه ..

التفت موسى لقومه وتساءل بصوت لم يزل يضطرب غضبا :

« يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفتال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ؟ » [١]

انه يعنفهم ويوبخهم ويلفتهم بإشارة سريعة الى غباء ما عملوه .

عاد موسى يقول — غاضبا أسد الغضب :

« ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين » [٢]

لم تكذ الجبال تبثلع اصداء الصوت الغاضب حتى نكس القوم رؤوسهم وأدركوا خطاهم .. كان افتراؤهم واضحا على الحق الذي جاء به موسى .

أبعد كل ما فعله الله تعالى لهم ، ينكثون على عبادة الاصنام .. أيغيب عنهم موسى أربعين يوما ثم يعود ليجدهم يعبدون عجلا من الذهب ..

أهذا تصرف توم ، عهد الله اليهم بأمانة التوحيد فى الأرض ؟

التفت موسى الى السامرى بعد حديثه القصير مع هارون .. لقد اثبت له هارون براءته كمسئول عن قومه فى غيبته ، كما سكت القوم ونكسوا رؤوسهم أمام ثورة موسى ، لم يبق الا المسئول الأول عن الفتنة .. لم يبق الا السامرى .

تحدث موسى الى السامرى وغضبه لم يهدأ بعد .

« قال : فما خطبك يا سامرى ؟ » [٣]

انه يسأله عن قصته ، ويريد أن يعرف منه ما الذى حمله على ما صنع ..

قال السامرى :

« بصرت بما لم يبصروا به » [٤] .. رأيت جبريل وهو يركب فرسه

فلا تضع قدمها على شىء الا دبت فيه الحياة ..

« فقبضت قبضة من أثر الرسول » [٤] .. أخذت حفنة من التراب

الذى سار عليه جبريل والقيتها على الذهب ..

« فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى » [٤] .. هذا ما سألقتنى نفسى

اليه ..

لم يناقش موسى ، عليه السلام السامرى فى ادعائه .. انما قذف فى

(١) من الآية ٨٦ سورة طه مكية .

(٢) الآية ١٥٢ سورة الاعراف مكية .

(٣) الآية ٩٥ سورة طه مكية .

(٤) من الآية ٩٦ سورة طه مكية .

وجهه حكم الحق .. ليس المهم ان يكون السامرى قد رأى جبريل ، عليه السلام ، فقبض قبضة من أثره .. ليس المهم ان يكون خوار العجل بسبب هذا التراب الذى سار عليه فرس جبريل ، أو يكون الخوار بسبب ثقب اصطنعه السامرى ليخور العجل .. المهم فى الأمر كله جريمة السامرى ، وفتنته لقوم موسى ، واستغلاله اعجاب القوم الدفين بساداتهم المصريين ، وتقليدهم لهم فى عبادة الأوثان .. هذه هى الجريمة التى حكم فيها موسى ، عليه السلام ، بحكمه المزدوج :

« قال : فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لا مساس ، وان لك موعدا لن تخلفه ، وأنظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليوم نفسا » [١] .. [سورة طه] ..

حكم موسى على السامرى بالوحدة فى الدنيا ..

يقول بعض المفسرين : ان موسى دعا على السامرى بأن لا يمسه أحدا ، معاقبة له على مسه ما لم يكن ينبغى له مسه ..

ونعتقد أن الأمر أخطر كثيرا من هذه النظرة السريعة .. ان السامرى أراد بفتنته ضلال بنى اسرائيل وجمعهم حول عجله الوثنى والسيادة عليهم ، وقد جاءت عقوبته مساوية لجريمه ، لقد حكم عليه بالنبذ والوحدة ، هل مرض السامرى مرضا جلديا بشعا صار الناس يأنفون من لمسه أو مجرد الاقتراب منه ؟ .. هل جاءه التبذ من خارج جسده ؟ .. لا نعرف ماذا كان من أمر الأسلوب الذى تمت به وحدة السامرى ونبذ المجتمع له .. كل ما نعرفه أن موسى أوقع عليه عقوبة رهيبه ، كان أهون منها القتل ، فقد عاش السامرى منبوذا محتقرا لا يلمس شيئا ولا يمسه أحدا ولا يقترب منه مخلوق .. هذه هى عقوبته فى الدنيا ، ويوم القيامة له عقوبة ثانية ، يبهما السياق لتجيء ظلالها فى النفس أخطر وأرعب .

نهض موسى بعد فراغه من السامرى الى العجل الذهب والقاء فى النار .. لم يكتف بصهره أمام عيون القوم المبهوتين ، وإنما نسفه فى البحر نسفا .. تحول الاله المعبود أمام عيون المفتونين به الى رماد يتطاير فى البحر .. ارتفع صوت موسى :

« إنما الهكم الله الذى لا اله الا هو ، وسع كل شيء علما » [٢] ..

هذا هو الهكم ، وليس ذلك الصنم الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ..

بعد أن نسف موسى الصنم ، وفرغ من الجانى الأسمى ، التفت الى قومه ، وحكم فى القضية كلها فأفهمهم انهم ظلموا أنفسهم ، وترك لعبدة العجل مجالا واحدا للتوبة .. وكان هذا المجال ان يقتل من اتبعوا العجل أنفسهم ..

قال تعالى :

« واذ قال موسى لقومه : يا قوم : انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب »

(١) الآية ٩٧ سورة طه مكية .

(٢) الآية ٩٨ سورة طه مكية .

عليكم انه هو التواب الرحيم» [١] ..

كانت العقوبة التي قررها موسى على عبدة العجل مهولة ، وتتفق مع الجرم الأصلي ، ان عبادة الأوثان اهدار لحياة العقل وصحته ، وهي الصحوة التي تميز الانسان عن غيره من البهائم والجمادات ، وازاء هذا الازهاق لصحوة العقل ، تجيء العقوبة ازهاقا لحياة الجسد نفسه ، فليس بعد العقل للانسان حياة يتميز بها .. ومن نوع الجرم جاءت العقوبة ..

جاءت قاسية ثم رحم الله تعالى وتاب .. انه هو التواب الرحيم ..

.....

أخيرا .. سكت عن موسى الغضب .

تأمل تعبير القرآن الكريم الذي يصور الغضب في صورة كائن يقود تصرفات موسى ، ابتداء من القائه لألواح التوراة ، وشده للحية أخيه ورأسه . وانتهاء بنسف العجل في البحر ، وحكمه بالقتل على من اتخذوه ربا .

أخيرا سكت عن موسى الغضب . زايله غضبه في الله ، وذلك أرفع أنواع الغضب وأجدرها بالاحترام والتوقير .. التفت موسى الى مهمته الأصلية حين زايله غضبه فتذكر انه ألقى الألواح التوراة .. وعاد موسى يأخذ الألواح ويعاود دعوته الى الله .

قال تعالى :

« ولا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » [٢] .. [سورة الأعراف] ..

وقد استدلل بعضهم بقوله « وفي نسختها » على انها تكسرت ، ونحن لا نعرف أكانت الألواح من مادة يجوز عليها الكسر أم لا .. كما ينفي ابن كثير هذا الاستدلال ، ويرى انها بقيت على حالها ..

وبهما يكن من أمر .. فقد عاد موسى الى هدوئه ، واستأنف جهاده في الله ، وقرأ الألواح النوراة على قومه . أمرهم في البداية أن يأخذوا بأحكامها بقوة وعزم ، ومن المدهش أن قومه ساوموه على الحق . قالوا : انشر علينا الألواح فان كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها . فقال موسى : بل اتبلوها بما فيها . فراجعوا مرارا ، فأمر الله تعالى ملائكته فرفعت الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه غمامة فوقهم ، وقيل لهم : ان لم تقبلوها بما فيها سقط ذلك الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك ، وأمروا بالسجود فسجدوا .. وضعوا خدودهم على الأرض وراحوا ينظرون الى الجبل فوقهم هلعا ورعبا ..

قال تعالى :

« واذ نلقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم ، خذوا

(١) الآية ٥٤ من سورة البقرة مدنية .
(٢) الآية ١٥٤ مكية .

ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون» [١] .. [سورة
الاعراف] ..

وهكذا اثبت قوم موسى انهم لا يسلمون وجوههم لله الا اذا لويت اعناقهم
بمعجزة حسية باهرة تلقى الرعب فى القلوب وتثنى الأقدام نحو سجود تاهر
يدفع الخوف اليه دفعا ..

وهكذا يساق الناس بالعصا الالهية الى الايمان ، يقع هذا فى طفولة
الجنس البشرى ، وغياب الوعى والنضج الكافيين لقيام الامتناع العقلى ،
ولعلنا هنا نشير مرة أخرى الى نفسية قوم موسى ، وهى المسئول الأول عن
عدم اقتناعهم الا بالقوة الحسية والمعجزات الباهرة .. لقد تربى قوم موسى
ونشأوا وسط هوان وعسف ، أهدرت فيه انسانيتهم والتوت فطرتهم .. ولم
يعد ممكنا بعد ازدهار الذل فى نفوسهم واعتيادهم اياه ، لم يعد ممكنا ان
يساقوا الى الخير الا بالقوة . لقد اعتادوا ان تسيرهم القوة القاهرة
لسادتهم القدامى ، ولايد لسيدهم الجديد [وهو الايمان] من ان يقاسى
الاهوال لتسييرهم ، وان يلجأ مضطرا الى أسلوب القوة لينقذهم من
الهلاك .

لم تمر جريمة عبادة العجل دون آثار ..

أمر موسى علماء بنى اسرائيل وخيارهم ان يستغفروا الله ويتوبوا اليه ..
اختر منهم سبعين رجلا ، الخير فالخير ، وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه
مما صنعتهم وسلوه التوبة على من تركتم وراكم من قومكم . صوموا
وتطهروا وطهروا ثيابكم ..

خرج موسى بهؤلاء السبعين المختارين لميقات حدده له الله تعالى .. دنا موسى
من الجبل ، فاذا عمود من الغمام يتفشى الجبل كله .. دخل موسى فى
الغمام ، وقال للقوم ادنوا فدنوا .. وكلم الله تعالى موسى ، وكان موسى اذا
كلم الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم ان ينظر اليه
او يطبق احتماله ، وضرب الحجاب على موسى وهو يكلم ربه ، وسمع
السبعون الذين اختارهم موسى .. سمعوا موسى وهو يكلم ربه ..

ولعل معجزة كهذه المعجزة تكون الأخيرة ، وتكون كافية لحمل الايمان الى
القلوب مدى الحياة . غير أن السبعين المختارين لم يكتفوا بما استمعوا
اليه من المعجزة .. انما طلبوا رؤية الله تعالى ..

قالوا سمعنا ونريد ان نرى ..

قالوا لموسى ببساطة :

« يا موسى ان تؤمن لك حتى نرى الله جهرة » [٢] ..

هى مأساة تشير أشد الدهشة .. وهى مأساة تشير الى صلابة القلوب
واستمسакها بالحسيات والماديات ..

كوفىء الطلب المتعنت بعقوبة صاعقة ..

(١) الآية ١٧١ مكية .

(٢) من الآية ٥٥ سورة البقرة مدنية .

أخذتهم رجفة مدمرة صعقت أرواحهم وأجسادهم على الفور .
ماتوا ...

أدرك موسى ما أحدثه السبعون المختارون فملاه الأسى وقام يدعو ربه
ويناشده أن يعفو عنهم ويرحمهم ، والأى يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم ،
وليس طلبهم رؤية الله تبارك وتعالى وهم على ما هم فيه من البشرية الناقصة
وقسوة القلب غير سفاهة كبرى ..

سفاهة لا يكفر عنها الا الموت ..

قد يطلب النبي رؤية ربه ، كما فعل موسى ، ورغم انطلاق الطلب من واقع
الحب العظيم والهوى المسيطر ، الذى يبرر بما له من منطق خاص هذا
الطلب ، رغم هذا كله يعتبر طلب الرؤية تجاوزا للحدود ، يجازى عليه النبي
بالصعق ، فما بالناس بصدور هذا الطلب من بشر خاطئين ، بشر يحددون
للرؤية مكانا وزمانا ، ويشترطون ان تكون جهرة .. بشر يعلقون ايمانهم على
هذه الرؤية ، بعد كل ما لقوه من معجزات وآيات ..

اليس هذا سفاهة كبرى ... ؟

وهكذا صعق من طلب الرؤية .. ووقف موسى يدعو ربه ويستعطفه
ويترضاه ..

قال تعالى :

« واختر موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة
قال : رب : لو نئنت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء
منا ، أن هى الا فتنتك تصل بها من نشاء ، وتهدى من نشاء ، أنت ولينا
فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى
الآخرة انا هدنا اليك » [١] ..

هذه كانت كلمات موسى لربه وهو يدعو ويترضاه ..

ورضى الله تعالى عنه وغفر لقومه فأحياهم بعد موتهم ، واستمع المختارون
فى هذه اللحظات الباهرة من تاريخ الحياة الى النبوءة بمجىء محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم ..

قال تعالى :

« قال : عذابي أصيب به من انشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ،
فساكنتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون .
الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى
التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم
الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى
كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى
أنزل معه أولئك هم المفلحون » [٢] [سورة الاعراف] ..

(١) الآية ١٥٥ وجزء من آية ١٥٦ سورة الاعراف مكية .

(٢) بقية الآية ١٥٦ وآية ١٥٧ سورة الاعراف مكية .

سنلاحظ طريقة الربط بين الحاضر والماضي في الآية ، ان الله تعالى يتجاوز زمن مخاطبة الرسول في الآيات الى زمنين سابقين ، هما نزول التوراة ونزول الانجيل ، ليقرر انه [تعالى] بشر بمحمد في هذين الكتابين الكريمين ..

نعنتقد ان ايراد هذه البشرى جاء يوم صحب موسى من قومه بسبعين رجلا هم علماء بنى اسرائيل وأفضل من فيهم ، لميقات ربه ..

في هذا اليوم الخطير بمعجزاته الكبرى ، تم ايراد البشرى بآخر انبياء الله عز وجل ..

.....

يقول ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء ، نقلا عن قتادة .. ان موسى قال لربه : يا رب انى أجد فى الألواح أمة هى خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد ..

قال : رب انى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها .. وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرا ، حتى اذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه .. وان الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم .. رب اجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة أحمد ..

قال : رب انى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الاول وبالكتاب الآخر ، ويتاتلون فضول الضلالة .. فاجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة أحمد ..

قال : رب انى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم اذا تصدق أحدهم بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها ، وان ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطيور .. وان الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم .. رب فاجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة أحمد ..

قال : رب فانى أجد فى الألواح أمة اذا هم أحدهم بحسنة ثم عملها كتبت له عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف .. رب اجعلهم أمتى ..

قال : تلك أمة أحمد ..

.....

مكث موسى فى قومه يدعوهم الى الله .. ويبدو ان نفوسهم كانت ملتوية مشكل لا تحطه عين الملاحظة ، وتبدو لجاجتهم وعنادهم فيما يعرف بقصة

البقرة .. فان الموضوع لم يكن يقتضى كل هذه المفاوضات بينهم وبين موسى ، كما انه لم يكن يستوجب كل هذا التعتت ..

وأصل قصة البقرة أن قتيلا ثريا وجد يوما فى بنى اسرائيل ، واختصم أهله ولم يعرفوا قاتله ، وحين أعياهم الأمر لجأوا لموسى ، ويبدو ان هذا القتل كان رجلا له مركزه فى بنى اسرائيل ، ويبدو ان خفاء قتله كان دائما لشيء يشبه الفتنة ، ولجأ بنو اسرائيل لموسى ليلجأ لربه .. ولجأ موسى لربه فأمره أن يأمر قومه أن يذبحوا بقرة .. وكان المفروض هنا أن يذبح القوم أول بقرة تصادفهم .. غير أنهم بدأوا مفاوضاتهم باللجاجة .. اتهموا موسى بأنه يسخر منهم ويتخذهم هزوا ، واستعاذ موسى بالله ان يكون من الجاهلين ويسخر منهم .. أهمهم أن حل القضية يكمن فى ذبح بقرة ..

ان الأمر هنا أمر معجزة ، لا علاقة لها بالمألوف فى الحياة ، أو المعتاد بين الناس ..

ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل فى الجريمة الغامضة التى وقعت ، لكن متى كانت الأسباب المنطقية هى التى تحكم حياة بنى اسرائيل ، ان المعجزات الخارقة هى القانون المسائد فى حياتهم ، وليس استمرارها فى حادث البقرة أمرا يوحى بالعجب أو يثير الدهشة ..

لكن بنى اسرائيل هم بنو اسرائيل .. مجرد التعامل معهم عنت .. مستوى فى ذلك الأمور الدنيوية المعتادة ، وشئون العقيدة الهامة .. لابد أن يعانى من يتصدى لأمر من أمور بنى اسرائيل ، وهكذا يعانى موسى من ايذائهم له واتهامه بالسخرية منهم ، ثم ينبئهم انه جاد فيما حدثهم به ، ويعاود أمره ان يذبحوا بقرة ، وتعود الطبيعة المراوغة لبنى اسرائيل الى الظهور ، تعود اللجاجة والالتواء ، فيتساءلون : أهى بقرة عادية كما عهدنا من هذا الجنس من الحيوان ؟ .. أم انها خلق آخر تفرد بمزية ، فليدع موسى ربه ليبين لهم ما هى .. ويدعو موسى ربه فيزداد التشديد عليهم ، وتحدد البقرة أكثر من ذى قبل ، بأنها بقرة وسط .. ليست بقرة مسنة ، وليست بقرة فتية .. بقرة متوسطة .. الى هنا كان ينبغى ان ينتهى الأمر ، غير ان المفاوضات لم تزل مستمرة ، ومراوغة بنى اسرائيل لم تزل هى التى تحكم مائدة المفاوضات .. والأسئلة الغريبة لم تزل تترى .. ما هو لون هذه البقرة ؟ .. لماذا يدعو موسى ربه ليسأله عن لون هذه البقرة ؟ .. لا يراعون مقتضيات الأدب والوقار اللازمين فى حق الله تعالى وحق نبيه الكريم ، وكيف أنهم ينبغى ان يخلعوا من تكليف موسى بهذا الاتصال المتكرر حول موضوع بسيط لا يستحق كل هذه اللجاجة والمراوغة .. ويسأل موسى ربه ثم يحدثهم عن لون البقرة المطلوبة .. فيقول انها بقرة صفراء ، فاقع لونها ، تسر الناظرين ..

وهكذا حددت البقرة بأنها صفراء ، لونها مشرب بحمرة ، ورغم وضوح الأمر ، فقد عادوا الى اللجاجة والمراوغة ، فشدد الله عليهم كما شددوا على نبيه وآذوه .. عادوا يسألون موسى أن يدعو الله ليبين ما هى ، فان البقر تشابه عليهم .. وحدثهم موسى عن بقرة ليست معدة لحرث ولا لسقى ، سلمت من العيوب ، صفراء لاشية فيها ، بمعنى خالصة الصفرة .. انتهت بهم اللجاجة الى التشديد .. وبدأوا بحثهم عن بقرة بهذه الصفات الخاصة ..

أخيرا وجدوها عند يتيم فاشتروها منه وذبحوها .. وأمسك موسى ذيل البقرة وضرب به القتل فنهض من موته .. سألته موسى عن قتاله فحدثهم عنه ثم عاد الى الموت ..

وشاهد بنو اسرائيل معجزة احياء الموتى امام أعينهم ، استمعوا بأذانهم الى اسم الثاثل .. انكشف غموض القضية التي حيرتهم زمنا طالا بسبب لجأجتهم وتعنتهم ..

قال تعالى :

« واذ قال موسى لقومه : ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة ، قالوا انتخذنا هزوا ، قال : اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال : انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال : انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهندون . قال : انه يقول انها بقرة لا ذلول تثر الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ، قالوا : الان جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . واذ قتلتم نفسا فادارتم فيها : والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » [١] .. [سورة البقرة] ..

نود ان نلفت انتباه القارئ الى سوء ادب القوم مع نبيهم وربهم ، ولعل السياق القرآني يورد ذلك عن طريق تكرارهم لكلمة « ربك » التي يخاطبون بها موسى .. وكان الاولى بهم ان يقولوا لموسى ، تأدبا ، لو كان لابد ان يقولوا :

— ادع لنا ربنا ..

أما ان يقولوا له :

— ادع لنا ربك ..

فكانهم يقصرون ربوبية الله تعالى على موسى .. ويخرجون أنفسهم من شرف العبودية لله .. انظر الى الآيات كيف توحى بهذا كله .. ثم تأمل سخرية السياق منهم لمجرد ايراده لقولهم :

« الآن جئت بالحق » [٢] ..

بعد ان ارهقوا نبيهم ذهابا وجيئة بينهم وبين الله عز وجل ، بعد ان ارهقوا نبيهم بسؤاله عن صفة البقرة ولونها وسنها وعلاماتها المميزة ، بعد تعنتهم وتشديد الله عليهم ، يقولون لنبيهم حين جاءهم بما يندر وجوده ويندر العثور عليه فى البقر عادة ..

ساعتها قالوا له : « الآن جئت بالحق » .. كأنه كان يلعب قبلها معهم ، ولم يكن ما جاء به هو الحق من اول كلمة لآخر كلمة ..

(١) الآيات من ٦٧ الى ٧٣ مدنية .

(٢) من الآية ٧١ الى ٧٣ مدنية .

ثم انظر الى ظلال السياق وما تشئ به من ظلمهم :

« فذبحوها وما كادوا يفعلون » [١] ..

الا توحى لك ظلال الآيات بتعنتهم وتسويقهم ومماراتهم ولجاجتهم فى الحق .. هذه اللوحة الرائعة تشئ بموقف بنى اسرائيل على موائد المفاوضات ..

هى صورتهم على مائدة المفاوضات مع نبيهم الكريم موسى ..

.....

قاسى موسى من قومه أشد المقاساة ، وعانى عناء عظيما ، واحتمل فى تبليغهم رسالته ما احتمل فى سبيل الله ..

ولعل مشكلة موسى الأساسية انه بعث الى قوم طال عليهم العهد بالهوان والذل ، وطال بقاؤهم فى جو يخلو من الحرية ، وطال مكثهم وسط عبادة الأصنام ، ولقد نجحت المؤثرات العديدة المختلفة فى ان تخلق هذه النفسية المتوترة الخائرة المهزومة التى لا تصلح لشيء .. الا أن تعذب أنبياءها ومصليها ..

وتد عذب بنو اسرائيل موسى عذابا نستطيع — نحن أبناء هذا الزمان — أن ندرك وقعته على نفس موسى النقية الحساسة الكريمة .

ولم يقتصر العذاب على العصيان والغباء واللجاجة والجهل وعبادة الأوثان ، وانما تعدى الأمر الى اىذاء موسى فى شخصه ..

قال تعالى فى سورة الاحزاب :

« يا ايها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله مما

قالوا وكان عند الله وجيها » [٢] ..

ونحن لا نعرف كنه هذا الايذاء ، ونستبعد رواية العلماء التى يقولون فيها ان موسى كان رجلا حيبا يستتر دائما ولا يحب أن يرى أحد من الناس جسده فانتهمه اليهود بأنه مصاب بمرض جلدى أو برص ، فأراد الله أن يبرئه مما قالوا ، فذهب يستحم يوما ووضع ثيابه على حجر ، ثم خرج فاذا الحجر يجرى بثيابه وموسى يجرى وراء الحجر عاريا حتى شاهده بنو اسرائيل عاريا وليس بجلده عيب .. نستبعد هذه القصة لتهافتها ، فانها الى جوار خرافة جرى الحجر بملابسه ، لا تعطى موسى حقه من التوقير ، وهى تتساقط مع عصمته كنبى .. ونعتقد ان اليهود آذوا موسى اىذاء نفسيا ، هذا هو الايذاء الذى يدمى النفوس الكريمة ويجرحها حقا ، ولا نعرف كيف كان هذا الايذاء ، ولكننا نستطيع تخيل المدى العبرى الآثم الذى يستطيع بلوغه بنو اسرائيل فى اىذائهم لموسى ..

ولعل أعظم اىذاء لموسى ، كان نكول بنى اسرائيل عن القتال من أجل نشر عقيدة التوحيد فى الأرض ، أو على أقل تقدير ، السماح لهذه العقيدة أن

(١) من الآية ٧١ سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ٦٩ سورة الاحزاب مدنية .

تستقر على الأرض فى مكان ، وتأمين على نفسها ، وتمارس تعبدها فى هددوء ..

لقد رفض بنو اسرائيل القتال .. وقالوا لموسى كلمتهم الشهيرة :

« اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » [١] ..

وبهذه النفسية .. حكم الله عليهم بالتيه .. وكان الحكم يحدد اربعين عاما كاملة ، وقد مكث بنو اسرائيل فى التيه اربعين سنة ، حتى فنى جيل باكملة .. فنى الجيل الخائر المهزوم من الداخل ، وولد فى ضياع الشتات وقسوة التيه ، جيل جديد .. جيل لم يترب وسط مناخ وثنى ، ولم يشعل روحه انعدام الحرية .. جيل لم ينهزم من الداخل ، جيل لم يعد يستطيع الأبناء فيه ان يفهموا لماذا يطوف الآباء هكذا بغير هدف فى تيه لا يبدو له أول ولا تستبين له نهاية .. الا خشية من لقاء العدو .. جيل صار مستعدا لدفع ثمن آدميته وكرامته من دمائه .. جيل لا يقول لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون ..

جيل آخر يتبنى قيم الشجاعة العسكرية ، كجزء هام من نسيج أى ديانة من ديانات التوحيد ..

اخيرا ولد هذا الجيل وسط تيه الاربعين عاما ..

ولقد قدر لموسى .. زيادة فى معاناته ، ورفعا لدرجته عند الله تعالى .. قدر له الا تكتحل عيناه بهراى هذا الجيل ..

فقد مات موسى ، عليه الصلاة والسلام ، قبل ان يدخل بنو اسرائيل الأرض التى كتب الله عليهم دخولها ..

قال الله تبارك وتعالى عن موسى فى سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب موسى ، انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » [٢] ..

وقال تعالى عنه فى سورة الاعراف بعد طلب رؤية الله :

« قال : يا موسى : انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » [٣] ..

وقال عز وجل عنه فى سورة النساء :

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما » [٤] ..

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

(٢) الآيات ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ سورة مريم مكية .

(٣) الآية ١٤٤ سورة الاعراف مكية .

(٤) الآية ١٦٤ سورة النساء مدنية .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان قومه يؤذونه في الله :
قد أودى موسى بأكثر من ذلك فصبر ..

.....

مات هارون قبل موسى بزمن قصير ..

واقترب أجل موسى ، عليه الصلاة والسلام .. وكان لم يزل في التيه ..
قال يدعو ربه : رب أدننى الى الأرض المقدسة رمية حجر ..

أحب أن يموت قريبا من الأرض التي هاجر اليها .. وحث قومه عليها ..
ولكنه لم يستطع ، ومات في التيه .. ودفن عند كتيب أحمر حدث عنه آخر
أنبياء الله في الأرض حين أسرى به .. قال محمد ، صلى الله عليه وسلم :
لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكتيب الأحمر ..

.....

تروى الأساطير عديدا من الحكايات حول موت موسى ، وتحكى انه ضرب
ملك الموت حين جاء يستل روحه ، ففقت عينه .. وأمثال هذه الخرافات كثيرة
.. ومن المؤسف أن يتداولها علماء لهم احترامهم ، وان كانوا لا يميزون بين
الذهب والتراب ، فهم يبدون كحاطب ليل يضم الغث الى النقيس ، ويكوم
الهرأ على الحقائق حتى لتختفى الحقائق ..

مات موسى عليه الصلاة والسلام ، ميتة طيبة كريمة ، اغلب الظن أنه
اشتاق الى رؤية الله عز وجل ، وقد دفعه الحب الى طلبها فى حياته ،
وها هى فرصته تزيد فيها بعد موته ..

وأذن يستقبل كلهم الله موته بنفس راضية وقلب مطمئن وروح تهنو الى
الحق وتتعجل لقاءه وتستبشر ..

عليه الصلاة والسلام ..

الخضر

[عليه الصلاة والسلام]

من أعجب قصص القرآن وأعظمه غموضا ، قصة عبد آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما ..
ترد القصة فى سورة الكهف .. وتبدأ بهذه الآيات التى تحكى عن موسى ما عقد عليه نيته ..

« واذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى

حقيقا » [١] ..

الكلمة الغامضة تشير الى ان موسى قد عقد عزمه على الاستمرار فى السير أحقابا طويلة ، الا اذا بلغ مجمع البحرين ..
ثمة موعد هام ينتظره موسى عند مجمع البحرين ..
تأمل غموض المكان ..

أجهد المفسرون انفسهم طويلا لتبديد الضباب المحيط بهذا المكان ، فقيل انه بحر فارس والروم ، وقيل بل بحر الأردن أو القلزم ، وقيل عند طنجة ، وقيل فى أفريقيا ، وقيل هو بحر الأندلس .. ولا يقوم الدليل على صحة مكان من هذه الأمكنة ، ولو كان تحديد المكان مطلوبا لحدده الله تعالى .. وإنما أبهم السياق القرآنى المكان ، كما أبهم الزمان ، كما ضيب أسماء الأشخاص لحكمة عليا ..

ان القصة تتعلق بعلم ليس هو علمنا القائم على الأسباب .. وليس هو علم الأنبياء القائم على الوحي .. إنما نحن أمام علم من طبيعة غامضة أشد الغموض .. علم القدر الأعلى ، وذلك علم أسدلت عليه الأستار الكثيفة ..
مكان اللقاء مجهول كما رأينا ..

وزمان اللقاء غير معروف هو الآخر .. لا نعرف متى تم لقاء موسى بهذا العبد ..

وهكذا تمضى القصة بغير ان تحدد لك سطورها مكان وقوع الأحداث ، ولا زمانه ، يخفى السياق القرآنى أيضا اسم أهم أبطالها ..

(١) الآية ٦٠ سورة الكهف مكة .

يشير اليه الحق تبارك وتعالى بقوله :

« عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا علما » [١]

هو عبد أخفى السياق القرآنى اسمه ..

هذا العبد هو الذى يبحث عنه موسى ليتعلم منه ..

ان موسى كليم الله عز وجل ، وأحد أولى العزم من الرسل ، وصاحب معجزة العصا واليد ، والنبي الذى انزلت عليه التوراة دون واسطة ، وانما كلمه الله تكليما .. هذا النبي العظيم يتحول فى القصة الى طالب علم متواضع يحتمل استناذه ليتعلم .. ومن يكون معلمه غير هذا العبد الذى يتجاوز السياق القرآنى اسمه ، وان حدثنا السنة المطهرة انه هو الخضر .. عليه السلام ..

ويسير موسى مع العبد الذى يتلقى علمه من الله بغير أسباب التلقى التى نعرفها ، فى البداية يرفض الخضر صحبة موسى .. يفهمه انه لن يستطيع معه صبيرا ..

ثم يوافق على صحبته بشرط .. الا يسأله موسى عن شيء حتى يحدثه الخضر عنه ..

والخضر هو الصمت المبهم ذاته ، انه لا يتحدث ، وتصرفاته تثير دهشة موسى العميقة ، ان هناك تصرفات يأتيها الخضر وترتفع أمام عينى موسى حتى لتصل الى مرتبة الجرائم والكوارث .. وهناك تصرفات تبدو لموسى بلا معنى .. وتثير تصرفات الخضر دهشة موسى ومعارضته .. ورغم علم موسى ومرتبته ، فانه يجد نفسه فى حيرة عميقة من تصرفات هذا العبد الذى آتاه الله من لدنه علما ..

ان علم موسى بالشريعة ، يقف حائرا أمام علم هذا العبد بالحقيقة .. كان الشريعة جزء من الحقيقة ، وأحيانا تكون الحقيقة غامضة أعظم الغموض ، خفية أشد الخفاء ، حتى لتستعصى على فهم الأنبياء ..

ان السحاب الكثيف الذى أحاط بهذه القصة فى القرآن ، قد تساقط فيها بعد أمطارا غزيرة شربت منها كل المذاهب الصوفية فى الاسلام ، بل لقد نشأ الاعتقاد فى وجود عباد لله ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، ويغبطهم الأنبياء والشهداء على علمهم ، نشأ هذا الاعتقاد من هذه القصة ..

وقد اختلف العلماء فى الخضر ، فيهم من يعتبره وليا من أولياء الله ، وفيهم من يعتبره نبيا .. وقد نسجت الأساطير نفسها حول حياته ووجوده ، فقيل انه لا يزال حيا الى يوم القيامة ، وهى قضية لم ترد بها نصوص أو آثار يوثق فيها ، فلا نقول فيها الا انه مات كما يموت عباد الله .. وتبقى قضية ولايته ، أو نبوته .. وهى قضية محيرة حقا .. نرجئها حتى ننظر فى قصته كما أوردها القرآن الكريم ..

.....
(١) من الآية ٦٥ سورة الكهف مكة .

قام موسى خطيبا فى بنى اسرائيل ، يدعوهم الى الله ويحدثهم عن الحق ،
ويبدو ان حديثه جاء جامعا مانعا ، رائعا ، فبدأ كما لو كان يلخص حكمة
الدنيا فى السطور المضيئة التى فاه بها .. بعد ان انتهى من خطابه سأله
أحد المستمعين من بنى اسرائيل :

— هل على وجه الارض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟

قال موسى مندفعاً : لا ..

وساق الله تعالى عتابه لموسى حين لم يرد العلم اليه ، فبعث اليه جبريل
يسأله :

□ يا موسى .. ما يدريك أين يضع الله علمه ..

أدرك موسى انه تسرع .. وعاد جبريل ، عليه السلام ، يقول له :

□ ان لله عبدا بجمع البحرين هو أعلم منك ..

تأقت نفس موسى الكريمة الى زيادة العلم ، وانعدت نيته على الرحيل
لمصاحبة هذا العبد العالم .. سأل كيف السبيل اليه .. فأمر أن يرحل ، وأن
يحمل معه حوتا فى مكنل ، أى سمكة فى سلة .. وفى المكان الذى ترتد فيه
الحياة لهذا الحوت ويتسرب فى البحر ، سيجد العبد العالم ..

انطلق موسى — طالب العلم — ومعه فتاه .. وقد حمل الفتى حوتا فى
سلة ..

انطلقا بحثا عن العبد الصالح العالم ..

ان المكان الذى يبحثان عنه غامض .. والأمر معلق بمعجزة ارتداد الحياة
للسمكة القابعة فى السلة وتسربها الى البحر .. وكل شىء مضرب .. ولكن
موسى يعمد عزمه على العثور على هذا العبد العالم ولو اضطره الأمر الى
أن يسير أحقابا وأحقابا ..

« واذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى

حقباً » [١] ..

قال موسى لفتاه : لا أكلفك الا ان تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ..

قال فتاه : ما كلفتنى بشىء كبير ..

وصل الاثنان الى صخرة جوار البحر .. رقد موسى واستسلم للنعاس ،
وبقى الفتى ساهرا .. والقت الرياح احدى الامواج على الشاطئ ، فأصاب
الحوت رذاذ فدبت فيه الحياة وقفز الى البحر .. واتخذ سبيله فى البحر
سريرا ..

وكان تسرب الحوت الى البحر علامة أعلم الله بها موسى لتحديد مكان لقائه
بالرجل الحكيم الذى جاء موسى يتعلم منه ..

نهض موسى من نومه فلم يلاحظ ان الحوت تسرب الى البحر .. ونسى

(١) الآية ٦٠ سورة الكهف مكة .

فتاه الذى يصحبه أن يحدثه عما وقع للحوت .. وسار موسى مع فتاه بقية يومها ، وقد نسيا حوتهما ..

ثم تذكر موسى غداه وحل عليه التعب ..

قال لفتاه : آتينا غداً لنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ..

ولع فى ذهن الفتى ما وقع ..

ساعتئذ تذكر الفتى كيف تسرب الحوت الى البحر هناك .. وأخبر موسى بما وقع ، واعتذر اليه بأن الشيطان أنساه أن يذكر له ما وقع ، رغم غرابية ما وقع ، فقد اتخذ الحوت سبيله فى البحر عجباً .. كان أمراً عجيباً ما رآه فتى موسى .. لقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة وكأنه طير يتلوى على الرمال ..

سعد موسى من مروق الحوت الى البحر ، وقال : ذلك ما كنا نبغ .. هذا ما كنا نريده ..

ان تسرب الحوت يحدد المكان الذى سنلتقى فيه بالرجل العالم .. ويرتد موسى وفتاه يقصان أثرهما عائدين ..

أنظر الى بداية القصة ، وكيف تجيء غامضة أشد الغموض ، مبهمة أعظم الإبهام .. لا تكاد ترفع ستارا أمامك حتى تكتشف وجود أستار أخرى ..

أخيراً وصل موسى الى المكان الذى تسرب منه الحوت .. وصلا الى الصخرة التى ناما عندها ، وتسرب عندها الحوت من السلة الى البحر .. وهناك وجدا رجلا ..

لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شكله ، ولا ندرى عن ملابسه شيئاً .. ولا نعرف سنه أو ملامحه ، كل ما ندرى عنه هو هذا الوصف الداخلى البحت الذى يصفه به السياق القرآنى ..

« فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا

علماً » [١] ..

هذا هو الجانب الهام فى القصة .. ان القصة كلها تقع داخل النفوس ، وليس رسم الاطار أو تحديد الملامح والظلال بأمر ذى بال ..

قال تعالى :

« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سرباً .

فلما جاؤزا قال لفتاه آتينا غداً لنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

قال أرايت اذ أوينا الى الصخرة فاتى نسييت الحوت ، وما أنسانيه

الا الشيطان ان أنكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجباً . قال ذلك

ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصاً . فوجدنا عبداً من عبادنا

آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » [٢] ..

.....

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

(٢) الآيات من ٦١ الى ٦٥ سورة الكهف مكية .

يقول البخارى ان موسى وفتاه وجدا الخضر على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه .. وقد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه .. فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال :

— هل بأرضك سلام .. من أنت ؟

قال موسى : انا موسى ..

قال الخضر : موسى بنى اسرائيل .. عليك السلام يا نبي بنى اسرائيل ..

قال موسى : وما ادراك بى ... ؟

قال الخضر : الذى ادراك بى وذلك على .. ماذا تريد يا موسى ... ؟

قال موسى ملاطفا مبالغا فى التوفير : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ... ؟

قال الخضر : أما يكفيك ان التوراة بيديك .. وان الوجى يأتيك .. يا موسى انك لن تستطيع معى صبورا ..

نريد ان نتوقف لحظة لنلاحظ الفرق بين سؤال موسى الملائف المغالى فى الأدب .. ورد الخضر الحاسم ، الذى يفهم موسى ان علمه لا ينبغي لموسى أن يعرفه ، كما أن علم موسى هو علم لا يعرفه الخضر .. يقول المفسرون أن الخضر قال لموسى : ان علمى أنت تجهله .. ولن تطيق عليه صبورا ، لأن الظواهر التى ستحكم بها على علمى لن تشفى قلبك ولن تعطيك تفسيراً ، وربما رأيت فى تصرفاتى ما لا تفهم له سبباً أو تدرى له علة .. واذن لن تصبر على علمى يا موسى ..

احتمل موسى كلمات الصد القاسية وعاد يرجوه أن يسمح له بمصاحبته والتعلم منه .. وقال له موسى فيما قال انه سيجده ان شاء الله صابرا ولا يعصى له أمرا ..

تأمل كيف يتواضع موسى كليم الله ويؤكد للعبد المدثر بالخفاء انه لن يعصى له أمرا ..

قال عبد الله الذى لا يثنى السياق القرآنى باسمه ، قال لموسى ان هناك شرطا يشترطه لقبول أن يصاحبه موسى ويتعلم منه . استفسر موسى عن هذا الشرط فحدده العيد الصامت العالم بالصمت .. الا يسأل موسى عن شيء حتى يحدثه عبد الله عنه ..

وافق موسى على الشرط وانطلقا ..

انظر قوله تعالى فى سورة الكهف :

« قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال :

انك لن تستطيع معى صبورا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ .

قال : ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال : فان

اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » [١] ..

(١) الآيات من ٦٦ الى ٧٠ سورة الكهف مكية .

اتطلق موسى مع الخضر يمشيان على ساحل البحر .. مرت سفينة فكلوهم ان يحملوهم ، وعرف اصحاب السفينة الخضر فحملوه وحملوا موسى بغير أجر ، اكراما للخضر ، وفوجيء موسى حين رست السفينة وغادرها اصحابها وركابها .. فوجيء ان الخضر يتخلف فيها ، لم يكدها اصحابها بيتعدون حتى بدأ الخضر يخرق السفينة .. اقتلع لوحا من الواحها والقاء في البحر فحملته الأمواج بعيدا ..

كان موسى يصاحب الخضر ويرقب تصرفاته ويفكر ..

— ما الذي جئت أصنعه هنا بمصاحبة هذا الرجل ؟ .. لماذا لم أبق في بنى اسرائيل أتلو عليهم كتاب الله فيطيعوني .. لقد حملنا اصحاب السفينة بغير أجر .. أكرمونا .. وها هو معلمى يخرقها ويفسدها ..

كان التصرف من وجهة نظر موسى شيئا معيبا .. وغلبت طبيعة موسى المندفعة عليه ، كما حركته غيرته على الحق ، فاندفع يحدث أستاذه ومعلمه وقد نسي شرطه الذى اشترطه عليه ..

قال : أخرقتها لتغرق أهلها .. لقد جئت شيئا امرا .

وهنا يلفت العبد الربانى نظر موسى الى عبث محاولة التعلم منه ، لأنه لن يستطيع الصبر عليه ، ويعتذر موسى بالنسيان ويرجوه ألا يؤاخذة وألا يرهقه .. ويسيران معا .. يمران على حديقة يلعب فيها الصبيان .. حتى اذا تغبوا من اللعب انتحى كل واحد منهم ناحية واستسلم للنماس .. فوجيء موسى أن العبد الربانى يقتل غلاما .. ويثور موسى سائلا عن الجريمة التى ارتكبها هذا الصبى ليقتله هكذا .. ويعاود العبد الربانى تذكيره انه أفهمه انه لن يستطيع الصبر عليه .. ويعتذر موسى بأنه نسى ولن يعاود الأسئلة ، ويسأله العبد الربانى .. ماذا لو عاود الأسئلة ولم يلجأ الى الصمت كما اتفقنا ؟

ويقول موسى : يكون هذا آخر عهدى بمصاحبتك ..

ويهمى العبد ، ويمضى معه موسى ..

يدخلان قرية بخيلة ، لا يعرف موسى لماذا ذهبا الى القرية ، ولا يعرف لماذا يبيتان فيها .. نفذ ما معها من الطعام ، فاستطعما أهل القرية فأبوا ان يضيفوهما .. وجاء عليهما المساء ، وأوى الاثنان الى خلاء فيه جدار يريد أن ينقض .. جدار يتهاوى ويكاد أن يهجم بالسقوط .. وفوجيء موسى بأن الرجل العابد ينهض ليقتضى الليل كله فى اصلاح الجدار وبنائه من جديد .. ويندهش موسى من تصرف رفيقه ومعلمه ، ان القرية بخيلة ، لا يستحق من فيها هذا العمل المجانى ..

قال : لو شئت لاتخذت عليه اجرا ..

انتهى الأمر بهذه العبارة ..

قال عبد الله لموسى : هذا فراق بينى وبينك ..

لقد حذر العبد الربانى موسى من مغبة السؤال ، وأنذره أن يكون السؤال الثالث هو خاتمة اللقاء ..

ويكشف العبد الرباني لموسى عن السر الذى غمض عليه وحيره ، ودفعه الى الاسئلة ..

ان كل تصرفات العبد الرباني التى أثارت موسى وحيرته لم يكن حين فعلها تصدر عن أمره ..

كان ينفذ ارادة عليا .. وكانت لهذه الارادة العليا حكمتها الخافية ، وكانت التصرفات تثنى بالقسوة الظاهرة ، بينما تخفى حقيقتها رحمة حانية .. وهكذا تخفى الكوارث أحيانا فى الدنيا جوهر الرحمة ، وترتدى النعم ثياب المصائب وتجيد التكر ، وهكذا يتناقض ظاهر الأمر وباطنه ، ولا يعلم موسى ، رغم علمه الهائل غير قطرة من علم العبد الرباني ، ولا يعلم العبد الرباني من علم الله الا بمقدار ما يأخذ العصفور الذى يبلى منقاره فى البحر ، من ماء البحر ..

قال تعالى :

((فانطلقا ، حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لتفريق أهلها ؟ لقد جئت شيئا أمرا . قال : ألم أقل انك لن تستطیع معى صبرا ؟ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا ، حتى اذا لقيا غلاما فقتله ، قال : اقتلت نفسا زكية بغير نفس ! لقد جئت شيئا نكرا .. قال : ألم أقل لك انك لن تستطیع معى صبرا ؟ . قال : ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا ، حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها حدارا يريد أن ينقض فأفاهمه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : هذا فراقى بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة : فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام : فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما . وأما الحدار : فكان لفلانين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا)) [١] ..

كشفت العبد الرباني لموسى شيئين فى نفس الوقت ..

كشفت له أن علمه [أى علم موسى] محدود .. كما كشف له أن كثيرا من المصائب التى تقع على الأرض تخفى فى رداؤها الأسود الكئيب رحمة عظمى .. ان أصحاب السفينة سيعتبرون خرق سفينتهم مصيبة جاءتهم ، بينما هى نعمة تتخفى فى زى المصيبة .. نعمة لن تكشف النقاب عن وجهها الا بعد أن تنشب الحرب ويصادر الملك كل السفن الموجودة غصبا ، ثم يفلت هذه السفينة التالفة العمية .. وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو ، فلا يموتون جوعا ..

(١) الآيات من ٧١ الى ٨٢ سورة الكهف مكة .

ايضا سيعتبر والد الطفل المقتول وامه ان كارثة قد دهمتهما لقتل وحيدهما الصغير البريء .. غير ان موته يمثل بالنسبة لهما رحمة عظيمة ، فان الله سيعطيها بدلًا منه غلامًا يرعاها في شيخوختها ولا يرهقها طغيانًا وكفرا كالغلام المقتول ..

وهكذا تخفى النعمة في ثياب المحنة ، وترتدى الرحمة فتاع الكارثة ، ويختلف ظاهر الأشياء عن باطنها حتى ليحتج نبي الله موسى على تصرفه بجرى أمامه ، ثم يلفته عبد من عباد الله الى حكمة التصرف ومغزاه ورحمة الله الكلية التي تخفى نفسها وراء ألقنة عديدة ..

.....

عاد موسى الى فتاه وصحبه عائدا الى بنى اسرائيل ..

يمتلئ موسى الآن بيقين الصوفيين الهادئ .. لقد تعلم منهم شيئين : الا يغتر بعلمه في الشريعة ، فهناك علم الحقيقة .. والا يتجهم قلبه لصائب البشر ، فربما تكون يد الرحمة الخالقة تخفى سرها من اللطف والانتقاد ، والابتناس وراء ألقنة الحزن والآلام والموت ..

.....

هذا هو الدرس الذي تعلمه موسى كليم الله عز وجل ورسوله من هذا العبد المدثر بالخفاء ، لقد خرجت شخصية هذا العبد الرياني من ضباب الزمن ثم عادت تخفى كما جاءت في ضباب الزمن .. بعد ان مضى العبد اكتشف موسى انه اطلع على بحر جديد من العلم ليس هو بحر الشريعة الذي يشرب منه انبياء الله ، عليهم صلاة الله وسلامه ..

نحن أمام بحر الحقيقة هنا ..

أمام علم القدر الأعلى ..

أمام هذا العلم الذي لا يمكن النظر فيه بعقولنا البشرية ، أو منطلقنا المعتاد في النظر الى العلوم .. فليس هذا العلم هو العلم التجريبي الذي نعرفه على الأرض ، وليس هو بعلم الأنبياء الذي يوحى الله به اليهم ، انما نحن أمام نوع من العلم جديد ..

من يكون صاحب هذا العلم اذن ... ؟

أهو ولى أو نبي ... ؟

يرى كثير من الصوفية ان هذا العبد الرياني ولى من أولياء الله تعالى ، اطلعه الله على جزء من علمه اللدني بغير أسباب انتقال العلم المعروفة .

ويرى بعض العلماء ان هذا العبد الصالح كان نبيا ..

ويحتج أصحاب هذا الرأي بأن سياق القصة يدل على نبوته من وجوه :

١ — أحدهما قوله تعالى :

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا

علماء « [1] » ..

٢ — والثاني قول موسى له :

« هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا ؟ . قال : انك لن تستطيع معي صبرا . وكيف نصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ . قال : ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا . قال : فان اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » [٢] ..

فلو كان وليا ولم يكن نبيا ، لم يخاطبه موسى هذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد . ولو أنه كان غير نبيا ، لكان هذا معناه انه ليس معصوما ، ولم يكن هناك دافع لموسى ، وهو النبي العظيم ، وصاحب العصمة ، ان يلتبس علما من ولي غير واجب العصمة ... ؟

٣ — والثالث ان الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام بوحي من الله وأمر منه .. وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلد ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة .. اذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق .. واذن ففي اقدام الخضر على قتل الغلام دليل على نبوته ..

٤ — والرابع قول الخضر لموسى :

« رحمة من ربك وما فعلته عن امرى » [٣] ..

يعنى ان ما فعلته لم افعله من تلقاء نفسى ، بل أمر أمرت به من الله وأوحى الى فيه ..

هذه آراء العلماء والزهاد .. اختار العلماء أن يكون الخضر نبيا ، واختار العباد والزهاد والصوفية أن يكون وليا من أولياء الله ..

ومن كلمات الخضر التي أوردتها الصوفية عنه .. قول وهب بن منبه : قال الخضر : يا موسى ان الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها ..

وقول بشر بن الحارث الحافى .. قال موسى للخضر : أوصنى .. قال الخضر : يسر الله عليك طاعته ..

وتخاصم العلماء والزهاد حول الخضر .. فادعاه كل فريق لنفسه ..

ونشأ هذا الخصام من اعتبار العلماء أنفسهم ورثة الأنبياء ، وأهل الشريعة ، ومن اعتبار الصوفية لأنفسهم أهل الحقيقة ، التي كان يمثلها الخضر ..

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

(٢) الآيات ٦٦ الى ٧٠ سورة الكهف مكية .

(٣) من الآية ٨٢ سورة الكهف مكية .

ونمسك نحن عن رأينا فيه ، حيرة وعجزا عن الوصول الى يقين . . فنحن نميل الى اعتباره نبيا لعلمه اللدني ، غير أننا لا نجد نصا في سياق القرآن على نبوته ، ولا نجد نصا مانعا من اعتباره وليا آتاه الله بعض علمه اللدني . .

ولعل هذا الغموض حول شخصه الكريم جاء متعمدا ، ليقدم الهدف الأصلي للتصية . . ولسوف نلزم مكانا فلا نتعداه ونختصم حول نبوته أو ولايته . . وأن أوردناه في سياق أنبياء الله ، لكونه معلما لموسى . . وأستاذنا له فترة من الزمن . .

أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى

لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى .. سوى اثنين .. هما
الرجلان الذان أشارا على ما لبني إسرائيل بدخول قرية الجبارين .
ويقول المفسرون : ان أحدهما يوشع بن نون .
وهذا هو فتى موسى فى قصته مع الخضر .. صار الآن نبيا من
أنبياء بني إسرائيل ، وقائدا لجيش يتجه نحو الأرض التى أمرهم الله بدخولها ..
وكان الله قد أمر موسى أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقيباً ..
كما قال تعالى :

« ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ،
وقال الله : انى معكم ، لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم
برسالى وعزرتهم وهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا ، لا كفرن عنكم
سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد
ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » [١] .

وهكذا نرى العهد مشروطا بميثاق أخذته الله عليهم ، أن يقاتلوا ولا
يفروا ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا برسله .. ابتداء
من موسى الذى أنزل الله عليه التوراة ، وانتهاء بمحمد الذى بشر الله به
فى التوراة .. حين كانت هى توراة الله الحقبة التى لم تمتد اليها أيدي
التبديل والتحريف .

.....

خرج يوشع بن نون ببني إسرائيل من التيه ، وقصد بهم الأرض
المقدسة .

قطع بهم نهر الأردن وانتهى الى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن
سورا وأعلها قصورا وأكثرها أهلا . فحاصرها ستة أشهر .. ثم
أحاطوا بها يوما وهم يضربونها بالأبواق .. فتفسخ سورها وسقط دفعة

(١) الآية ١١ سورة المائدة مدنية .

واحدة .. وسنلاحظ ان السلاح الذى استخدم فى اول معاركهم كان متقدما لدرجة مذهلة ، فقد استغل المهاجمون قوة الصوت لأول مرة كسلاح . ان ذبذبات الصوت الخارج من الأبواق هى التى حطمت أسوار المدينة ، ولسنا نعلم هل أوحى الله ليوشع بن نون بهذا التصرف ، أم أنه رأى ارتآه القائد ، أم أن الأمر جاء محض مصادفة .. ظلوا ينفخون فى الأبواق والقرون طوال ستة أشهر هى فترة الحصار ، حتى فوجئوا بسقوط الأسوار .

تروى الأساطير هنا حكايات عن الشمس التى توقفت عن الدوران حتى انتهى يوشع بن نون من فتح الأرض المقدسة : وهى أساطير نسجتها الخيلة الشعبية لليهود ، وهى منهافتة الى الحد الذى لا يصمد للنقاش ، فالشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يتوقفان لموت أحد ولا لحياته ، ورغم عظمة الخوارق والمعجزات التى وقعت لبنى اسرائيل ، فقد كانت كلها معجزات لا تتعارض مع ناموس الكون ونظامه .. لم تكن هناك معجزة تتعلق بالشمس أو القمر .. لم تجاوز المعجزات أديم الأرض أو البحر أو الجبل .

.....

صدر الأمر الالهى لبنى اسرائيل أن يدخلوا المدينة سجدا .. أى راكعين مطأئى رؤوسهم شاكرين لله عز وجل ما من به عليهم من الفتح .

أمروا أن يقولوا حال دخولهم ، «حطة» [١] .

بمعنى حط عنا خطايانا التى سلفت ، وجنبنا الذى تقدم من آباءنا .. وخالف بنو اسرائيل ما أمروا به قولا وفعلا .

دخلوا الباب متعالين متكبرين ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم . وأصابهم عذاب من الله بما ظلموا . كانت جريمة الآباء هى الذل ، وأصبحت جريمة الأبناء الكبرياء والافتراء .

قال تعالى :

« واذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث تشتم ، وقولوا حطة ، وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون » [٢] .

ولم تكن هذه الجريمة هى أول جرائم بنى اسرائيل ولا آخر جرائمهم ، فقد عذبوا رسلهم كثيرا بعد موسى ، وتحولت التوراة بين أيديهم الى قراطيس يبدون بعضها ويخفون كثيرا .. وامتد هذا اللعب الى العقيدة .. وسجل القرآن عليهم هذا فى سورة الأنعام :

(١) لفظ من الآية ١٦١ سورة الاعراف مكة .

(٢) الايتان ١٦١ ، ١٦٢ سورة الاعراف مكة .

«وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ،
قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ،
تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم
ولا آباؤكم ، قل : الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » [١] .

وإذا كان الخطاب ينطبق على أحفاد بنى إسرائيل الذين عاشوا في
الجزيرة العربية ، فقد كان واضحا من تاريخ بنى إسرائيل ذاته ، أن التوراة
لم تسلم من هذا العبث ، باخفاء بعضها وإظهار البعض ، حسبما تقضى
الأحوال وتدفع المصلحة المباشرة ، وكان هذا الجحود هو المسئول عما
أصاب بنى إسرائيل من عقوبات .

عاد بنو إسرائيل الى ظلمهم لأنفسهم .. اعتقدوا أنهم شعب الله
المختار ، وتصوروا انطلاقا من هذا الاعتقاد أن من حقه ارتكاب أى شيء
وكل شيء .. وعظمت فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وامتدت الجرائم بعد
كتابهم الى أتبيائهم ، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء ..
« وقتلهم الأنبياء بغير حق [٢] .

وسلط الله عليهم بعد رحمة الأنبياء قسوة الملوك الجبارين ، يظلمونهم
ويسفكون دماءهم ، وسلط الله أعداءهم عليهم ومكن لهم من رقابهم
وأموالهم .. وكان معهم تابوت الميثاق .. وهو تابوت يضم بقية مما
ترك موسى وهارون ، ويقال ان هذا التابوت كان يضم ما بقى من
الواح التوراة التى أنزلت على موسى ونجت من يد الزمان .. وكان لهذا
التابوت بركة تمتد الى حياتهم وحروبهم ، فكان وجود التابوت بينهم فى
الحرب .. يمددهم بالسكينة والثبات ، ويدفعهم الى النصر ، فلما ظلموا
أنفسهم ورفعت التوراة من قلوبهم لم يعد هناك معنى لبقاء نسختها معهم ،
وهكذا ضاع منهم تابوت العهد ، ضاع فى حرب من حروبهم التى
هزموا فيها .

وساءت أحوال بنى إسرائيل بسبب ذنوبهم وتعنتهم وظلمهم
لأنفسهم ..
ومرت سنوات وسنوات ..

واشتدت الحاجة الى ظهور نبي ينتشلهم من الوهدة السحيقة التى
أوصلتهم اليها فواجه الآثام وكبائر الخطايا .

(١) الآية ٩١ سورة الانعام مكة والآية مدنية .
(٢) من الآية ١٥٥ سورة النساء مدنية .

داود

[عليه الصلاة والسلام]

مرت سنوات عديدة على وفاة موسى عليه السلام ، وجاء بعده
أنبياء وماتوا .. وانهزم أبناء اسرائيل بعد موسى . وضاع منهم كتابهم
المقدس وهو التوراة .. حين غربت التوراة من الصدور ، نزعنا من
الأيدي ..

استولى أعداؤهم على تابوت العهد وفيه بقية مما ترك آل موسى
وهارون . وتشرد بنو اسرائيل وطردوا من ديارهم وأرضهم وساعت
حالهم . وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم الا امرأة حامل ،
جعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا . فولدت غلاما سميته
أشمونيل .. ومعناه بالعبرانية اسماعيل .. أى سمع الله دعائى .. فلما
ترعرع بعثته الى المسجد وأسلمته لرجل صالح ليتعلم منه الخير والعبادة .
فكان عنده ، فلما بلغ أشده ، بينما هو ذات ليلة نائم : اذا صوت يأتيه من
ناحية المسجد فانتبه مذعورا ظانا أن الشيخ يدعو ، فهرع اليه يسأله :
أدعوتنى .. فكره شيخه أن يفزعه فقال : نعم .. نعم .. فنام .

ثم ناداه الصوت مرة ثانية .. وثالثة .

وانتبه الى جبريل عليه السلام يدعو .

— ان ربك قد بعثك الى قومك .

لهذا النبى الكريم ذهب بنو اسرائيل يوما ..

سألوه : السنا مظلومين ؟

قال : نعم ،

قالوا : السنا مشردين ؟

قال : نعم ..

قالوا : ابعث لنا ملكا يجمعنا تحت رايته كى نقاتل فى سبيل الله
ونسعيد أرضنا ومجدنا .

قال نبيهم وكان أعلم بهم :

— هل أنتم واثقون من القتال لو كتب عليكم القتال ؟

قالوا : ولماذا لا نقاتل في سبيل الله ، وقد طردنا من ديارنا ،
وتشرد أبناؤنا ، وساء حالنا .

قال نبيهم : ان الله قد بعث لكم « طالوت » ملكا .

قالوا : كيف يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، وليس غنيا
وفينا من هو أغنى منه ؟

قال نبيهم .

— ان الله اختاره عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم .. والله
يؤتي ملكه من يشاء .

قالوا : ما هي آية ملكه ؟

قال :

— استعود اليكم التوراة التي سلبها منكم العدو .. سيحملها الملائكة
اليكم .. هذه هي آية ملكه ..

ووقعت هذه المعجزة . وعادت اليهم التوراة يوما . وبدأ تكوين
جيش « طالوت » وكان طالوت قد جهز جيشه ليحارب « جالوت » ..
وكان جالوت مبارزا جبارا لا يهزمه أحد ، ، ولا يناله أحد ..

ثم تجهز جيش طالوت ، وسار الجيش طويلا وسط صحراء وجبال
حتى أحس الجنود بالعطش ..

قال الملك طالوت لجنوده : سنصادف نهرا في الطريق ، من شرب
منه فليخرج من الجيش ، ومن لم يذقه وبل ريقه بيده فقط فليبق معي
في الجيش ..

وجاء النهر فشرب معظم الجنود ، وخرجوا من الجيش ، وكان طالوت
قد أعد هذا الامتحان ليعرف من يطيعه من الجنود ومن يعصاه ، وليعرف
أيهم قوى الإرادة ويتحمل العطش ، وأيهم ضعيف الإرادة ويستسلم
بسرعة ، وقال طالوت لنفسه : الآن عرفنا الجبناء ولم يبق معي إلا
الشجعان ..

صحيح أن عدد الجيش قد انكمش ولكن المهم في الجيش هو الشجاعة
والإيمان لا العدد والسلاح ..

وجاءت اللحظة الحاسمة ، ووقف جيش طالوت أمام جيش عدوه
جالوت ..

وكان عدد أفراد جيش طالوت قليلا ، وكان جيش العدو كبيرا
وقويا .. وقال بغض الضعفاء من جنود طالوت :

— كيف نهزم هذا الجيش الجبار .. ؟!

قال المؤمنون من جيش طالوت :

- المهم فى الجيش هو الايمان والشجاعة ..
- كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .

.....
.....

قال تعالى :

« ألم تر الى الملائكة من بنى اسرائيل من بعد موسى ، اذ قالوا لنبي لهم : ابعت لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال : هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا ، قالوا : وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين .

وقال لهم نبيهم : ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا : انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟

قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم .

وقال لهم نبيهم : ان آية ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم ، وبقيه مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين .

فلما فصل طالوت بالجنود قال : ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه الا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون انهم ملائكة الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين « [١] » .

.....
.....

وبرز جالوت فى دروعه الحديدية ، ومعه سيفه وفأسه وخنجره ، وهو يطلب أحدا يبارزه .. وخاف منه جنود طالوت جميعا .. وهنأ برز من جيش طالوت راعى غنم صغير هو « داود » .. كان « داود » مؤمنا بالله ، وكان يعلم ان الايمان بالله هو القوة الحقيقية فى هذا الكون ، وان العبرة ليست بكثرة السلاح ، ولا ضخامة الجسم ومظهر الباطل .

وتقدم داود يطلب من الملك طالوت اذنه لبارزة جالوت ..

ورفض الملك فى اليوم الاول .. لم يكن داود جنديا انما كان راعى غنم صغير ، ولم تكن له خبرة فى القتال أو الحرب ، ولم يكن عنده سيف ، كل سلاحه كان قطع الطوب التى يهش بها على غنمه .. ورغم هذا

(١) الآيات ٢٤٦ الى ٢٤٩ سورة البقرة مدنية .

كله كان داود يعرف أن الله هو مصدر القوة الحقيقية فى هذه الدنيا ،
ولما كان مؤمنا بالله فهو أذن أقوى من جالوت .

وجاء اليوم الثانى وطلب « داود » الاذن بقتال جالوت ، وأذن له
الملك ، قال له : لو قتلته فسوف تصيرا قائدا على الجيش وتزوج ابنتى ..
ولم يكن داود يهتم كثيرا لهذا الاغراء . كان يريد أن يقتل جالوت
لأن جالوت رجل جبار وظالم وعدو ولا يؤمن بالله ..

وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت ..

وتقدم داود بعصاه وخمسة أحجار ومقلعه « وهو نبلة يستخدمها
الرعاة » .. تقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع .. وسخر جالوت من
داود وأهانته وضحك منه ومن فقره وضعفه ، ووضع داود حجرا قويا فى
مقلعه وطوح به فى الهواء وأطلق الحجر .

كانت الرياح صديقة لداود لأنه يحب الله ، وحملت الرياح الحجر
نحو جبهة جالوت فقتله الحجر . سقط جالوت المدجج بالسلاح على
الأرض وتقدم منه الراعى الطيب داود فأخذ سيفه ، وبدأت الحرب بين
الجيشين .

بدأت بين جيش قتل قائده واستقر طائر الرعب فى قلوب جنوده ،
وجيش آخر يقوده راعى غنم بسيط .

قال تعالى :

« ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت
أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله ، وقتل
داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا
دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو
فضل على العالمين » [١] .

بعد أن قتل داود جالوت :

قلز الى قمة الشهرة فى قومه فجأة . صار أشهر رجل فى
بنى إسرائيل ، صار قائدا للجيش ، وزوجا لابنة الملك ، غير أن داود
لم يكن ليفرح بهذا كله ، لم يكن من أسرى الشهرة أو المجد أو الرئاسة ..
كان أسيرا قديما لحب الله عز وجل ..

وكان داود قد أوتى صوتا خارقا فى جماله .. وكان داود يسبح الله
ويمجده بصوته العذب المعجز ..

ولهذا اختفى داود بعد أن هزم جالوت ..

ذهب الى الجبل والصحراء .. وهناك وجد نفسه بين احضان الوجود
البكر .. فى عزلة ساهرة يحييها بالانابة الى الله وتمجيده .

قال تعالى فى سورة سبأ :

« ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير ، والننا له

(١) الآيتان ٢٥٠ ، ٢٥١ سورة البقرة مدنية .

**الحديد ، ان اعمل سايغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا
انى بما تعملون بصير» [١]** .

وقال تعالى فى سورة الانبياء :

**« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه
صنعة لبوس لكم لتحصنكم من باسكم فهل انتم شاكرون » [٢]** .

.....
.....

نحن امام معدن بشرى من لون خاص . انسان بلغ من شفافية
النفس والتجرد ان انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات ، فاستجابت
عصارة النباتات وهى تصعد فى سيقان الشجر لصوت ترنيمه ..
واتصلت ذرات الجبال بذبذبات صوته وهو يسبح ، وذابت الحدود بين
ضمير المخلوق والطير والوحش وصخور الجبال ، فانسقت كلها فى نغم
واحد يتجه الى الله بالتسبيح والتمجيد والذكر .. كان داود يملك نفسا
تستطيع ان تمتزج امتزاجا صوفيا بغيرها من نفوس الكائنات ، حتى
ما نتصور انه لا يملك نفسا كالجبال والصخور ..

كان داود اذا جلس يسبح الله ، ويمجده .. تعرت الكائنات من اطار
الوجود الجاهل ، وانكشف باطنها المترنم بمجد الله ، واستجاب هذا
الباطن للنغم الصادر من داود .

واختار الله داود نبيا .. وآتاه الزبور ..
قال تعالى :

« وآتينا داود زبورا » [٣] .

والزبور كتاب مقدس كالتوراة .

ويقرأ داود من كتابه ويسبح الله وتشتبك معه الجبال فى التسبيح ..
وتحشر له الطير ..

قال تعالى :

**« واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب . انا سخرنا الجبال معه
يسبحن بالمشى والاشراق ، والطير محشورة كل له أواب .
وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » [٤]** .

.....
.....

الصحراء تمتد حتى تلتقى بالأمق .

(١) الآية ١٠ مكة .

(٢) الايتان ٧٩ ، ٨٠ مكة .

(٣) من الآية ٥٥ سورة الاسراء مكة .

(٤) الايات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ سور ص مكة .

هذا يوم صيام داود .

يصوم النبي الملك يوما ويفطر يوما .. هذا صيام الدهر .. دوايه تسرح ، وهو يقرأ من كتابه .. يرتل آيات من الزبور .. تسبح الجبال معه .. ليس صدى صوته هو الذى يسمعه . ان صدى الصوت هو الصوت نفسه مكررا .. أما الجبال فهى تكمل له ترتيل الآيات .. وأحيانا يسكت هو فتكمل هى التسبيح .. ولم تكن الجبال وحدها هى التى تسبح معه .. كانت الطيور أيضا تشارك فى التسبيح . كان داود اذا بدأ قراءة كتابه المقدس اجتمعت حوله الطيور والوحوش والأشجار وسبحت الجبال .

لم يكن صدق داود هو وحده المسئول عن تسبيح الجبال معه أو الطير .. لم تكن عذوبة صوته هى المسئولة عن تسبيح بقية المخلوقات معه .. انما كان هذا معجزة من الله له كنبى عظيم الايمان ، صادق الحب لله .. ولم تكن هذه وحدها كل معجزاته .. انما أعطاه الله قدرة على فهم لغة الطيور والحيوانات .. كان يتأمل يوما فسمع عصفورا يخاطب عصفورا آخر .. واكتشف انه يفهم لغة العصفورين .. كذف الله فى قلبه نورا ففهم لغة الطيور ولغة الحيوانات ، وكان داود يحب الحيوانات والطيور ويعطف عليها ويطعمها ويداويها اذا مرضت ، وكانت الطيور والحيوانات تحبه وتقصده . ومع لغة الطيور علم الله داود الحكمة .. وكان داود اذا علمه الله شيئا أو أعطاه معجزة زاد فى حبه لله ، وزاد من شكره لله ، وزاد من ايمانه بالله ، وزادت عبادته لله .. حتى أصبح يصوم يوما ويفطر يوما ..

وأحب الله داود ومنحه ملكا عظيما .. وكانت مشكلة قومه هى كثرة الحروب فى زمانهم ، وكانت الدروع الحديدية التى يصنعها صناع الدروع ثقيلة ولا تجعل المحارب حرا يستطيع أن يتحرك كما يشاء أو يقاوم كما يريد ..

يقولون ان داود جلس يوما يفكر فى هذه المشكلة ، وأمامه قطعة من الحديد يعيث بها بيديه .. ثم اكتشف فجأة أن يده تغوص فى الحديد .. الان الله له الحديد ، فراح يقطع ويشكله قطعا صغيرة يصلها بعضها ببعض ، حتى اذا انتهى كان أمامه درع جديد من الحديد .. درع يتكون من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة ، وتحمى جسده من السيوف والفؤوس والخناجر .. أفضل من الدروع الموجودة أيامها .. ويقال فى ذلك ان الله الآن له الحديد بمعنى انه كان أول من اكتشف ان الحديد ينصهر بالنار ويمكن تشكيله آلاف الأشكال .. ونطمئن لهذا التفسير أكثر

وسجد داود شكرا لله .

وبدأت المصانع تعمل فى صناعة الدروع الجديدة .. حتى اذا انتهت منها سلمت لجيشه واكتشف أعداء داود وجيوشهم ان سيوفهم لا تؤثر فى هذه الدروع ، وأن دروعهم ثقيلة ، وتنفذ منها السيوف .. انها تمنعهم من الحركة ولا تحميهم من القتل ، بعكس الدروع التى صنعها داود . وفى كل المرات التى حارب فيها جيش داود أعداءه ، كان النصر

ينعقد لداود وجيشه .. لم يدخل داود معركة الا انتصر فيها ، وكان يعلم أن هذا النصر من عند الله .. وكان يزيد من شكره لله ويزيد من تسبيحه لله ويزيد حبا لله .

وعندما يحب الله نبيا من أنبيائه أو عبدا من عباده ، يجعل الناس يحبونه ويضع له القبول فى الأرض .. وأحب الناس داود مثلما أحبته الطيور والحيوانات والجبال .. وكان داود أيامها أكثر مخلوق يحبه الناس وتحبه الطيور والجبال .

ورأى الملك هذا فثار فى نفسه الغيرة .. وبدأ يحاول اىذاء داود وقتله .. وجهز جيشا ليقاتل داود . وفهم داود أن الملك يغار منه .. ولهذا لم يحارب الملك . كل ما فى الأمر أنه أخذ سيف الملك وهو نائم ، وقطع جزءا من ثيابه بالسيف ثم أيقظ الملك وقال له :

— أيها الملك .. لقد خرجت لقتلى ، وأنا لا أكرهك ولا أريد قتلك ، ولو كنت أريد أن أقتلك لفعلت هذا وأنت نائم ، هذه قطعة من ثيابك قطعتها وأنت نائم وكنت أستطيع أن أقطع رقبتك بدلا منها ، ولكنى لم أفعل .. أنا لا أحب أن أؤذى أحدا .. ان رسالتى هى الحب وليست الكراهية .

وأحس الملك أنه أخطأ وطلب من داود العفو وتركه ومضى ..

ثم مرت الأيام وقتل هذا الملك فى حرب لم يشترك فيها داود ، لأن الملك كان يغار منه ورفض الاستعانة به .. وصار داود بعد ذلك ملكا .. تذكر الناس كل ما فعله من أجلهم واختاروه ملكا عليهم ، وبذلك كان داود نبيا أرسله الله وملك فى نفس الوقت .. ولم يزد الملك داود الا شكرا لله ، وعبادة لله ، وحبا فى الخير وفعلنا للخير ، واحسانا الى الفقراء ، ورعاية لمصالح الناس وراحتهم .

وشد الله ملك داود .. جعله الله منصورا على أعدائه دائما ، وجعل ملكه قويا عظيما يخيف الأعداء حتى بغير حرب .. وزاد الله من نعمه على داود فأعطاه الحكمة وفصل الخطاب ، أعطاه الله مع النبوة والملك حكمة وقدرة على تمييز الحق من الباطل ومعرفة الحق ومساندته .

وكان لداود ابن سماه سليمان .. وكان سليمان ذكيا من طفولته وصباه .

كان عمر سليمان احدى عشرة سنة حين وقعت هذه القصة ..

قال تعالى فى سورة الانبياء :

«داود وسليمان اذ يحكما فى الحرت اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما ..» [١]

(١) الايتان ٧٨ ، ٧٩ مكية .

جلس داود كعادته يوما يحكم بين الناس فى مشاكلهم .. وجاءه رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر ..

وقال له صاحب الحقل :

— سيدى النبى .. ان غنم هذا الرجل نزلت حقلى اثناء الليل ، واكلت كل عناقيد العنب التى كانت فيه .. وقد جئت اليك لتحكم لى بالتعويض .

قال داود لصاحب الغنم : هل صحيح ان غنمك اكلت حقل هذا الرجل ؟

قال صاحب الغنم :

— نعم ياسيدى ..

قال داود : لقد حكمت بأن تعطيه غنمك بدلا من الحقل الذى اكلته .

قال سليمان .. وكان الله قد علمه حكمة تضاف الى ما ورث من والده :

عندى حكم آخر يا أبى ..

قال داود :

— قل له ياسليمان ..

قال سليمان : أحكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذى اكلته الغنم .. ويصلحه له ويزرعه حتى تنمو أشجار العنب وأحكم لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه ، فإذا كبرت عناقيد العنب وعاد الحقل سليما كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأعطى صاحب الغنم غنمه ..

قال داود : هذا حكم عظيم ياسليمان .. الحمد لله الذى وهبك هذه الحكمة .. أنت سليمان الحكيم حقا .

وكان داود رغم قربه من الله وحب الله له ، يتعلم دائما من الله ، وقد علمه الله يوما ألا يحكم أبدا الا اذا استمع لأقوال الطرفين المتخاصمين ..

جلس داود يوما فى محرابه الذى يصلى الله ويتعبد فيه ، وكان اذا دخل حجرته أمر حراسه ألا يسمحوا لأحد بالدخول عليه أو ازعاجه وهو يصلى .. ثم فوجيء يوما فى محرابه أنه أمام اثنين من الرجال .. وخاف منهما داود لأنهما دخلا رغم أنه أمر ألا يدخل عليه أحد .. سالهما داود : من أنتما ؟

قال أحد الرجلين : لا تخف ياسيدى .. بينى وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق ..

سأل داود : ما هى القضية ..

قال الرجل الأول :

— ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة .. وقد أخذها منى . قال اعطها لى وأخذها منى ..

وقال داود بغير أن يسمع رأى الطرف الآخر وحجته :

— لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه .. وان كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا الا الذين آمنوا .

وفوجيء داود باختفاء الرجلين فجأة من أمامه .. اختفى الرجلان كما لو كانا سحابة تبخرت فى الجو . وأدرك داود أن الرجلين ملكان أرسلهما الله اليه ليعلماه درسا .. فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس الا اذا سمع أقوالهم جميعا ، فربما كان صاحب التسع والتسعين نعمة معه الحق .. وخر داود راکعا ، وسجد لله ، واستغفر ربه ..

قال تعالى :

« وهل أتاك نبا الخصم اذ تسوروا المحراب . اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا اخى له تسع وتسعون نعمة ولى نعمة واحدة ، فقال اكفلتنيها وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخطاء ليبنى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راکعا واناب . فغفرنا له ، ذلك وان له عندنا لزلقى وحسن مآب » [١] .

.....
.....

نسجت أساطير اليهود قصصا مريية حول فتنة داود عليه السلام . قيل انه اشتهى امرأة احد قواد جيشه فارسله فى معركة يعرف من البداية نهايتها ، واستولى على امراته ..

وليس أبعد عن تصرفات داود من هذه القصة المختلقة ..

ان انسانا يتصل قلبه بأبعد نجوم السماء ويتصل بتسبيحه بتسبيح الكائنات والجمادات ، يستحيل عليه أن يرى أو يلاحظ جمالا بشريا محصورا فى وجه امرأة أو جسدها .

ان من يرى الجمال الاصيل فى الكون ويتصل مباشرة به ويخضعه لتسبيحه ، يستحيل عليه أن يخضع لغريزة اقتناء امرأة .

كان داود عبدا لله وحده . ولم يكن ممكنا له أن يصير عبدا لغرائزه كما تحكى الاسرائيليات عنه .

.....
.....

عاد داود يعبد الله ويسبحه ويتغنى بحبه ويمجده حتى مات ..

(١) الآيات ٢١ الى ٢٥ سورة ص مكة .

كان داود يصوم يوما ويفطر يوما .. قال رسول الله محمد
ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عن داود : « أفضل الصيام صيام داود .
كان يصوم يوما ويفطر يوما . وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا ، وكانت
له زكمة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويشفى بصوته
المهموم والمحموم » ..

.....
.....

مات داود عليه السلام فجأة كما تقول الروايات .

وشيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب في أردبتهم التقليدية ، مع آلاف
غيرهم من الناس . ولم يمض في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد
كانت بنو إسرائيل أشد جزعا عليه .. منهم على داود .

وأذت الشمس الناس فدعا سليمان الطير قال :

— أظلى على داود .

فماظلته حتى أظلمت عليه الأرض .

وسكنت الريح .

وقال سليمان للطير : أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى من ناحية
الريح . وأطاعت الطير . فكان ذلك أول ما رآه الناس من ملك سليمان .

سليمان [عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة النمل :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على
كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس
علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ ، ان هذا لهو الفضل
المبين » [١] .

.....

« وورث سليمان داود »

ورثه فى النبوة والملك . ليس المقصود وراثته فى المال ، لأن
الأنبياء لا يورثون . انما تكون أموالهم صدقة من بعدهم للفقراء
والمحتاجين ، لا يخصون بها أقرباءهم .

قال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم « نحن معشر الأنبياء
لا نورث » .

وورث سليمان داود فى النبوة ، وهذا مفهوم ، فقد اختاره الله عز
وجل نبيا الى بنى اسرائيل ، أيضا منحه الله الملك عليهم ، ولعل أخطر
شئ ورثه سليمان عن داود تلك التقاليد العسكرية التى أرساها داود .
وهذا التقدم الساحق الذى انتقل الى سليمان من ملك داود . كان داود فى
الأصل راعى غنم فقيرا . لكنه تحول مع الوقت الى قائد عسكري ليس
له مثيل ، وتم هذا التحول بالهام من الله وعون منه وتأييد ، كان داود فى
البداية يدرك أن القوة الحقيقية الحاكمة فى الوجود هى قوة الله تعالى ،
وحين مد يده وأمسك بقطعة الحجر وقذفها بمقلاعه نحو جالوت ، كان
هذا ايذانا بتحول موازين القوة . . وتغير وضع الجيش فى بنى اسرائيل
من شراذم تفر أمام أعدائها الى جيش حقيقى له وجوده . وقد وقعت فى
حياة داود معارك عسكرية عديدة ، لا يحدثنا القرآن عنها بالتفصيل ،
فالقرآن كتاب دعوة الى الله وليس كتابا فى التاريخ ، غير أن القرآن يكتفى
بان يقول عنه « **وشددنا ملكه** » [٢] وتعنى الآية انه لم يتكسر فى معركة من

(١) الأيتان ١٥ ، ١٦ مكية .

(٢) من الآية ٢٠ من سورة ص مكية .

معاركه أبدا . والى جوار تأييد الله تعالى لداود . . وجيشه وشعبه ، بوصفهم موحدين قد أسلموا وجوههم لله . . كشف الله تعالى لداود عن أمور جعلت لجيشه ميزة تفوق ساحق على غيره من جيوش الأرض وقتئذ .

قال تعالى :

« **والنا له الحديد** » [١] . .

ان مسألة الدروع الحديدية التي تصنع من حلقات تتيح للمقاتل حرية الحركة . . كانت في ذلك الزمان البعيد طفرة هائلة في الحروب . . وتصور أنت اثنين من المحاربين ، أحدهما يتحرك بدرعه في حرية كاملة كأنه لا يرتدى شيئا من الدروع ، بينما يئن المحارب الثاني تحت ثقل دروع تعوقه وتشل حركته .

هذا التقدم الخطير الذي منحه الله تعالى لداود وجيشه . . انتقل الى ملك سليمان . .

وهكذا ورث سليمان جيشا متقدما على غيره من جيوش الأرض . كما ورث دولة قوية . . وزاد الله سليمان .

« **وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، ان هذا لهُو الفضل المبين** » [٢] .

ولسوف نحس ونحن نمضي على الصفحات المشرقة التي أوردتها القرآن عن سليمان . . أننا نواجه العصر الذهبي لبني إسرائيل . . عصر نبيهم وملكهم سليمان . .

.....
.....

لم يكف سليمان بما ورثه من داود ، حركه الطموح النبيل نحو ما هو أكثر .

ومد يديه يوما لله وسأل . . وليس بين قلب النبي وبين الله حاجز أو مسافة أو زمن . لا يكاد أحد الأنبياء يدعو الله حتى تتحقق دعوته . ان صفاء القلبحين يبلغ درجة معينة يستطيع دائما أن يجد طريقه الى الله .

قال سليمان في دعائه :

« **رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي** » [٣] .

كان سليمان يريد من الله تعالى ملكا لا يعطيه لأحد من خلقه بعد ذلك .

(١) من الآية ١٠ سورة سبأ مكية .
(٢) من الآية ١٦ سورة النمل مكية .
من الآية ٣٥ سورة ص مكية .

وقد استجاب الله تعالى لعبده سليمان ومنحه هذا الملك .
من حق أبناء هذا الزمان أن يسألوا : لماذا أراد سليمان هذا الملك
العريض الذى لا ينبغى لأحد من بعده .
أكان سليمان بمنطق عصرنا رجلا مولعا بالسلطة ، حريصا على المجد
الذى توفره ، تواقا الى الحكم والتحكم ؟
لن نجد فى قلب سليمان شيئا من هذا كله .

ان طموح سليمان للملك كان طموح نبي أولا واخيرا .. ولا يتعلق
قلب النبي الا بما يحقق لدعوته الانتشار فى الأرض .. ولم يكن سليمان
عاشقا للملك المجد ، تواقا الى الكبرياء والعظمة ، انما كان يريد الملك
ليحارب الظلام الذى انتشر فى الأرض ، وينشر نور الاسلام الذى تتكرم
به السماء على الأرض حين تبعث رسولا .. تأمل كلمة سليمان لبليقيس
وهو يحاورها حول عرشها فى سورة النمل :

فلما جاءت قبيل : أهكذا عرشك .

قالت : كأنه هو !

((وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين)) [١] ..

هذه كلمة سليمان الحكيم .. وهى الكلمة التى تبرر فى اعتقادنا
طلبه للملك والرياسة والقوة .. لقد سخر سليمان كل مجده وملكه
للدعوة الى الله .. ونشر الاسلام .. ألم تقل ملكة سبأ فى ختام قصتها
مع سليمان :

((رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)) [٢] .
سورة النمل .

.....

بعد هذه المقدمة الاساسيه .

نقلب صفحات النبي الملك سليمان ..

ورث سليمان داود فى الملك والنبوة والحكمة .. أطلق عليه الناس
اسم « **سليمان الحكيم** » .

ولم تكن حكمة سليمان مقصورة على عدله بين الناس ، ورحمته بهم ،
وحكمه فى تضاييهم بالحق ، انما تجاوزت حكمته عالم البشر الى عالم
الطيور والحيوانات ..

كان داود يعرف لغة الطيور ، لكن سليمان كان يتكلم مع الطيور
ويوظفها فى خدمته .

(١) الآية ٤٢ مكية .

(٢) من الآية ٤٤ مكية .

وكان داود اذا سبح .. سبحت معه الجبال والوحوش والطيور ،
وتوقفت الرياح لتستمع الى هذا التسبيح العظيم أما سليمان فزاده الله
على ذلك أن سخر معه الوحوش وأخضع له الرياح والطيور ..
قال الله تعالى :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالوا : الحمد لله الذي فضلنا
على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال : يا أيها
الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ، ان هذا لهُو
الفصل المبين » [١] .

كان سليمان يستطيع أن يسمع همس نملة تحدث نملة أخرى ..
كما كان يستطيع أن يأمر هذه النملة فتطيع أوامره ..

وكان جيش سليمان أرهب الجيوش في العالم ، لن يعرف العالم
جيشا بهذه القوة ، ولئن كانت الجيوش تستمد قوتها من تماثل جنودها
فقد استمد جيش سليمان قوته من اختلاف جنوده ، كان الجيش يتكون من
خليط مدهش يجعله جيشا لا يقاوم .

كان جيشه يتكون من البشر .. ومن الجن ، ومن الطير . ونحن نعرف
أن الجن مخلوقات خلقها الله وليس في استطاعة البشر رؤيتها أو
استحضارها أو الاستعانة بها .. أما سليمان النبي عليه السلام فقد
أعطاه الله وحده هذه القدرة .. القدرة على تسخير الجن وتوظيفهم
جنودا في جيشه أثناء الحرب ، وعمالا في مملكته أثناء السلام ،
والجن مخلوقات لا تظهر فتخيل أنت جيشا جنوده غير ظاهرين ..

ان قتال مثل هذا الجيش مستحيل ، كان جيشه يضم أيضا
الطيور .. وكانت الطيور في جيش سليمان تلعب نفس الدور الذي تلعبه
أجهزة الاستطلاع والمخابرات في الجيوش الحديثة .. ونحن نعرف أن دور
الاستطلاع في الحرب هو أهم دور ، فمن هذه الأجهزة يعرف الجيش
المقاتل حقيقة عدوه .. وكان هذا دور الطيور في جيش سليمان ،
كانت تطير الى جيوش الأعداء ، ثم تعود لسليمان بأخبار أعدائه كلها ..

ومع الجن والطيور .. سخر الله سبحانه وتعالى الرياح لسليمان ..
كان يتحكم فيها ويستطيع أن يركبها هو وجنوده .. ونحن نعرف الآن
أن فكرة الطائرات هي استغلال الهواء بحيث يمكن للطائرة أن تطير فيه
رغم أنها أثقل منه . وقدبنا .. أعطى الله لسليمان هذه القدرة على
تسخير الرياح له واستخدامها في أغراضه . وبذلك كان جيش سليمان
يضم جنودا طائرين في وقت لم يكن هناك من يحلم بالطيران فيه .
ولعل هذه المعجزة التي وهبها الله لسليمان كانت سببا في مجده العسكري
.. فقد صار جيشه لا يقاوم ..

قال تعالى :

« وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطيير فهم يوزعون » [٢]

[سورة النمل] .

(١) الايتان ١٥ ، ١٦ . سورة النمل مكة .

(٢) الآية ١٧ مكة .

وقال تعالى :

« فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » [١] .

[سورة ص] .

سنعرف أن سليمان سيهجر فكرة استخدام الخيل فى الجيش ، بعد أن تعطله الخيل يوما عن الصلاة .

حين ترك سليمان الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله عنها بالريح التى تجرى بأمره الى أى بقعة يريدتها من البلاد . ومع سلاح الطيران الذى أوتيته سليمان ، أعطى الله تعالى لسليمان مقدرة لم يعطها لأحد من أنبيائه قط . هى المقدرة على التحكم فى الشياطين . والشياطين نوع من الجن . هو النوع الشقى من الجن . وهذا نوع لا يستطيع البشر التحكم فيه ، ولا يستطيع الجن الصالح نفسه التحكم فيه . أما سليمان فقد وهبه الله قدرة على تسخير الشياطين وتشغيلها وتقييدها بالسلاسل وتعذيبها اذا عصت أوامره . وكانت الشياطين تبنى له القصور والدور والتدوير والتماثيل والمحاريب .. وكانت تغوص له فى أعماق البحار وتستخرج اللؤلؤ والمرجان والياقوت ..

وكان من يتمرد من الشياطين يقيد فى الأصفاد ليكون اشارة الى مجد سليمان وقدرته على التحكم فى الكائنات .. وهى قدرة أوتيتها بأذن ربه كمعجزة منه سبحانه .

قال تعالى :

ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ، ومن بزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » [٢] .

[سورة سبأ] .

وجاء على الأرض وقت .. فاذا سيدها بغير منازع هو سليمان الحكيم .

ومع هذه النعم المثيرة الخاصة التى أنعم الله بها على سليمان .. كان سليمان أكثر الناس ذكرا لله ، وأكثر الناس شكرا لله فى زمانه . قال تعالى عن سليمان : « نعم العبد أنه أواب » [٣] والأوبة هى العودة الدائمة الى الله بالصلاة والصيام والتسبيح والبكاء والاستغفار والحب . والعبد الأواب هو العبد المتجه الى الله دائما . ولقد كانت أوقات الصلاة عند

(١) الآيات من ٢٦ الى ٤٠ مكية .

(٢) من الآية ١٢ مكية .

(٣) من الآية ٣٠ سورة ص مكية .

سليمان أمرا خطيرا لا يشغله منه شيء .. وفى المرة الوحيدة التى فاته فيها وقت الصلاة .. كان هذا رغم ارادته ..

كان مشغولا بساعتها بأمر خطير هو الاعداد للحرب .. كان الوقت عصرا ، وراح سليمان يستعرض خيل الجنود والضباط . وكانت الخيل سلاحا هاما فى جيشه . ومر سليمان على الخيل وهو يفحصها حتى كادت صلاة العصر تفوت . وسجد سليمان لله ، وصلى ثم أمر أن يردوا اليه الخيل ، فراح يمسح على أعناقها وأرجلها بيده وهو يعتذر لله من أن الاعداد للجهاد والحرب والفرز كاد يفوت عليه وقت الصلاة .

من يومها استغنى سليمان عن الخيل فى جيشه .. فعوضه الله عنها بالريح التى تحمله وتحمل جنوده حيث يشاء .

قال تعالى فى سورة [ص] :

« ووهبنا لداود سليمان ، نعم المبد أنه أواب ، اذ عرض عليه بالعشى الصافيات الجياد . فقال : انى أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . ردها على ، فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » [١] .

وكان سليمان يعرف أمراض الخيل ويستطيع أن يتحدث معها بلغتها ويفهم منها وتطيع أوامره .

وأنعم الله تعالى على سليمان بنعمة أخرى ..

« تعالى :

« وأسلنا له عين القطر » [٢] ..

والقطر هو النحاس المذاب .. مثلما أنعم على والده داود بأن الآن له الحديد وعلمه كيف يصهره .. وقد استفاد سليمان من النحاس المذاب فائدة عظيمة فى الحرب والسلام ، فى الحرب كان يمزج النحاس بالحديد ويصنع البرونز ، وكانوا يستخدمون الأسلحة البرونزية فى الحروب ، كالسيف والدروع والناجر ، وكانت هذه الأسلحة أقوى الأسلحة أيامها .. وفى السلم كان النحاس يدخل فى صناعات المباني وصناعات التماثيل وغيرها ..

ورغم كل هذه النعم العظيمة والمنح الخاصة ، فقد فتن الله تعالى سليمان .. اختبره وامتحنه ، والفتنة امتحان دائما ، وكلما كان العبد عظيما كان امتحانه عظيما ، فتن الله سليمان بالمرض .. وقال الله تعالى فى ذلك :

« ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى أنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص » [٣] .

(١) الآيات من ٣٠ الى ٣٣ مكية .

(٢) من الآية ١٢ سورة سبأ مكية .

(٣) الآيات من ٢٤ الى ٣٧ سورة ص مكية .

اختلف المفسرون فى فتنة سليمان عليه السلام . ولعل أشهر رواية عن هذه الفتنة هى نفسها كذب رواية ..

قبل أن سليمان عزم على الطواف على نسائه السبعائة فى ليلة واحدة ، وممارسة الحب معهن حتى تلد كل امرأة منهن ولدا يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل سليمان ان شاء الله ، فطاف على نسائه فلم تلد منهن غير امرأة واحدة .. ولدت طفلا مشوها القوه على كرسيه ..

والقصة مختلفة من بدايتها لنهايتها ، وهى من الاسرائيليات الخرافية ، وحقيقة هذه الفتنة ما ذكره الفخر الرازى ..

قال : ان سليمان ابتلى بمرض شديد حار فيه الطب .

مرض سليمان مرضا شديدا حار فيه أطباء الانس والجن .. وأحضرت له الطيور أعشابا طبية من أطراف الأرض فلم يشف ، وكل يوم كان المرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان اذا جلس على كرسيه جلس كأنه جسد بلا روح .. كأنه ميت من كثرة الإعياء والمرض .. واستمر هذا المرض فترة كان سليمان فيها لا يتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفاره وحبه ..

وانتهى امتحان الله تعالى لعبده سليمان ، وشفى سليمان .. عادت اليه صحته بعد أن عرف أن كل مجده وكل ملكه وكل عظمته لا تستطيع أن تحمل اليه الشفاء الا اذا أراد الله سبحانه .

هذا هو الرأى الذى نرتاح اليه ، ونراه لائقا بعصمة نبي حكيم وكريم كسليمان ..

« ولقد فتنا سليمان .. والقينا على كرسيه جسدا .. » [١]

حوله المرض الى شئ كالجسد .. ولفظ الجسد فى اللغة يطلق على ما فارقتة الحياة أو الصحة . ولقد تحول سليمان الى جسد من فرط المرض .

« ثم أناب » [٢]

ثم رجع الى الصحة .. استجار برحمة الله فشفاه الله ورحمه ..

.....

وكان سليمان قد بنى لله مسجدا أو معبدا ليعبد الناس فيه الله تعالى وحده .

وقد كان هذا البيت آية من آيات فن العمارة وفن النحت .

ان ورش الحدادة كانت المطارق فيها تدق بلا انقطاع ، وورش صهر المعادن كانت تعمل أربعاً وعشرين ساعة كل يوم ، وكان البرونز

(١) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .

(٢) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .

المصهور يجرى من مئات القنوات فى الرمل لياخذ بعد ذلك اشكال الابواب والنوافذ وتمائيل الاسود والنهور والطيور التى كانت تزين الطريق نحو مسجد سليمان .

وكان عدد العاملين فى بناء هذا البيت عشرات الالوف .. كان هناك من يصهر المعادن ، وهناك النحاتون ، وهناك من يكسر الأحجار ، وهناك قاطعوا الأخشاب ، وهناك من يحضر أخشاب الأرز من لبنان ، وهناك من يصهر الذهب ويجعل منه رقائق لامعة لتغطية الأخشاب .. وتغطية الجدران ..

وكانت الجن تعمل هى الأخرى ، طبقا لتعليمات سليمان وأوامره .. كانت تصنع تماثيل عظيمة ، وكانت تصنع قدورا لطعام الجنود والعمال ، قدورا كالجبال من فرط ثقلها وعظمتها ، وكانوا يصنعون أوعية للشرب تبدو كأنها أحواض كبيرة لسعتها .. وكان سليمان يلاحظ عماله ويراعى شعبه ويعرف مشاكله ويحلها له ، كما كان يراقب جيشه من الحيوانات والطيور ، ويعرف هل غاب أحد منهم وأين كان ولماذا غاب ..

ولم يكن سليمان يعرف مشاكل جنوده الأدميين ويعرف جيشه من الطيور فقط ، وإنما كان أيضا رحيفا بالنمل يسمع همسه ولا يدوسه بأقدامه .

كان سليمان يسير منكس الرأس ، دائم النظر الى الأرض تواضعا ، دائم الشكر لله .

كان يسير يوما فى مقدمة جيشه حين سمع نملة تقول لزميلاتها من النمل :

((يا أيها النمل : ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وإن أعمل صالحا فترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)) [١] .

سمع سليمان كلام النملة فتبسم ضاحكا من قولها .. ما الذى تتصوره هذه النملة !

رغم كل عظمته وعظمة جيشه فإنه رحيم بالنمل . يسمع همسه وينظر دائما أمامه ولا يمكن أبدا أن يدوسه .

وكان سليمان يشكر الله أن منحه هذه النعمة .. نعمة الرحمة ونعمة الحنو والشفقة والرفق ..

أيضا كان سليمان أغنى انسان فى الدنيا .. كانت أرض قصوره أحيانا من خشب الصندل ذى الرائحة المعطرة ، وأحيانا من الذهب وأحيانا من الكريستال .. كان له كرسى عظيم صنع من الذهب والجواهر .

كانت له أعظم قصور فى الدنيا ، وكان يرتدى ملابس من الذهب والجواهر

(١) الآيتان ١٨ ، ١٩ مكية .

.. ورغم هذا كله فقد كان سليمان متواضعا لله وللناس .. وكان يخرج على الناس وهو يرتدى ثيابه الذهب فيقول لهم :

— ان أى زهرة من زهور الحقول ترتدى أجمل مما ارتدى أنا سليمان الملك .

صنع الله ألوان الزهرة وأوراقها ، ويصنع الانسان ملابسه ، وما يصنعه الله أجمل آلاف المرات .

أجمل وأرق وأحلى ..

حتى الأشجار العارية ترتدى أعظم مما يرتديه سليمان ..

هكذا كان النبى الملك المتواضع يقول وهو يسجد لله .. ومثلما كان والده يسبح الله .. كان سليمان ينشد لله انشادا ويتغنى بالحب الالهى ويهجد الله وحده .

وجاء يوم .. وأصدر سليمان أمره لجيشه أن يستعد ..

بعدها ، خرج سليمان يتفقد الجيش ، ويستعرضه ويفتش عليه .. مر على البشر أولا ولاحظ استعدادهم ، واجتمع مع القواد والضباط والجنود ، وأمرهم أوامره ، ثم مر على الجن وأصدر تعليماته اليهم ، وسجن جنيا لاحظ عليه انه يتكاسل فى العمل ، ثم مر على الحيوانات ، وسألها عما اذا كانت تأكل جيدا ، وتنام جيدا ، وعما اذا كانت هناك شكوى من حيث مواعيد تقديم الطعام ، وعما اذا كانت هناك حالات مرضية ، ولما اطمان على كل شئ ، دخل خيمة الطيور العظيمة .. ولم يكذ يدخل الخيمة ويدير بصره فيها حتى اكتشف غيب الهدهد ..

كان المفروض ان يقف الهدهد فى مكان معين .. هناك فى أعلى الخيمة ، ولكن الهدهد لم يكن هناك ..

« وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد » [١] .. ؟

سكتت بقية الطيور ، احتراما لما سيقوله قائدها الأعلى .. وأدار سليمان بصره فى الطيور جميعا ، وقرأ فى عيون الطيور أن الهدهد ليس موجودا ، وليس معروفا أيضا أين هو .. قال سليمان وقد بدأ يغضب :

« أم كان من الغائبين ؟ » [٢] ..

تجرا عصفور صغير هناك وقال لسليمان :

— أيها النبى الكريم .. كان المفروض أن يكون الهدهد موجودا معى بالأمس فى مهمة استطلاع .. كان هو قائد المهمة ، ولم يأت الهدهد ، ولهذا لم أذهب أنا ..

كان العصفور يرتعش من الخوف .. وأدرك سليمان أن الهدهد غائب

(١) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية .

(٢) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية .

بغير أن يعلم بغيباه أحد ، ودون أن يستأذن أيضا .. ودون أن يقول
أين هو ..

قال سليمان غاضبا :

((لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسُلطان مبین)) [١]

فهمت الطيور أن سليمان غاضب .. فقد قرر تعذيب الهدهد ، أو ذبحه ،
أو العفو عنه ، بشرط أن يأتى بحجة تنجيه من هذه الورطة ، بمعنى أن يثبت
الهدهد أنه كان يؤدي عملا ..

كان غضب سليمان عظيما .. يلقي الخوف في القلوب .. لأن سليمان
— رغم رحمته — إذا غضب فغضبه على حق ، وهو عادل في غضبه ، ثم أنه
قادر على تنفيذ تهديده ببساطة ..

ارتعش العصفور ارتعاشة شديدة بسبب غضبة سليمان .. ومد
سليمان يده وربت على رأس العصفور ، فذهب عنه الخوف ..

انصرف سليمان من خيمة الطيور وذهب الى قصره .. كان مشغولا
بالهدهد ، المفروض ان الهدهد جزء من جهاز الاستطلاع .. هل ذهب
يستطلع شيئا ؟ .. أم انه يلعب ؟!

كان سليمان قد لاحظ على هذا الهدهد انه ذكي وفصيح ، ويميل الى
الشقاوة قليلا .. وقد ضبطه مرة أو مرتين يلعب بعض الوقت ثم يؤدي
العمل في الساعات الأخيرة .. وقد نظر اليه سليمان نظرة فهم منها الهدهد
أن هذا لا يصح .. فهناك وقت للجد ووقت للعب ، والمفروض على الهدهد ،
كما هو مفروض على الانسان ، ألا يخلط وقت الجد بوقت اللعب ، لأن هذا
يضيع الجد واللعب معا ..

وصل الهدهد الى خيمة الطيور بعد غيبة ليست طويلة ..

قالت له الطيور :

— اذهب الى سيدنا سليمان فورا قبل أن يعرف أنك وصلت ولم تسلم
نفسك ..

طار الهدهد فدخل على سليمان وهو جالس يتناول طعامه ، وقف الهدهد
.. وقرر أن يبدأ الكلام مع سليمان قبل أن يسأله أين كان .. كدليل على
براعته ..

قال الهدهد :

((أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبا يقين)) [٢] ..

كان كلام الهدهد هجوميا .. ما معنى ان يقول لسليمان .. أنا الهدهد
المسكين أعرف ما لا تعرفه أنت .. وقد جئتك من مملكة سبأ بنبا غاية في
الأهمية .. ؟

(١) الآية ٢١ سورة النمل مكية .
(٢) من الآية ٢٢ سورة النمل مكية .

سكت سليمان وانتظر أن يكمل الهدهد حديثه . .
قال الهدهد :

« انى وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم .
وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان
أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » [١] . .

سكت الهدهد قليلا ، وأحس سليمان أن الهدهد يستجمع كل فصاحته ،
وينتقى كلماته جيدا ويحدث سليمان . . عاد الهدهد يقول لسليمان ما كان
سليمان يقوله للناس والطيور . .

قال الهدهد :

« ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ؟ . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » [٢] . .

كان واضحا أن الهدهد يردد كلام سيدنا سليمان . . لى محاولة أخيرة
لكسب عطف سليمان واقتناعه . .

قال سليمان ، وظل ابتسامة خفيفة يطوف بملامحه :

« سننظر ، أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ » [٣] . .

أراد الهدهد أن يقول : أنا لا أكذب ايها النبى الكريم . . لكن صمت سليمان
أخافه فسكت . .

كان سليمان صامتا يفكر ، انتهى الى قرار ، فرفع رأسه ، وأمر باحضار
ورقة وقلم ، وكتب رسالة سريعة موجزة ومد يده الى الهدهد وأصدر تعليماته
اليه . . قال :

« اذهب بكتابى هذا فالفه اليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا
يرجعون » [٤] . .

.....

يختصر السياق القرآنى فى سورة النمل ما كان من امر ذهاب الهدهد
وتسليمه الرسالة ، وينتقل مباشرة الى الملكة ، وسط مجلس المستشارين ،
وهى تقرا على رؤساء قومها ووزرائها رسالة سليمان . .

« قالت : يا ايها الملاء ، انىلقى الى كتاب كريم . أنه من سليمان ،
وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلموا على وأنتونى مسلمين » [٥]

هذا هو نص خطاب الملك سليمان للملكة سبأ . .
انه يأمر فى خطابه أن يأتوه مسلمين . . هكذا مباشرة . . انه يتجاوز

(١) الايتان ٢٣ ، ٢٤ سورة النمل مكية .

(٢) الايتان ٢٥ ، ٢٦ سورة النمل مكية .

(٣) الآية ٢٧ سورة النمل مكية .

(٤) الآية ٢٨ سورة النمل مكية .

(٥) الايات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ سورة النمل مكية .

أمر عبادتهم للشمس .. ولا يناقشهم في فساد عقيدتهم .. ولا يحاول اقناعهم بشيء .. انما يأمر فحسب .. اليس على الحق ؟ .. اليس مؤيدا بقوة تسند الحق الذى يؤمن به ؟ .. لا عليه اذن أن يأمرهم بالتسليم ..

كان هذا كله واضحا من لهجة الخطاب القصيرة المتعالية المهذبة فى نفس الوقت .

طرحت الملكة على رؤساء قومها الرسالة ..

« قالت : يا أيها الملأ ، أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » [١] ..

كان رد فعل الملأ — وهم رؤساء قومها — هو التحدى .. أثارت الرسالة بلهجتها المتعالية المهذبة غرور القوم ، واحساسهم بالقوة .. أدركوا ان هناك من يتحداهم ويلوح لهم بالحرب والهزيمة ويطالبهم بقبول شروطه قبل وقوع الحرب والهزيمة ..

« قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين » [٢] ..

أراد رؤساء قومها ان يقولوا : نحن على استعداد للحرب .. ويبدو أن الملكة كانت أكثر حكمة من رؤساء قومها .. فان رسالة سليمان أثارت تفكيرها أكثر مما استنفرتها للحرب .

فكرت الملكة طويلا فى رسالة سليمان .. كان اسمه مجهولا لديها ، لم تسمع به من قبل ، وبالتالي كانت تجهل كل شيء عن قوته ، ربما يكون قويا الى الحد الذى يستطيع فيه غزو مملكتها وهزيمتها ، ونظرت الملكة حولها فرأت تقدم شعبيها وثراءه ، وخشيت على هذا الثراء والتقدم من الغزو .. ورجحت الحكمة فى نفسها على التهور ، وقررت أن تلجأ الى اللين ، وترسل اليه بهدية .. وقدرت فى نفسها انه ربما يكون طامعا قد سماع عن ثراء الملكة ، فحدثت نفسها بأن تهادنه وتشتري السلام منه بهدية ، قدرت فى نفسها أيضا ان ارسالها بهدية اليه ، سيمكن رسلها الذين يحملون الهدية من دخول مملكته ، واذن سيكون رسلها عيوننا فى مملكته .. يرجعون بأخبار قومه وجيشه ، وفى ضوء هذه المعلومات ، سيكون تقدير موقفها الحقيقى منه ممكنا ..

أخفت الملكة ما يدور فى نفسها ، وحدثت رؤساء قومها بأنها ترى استكشاف نوايا الملك سليمان ، عن طريق ارسال هدية اليه ، انتصرت الملكة للرأى الذى يقضى بالانتظار والترقب .. واقنعت رؤساء قومها بنبذ فكرة الحرب مؤقتا ، لأن الملوك اذا دخلوا قرية انقلبت أوضاعها وصار رؤساؤها هم أكثر من فيها تعرضا للهوان والذل .. واقنعت رؤساء قومها حين لوحث الملكة بما يتهدهم من أخطار ..

« قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها

(١) الآية ٣٢ سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٣٣ نفس السورة .

أذلة وكذلك يفعلون . وانى مرسله اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون [١] ..

.....

وصلت هدية الملكة بلقيس الى الملك النبي سليمان .

جاءته أجهزة استطلاعها نبأ وصول رسل بلقيس وهم يحملون الهدية . . وأدرك سليمان على الفور أن الملكة أرسلت رجالها ليعرفوا معلومات عن قوته لتقرر موقفها بشأنه . . ونادى سليمان في الملكة كلها أن يحتشد الحبيش .

ودخل رسل بلقيس وسط غابة كثيفة مدججة بالسلاح . . فوجيء رسل بلقيس بأن كل غناهم وثرانهم بيدو وسط بهاء مملكة سليمان . . شيئا مخجلا كالرقعة الفقيرة .

وصفرت هديتهم في أعينهم . . وكانت من الذهب ، وهم يسرون على أرضية قصور الملك سليمان وكانت تصنع من خشب الصندل المعطر المزين بالذهب .

ووقف رسل بلقيس مع سليمان ريثما ينتهي من استعراض جيشه ، وراحت أذهانهم تسجل عدد الجنود ونوعيتهم وكثرتهم ، ثم فوجئوا أن في الجيش أسودا ونمورا وطبورا وجنودا تنتقل عن طريق الطيران . . وتدلّت أفواههم من الدهشة وأدركوا أنهم أمام جيش لا يقاوم .

انتهى استعراض الجيش فدعى سفراء الملكة الى الغداء على مائدة الملك سليمان . وفوجيء السفراء بأنهم أمام أطعمة من أرجاء الأرض المختلفة . وتصدرت المائدة أطعمة تشتهر بلادهم بصنعها ولكنهم يرون لها مذاقا خاصا . كانت الأطباق التي يأكلون فيها من الذهب . وكان يخدمهم رجال يتحلون بذهب لا تتحلى به ملكتهم نفسها . . وكانت مائدة الطعام تضم طيورا وأسماكاً بحرية ولحوم أشياء لم يستطيعوا تمييزها . ولم يكن سليمان يشاركهم طعامهم ، كان يأكل في طبق من الخشب ، ويغمس الخبز الجاف في الزيت . . هذه وجبة طعامه المفضل .

أكل سليمان معهم صامتا مقطبا ، فأحسوا أن له حضورا قويا ومهابة صاعقة .

وانتهى الطعام فقدموا لسليمان هدية الملكة بلقيس على استحيااء شديد . كانت الهدية من الذهب . وكانت هدية قيمة بالنسبة اليهم ، لكنها هنا تبدو باهتة وفقيرة وسط هذا الثراء المدهش .

نظر سليمان الى هدية الملكة وأشاح ببصره .

((فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ ، فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون)) [٢] ..

(١) الايتان ٣٤ و ٣٥ سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٣٦ سورة النمل مكية .

كشفت الملك سليمان بكلماته القصيرة عن رفضه لهديتهم ، قوض مهمة السفراء وأفهمهم أنه لا يقبل شراء رضاه بالمال . يستطيعون شراء رضاه بثيء آخر . . . ((ألا تعلقو على وأتوني مسلمين)) [١] . . . أحال الى رسالته الأولى وعاد يتحدث ببطء . . .

« ارجع اليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أنلة وهم صاغرون » [٢] . . .

صرف الملك رسل الملكة بعد تهديده الذي بدا أمام أعينهم فاجما وحاسما شى نفس الوقت .

ورجا رسل الملكة بعد ما رأوه أن ينتظر الملك سليمان زيارة بلقيس بنفسها رجوه أن ينتظر حتى تجيئه الملكة فى مهمة سلام .

وصل رسل بلقيس الى سبأ . . . وهناك هرعوا الى الملكة وهم بتراب السفر وحدثوها أن بلادهم فى أزمة . . . حدثوها عن قوة سليمان واستحالة صد جيشه . . . أفهموها أنها ينبغي أن تزوره وتترضاه . . . وجهزت الملكة نفسها وبدأت رحلتها نحو مملكة سليمان . . .

جلس سليمان فى مجلس الملك وسط رؤساء قومه ووزرائه وقادة جنده وعلمائه . . .

كان يفكر فى بلقيس . . .

يعرف أنها فى الطريق اليه . . . تسوقها الرهبة لا الرغبة ، ويدفعها الخوف وليس الاقتناع . . . ويفكر سليمان قليلا فى عبادتها للشمس ، يفكر فى المعلومات التى حملتها اليه أجهزة مخابراته عن تقدمها فى الفنون والعلوم . . . ويتساءل سليمان بينه وبين نفسه أكون التقدم هو الذى عاقها عن الحق ، أكون قد فرحت بما وصلت اليه من قوة وتصورت أن القوة هى التقدم . . . ويقرر سليمان بينه وبين نفسه أن ييهرها بتقدمه ، لتعرف أن الاسلام الذى يدعوها اليه ، هو الذى يستطيع احتواء التقدم الحقيقى والقوة الحقيقية ، ولتقارن بين عقيدتها فى عبادة الشمس ، وبين النقطة التى وصلت اليها فى الصناعة والفنون والعلوم ، وتعقد موازنة بين هذا كله ، وعقيدة سليمان وما وصل اليه من تقدم .

كانت أجهزة مخابرات الملك سليمان قد حدثته أن أعجب العجائب فى مملكة سبأ ، هو عرش الملكة بلقيس . . .

كان مصنوعا من الذهب والجواهر الكريمة ، وكانت حجرة العرش وكريسي العرش آيتين فى فن الصناعة والسبك . . . وكانت الحراسة لا تغفل عن العرش لحظة . . .

واذن . . . يحضر لها سليمان عرشها هنا . . . فى مملكتها ، لتجلس عليه حين تجىء ، يريد أن ييهرها بقدرته التى يستمدتها من اسلامه . . . لتسلم

(١) الآية ٣١ سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٣٧ سورة النمل مكية .

هي الأخرى .. دارت هذه الخواطر في نفس سليمان فرفع رأسه والتفت لرجاله ((قال : يا أيها الملأ ، ايكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين)) [١]

أنظر كيف تشي عبارته بما يفكر فيه .. ان أنكاره كلها تدور حول اسلام عبدة الشمس .. حول هدايتهم الى الله .

كان أول من أجاب سليمان عفريت من الجن الذين سخرهم الله تعالى له :

((قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، واني عليه لقوى أمين)) [٢] ..

كان سليمان يقوم من مقامه بعد ساعة أو ساعتين .. وقد تعهد الجنى ان يحضره قبل ذلك .. ونحن مع مجلس سليمان في فلسطين .. والعرش في اليمن ، والمسافة بين العرش ومجلس سليمان تزيد على آلاف الأميال .. وأقوى الطائرات النفاثة التي نعرفها اليوم لا تستطيع أن تذهب وتجيء في ساعة .

غير أن الأمر هنا يتعلق بقوة الجن المجهولة .

لم يعلق سليمان بشيء على ما قاله عفريت الجن .. ويبدو أنه كان ينتظر أن يسمع عرضاً يحضر فيه عرش بلقيس أسرع من ذلك .. التفت سليمان نحو واحد هناك يجلس في الظل .

((قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلونى أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غنى كريم)) [٣] .

لم يكذ « الذي عنده علم من الكتاب » يقول جملة حتى كان العرش مستقراً عند سليمان .. استغرق احضاره أقل من رمشة العين حين تغلق وتفتح ..

لم يكشف السياق القرآنى عن شخصية من أحضر العرش .. اكتفى بالنص على أنه عنده علم من الكتاب .. لم يبين لنا أهو أحد الملائكة ، أو إنسان ، أو جن ، أيضاً أبهم السياق القرآنى كنه هذا الكتاب الذى يؤدى العلم بما فيه لمثل هذه القدرات الخارقة .

ترك السياق القرآنى الاسم وحقيقة الكتاب غارقين في غموض كثيف مقصود .. نحن أمام سر معجزة كبرى وقعت من واحد كان يجلس في مجلس سليمان .. والأصل أن الله يظهر معجزاته فحسب ، أما سر وقوع هذه المعجزات فلا يدريه إلا الله .. وهكذا يورد السياق القرآنى القصة لايضاح قدرة سليمان الخارقة ، وهى قدرة يؤكد وجودها العالم في مجلسه ، بعدها يصير من الفضول أن يسأل أحد من يكون هذا الذى عنده علم من الكتاب ، أهو جبريل عليه السلام أو آصف بن برخيا أو مخلوة ، آخر

(١) الآية ٢٨ سورة النمل مكية .
(٢) الآية ٣٩ سورة النمل مكية .
(٣) الآية ٤٠ سورة النمل مكية .

من الفضول أيضا أن نسأل عن هذا الكتاب .. وهل استخدم من يعلم بما فيه اسم الله الأعظم لاحضار العرش أم لا ..

كل هذه الأبحاث فضول وترف علقى وقد أبهمها السياق القرآنى فلا معنى للخوض فى تفاصيلها الغامضة .

هذا هو العرش ماثلا أمام سليمان .

تأمل تصرف سليمان بعد هذه المعجزة .. لم يستخفه الفرح بقدرته ، ولم يزهه الشعور بقوته ، وإنما أرجع الفضل لمالك الملك .. وشكر الله الذى يمتحنه بهذه القدرة ، ليرى أيشكر أم يكفر .

شكر سليمان خالقه أولا .. ثم تأمل عرش الملكة بعد ذلك .. كان العرش آية فى فن الصناعة ، لكنه كان فى نهاية الأمر يبدو شيئا عاديا الى جوار عظمة الصناعة التى يقوم بها الانس والجن فى مملكة سليمان .

تأمل سليمان عرش الملكة طويلا ثم أمر بتغييره .. أمر باجراء بعض التعديلات عليه ، ليمتحن بلقيس حين تأتى ، ويرى هل تهتدى الى عرشها أم تكون من الذين لا يهتدون .

« قال : نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدى أم تكون من الذين

لا يهتدون » [١] .

أمر سليمان ببناء قصر يستقبل فيه بلقيس .

اختار مكانا رائعا على البحر وأمر ببناء القصر بحيث يقع معظمه على مياه البحر ، أمر أن تصنع أرضية القصر من زجاج ثمين شديد الصلابة ، وعظيم الشفافية فى نفس الوقت ، لكى يسير السائر فى أرض القصر ويتأمل تحته الأسماك الملونة وهى تسبح ، ويرى اعشاب البحر وهى تتحرك .

تم بناء القصر ، ومن فرط نقاء الزجاج الذى صنعت منه أرض حجراته ، لم يكن يبدو أن هناك زجاجا .

تلاشت أرضية القصر فى البحر وصارت ستارا زجاجيا خفيا فوقه .

أخبر الهدهد سليمان أن بلقيس قد بلغت مشارف مملكته ..

جاءت بلقيس أخيرا ..

يتجاوز السياق القرآنى استقبال سليمان لها الى موقفين وقعا لها بتدبيره :

● موقفها أمام عرشها الذى سبقها بالجمء ، وقد تركته وراءها وعليه الحراس .

● موقفها أمام أرضية القصر البلورية الشفافة التى تسبح تحتها الأسماك .

(١) الآية ٤١ سورة النمل مكة .

((فلما جاءت ، قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين)) [١] . .

تصور الآية موقف الحوار بين سليمان وبلقيس . نظرت بلقيس الى عرشها فرأته عرشها تماما . . وليس عرشها تماما . اذا كان عرشها فكيف سبقها الى المجيء . . واذا لم يكن عرشها فكيف يمكن تقليده بهذه الدقة . .

قال سليمان وهو يراها تتأمل العرش : أهكذا عرشك ؟

قالت بلقيس بعد حيرة قصيرة : كأنه هو ! .

قال سليمان : وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين .

توحي عبارته الأخيرة الى الملكة بلقيس أن تقارن بين عقيدتها وعلومها ، وعقيدة سليمان المسلمة وحكمته . ان عبادتها للشمس ، ومبلغ العلم الذي هم عليه ، يصابان بالخسوف الكلي أمام علم سليمان واسلامه .

لقد سبقها سليمان الى العلم بالاسلام ، بعدها صار من السهل عليه أن يسبقها في العلوم الأخرى ، هذا ما توحي به كلمة سليمان لبلقيس . .

أدركت بلقيس أن هذا هو عرشها ، قد سبقها الى المجيء ونكرت فيه أجزاء وغيرت أجزاء وهي لم تزل تقطع الطريق لسليمان . .

أى قدرة يملكها هذا النبي الملك سليمان .

انبهرت بلقيس بما شاهدته من ايمان سليمان وصلاته لله ، مثلما انبهرت بما رأته من تقدمه في الصناعات والفنون والعلوم . . وأدهشها أكثر ، هذا الاتصال العميق بين اسلام سليمان وعلمه وحكمته « **وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، أنها كانت من قوم كافرين** » [٢] .

انتهى الأمر واهتزت داخل عقلها آلاف الأشياء . . رأته عقيدة قومها تتهاوى هنا أمام سليمان ، وأدركت أن الشمس التي يعبدها قومها ليست غير مخلوق خلقه الله تعالى وسخره لعباده ، وانكسفت الشمس للمرة الأولى في قلبها ، أضاء القلب نور جديد لا يغرب مثلما تغرب الشمس . .

صارت مسألة اعلانها لهذا الايمان مسألة وقت .

وقد أحسنت بلقيس اختيار الوقت الذي أعلنت فيه اسلامها .

قال تعالى :

((قيل لها : ادخلي الصرخ ، فلما رأته حسبنه لجة وكشفت عن ساقبها ، قال : أنه صرح مبرد من قوارير ، قالت : رب أنى ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)) [٣] . .

(١) الآية ٤٢ سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٤٣ سورة النمل مكية .

(٣) الآية ٤٤ سورة النمل مكية .

قيل لبلقيس ادخلى القصر . فلما نظرت لم تر الزجاج ، ورات المياه ، وحسبت أنها ستخوض البحر ، وكشفت عن ساقها حتى لا يبتل رداؤها .
نبتها سليمان — دون أن ينظر — الا تخاف على ثيابها من البلل . ليست هفاك مياه . انه صرح ممرد من قوارير . . انه زجاج ناعم لا يظهر من فرط نعومته .

اخترت بلقيس هذه اللحظة لاعلان اسلامها . اعترفت بظلمها لنفسها وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين . وتابعها قومها على الاسلام .
أدركت أنها تواجه أعظم ملوك الأرض ، وأحد أنبياء الله الكرام .
أضاء وجه سليمان بابتسامة راضية للمرة الأولى منذ زارته بلقيس .
ها هو ذا يحقق مجده الحقيقي ، وينشر نور الاسلام فى الأرض .

يسكت السياق القرآنى عن قصة بلقيس بعد اسلامها . . ويقول المفسرون أنها تزوجت سليمان بعد ذلك ويقال أنها تزوجت احد رجاله . . أحبته وتزوجته ، ويقال أن بعض ملوك الحبشة من نسل هذا الزواج ، ونحن لا ندري حقيقة هذا كله .

لقد سكت القرآن الكريم عن ذكر هذه التفاصيل التى لا تخدم قصة سليمان . . ولا نرى نحن داعيا للخوض فيما لا يعرف أحد .
عاش سليمان وسط مجد دانت له فيه الأرض . .

ثم قدر الله تعالى عليه الموت فمات . ومثلما كانت حياة سليمان قمة فى المجد الذى يمتلىء بالعجائب والخوارق . . كان موته آية من آيات الله تهتلىء بالعجائب والخوارق .

وهكذا جاء موته منسجما مع حياته ، متسقا مع مجده ، جاء نهاية فريدة لحياة فريدة وحافلة .

قال مالى فى سورة سبأ عن موت سليمان :

((فلما قضينا عليه الموت ، ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر ، تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين)) [١] .

كان تسخير الجن لسليمان واثتغالهم له واتصالهم به ورؤية الناس لهذا كله سببا فى فتنة الناس فى موضوع معين ، وقد وضع موت سليمان حدا لهذه الفتنة .

لا نعرف من الذى ادعى أن الجن تعلم الغيب . أهو شيطان شقى ، أم جنى ساذج ، أم بشر مخدوع . . لا نعرف المسئول عن انطلاق هذه الشائعة الخاطئة . . كل ما نعرفه انها انتشرت واستفحلت ووجدت آذانا صاغية من بعض الناس والجن . . ولعل الناس قالوا لأنفسهم : ما دامت الجن تقوم بكل هذه الأعمال الخارقة ، فما الذى يمنعهم من معرفة الغيب ،

(١) الآية ١٤ سورة سبأ مكة .

وهو عمل خارق .. وأغفل الناس أن معرفة الغيب مسألة تستحيل على الجن والانس والانبيا وكمل الخلائق .

لا يعرف الغيب الا صاحبه ، سبحانه وتعالى ، وحده ..

وقد قدر الله تعالى أن يكون موت سليمان عليه الصلاة والسلام منطويا على نفس هذه الفكرة . فكرة معرفة الجن للغيب ..

وكان الجن يعملون لسليمان طالما هو حى .. فلما مات انكسر تسخيرهم له ، وأغفوا من تبعه العمل معه .

وتسد مات سليمان دون أن يعلم الجن ، فظلوا يعملون له ، وظلوا مسخرين لخدمته ، ولو أنهم كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين .

دخل سليمان يوما محرابه للاعتكاف والعبادة والصلاة .

لم يكن هناك أحد يجرؤ على اقتحام خلوته فى محرابه .. وكان المحراب يقع على قمة جبل ، وقد صنعت جدرانه من البلور الذى يكشف ما وراءه

وجلس سليمان يوما متكئا على عصاه واستغرق فى التفكير ..

راح يذكر الله تعالى حتى نعس ..

هى لحظة واحدة وبعدها خرج ملك الموت عليه السلام من محرابه ..

مات سليمان ..

كان متكئا على عصاه فظل على وضعه متكئا على العصا .

ورآه الجن فظنوا انه يصلى واستمروا فى عملهم ..

ومرت أيام طويلة ..

ثم جاءت دابة الأرض ، وهى نملة تأكل الخشب ، وبدأت تأكل عصا سليمان .

كانت جائعة فأكلت جزءا من العصا .

استمرت النملة تأكل العصا أياما .. كانت تأكل الجزء الملامس للأرض ، فلما ازداد ما أكلته منها اختلت العصا وسقطت من يد سليمان ..

اختل بعدها توازن الجسد العظيم فهوى الى الأرض ..

ارتطم الجسد العظيم بالأرض فهرع الناس اليه ..

أدركوا أنه مات من زمن .. تبين الجن أنهم لا يعلمون الغيب .. وعرف الناس هذه الحقيقة أيضا . لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، ما لبثوا يعملون وهم يظنون أن سليمان حى ، بينما هو

ميت منذ فترة ..

.. .. .

وهكذا مات نبي الله سليمان .. وهو جالس يصلى ويذكر الله فى محرابه .. انتشر الخبر كالحريق فى الأرض ..

وشيعت الناس والطيور والوحوش جنازة النبي الملك سليمان ..
أظلت نعشه آلاف الطيور الباكية .. وسارت في جنازته الوحوش وقد
انكسر شرها من الحزن ..
كانت الطيور تبكى سليمان ، وتبكي نفسها في نفس الوقت ..
انتهى الأمر ولن يعرف لغتها بعد الآن في الأرض أحد ..
مات من كان يفهم منطق الطير ..
وما أبقى الحياة وسط من لا يفهم منطقتنا ..

هيكل سليمان

كان هيكل سليمان في اورشليم هو مركز العبادة اليهودية ورمز تاريخ اليهود وموضع فخارهم وزهوهم .. وقد شيده الملك سليمان وانفق ببذخ عظيم على بنائه وزخرفته .. حتى لقد احتاج في ذلك الى أكثر من ١٨٠ ألف عامل [سفر الملوك الأول] وقد أتى له سليمان بالذهب من ترشيش ، وبالخشب من لبنان ، وبالأحجار الكريمة من اليمن ، ثم بعد سبع سنوات من العمل المتواصل تكامل بناء الهيكل ، فكان آية من آيات الدنيا في ذلك الزمان .

وامتدت يد الخراب الى الهيكل مرات عدة ، اذ كان هدفا دائما للغزاة والطامعين يتهبون ما به من كنوز ، ثم يشيعون فيه الدمار [سفر الملوك الثاني] .. ثم قام أحد الملوك بتجديد بنائه تحببا في اليهود .. فاستغرق بناء الهيكل هذه المرة ٤٦ سنة ، أصبح بعدها صرحا ضخما تحيط به ثلاثة أسوار هائلة .. وكان مكونا من ساحتين كبيرتين : احدهما خارجية والاخرى داخلية ، وكانت تحيط بالساحة الداخلية أروقة شامخة تقوم على أعمدة مزدوجة من الرخام ، وتغطيها سقف من خشب الأرز الثمين . وكانت الأروقة القائمة في الجهة الجنوبية من الهيكل ترتكز على ١٦٢ عمودا ، كل منها من الضخامة بحيث لا يمكن لأقل من ثلاثة رجال متشابكي الأذرع أن يحيطوا بدائره . وكان للساحة الخارجية من الهيكل تسع بوابات ضخمة مغطاة بالذهب . وبوابة عاشره مصبوبة كلها — على الرغم من حجمها الهائل — من نحاس كورنثوس . وقد تدلت فوق تلك البوابات كلها زخارف على شكل عناقيد العنب الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص وقد استمرت هدايا الملوك للهيكل حتى آخر زمانه [سفر الملوك الأول] فكان يزخر بالكنوز التي لا تقدر بثمن ..

كان الغرض الأصلي من بناء هيكل سليمان هو عبادة الله سبحانه وتعالى فيه . كان الهيكل مسجدا للموحدين المؤمنين .. ولم يكن رونقه وعظمة بنائه ليصرفا الناس حين أقامه سليمان عن عبادة الله ودعوته فيه .. ولعل عظمة البناء كانت رمزا لقوة الدولة وعظمة عقيدتها ..

غير أن تتابع الأيام وتوالى الليالي لا يترك شيئا على جاله .. والعادة أن الدعوات لله تبدأ وليدة ثم تكبر ثم تزدهر ثم تبدأ خط انحدارها نحو التمسك بالقشور وهجر الجوهر .

ولقد حدث لهيكل سليمان ما حدث لغيره من أماكن العبادة .

كان الهيكل رمزا للتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ..
ثم مرت السنوات وتحول الهيكل الى قشرة لامعة من الذهب تخفى
تحتها ما صار اليه أمر الديانة اليهودية .

اعتدى اليهود على قدسية الهيكل ، واهانوا رونقه وبهاءه ، وأحالوه الى
سوق للبيع والشراء . فتزاحم في ساحته بائعو الثيران والكباش والحمام ،
حتى امتلا بهم الرواق وأصبح لقطارته أشبه بمربط البهائم ، واكتنفت
مداخل الهيكل مكاتب الصيارفة التي يتعالى منها رنين النقود مختلطا بصوت
المساومات والناس يستبدلون ما بيدهم من دراهم [انجيل متى] ..

وكان اليهود يقيمون وزنا كبيرا للنقود في حياتهم ، وساعدت قسوة
القلوب وصلابتها وسقوط الايمان باليوم الآخر من النفوس ، ساعد هذا
كله على دمغ المجتمع بمادية صارخة ، وتسلمت هذه المادية الى عبادة
اليهود ، فصار تقديم القرابين وشراؤها من الهيكل هما طريق المغفران
الوحيد ..

وحين فقد الهيكل حقيقة جوهره . وصار سوقا تجارية . بعث الله
عليه من دمر الديار ودمره معها .

قال تعالى في شأن خراب بيت المقدس وهدم هيكل سليمان :

« وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض
مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا . فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم
عبادا لنا اولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدنا مفعولا .
ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامدناكم باموال وبنين ، وجعلناكم أكثر
نفيرا . ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها ، فاذا جاء
وعد الآخرة ليسوعوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول
مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم ان يرحمكم ، وان عدتم
عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » [١] .

تشير آيات الحق الى قانون ازلى لا يتخلف فى حياة الشعوب والأمم ..
تظل هذه الأمم قوية ما ظلت صلتها بالله صحيحة وقوية ، فاذا هجر الناس
جوهر القوة ، وهو الاستمداد من الله ، وانصرفوا الى مظاهر العبادة دون
حقيقتها ، وخطف ابصارهم بريق الترف ، وتاجروا بالديانة بدل خضوعهم
لله .. اذا وقع هذا بدأ عصر انحدار الأمم .. وساق الله اليها من يجوس
خلال الديار .

وتأمل أنت جرس التعبير وموسيقاه .. وكيف يوحى بالخراب العظيم
الشامل .

يذكر المفسرون ما كان من أمر هدم هيكل سليمان وخراب بيت المقدس
فيقولون : أوحى الله تعالى الى نبي من انبياء بنى اسرائيل يقال له أرميا حين
ظهرت فيهم المعاصي : أن تم بين قومك فأخبرهم أن لهم قلوبا ولا يفقهون
واعينا ولا يبصرون ، وأذانا ولا يسمعون .

(١) الآيات ٤ الى ٨ سورة الاسراء مكة .

ويهمضى الوحى الى النبى فيخبره ان يسأل بنى اسرائيل : هل سعد أحد ممن عصى الله بمعصيته ، وهل شقى أحد ممن اطاع الله بطاعته .

ان الدواب تذكر أوطانها وتعود اليها ، أما هؤلاء القوم فهم يهجرون وطنهم الحقيقى ، وهو جوهر التوحيد ، هم اذن شر من الدواب ..

ويهمضى الوحى مصورا ما كان عليه امر بنى اسرائيل فيقول :

ان الاحبار أنكروا حق الله تعالى .

والقراء عبدوا غير الله تعالى .

والنساك لم ينتفعوا بما علموا ..

أما الولاة فكذبوا على الله وعلى انبيائه . خزنوا المكر فى قلوبهم وعودوا السننهم الكذب ..

وتهمضى الكلمات الالهية مفصلة ما كان عليه الاحبار والقراء والنساك والولاة . اصطنع الاحبار آلهة من عباد الله ، واقتنعوا الناس بعبادة الناس فدان لهم عباد الله بطاعة لا تنبغى الا الله عز وجل .

أما الملوك والأمراء فبظروا نعمة الله وأمنوا مكره وغرتهم الدنيا فنبذوا كتاب الله ونسوا عهده ، فهم يحرفون كتاب الله [يقصد التوراة] ويفترون على رسله ويقتلونهم بغير الحق .

أما القراء والفقهاء فيدرسون ما يتخيرون ، يأخذون بعض الكتاب ويتركون بعضه ، وينقادون للملوك ويتابعونهم على البدع التى اخترعونها فى دين الله ويطيعونهم فى معصية الله . ويوفون لهم بالعهد الناقضة لعهد الله عز وجل .

أما أولاد الانبياء فمقهورون مفتونون ، يخوضون مع الخائضين ويتمنون أن ينصرهم الله مثلما نصر آباءهم ، ولا يذكرون ورع آبائهم ولا كيف بذلوا دماءهم وصبروا وصدقوا حتى أعز الله أمره وأظهر دينه .

تمضى نبوءة ارميا فيحدث قومه ان الله تعالى يعطيهم فرصة اخيرة لليقظة والعودة لدينه وتوحيده .. والا بعث الله تعالى عليهم ملكا جبارا عساكره كقطع السحاب يعيدون العمران خرابا ويتركون القرى موحشة ..

يقول ابن كثير نقلا عن لفظ ابن عساكر .

« فياويل ايلىا وسكانها ، كيف أذلهم للقتل ، واسلط عليهم الأسر ، وأعيد بعد لجب الأعراس سراخا ، وبعد سهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد شرفات القصور مساكن السباع ، ولأدوسنهم بالوان العذاب ، ثم لأمرن السماء فتكون طبقا من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فان أمطرت لم تنبت الأرض ، وان أنبتت شيئا فى خلال ذلك فبرحمتى للبهائم ، فان زرعوا فى خلال ذلك شيئا سلطت عليه الآفة فان خلص منه شيء نزعته منه البركة . فان دعوا لم أجبهم ، وان سألوا لم أعطهم ، وان بكوا لم أرحمهم ، وان تضرعوا صرفت وجهى عنهم » .

ساق ايلىا نبوءته لقومه ودعاهم الى الله وخوفهم بالخراب الشامل ،

واستقبل اليهود دعوته بالتكذيب والعصيان ، واتهموه بالكذب وقالوا له :
كيف تكذب وتزعم أن الله سيعطل أرضه ومساجده ، فمن يعبده حين لا يبقى
على الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب . لقد جننت يا ايليا .

وانتهى الصراع بين ايليا وقومه الى سجنه ..

فى نفس هذا الوقت ..

كان جيش بختنصر ينحدر نحوهم ..

واستيقظ اليهود يوما على وقع سنابك الخيل وأزيز السهام ورائحة
الحرانق . وحاصر الجيش المهاجم أسوار المدن .. ثم تهاوت الأبواب تحت
نعال المهاجمين ، ودخلوا القرى والمدن ..

جاسوا خلال الديار .

حكم قائد الجيش المهاجم فى اليهود بحكم الجاهلية وبطش بهم بطش
الجبارين . قتل منهم الثلث ، وأسر الثلث ، وترك العجائز والشيوخ .
وطنهم بالخييل وهدم بيت المقدس ودمر الهيكل ، وقتل الرجال وخرّب
الحصون ، وهدم دور العبادة وحرق التوراة وقتل علماءها وفقهاءها فلم يبق
منهم أحد . وقذف الكناسات فى بيت المقدس وذبح فيه الخنازير وأشعل
النار فى كل شىء ثم استدار عائدا يسوق الأسرى أمامه .

مئات الألوف من النساء والأطفال .

وران الخراب على المنطقة كلها ..

لم تعد مساكن اليهود تصلح لاحد غير البوم والوحوش ..

وتفرق من فر من بنى اسرائيل فى البلاد فى ذلك الزمان . وظل المكان
مقفرا لزمن طويل حتى أذن الله تعالى لن بئى من أحفاد القوم بالعودة
معداوا .

وخلال هذه الأحداث الدامية كلها ..

كان عزيز نائما و ميتا .. وكان هو الوحيد الذى يحفظ التوراة .

عزير

[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة البقرة :

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال :
انى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأمانه الله مائة عام ثم بعثه ، قال :
كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام ،
فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ، ولنجعلك
آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ،
فلما تبين له قال : اعلم ان الله على كل شىء قدير » [١] .

.....

الشهير عند جمهور السلف والخلف ان عزيرا هو بطل هذه القصة التى
يحكيها الحق تبارك وتعالى .. ويقال ان عزيرا كان نبيا . من انبياء بنى
اسرائيل .

وكان يحفظ التوراة ، ثم وقعت له قصة مدهشة ، فقد امانه الله مائة
عام ثم بعثه . وخلال هذا القرن الكامل الذى نام فيه عزير ، وقعت حرب
بختنصر ، التى أحرقت فيها التوراة ، فلم يبق منها شىء الا ما حفظت الرجال .
وقد كانت معجزة عزير مصدر فتنة بالغة لقومه .

.....

كان اليوم حارا .. أحس فيه كل شىء بالعطش ..

وكانت القرية التى يعيش فيها « عزير » تمضى يوما هادئا من أيام
الصيف الذى ثقل فيه الحركة .. وفكر « عزير » ان حديقته تحتاج الى الري
.. وكانت الحديقة بعيدة ، والطريق اليها شاقا ، تتوسطه مقبرة كانت قبل
ذلك مدينة عامرة بسكانها ثم امتدت اليها يد الموت فذهب ضجيج الحياة
وبقى صمت القبور .

وفكر « عزير » فى نفسه : ان اشجار حديقته لا بد انها تحس العطش ،
وقرر ان يخرج ليستقيها .. وخرج العبد الحكيم الصالح احد انبياء بنى
اسرائيل من قرينته والشمس فى أول النهار .. ركب حماره وبدأ رحلته ..

(١) الآية ٢٥٩ مدنية .

ظل يسير حتى وصل الى الحديقة .. اكتشف أن اشجارها عطشى ، وأرضها مشققة وجافة .. سقى الحديقة ، وقطف من حقل التين بعض ثمار التين ، وأخذ من تكعيبة العنب بعض العنب ، ووضع التين فى سلة ، والعنب فى سلة ، وانصرف عائداً من الحديقة .

راح الحمار يسير فى الحر وهو يحمل « عزيزا » . وكان « عزيز » يفكر أثناء سيره فى مهامه التى عليه أن يؤديها غدا . كانت أول هذه الواجبات هى اخراج التوراة من مخبئها ووضعها فى المعبد .. فكر أن عليه أن يحمل طعام الأبقار اليها ، وفكر فى ابنه الطفل وتذكر ابتسامته الحلوة حين يراه ، وراح يسرع فى سيره ويستحث الحمار حتى قطع نصف الطريق ، ووصل الى المقبرة .. كانت الحرارة قد اشتدت لدرجة كبيرة ، وكان الحمار قد تعب من السير ، وراح جسده المغطى بالعرق يلمع تحت أشعة الشمس ، فيبدو الحمار كما لو كان خارجا من النهر ..

وثباطاً الحمار فى سيره حين وصل الى المقابر .. وقال « عزيز » لنفسه : أهبط قليلا لأستريح وأريح الحمار وأتناول طعام الغداء ..

وهبط « عزيز » فى احدى المقابر الخربة المهذمة ، وكانت كل القرية مقابر خربة مهذمة . وأخرج صحنا كان معه وجلس فى الظل . ربط الحمار فى حائط قريب وأخرج بعض الخبز الجاف ووضعها الى جواره وعصر فى صحنه العنب ، ثم ألقى الخبز الجاف فى العصير وأسند ظهره للحائط ومدد قدميه قليلا ، وجلس ينتظر أن يفقد الخبز قسوته وجفافه وهو فى عصير العنب .. وطاف « العزيز » ببصره حوله ، وراح يتأمل المنظر ..

كل شئ صامت وميت وخراب ..

البيوت تهدمت معظم جدرانها ، وبقيت أعمدة هناك تتهيا للسقوط ..

الأشجار القليلة فى المنطقة صفراء يقتلها العطش ..

عظام الموتى الباقية ممن دفنوا هناك تحولت الى ما يشبه التراب ..

والصمت يعيش فى المكان ، وينشر أجنحته الساكنة على الأرض .

وأحس « عزيز » بقسوة الموت وثقل الخراب .. فتساءل داخل نفسه :

« أنى يحيى هذه الله بعد موتها » [١] .

تساءل كيف يحيى الله هذه العظام بعد موتها ، وتحولها الى ما يشبه التراب . لم يكن « عزيز » يشك أن الله سيحيى هذه العظام ، إنما قالها تعجبا ودهشة .. ولم يكذب « عزيز » يقول كلماته حتى مات ..

أرسل الله اليه ملك الموت عليه السلام ، فقبض روحه .. وتمدد الحمار فى مكانه حين رأى صمت صاحبه وسكون جسده .. وظل الحمار ممدداً فى مكانه حتى غربت الشمس وجاء الصباح .. وحاول الحمار أن ينهض وينصرف ولكنه كان مقيدا . وظل فى مكانه لا يستطيع التخلص من قيده حتى مات من الجوع . وتمدد الحمار على الأرض الى جوار صاحبه

(١) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة مدنية .

واستبطا أهل القرية « عزيرا » .. خرجوا يبحثون عنه ..

ذهبوا الى حديقته فلم يجدوه هناك . عاذوا الى القرية فلم يعثروا له على أثر ، وقرروا تكوين جماعات للبحث عنه ، وراحت هذه الجماعات تبحث في كل اتجاه فلم تجد « عزيرا » ولم تجد حماره .. وكانت هذه الجماعات تمر على المقابر التي ماتت فيها « عزير » فلا تتوقف عندها . ان كل شيء صامت هنا وميت ولو كان « عزير » موجودا لسمعوا صوته ، ثم ان هذه المقابر المهذمة تخيفهم ، ولهذا لم يبحثوا فيها بجد ، ومرة أيام وأيام ، ويئس الناس من عودة « عزير » ، وتأكد ابناؤه انهم لن يروه مرة ثانية ، وعرفت زوجته انها ستحرم رعايته لابنائها وحبها لها ، وجلست تبكيه طويلا ، غير أن الزمن بطبيعته يجفف الدموع كما يخفف الألم ، ومسح الناس دموعهم ، وبدأوا ينسون عزيرا وينشغلون في مشاكل الحياة اليومية ومرة سنوات ، ونسى الناس « عزيرا » ما عدا اصغر ابنائه ، وامرأة كانت تعمل شغالة في بيتهم ، كان « عزير » يعطف عليها ، وكان عمرها عشرين عاما حين خرج « عزير » من القرية .

ومرة عشر سنوات ، عشرون سنة ، ثمانون سنة ، تسعون سنة ، حتى أنتهى قرن بأكمله .. مرت مائة عام .

وشاء الله تعالى أن يستيقظ « عزير » .

ارسل الله اليه ملكا اضاء النور في قلبه ، ليرى كيف يبعث الله الموتى .

كان «عزير» ميتا منذ مائة عام .. ورغم ذلك فما هو ذا يتحول من التراب الى العظام الى اللحم ، الى الجلد ، ثم يبعث الله فيه الحياة بالأمر فينهض جالسا في مكانه .

جلس « عزير » في مكانه ، فرك عينيه ، استيقظ من موت استمر مائة عام .. تجول ببصره حوله فرأى المقابر حوله ، وتذكر أنه نام .. آه .. كان عائدا من حديقته الى القرية فنام في المقابر .. نعم .. هذا ماحدث تماما .. كانت الشمس تنهيا للغروب ، وكان هو قد نام في الظهيرة .
قال لنفسه :

— لقد نمت طويلا . ربما من الظهيرة الى المغرب .

سأله الملك الذى أمره الله بايقاظه :

— كم لبثت ؟ [١] .

ان الملك يسأله : كم ساعة نام ؟ واجابه : « لبثت يوما أو بعض يوم » [٢] .

قال له الملك الكريم :

« بل لبثت مائة عام » .. [٣] .

(١ ، ٢ ، ٣) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة مدنية .

أنت نائم منذ مائة سنة .. ميت منذ مائة عام .. أماتك الله وبعثك
لتعرف الجواب عن سؤالك حين تعجبت ودهشت من بعث الموتى .
أحس « عزيز » بالدهشة تنسحب من نفسه ويحل بدلها إيمان عميق
بقدره الخالق .

قال الملك وهو يشير إلى طعام « عزيز » :

— « أنظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه » [١] ..

نظر « عزيز » الى التين فوجده كما هو .. لم يتغير لونه ولا طعمه ولم
ينسد . لقد مرت عليه مائة سنة فكيف بقى الطعام على حاله ؟ ! . ونظر
« عزيز » الى الصحن الذى عصر فيه العنب ووضع فيه الخبز الجاف ،
فوجده على حاله الذى تركه عليه .. كما هو .. ما زال شراب العنب
صالحا للشرب ، وما زال الخبز ينتظر أن يفقد قسوته وجفافه وهو مغموس
فى عصير العنب .

وامتلا « عزيز » بالدهشة .. كيف تمر مائة سنة على عصير العنب
ويظل على حاله بغير تغيير .. بينما هو يتغير بعد ساعات ويفسد ..
وكانها أحس الملك أن « عزيزا » لم يصدق ما قاله .. ولهذا أشار الملك
الى الحمار .. قال « لعزير » :

— « وانظر الى حمارك » [٢] .

ونظر « عزيز » الى حماره فلم يجد غير تراب عظام حماره .

قال له الملك : هل تريد أن ترى كيف يحيى الله الموتى .. ؟

انظر الى الأرض .. الى التراب الذى كان قبل ذلك حمارك ..

نادى الملك عظام الحمار ، فأجابت ذرات التراب ، وراحت تتجمع
وتتسابق من كل ناحية حتى تكونت العظام .. أمر الملك العروق ،
والاعصاب ، واللحم ، أن تتكون .. وراح اللحم يكسو عظام الحمار
و « عزيز » ينظر ..

انتهى تكوين اللحم فنبت فوقه الجلد ، والشعر ، وعاد الحمار كما كان
لحظة الموت .. جسدا بغير روح .. وأمر الملك روح الحمار أن تعود اليه ،
فعدت اليه ، ونهض الحمار واقفا ، رفع ذيله وبدأ ينهق . كان الحمار ميتا
من الجوع هذه المرة ..

شاهد « عزيز » هذه الآية الكبرى تقع أمامه ، شاهد معجزة الله فى
بعث الموتى بعد تحويلهم الى عظام وتراب ..

قال « عزيز » بعد أن رأى المعجزة تقع أمامه :

— « أعلم أن الله على كل شيء قدير » [٣] ..

نهض « عزير » وركب حماره ، وانصرف عائدا الى قريته . كان الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل عزيرا آية للناس ، ومعجزة حية على صدق البعث وقيامة الأموات .

دخل « عزير » قريته ساعة الغروب . . . أنكر فى قلبه هذا التحول الذى وقع فى القرية . . . تغيرت البيوت والشوارع ، والتاس ، والوجوه ، والأطفال . . . لا يعرف أحدا هنا ولا يعرفه أحد .

خرج « عزير » من القرية وعمره أربعون سنة ، ويعود اليها وعمره أربعون سنة . عاد اليها كما خرج . . .

بعثه الله من موته كما كان عند موته ، شابا فى الأربعين ، لكن قريته عاشت مائة عام ، فتهدمت البيوت وتغيرت الشوارع والوجوه .

قال « عزير » لنفسه أبحث عن رجل عجوز أو امرأة عجوز تذكرنى . ظل يبحث حتى عثر على خادمته التى تركها فى العشرين من عمرها . . . كان عمرها الآن ١٢٠ سنة ، تهدمت قواها وسقطت أسنانها ، وراح بصرها وكانت تشبه مجموعة من العظام المكسوة بالجلد .

سألها « عزير » :

— أيتها العجوز الطيبة . . . أين منزل عزير ؟ .

بكت المرأة وقالت : لم يعد يذكره أحد . . . خرج منذ مائة عام فلم يعد . . . فليرحمه الله . . .

قال « عزير » للمرأة :

اننى أنا عزير . . . ألا تعرفيننى . . . لقد أمانتى الله مائة عام وبعثنى من الموت . . .

ثالت المرأة وهى لا تصدقه : كان عزير مستجاب الدعوة . . . ادع الله لى أن أبصر وأمشى لأراك وأعرفك . . .

ودعا لها « عزير » أن تبصر وتمشى ، فرد الله اليها بصرها وقوتها فعرفت أنه « عزير » . . . وأسرعت تجرى فى البلدة كلها وهى تصرخ :

ان عزيرا قد عاد . . . ودهش الناس وظنوا أنها قد جنت . ثم اجتمع مجلس الحكماء والعلماء ، وكان فيهم ابن لابن عزير ، كان أبوه قد مات وكان الحفيد فى السبعين من عمره . . . وكان جده وهو « عزير » فى الأربعين من عمره .

اجتمع مجلس العلماء والحكماء ، واستمعوا لقصة « عزير » ، ولم يعرفوا هل يصدقونه أم يكذبونه . ثم سأله أحد الحكماء :

— نسمع من آبائنا وأجدادنا أن « عزيرا » كان نبيا ، وكان يحفظ التوراة فى صدره . . . وقد ضاعت التوراة فى حرب بختنصر . . . أحرقتها وقتل العلماء والقراء . . . وقع هذا فى المائة عام التى تقول أنك مت فيها أو نمت . . . لو كنت تحفظ التوراة لصدقنا أنك عزير .

أدرك عزيز انه لم يبق فى بنى اسرائيل من يحفظ التوراة . أدرك أن تواترها قد انقطع .. وكان عزيز قد خباها حماية من الأعداء .

وجلس عزيز فى ظل شجرة وبنو اسرائيل حوله فنسخ لهم التوراة .. نسخها حرفا بحرف حتى انتهى منها ثم قال لنفسه : استخرج الآن التوراة التى دفنتها لأضاهيها على ما حدثت عنه القوم ، انطلق الى ذلك الموضع فاستخرج التوراة ، وكان الورق قد تحلل وتعفن .. وأدرك لماذا أماته الله مائة عام ثم بعثه .

انتشرت أخبار معجزة عزيز بين بنى اسرائيل .. وحملت المعجزة معها فتنة قاسية لقومه . ادعى ناس من قومه أن عزيزا ابن الله ..

قال تعالى : **« وقالت اليهود : عزيز ابن الله »** [١] ..

فى البداية ، قارنوا بين عزيز وموسى وقالوا :

— لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة الا فى كتاب . أما عزيز فجاءنا بها من غير كتاب ..

بعد هذه المقارنة الظالمة ، انتهوا الى نتيجة خاطئة فنسبوا نبينهم بالبنوة الى الحق عز وجل .. سبحان الله وتعالى علوا كبيرا على ذلك .

« ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » [٢] ..

(١) من الآية ٣٠ سورة التوبة مدنية .
(٢) من الآية ٣٥ سورة مريم مكية .

زكريا . [عليه الصلاة والسلام]

كان لهذا العصر طعم غريب . صنعته آلاف الأشياء المختلفة المتعارضة التي عاشت معا فى صراع لا يهدأ .

الايمان بالله يضىء المسجد العظيم فى بيت المقدس ، على حين يعيش الكذب فى سوق اليهود المجاور ، الذى يبعد خطوات عن المسجد .

وكعادة الدنيا كان كل شىء يتصارع مع ضده ، الخير والشر ، النور والظلام ، الحقيقة والكذب ، الانبياء والطغاة ، كل شىء كان يعيش صراعه من أجل البقاء .

وفى هذا العصر القديم .. كان هناك نبي .. وعالم عظيم يصلى بالناس .. كان اسم النبي « زكريا » عليه السلام .. أما العالم العظيم الذى اختاره الله للصلاة بالناس . فكان اسمه « عمران » .. عليه السلام .

وكان عمران زوجا ، وكانت زوجته تتمنى أن تلد ..

واشرف هذا الصباح على المدينة فخرجت زوجة « عمران » تطعم الطيور وشاهدت منظرا وقفت أمامه طويلا تتأمل ..

كان هناك طائر يطعم ابنه الطفل فى فيه .. ويسقيه . ويأخذه تحت جناحه خوفا عليه من البرد .. وذكرها هذا المشهد بنفسها فتبنت على الله أن تلد .. ورفعت يديها وراحت تدعو خالقها أن يرزقها بطفل .

واستجاب لها رحمة الله فأحست ذات يوم أنها حامل ، وملاها الفرح والشكر لله فنذرت ما فى بطنها محررا لله ..

((اذ قالت امرأة عمران : رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا ،

فتقبل منى ، انك انت السميع العليم)) [١] ..

كان معنى هذا أنها نذرت لله أن يكون ابنها خادما للمسجد طوال حياته .. يتفرغ لعبادة الله وخدمة بيته ..

وجاء يوم الوضع ووضعت زوجة عمران بنتا ، وفوجئت الأم ، كانت تريد ولدا ليكون فى خدمة المسجد والعبادة ، فلما جاء المولود أنثى قررت الأم أن تفى بنذرها لله رغم أن الذكر ليس كالأنثى ..

(١) الآية ٣٥ سورة آل عمران مدنية .

« فلما وضعتها قالت :

رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر
كالأنثى ، وانى سميتها مريم » [١] . .

سمع الله سبحانه وتعالى دعاء زوجة عمران ، والله يسمع ما نقوله ،
وما نهمس به لأنفسنا ، وما نتمنى أن نقوله ولا نفعل . . يسمع الله هذا
كله ويعرفه . .

سمع الله زوجة عمران وهى تخبره أنها قد وضعت بنتا ، والله أعلم
بما وضعت ، الله هو وحده الذى يختار نوع المولود فيخلقه ذكرا أو يخلقه
أنثى . .

سمع الله زوجة عمران تسأله أن يحفظ هذه الفتاة التى سميتها مريم ،
وأن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم .

« وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها
بقبول حسن وأنبأها نباتا حسنا وكفلها زكريا » [٢] . .

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء زوجة عمران ، وأم مريم ، تقبل
الله مريم بقبول حسن وأنبأها نباتا حسنا ، وشاعت رحمته أن تكون هذه
الفتاة أفضل نساء العالمين ، وأن تكون أما لنبي يجيء ميلاده معجزة كميلاد
آدم . . جاء آدم عليه السلام من غير أب أو أم ، وجاء عيسى عليه السلام
من غير أب . . جاء من أم طاهرة لم تتزوج ولم يمسه بشر .

أثار ميلاد مريم ابنة عمران مشكلة صغيرة فى مبدأ الأمر .

كان عمران قد مات قبل ولادة مريم . . وأراد علماء ذلك الزمان وشيوخه
أن يربوا مريم . .

كل واحد يتسابق لنيل هذا الشرف . . أن يربى ابنة شيخهم الجليل
العالم وصاحب صلاتهم وامامهم فيها . .

قال « زكريا » : أكفلها أنا . . هى قريبتى . . زوجتى هى خالتها . .
وأنا نبي هذه الأمة وأولاكم بها .

وقال العلماء والشيوخ : ولماذا لا يكفلها أحدنا . . لا نستطيع أن نترك
تحصل على هذا الفضل بغير اشتراكنا فيه .

وكادوا يختصمون لولا أن اتفقوا على إجراء قرعة . أى واحد يكسب
القرعة هو الذى يكفل مريم ، ويربها ، ويكون له شرف خدمتها ، حتى
تكبر هى وتخدم المسجد وتتفرغ لعبادة الله .

وأجريت القرعة . . وضعت مريم وهى مولودة على الأرض ، ووضعت
الى جوارها أنثى الذين يرغبون فى كفالها . . وأحضروا طفلا صغيرا
فأخرج الطفل قلم زكريا . .

(١) من الآية ٣٦ سورة آل عمران مدنية .
(٢) من الآية ٣٦ وآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .

قال زكريا : حكم الله لى بأن أكفلها .

قال العلماء والشيوخ : لا .. القرعة ثلاث مرات .

وراحوا يفكرون فى القرعة الثانية .. حفر كل واحد اسمه على قلم خشبى ، وقالوا : نلقى بأقلامنا فى النهر .. من سار قلمه ضد التيار وحده فهو الغالب .

قال تعالى : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » [١] .

والقوا أقلامهم فى النهر ، فسارت أقلامهم جميعا مع التيار ماعدا قلم « زكريا » . سار وحده ضد التيار .. وظن « زكريا » أنهم سيقتنعون ، ولكنهم أصروا على أن تكون القرعة ثلاث مرات .

قالوا : نلقى أقلامنا فى النهر ، القلم الذى يسير مع التيار وحده يأخذ صاحبه مريم .

والقوا أقلامهم فسارت جميعا ضد التيار ما عدا قلم زكريا ..

وسلموا لـ « زكريا » ، وأعطوه مريم ليكفلها ..

وبدأ « زكريا » يخدم مريم ، ويربيها ويكرمها حتى كبرت ..

كان لها مكان خاص تعيش فيه فى المسجد .. كان لها محراب تتعبد فيه .. وكانت لا تغادر مكانها الا قليلا .. يذهب وقتها كله فى الصلاة والعبادة .. والذكر والشكر والحب لله ..

وكان « زكريا » يزورها أحيانا فى المحراب ..

وكان يفاعا كلما دخل عليها أنه أمام شىء مدهش .

يكون الوقت صيفا فيجد عندها فاكهة الشتاء ، ويكون الوقت شتاء فيجد عندها فاكهة الصيف .. ويسألها زكريا من أين جاءها هذا الرزق .. فتجيب مريم أنه من عند الله ..

وتكرر هذا المشهد أكثر من مرة ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » [٢] ..

كان « زكريا » شيخا عجوزا ضعف عظمه ، واشتعل رأسه بالشعر الأبيض ، وأحس أنه لن يعيش طويلا .. وكانت زوجته وهى خالة مريم عجوزا مثله ولم تلد من قبل فى حياتها لأنها عاقر .. وكان « زكريا » يتمنى أن يكون له ولد يرث علمه ويصير نبيا ويستطيع أن يهدى قومه ويدعوهم الى كتاب الله ومغفرته ..

وكان « زكريا » لا يقول أفكاره هذه لأحد .. حتى لزوجته .. ولكن الله تعالى كان يعرفها قبل أن تقال .

(١) من الآية ٤٤ سورة آل عمران مدنية .

(٢) من الآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .

ودخل « زكريا » ذلك الصباح على مريم فى المحراب ، فوجد عندها فاكهة ليس هذا أوانها ..

سألها زكريا :

« قال : يا مريم أنى لك هذا » .

« نالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .
هنالك دعا زكريا ربه « [١] ..

قال « زكريا » فى نفسه : سبحان الله .. قادر على كل شىء .. وغرس الحنين اعلامه فى قلبه وتمنى الذرية .

وتذكرت رحمة الله « زكريا » فدعا ربه .. « ذكر رحمة ربك عبده زكريا .
اذ نادى ربه نداء خفيا . قال : رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم اكن بدعائك رب شقيا . وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » [٢] .

سأل « زكريا » خالقه بغير أن يرفع صوته أن يرزقه طفلا يرث النبوة والحكمة والفضل والعلم .. وكان « زكريا » خائفا أن يضل القوم من بعده ولم يبعث فيهم نبي ..
واستجاب الله تعالى لزكريا .

لم يكذ « زكريا » يهمس فى قلبه بدعائه لله حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب .. ونادته رحمة ربه .

« يا زكريا ، انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » [٣] .

فوجيء « زكريا » بهذه البشرى .. أن يكون له ولد لا شبيه له أو مثيل من قبل .. أحس « زكريا » من فرط الفرح باضطراب .. تساءل من موضع الدهشة .

« قال : رب : أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا » [٤] ..

أدهشه أن ينجب وهو عجوز وامرأته لا تلد ..

« قال : كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » [٥] ..

-
- (١) من الآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .
 - (٢) الآيات ٢ الى ٦ سورة مريم مكية .
 - (٣) الآية ٧ سورة مريم مكية .
 - (٤) الآية ٨ من سورة مريم مكية .
 - (٥) الآية ٩ سورة مريم مكية .

أهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا النفاذ ..
وليس هناك شيء يصعب على الله سبحانه وتعالى .. كل شيء يريد الله
يأمره بالوجود فيوجد .. وقد خلق الله « زكريا » نفسه من قبل ولم يكن له
وجود .. وكل شيء يخلقه الله تعالى بمجرد المشيئة .. « إنما أمره إذا أراد
شيئاً أن يقول له كن فيكون » [١] ..

امثالاً قلب « زكريا » بالشكر لله وحمده وتمجيده .. وسأل ربه أن يجعل
له آية أو علامة ..

**((قال : رب اجعل لى آية ، قال : آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال
سويا . فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم : أن سبحوا
بكرة وعشيا))** [٢] ..

أخبره الله أنه ستجىء عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق .. سيجد
نفسه غير قادر على الكلام .. سيكون صحيح المزاج غير معتل .. إذا
حدث له هذا أيقن أن امرأته حامل ، وأن معجزة الله قد تحققت .. وعليه
ساعتها أن يتحدث الى الناس عن طريق الاشارة .. وأن يسبح الله كثيرا
فى الصباح والمساء ..

وخرج « زكريا » يوماً على الناس وقلبه ملىء بالشكر ، وأراد أن يكلمهم
فاكتشف أن لسانه لا ينطق .. وعرف أن معجزة الله قد تحققت .. فأوماً
الى قومه أن يسبحوا الله فى الفجر والعشاء .. وراح هو يسبح الله فى
قلبه ..

كانت سعادته بغير حد .

بشرته الملائكة بآبى سماه الله يحيى ..

للمرة الأولى نحن أمام ابن لم يطلق والده اسمه عليه ، ولم تختار الأم
اسم طفلها ، وإنما كان الله رب العالمين هو الذى سماه ..

ومع هذا التشريف العظيم والتكريم البالغ ، بشر الله سبحانه وتعالى
« زكريا » أن يكون ابنه يحيى مصدقاً بكلمة من الله .. وسيدا وكريماً
وعظيماً ، ونبياً من الصالحين ..

كان « زكريا » يرتعش من الفرح ، راحت دموعه تسيل على وجهه
العجوز وتبلل لحيته البيضاء وهو يصلى الله شكراً على استجابته لدعوته
ومنحه يحيى .

ولم يكن يحيى قد ولد بعد .. وكان موعد ولادته يقترب .

(١) الآية ٨٢ سورة يس مكية .

(٢) الأيتان ١٠ ، ١١ سورة مريم مكية .

يحيى [عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة آل عمران :

« هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لى من لذك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : ان الله يبشرك يحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين » [١] ..

وقال تعالى فى سورة مريم :

« يا يحيى ، خذ الكتاب بقوة وآتيناك الحكم صبيا . وحنانا من من لدنا وزكاة وكان تقيا . وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » [٢] ..

وقال تعالى فى سورة مريم :

« يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » [٣] .

هذا هو يحيى ، نبي الله الذى شهد الحق عز وجل له انه لم يجعل له من قبل شبيها ولا مثيلا . وهو النبي الذى قال الحق عنه :

« وحنانا من لدنا »

.. ومثلما اوتى الخضر علما من لدن الله ، اوتى يحيى حنانا من لدن الله ، والعلم مفهوم ، والحنان هو العلم الشمولى الذى يشيع فى نسيجه حب عميق للكائنات ورحمة بها ، كأن الحنان درجة من درجات الحب الذى ينبع من العلم ولقد كان يحيى فى الانبياء نموذجا لا مثيل له فى النسك والزهد والحب الالهى .. هو النبي الناسك .

كان يضىء حبا لكل الكائنات ، واحبه الناس واحبته الطيور والوحوش والصحارى والجبالي ، ثم اهدرت دمه كلمة حق قالها فى بلاط ملك ظالم ، بشأن امر يتصل براقصة بغى .

(١) الايتان ٣٨ ، ٣٩ سورة آل عمران مدنية .
(٢) الايات ١٢ الى ١٥ سورة مريم مكية .
(٣) الآية ٧ سورة مريم مكية .

يذكر العلماء فضل يحيى ويوردون لذلك امثلة كثيرة .

كان يحيى معاصرا لعيسى وقريبه من وجهة الام [ابن خالته] وتروى السنة ان يحيى وعيسى التقيا يوما فقال عيسى ليحيى :

— استغفر لى يا يحيى . أنت خير منى .

قال يحيى : استغفر لى يا عيسى . أنت خير منى .

قال عيسى : بل أنت خير منى .. سلمت على نفسى وسلم الله عليك .

تشير القصة الى فضل يحيى حين سلم الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

ويقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يوما فوجدهم يتذكرون فضل الأنبياء .

قال قائل : موسى كليم الله .

وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته .

وقال قائل : ابراهيم خليل الله .

ومضى الصحابة يتحدثون عن الأنبياء فتدخل الرسول عليه الصلاة والسلام حين رآهم لا يذكرون يحيى .

— أين الشهيد ابن الشهيد . يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب .
أين يحيى بن زكريا .

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

وجاء الربيع فى فلسطين .. واشتدت خضرة الأرض واشتد صفاء السماء

غسل القمر بأشعته الفضية قمم الأشجار والحقول .

وتفتحت أزهار الورد ، والبرتقال ، وانتشر عطرها فى الجو ..

وغنى طير مهاجر أغنية تمتلئ بالفرح .. وامتأل الجو باحساس عميق
بالجمال .

وولد « يحيى » عليه السلام ..

كان ميلاده معجزة ، فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يئس فيه
الشيخ من الذرية .. وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبى « زكريا »
.. وجاء وسط عصر يمتلئ بقمم النقاء كما يمتلئ بقمم الطفيلان .

وكانت مريم تمثل قمة النقاء فى هذا العصر .. ان محرابها المعطر المغلق
يكاد يضىء بكلمات الصلاة المستمرة ، والذكر الخاشع والقلب الطاهر .

والمسجد يهوج بالمصلين والذاكرين والمؤمنين . . . وبعيدا عنه يدق الظلم
اعلامه الخاطئة .

ولد « يحيى » عليه السلام ، فجاءت طفولته غريبة عن دنيا الأطفال ..

كان معظم الأطفال يمارسون اللهو أما هو فكان جادا طول الوقت .
كان بعض الأطفال يتسلى بتعذيب الحيوانات ، وكان « يحيى » يطعم
الحيوانات والطيور من طعامه رحمة بها ، وحنانا عليها ، ويبقى هو بغير طعام
.. أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها ، وكلما كبر « يحيى » فى السن زاد
النور فى وجهه وامتلا قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام .

وكان « يحيى » يحب القراءة ، وكان يقرأ فى العلم من طفولته .. فلما
صار صبيا نادته رحمة ربه :

((يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا)) [١] ..

صدر الأمر لـ « يحيى » وهو صبى أن يأخذ الكتاب بقوة بمعنى ان يدرس
الكتاب باحكام .. كتاب الشريعة .. رزقه الله الاقبال على معرفة الشريعة
والقضاء بين الناس وهو صبى .. كان أعلم الناس وأشدهم حكمة فى زمانه
درس الشريعة دراسة كاملة ، ولهذا السبب آتاه الله الحكم وهو صبى ..
كان يحكم بين الناس ، ويبين لهم أسرار الدين ، ويعرفهم طريق الصواب
ويحذرهم من طريق الخطأ ..

وكبر « يحيى فزاد علمه ، وزادت رحمته ، وزاد حنانه بوالديه ، والناس ،
وال مخلوقات ، والطيور ، والحيوانات ، والأشجار .. حتى عم حنانه الدنيا
وملاها بالرحمة .

كان يدعو الناس الى التوبة من الذنوب ، وكان يغسلهم فى نهر الأردن
ليغسلوا انفسهم بعدها بالتوبة .. وكان يدعو الله لهم .. ولم يكن هناك
انسان يكره « يحيى » أو يتمنى له الضرر ..

كان محبوبا لحنانه ، وزكاته ، وتقواه ، وعلمه ، وفضله . ثم زاد « يحيى »
على ذلك بالتنسك . كان يخرج الى الجبال والحقول والصحراء فيمكث فيها
شهورا متعاقبة يعبد الله ويبكى بين يديه ، ويصلى له .. وكان يحس بالانس
فى البرارى ، ولا يهتم بطعامه فيأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ،
ويتغذى بالجراد أحيانا ، ويأكل العشب أحيانا أخرى .. وكان ينام فى أى
مغارة يجدها فى الجبل .. أو أى حفرة يجدها فى الأرض .. وأحيانا كان
يدخل مغارة فى الجبل فيجد فيها وحشا .. أسدا أو نمرا أو ذئبا ، وكان
من فرط انشغاله فى ذكر الله والصلاة لا يلتفت الى الذئب أو الأسد ، وكان
ينظر اليه فيعرف أن هذا نبي الله « يحيى » الذى يعطف على المخلوقات ،
ويدفنها بحنانه ويحكم بينها بعلمه .. وكان الوحش المفترس يخفض رأسه ثم
يغادر المكان برفق دون أن يحس به يحيى .

وكان يحيى أحيانا أخرى يطعم الوحوش حنانا بها ويبيت هو بغير عشاء ،
يكتفى بالصلاة والذكر غذاء لقلبه قبل جسده . ويأكل من أوراق الشجر ،
ويبيت دامج العين ذاكر القلب محبا لله شاكرا نعمته حامدا فضله .

وكان « يحيى » اذا وقف بين الناس ليدعوهم الى الله أبكاهم من الحب
والخشوع .. وأثر فى قلوبهم بصدق الكلمات وكونها قريبة العهد من الله
وعلى عهد الله ..

(١) الآية ١٢ سورة مريم مكية .

وجاء صباح خرج فيه « يحيى » على الناس .. امتلأ المسجد بالناس ،
ووقف « يحيى بن زكريا » وبدأ يتحدث .

قال : ان الله عز وجل امرنى بكلمات عمل بها . وأمركم أن تعملوا بها ..
ان تعبدوا الله وحده بلا شريك .. فمن أشرك بالله وعبد غيره فهو مثل عبد
اشتراه سيده فراح يعمل ويؤدى ثمن عمله لسيد غير سيده .. أيكم يحب
أن يكون عبده كذلك .. ؟

وأمركم بالصلاة فان الله نظر الى عبده وهو يصلى ، ما لم يلتفت عن
صلاته .. فاذا صليتم فاخشعوا .

وأمركم بالصيام .. فان مثل ذلك كمثل رجل معه « صرة » من مسك
جميل الرائحة ، كلما سار هذا الرجل فاحت منه رائحة المسك المعطر .

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه أعداؤه
فأسرع لحصن حصين فأغلقة عليه .. وأعظم الحصون ذكر الله .. ولا نجاة
بغير هذا الحصن .

انتهى « يحيى » من كلامه ، فهبط من المنبر وسار عائدا الى الصحراء .

هناك حيث تمتد الرمال وتلتقى بالأفق ، وحيث لا صوت غير صوت
الرياح ، وتنفس الأشجار ، وأصوات أقدام وحوش الجبال .. هناك كان
« يحيى » يقف وسط هذا الخلاء ، ويأخذ فى الصلاة والبكاء .

ووقع الصدام بين « يحيى » والسلطات الحاكمة فى ذلك الوقت ..

كان أحد ملوك ذلك الزمان طاغية ضيق العقل غبى القلب يستبد برأيه ،
وكان الفساد منتشرًا فى بلاطه .. وكان يسمع أنباء متفرقة عن « يحيى »
فيدهش لأن الناس يحبون أحدا بهذا القدر ، وهو ملك ورغم ذلك لا يحبه
أحد .

وكان هذا الملك يريد اغتصاب زوجة أخيه ، وكانت لها ابنة جمعت مع
فئنة الأنوثة شهرة ذائعة فى الرقص ، وتقول الحكايات أنها كانت ترقص
وهى ترتدى سبعة أردية .. تخلع رداء مع كل رقصة .. حتى ترقص
رقصتها الأخيرة عارية .

.. وسأل الملك « يحيى » هل يجوز له أن يتزوج زوجة أخيه فقال « يحيى »
عليه السلام : « لا يجوز » ..

وراح الملك يحدث « يحيى » بأنه يريد الزواج منها .. وعلى « يحيى » أن
يجد له فتوى ترضيه ورفض « يحيى » أن يوافق الملك على رغبته . قال
له حكم الشريعة وتركه وانصرف .. وزاد غضب الملك على « يحيى » فأمر
بسجنه .

واغتصب الملك زوجة أخيه . وكانت ابنتها الراقصة قد شاهدت « يحيى »
وهو يحدث الملك .. وأحست بثبل وجهه وجهال روحه وجلال شخصيته .
وأحبته الراقصة ، وذهبت اليه فى سجنه وشاهدته يجلس منخرطًا فى
الصلاة والبكاء .. راقبته وهو يصلى حتى فرغ .. ألقت بنفسها تحت قدميه
وسأله أن يحبها كما تحبه ..

قال يحيى : « ليس فى قلبى مكان لحب غير حب الله » .
نهضت المرأة يائسة ، وانصرفت عنه وقد امتلأ قلبها بكرهه . . عادت
الى قصر الملك . .

كان العشاء قد انتهى ، وبدأ الملك يشرب الخمر . . بدأت تسقيه حتى
احس ان رأسه مثل بالونة ضخمة وانه سيطير بعد قليل . . هنالك نهضت
الراقصة وأسرعت ترتدى ثياب الرقص وعادت الى الملك . . نظر الملك اليها
وأحس ان رأسه يزداد تهوية ويخلو أكثر وأكثر . . وبدأت ترقص .
بدأ العزف ودق الطبول وراحت المرأة ترقص . .

فى الرقصة السابعة توقفت ، وكشرت وجهها وقالت للملك :

— أريد ان أسأل مولاي شيئا . .

قال الملك المخور الطاغية : كل شئ تطالبينه سأعطيه لك الآن .

قالت المرأة : أريد رأس « يحيى بن زكريا » !

أفاق الملك من سكره ، وأحس الخوف . . قال لها وهو يتأرجح فى مقعده :

— اسألينى شيئا آخر .

قالت :

— أريد دم « يحيى بن زكريا » . .

كانت هذه المرأة فى نهاية الأمر رمزا للشرا الأسود .

وقال الملك وهو يتناول كأسه الرابعة بعد الأربعين :

— اقتلوا « يحيى بن زكريا » .

وأصدر قائد الحرس الملكى أمره الى فرسانه . .

وأسرع الفرسان الى سيوفهم وخنجرهم . .

وارتفعت الأيدي الآتية بالسيوف وهبطت على العنق النبيل . . وتشقق
قلب الصخور حنانا على النبى العظيم وهو يمضى الى الشهادة .

يورد انجيل متى فى الفصل الرابع عشر رواية تقول :

« كان هيرودس قد قبض على يوحنا وأوثقه ثملقى به فى السجن
بسبب هيروديا زوجة أخيه فيلبس ، لأن يوحنا كان يقول له لا يحل لك أن
تأخذها زوجة لك . وقد كان يريد قتله ، لكنه خاف من الشعب ، لأنهم كانوا
يعدون نبيا . فلما كان الاحتفال بهيلاد هيرودس رقصت ابنة هيروديا فى
الوسط أمام المدعوين فأعجبت هيرودس . ومن ثم أقسم وأعدا اياها بانها
مهما طلبت يعطها . وإذا كانت أمها قد سبق أن لقتها قالت : اعطنى هنا
رأس يوحنا المعمدان فى طبق ، فآكتاب الملك ، ولكنه من أجل القسم
والجالسين معه التى المائدة أمر باعطائها اياه . وأرسل فقطع رأس يوحنا فى
السجن . وجيء برأسه فى طبق وقدم للفتاة فجاءت به الى أمها » . .

عيسى [عليه الصلاة والسلام]

انحدرت الشمس نحو الغرب .

حركت الرياح المعطر حول أشجار التفاح ، وأزهار البرتقال .. وانحدر العطر وبدأ رحلته الى محراب مريم .. وهناك تسلسل من نوافذ المحراب ونشر أجنحته حول العذراء الخاشعة التي تصلى بغير أن يسمع صوتها أحد . وأحسبت « مريم » أن الجو يمتليء برائحة العطر فجأة .. وصلت اليها رسالة الطبيعة ، فابتسمت وعادت تنخرط فى صلاة عميقة تؤدى بها الشكر لله .. وحط أحد طيور الكناريا على شبك المحراب .. رفع منقاره لأعلى فى اتجاه الشمس وبسط جناحيه ، ونفض المياه التى استحم فيها فتطاير الرذاذ الخفيف حوله .. وتذكرت « مريم » انها نسيت أن تسقى شجرة الورد التى نبتت فجأة وسط صخرتين خارج المسجد .. أنهت « مريم » صلاتها ، وخرجت من المحراب فى طريقها الى الشجرة .. لم تكد تنهياً للخروج حتى نادتها الملائكة :

« يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » [١] ..

توقفت « مريم » وازداد شحوب وجهها ..

اضاء المحراب بكلمات الملائكة . نوع من الضوء تبدو الشمس الى جواره مثل شمعة مطفأة .

ان « مريم » تشعر فى الايام الأخيرة بتغيير يشمل روحها وجسمها كله .. ليست عندها مرآة لتنظر فيها ، لكنها تحس أن لون دم القوة والشباب ينسحب تاركاً مكانه للون أكثر طهراً وأعمق أصالة .. انها تحس الشحوب رغم انها لا تراه .. وتشعر بضعف بشرى وقوة غير عادية ، وكلما زاد جسها نحولاً زادت روحها قوة .. ملأها هذا الاحساس بالتواضع والعظمة .. وتسلل اليها الاشفاق من المسئولية العظيمة التى ألقيت على كتفيها الرقيقتين ..

« واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على

نساء العالمين » [٢] ..



(١) من الآية ٤٢ سورة آل عمران مدنية .

(٢) من الآية ٤٢ سورة آل عمران مدنية .
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

بهذه الكلمات البسيطة فهمت مريم أن الله يختارها ، ويطهرها ويختارها ويجعلها على رأس نساء الوجود .. هذا الوجود ، والوجود الذى لم يخلق بعد .. هى أعظم فتاة فى الدنيا وبعد قيامة الأموات وخلق الآخرة .. وعادت الملائكة تتحدث :

((يا مريم اقتنى لربك واسجدى واركعي مع الراكعين)) [١] ..

كان الأمر الصادر بعد البشارة أن تزيد من خشوعها ، وسجودها وركوعها لله ..

ونسيت مريم شجرة الورد وعادت للصلاة ..

لم تعد تحس انها صغيرة وضعيفة وثقف وحدها فى الحراب .. انما احسبت انها تضم قرص الشمس فى قلبها ، وتشرب خصلات شعرها من ندى الحقول ، واحسبت أن الرحيق الذى يصعد فى سيقان اشجار التفاح يصعد فى عروقها ، وتجمعت كل دموع الأطفال الأبرياء فى الدنيا وانحدرت دمعة واحدة كبيرة من عين العذراء وهى تصلى ..

كانت دمعته الوحيدة تضم مذاق اللبن وطراوة النسيم ومرارة أحزان البشر ..

ومأ قلب مريم احساس مفاجيء بأن شيئا عظيما يوشك أن يقع .. كانت تحس ذلك احساسا غامضا منذ أيام ، لكن احساسها يتأكد الآن ..

انحدرت الشمس نحو فرائشها واستيقظ الليل .

وجلس القمر على عرشه الفضى فى السماء ، وحوله رعيته من السحاب الجميل الأبيض ..

وجاء منتصف الليل ومريم منهمة فى الصلاة . ثم أنهت صلاتها وتذكرت شجرة الورد فحملت بعض المياه فى وعاء وخرجت لتسقيها ..

كانت شجرة الورد تثبت بين صبحرتين فى مكان يبعد عن المسجد خطوات .. وكان المكان مهجورا من الناس ولا أحد يقترب منه .. كان المعروف انه محجوز لمريم لتصلى فيه أو تتعبد .

اقتربت « مريم » من شجرة الورد وسقتها ، ووضعت الوعاء ، ووقفت تتأمل شجرة الورد التى طال عودها الى الضعف فى ليلتين ..

وفجأة سمعت « مريم » صوت أقدام تستقر على الأرض .. لم تسمع صوت أقدام تسير .. انما سمعت صوت أقدام تستقر على الحصى والرمل والتراب .. ملأها الخوف لحظة .. شعرت بأنها ليست وحدها .

التفتت الى جوارها فلم تر شيئا ..

ثم بدأت عيناها تتعودان الضوء فشاهدته يقف هناك ..

(١) الآية ٤٣ سورة آل عمران مدنية .

ارتعشت « مريم » ونكست رأسها ..

رأت على الأرض خيالا طويلا .. وكان هذا غريبا لدرجة كبيرة ، فقد
كان واقفا فى ضوء القمر . . ولم يكن وراءه مصباح ليكون هناك خيال ..

وقالت « مريم » لنفسها :

من يكون هذا الذى يقف هناك .. ؟

ان النظرة السريعة التى ألقتها « مريم » على وجهه هى التى أثارت
قلتها .. ان وجهه غريب لم تره من قبل ، وجبهته مضيئة أكثر من القمر ..
ورغم أن عينيه تشعان بالعزة والجلال ، فقد كان وجهه كله يعبر عن
التواضع العظيم .. وبدأ وجهه فى النظرة السريعة التى ألقها عليه « مريم »
كوجه رجل عنده عزة من يعبد الله منذ ملايين السنين .

.. .. .

وتساءلت « مريم » فى نفسها عن يكون . . وكأنها قرأ الغريب أفكارها
فقال :

— السلام عليك يا مريم

فوجئت مريم أنها أمام صوت بشرى يصدر من انسان .

قالت « مريم » قبل أن ترد عليه السلام :

« **انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا** .. » [١]

أرادت أن تحتفى فى الله . . وسألته هل هو انسان طيب يعرف الله
ويتقيه .. وابتسم الواقف هناك ابتسامة نقية .

« **قال : انما انا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا** .. »

لم يكد الغريب ينتهى من كلمته ، حتى أضاء المكان بضوء غريب لا يشبه
ضوء الشمس ولا ضوء القمر ولا ضوء المصابيح ولا الشموع ولا النار ..
كان هناك نور شديد الصفاء .. وراح هذا النور يتجمع حول الواقف فى
شكل أجنحة راحت تزيد حتى ملأت الأفق حول « مريم » ودارت فى رأس
مريم كلماته .. **انما انا رسول ربك** .. آه .. هذا سيد الملائكة ، الروح
الأمين جبريل عليه السلام ، وقد تمثل لها بشرا سويا ..

.. .. .

رفعت مريم رأسها وهى ترتعش انفعالا .. كان الروح الأمين يقف
أمامها فى صورته البشرية .. تأملت مريم صفاء جبهته ، ونقاء وجهه ،
وجلال عينيه .. صدق ظنها .. لديه عزة من يعبد الله ملايين السنين ..
ثم تذكرت بقية جملته فجأة .. لقد قال انه رسول ربها .. وانه جاء كى
يهبها غلاما زكيا .. تذكرت مريم انها عذراء .. لم يمسسها بشر .. لم
تتزوج ، ولم يخطبها أحد ، ولم يمسسها انسان . كيف تنجب بغير زواج ..

(١) من الآية ١٨ سورة مريم مكة .

دارت هذه الافكار فى رأس مريم فقالت للروح الامين :

« أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم اك بغيا .. ! » [١]

قال الروح الامين :

«كذلك قال ربك . . هو على هين . . ولنجعله آية للناس ورحمة
منا وكان أمرا مقضيا ..» [٢] ..

استقبل عقل « مريم » كلمات الروح الامين .. ألم يقل لها ان هذا هو امر الله .. وكل شىء ينفذ اذا أمر الله .. ثم أى غرابة فى أن تلد بغير أن يمسنها بشر .. لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من غير أب أو أم ، لم يكن هناك ذكر وأنثى قبل خلق آدم . وخلق حواء من آدم فهى قد خلقت من ذكر بغير أنثى .. ويخلق ابنها من غير أب يخلق من أنثى بغير ذكر ، والعادة أن يخلق الانسان من ذكر وأنثى .. العادة أن يكون له أب وأم ، لكن المعجزة تقع عندما يريد الله تعالى أن تقع ..

عاد جيريل عليه السلام يتحدث :

« ان الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم ،
وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهدي
وكهلا ومن الصالحين » [٣] ..

زادت دهشة مريم .. قبل أن تحمله فى بطنها تعرف اسمه .. وتعرف انه سيكون وجيها عند الله وعند الناس ، وتعرف انه سيكلم الناس وهو طفل وهو كبير .. وقبل أن يتحرك فم مريم بسؤال آخر .. رأت الروح الامين يرفع يده ويدفع الهواء فى اتجاه مريم .. وجاءت نفحة الهواء مضيئة بنور لم تره « مريم » من قبل .. وتسلسل هذا النور الى جسد مريم وملاه فجأة ..

..

وقبل أن تسأل « مريم » سؤالاً آخر .. كان الروح القدس قد اختفى بغير صوت ..

وهب الهواء البارد فارتعشت مريم .. أحست أن عقلها سيهرب منها هروب الطير الخائف .. وعادت الى محرابها بسرعة .. وهناك اغلقت عليها الباب وانخرطت فى صلاة عميقة .. وبكاء عميق ..

انها تحس الفرح .. والدهشة .. والاضطراب .. والسلام العميق .. وانها ليست وحدها .. لم تعد وحدها .. منذ أن انصرف الروح القدس عليه السلام ، وهى تحس انه لم يتركها وحيدة .. حركت يده دفعة ملأتها من النور .. هذا النور يتحول داخل بطنها الى طفل .. طفل سيصبح عندما يكبر كلمة الله وروحه التى ألقاها الى مريم ..

سيصبح عندما يكبر رسولا لله ونبيا رسالته هى الحب ..

(١) من الآية ٢٠ سورة مريم مكية .

(٢) من الآية ٢١ سورة مريم مكية .

(٣) من الآية ٤٥ وآية ٤٦ سورة آل عمران مدنية .

نامت مريم هذه الليلة نوما عميقا ، أفاقت منه فى الصباح ..
لم تكذ تفتح عينيها حتى فوجئت بأن المحراب يمتلىء بفاكهة ليس هذا
أوانها .. كانت الفاكهة أكثر مما يأتيها فى العادة ..

وأدهشها ذلك .. وتذكرت ماحدث لها أمس .. قصة زيارتها لشجرة
الورد .. لقاءها بالروح القدس .. كيف نفخ الله فيها كلمته .. عودتها الى
المحراب .. ثم نومها العميق .. قالت « مريم » لنفسها وهى تنظر الى
الفاكهة الكثيرة :

— هل أكل وحدى هذه الفاكهة .. ؟

قال لها صوت داخلى :

— لست وحدك الآن « يامريم » .. انتما اثنان .. أنت وعيسى .. يجب
أن تأكلى جيدا ..

وبدأت « مريم » تأكل ..

ومرت الأيام .. كان حملها يختلف عن حمل النساء .. لم تمرض ولم تشعر
بثقل ولا أحسست أن شيئا زاد عليها ولا ارتفع بطنها كمادة النساء .. كان
حملها به نعمة طيبة .

وجاء الشهر التاسع وفى العلماء من يقول أن الفاء تفيد التعقيب السريع ،
بمعنى ان مريم لم تحمل بعيسى تسعة اشهر ، وإنما ولدته مباشرة كمعجزة ..
خرجت مريم ذات يوم الى مكان بعيد .. انها تحس أن شيئا سيقع اليوم ..
لكنها لاتعرف حقيقة هذا الشيء ..

قادتها قدمها الى مكان يمتلىء بالشجر .. والنخل . مكان لا يقصده
أحد لبعده .. مكان لا يعرفه غيرها .. لم يكن الناس يعرفون أن « مريم »
حامل .. وأنها ستلد .. كان المحراب مغلقا عليها ، والناس يعرفون أنها
تتعبد فلا يقترب منها احد . »

جلست مريم تستريح تحت نخلة عظيمة مرتفعة ..

وراحت تفكر فى نفسها .. كانت تشعر بالملح .. وراح الألم يتزايد ويجىء
فى مراحل متقاربة ..

وبدأت مريم تلد ..

**((فاجاءها المخاض الى جذع النخلة ، قالت : يا ليتنى مت قبل
هذا وكنت نسيا منسيا)) [1] ..**

ان الم الميلاذ يحمل لنفس العذراء الطاهرة آلاما اخرى تتوقعها ولم تقسع
بعد . كيف يستقبل الناس طفلها هذا .. وماذا يقولون عنها .. انهم يعرفون
انها عذراء .. فكيف تلد العذراء .. هل يصدق الناس أنها ولدته بغير أن

(1) الآية ٢٣ سورة مريم مكية .

بمسسها بشر .. وتصورت نظرات الشك ، وكلمات الفضول ، وتعليقات
الناس وامثلاً قلبها بالحزن ..

..

وولد فى نفس اللحظة من قدر الله عليه أن يحمل فى قلبه أحزان البشرية .
لم تكذب « مريم » تنتهى من تمنيتها الموت والنسيان ، حتى ناداها الطفل
الذى ولد :

**« فناداها من تحتها : ان لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرىا ، وهزى
اليك جذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا ، فكلى واشربى وقبرى
عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن
أكلم اليوم انسيا » [١] ..**

نظرت « مريم » الى المسيح .. ما أنبل وجهه .. لم يكن وجهه أحمر مجعدا
مثل من يولد ، ولكنه كان ناعما أبيض .. وقد ارتسم عليه الطهر والمحبة ..
وكان الطفل يرقد على حشائش الأرض الخضراء ويتكلم .. يحدثها أن تكف
عن حزنها .. ويطلب اليها أن تهز جذع النخلة لتسقط عليها بعض ثمارها
الشهية .. فلتأكل ، ولتشرى ، ولتمتلىء بالسلام والفرح ولا تفكر فى شىء ..
فاذا رأت من البشر أحدا فلتقل لهم انها نذرت للرحمن صوما فلن تكلم اليوم
انسانا .. ولتدع له الباقي ..

ونظرت « مريم » الى المسيح بحب .. كان طفلا لم يزل مولودا منذلحظات
ولكنه يحمل مسئولية أمه على كتفيه .. كما سيحمل بعد ذلك آلام الفقراء
على كتفيه .

وظهر لمريم فى وجه الطفل تعبير غريب .. تعبير من جاء الى العالم لا
ليأخذ منه شيئا وانما ليعطيه كل شىء ..

ومدت « مريم » يدها الى النخلة الضخمة .. ولم تكذب تلمس جذعها حتى
تساقط عليها رطب شهى .. فأكلت وشربت ولفت الطفل فى ملابسها ،
والصقته بقلبها وأستسلمت لعذوبة النوم .

كان عقل « مريم العذراء » مثل طائر لا يكف عن الطيران السريع والهبوط
المفاجىء .

ان تفكيرها لا يكاد يستقر على غصن من أغصان السلام والراحة ، حتى
يهتز ذهنها بشىء فيطير الهدوء ويعاودها القلق .

ان تفكيرها كله يدور حول مركز واحد .. هو عيسى ، وهى تتساءل
بينها وبين نفسها كيف يستقبله اليهود .. ماذا يقولون فيه .. ماذا يقولون
عنها . هل يصدق أحد من كهنة اليهود الذين يعيشون على الغش والخديعة
والسرقة ، هل يصدق احدهم وهو بعيد عن السماء ان السماء هى التى
رزقتها بطفل . ان موعد خلوتها ينتهى ، ولا بد أن تعود الى قومها .. فماذا
يقول الناس ..

(١) الآيات ٢٤ الى ٢٦ نساء السورة .

كان الوقت عصرا حين عادت مريم ..

وكان السوق الكبير الذى يقع فى طريقها الى المسجد يمتلئ بالناس الذين فرغوا من البيع والشراء وجلسوا يثرثرون ، ويشربون النبيذ .
لم تكذب « مريم » تتوسط السوق حتى لاحظ الناس انها تحمل طفلا ، وتضمه لصدرها وتمشى به فى جلال وبطء ..

.....

تساءل احد الفضوليين : اليست هذه مريم العذراء ؟ .. طفل من هذا الذى تحمله على صدرها . ؟!

قال احد السكارى : هو طفلها .. ترى اى قصة ستخرج بها علينا ؟ .
وسقطت الكلمة من فم الرجل على الأرض .. وكانت الأرض موحلة بسبب المطر العظيم الذى سقط ليلة أمس ، وكانت هناك عقول أشد اتساخا من وحل الأرض .. عقول كهنة اليهود .. فى البداية حاصرتها الأسئلة .. ابن من هذا يا مريم ؟ لماذا لاتردين ؟ هو ابنك قطعا .. كيف جاءك ولد وانت عذراء .. ؟

((يا أخت هارون : ما كان أبوك امرا سوء ، وما كانت أمك بغيا)) [١]

الكلمة ترمى مريم بالبغاء .. هكذا مباشرة دون استماع أو تحقيق أو تثبت .. ترميها الكلمات بالبغاء وتعيرها وتوبخها بأنها من بيت طيب وليست أمهنا بغيا ، فكيف صارت هى كذلك .. راحت الاتهامات تسقط عليها وهى مرفوعة الرأس .. تومض عيناها بالكبرياء والأمومة .. ويشع من وجهها نور يفيض بالثقة .. فلما زادت الأسئلة ، وضاق الحال ، وانحصر المجال ، وامتنع المقال ، اشتد توكلها على ذى الجلال ، وأشارت إليه ..

أشارت بيدها لعيسى ..

واندهش الناس .. فهموا انها صائمة عن الكلام وترجو منهم أن يسألوه هو كيف جاء ..

تساءل الكهنة ورؤساء اليهود كيف يوجهون السؤال لطفل ولد منذ أيام .. هل يتكلم طفل فى لفافته ... ؟!

قالوا لمريم :

((كيف تكلم من كان فى المهد صبيا ؟)) [٢] ..

قال عيسى :

((انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرأ بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا)) [٣] ..

(١) الآية ٢٨ سورة مريم مكية .

(٢) من الآية ٢٩ سورة مريم مكية .

(٣) الآيات ٣٠ الى ٣٣ نفس السورة .

لم يكده عيسى ينتهى من كلامه حتى كانت وجوه الكهنة والاحبار ممتعة وشاحبة ..

كانوا يشهدون معجزة تقع امامهم مباشرة .. هذا طفل يتكلم فى مهده .. طفل جاء بغير أب .. طفل يقول أن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيا .. هذا يعنى أن سلطتهم فى طريقها الى الانهيار .. سيصبح كل واحد فيهم بلا قيمة عندما يكبر هذا الطفل .. لن يستطيع أن يبيع الففران للناس أو يحكمهم عن طريق ادعائه أنه ظل السماء على الأرض ، أو باعتباره الوحيد العارف فى الشريعة ..

شعر كهنة اليهود بالمأساة الشخصية التى جاءتهم بميلاد هذا الطفل .. ان مجرد مجيء المسيح يعنى اعادة الناس الى عبادة الله وحده .. وهذا معناه اعدام الديانة اليهودية الحالية .. فالفرق بين تعاليم موسى وتصرفات اليهود كان يشبه الفرق بين نجوم السماء وحل الطرقات .. وتكتم رهبان اليهود قصة ميلاد عيسى وكلامه فى المهد .. واتهموا مريم العذراء ببهتان عظيم ، اتهموها بالبغاء ، رغم أنهم عاينوا بأنفسهم معجزة كلام ابنها فى المهد .. وأسدل الستار مؤقتا على القصة ..

رغم هذا كله .. فقد تسربت ابناء قصة ميلاد عيسى الى الحاكم الرومانى هيروودوس .. وكان هذا الحاكم كلبا من كلاب روما المخلصين .. وكان يحكم الفنستينيين واليهود بقوة السيف ورعب الدماء وكثرة الجواسيس والخوف ..

.....

كان يجلس فى قصره ويشرب النبيذ حين وصلت اليه اخبار غامضة عن طفل ولد بغير أب .. طفل يقال انه تكلم فى المهد .. وقال كلاما كثيرا يهدد سلطان روما .. ويقلل الكرسي بالتالى تحت جسم هيروودوس .. وجن جنون الحاكم الرومانى وقذف بكأسه فى وجهه من يحدته وأمر بعقد اجتماع مفاجئ لكبار ضباطه وجواسيسه ..

وانعقد الاجتماع على الفور ..

جلس هيروودوس بوجهه الأسود اللامع ، وأجال بصره فى جواسيسه ، وسأل :

— ما هى آخر أخبار الطفل الذى تكلم فى مهده ؟

رد مدير الجواسيس بقوله :

— يبدو ان الموضوع غير صحيح .. لقد سمعنا شائعات حول طفل يقولون انه صنع معجزة بكلامه وهو طفل .. وأطلقنا رجالنا للبحث عنه فلم يعثروا عليه ، واتضح لنا من التحريات ان الموضوع مبالغ فيه ..

قال أصغر الجواسيس :

— بلغنى من مصادر علمية ، ان ثلاثة من حكماء الجوس جاءوا وراء نجم رأوه يلمع فى السماء .. وأن هذا النجم يشير لميلاد طفل معجزة .. طفل سيخلص شعبه .

سأل الحاكم :

— يخلص شعبه ممن؟!!

قال الجاسوس : لم يعرف رجالى ، وقد اختفى الحكماء الثلاثة فلم يعثر أحد
لهم على أثر .

قال الحاكم :

— كيف اختفوا ؟ .. وما هى حكاية هذا الطفل ؟ .. هل هناك مؤامرة
ضد روما ؟

قفز الحاكم من مقعده حين ذكر روما وبدأ يتكلم وهو ثائر .

— أريد رأس الحكماء الثلاثة .. وأريد رأس ذلك الطفل .. وأريد معلومات
ليست ناقصة ، الموضوع يزداد غموضا أيها الأغبياء .

قال مدير الجواسيس :

— ربما يكون الموضوع حلما تصور اليهود أنهم راوه ..

قال الحاكم :

— ان رؤوسكم جميعا ستطير أسرع من الحمام اذا لم تحضروا الى القصة
الكاملة لهذا الطفل .. ما هذه الفوضى .. تفضلوا بالانصراف .

انصرف رجاله وجواسيسه ، وجلس الحاكم يفكر فى الموضوع .. كان
الموضوع يثير قلقه بشكل واضح .. لم يكن يهيمه ان ينزل دين جديد للناس ،
انما كان يهيمه سلطان روما الذى يمثله هو .. وقرر الحاكم أن يستدعى كبير
كهنة اليهود ليسأله فى هذا الموضوع .. وأرسل ضباطه الخصوصيين
لاستدعاء الكاهن ..

لم تمض ساعة حتى كان كبير كهنة اليهود ينحنى أمام الحاكم .

قال الحاكم :

— أريد أن أحدثك فى موضوع يثير قلقى أيها الكاهن .

قال الكاهن :

— أتمنى أن أخدم جلالتك ..

قال الحاكم :

— سمعت أخبارا متضاربة عن طفل ولد وتكلم فى مهده وقال انه سيخلص
شعبه .. ما هى حقيقة القصة ؟

قال الكاهن وهو يحس ان السؤال ينطوى على مصيدة لا يعرفها
بالتحديد :

— هل تهتم جلالتكم بالديانة اليهودية ... ؟

قال الحاكم ثائرا :

— لا أهتم بشيء غير سلطان روما .. أجب عن سؤالى أيها الكاهن !

كان الكاهن قد رأى عيسى يتكلم فى مهده .. وكان يفهم انه لو قال هذا
مُسوف يثير المتاعب لنفسه ، واختار أن يكذب نصف كذبة .. فقال للحاكم انه
سمع عن القصة ، ولكنه يشك فيها ..

سأل الحاكم وفضوله يزداد :

— هل صحيح أن ديانتكم تتحدث عن قدوم مخلص لشعبكم .. ؟

قال الكاهن :

— هذا صحيح يا صاحب الجلالة .

قال الحاكم :

— هل تعرف ان هذه مؤامرة ضد أمن الدولة الرومانية .. هل تدرك ان
هذه خيانة .. ؟

قال الكاهن وهو يتراجع :

— أرجو أن تتركنى أصحح لجلالتكم فكرة بسيطة .. ان هذه النبوءة قديمة
.. صدرت عندما كان الشعب أسيرا فى بابل منذ مئات السنين ..

قال الحاكم :

— هل هناك من يصدق هذه النبوءة الآن ؟ .. هل تصدقها أنت شخصا ؟
.. هل رأيت هذا الطفل الذى يقولون انه ولد بغير أب ... ؟

قال الكاهن :

— هل يصدق سيدى الملك أن هناك انسانا يولد من غير أب ؟ .. هذه
أحلام الشعب ..

قال الحاكم :

لا شيء يطرد النوم من عيون الحكام غير أحلام الشعب .. انصرف إليها
الكاهن فاذا سمعت أى أخبار فدعنى أعرفها قبل أمراتك ..

لم يكذ الكاهن ينصرف حتى كان هيرودوس يفكر .. ماذا لو كان هذا الكاهن
يكذب .. لقد رأى فى عينيه وميض الكذب .. وهو يعرف هذا الوميض لأنه
كاذب هو الآخر .. ثم ما هى قصة الحكماء الثلاثة الذين يتتبعون نجما ؟ ..
هل هناك مؤامرة ضد روما وهو لا يعرف ؟ .. صرخ الحاكم فى كبير ضباطه
أن يقبض على كل من سمع هذه القصة أو شاهدها .. وأن يبدأ البحث عن
عذراء ولدت طفلا .. وأن يقتل كل الأطفال المولودين فى نفس هذا الوقت ..

كانت مريم تخرج من فلسطين كلها الى مصر ..

جاءها فى الليلة الماضية انسان لم تره من قبل .. القى عليها السلام
وأمرها بأمر :

احملى طفلك يا مريم وأخرجى الى مصر ..

سألت مريم بخوف :

— لماذا ؟ .. كيف أخرج وحدي الى مصر ؟ .. كيف أعرف الطريق ؟

قال الغريب :

أخرجى تحرسك عناية الله .. ان الحاكم الرومانى يبحث عن طفلك ليقتله ..

سألت مريم :

— متى أخرج ؟

قال الغريب :

— الآن .. لا تخافى شيئاً فانك تخرجين بنبى كريم .. وكل الأنبياء يخرجهم قومهم من ديارهم وبلادهم .. هذا قانون من قوانين الحياة .. ان يطرد الشر أنتى ما فى الوجود لفترة .. ثم يعود الخير لعرشسه .. أخرجى يا مريم .. وخرجت مريم الى مصر ..

قطعت صحراء سيناء مع قافلة كاثت تتجه الى بصر .. سكرت تحمل عيسى فى نفس الطريق الذى سار فيه موسى من قبل حين ظهرت له النار المقدسة ونودى من جانب الطور الأيمن ..

وصلت الى مصر بعد رحلة طويلة شاقة ..

وكانت مصر بخيرها الكثير ، وسماحتها ، وثقافتها القديمة ، واعتدال جوها خير مكان ينشأ فيه عيسى ..

وفى مصر عاش المسيح طفولته وصباه ، ثم جاء مريم نفس الغريب الذى أمرها أن ترحل من فلسطين ، وأمرها هذه المرة أن تعود لفلسطين ..

قال لها : هلك الملك الظالم فعودى بابنك يا مريم .. جاء الوقت على الخير ليعتلى عرشه .. سيكون عرشه قلوب الفقراء والتعساء والصادقين ..

عودى يا مريم ..

وعادت مريم ..

ومرت مياه كثيرة فى نهر الأردن ..

وكبر عيسى وأدرك الشباب ..

.....

خرج عيسى من بيته فى طريقه الى المعبد اليهودى ..

كان اليوم هو السبت ..

لم يكن هناك بيت يهودى يستطيع أن يوقد ناراً أو يطفئها يوم السبت ، أو ينزع قشرة ثمرة .. ممنوع فى هذا اليوم أن تعجن امرأة عجينةا .. أو أن يغسل غلام كلبه ، أو أن تضفر فتاة شعرها ..

كان موسى قد أمر باحترام يوم السبت وتخصيصه لعبادة الله ..

وذهبت الحكمة من احترام يوم السبت ، وبقي يوم السبت نفسه .. ميدانا
خصبا لتطبيق النصوص الحرفية الجامدة .. صار اليوم مقدسا عند اليهود ..
وأحاطوه بسياج من التقاليد الشكلية الجوفاء ، وركزوا كل اهتمامهم فى حفظه
حفظا حرفيا لا تهاون فيه ، اذ كانوا يعتقدون انه كان محفوظا فى السماء قبل
أن يخلق الله الانسان ، كما اعتقدوا — حين سقطت همهم — أن
بنى اسرائيل قد اختبروا لغرض واحد فقط .. هو حفظ السبت .. وكانوا
يفخرون بأنهم يحفظونه بحرفية جامدة ونامة .. ولو أدى ذلك الى هزيمتهم فى
الحرب ، أو وقوعهم فى يد الأعداء .. وقد أدى حفظهم له على هذا النحو الى
تسييجهم له بأكبر عدد من المحظورات .. ووضع مجلس اليهود الاعلى
تشريعات تحرم مئات الأمور يوم السبت ..

محرم لبس الاسنان الصناعية يوم السبت .. ومحرم على المريض ان يضع
ضمادة أو يدهن موضع الألم يوم السبت ، أو يستدعى الطبيب .. محرم كتابة
حرفين هجائيين يوم السبت .. الدفاع عن النفس محرم يوم السبت
الحصاد والدراس ممنوعان يوم السبت .. أى رحلة فى يوم السبت ينبغى
الاتياد عن الفى ياردة .. يحرم حمل شىء خارج البيت يوم السبت ..

وتصور المحافظون على الشريعة ان الغرض الأسى من وجودهم هو اقامة
« السياجات » التى تصون الشريعة ، والأصل ان كثرة التشريعات والمحظورات
والقوانين تعنى زيادة الفساد أو تعين عليه فى أبسط الظروف ، وكلما ولد
شىء محظور أو محرم ، كان يولد معه فى نفس الوقت أسلوب للتحايل
عليه والنفاد منه وابطاله ..

وهكذا امتازت حياتهم بهذا النفاق العميق ، الذى يتمثل فى وجود شكل
خارجى تتم المحافظة عليه ، وحقيقة داخلية تهدرها التصرفات تماما ..

ورغم ان طائفة الفريسيين كانت هى المكلفة أساسا بمهمة تطبيق الشريعة
واحاطتها بأكبر قدر من الضمانات ، فسوف نراهم على استعداد تام لابتداع
الحيل التى تمكنهم من التخلص من أحكام الشريعة فى الوقت المناسب ..

وكان هذا الوقت المناسب ، هو الوقت الذى تتعارض فيه الشريعة مع
مصالحهم الخاصة ، أو تعوق الكسب الحرام الذى يتهيا ليدخل جيوبهم ..

كانت هناك — مثلا — قاعدة شرعية تقضى بالآ تتجاوز أى رحلة فى يوم
السبت مسافة الفى ياردة .. ماذا يفعل الفريسيون فى اللواتم التى يدعون
اليها يوم السبت ؟ .. وتبعد موائدها عن بيوتهم أكثر من الفى ياردة ..

المسألة بسيطة ..

كانوا يضعون فى عثية السبت بعض الأطعمة على بعد الفى ياردة من
مسكنهم .. وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يسببوا بعده الفى
ياردة أخرى .. ومن ثم يتاح لهم أن يضاعفوا المسافة المفروضة ..

كما انهم لكى يتخلصوا من عقبة تحريم حمل أى شىء يوم السبت الى خارج
البيت ، كانوا يحتالون بخدعة أخرى .. وهى ان يضغوا قوائم وعوارض
أبواب ونوافذ فى مختلف الشوارع .. فتصير المدينة كلها بمثابة بيت كبير يحل
فى داخله حمل الأشياء والحركة ..

من أمثلة تلاعبهم فى الشريعة [وهم حفظتها !] .. ان الشريعة الموسوية كانت تلزم الابن ان يعول والديه فى حالتى الشـيخوخة والحاجة ، ولكن الفريسيين كانوا يتيحون للأبناء فرصة التهرب من هذا الالتزام بحيلة بسيطة .. يذهب الابن اذا طالبه ابواه بنفقة الى الكهنة ويتفق معهم على أن يوقف كل امواله وممتلكاته على الهيكل .. وعندئذ يعجز الوالدان عن أخذ شيء منه .. فاذا يئسا منه وتوقفا عن مطالبته ، ذهب واسترد كل ممتلكاته من الكهنة نظير دفع نسبة معينة من المال .. فيستمر الوئف صوريا فقط وغير نافذ المفعول .. [انجيل متى] .. وسط هذا الجو من البغاء الفكرى .. كان هناك تعنت وجمود فى كل خطوة يخطوها اليهودى .. كانت هناك سبع درجات للطهارة .. وست وعشرون صلاة ينفى تلاوتها أثناء غسل الأيدي قبل تناول الطعام ، وكانوا يعدون اهمال قراءة هذه الصلوات بمثابة قتل النفس انتحارا ، والحرمان من الحياة الأبدية .. وقد خصص التلمود [وهو مجموعة التفسير والشروح والاضافات التى كتبت بعد التوراة] ، خصص أربعة أبواب يتوه فيها العقل لاجراءات الغسل والتطهير ..

وكان هذا التشديد الظاهرى يقابله تسبيب داخلى ..

وهكذا كانت قشرة المجتمع اليهودى تلتئم على مجتمع قد تهرأ تماما من الداخل ، وساده نفاق لا مثيل له .. ورغم أن الناس كانوا يتبعون التعاليم الحرفية للشريعة ، فقد كانت القلوب تموج بالشرور .. وتضطرب بالكرهية ، كما كانت العقول موانئ تستريح فيها سفن الخرافات والأكاذيب ..

.....

سار عيسى قاصدا المعبد ..

يسير الناس فى الشوارع حوله وهم يتخيلون فى ملابسهم الملونة الثمينة .. وهو يسير فى رداءه الصوفى الأبيض ..

شعره الناعم يصل إلى كتفيه ويبدو مغسولا فى مياه سحابة أمطرت رذاذا خفيفا .. وقدماه تمشيان على التراب فيمتلى التراب براحة عطر مجهول المصدر .. وملابسه المصنوعة من الصوف الفقير الخشن ، تبدو عليه أعظم بهاء من ملابس ملوك الرومان وكهنة المعبد ..

ورغم أن اليوم هو السبت .. فقد مد عيسى يده الى ثمار حقل وأخذ منه ثمرتين أعطاهما لطفل فقير جائع ..

كان هذا التصرف فى الديانة اليهودية يعد خروجا على الديانة اليهودية ..

وكان عيسى يعرف ان الديانة الحقيقية ليست هى طاعة الشكل الخارجى ، بينما القلب بعيد عن التواضع .. ولهذا السبب كان عيسى ينزع قشور الثمار ويطعم المخلوقات يوم السبت .. وكان يشعل النار للعجائز حتى لا يقتلهم البرد .. وكان يزور المعبد اليهودى كثيرا ، ويقف داخله يتأمل الكهنة والناس ..

وصل عيسى الى المعبد ووقف داخله ، وطاف ببصره حوله ..

ان حيطان المعبد صنعت من خشب الصندل ذى الرائحة المعطرة ..

والستائر من القماش الفاخر المنسوج بالذهب .. والمصابيح الفضية تتدلى من السقف .. والشموع تملأ المكان بالضوء .. ورغم ذلك كان الظلام يملأ القلوب ..

وفي مكانه البعيد الذى وقف فيه ، كان — عيسى — يشبه نقطة الضوء الوحيدة فى المكان .. وكان الله لم يأمره بعد أن يفرش هذا الضوء لأكبر عدد من الفقراء والتعساء والحزائى ..

طالت وقفة عيسى فى المعبد ..

كلما أدار وجهه حوله وجد كهنة .. كان هناك عشرون ألف كاهن ، أسماؤهم مسجلة فى الهيكل .. يتعيشون منه، ويقبضون مرتباتهم من خزائنه، وكانت حجرات المعبد تمتلىء بالآلاف منهم فى ملابس الحفلات .. هؤلاء هم اللاويون بقبعاتهم المدببة وجيوبهم العريضة التى يحملون فيها كتب الشريعة ، هؤلاء هم الفريسيون بملابسهم البنفسجية الواسعة ذات الأطراف المنسوجة بالذهب .. هؤلاء هم خدم الهيكل الرسميون فى ملابسهم البيضاء ، هؤلاء هم الصدوقيون ، وهم طائفة الكهنة الأرستقراطيين التى تتحالف مع السلطة الحاكمة وتثرى عن طريق هذا التحالف .. لاحظ عيسى أن عدد زوار الهيكل أقل من عدد الكهنة ورجال الدين .. كان المعبد يمتلىء بالخراف والحمام التى يشتريها زوار المعبد لتقديمها قرابين الى الله .. قرابين تذبح داخل المعبد فوق المذبح ..

كانت كل خطوة داخل المعبد تكلف السائر نقودا ..

هنا فى المعبد اليهودى ينكشف جوهر الحياة اليهودية ..

ان القيمة الوحيدة التى عبدها الناس فى هذا الزمان كانت هى النقود ..

صار الترف المادى أو الثراء هو القيمة الوحيدة التى يتصارع عليها الناس جميعا ، لا فرق فى ذلك بين رجال الشريعة أو رجال الحياة ..

ان الصدوقيين والفريسيين يتعاملون فى الهيكل كأنهم داخل سوق يستغلونه للآثراء على حساب الضحايا الذين يوقعهم حظهم فى دخوله ..

وكثيرا ما كان الصدوقيون والفريسيون يتشاجرون فى أمور الشريعة العليا، ومثال ذلك مشاجراتهم بشأن توريد الأضحية اللازمة للذبيحة اليومية فى الهيكل ..

كان الفريسيون يرون انه يجب شراء هذه الضحايا من مال الهيكل ، على حين كان الصدوقيون يعتبرون مال الهيكل من حقهم ، ومن ثم كانوا يرون انه يجب شراء الضحايا باكتتابات مستقلة .. كذلك كان الفريسيون يوجبون حرق الذبيحة على المذبح ، أما الصدوقيون فكانوا يأخذون هذه الذبيحة لأنفسهم .. وقد ورد فى التلمود أن الصدوقيين اذ كانوا يبيعون الحمام فى حوانيت يملكونها ، عمدوا الى مضاعفة المناسبات التى ينبغى فيها تقديم الحمام ذبيحة ، حتى وصل سعر الحمامة الواحدة الى بضعة دنانير ، ولاحظ الفريسيون هذا الاثراء الذى أصابته طائفة الصدوقيين ، فأفتى أحد شيوخ الفريسيين ، وهو سمعان بن عملائيل ، بانقاص المناسبات التى يقدم فيها الحمام ذبيحة ، وبذلك وصل سعر الحمامة الى ربع دينار ، فكانت تلك ضربة عنيفة لأصحاب حوانيت الحمام ، التى كان يملكها الكهنة ولا سيما أولاد رئيس الكهنة ..

طاف عيسى بعينيه فى المكان ..

لاحظ الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الأضحية ولا تقديم القرابين ..
لاحظ كيف يعاملهم الكهنة ويهشونهم كالذباب ..

وفكر عيسى بينه وبين نفسه ..

لماذا يحرقون الحيوانات ويذهب لحمها دخانا فى الهواء .. وهناك آلاف
الفقراء يموتون جوعا خارج المذبح؟! .. لماذا يظنون أن الله يرضى عندما تتلطح
المذبحة بالدماء وتذهب الأضحية الى بيوت الكهنة ودكاكينهم لبيعها بعد ذلك؟
.. لماذا يجب على الفقراء ان يستدينوا ليصرفوا نقودهم فى شراء حيوانات
الذبيحة؟ .. ولماذا لا تصلح الا الذبائح التى يرببها الكهنة؟ .. وماذا يفعل
الكهنة بهذه النقود؟ .. وأخيرا ... أين مكان الفقراء فى المعبد .. ان كل من
هنا أغنياء معهم نقود .. أليس غريبا أن يدخل الانسان بيت الله ومعه
نقود ...؟!

وانصرف عيسى من المعبد وخرج من المدينة كلها الى الجبل ..

كان صدره يشتعل بغيرة مقدسة على الحق ، وكان وجهه يزداد شحوبا
ونقاء وحزنا على امتلاء الدنيا بالشورور .. ووقف عيسى فوق تلال الناصرة
وصف قدميه وبدأ يصلى .. انحدرت دموعه من عينيه الى خديه الى الأرض
.. طالت وقفته واشتد بكأؤه .. كانت هناك بذرة زهرة تموت عطشا فى
الأرض ، فشربت دموع المسيح وشقت طريقها الى الحياة .. أنقذتها دموع
المسيح مثلما قدر له فيما بعد أن ينقذ الناس بدعوته ..

وفى هذه الليلة المباركة ..

قبضت من الأرض روحا نبيين كريمين .. هما : يحيى وزكريا ..

قتل الاثنان بيد السلطة الحاكمة ..

ونقصت الأرض كثيرا من الخير حين قبضا ..

فى نفس الليلة .. نزل الوحي على عيسى بن مريم ، وصدر له أمر الله
تبارك وتعالى أن يبدأ دعوته الى ملكوت السماء ..

.....

انتهى الأمر ، واغلق عيسى بن مريم الصفحة الناعمة من حياته .. صفحة
التأمل والعبادة ، وبدأت رحلته الشاقة المليئة بالآلم .. بدأت رحلته للدعوة
الى الله .. الى مملكة جديدة لا يستطيع السوس أن ينخر ما فيها من قمح
ذهبي تقنات عليه الروح ، مملكة ليست الشريعة فيها هى توابيت الكلمات
الميتة وحروفها الباردة ، وليس الصدق فيها هو شراء الغفران بالذهب ..

مملكة تقوم على التواضع والحب ..

مملكة هدف سيدها وراعيها هو خلاص الروح ..

.....

التواضع والحب ..

.. خلاص الروح ..

الايمان بقيامة الأموات ووجود يوم يقدم فيه البشر حسابا عما فعلوا ..

تلك قيم وأفكار كانت حياة اليهود تخلو منها تماما .

ان الشريعة الموسوية تنص على القصاص ..

من ضربك على خدك الأيمن فاضربه على خده الأيمن .

كيف كان اليهود يطبقون شريعة القصاص ؟

إذا كان المصروب قادرا .. نسف بيت الضارب ولم يكتف بضربه على خده الأيمن . وإذا كان غير قادر .. ضربه على خده الأيمن وامتلأ قلبه بالحقد لأنه لم يدمر بيته .

كانت الكراهية هي المرغبا الذى رست فيه شريعة موسى ، رغم أنه كان رجلا من رجال الحب الالهى الكبار ، وها هي شريعته ينتهى بها الأمر على أيدى القلوب الميتة ، الى موانئ الحقد .

كيف يتصرف عيسى ازاء هذا كله ؟

لقد بعث عيسى مؤيدا للتوراة كما أنزلها الله عز وجل على موسى .

لا يهدم نبي عمل نبي سابق .

كل الأنبياء حلقات فى سلسلة واحدة هدفها النقاء والحق وتوحيد الأحد .

كيف يتصرف عيسى ازاء شريعة القصاص الموسوية ؟

كان تصرفه الهاما من خالقه سبحانه ..

رد عيسى القوم الى الغرض الاصلى من الشريعة ، ردهم الى حكمتها الداخلية الاصلية ..

ردهم الى الحب .

لن يقول المسيح لمن يضربه على خده الأيمن شيئا ..

لن يسعى الى ضربه على خده الأيمن ..

سيدير المسيح عليه الصلاة والسلام له خده الأيسر ..

هذه هي شريعة عيسى ..

لا تختلف شيئا عن شريعة موسى ..

هى عمق بعيد من أعماق شريعة موسى .

هى العمق الأخير لهذه الشريعة .

يريد عيسى أن يثبت للقوم حوله شيئا هاما ، يريدهم أن يفهموا أن الشريعة ليست أن تنتقم لنفسك وتضرب . الشريعة الحقيقية أن تسامح وتعفو وتحب .

تصير قادرا على الحب .

ليست القدرة على الحب أمرا فى طاقة البشر جميعا ، وليست حاسة تولد بميلادهم ، انما هى نهاية طريق من المعاناة والألم . وهى بداية الوجود الانسانى الحقيقى .

ان عديدا من وحوش الغاب والدواب تحب انفسها ، وتقاتل من أجل الطعام والشراب ، وتطعم أبناءها وتدخر لهم ، الفرق بين الانسان والحيوان هو فارق فى درجة الحب . . لا يستطيع الحيوان أن يتجاوز ذاته بالحب الى ذوات الآخرين ، أما الانسان ، فهو الكائن الذى يستطيع ذلك . . .

وفى ذلك يكمن مجده وانسانيته .

أفهم المسيح قومه أن الانسان لا يصير انسانا الا اذا انخلع من ذاته وأحب الآخرين . وكلما ازداد القلب الانسانى اقترابا من أبعد الناس عنه ، هنالك يقترب الانسان من انسانيته .

[سمعتم انه قيل فلتحب قريبك ولتبغض عدوك . أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . باركوا لأعدائكم . أحسنوا الى مبغضيك . وصلوا من أجل الذين يسيئون اليكم ويضطهدونكم] .

انجيل متى . . .

.....

من النقيض الى النقيض .

جاءت دعوة عيسى نقيضا لشرعية موسى . . فى الشكل الخارجى . . اذا نظرنا الى الشريعتين نظرة سطحية .

وفى الحقيقة . . جاءت دعوة عيسى نقضا لما استحدثه الفريسيون والصدوقيون فى شريعة موسى . . واحياء لحقيقة هذه الشريعة وأهدافها العليا .

ووسط عصر مادمى مترف شديد الاهتمام بالفنى . . وسط عالم يعيد الذهب وتسوده القسوة ويحكمه الجشع وتمضى به الشكليات . . ظهرت دعوة المسيح كرد فعل مثالى عظيم السمو والنقاء . . كان المسيح يعرف انه يدعو الناس لاتخاذ سلوك مثالى فى الحياة ، كان المسيح يعرف أن دعوته مثالية .

لكن هذه المثالية — فى ذلك الوقت بالتحديد — كانت هى الحل الوحيد لشفاء الحياة من بؤسها وأمراضها الحاكمة .

وكان المسيح يعرف أن الناس جميعا لا يستطيعون الوصول الى القيمة التى يشير اليها ويبشر بها ويتحدث عنها ويدعو اليها ، ولكن كان يكتفى أن يبذل كل واحد جهده فى الصعود قليلا حتى ينجو .

كانت الحياة تفرق تماما ، وكانت المثالية هى سبيل النجاة الوحيد .

تميزت دعوة عيسى — منذ بدايتها الى النهاية — بالشفافية والنقاء

البالغين ، وبكونها دعوة تستهدف خلاص الروح ، أو دعوة تعتبر دستورا للسلوك الفردي ، وليست نظاما للحياة وقانونا للمجتمع وتشريعات محددة .

لن نجد فى دعوة عيسى مثلا نظاما تشريعيًا للميراث ، أو الوصية ، أو الزكاة .. لن نجد نظاما تشريعيًا يقرر عقوبة للقتل أو السرقة أو الزنا .. لن نجد تشريعا للزواج والطلاق والنفقة .

تجاوزت دعوته كل هذه التفاصيل الدقيقة الى النبع الاصيل وهو الروح ..

كان عيسى يريد احياء الروح الانسانى ، وقيادته الى النور الخالق . ولهذا السبب جاء عيسى مؤيدا بالروح القدس .

والروح القدس هو جبريل عليه السلام .

ونحن لا نعرف الكيفية التى ايد الله تعالى بها عيسى .. هل صحبه جبريل ولازمه طوال بعثته ؟ .. ان جبريل عليه السلام يتنزل على الانبياء بالرسالات ، او بالمعجزات ، او ينزل على قومهم بالعقوبات .. لكنه لا يمكث معهم طيلة الوقت ، فهل لازم جبريل عيسى حتى رفع عيسى ..

يكاد القلب يطمئن لهذا التفسير ، فمتد كان فى حياة عيسى شىء ملائكى .. وكانت لديه قدرة خارقة على المعجزات ، وبلغت قدرته حد احياء الموتى باذن الله ، كما بلغت قدرته حد النفخ فى طين صنع كهينة الطير فاذا هو يطير باذن الله .

لم يكن عيسى يقرب النساء ايضا .. عاش حياته حتى رفعه الله لم يمسه امرأة ولم يتزوج .. وهذه صفة ملائكية ايضا ، فقد كان معظم انبياء الله تعالى يتزوجون ويملكون عديدا من النساء ، وتقدر كتب اليهود عدد نساء بعض انبيائهم [كسليمان مثلا] بالف امرأة ، ولا نريد ان نتوقف عند الرقم لان معظم الأرقام تعرضت لعوامل التعرية والحو والتبديل . غير أننا نريد أن نشير الى طبيعة عيسى التى ارتفعت على دواعى الجسد ورغباته المشروعة .

لقد عاش حياته متبتلا كابن خالته يحيى .. واذا كان يحيى ناسكا يعيش فى الجبال والصحارى ويبيت فى المغارات والكهوف ، فالأمر يبدو طبيعيا بالنسبة له ، أما عيسى فعاش وسط مجتمع المدينة .. وليس لاستغنائاه عن النساء كلية ، وليس لمعجزاته الباهرة المتصلة بالروح فى رأينا غير تفسير واحد ، هو تأييده بروح القدس طيلة الفترة التى استغرقتها دعوته .

وتلك نعمة لا نعرف احدا من الانبياء اوتيتها من قبل .

قال تعالى فى سورة المائدة :

« اذ قال الله يا عيسى بن مريم : انكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، اذ ايدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهينة الطير باذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الاكمه والابرس

باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كفت بنى اسرائيل عنك اذ
جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين .
واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا
وأشهد باننا مسلمون (١) ..

تحدد الآيات السابقة خمس معجزات لعيسى .

الأولى : تكليمه للناس فى المهد .

الثانية : تعليمه التوراة .. وكانت التوراة التى أنزلت على موسى قد
اختلفت تحت ركام التحويرات والتبديلات والتفسيرات والتخرجات المتعاقبة
لفقهاء اليهود .

الثالثة : تصويره من الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه فيكون طيرا .

الرابعة : احيائه الموتى .

الخامسة : ابراؤه الاكبه [من ولد أعمى] والابصر . [المريض بجلده
ولا شفاء له] .

وهناك معجزة سادسة يذكرها القرآن الكريم فى سورة المائدة ..
فى قوله تعالى :

« اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم : هل يستطيع ربك ان ينزل
علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا :
نريد ان ناكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم ان قد صدقنا ، ونكون
عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا انزل علينا
مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ، وآية منك ،
وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : انى منزلها عليكم ، فمن
يكفر بعد منكم ، فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » (٢) .

وكأن المعجزة السادسة هى انزال المائدة من السماء بطلب الحواريين .
وهناك معجزة سابعة وردت فى سورة آل عمران ، وهى اخباره عليه
السلام بأمر غائبة عن حسه ولم يعانيتها ، فقد كان ينبىء صحابته وتلاميذه
بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم .

«وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم
ان كنتم مؤمنين !» (٣) .

هذه هى معجزاته السبع .. تسبقها معجزة ميلاده من غيراب .. وتليها
معجزة رفعه من الأرض حين حاولت السلطات الحاكمة صلبه .

من حق القارىء ان يتساءل : لماذا جاءت معجزات عيسى من هذا

(١) الآية ١١٠ سورة المائدة مدنية .

(٢) الآيات من ١١٢ الى ١١٥ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ٤٩ سورة آل عمران مدنية .

النوع ؟ .. نعرف أن المعجزة أمر خارق يؤيد به الله تعالى نبيه ، ولكى يكون التأييد متكاملًا ينبغى أن تجيء المعجزة مناسبة لعصرها منفتحة مع زمانها بحيث تؤثر فى نفوس القوم وتهز أعماقتهم وتجعلهم يؤمنون أن صاحب هذه المعجزة نبي أرسله الله تعالى . والمعجزة هى الأمر الخارق .. ورغم أن الأمر الخارق يكفى وحده للاقتناع .. خاصة فى طفولة البشرية .. إلا أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يجيء هذا الأمر الخارق مناسبًا لزمانه ومكانه .

وهكذا اختلفت معجزات الرسل ..

بعث صالح وسط قوم يرون النوق وهى تلد ، لم ير أحدهم ناقة ولدت من جبل ، أو تنشق عنها صخور الجبل .. وكانت معجزة صالح هى ناقة الله التى خرجت يوما من صخور الجبل .

وبعث موسى لقوم شاع فيهم السحر ، وكان للسحرة مكان مرموق ، فكانت معجزته تشبه السحر فى مظهرها الخارجى ، ولكنها فى حقيقتها كانت إبطالا للسحر ونسفا له [العصا التى تحولت الى ثعبان يأكل عصى السحرة] .

وبعث عيسى لقوم ماديين ينكرون الروح تماما ، وينكرون البعث كلية ، ويزعمون أن الإنسان جسم بلا روح .

قوم يعتقدون أن دم المخلوق هو روحه أو نفسه .

تقول التوراة التى بأيدي اليهود فى تفسير النفس .. انها الدم .

جاء فيها «لا تأكلوا دم جسم ما . لأن نفس كل جسد هى دمه» ..

بعث عيسى وسط قوم سادتهم فلسفة أساسها أن خلق الكون كان له مصدر أول .. كالعلة عن معلولها .. وكان له وجود سابق .

وسط هذا العصر المادى الذى أنكر الروح تماما .. كان منطقيا أن تجيء معجزات عيسى اعلانا لعالم الروح .

وهكذا ولد عيسى من غير أب .

تكفى هذه المعجزة لاقتناع القوم أن خلق الكون لم يكن له مصدر أول . لم يكن له وجود سابق .. نحن أمام خالق أوجد نظاما لكل شيء ، وجعل أسبابا لكل شيء ، جعل نظام ولادة الأطفال هو المجرى من اتصال رجل بامرأة ..

لكن هذا الخالق — سبحانه وتعالى — يخلق الأسباب فتخضع له الأسباب ولا يخضع هو لها .. سبحانه .. وهو بمشيئته الطليقة الحرة يستطيع أن يأمر بميلاد صبى من غير أب فيولد .

وهكذا ولد عيسى ..

بلا أب .

تكفى نفخة الروح ..

« فنحنها فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين » [١] .

(١) من الآية ٩١ سورة الانبياء مكية .

وهكذا جاءت ولادة عيسى معجزة خارقة تؤكد أمرين :

١ - حرية المشيئة الالهية ، وعدم تقيدها بالاسباب ، لأنها بداهة هي خالقة الاسباب .

٢ - خطورة الروح ، وعلان قيمتها وثنائها بين قوم التصقوا بالاجساد وسادهم انكار الروح .

ولو نظرنا فى معظم معجزات عيسى ، فسوف نراها تؤيد وجهة النظر هذه .

هناك معجزة تصوير عيسى من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرا .

هذه المعجزة تؤكد وجود الروح . لقد كانت قطعة الطين جسدا لا يمكن وصفه بالحياة . فلما نفخ فيها عيسى تحولت قطعة الطين الى طير فيها حياة .. ان شيئا غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه .

هذا الشيء المنفصل عن الجسم هو الروح .. دبت الروح فى الصلصال فصار طيرا ..

كان الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد ..

وهناك معجزة احياء الموتى .. ليست اعلانا قارعا عن الروح ووجود اليوم الآخر ووجود قيامة للموات وبعث .

هذا ميت قد اكلته الارض . تحللت أحشائه وعظامه ، أوثكت أن تصير رميما أو صارت .. وها هو ذا المسيح يناديه . فاذا هو حى ينهض من موته .

لو كان هذا الميت جسدا فقط كما يقول اليهود ، لما كان ممكنا له أن ينهض من الموت، لأن الجسد قد تحلل .. لكن الميت ينهض من الموت . يعود جسده الى الحياة وينهض من مقبرته ويتحدث .. ما الذى حدث هنا .. غير أن عيسى استدعى روحه - بأذن الله - فعادت الى الجسد فنهض الجسد .. تحول من تراب الى جسد .

كان الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد ..

كان هناك بعثا اذن وقياما يوم القيامة .

ليست المسألة مستحيلة كما يقول اليهود ، لأن الاجساد تتحول الى تراب يتطاير فى الهواء بعد الموت .

ليست مستحيلة وانما هى ممكنة .. ودليل ذلك قيام هؤلاء الموتى امام أعينهم الآن .. لقد احياهم عيسى ليثبت لقومه أن قيامة الاجساد من الموت حق ، وأن اليوم الآخر حق .

هناك معجزة اخبار القوم بما يدخرون فى بيوتهم بغير أن يدخل بيوتهم أو يحدثه عنها أحد .

هذه المعجزة تثبت أن الحواس ليست هى القيمة الحقيقية .. ان

عيسى لم ينظر لما فى بيوتهم ، ولكن روحه تستطيع أن تنظر وتحادثهم .
كأن الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد . .
وهكذا جاءت معجزات عيسى عليه السلام اعلانا عن خطورة الروح
وطلاقة المشيئة الالهية .

جاءت معجزاته — كما يقول استاذنا محمد أبو زهرة — من جنس
دعايته ، وتناسب هدف رسالته ، وهو الدعوة الى تربية الروح ، والايمن
بالبعث والنشور ، وان هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن باحسانه ،
والمسيء باساءته ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

وهل ترى أن معجزة احياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى
انكاره ، أو تسمح لجاحد البعث والنشور بأن يستمر فى جحوده . وقد
أسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة .
وعدم الايمان باليوم الآخر ، فكان احياء الموتى صوتا قويا يحملهم على
الايمن ، ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون .

.....
.....

أغلق عيسى الصفحة الناعمة من حياته وبدأ دعوته الى الله ، مؤيدا
بالروح القدس ، ومعجزاته الباهرة . .

يحدثنا القرآن الكريم ان دعوة المسيح لا تختلف فى جوهرها عن دعوة
غيره من الأنبياء . . وهى الاسلام بمعناه الاصيل عند الأنبياء . . بمعنى
التوحيد الكامل ، واسلام الوجه لله . .

— اعبدا الله ربى وربكم .

يحدثنا القرآن أن قائل هذه الكلمة هو عيسى . وهى نفسها الكلمة
التي يقولها الأنبياء جميعا . تختلف أسماءهم وصفاتهم ومعجزاتهم
وملابسهم ولغاتهم وأعمارهم وأشكالهم وألوانهم . . لكنهم يتفقون جميعا
فى اسلام الوجه والقلب لله ، واسلام الروح لله ، والايمن بأن الله هو
ربهم ورب العالمين . لا شريك له فى الملك ، ولا مثل له فى الكون . هو
واحد أحد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

لم يقل عيسى فى مسألة التوحيد أقل أو أكثر مما قاله أنبياء الله
جميعا .

ولقد جاء القرآن بعد خمسمائة عام على التقريب من رفع عيسى .
ولعلم الله الأزلى بما سيصير اليه أمر المسيحية من اختلاف حول طبيعة
عيسى حرص القرآن الكريم على أن يكشف عن حوار لم يقع بعد . .

قال تعالى فى سورة المائدة :

((واذا قال الله : يا عيسى بن مريم : أنت قلت للناس اتخذونى وأمى
الهي من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى
بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى

نفسك ، انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتني به ،
ان اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ،
فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد» [١٨] .

يفيد النص القرآني صراحة أن الدعوة المسيحية التي نزل بها عيسى
كانت دعوة الى التوحيد ، يفيد النص تبرؤ عيسى من كل ما قيل حول بنوته
او الوهيته . .

« ما قلت لهم الا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم » [٢٢] .

.....

انطلق عيسى في دعوته الى الله .

قامت دعوته على أساس أنه لا توسط بين الخالق والمخلوق ،
لا توسط بين العابد والمعبود ، وأنزل الله تبارك وتعالى عليه الانجيل ، وهو
كتاب مقدس ، جاء تصديقا للتوراة ، وجاء احياء لشريعتها الأولى ،
وجاء مؤيدا للصحيح من أحكامها ، وكان الانجيل نورا وهدى وموعظة
للمتقين .

وقد اصطدم عيسى بتفسير اليهود الحرفي للشرية . وطمان عيسى
الغيورين على الشريعة والحقيقة ، بأنه لم يأت لينقض الشريعة ، وانما
جاء يكملها ويتم نبوءات الأنبياء . غير أنه في تفسيره للشرية ، تجاوز
شسورها وحرفيتها الى حقيقة جوهرها .

أفهم عيسى اليهود أن الوصايا العشر لموسى تنطوي على معانٍ أعمق
مما يتصورون . أن الوصية السادسة لا تنهى عن القتل المادي فقط كما
فهموها ، وانما تنسحب على كل اعتداء وكل اساءة للآخرين مهما يقل
شأنها . والوصية السابعة لا تنهى عن الزنا [بمعنى اتصال رجل بامرأة
ليست من حقه] ، وانما تنسحب على كل أنواع الزنا ، وتستطيع العين
أن تزنى لو نظرت لما ليس من حقه باشتهاء ورغبة . .

وقال عيسى : انه أفضل للانسان أن يستغنى عن عينه التي تستطيع
أن تهلكه ، بدلا من أن يهلك معها . كانت الشريعة تنهى عن الحنث باليمين
ونكث العهد ، فأفهم عيسى قومه انه ينبغي الامتناع عن الحلف والقسم
امتناعا تاما ، لأنه « خطأ عظيم أن يصير اسم الله تعالى مبتذلا على السنة
الناس » . [انجيل متى ٢١ - ٤٨] .

اصطدم عيسى أيضا بذلك التيار المادي السائد في المجتمع ، ولهذا
حذر الناس من النفاق والرياء والطمع في مدح الناس ، كما حذرهم من
الطمع في ثروة العالم ، فلا ينبغي أن يكتزوا لأنفسهم كنوزا في الأرض ،
أى لا ينبغي أن يحصروا اهتماماتهم في الأرضيات لأنها فانية زائلة ، وانما
ينبغي أن يحصروا اهتماماتهم في السماويات لأنها باقية أبدية .

أشار عيسى على الناس أن يكونوا حكماء في اختيار كنزهم ، لان

(١) الايتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

طابع عقولهم وبالتالي لون حياتهم سوف يكون تبعا لذلك اما جسديا أو روحيا ، لأنه حيث يكون كنز الانسان ، يكون هناك قلبه كذلك . فاذا كان القلب متجها الى نور السماء ، أضاعت حياة الانسان كلها ، فاذا اتجه القلب الى ظلام الأرض صارت حياته كلها مظلمة ..

حذر عيسى قومه من الرياء ومحبة العالم ، ودعاهم الى التدقيق فى اختيار السيد الذى يخدمونه . لأن الانسان لا يستطيع أن يخدم سيدين فى وقت واحد . فأما أن يجعل المال سيدا له ، وأما أن يكون الله عز وجل سيدا له . فاذا عبد المال ابتعد ذلك به عن عبادة ربه ، ومن ثم ينبغى ألا يهتم الناس بأمور هذا العالم ، كالمأكل والملبس ، بحيث يسيطر عليهم القلق والانزعاج والشك فى رعاية الله لهم . فقد وعد الله أن يوفر لعباده كل ما يلزم لحياتهم ، فاذا سيطر عليهم القلق والشك والانزعاج ، فانما ينشأ ذلك من شكهم فى رعاية الله لهم ، وعدم ثقتهم بوعوده ورحمته ورعايته للبشر . فالله هو الذى خلقهم وهو الذى يعولهم ويرعاهم ، لأنه يعول ويرعى حتى أقل الكائنات شأننا كطيور السماء وزنابق الحقل .

أنهم عيسى قومه أن الاهتمام بالعالم خطيئة وثنية لا تليق بالمؤمنين ، لأن الوثنيين يقبلون هذه الأمور بسبب أنهم لا يعرفون ما هو أفضل منها . وأما المتدينون فيعرفون أن هناك عناية الهية تدعوهم الى الثقة بالله ، واحتقار العالم .

الله يعلم احتياجاتهم أكثر مما يعلمونها ، وهو كفيل بإجابتها ، فالأحرى بهم إذن أن يطلبوا ملكوت الله وبره . أى حياة الروح وما تكفله من سعادة أبدية . ومن ثم ينصح عيسى بالألا يربك الناس أنفسهم بحوادث المستقبل ولا بأمور القدر . لأن « القدر يهتم بشأن نفسه » .

وإذا كانت الاحتياجات والمتاعب تتجدد كل يوم ، فان المعونة والزاد الالهى يتجددان كذلك .

اصطدم عيسى أيضا بتلك الثنائية التى يعامل بها الناس بعضهم بعضا ، فبينما يقبل الناس لأنفسهم الخير ، نراهم يقدمون الشرور لغيرهم . وكانت حياة اليهود وسط هذه الثنائية قد خنقت العدالة البشرية تماما ، وأوصى عيسى بن مريم الناس بأن يسيروا فى معاملة الناس على مقتضى القاعدة الذهبية التى تقول : « كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم ، فافعلوه انتم أيضا بهم » .

استمر عيسى فى دعوته الى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما استمر يدعو الناس الى تنقية الأرواح وتطهير القلوب وغسل الضمائر والدخول فى ملكوت السماء .

وأثارت دعوته كهنة اليهود ، فقد كانت كل كلمة من كلمات عيسى ترفع السلاح فى وجوههم وتعلن الحرب عليهم وتعريهم وتكشف نفاقهم ، وابتعدت السلطات الرومانية المحتلة عن النزاع فى بدايته على أساس أنه خلاف داخلى بين طوائف اليهود ، خلاف يرضى السلطات الحاكمة إذ يصرف الحكوميين بمشاكلهم ونزاعاتهم عن قضايا الاحتلال .

وبدأت المؤامرات تدبر لعيسى من الكهنة .

أرادوا إجراجه ، واثبت انه جاء يحطم شريعة موسى .. وكانت شريعة موسى تقضى برجم الزانية .

وأحضر كهنة اليهود امرأة خاطئة تستحق الرجم .. التفتوا حول عيسى يسألونه ؟

— الا تقضى الشريعة برجم الخاطئة .

قال عيسى :

— نعم .

قالوا :

هذه المرأة خاطئة .

نظر عيسى الى المرأة ، ونظر الى الكهنة ، كان يعلم ان الكهنة أعظم خطأ من المرأة ، كان يعرف أنهم أشد ظلما منها ، وكان الكهنة ينتظرون جوابه فان قال انها لا تستحق القتل فهو يقف ضد شريعة موسى ، وان قال انها تستحق الموت فقد هدم بنفسه شريعة الحب والتسامح التي جاء بها .

فهم عيسى المؤامرة .. وابتسم فأضأ وجهه ، ونظر الى الكهنة ، وعاد ينظر الى المرأة وقال لهم :

— من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ..

ارتفعت كلمته وسط سكون المعبد تضح قانونا جديدا للحكم على الخطأ .. ليحكم على الخطأ من لا يخطئ .. لا يستحق أحد من البشر الخطاة أن يدين غيره من البشر أو يحكم عليه .. انما يحكم الله المنزه المتعال وحده .. والله أرحم الراحمين .

خرج عيسى من المعبد فأسرعت المرأة وراه .. أخرجت من ثيابها زجاجة من العطر الثمين ووقفت أمام عيسى .. وهوت على قدميه تقبلهما وتفسلها بالعطر والدموع ..

بعدها جففت قدميه بشعرها .

كان المسيح يمثل لها — كما يمثل للملايين غيرها — ذلك الأمل الأخير في الخلاص .. وتلك القدرة اللامتناهية على الرحمة ...

وخرج وراء عيسى كبير كهنة اليهود .

وقف يشهد المنظر ويعجب بينه وبين نفسه من رحمة عيسى وسماحته . ونظر عيسى اليه وسأله

— دائن له مدينان : أحدهما مدين بخمسمائة دينار ، والآخر بخمسين .

قال الكاهن :

— نعم .

قال عيسى :

— لم يكن مع أى واحد منهما ما يفى بدفع دينه .. وسامحهما الدائن .

قال الكاهن :

— نعم .

— أيهما يكون أكثر حبا له .. ؟

قال الكاهن :

— الذى سامحه فى الأكثر .

قال عيسى :

حكمت بالصواب .. انظر لهذه المرأة .. لقد دخلت أنا بيتك فلم تستخدم لى ماء لغسل وجهى .. ولكنها غسلت قدمى بالدموع ومسحتها بشعر رأسها .. كذلك لم تقبلنى أنت قبلة واحدة ، لكنها لم تكف عن تقبيل قدمى .. قلبك أنت عظيم القسوة ، ولكنها تحمل قلبا يمتلىء بالحب .. ومن أحب كثيرا غفرت له خطاياها .

استدار عيسى الى المرأة وأمرها أن تنهض من الأرض وهو يقول :

— اللهم اغفر لها خطاياها .

أفهم عيسى كهنة اليهود ، ان الدعاة الى الله ليسوا جلادين منتدبين لتطبيق حكم الشريعة دون نظر الى المجتمع الذى تجرى فيه الخطيئة . انما يجيء الدعاة الى الله أساسا رحمة بالناس .

والرحمة هى هدف كل هذه الدعوات الالهية ..

ان ارسال النبى هو ذاته يعنى رحمة الله تعالى بقومه وزمانه ..

.....

استمر عيسى يدعو الله أن يرحم قومه ، ويدعو قومه أن يرحموا أنفسهم ويؤمنوا بالله .

كانت حياته آية من آيات الزهد والنسك .

قال معتمر بن سليمان .. فيما يرويه ابن عساکر : « خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف .. خرج حافيا باكيا مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش ، فقال : السلام عليكم يا بنى اسرائيل ، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها باذن الله ولا عجب ولا فخر .

— أتدرون أين بيتى ؟

قالوا أين بيتك ياروح الله .

قال : بيتى المساجد ، وعطرى الماء ، وطعامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس ، وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوف ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى

الفقراء والمرضى والمساكين . أصبح وليس لى شىء وأمسى وليس لى شىء .
وأنا طيب النفس غير مكترث . فمن أغنى منى وأربح!

.....
.....

مضى عيسى فى دعوته .. مؤيدا بمعجزات الله له .
صنع لقومه من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فصار طيرا باذن الله ..
كان طرف ثوبه البسيط المتواضع اذا مس مريضا شفى هذا المريض .
وكان عيسى اذا وضع يديه فوق أعمى أو أبرص شفى على الفور .
كان عيسى مؤيدا بمعجزة هائلة .. هى القدرة على دعوة الموتى من قبورهم
فإذا هم يخرجون أحياء باذن الله .

يقول المفسرون ان عيسى أحيى أربع أنفس :

العازر ، وكان صديقا له .

وابنا لعجوز ..

وبنتا كانت وحيدة أمها ..

وهم ثلاثة ماتوا فى أيامه .. فلما رأى اليهود ذلك قالوا له : انك تحيى
من كان موتهم قريبا فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة ، وطلبوا منه
أن يبعث من الموت سام بن نوح .

يقول المفسرون انه سألهم أن يدلوه على قبر سام بن نوح .. فخرج
القوم وهو معهم حتى انتهوا الى قبره ، فدعا الله أن يحييه . فخرج سام بن
نوح من قبره وقد شاب رأسه .

قال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شيب ..

قال سام : ياروح الله . انك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : اجب
روح الله فظننت أن القيامة قد قامت . فمن هول ذلك شاب رأسى .

ومهما يكن من أمر القصص التى تروى عن احياء عيسى للموتى ،
فنحن لا نعرف من السياق القرآنى تفصيلات محددة لذلك ، كل ما يذكره
الله تعالى أن عيسى أحيى الموتى باذنه ، ونحن نصدق أنه أحياهم ،
وان كنا لا نعرف هل عادوا بعدها الى الموت أم عاشوا فترة .

.....
.....

استمر عيسى يدعو الناس الى الله . ويضع لهم ما يمكن تسميته
بدستور الروح .. صعد الى الجبل .. ووقف حوله أتباعه .. أدار عيسى
بصره فبين آمن به .. كانوا مجموعة من الفقراء والتعساء والحزانى
ومساكين الروح .. كان العدد قليلا شأن أتباع الأنبياء دائما .

وغطت الجبل سحابة رقيقة وهبط رذاذ خفيف .. وأنشأ عيسى يتحدث :

طوبى للمساكين بالروح .. فان لهم ملكوت السموات .

- طوبى للحزائى . فانهم سيعتزون
- طوبى للودعاء ، فانهم سيرثون الأرض
- طوبى للجياع والعطاش الى البر .. فانهم سيثبعون
- طوبى للرحماء ، فانهم سيرحمون
- طوبى لانقياء القلب ، فانهم سيعاينون الله
- طوبى للمضطهدين من أجل الحق . فان لهم ملكوت السماوات
- أنتم ملح الأرض .. فاذا فسد الملح ، فأى شئ يرده ملحا من جديد ..

.....

تأمل عمق المعنى فى عبارته « أنتم ملح الأرض » .

ان الملح هو الذى يمنح الاشياء طعمها المميز ومذاقتها الخاص ، وبغير الملح يبدو الطعام فاقدًا لثىء يصعب تحديده ، بغير الملح يبدو الطعام بلا معنى .. أو غير محتمل ..

وبغير المؤمنين يبدو طعم الحياة ذاته بلا معنى .. وبغير المسلمين وجوههم وقلوبهم وأعمالهم لله تبدو الحياة قاسية وغير محتملة .. ويضيع معنى استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، ويضيع معنى عظمة الإنسان المتمثل فى كونه عبد الله .. وتمتلىء الحياة بقسوة الشرور المنتصرة .

ولهذا كان عيسى حريصا على حفنة الملح القليلة التى تتبعه .. كان حريصا على نقاء هذا الملح .. أفهمهم أنهم « معنى » الحياة .. و « طعم » الأرض .. و « مذاق » الوجود .. أنهم مسلمون .. يمثلون الخير .. فاذا فسدوا هم .. وهم أصلا مكلفون بمنح الحياة طعمها النقى .. فأى شئ يمنح الحياة نقاءها اذا فسد النقاء ذاته .

وأوحى الله تعالى الى ملح الأرض أن يؤمن بعيسى .

قال تعالى :

**« واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى : قالوا آمنا
واشهد باننا مسلمون » [١] . سورة المائدة .**

اعترف الحواريون بالاسلام .. كما اعترفت ملكة سبأ باسلام سليمان
وأسلمت معه .

كما اعترف كل أنبياء الله بالاسلام ..

تنحصر حقيقة رسالات الأنبياء فى الاسلام .. ويدعو كل أنبياء الله الى التوحيد والاسلام .. والاسلام — فى رأينا — معنى أدق من التوحيد .. ان اعتراف الانسان بالله تعالى والايان بوحدانيته فى خلق الكون ، لا يمنع الانسان كائسان من ارتكاب الخطايا .. أما اسلام القلب

(١) الآية ١١١ سورة المائدة مدنية .

والجوارح والفكر لله .. فدرجة أعلى قليلا .. هذه درجة خضوع
الخاضعين وقمة توحيد الموحدين ، وهى اتساق الفعل مع الفكر وتناغمه
.. وهى ابتعاد الانسان عن الخطيئة وخلوصه لله ..

يبيننا القرآن الكريم أن الله تعالى أوحى الى الحواريين أن يؤمنوا به
وبرسوله عيسى ..

نتوقف قليلا عند .. « وحي » الله تعالى للحواريين ..

نعلم أن الله تعالى يوحى الى البشر والمخلوقات ..

قال تعالى :

« (وأوحى ربك الى النحل) » [١] ..

وقال تعالى :

« (واوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه

في الميم) » [٢] ..

والمراد بالوحي هنا هو الهام هذه المخلوقات أن تتجه بفطرتها التي
فطرها الله عليها الى ما أراد الله لها :

الا تذكر اجابة موسى عن سؤال فرعون :

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟ » [٣] ..

« قال : ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى » [٤] ..

سورة طه .

ان المعنى واحد هنا وهناك .. وينطبق نفس المعنى على الحواريين
.. كان وحي الله لهم الهاما الهام اياه لخيرهم وسعادتهم .. ولا ينافى
هذا الوحي اختيارهم وارادتهم ولا يتعارض مع حريتهم .

لقد نظر الله فى قلوبهم فرآها على الخير .. رأهم ملح الارض حقا ..
فأوحى اليهم أن يؤمنوا به وبرسوله فآمنوا .. وشهدوا أنهم مسلمون ..

ويبدو أن الحواريين كتبوا ايمانهم حتى أحس عيسى الكفر من قومه
فنادى فيهم : من أنصارى الى الله ؟

قال تعالى :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى الى الله ؟ قال

الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد باننا مسلمون . ربنا

آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » [٥] ..

(١) من الآية ٦٨ سورة النحل مكية .

(٢) من الآية ٧ سورة القصص مكية .

(٣) من الآية ٤٩ سورة طه مكية .

(٤) الآية ٥٠ سورة طه مكية .

(٥) الآيتين ٥٢ ، ٥٣ سورة آل عمران مدنية .

يوحى النص القرآنى أن عيسى دعاهم الى الاسلام فأسلموا ..
ويؤكد النص القرآنى أن عيسى بشر برسول يأتى من بعده اسمه
أحمد .

يقول تعالى :

**« واذ قال عيسى بن مريم : يا بنى اسرائيل : انى رسول الله اليكم
مصدقا لما بين يدي من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى
اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ! » [٨] .**

لا نعرف على وجه التحديد متى بشر عيسى بهذا الرسول الذى سيأتى
من بعده [وهو أحمد صلى الله عليه وسلم] .. أكان تبشيره به فى بداية
بعثته الى الناس . أم كان تبشيره به فى ختام دعوته وقبل رفعه الى
السماء .

يوحى سياق النص القرآنى أن هذا التبشير كان فى بداية دعوته ..
لقوله تعالى :

« فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » [٢] ..

والضمير هنا يعود لعيسى عليه السلام . والآية اذن توحى أن عيسى
بشر بمحمد أو أحمد [عليه الصلاة والسلام] حين بعثه الله لقومه ثم
أجرى على يديه المعجزات الخارقة فى احياء الموتى والنفخ فى الطين ..
فلما جاءهم بهذه البينات اتهموه بالسحر .. ويدرك عيسى عليه السلام
أن التهمة وجهت لمعظم الأنبياء قبله ، يعرف انها ستوجه لآخر الأنبياء بعده ،
ولذلك يمضى النبى الكريم فى دعوته متجاوزا اتهام قومه له بالسحر ..
وتزداد حدة الصراع بينه وبين بنى اسرائيل . كانوا غلاظ القلوب قساة
تجهدوا على القشور وضاع منهم جوهر التوحيد .. هاهو ذا عيسى
يجيئهم بما يهدم كل أفكارهم وحياتهم ونظمهم .. ان دعوته الى الحق
والعدالة والسلام .. كانت تعنى فى نفس الوقت اعلان الحرب على الحياة
الظالمة القائمة التى تفتقر الى الحق والعدالة والسلام .

يقول انجيل متى على لسان عيسى : لا تظنوا انى جئت لأحمل سلاما
الى الأرض . ما جئت لأحمل سلاما . بل سيفا .

ان معنى الكلمات يكشف حقيقة هامة من حقائق دعوات الأنبياء .

انهم محاربون أساسا .

تختلف أسلحتهم التى يستخدمونها فى الحرب . ، لكنهم فى نهاية الامر
محاربون . يبدأون حروبهم بفكرة .

فكرة تشهد ان لا اله الا الله .

وتصطدم الفكرة بكل الآلهة البشرية والذهبية والحجرية .. وتقلق
الفكرة هدوء الطفافة والجبايرة وتهدد مصالحهم .. ويتحرك الملوك

(١) الآية ٦ سورة الصف مدنية .

(٢) من الآية ٦ سورة الصف مدنية .

والحكام والقادة عادة ضد النبي الا من هدى الله .. يقف الملائ من القوم ضد النبي . والملائ هم الرؤساء كما تبيننا فى قصة نوح ومن بعده .

ثم يستمر النبي فى حربه الفكرية .. لقد وضع أساس الحرب باعلان الوهية الله وحده . بعد هذا الأساس المكين . يرسى النبي أساس العدالة . ليس من حق احد أن يستذل أحدا أو يستعبده لأن العبودية لا تكون الا لله وحده . وفى عالم البشر ليس هناك آلهة .. البشر متساوون فيما بينهم .. واذن ليس من حق أحد أن يستغل طائفة الناس لبناء مجده الشخصي أو الاثراء على حسابهم أو هضم حقوقهم أو الاساءة اليهم بأى صورة من صور الاساءة .

وإذ تعنى الدعوة [دعوة أى نبي] فى عمقها البعيد .. تعنى الثورة على كل الانظمة الفاسدة التى يقيمها رؤساء القوم ..

هى دعوة حرب اذن . وعلى النبي أن يحمل السلاح ..

بعد ارساء الفكرة تبدأ الحرب ..

ويلجأ النبي للسيف . يلجأ للسلاح . ويختلف نوع السلاح من نبي لآخر ..

فى البداية .. لا يستخدم النبي فى معاركه غير سلاح الاقتناع الهادى والعقل .

وتستمر المعركة . ويجد النبي نفسه مضطرا لاستخدام السلاح ، يفرض عليه الأعداء موقفا يضطره لاستخدام السلاح . ويلجأ النبي للسلاح . وهنا يختلف نوع السلاح من نبي لآخر . قد يكون سلاح النبي معجزة تضع حدا لحياة أعدائه وتفنيمهم كالطوفان [نوح] . أو الريح [هود] . وقد يكون سلاح النبي معجزة تعينه على انتصاره على أعدائه بشكل حاسم كتسخير الجن والطيور له [سليمان] . وقد يكون سلاح النبي معجزة تنجيه من كيد أعدائه ، كتحويل النار إذا ألقى فيها الى برد وسلام [ابراهيم] . وقد يكون سلاح النبي معجزة خارقة تؤيده فى دعوته كاحياء الموتى [عيسى] . وقد يكون سلاح النبي سيفا يمسكه فى يده ويحارب به عن دعوته [محمد] .

تختلف أسلحة الأنبياء فى النوع .. والكيف . والكم . يعرف الله تعالى ظروفهم أفضل مما نعرف ، وهو الذى يختار نوع السلاح لأنبيائه . وليس هناك نبي تبع فى مكانه ولم يقاتل ولم يتحرك ولم يضطهد ولم يخرجهم قومه ولم يحتمل فى الله غاية العناء . وبقدر احتمال الأنبياء وقتالهم عن دعوة الله يستحقون مراكزهم عند الله .

ولقد أعلن عيسى بن مريم عليه السلام انه مقاتل جاء يحمل السلاح .. ان كلماته وحدها تعنى هدم المجتمع القائم من أساسه .

لقد كان المجتمع .. أيام عيسى .. يقوم على الشرك والخطيئة والكذب والنفاق والمادية والرياء والشكليات والظلم وانعدام الحرية .

وجاء عيسى فهدم بكلماته هذا كله ..

أفهم عيسى قومه أن دعوته الى الله ليست فى جوهرها دعوة سلام ،
انما هى دعوة الى الحرب . لا قيمة لشيء لا يدافع صاحبه عنه حتى آخر
قطرة من دمه . ان الأفكار والقيم والمبادئ لا تستمد قيمتها من مثاليتها
فحسب ، وانما تستمد قيمتها من الجهد الذى يبذله أصحابها الأوائل
دفاعا عنها ، وتستمد قيمتها من تحول الأفكار الى حياة نظيفة .

وبغير الحرب وحمل السلاح .. تبقى دعوات الأنبياء أفكارا مجردة
مثالية ، لا تحرك أحدا ولا تزعج أحدا ولا تثير أحدا للانقضاض عليها .

ولقد رأينا فى معظم قصص الأنبياء كيف وقفت أغلبية المجتمع ضد النبى
وحاربه . ابتداء من السخرية وانتهاء بمحاولات القتل أو القتل نفسه .

ومن المفهوم ضمنا أن الأنبياء يدافعون عن الحق الذى يحملونه ، ولقد
أحسنا فى قصص الأنبياء بهجوم المجتمعات والرؤساء على الأنبياء ، ولم
نحس — بنفس القوة — بهجوم الأنبياء فى الحرب . وتفسير ذلك يسير ..
فان الحرب التى يشنها الباطل على الأنبياء تصاحبها أجهزة دعابة قوية ،
وتصاحبها اتهامات وشتمات وضجيج ، أما الأنبياء فيصدرون عن منطبق الواثق
من الحق . وهو منطبق لا يلجأ الى السباب أو الاتهامات أو الضجيج ..
انما يستمر الأنبياء فى دعوتهم التى تقوم على استثارة العقل وابقاظ القلب
وتنقية الروح ، وهذا الاستمرار يمثل لأعداء النبى وأعداء الله مشكلة
حقيقية .

ان دعوة النبى تغوص فى أعماق الأسرة الواحدة .. يؤمن الاب ويكفر
الابن . أو يؤمن الابن ويكفر الاب . أو تؤمن الزوجة ويكفر الزوج . أو
يؤمن الزوج وتكفر الزوجة .

ويبدأ اختلاف الابن مع أبيه والزوجة مع زوجها .. تصل الخصومة الى
البيوت ذاتها .

بوقوع هذا الأمر يتحرك المجتمع ضد النبى أكثر وأكثر .. تزداد
حدة العداوة والكراهية والحرب ضد هذا الذى جاء يفرق الأب
عن ابنه بالحق ، أو جاء يفرق البنت عن أمها بالحق . ويضع النبى [أى
نبى] دستورا لمن يتبعه ..

والدستور هو القانون الأساسى الذى تبطل القوانين لو لم تكن توافقه ،
يتمثل هذا الدستور فى كلمة النبى .

[حب الله والنبى أولا ..] .

وبعد ذلك يأتى حب البشر ..

هذه المعانى تنعكس بوضوح كاف فى كلمات عيسى التى أوردنا انجيل
متى فى الفصل العاشر . قال السيد المسيح :

لا تظنوا انى جئت لأحمل سلاهما الى الأرض . ما جئت لأحمل سلاهما
بل سيفا . جئت لأجعل الابن يختلف مع أبيه . والابنة مع أمها .. وزوجة
الابن مع حماتها . فيكون خصوم المرء من أهل بيته .

من أحب أباه وأمه أكثر منى فلا يستحقنى ..

ومن أحب ابنه أو بنته أكثر منى فلا يستحقنى .
من ربخ حياته خسرها .. ومن خسر حياته من أجل ربحها .
يقول شراح الانجيل :

« كانت فكرة اليهود عن المسيح انه حين يأتى سيهب كل اتباعه ثروة ومجدا فى هذا العالم وينحهم الطمأنينة والسلام . فلما جاء المسيح افهم تلاميذه أن هذا لن يكون . لأنه اذا كان سيهب اتباعه سلاما مع الله ومع اخوتهم ومع ضائرتهم ، فانهم سيكونون معرضين للاضطهاد ولأن يموتوا بحد السيف . فليس لهم أن يتوقعوا سلاما . بل حربا . وليس لهم أن يتوقعوا وثاما . بل انقساما » .

وهكذا انقسم المجتمع اليهودى الى قسمين :
الفقراء والضعفاء وانقياء القلب مع عيسى .. والأغلبية الكافرة ضد عيسى .

ولقد آذته الأغلبية الكافرة كثيرا ..

يحكى انجيل متى عن آلام المسيح فى الفصل الحادى عشر ، فيتحدث عن استياء المسيح من لم ينتفعوا بخدمة يوحنا [يحيى عليه الصلاة والسلام] أو بخدمته هو شخصيا .

يقول انجيل متى على لسان عيسى :

بمن أشبهه هذا الجيل ، انه يشبه صببية جالسين فى الأسواق يصيحون بأصحابهم قائلين : زمرنا لكم فلم ترقصوا . نحنا لكم فلم تبكوا . فقد جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فقالوا : ان به شيطاننا . وجاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا : هو ذا رجل أكل وشرب خمر محب للعشارين والخطاة . ولكن الحكمة بأعمالها تتركى .

ثم بدأ يسوع يوبخ المدن التى جرت فيها أكثر معجزاته لأنها لم تتب ، قائلا : الويل لك ياكورازين . الويل لك يابيت صيدا ، لأنه لو جرت فى صور وصيدون المعجزات التى جرت فىكما لتابتا من قديم متشحتين بالمسوح والرماد . ولكنى أقول لكما أنه ستكون لصور وصيدون فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالا مما لكما . وأنت يا كفر ناحوم . أتحسبين أنك ترتفعين الى السماء . انك سيهبط بك الى الجحيم . لأنه لو جرت فى سدوم المعجزات التى جرت فىك لظلت قائمة الى اليوم . ولكنى أقول لك انه ستكون لأرض سدوم فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالا مما لك .

يكشف هذا النص عن آلام المسيح ومعاناته ، ويكشف الحرب التى تعرض لها ، والآلام التى انسكبت فى قلبه الطاهر من تصرفات الجيل الذى بعث فيه هاديا ومبشرا بملكوت السماء . انه يشبه جيل اليهود فى عصره بصبية يجلسون فى الأسواق ويصيحون بأصحابهم قائلين :

زمرنا لكم فلم ترقصوا . ونحنا لكم فلم تبكوا .. مشيرا بذلك الى ما يفعله الأطفال وهم يلعبون . اذ يقلدون الكبار فى أفرأحهم فيرقصون ،

وفى أحزانهم فيكون ، وهكذا يترددون سريعا بين الفرح والحزن . فى سطحية وتسرع . ودون وعى أو تعمق . كان هذا حال اليهود ازاء خدمة يحيى عليه الصلاة والسلام . ثم ازاء خدمة المسيح عليه الصلاة والسلام . فقد جاء اليهم يحيى نائحا باكيا لا يأكل ولا يشرب مما يأكلون ويشربون ولا يخالط الناس ، جاءهم نبيا ناسكا فرفضه الكثيرون قائلين ان به شيطانا . ثم جاء اليهم المسيح يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة فى الولايم والأعياد ، فرفضوه كذلك قائلين انه أكل وشرب خمر ، محب للعشارين والخطاة ، مع أنه كان المثل الأعلى فى نبذ الشهوات والعصمة الكاملة . ومن ثم كان ذلك الجيل عابثا عبث الأطفال ، لا يؤثر فيه شيء . ولا يغيره بالتوبة شيء . ومع ذلك فان ثمة قلة قليلة من الناس تتأثر وتتوب . لأن الحكمة بأعمالها تتزكى .

وبعد أن وبخ المسيح ذلك الجيل بصفة عامة ، لعدم إيمانه وتوبته ، بدأ يوبخ المدن التى جرت فيها أكثر معجزاته بصفة خاصة ، لأنها مع ذلك لم تؤمن ولم تتب . وقد خص بالذكر مدينتى [كورازين] و [بيت صيدا] قائلا انه لو جرت فى مدينتى [صور] و [صيدون] المعجزات التى جرت فيها لتابتا توبة عميقة وصادقة ومفعمة بالندم . على الرغم من أن اليهود كانوا يضربون بهما المثل فى الفساد والضلال . وقد أدى فسادهما وضلالهما من قبل الى خرابهما ، ولذلك فان [صور] و [صيدون] ستكون لهما فى يوم القيامة حالة أخف وطأة وأقل عذابا مما [لكورازين] و [بيت صيدا] . ثم وجه المسيح توبيخا عنيفا الى مدينة [كفر ناحوم] التى كان قد أقام فيها أكثر مما أقام فى أى مدينة أخرى من مدن اليهود . وما أكثر ما لقي فيها من تكذيب وعناء ، فقال لها : اتحسبين انك ترتفعين الى السماء ، انك سيهبط بك الى الجحيم . ويقارن عيسى عليه السلام بين المعجزات التى جرت فى مدينة [سدوم] اليهودية القديمة والمعجزات التى جرت فى مدينة كفر ناحوم المعاصرة له ، فيرى أن معجزاته تفوق ما حدث كثيرا . ورغم ذلك ، فسيكون جزاء سدوم يوم القيامة ، أخف من جزاء كفر ناحوم . . . وأشار عيسى الى هلاك سدوم ، وشهرتها بالاثام والخطايا ، وانتهت مقارنته الى أن كفر ناحوم المعاصرة أعظم آثاما من سدوم . .

ويبدو لنا من النص عناء عيسى ازاء الجيل المعاصر كله . . يكشف النص عذابه فى تبليغ دعوته ، وشقائه وسبب قوم لم ينجحوا بعد عن نفسية الأطفال العابثين . قوم لا تهزم الكلمات الطيبة ولا تهزم المعجزات الخارقة ، وان سألوا المزيد منها رغم ذلك .

وعاد الله عز وجل يؤيد عيسى بالمعجزات الباهرة .

والمعجزة هنا سلاح يعطيه الله تعالى لنبيه كى يصدقه ويؤيده ويزيد الذين آمنوا إيماناً ، ويزيد الذين كفروا كفراً اختيارياً حراً . . حتى يقع جزاء الله تعالى على الفريقين معا . ولقد كان من المعجزات التى أيد الله بها عيسى ابن مريم ، استجابته لطلب الحواريين فى أنزال مائدة من السماء . قال تعالى فى سورة المائدة :

« اذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم : هل يستطيع ربك أن ينزل

علينا مائدة من السماء؟ قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا : نريد ان ناكل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين . قال الله : انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين « [١] » .

.....

نتوقف بالدهشة عند قول الحواريين : يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك ؟

ان اول ما يتبادر الى الذهن من معانى الآية . هو شك الحواريين فى قدرة الله تعالى . فكيف يجوز منهم ذلك وهم تلاميذ عيسى الذين أسلموا لله ؟

يختلف موقف العلماء فى تفسير هذه الآية .

قال بعض العلماء بما يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى .

قالوا : ان سؤالهم هل يستطيع ربك ؟ يعنى . . هل يقدر ربك ؟

والتمسوا للحواريين عذراً بأن السؤال كان فى ابتداء امرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل . ولهذا قال عيسى فى اجابته عن سؤالهم اتقوا الله ان كنتم مؤمنين .

بمعنى لا تشكوا فى قدرة الله تعالى .

ويرد القرطبي هذا التفسير ويرفضه . فالحواريون هم انصار الله تعالى بنص القرآن ، ولا يجوز على انصار الله تعالى ان يجهلوا قدرته او يشكوا فيها .

ويقول بعض العلماء : ان هذه الكلمات كانت قول من كان مع الحواريين من بنى اسرائيل . ولم يكن الحواريون فيها الا ناقلى رسالة .

وقيل ان هذه الآيات لا تقرأ « هل يستطيع ربك » وانما تقرأ كما قرأتها عائشة وكما قرأها النبي « هل تستطيع ربك » . والمعنى هل تستطيع استدعاء طاعة ربك فيما تسأله . وقيل : انها تقرأ « هل يستطيع ربك » بمعنى هل تستطيع ان تدعو ربك او تسأله . ويرى بعض الصوفية ان الحواريين ما كانوا يجهلون قدرة الله تعالى . . وانما صدر سؤالهم من منبع الحب لله تعالى ، ومن رغبتهم فى شهود قدرته تعالى وهى تعمل . . ويشبه موقفهم هنا [مع قارق الدرجة] موقف ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :

« رب : ارنى كيف تحيى الموتى ، قال : اولم تؤمن؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى » [٢] . .

(١) الآيات من ١١٢ الى ١١٥ مدنية .
(٢) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة مدنية .

ولذلك قال الحواريون « **وتطمئن قلوبنا** » .. كما قال ابراهيم « **ليطمئن قلبى** » .

هذا التفسير الذى يطمئن له قلبنا .

ولقد أجابهم عيسى عن سؤالهم بقوله :

« **اتقوا الله أن كنتم مؤمنين** » [١] ..

بمعنى اتقوا كثرة السؤال واختبار الله تعالى .. فانكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات . وقوله : أن كنتم مؤمنين .. تنصرف الى ما جاء به من الآيات .. يقصد أن يقول : أن ما جئتمكم به من الآيات فيه الكفاية .

« **قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين** » [٢] ..

يبين الحواريون لعيسى سبب سؤالهم حين نهاهم عنه .

كان عيسى عليه الصلاة والسلام اذا خرج تبعه خمسة آلاف أو أكثر . بعضهم من الحواريين والباثون خليط من أتباعه وأعدائه . ويقال : أنهم صاموا ولم يكن معهم طعام ، فقال الأتباع للحواريين : اسألوا عيسى : هل يستطيع أن يدعو ربه فينزل علينا مائدة من السماء ؟ .

وذهب الحواريون برسالة القوم الى عيسى ، فلما دعاهم عيسى للاكتفاء بمعجزاته السابقة ، عادوا يقولون له مبررات الطلب .

« **قالوا نريد أن نأكل منها** » [٣] ..

كانوا جائعين وليس معهم طعام ..

« **وتطمئن قلوبنا** » [٤] ..

تطمئن قلوب الحواريين مثلما اطمأن قلب ابراهيم .

وتطمئن قلوب الأتباع الى أن عيسى نبي بعثه الله اليهم .

وتطمئن قلوب الأعداء الى أنهم على الباطل .. فيكون اختيارهم بعد ذلك متضمنا لمسئوليتهم .

« **ونعلم أن قد صدقتنا** » [٥] ..

.. بمعنى نعلم أنك رسول الله .

« **ونكون عليها من الشاهدين** » [٦] .

- (١) من الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية .
- (٢) الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
- (٣) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
- (٤) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
- (٥) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
- (٦) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .

الله بالوحدانية . ولك بالرسالة والنبوة . وللاخرين الذين لم يشهدوها .. فنحدثهم عنها ونحكي لهم اخبارها .

((قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا : أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ، وأرزقنا وأنت خير الرازقين)) [١] ..

« لما سأل الحواريون عيسى بن مريم — صلوات الله وسلامه عليه — المائدة قام فوضع ثياب الصوف ، ولبس ثياب المسوح ، ثم قام فالتزم القدم بالقدم ، والصق العقب بالعقب ، والابهام بالابهام ، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى ثم طأ رأسه ، خاشعاً لله ، ثم أرسل عينيه يبكي حتى جرى الدمع على لحيته ، وجعل يقطر على صدره .. ثم قال :

((اللهم ربنا : أنزل علينا مائدة من السماء)) [١] .

الى آخر الآيات .

((قال الله : انى منزلها عليكم)) [٢] .

نزلت مائدة عظيمة بين غماتين ، غمامة من فوقها ، وغمامة من تحتها ، والناس ينظرون اليها ، فقال عيسى : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة . فهبطت بين يدي عيسى عليه الصلاة والسلام وعليها منديل يغطيها . فخر عيسى ساجداً والحواريون معه . وهم يجدون لها رائحة طيبة لم يكونوا يجدون مثلها قبل ذلك .

قال عيسى : أيكم أعبد الله وأجرأ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه المائدة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها .

قال الحواريون : ياروح الله أنت أحق بذلك .

فقام عيسى عليه الصلاة والسلام فتوضأ وضوءاً حسناً ، وصلى صلاة جديدة ، ودعا دعاء كثيراً ، ثم جلس الى المائدة فكشف عنها ، فإذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك تسيل سيلان الدم .

سئل عيسى ياروح الله . أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة ؟

قال : ألم ينهكم الله عن هذه الأسئلة .. لقد نزلت من السماء وما عليها طعام من الدنيا ولا من طعام الجنة ولكن شيء ابتدعه الله بالقدره البالغة فقال لها كوني فكانت .

اختلف كثير من المفسرين حول نوع الطعام الذى نزل على المائدة ، هل هو السمك أو اللحم . هل هو الخبز أو الفاكهة . ونرى أن كل هذه الأبحاث لا معنى لها ..

أخطر شيء فى نظرنا كلمات عيسى التى يقول فيها « أنها شيء ابتدعه الله بالقدره البالغة ، قال لها كوني فكانت » .

(١) الآية ١١٤ سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ١١٥ سورة المائدة مدنية .

هذا هو جوهر المائدة .

انها آية من الله .. آية توعد الله من يكفر بها أن يعذبه عذابا لا يعذبه
أحدا من العالمين .

اختلف العلماء هل نزلت المائدة أم لا .

والذى عليه الجمهور — وهو الحق — نزولها ، لقوله تعالى

« انى منزلها عليكم » [١]

ويقال أن الآلاف أكلوا منها وهى لا تنفذ .. فشفى كل أعمى من عماه
وشفى كل أبرص من برصه ، وشفى كل كسيح من كساحه ، وشفى
كل مريض من مرضه ..

وصار يوم نزول المائدة عيدا من اعياد الحواريين وأتباع عيسى لفترة
من الزمن .. ثم ضاع خبرها وأسدت عليه ستائر النسيان ، فلا نجد
خبرها اليوم فى أنجيلهم التى يعترفون بها .

بعد خبر المائدة فى سورة المائدة .. يورد الله تبارك وتعالى موقفا
آخر لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ..

قال تعالى بعد أن قص علينا ما كان من أمر آية المائدة .

« واذا قال الله : يا عيسى بن مريم : أنت قلت للناس اتخذونى وأمى
الهي من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس
لى بحق ، أن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى
نفسك ، أنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتنى به :
أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما
توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . ان
تعذبهم فأنهم عبادك ، وان تغفر لهم فأنك أنت العزيز الحكيم .
قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها
الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز
العظيم . لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء
قدير » [٢] ..

بهذه الآيات يختم السياق القرآنى سورة المائدة .

وهكذا ينقلنا السياق القرآنى نقلة تبدو مفاجئة من خبر نزول المائدة
الى موقف الحوار بين الله تعالى وعيسى بن مريم يوم القيامة .

ورغم المفاجأة البادية فإن السياق المعنوى متصل أشد الاتصال .

ان عظمة الآيات التى أيد الله بها عيسى كانت فتنة لقومه من بعده ..
فاعتبروه لها . أغفلوا حقيقة معجزاته وافتتنوا به .

يسأل الله تعالى يوم القيامة هذا السؤال :

(١) من الآية ١١٥ سورة المائدة مدنية .

(٢) الآيات ١١٦ الى ١٢٠ سورة المائدة مدنية .

★ ((يا عيسى بن مريم : أنت قلت للناس اتخذوني وأمى الهين
من دون الله؟)) [١] ..

اتفق أهل العلم على أن السؤال ليس سؤال استفهام وان خرج مخرج
الاستفهام . لأن الله تعالى يعرف ماذا قال عيسى .. المقصود من السؤال
أذن شيء آخر .

هناك من يقول ان الله تعالى يقصد تعريف عيسى أن قومه قد غيروا
تعاليمه من بعده وافتتنوا به .

وهناك من يقول ان الله يقصد من السؤال توبيخ من غيروا عقيدته بعده
ويعتقد أن السؤال يستوعب المعنيين ، ويستوعب معنى آخر .. يريد
الله تبارك وتعالى أن يكشف للعالمين في كتابه الأخير براءة عيسى مما
أحدث قومه من بعده .

يكشف السياق القرآني عن غيب لم يقع بعد وان كان سيقع يوم القيامة
ولهذا يعرضه بأسلوب الفعل الماضي ، ويعرض هذا الغيب على أهل
الدنيا ليعرفوا منه حقيقة عيسى بن مريم .

ان الله تعالى يسأله ..

وعيسى بن مريم يجيب ..

لا يجيب نبي عظيم كعيسى الا بعد أن يقول سبحانه .

يبدأ بالتسبيح والتنزيه قبل الجواب تنزيها لله وخضوعا لعزته وخوفا
من سلطوته .

أورد القرطبي في تفسيره : أن الله تعالى حين قال لعيسى : أنت قلت
للناس اتخذوني وأمى الهين من دون الله .. أخذت الرعدة عيسى من ذلك
القول حتى سمع صوت عظامه تئن داخل جسده .. فقال :

« سبحانه .. ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » [٢] .

ليس لي أن ادعى لنفسى ما ليس من حقها . وليس لنفسى أكثر من حق
العبد لا المعبود .

« ان كنت قلته فقد علمته » [٣] .

ها هو ذا عيسى يرد العلم الى الله . وكان الله عالما انه لم يقله .

« تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » [٤] .

أى تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه . تعلم سرى وما انطوى عليه ضميرى
الذى خلقتة ، ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك .

-
- (١) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
 - (٢) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
 - (٣) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
 - (٤) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .

« انك أنت علام الفيوب » [١] .

انت وحدك العليم بالفيب . انت وحدك العليم بما سيكون منهم بعد
رفعى من الارض .

« ما قلت لهم الا ما امرتنى به : ان اعبدوا الله ربي وربكم ! » [٢] .
هذه هى الكلمات التى قالها عيسى بن مريم . . دعا الى عبادة الله وحده
لا شريك له .

« وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم » [٣] .

كنت عليهم حفيظا بما امرتهم طوال الوقت الذى مكثته بينهم .

« فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » [٤] .

والوفاة فى كتاب الله عز وجل على ثلاثة اوجه .

[١] وفاة الموت لقوله تعالى :

« الله يتوفى الأنفس حين موتها » [٥] .

يعنى حين انتضاء أجلها .

[٢] وفاة النوم لقوله تعالى :

« وهو الذى يتوفاكم بالليل » [٦] .

يعنى الذى ينيكم .

[٣] وفاة الرفع لقوله تعالى :

« يا عيسى : انى متوفيك ورافعك الى » [٧] .

وهكذا يتبرا عيسى من كل ما قالوه عنه او نسبوه اليه ، ويعلن ان دعوته
لم تزد عن التوحيد ولم تخرج على الاسلام الذى اعترف به أتباعه .
ويعاود عيسى حديثه واستعطافه لله عز وجل :

« ان تعذبهم فانهم عبادك » [٨] .

ليس لاحد من الخلق سلطان عليهم ، وليس هناك خالق غيرك
سبحانك ، ولا شريك لك فى الملك والحكم ، وهم فى نهاية الأمر عبيدك ،
ولا يملك العبد أمام سيده الا الخضوع . .

« وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ! » [٩] .

(١) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

(٤) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

(٥) من الآية ٤٢ سورة الزمر مكية .

(٦) من الآية ٦٠ سورة الانعام مكية .

(٧) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

(٨) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .

(٩) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .

لم يقل عيسى وان تغفر لهم فانك انت الغفور الرحيم .. لم يزل روح الاجابة هو التسليم والخضوع والتفويض لعزة الله وجلاله وحكمه .

ان اتباع عيسى هم فى نهاية الامر عباد الله الخاضعون ، ان شاء عذبهم بما يستحقون من عذاب ، وان شاء غفر لهم بما يعلم من استحقاقهم للمغفرة .. بهذا التسليم المطلق اجاب عيسى عن سؤال الحق عز وجل وتبرا مما قاله القوم من بعده . و أعلن عبوديته لله فى بداية حديثه ، و أعلن تسليمه لله فى نهاية حديثه .

« قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » [١] ..

ان الله عز وجل يثنى على صدق عيسى .. ولأن الحوار يجرى يوم القيامة ، يقول الله .. [هذا يوم] القيامة الذى [ينفع الصادقين صدقهم] فى الدنيا .. ان صدقهم هناك سيجد ترجمته من الرحمة هنا .

« لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه » [٢] ..

هذا هو جزاء الصادقين .. الجنة وما هو أفضل من الجنة .. رضاء العبد عن الله تعالى ، ورضاء الله تعالى عن العبد .. ومعنى رضاء العبد فرحة بعبوديته لله تعالى ، ومعنى رضاء الله رحمته لعبده ..

« ذلك الفوز العظيم » [٣] ..

بعدها يعلن الله حقيقة عيسى وكل أنبيائه .

« لله ملك السماوات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير » [٤] ..

هو الملك وحده . وهو الخالق وحده . وهو القدير وحده . وماسواه عبيد .

.....
.....

مضى عيسى فى دعوته حتى أدرك الشر أن عرشه مهدد بالزوال . وتحركت جيوش الخطيئة نحوه ، ناواه اليهود وآذوه ، وكانوا يتهمونه بالسحر وخرق الشريعة وينسبون قواه الخارقة لاتصاله بالشياطين . فلما أعينهم الحيلة ، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجتمعون حول كلماته ، أخذوا يكيدون له ، ويدسون عند الرومان بشائنه . فى البداية لم تتدخل سلطات روما على أساس أن هذه العلاقات بين اليهود من مصلحتهم . وعاد مجلس السنهدريم [وهو المجلس التشريعى الأعلى لليهود] يجتمع للتآمر على عيسى .. وعاد التآمر يأخذ شكلا جديدا .

حين عجز اليهود عن حرب عيسى .. بدأ التفكير فى قتله .. وراح

(١) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .

(٤) الآية ١٢٠ سورة المائدة مدنية .

رؤساء الكهنة يتشاورون سرا فى الطريقة التى يقبضون بها على عيسى بغير اثاره للشغب .

وبينما رؤساء الكهنة يتشاورون ذهب اليهم واحد من تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، وهو يهوذا الاسخريوطى ، وقال لهم : ماذا تعطوننى وأنا أسلمه اليكم .

وجلست الخيانة على مائدة الكفر وبدأت المساومات .

ساوم يهوذا رؤساء الكهنة فاتفقوا على أن يعطوه ثلاثين قطعة من الفضة وهى التى كانوا يسمونها بالشاقل [وتساوى نحو عشرين قرشا] أى أن المبلغ كله لا تتعدى قيمته ستة جنيهات ، وكانت هذه هى قيمة شراء عبد حسب الشريعة اليهودية . . [شرح انجيل متى] . انتهت المؤامرة وتقرر القبض على عيسى وقتله . .

ويقال ان رئيس كهنة اليهود مزق ثيابه بعد ذلك بطريقة مسرحية فى اجتماع دينى وهو يصرخ : أن عيسى قد جدد [كفر] . وكان تمزيق الثياب عند اليهود عادة مرعية اذا سمعوا أو رأوا شيئا يتضمن اهانة لله . وهكذا تظاهر رئيس الكهنة بالغيرة الشديدة على مجد الله والغضب الشديد على مازعم من اهانة لحقته بكلمات عيسى وتصرفاته .

لم يكن للكهنة اليهود سلطة اصدار حكم بالاعدام فى ذلك الحين . كان ذلك من سلطة الوالى الرومانى ، غير انهم يبدو اتقنوا الوالى الرومانى أن عيسى يدبر مؤامرة لأمن الدولة الرومانية ، أو لعلهم اتقنوا الوالى بأن الأمر خاص بتقاليدهم وديانتهم فأثر عدم التدخل فيما اعتزموه .

وهكذا تم احكام المؤامرة . . وتقرر القبض على عيسى وصلبه .

تحدثنا الاناجيل الأربعة المعترف بها من المسيحيين اليوم أن عيسى قتل مصلوبا ثم قام من الموت وصعد الى السماء . تتفق هذه الاناجيل جميعا على صلب عيسى وموته وقيامته من الموت . كما تتفق على طبيعة عيسى الالهية التى امتزج بطبيعته البشرية .

وسوف نورد عقيدة المسيحيين فى عيسى كما يعتقدونها معظم النصارى اليوم .

ثم نورد عقيدة الاسلام فى عيسى كما أنبأ بها القرآن الكريم وحدث عنها علماء الشريعة والسنة ، وبعد ذلك نتحدث عما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فى علاقاتهم بالمسيحيين وعقائدهم .

يقول انجيل متى : ان عيسى الذى القبض عليه ، واصدر مجلس السنهدريم حكمه عليه بالموت . وبدأ أعضاء ذلك المجلس من رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة يهينونه ويعتدون عليه ويهزأون به ، راحوا يبصقون فى وجهه ويلكمونه كما راحوا يلطمونه وهم يقولون ساخرين : تنبأ لنا أيها المسيح من الذى ضربك . وهكذا تحققت نبوءة أشعيا النبى القائل : وجهى لم أستر عن العار والبصق . والقائل : بذلت خدى للناثين [الفصل السادس والعشرون] .

وبعد ذلك القى القبض على عيسى وتقرر اعدامه .. ولما كان من عادة الرومان أن يجلدوا المحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم عليه . لذلك أمر بيلاطس بجلد المسيح . وكانت الشريعة الموسوية تقضى بالألا يزيد عدد الجلادات على أربعين جلدة . أما الرومان فكانوا لا يقفون عند هذا الحد وإنما كانوا يستمرون فى جلد المحكوم عليه جلدا وحشيا متواصلا حتى يتهرأ ظهره ويكاد يلفظ أنفاسه فلا يقفون منه الا الرمق ليتمكنوا من تنفيذ حكم الموت عليه . وهذا ما فعله الجنود بمخلصنا [انجيل متى ٢٦] . انتهت عملية الجلد فأسلم الوالى الروماني عيسى للجنود كى يصلبوه . واتخذ الجنود مادة للتسلية والترفيه ، وأشركوا معهم جنود الكتيبة الرومانية ، ونزعوا عن عيسى ثيابه الملطخة بدماء جروحه بعد عملية الجلد ، والبسوه رداء قمرزيا ليسخروا منه ، فقد كان الملوك يلبسون الأردية القرمزية ، ومضوا فى استخفافهم به وسخريتهم منه ، ضفروا له تاجا من الشوك ووضعوه على رأسه ، ووضعوا قصبة فى يمينه ، كأنها الصولجان ، ثم راحوا ييصقون فى وجهه وأخذوا منه القصبه التى وضعوها فى يده وراحوا يضربونه بها على رأسه من فوق تاج الشوك ، فانغرس الشوك فى جبينه وأسأل الدم على وجهه ..

ثم مضوا به ليصلبوه . وكانت العادة قد جرت على تكليف المحكوم عليه أن يحمل صليبه الى موضع الصلب أمعانا فى التعذيب والتشهير . [متى ٢٦] .

أخيرا بلغوا موضعا يسمى « الجلجة » أى موضع الجمجمة ، وهو مكان خارج أسوار أورشليم .. وكانت تقاليد اليهود تقضى باعطاء كأس من الخمر المزوج بالطيب للمحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم ، كمخدر لتخفيف آلامه . ولكن الجنود خالفوا هذه التقاليد وأعطوا المسيح كأسا من الخل المزوج بالمرارة ليشرب . وبذلك تحققت النبوءة القائلة عنه ويجعلون فى طعامى علقما ، وفى عطشى يسقوننى خلا . ثم سهروا يديه وقدميه على الصليب ورفعوه وهو معلق عليه بعد أن نزعوا ثيابه واقتسموها بينهم . وأمعانا فى السخرية به صلبوا معه لصين ، ثم وضعوا لافتة على رأسه قالوا فيها : « هذا هو يسوع ملك اليهود » أمعانا فى تعذيبه . [متى ٢٦] .

ويقول نص انجيل متى — [طبعة ١٩٧٢] فى الفصل السابع والعشرين :

[حتى اذا بلغوا موضعا يسمى الجلجة ، أى موضع الجمجمة ، أعطوه خمرًا ممزوجة بمرارة ليشرب ، فلما ذاقها أبى أن يشربها . ثم صلبوه واقتسموا ثيابه بينهم مقترعين عليها ، ليتم ما قيل بضم النبى القائل : « اقتسموا ثيابى بينهم وعلى ردائى ألقوا قرعة » ثم جلسوا هناك يحرسونه ، ووضعوا فوق رأسه تهمة مكتوبة : « هذا هو يسوع ملك اليهود » . وقد صلبوا معه لصين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وكان المارة يسبونه وهم يهزون رؤوسهم قائلين : « ياهادم الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام خلص نفسك . ان كنت أنت ابن الله فانزل عن الصليب » . وكذلك رؤساء الكهنة كانوا يهزأون به مع الكتبة والتسيوخ قائلين : « خلص آخرين ولا يستطيع أن يخلص نفسه ، ان كان هو ملك

اسرائيل فليزل الآن عن الصليب فنؤمن به . لقد اتكل على الله فلينفذه الآن
ان كان راضيا عنه ، لأنه قال أنا ابن الله » . وبذلك أيضا كان يعيره اللسان
اللذان صلبا معه] .

[ومنذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الأرض كلها الى
الساعة التاسعة . وفي نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت
عظيم قائلا : « ايلي ايلي لم شبقنتي » أي « الهى الهى لماذا تخليت عنى ؟ »
فلما سمع ذلك بعض الواقفين هناك قالوا : « انه ينادى ايليا » . وعلى
الفور جرى واحد منهم وأخذ اسفنجة وملاها خلا ووضعها على قصبه
وسقاه . فقال الباقيون : « دعه ولننظر هل يأتى ايليا ليخلصه ؟ » . ثم صرخ
يسوع مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح] .

[وإذا حجاب الهيكل قد انشق نصفين من أعلاه الى أسفله ، والأرض
تزلزلت والصخور تتسقت ، والقبور تفتحت . وقد قام كثير من أجساد
القديسين الراقدين . وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة
المقدسة وظهروا لكثيرين] .

ويقول التفسير الملحق بهذا النص :

« ومنذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الأرض كلها الى الساعة
التاسعة . وكانت الساعة السادسة عند اليهود توازى الثانية عشرة ظهرا
حسب التوقيت الحديث ، كما كانت الساعة التاسعة توازى الساعة
الثالثة بعد الظهر . أما تلك الظلمة التى صارت على الأرض كلها فهى
مظهر لمشاركة الطبيعة لربها فى آلامه ، وغضبها على الذين أسلموه
للموت غدرا وظلما . وفى نحو الساعة التاسعة ، أى الثالثة بعد الظهر ،
صرخ فادينا بصوت عظيم قائلا باللغة الآرامية « ايلي ايلي . لم شبقنتى » ؟ ،
أى « الهى الهى لماذا تخليت عنى » ، وهذه هى العبارة الأولى من
المزمور الثانى والعشرين . وهو لا يعنى بهذه العبارة أن الله قد تخلى عنه ،
لأنه هو والله الآب واحد ، وإنما يعنى أن المزمور الذى وردت فى بدايته
هذه العبارة ينطبق عليه فى ساعة آلامه هذه . وقد كان هذا
المزمور نبوءة مفصلة دقيقة عما يحدث له الآن ، ومما جاء به « كل الذين
يرونى يستهزئوا بى ، ينفرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين : اتكل
على الرب فلينجح ، لينقذه لأنه سر به . . أحاطت بى ثيران كثيرة .
أقوياء باشان اكتنفتنى . فغروا على أفواههم كأسد مفترس مزمجز .
كالماء انسكبت . انفصلت عظامى . صارت قلبى كالشمع ، قد ذاب وسط
أمعائى . . ولصق لسانى بحنكى ، والى تراب الموت تضسنى . لأنه
قد أحاطت بى كلاب . جماعة من الأشرار اكتنفتنى . ثقبوا يدي ورجلي .
أحصى كل عظامى ، وهم ينظرون ويتفرون فى . يتسمون ثيابى بينهم
وعلى لباسى يفترون » . وكان فادينا حين صرخ بهذه العبارة فى قمة
ألمه وضراوته بصفته الإله المستانس الذى يتمم عمل الفداء ، فقد كان فى
هذه اللحظة انسانا بالحقيقة ، كما كان فى الوقت نفسه الهيا بالحقيقة ،
وهو كإنسان قد توجع من ألمه وتضرع الى الهه لكى لا يتخلى عنه ، بل
أن يعينه على احتمال ألمه . على أن هذا التخلي ليس معناه مفارقة
اللاهوت للناسوت ، وإنما معناه أنه تركه للألم ، فلم يتدخل اللاهوت

ليخفف من آلام الناسوت حتى يحتمل المسيح فى جسده الآلام كاملة .
 أما الواقفون هناك فقد هزأوا من ضراعتة هذه ، واذ سمعوه يقول :
 « ايليا ايليا » أى « الهى الهى » ، أخطأوا فهم قوله ، وقالوا انه ينسأدى
 ايليا النبى ، أو لعلمهم افتعلوا هذا الخطأ افتعالا ليمعنوا فى الاساءة
 اليه والتشهير به ، لأن استنجاهه بايليا معناه انه ليس هو المسيح ، اذ
 أن المعروف لدى اليهود أن ايليا ينبغى أن يأتى قبل المسيح . وقد تظاهر أحد
 الواقفين بالاشفاق عليه بعد أن سمع صرخته فجرى على الفور وأخذ
 اسفنجة وملاها خلا ووضعها على قصبة وسقاه ، وهكذا كانت حتى أداة
 الاشفاق التى قدموها اليه أداة اهانة وقسوة وتعذيب . وأما الباقيون
 فقالوا : « دعه . ولننظر هل يأتى ايليا فيخلصه ؟ » أى اتركه ولا تقدم له
 أى نجده ، ما دام يستنجد بايليا ، فقد كانوا يريدونه أن يتعذب الى أقصى
 حد ، وكانوا مطمئنين الى أن أحدا لن يأتى لانقاذه .

وبعد ذلك مباشرة ، أى فى التاسعة ، وهى الثالثة بعد الظهر .
 صرخ فادينا مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح ، وقد دلت هذه الصرخة
 قبل لحظة الموت مباشرة على أن حياة فادينا كانت سليمة فيه بعد كل الآلام
 التى تكبدها ، وان روحه لم تغتصب اغتصابا كما يحدث لسائر البشر عند
 الموت ، وإنما قد سلنها بهحض اختياره وأرادته لأبيه السماوى ، ذبيحة
 عن خطايا البشر ، فهو الكاهن الذى قدم الذبيحة ، وهو الذبيحة عينها .
 واذ أسلم الروح أثبت انه مات فعلا بالجسد ، لأن قصاص الخطيئة
 هو الموت ، وبغير الموت لا تكون مغفرة ، فقد تعهد كما تنبأ اشعيا النبى
 بأن يجعل نفسه ذبيحة اثم . وهذا هو التمهيد الذى وفاه عندما أسلم
 الروح طوعا واختيارا . وفى ذات لحظة موت المسيح وقعت أمور خارقة
 للطبيعة لتدل على أن الذى مات لم يكن مجرد انسان ، وإنما كان هو
 الله ذاته بمعنى يفوق ادراك البشر .

١ — فقد انشق حجاب الهيكل نصفين من أعلاه الى أسفله . وكان
 هذا الحجاب هو الذى يفصل بين القدس وقدس الأقداس . وقد انشق
 فى نفس اللحظة التى انفصلت فيها روح المسيح عن جسده رمزا الى أن
 الهيكل كان بمثابة جسد المسيح . فلما تصدع الجسد الحقيقى تصدع
 كذلك الجسد الرمزى . وكان هذا الحجاب يستر قدس الأقداس الذى
 هو مقر الأسرار الالهية عن عامة الناس ، فلما انشق أصبحت هذه
 الأسرار بفضل فداء السيد المسيح مكشوفة للجميع . فلم يعد ثمة حجاب
 بين الله والناس .

٢ — والأرض تزلزلت والصخور تشقق كمظهر من مظاهر حزن
 الطبيعة ولوعتها على موت الهها . واحتجاجها على الأشرار الذين سقوه
 كأس الموت ظلما وهو برىء .

[الى آخر التفسير] .

هذه هى رواية المسيحيين فى الصلب وتفسيرهم له . نقلناها دون
 تصرف من أحدث طبعة لانجيل متى ، وهى طبعة أشرف على صياغتها
 مجموعة من علمائهم ورجال الدين المسيحي . . لتجىء أيسر فى الفهم
 وأبسط . فكان منها ما عرضناه عليك فى هذه الصفحات . . .

أما جوهر عقيدتهم ولها الذى لا اختلاف فيه .. وأصل الدستور الذى
أعلنه المجمع النيقاوى ، فقد سجله كتاب [سوسنة سليمان] .

جاء فى كتاب سوسنة سليمان ، لنوفل بن نعمة الله بن جرجس
النصرانى : « أن عقيدة النصرانى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ،
وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى ، هى الايمان بالله واحد
آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ،
ويرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من
نور الله ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ،
الذى به كان كل شيء والذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل
من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس ،
وصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتآلم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم
الثالث على ما فى الكتب ، وصعد الى السماء وجلس على يمين الرب ،
وسياتى بمجد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء للملكه ، والايمان
بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب ، الذى هو مع الابن يسجد له .

.....
.....

جاءت عقيدة الاسلام برواية تختلف عن رواية الأناجيل الحالية .
سواء فيما يتعلق بنهاية عيسى أو طبيعته التى كانت مثار اختلاف
بعد رفعه .

حدث القرآن الكريم أن الله تعالى لم يسمح لبنى اسرائيل بقتل
عيسى أو صلبه .

وانما نجاه الله من كفرهم ورفعهم اليه ، فما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم .

قال تعالى فى سورة النساء :

« وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه
وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ،
ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا . بل رفعه
الله اليه » [١] .

.....
.....

وقال تعالى فى سورة آل عمران :

« اذ قال الله : يا عيسى : انى متوفيك ورافعك الى ، ومطهرتك من
الذين كفروا » [٢] .

(١) الآية ١٥٧ وجزء من آية ١٥٨ سورة النساء مدنية .
(٢) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

يتفق علماء المسلمين على ذلك ، ويختلفون فى منهج التدليل على ما بأيديهم من الحق .
هناك من يؤمن بنص الآيات ولا يبحث لها عن تأييد فى أى كتاب غير القرآن .

ولكل منهج من المنهجين ما يؤيده ..

يستند أصحاب المنهج الأول الى نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن النظر فى أوراق اليهود والنصارى . أن للقوم دينهم ولنا ديننا . والله يحكم بيننا يوم القيامة فيما اختلفنا فيه .

ويستند أصحاب المنهج الثانى الى أن نهى النبى عليه الصلاة والسلام كان فى أول العهد بالاسلام ، وكان المسلمون على قرب عهد بالجاهلية ، فأمروا حرصا على عقيدتهم الا يشغلوا أذهانهم بغير كتابهم . ولكن العلم والنظرة العلمية يفرضان على العالم أن ينقب فى الأسفار القديمة والكتب عن الحق ، فاذا وجده موافقا لما لديه من الحق .. استراح قلبه وازدادت طمأنينته ..

.....
.....

لا نجد عند أصحاب المنهج الأول الذى يكتفى بالقرآن تفصيلات دقيقة لمحاولات القبض على عيسى ورفعته الى السماء لقد شبه لهم .. كيف شبه لهم ..لقى الله شبهه على غيره . أما عيسى فرفع الى السماء .
هكذا لا يزيدون .

أما أصحاب المنهج الثانى فيقدمون قصة متكاملة لما وقع .. يقولون أن الله لقى شبهه عيسى على يهوذا ، ويهوذا هذا هو يهوذا الاسخريوطى الذى تقول الأناجيل عنه انه هو الذى باعه لأعدائه وأرشدهم عنه ودلهم عليه .. وقد كان أحد تلاميذه المختارين فى زعمهم . ولقد وافق هذا انجيل برنابا موافقة تامة . جاء فيه :

ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جمع غفير ، فلذلك انسحب الى البيت خائفا . وكان الأحد عشر نياما .

فلما رأى الله الخطر على عبده امر جبريل وميخائيل ورفائيل [اسرافيل] وادريل [عزرائيل] سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم ، فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب . فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله الى الأبد .

ودخل يهوذا بمنف الى الغرفة التى اصعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياما ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب . اذ تغير يهوذا فى النطق وفى الوجه . فصار شبيها بيسوع حتى اننا اعتقدنا انه يسوع ، أما هو فبعد أن ايقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا . وأجبنا أنت يا سيدى معلما . انسبتنا الآن .

هذه هى القصة التى أوردها انجيل برنابا ..

وترن كلمة انجيل برنابا فى السمع رنينا غريبا . . نحن نعرف أن الأنجيل التي تعترف بها الكنيسة اربعة . **انجيل متى وانجيل مرقس وانجيل لوقا وانجيل يوحنا** . وتشتمل هذه الأنجيل على العقيدة المسيحية كما يؤمن بها المسيحيون اليوم . فمن أين جاء هذا الانجيل الذى يتفق فى جوهره مع عقيدة الاسلام ؟

يقول الاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة فى كتابه **((محاضرات فى النصرانية))** ان التاريخ يروى لنا انه كانت فى العصور الغابرة انجيل اخرى ، تأخذ بها فرق قديمة ، وتروج عندها ، ولا تعتقد كل فرقة الا فى انجيلها . وأجمع مؤرخو المسيحية على كثرة الأنجيل كثرة عظيمة ، ثم أرادت الكنيسة فى أوائل القرن الثالث أو أواخر القرن الثانى الميلادى . أن تحافظ على الأنجيل الصادقة فى اعتقادها . فاخترت الأنجيل الأربعة من الأنجيل الرائجة ابان ذلك . فصارت هذه الأنجيل هى المعتبرة عندهم دون سواها . غير أن هناك انجيلا جديدا كشف عنه البحث العلمى ، وقد حمل من الأمارات ما يدل على انه يمتد بنشأته الى أبعد أعماق التاريخ المسيحى . وهو يشبه الأنجيل الثامنة فى انه يحكى قصة المسيح من ولادته الى اتهامه ، ويحكى محاوراته ومناقشاته وخطبه ، ولكن الكنيسة لم تعترف به ، وأنكرته ، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا ، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية . وقد اتجهوا اليه بالبحث والعناية والاهتمام ، ولم يمنعهم من ذلك انكار الكنيسة له . وذلك الانجيل هو انجيل برنابا . ومن الحق علينا أن ندرسه . ونعرف رأى المسيحيين فيه ، وما يؤدى اليه النظر العلمى من غير افتيات عليهم ولا تهجم ، ومن غير أن نفحم أنفسنا فيما ليس لنا من املاء عقيدة على القوم فى دينهم .

ويقول كتاب محاضرات فى النصرانية : [ان برنابا . تسديس من قديسى المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم ، وركن من الأركان التى قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى ، وقد وجد انجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اخصصهم المسيح بالزلفى اليه ، والتقرب منه ، وملازمته فى سرائه وضرائه ، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الانجيل لا تعده من هؤلاء الحواريين ، وان كانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح ، ومهما يكن من شىء فى هذا الأمر ، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم ، فان برنابا حجة عند المسيحيين ، وهو من المهيمين فى اعتقادهم فان صحت نسبة هذا الانجيل اليه كان ما يشمله حجة عليهم ، يدعوهم الى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم ، ويؤخذ بما هو أقرب الى التصور والتصديق ، وأصح سنداً ، وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً ، فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت فى العصر الحديث .

واتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الانجيل ، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية ، عثر عليها كريمير أحد مستشارى ملك بروسيا ، وذلك فى سنة ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ الى البلاط الملكى بفينا . وكانت تلك النسخة هى الأصل لكل نسخ هذا الانجيل فى اللغات التى ترجم اليها ، ولكن فى أوائل القرن الثامن عشر ، أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية وجدت نسخة أسبانية

ترجمها المستشرق سايل الى اللغة الانجليزية ، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها الا شذرات اشار اليها الدكتور هوايت في احدى الخطب ، وقد قيل ان الذى ترجم النسخة الاسبانية الى تلك اللغة مسلم نقلها من الايطالية الى الاسبانية ، ولقد رجح المحققون ان النسخة الايطالية هي الاصل للنسخة الاسبانية ، وذلك انها قدمت بمقدمة تذكر ان الذى كشف النقاب عن النسخة الايطالية التى كانت اصلا للنسخة الاسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها ، فيقول : [انه عثر على رسائل لاريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول ، ويسند تنديده الى انجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع الى البحث عن انجيل برنابا ، وقد وصل الى مبتغاه لما صار احد المقربين الى البابا سكتس الخامس ، فانه عثر على ذلك الانجيل فى مكتبة هذا البابا ، وطالعه ، فاعتنق الاسلام .] ويظهر ان تلك النسخة هي نفس النسخة التى عثر عليها سنة ١٧٠٩ ، ويقول فى ذلك الدكتور سعادة مترجم انجيل برنابا الى العربية : « واذا تحريت التاريخ وجدت ان زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر ، وقد علمت مما مر بك بيانه ان نوع الورق الذى سطر فيه انما هو ورق ايطالى يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التى فيه ، والتي يمكن اتخاذها دليلا صادقا على تاريخ النسخة الايطالية ، والتاريخ الذى يحدسه العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن ان تكون النسخة الايطالية هي عينها التى اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على ما مرت الاشارة اليه» .

اقدم نسخة معروفة اذن هي النسخة الايطالية التى عثر عليها فى فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد الى منتصف القرن الخامس عشر او اول القرن السادس عشر ، وقد وجدت فى جو مسيحي خالص ، فلا مظنة لان تكون مدخولة عليهم ، فأول من عثر عليها فى خزائنة كتبه رئيس دينى خطير ، وكاشفها راهب ، ولما تداولتها الايدى انتقلت الى مستشار مسيحي من مستشارى ملك بروسيا ، ثم آلت الى البلاط الملكى بفيينا . فلا مظنة لان تكون مدخولة عليهم ، وهى منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواه ، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود انجيل له امرا معروفا بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول انه اطلع على رسالة لاريانوس يستنكر فيها ما كتب بولس مستشهدا على استنكاره بانجيل برنابا .

ويذكر التاريخ ان هناك اناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة — كما اشرنا من قبل — ويقول الدكتور سعادة : يذكر التاريخ امرا أصدره البابا جلاسيوس الاول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى انجيل برنابا ، ويذهب بعض العلماء المدققين الى ان أمر البابا جلاسيوس المئوه عنه انما هو برمته تزوير .

ولكن التاريخ اصح وأصدق من قول هؤلاء العلماء ، وان كانوا محققين ، فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة اناجيل كثيرة . فاذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرب على سنته من بعده أخلاف ، واذا صح ذلك الأمر . كما يشهد التاريخ ، وكما تنبىء عنه المقدمات

والنتائج ، فان انجيل برنابا كان معروفا متداولاً قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من قرنين .

ويرى الدكتور سعادة أن ذلك الأنجيل لو كان معروفاً في ذلك الوقت لعرفه النبي صلى الله عليه وسلم واحتج به ، أو أخذ منه . وهذا زعم باطل لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقيم في البلاد التي سادتها المسيحية آمداً تمكنه من المعرفة والإطلاع ، ولأن مضي قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج أثره ، فيخفى ما كان ذاتها ، ويدفن ما كان معلوماً مشهوراً ، فمئاتان من السنين تكنى لطمس الموجود ، وتعفيه آثار المفقود .

ان المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الانجيل أخباراً دقيقة عن التوراة حتى لقد يقول الدكتور سعادة : « انك اذا عملت النظر في هذا الانجيل وجدت لكاتبه الماما عجيباً بأسفار العهد القديم لانك تجد له مثيلاً بين طوائف النصرى الا في أفراد قليلين من الاخصائين الذين جعلوا حياتهم وثقفا على الدين ، كالمفسرين ، حتى انه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له المام بالتوراة يقرب من المام كاتب انجيل برنابا » .

هذه بيانات شاهدة — وان لم تبلغ اليقين والجزم — بان نسبة هذا الانجيل الى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى في جو مسيحي خالص ، وكان معروفاً قبل ذلك بقرون أن لبرنابا انجيلاً ، وهو يدل على أن كاتبه على المام تام بالتوراة التي لا يعرفها الرجل المسيحي غير الاخصائي في علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من الاخصائين ، وان برنابا كان من الدعوة الأولى الذين عملوا في الدعوة عملاً لا يثقل من عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلا بد أن تكون له رسالة أو انجيل .

هذه بيانات تشهد بأن الانجيل الذي كشف وعرف صحيح النسبة ، ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل في يده شيئاً يظن في حمله اتهاماً له ، فيسند ملكيته الى غيره نفيًا للتهمة عن نفسه ، فهل يقبل منه ذلك النفي من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاماً له ؟ . وهل يقر القضاء ذلك النفي ؟ . قد يقول قائل : ان هذه البيانات كلها مرجحة وليست يقينية ، ونحن نقول أن أكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست يقينية جازمة . فاذا كانت نسبة انجيل برنابا اليه ظنية تقبل الاحتمال فانا نأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ في أكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذي لا ينشأ عن دليل . . لا يلتفت اليه ، بجوار الاحتمال الناشئ عن دليل ، ووجود ذلك الانجيل بلغة مسيحية وبين ظهرائي المسيحيين ، وفي مكاتبهم الخاصة ، دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد في انشائه ، ولكن زعم بعضهم أن أصله عربى ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلك الدليل أن يبرزه ، ويبين تاريخ تدوينه ومقدار نسبته .

ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربى بدليل انه وجد على النسخة الايطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح في التبشير باسم النبي ، مع أن المعهود في البشارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الأولى بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرا هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها ، لأنه مستقيم التعبير أحيانا قليلة ، وستقيم العبارة في أحيان كثيرة ، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الاسلامي ، ولا يتخذ من صلبه الايطالي دليلا على أصله المسيحي .

أما كون التبشير بالنبي صلى الله عليه وسلم صريحا فيه وليس بتلميح . فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات في الكتب الدينية تلميح ، نعم بعضها رمز وتلميح ، ولكن ليس معنى ذلك نفى التصريح ، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح ، فالنص الايطالي الذي بين أيدينا ترجمة لا نص ، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى ، فلم يسعفه في لغته التلميح ، فنطق بالصریح كما يفعل المسيحيون في كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبري .

ومن المؤكد أن ذلك الانجيل لم يكن معروفا عند المسلمين في غابره وحاضرهم ، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة في كل العصور ، ولم يعرف أن أحدا احتج في مناظرة المسيحيين بهذا الانجيل ، مع أنه فيسه الحجة الدامغة التي تفلج المسلم عن المسيحي ، فدعوى وجود نسخة عربية كانت هي الأصل للنسخة الايطالية ، فوق أنها لا دليل عليها مطلقا ، ولو بطريق الوهم ، فهي تناقض أخبار التاريخ الاسلامي مناقضة تامة ، والا احتج المجادل عن الاسلام بها ، ففيها أقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذى سجلاته ليستنبطوها ، وليعرفوا دخالها ، فلن يجدوا شيئا يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .

وانجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير ، وسمو التفكير ، والحكمة الواسعة والدقة البارعة ، والعبارة المحكمة والمعنى المنسجم ، حتى أنه لو لم يكن كتاب دين لكان في الأدب والحكمة كتابا من الدرجة الأولى .

ولماذا انكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة في كتبهم الأربعة كما ذكرنا ؟ . الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أنجيلهم ورسائلهم في مسائل جوهرية في العقيدة ، ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الانجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد في مصادر الدين ، لتعرف أي الكتب أقرب نسبا بالمسيحية الأولى ، أذلك الانجيل بما خلف ، أم الرسائل والأنجيل التي توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا الى الرفض والانكار ، كما سبق أسلافهم الى انكاره من قبل .

والأمور التي خالف ذلك الانجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص في أربعة أمور :

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره لها ، وقد ذكر ذلك في مقدمته فقال : « أيها الأجزاء ان الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائما ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل في عدادهم أيضا بولس الذي لا أتكلم عنه الا مع الأسى ، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته » .

ويقول في آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن ان اليهودية قد اضطربت لاياتك وتعليمك حتى انهم يجاهرون بأنك أنت الله . فاضطرت بسبب الشعب الى أن آتى الى هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بازالة الفتنة التى ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول انك الله ، وآخر يقول انك ابن الله ، ويقول فريق أنك نبي . أجاب يسوع : « وأنت يارئيس الكهنة ، لماذا لم تخد الفتنة ، وهل جننت أنت أيضا، وهل أمسيت النبوات وشريعة الله نسيا منسيا ، ايتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان . ولما قال يسوع هذا عاد فقال : انى أشهد أمام السماء . وأشهد كل ساكن على الأرض . انى برىء من كل ما قال الناس عنى . من انى أعظم من بشر ، لانى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر ، عرضة للشقاء العام » .

ويقول في الفصل السبعين : « أجاب يسوع : وما قولكم أنتم فى ؟ أجاب بطرس : [انك المسيح ابن الله] . فغضب حينئذ يسوع . وانتهره بغضب قائلا : اذهب . وانصرف عنى . لأنك أنت الشيطان . وتريد أن تسيء الى » .

[**الأمر الثانى**] أن الذبيح الذى تقدم به ابراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو اسماعيل . وليس باسحق ، كما هو مذكور فى التوراة . وكما يعتقد المسيحيون . وهذا نص ما جاء فى انجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم انكم اذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبت كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا ابراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله . أجاب ابراهيم : هاهو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله . فكلم الله حينئذ ابراهيم قائلا : ؟ خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة » . فكيف يكون اسحق البكر . وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين .

[**الأمر الثالث**] هو كما يقول الدكتور سعادة : ان مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد ، وقد ذكر محمدا باللفظ الدرسيح المتكرر فى فصول ضافية الذبول ، وقال أنه رسول الله . وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور « لا اله الا الله محمد رسول الله » . ولقد قال المسيح كما جاء فى انجيل برنابا : « ان الآيات التى يفعلها الله على يدي تظهر انى أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه لانى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا ، الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » وانك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاما وأقيا فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به ، فصرح بما يعلن حقيقته ، ويبين ما له من شأن .

[**الأمر الرابع**] أن هذا الانجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب ، ولكن شبه لهم ، القى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطى ، ويقول فى ذلك برنابا : « الحق أقول أن صوت يهوذا ، ووجهه ، وشخصه بلغت من الشبهه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع . لذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أن يسوع كان نبيا كاذبا ، وانما الآيات التى فعلها بصناعة السحر ، لأن يسوع قال انه لا يموت الى وشك انقضاء العالم

لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم» . . ثم يبين أن يسوع طلب من الله أن ينزله إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة أيام ، ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات ، وقام قائلاً : [**أحسبونني أنا والله كاذبين ، لأن الله وهبني أن أعيش ، حتى قبيل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، والحق أقول لكم اني لم أمت بل يهوذا الخائن . احذروا ، لأن الشيطان سيجاول جهده أن يخدعكم . ولكن كونوا شهودي في كل اسرائيل ، وفي العالم كله — لكل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها » .**

هذا هو انجيل برنابا . وهذا ما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفي الحق أنه خالف المسيحية القائمة في خصائصها التي امتازت بها ، فإن تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح والوهيقه ، وكان هذا شعارها الذي به تعرف ، وعلامتها التي بها تتميز ، وقد خالف كل هذا ، وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة في ذلك الأمر الجوهري ثابتة — وهو ينسب إلى قديس من قديسيهم — فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهراني المسيحيين وفي مكاتب من لا يتهمون بالكيد للمسيحية ، ومن لا يتهمون بأنهم لا يرجون لها وقارا — رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع ، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضا باتا ، مادام قد أتى بما لا يعرفونه هم ، ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسية علمية ، ينتهون فيها إلى نقضه جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذي يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده ، ومتمن أقرب إلى العقل والفكر من مثته .

ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلهم ، بل القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ، ومما هو مشهور عند المسلمين .

وان أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية ، أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه ، وتأتى لنا بالبيانات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ما جاء فيه وما جاء في رسائل بولس ، ليعرف القارئ والباحث أيهما أهدى سبيلا ، وأقرب إلى الحق ، وأوثق به اتصالا [.

انتهى كلام الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

•••••

•••••

قال الله تعالى :

« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » . [١]

قال العلماء : سمي المسيح لمسحه الأرض وسياحته فيها وفراره بدينه من متن ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له واقترانهم عليه وعلى أمه عليها السلام

(١) من الآية ٧٥ سورة المائدة مدنية .

وقال آخرون : هو الله .

وقال آخرون : هو ابن الله .

وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل مابين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

وقد حسم القرآن الكريم تفضية الالهوية فبين أن الله تعالى منزه عن الشريك والولد والشبيه والمثل والحلول والتجسد والبعد والقرب وادراك الأبصار .

قال تعالى فى سورة الاخلاص :

((قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد)) [١] .

وقال تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام فى سورة آل عمران :

((ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)) [٢] .

وقال تعالى فى سورة البقرة :

((وقالوا : اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون . يدع السماوات والأرض ، واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون)) [٣] .

وقال تعالى فى سورة التوبة :

((وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بافواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قائلهم الله انى يؤفكون)) [٤] .

يشير النص هنا الى عقائد المصريين وأضرابهم من الأمم القديمة ، وكانت تنطوى على عقائد الصلب والفداء وقيام الاله الذبيح وتكفيره عن اتباعه بموته .

وقال تعالى فى سورة المائدة :

((لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم ، قل : فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، والله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير)) [٥] .

- (١) الآيات الاربع لسورة الاخلاص مكية .
- (٢) الآية ٥٩ سورة آل عمران مدنية .
- (٣) الايتان ١١٦ ، ١١٧ مدنية .
- (٤) الآية ٢٠ سورة التوبة مدنية .
- (٥) الآية ١٧ سورة المائدة مدنية .

وقال تعالى :

((لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد)) [١] .

هكذا حسم القرآن الكريم موقف المذاهب المتعارضة التي نشأت بعد رفع المسيح . وبين ان المسيح كان عبدا لله ورسولا ارسله لبنى اسرائيل . والعبد والرسول كلمتان واضحتان .

اما « الكلمة » و « الروح » . . فيستحقان بعض الايضاح .

يفهم المسلمون ان الكلمة هي هدى الله ومعجزته القاها الى مريم .

اما الروح فيفهم المسلمون انها اشارة للروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام ، وقد ايد الله تعالى رسوله عيسى بالروح اى جبريل :

((اذ ايدتك بروح القدس)) [٢] .

بعد استعراض عقيدة المسيحيين حول طبيعة عيسى ونهايته . وبعد بيان الحق الذى انا به الله عن هذه الطبيعة والنهاية ، نريد ان نعرف ما ينبغى ان يكون عليه المسلمون فى علاقاتهم بالمسيحيين وعقائدهم .

اورد الاسلام نصوصا صريحة خص بها ديانة المسيحيين من بين جميع الاديان بالمودة . انكر القرآن الوهية المسيح وانكر الصلب والفداء الا انه صرح فى نصوصه بان النصرانية اقرب الاديان مودة الى الاسلام .

قال تعالى فى سورة المائدة :

((لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين اشرکوا ، ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون)) [٣] .

اثنى الله تعالى على اتباع المسيح الذين ساروا على هديه . .

قال تعالى فى سورة الحديد :

((وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ، وrehبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله)) [٤] .

وليس من تعارض بين الموقفين على الاطلاق . فان انكار القرآن لالوهية المسيح . . واعترافه بمودة النصارى ، وثناءه على الذين اتبعوا عيسى . . تعنى أكثر من شىء :

● أن المسيحية ديانة توحيد فى أصلها ، ومن الصعب ان يهجر كل اتباعها التوحيد والله تعالى هو وحده الذى يعلم حقيقة ما تنطوى عليه القلوب .

(١) من الآية ٧٣ سورة المائدة مدنية .

(٢) من الآية ١١٠ سورة المائدة مدنية .

(٣) الآية ٨٢ سورة المائدة مدنية .

(٤) من الآية ٢٧ سورة الحديد مدنية .

- ان فى النصرارى قسيسين ورهبانا لا يستكبرون على الله .. وانمسا هم خاضعون له .
- ان فى قلوب بعض الذين يتبعون عيسى رافة ورحمة .. ولاتتولد الرافة والرحمة الا من الايمان باليوم الآخر .
- وقد أصدر الله تعالى أوامره الى المسلمين أن يعاملوا أهل الكتب السابقة عليهم معاملة كريمة ، كما كفل الاسلام حرية العقيدة لغيره من الخلق ..
- قال تعالى فى سورة يونس :

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » [١] .

وقال تعالى فى سورة البقرة :

« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » [٢] .

وقال تعالى فى سورة آل عمران :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا آربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا باننا مسلمون » [٣] .

ونلاحظ ان الآيات تتحدث عن معاملة المسيحيين كأفراد . كما تتحدث عن معاملة عقائدهم كعقائد .

بالنسبة للمسيحيين كأفراد .. نرى الآيات تأمر بمبادلتهم المودة ، اذ يصرح النص انهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا .. واذا كان الله تبارك وتعالى هو الذى يصرح بذلك ، فقد وجب على المسلمين أن يبادلوا النصرارى ودا بود .

أما عقائدهم ففى القرآن آيات تمنع من اكراه الناس بأى صورة من الصور .

تأمل قوله تعالى فى سورة الكهف :

« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » [٤] .

ذلك ان الايمان بالاكراه ليس ايمانا ، ينقصه الاختيار الحر .. وهو شرط الايمان . ولعل من تمام كمال الاسلام موقفه هذا .. ونحسب دون أن نقم تفسيرنا على الآيات .. مستغفرين الله من الخطأ والزلزل .. نحسب أن الاسلام أراد بموقفه هذا أن يجنب عامة أتباعه هذا الجدل الطويل العريض حول عقائد الآخرين . وهو جدل لا ينتهى الى شىء ذى بال . لبيحث العلماء كيفما يشاءون فى الأديان ، فهذه مهمتهم أولا وأخيرا . أما عامة المسلمين فعليهم أنفسهم .

ثم ان اختلاف العقائد والفرق والمذاهب عند المسيحيين واليهود .. يجعل من جدال العامة لهذا كله ضياعا للوقت والجهد .

(١) الآية ٩٩ سورة يونس مكة .

(٢) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة مدنية .

(٣) الآية ٦٤ سورة آل عمران مدنية .

(٤) من الآية ٢٩ سورة الكهف مكة .

ولقد بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا .. وفى غربة الاسلام الاولى كان المسلمون يبنون الفرد المسلم أولا . فلما تم بناؤه تم بناء الدولة الاسلامية . ولم نسمع أن أحدا منهم كان يشتبك فى جدال لا ينتهى حول عقائد الآخرين .

ان هداية الآخرين الى الله عمل رائع .

ولكن هذه الهداية تستوجب هداية النفس أولا الى الله .

ولو هدى المسلمون أنفسهم الى الله ، لهدى الله بهم من يشاء من عباده .

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

أثبت القرآن لعيسى معجزتين لم يرد بهما خبر فى الأناجيل :
معجزة كلامه وهو رضيع فى المهد . ومعجزة المائدة التى أنزلت على الحواريين من السماء . كما أثبت له كرامة انقاذه من ايدى اليهود فلم يسمح لهم بتعذيبه أو قتله وإنما رفع الى السماء ..

وأوصى النبى عليه الصلاة والسلام بالمسيحيين خيرا . وتزوج من مارية القبطية .

يروى ابن جرير نقلا عن ابن عباس ، أن رجلا من بنى سالم بن عوف . يقال له الحصين ، كان له ولدان مسيحيان ، فأسلم وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما إذا كان يجب عليه اكراه ولديه على اعتناق الاسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة :

« لا اكراه فى الدين » [١]

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون الى المدينة لمفاوضة النبى صلى الله عليه وسلم ، منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه .

وقام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يوما لجنازة فقيل له انها جنازة يهودى فقال :

— ليست هى نسمة .

وقال عليه الصلاة والسلام : من آذى — ظلما — يهوديا او نصرانيا ، كنت

خصمه يوم القيامة . قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم .

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

اختلف علماء المسلمين بعد رفع عيسى .. عن حاله بعد ذلك ..

ينفقون على انه لم يصلب .. بل رفعه الله اليه .. وإذا كان لم يصلب ، فما هى حاله بعد ذلك .. أهو حى .. أم مات كما يموت الأنبياء ؟

الجهور على أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى بجسمه وروحه اليه ..

واخذوا يظاھر قوله تعالى فى مقابل القتل : « بل رفعه الله اليه » [٢] .

يبعض آثار وردت فى ذلك .

(١) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة مدنية .

(٢) من الآية ١٥٨ من سورة النساء مدنية .

وفريق آخر من المفسرين — وهم الأقل عددا — قالوا انه عاش حتى توفاه
الله تعالى كما يتوفى أنبياءه . ورفع روحه اليه كما ترفع أرواح الأنبياء
والصديقين والشهداء ، واخذوا في ذلك بظاهر قوله تعالى :

« اذ قال الله : يا عيسى : انى متوفيك ورافعك الى ، ومطهرك من الذين
كفروا » [١] .

ونختار الرأى الاول . . لاتساقه كمعجزة خارقة مع ميلاد عيسى ، وكان
معجزة خارقة ، ومع حياته ونقائه ، وكانا معجزتين خارقتين .

(٢) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

محمد

[عليه الصلاة والسلام]

حين انطفأت شموع التوحيد فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأوشك الظلام الكثيف أن يطبق على العقل ، ولم يعد هناك غير قلة قليلة من الغرباء الموحدين ، شاعت رحمة الله تعالى أن تبعثه بأخر رسالات السماء الى الأرض ..

ووسط كآبة الحياة وليها الموحش .. جاء شمس الأنبياء ..

جاء استجابة لدعوة ابراهيم خليل الله ..

وجاء تصديقا لبشرى عيسى روح الله وكلمته ..

يصلى عليه الله عز وجل رحمة وبركة .. وتصلى عليه الملائكة ثناء واستغفارا .. ويصلى عليه المؤمنون تكريما وتعظيما ..

قال الحق فى سورة الأحزاب :

« ان الله وملائكته يصلون على النبي ، يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » [١] ..

ومن قبله أرسل الله تعالى انبياءه رحمة لقومهم .. وزمانهم .. وأرسله الله تعالى رحمة للعالمين .. جاء رحمة مطلقة لقومه وزمانه .. ولن يجيء بعدهم من الأقوام والأزمنة على تعاقب الأيام وتتالى الدهور ..

قال الحق فى سورة الأنبياء :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » [٢] ..

ولقد كان جوهر دعوات الأنبياء السابقين عليه هو الاسلام .. وكان عنوان رسالته هو الاسلام .. فتأمل أنت اى اعجاز أن يكون العنوان جوهرًا .. ويكون الجوهر عمقا بلا قاع ، وقمة بلا نهاية ..

ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ..

(١) الآية ٥٦ مدنية .

(٢) الآية ١٠٧ مكة .

وسيد أبناء آدم ..
وعبد الله ورسوله ، ورحمة الله المهداة للبشر ..

.....

المكان : أرض الجزيرة العربية ..

الدنيا ليل .. الهزيع الأخير من الليل ..

تصور عبد المطلب ان الشمس قد أشرقت فجأة .. واستيقظ ليجد نفسه فى
جوف الليل ، وقد أطبق على الصحراء الممتدة سكون عظيم ..

أزاح بيده باب الخيمة فشاهد النجوم تلمع فى السماء والدنيا ليل ..

وعاد يغلق باب الخيمة وينام ..

لم يكد يستسلم للنعاس العميق حتى عاد الحلم الى الظهور مرة أخرى ..

كان كل شىء واضحا هذه المرة .. ان كائنا عظيما يأمره بأمر حاسم ..

— احفر زمزم ... !

سأل عبد المطلب فى الحلم :

— وما زمزم ... ؟

وعاد الأمر يصدر اليه فى الحلم :

احفر زمزم ... !

لم يكد آخر صدى من أصداء الأمر يخطفى ، حتى كان عبد المطلب قد انتصب
جالسا فى فراشه وقلبه يدق بعنف .. نهض عبد المطلب ، وفتح باب الخيمة ،
واندفع الى الصحراء العريضة ..

ما معنى زمزم ؟ .. آه .. اضاء ذهنه فجأة بنور قادم من بعيد .. زمزم ..
زمزم بئر .. لابد ان تكون زمزم بئرا .. لكن لماذا يريد منه الهاتف ان يحفر
بئرا ؟ .. ليس هناك غير جواب واحد عن هذا السؤال .. لكى يشرب منها
الحجاج الذين يجيئون الى الكعبة .. لكن أى تيممة لهذه البئر بالذات ؟ ..
هناك آبار كثيرة يشرب منها الحجاج ..

جلس عبد المطلب على رمال الصحراء فى قلب الليل ، وراح يتأمل النجوم
ويفكر .. كانت هناك قصص قديمة تروى عن البئر التى انفجرت تحت قدم
اسماعيل عليه السلام .. وكانت هناك قصة تقول ان هذه البئر قد طهرت
وانسدت بفعل الزمن .. وان الآبار التى حفرت لم تكن فى مكان هذه البئر
المباركة ..

أشرقت الشمس على صحراء الجزيرة العربية ، فخرج عبد المطلب على
الناس وحدثهم انه يريد ان يحفر بئرا فى ذلك المكان المحدد ..

أشار بيده الى المكان الذى حددته الرؤيا .. ورفضت تريش ..

ان المكان الذى أشار اليه يقع بين صنمين من الاصنام التى يعبدها الناس .

صنم اسمه « أساف » .. وصنم اسمه « نائلة » ..

عيثا حاول عبد المطلب أن يفتنع قومه بأن يسمحوا له بحفر البئر ..

كانوا يعلمون أن عبد المطلب لم يكن له سوى ولد واحد ، هو أذن رجل ليست له عصبية ، وليس عنده أولاد يدافعون بالقوة عن رأى أبيهم ويحمون تصرفاته .. وأيامها كان كل شيء فى بلاد العرب وسط القبائل يتم عن طريق العصبيات وحمية الأهل ..

انصرف عبد المطلب وهو حزين .. وقف أمام الكعبة ونذر لله نذرا ..

قال : اذا ولد لى عشرة أبناء ، وبلغوا مبلغ الرجل وكبروا ، حتى استطاعوا حمايتى فى حفر البئر ، فسوف أذبح أحدهم عند الكعبة تضحية وقربانا ..
كان قلب السماء مفتوحا لكلمته ..

لم يكد عام واحد يمضى حتى وضعت زوجة عبد المطلب ابنها الثانى .. وكل عام يمر كانت تلد ولدا من الذكور .. حتى انتهت تسعة أعوام ، وصار عبد المطلب أباً لعشرة أولاد ..

ومر الزمن ، وكبر الأولاد ، وصاروا رجالا ..

صار عبد المطلب صاحب عصبية تمنع الأعداء عنه وتؤيده ..

وحفر البئر فى المكان الذى أشار اليه الهاتف .. وتهياً للتضحية بأحد اولاده وفاء لنذره القديم ..

وأجريت القرعة على أبنائه العشرة ، فخرج اسم أصغر أبنائه ، وكان اسمه عبد الله ..

لم يكد اسمه يظهر حتى ثار الناس ثورة شديدة .. لا نترك عبد الله يذبح أبدا ..

كان عبد الله أنقى انسان فى الجزيرة العربية كلها ..

ولم يكن قد أغضب أحدا فى حياته ، أو رفع صوته على أحد ، أو كثر فى وجه أحد .. ان ابتسامته هى أرق ابتسامة فى الجزيرة العربية ، وروحه أصفى روح فى مكة ، وقلبه النبيل يشبه الجنة وسط صحراء القلوب القاسية .. ولهذا ثار الناس جميعا حين جاءت عليه القرعة كى يذبح .. وقال شيوخ قريش ورؤساؤها :

— نذبح أبناءنا بدلا منه ونفديه هو ..

— لن نجد أحدا فى طبيته لو ذبحناه ..

— ارجىء الأمر ودعنا نستفت العرافة ..

واستراح عبد المطلب لهذا الضغط ، فأرجأ الأمر ، وذهب الناس يستفتون العرافة .. قالت العرافة :

— كم الدية عندكم ؟

أجابوا : عشرة من الأبل ..

قالت : ارجعوا وأحضروا عشرة من الإبل ، وأجروا القرعة عليها وعلى عبد الله .. فإذا جاءت القرعة عليه فزيدوا الإبل عشرا ، وأعيدوا القرعة ، وزيدوها عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ..

وأجريت القرعة على عبد الله وعشرة جمال عظيمة .. فجاءت عليه القرعة ، فزاد عبدالمطلب عشرة من الإبل على العشرة ، فجاءت عليه القرعة ، وظلوا يزيدون حتى وصل عدد الإبل الى مائة .. جاءت عليها القرعة أخيرا بعد عشر مرات ..

وانهمرت دموع الناس فرحا بنجاة عبد الله ، وذبحت مائة ذبيحة عند الكعبة ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ..

كان عبد المطلب سعيدا بنجاة ولده عبد الله ، وقرر ان يزوجه أفضل فتاة فى الجزيرة العربية .. وخرج به يومها من الكعبة الى دار « وهب » .. وهناك خطب له آمنة بنت وهب ..

وتزوجت آمنة بنت وهب من عبد الله بن عبد المطلب ، أكرم الفتيان وأحبهم فى قريش !

أشعلت النيران فى جبال مكة كلها ليهتدى اليها المسافرون والضيوف ، احتفالا بزواج عبد الله من آمنة ، وذبحت الذبائح واطعم الناس الغريباء والفقراء والوحوش والطيور .. ومكث عبد الله مع زوجته آمنة شهرين اثنين فى بيت العرس .. ثم أذن مؤذن الرحيل فخرج عبد الله الى رحلته مسافرا مع قافلة تريش التجارية الى الشام ..

وكان آخر ما شاهدته منه آمنة بنت وهب .. وجهه النبيل ، وهو يودعها قبل أن يرحل .. بعدها اختفى شبحة مع القافلة ، وذابوا فى الألق البعيد .

وكانت آمنة بنت وهب لا تعرف انها المرة الأخيرة .. بعد شهرين اثنين من زواجه رحل .. بعد شهر واحد من رحيله زار أحواله من قبيلة بنى النجار فى المدينة ، وهناك وضع جسده على الأرض ومات ..

مات عبد الله بن عبد المطلب .. وعمره خمس وعشرون سنة .. انتشر خبر موته مقبضا ، مؤلما كالحريق .. حتى اذا وصل الخبر الى زوجته آمنسة انكفأت العروس تبكى وتنتحب وتسال سؤالا لم تعرف لحظتها جوابه :

— لماذا فداه الله بمائة من الإبل اذا كان قد قدر عليه الموت بعدها بقليل ؟ .. وتحرك فى رحمها الجنين حركة خفيفة ..

وعادت تبكى حين أدركت انها حامل .. بكت مرتين .. مرة لنفسها ، ومرة لهذا الطفل الذى مات أبوه قبل أن يولد ، ولم تكن آمنة تعرف ان هذا اليتيم الذى يتحرك فى بطنها يجب ان يكون يتيما .. يجب الا يبقى أبوه على قيد الحياة .. سيكون هذا اليتيم مسئولاً عن حمل الآلام اليتامى والفقراء والحزاني فى الأرض .. سيكون آخر أنبياء الله ورسله الى الناس .. سيكون رحمة مهداة الى البشر .. ولا يعرف الرحمة الا من ذاق الحزن وعرف الآلام .. وما هو ذا الطفل يتغذى قبل أن يولد من دماء الحزن العريق النبيل ذاته ..

ومرت الأيام .. ونفد دمع الأم ، وجفت عينها ، ولكن حزنها كان يشبه شجرة تنمو مع العطش ..

راح الحزن يكبر يوما بعد يوم ..

ولم تكن تحس لدهشتها بثقل لهذا الجنين الذى تحمله فى بطنها .. على العكس كانت تحس انها خفيفة كهذا الحمام الذى يطوف حول الكعبة .. ولولا حزنها الذى يشدها للأرض ، ما كانت هناك امرأة أسعد منها بهذا الحمل الخفيف الذى لا تكاد تشعر به ، الثقيل الكريم عند رب العالمين ..

واقترب موعد ولادتها ..

واقترب زحف أبرهة بجيشه من مكة ..

كان أبرهة حاكما حبشيا لليمن ، فى الفترة التى خضعت فيها اليمن للحبشة بعد طرد الحاكم الفارسي منها ، وكان قد بنى فى اليمن كنيسة جمع لها كل أسباب الواجهة ، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام فى مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم لهذا البيت .. فلما رأى كنيسته لا تجذب إليها أحدا من العرب ، صرح عزمه على هدم الكعبة ليضع الناس أمام الأمر الواقع ، فلا يقصدون إلا كنيسته .. وهكذا أعد جيشا عظيما مدججا بالسلاح ، وشق الجيش طريقه نحو الكعبة .. وكان جيش أبرهة يضم مجموعة من الفيلة العظيمة الشرسة التى يستخدمها كما نستخدم نحن الذبابات هذه الأيام ..

وتسامح العرب به ويقصده .. وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم ، وكان العرب وثنيين ، ورغم ذلك كان البيت موضع اعتزازهم لاعتقادهم بأنهم أبناء ابراهيم واسماعيل صاحبى البيت ..

واعترض مسار الجيش رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم ، اسمه ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام .. فأجابه الى ذلك من أجابه .. والتقى أبرهة بهذا الجيش ، فانهزمت القلة الشجاعة أمام الكثرة الكافرة ، وانكسر ذو نفر وصار أسير أبرهة ..

اعترض الجيش نفيل بن حبيب الخثعمي فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزموهم أبرهة وأسر نفيلاً .. وقبل هذا أن يكون دليله فى أرض العرب .. حتى اذا مر بالطائف خرج اليه رجال من ثقيف وهم يرتعشون جبا فقلوا له : ان البيت الذى يقصده ليس عندهم ، انها هو فى مكة .. وذلك ليدفعوه عن بيتهم الوثنى الذى بنوه لصنم يقال له « اللات » وبعثوا معه من يدلّه على الكعبة ..

فلما كان أبرهة بين الطائف ومكة .. بعث قائدا من قواده حتى انتهى الى مكة ، وهناك اغتصب أموالا من قريش وغيرهم ، وكان بين ما اغتصبه مئتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يوشئ كبير قريش وسيدها وصاحب بئر زمزم ..

وأثار وجود رسول أبرهة فى مكة حمية القبائل ، وتحركت قريش ، وكنانة ، وهذيل ، ومن كان بذلك الحرم لقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وانطلقت فى الجزيرة العربية أخبار الجيش الذى لا يتهر .. وبعث أبرهة

رسولا الى مكة ، وهو يحمل رسالة تقول ان الملك لم يأت لحربهم .. وانما جاء لهدم هذا البيت .. فان لم يتعرضوا له ، فلا حاجة له فى دمائهم .. فاذا كان سيد البلد لا يريد الحرب فليجيئوا به الى الملك ..

والتقى رسول أبرهة بعبد المطلب .. وحدثه عن نوايا الملك ..

قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا من طاقة .. هذا بيت الله الحرام .. وبيت خليله ابراهيم عليه السلام .. فان يمنعه منه فهو بيته وحرمه .. وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفاع عنه ..

فانطلق الرسول مع عبد المطلب الى أبرهة ..

كان عبد المطلب اوسم الناس واجملهم واعظمهم .. وكانت له هبة واحترام عظيمان .. فلما رآه أبرهة أحس بالاحترام نحوه .. وأكرمه عن ان يجلسه تحته ، وكره ان تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه .. فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساط وأجلس عبد المطلب الى جانبه ..

ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟

قال عبد المطلب : حاجتى ان يرد على الملك مثنى بعير أصابها لى ..

فلما قال ذلك ، تغير وجه أبرهة ، وقال لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك .. ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى .. أتكلمنى فى مثنى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، لا تكلمنى فيه !

قال عبد المطلب : انا رب الابل .. وللبيت رب يحميه ..

قال أبرهة : لن يحميه منى ..

قال عبد المطلب : أنت وذاك ..

انتهى الحوار بين عبد المطلب وأبرهة .. أعطاه الملك ما اغتصبه من الابل ، وانصرف عبد المطلب الى قريش فأخبرهم الخبر .. وأمرهم بالخروج من مكة ، واللجوء الى كهوف الجبال ..

وخلت مكة من سكانها .. وخرجت آمنة بنت وهب الى الجبال القريبة .. وهبطت الملائكة أرض الجزيرة العربية ..

ووقف عبد المطلب وأمسك بحلقة باب الكعبة .. وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه ..

وانهالت السياط على الفيلة التى تتقدم جيش أبرهة .. وأمرت الملائكة الفيلة ان تجمد فى مكانها فاطاعت ..

وازداد الضرب قسوة وشدة .. واثاقلت الفيلة فى الأرض أكثر وأكثر .. كانت ترتعش فى مكانها وتصرخ .. بيد انها رفضت ان تتحرك حركة واحدة ..

وتساءل أبرهة : لماذا لا يتحرك الجيش ؟ .. وجاءه الجواب ان الفيلة ترفض الحركة .. ورفع أبرهة سوطه وهبط به على وجهه محدثه ، ثم خرج ثائرا ليرى ماذا أصاب الفيلة ..

كانت الشمس مشرقة وهو يجلس في خيمته .. فلما خرج كانت الشمس
تحتجب وراء أسراب من الطيور الزاحفة ..

رفع أبرهة بصره الى السماء ..

خيل اليه في بداية الأمر انه يواجه سحابة سوداء .. ثم دقق النظر
فاكتشف انه أمام طيور تسد ضوء الشمس وتشبه السحابة في تكاثفها ..
« طيرا أبابيل » .. طيرا كثيرة متعاقبة ، لا تبدو لها نهاية ..

وزاد صراخ الفيلة ورعبها .. وسرى الرعب الى الجيش كله .. وصرخ
أبرهة في جيشه أن يتجاوز الفيلة ويتقدم .. وتقدمت الطيور منقضة على
الجيش .. وانفتحت نافذة من نوافذ الجحيم ، والطيور تقصف الجيش بحجارة
من سجيل ..

نفس الحجارة التي ألقيت على قوم لوط ..

نفس الأثر الدمر الذي يشبه اثر القنابل الذرية اليوم ..

انك تقرأ في الاسفار القديمة وصفا لما أصاب جيش أبرهة ، فيخيل اليك
أنك أمام طائفة مدمرة مجهولة ، عزف العالم طرفا منها بعد أربعة عشر قرنا من
وقوع الحادث .. تقول هذه الاسفار : ان الجيش أبيد وهلك ..

انكفا جنوده عائدين ولحمهم يتساقط في الطريق .. وأصيب أبرهة وخرجوا
به ولحمه يسقط أنملة أنملة .. كان جسده يتناثر قطعاً كل قطعة منها في حجم
أنملة الاصبع الصغيرة .. وانشق صدره ومات ..

أسدل الستار على الجيش .. استلقت أسلحته اللامعة على رمال
الصحراء ، وتناثرت أجساد الجنود كعصف مأكول .. قال المفسرون « العصف
المأكول » هو ورق الزرع اذا اكلته الدواب ومضفته وهضمته ثم رمت به
من أسفل .

بعد ما يقرب من نصف قرن .. ستنزل في مكة سورة تقص نبأ هذا كله ..
« المتكيف فعلم ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟
وأرسل عليهم طيرا أبابيل • ترميهم بحجارة من سجيل • فجعلهم
كعصف مأكول » [١] ..

.....

انكسر الجيش الذي استسلمت له الجزيرة بمجرد دخوله ..

أبديت تماما ، وحوى رب الكعبة بيته الحرام ..

لم تكن هذه الحماية تكريما لمن يعيش في البيت وقتذاك .. ولا كانت
استجابة لدعاء الوثنيين وعباد الأصنام الذين يملأون ساحاته ..

حمى رب البيت بيته لحكمة عليا ..

كان سبحانه وتعالى يريد بهذا البيت أمرا .. يريد أن يحفظه ليكون مثابة
للناس وأمنا .. ليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة ترحف منه حرة طليقة ..

(١) سورة الفيل مكة .

نحو أرض حرة آمنة .. لا يهيمن عليها أحد من الخارج .. ولا تسيطر عليها حكومة أجنبية قاهرة تحاصر الدعوة .. ذلك أن هناك في بيت من بيوت مكة جنين لم يولد بعد .. أمه تحمل اسم آمنة بنت وهب .. وأبوه عبد الله من سادات العرب .. والطفل لم يولد بعد .. ولم يكلف بعد بالنبوة .. ولم يحمل الإسلام ثقيلا على كاهله ، ورحمة للعالمين ..

ثم يجيء أبرهة يريد أن يهدم هذا كله .. دون أن يعرف هذا كله ..

ان مأساة أبرهة — مع ظلمه — انه حاول اعتراض المشيئة الالهية .. فسحقته المشيئة الالهية بمعجزة صامتة وخاطفة ..

ان طيرا كثيرة تلقى ما تحمله في أرجلها وما تغيرها من حجارة طينية .. لا صوت في السماء غير حركة الرياح الخفيفة ..

ثم تهبط الحجارة الصغيرة فتفعل فعل انفجار آلاف القنابل .. أيضا بلا صوت .. كان هذا من تدبير الله لبيته ودينه ونبيه قبل أن يعلم أحد أن نبي الإسلام يتهاى ليفادر فرائشه الرحيم في بطن الأم الى حياته القاسية على ظهر الأرض ..

.....

وسط أفراح مكة بنجاتها ونجاه الكعبة ..

رأت آمنة بنت وهب حلما ذات ليلة ..

شاهدت نفسها تتف وحدها وسط الصحراء ، وقد خرج منها نور عظيم أضاء المشرق والمغرب ، وامتد حتى السماء ..

واستيقظت آمنة من نومها فلم تعرف تفسير رؤياها .. ولا عاشت حتى لتعرف تفسير رؤياها ..

مرت أيام وأيام من عام الفيل ..

وفى وقت السحر ..

من ليلة الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ..

ولدت آمنة بنت وهب طفلها اليتيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، حفيد اسماعيل بن ابراهيم بن آدم ..

.....

كانت الدنيا تموت عطشا اليه قبل أن يولد ..

كان عطشها عظيما الى الحب والرحمة والعدالة ..

لقد مرت الآن ستمائة عام على ميلاد المسيح ، وابتعد المسيحيون فيها عن تعاليم الحب ، وتسالت العقائد الوثنية الى بعض فرقهم ، وشاب صفاء التوحيد دنس عظيم .. وهجر اليهود وصايا موسى وعادوا لعبادة العجل الذهب ، وفضل كل واحد منهم أن يكون له عجله الذهبي الخاص ..

وأغارت الوثنية على الأرض ، كفرت بالعقل ، ونسيت الله ، واستسلمت

لأيدي الدجالين .. وحين بدا واضحا ان قلب الدنيا قد أصيب بالجفاف ، نبع
من المشرق فجأة ينبوع صاف من الايمان ارتوى منه نصف العالم ، وكانت
معجزة كبرى أن يخرج هذا ينبوع الصافي من قلب اعظم الصحراوات جفافا
في العالم .. صحراء الجزيرة العربية ..

يقول الحديث الشريف في تصوير هذه الفترة :

« ان الله نظر الى اهل الأرض فمقتهم .. عربهم وعجمهم .. الا بقايا من
اهل الكتاب » ..

.....

الرمال تمتد صفراء حتى تلتقى بالأفق ..

خيام مكة ..

في خيمة خشنة منها يولد طفل يتيم سيصبح فيما بعد مسئولا عن ارواء
عطش العالم الى الحب والعدالة والحرية والحق ..

على مسافة خطوات من مكان مولده .. تملأ الأصنام ساحة البيت العتيق ،
وحول الكعبة التي بناها ابراهيم واسماعيل لتكون بيتا لله يعبد فيه وحده ،
ويؤمن الناس فيه وحده .. في هذا البيت القديم الذي بناه قبله آدم ..

تملأ تماثيل الآلهة الحجرية والخشبية المكان كله .. دليلا يشهد على سقوط
العقل العربي وانحداره ..

وبعيدا عن مكة ، كانت يثرب ، أو المدينة التي تمتلئ باليهود الذين جاءوها
هربا من اضطهاد الرومان .. وحطوا كالذئاب على أخصب الأرض واحتكروا
تجارة التمتع ، وشيدوا مستعمراتهم ، مستغلين ضعف الوجود العربي
وانقسامه على نفسه .. وهو وجود كانت لديه القدرة على التساخر والقتال
أربعين عاما لأسباب تافهة ..

وكان علماء اليهود يتاجرون بكل شيء .. ابتداء من الذهب وانتهاء
بالتوراة ، فيخفون منها أوراقا ويظهرون أوراقا ، ويحرفون أوراقا ليزدادوا
ثراء على ثراء .. وعلى حين كان اليهود يعبدون الذهب ، ويجيدون التجارة ،
ويتقنونون في المؤامرات .. كان العرب يعبدون الحجارة ، ويجيدون القتال ،
ويتقنونون في قرض الشعر وتعليقه على أسستار الكعبة .. وكان العرب
يعيشون في ظل نظام القبائل المتخلف .. شيخ القبيلة هو السيد الحاكم ،
وقيمته تتحدد بمقدار عدد رجاله وكثرتهم وقدرتهم على القتال .. وفضل المرء
ينبع من أصله ، وعصبيته هي قيمته ، وفخره بالأنساب هو كرامته ، والتعصب
لصنم معين هو دينه .. وكانت كل قيم الشهامة والكرم والنجدة والوفاء لا تدور
الا داخل الاطار الضيق للقبيلة الواحدة ، أو القبائل المتصالحة ..

وبعيدا عن مكان الميلاد ..

كانت «روما» تشبه نسرا عجوزا لم يفقد قوته .. وكان الرومانيون يعبدون
القوة ..

والى الشرق من شمال بلاد العرب ، كان الفرس يعبدون النار والماء ..

ان النار تشتعل في معابدهم فيركع لها الناس ، وهناك «بحيرة ساوة» التي تعتبر في نظرهم مقدسة .. أما «كسرى» ملكهم فيجلس في ايوانه للحكم بين الناس فتمضى كلمته كالقضاء النافذ .. لا يناقشها أحد ، ولا يردها أحد .. وكان الفرس قد غلبوا الروم واليونان ، وصاروا أكبر القوى الموجودة في الأرض .. ورغم قوتهم فقد كانت النار التي يعبدونها تكشف عن غياب القوة حين تنخلع من عقلها وتقف عارية بغير الحق ..

كان الظلام يزداد في كل بقعة من الأرض .. وتحولت الحياة الى غابة كثيفة يضرب فيها القوى الضعيف ، وينتصر فيها الشر على الخير .. ويعبد العقل فيها قطع الحجارة ، او يعبد الخوف الذي يلقيه الطغاة في قلبه ..

وفي هذا الجو .. ولد في مكة طفل ..

وفي نفس اللحظة التي ولد فيها هذا الطفل العربي ، انطفأت النار المعبودة في معابد الفرس .. وجفت بحيرة ساوة المقدسة .. وسقطت أربع عشرة شرفة من قصر كسرى ، وأحس الشيطان أن الما هائلا يمزق قلبه ..

وكان هذا كله رمزا لبداية انكسار الشر في العالم ..

وتحرير العقل البشري من عبادة العباد والخرافات ، الى عبادة الله وحده ..

.....

قال البوصيري :

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدا منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس انهمو
قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصعد
كشميل اصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من اسف
عليه .. والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
ورد واردها بالفيظ حين ظمى

ويعتقد بعض العلماء ان هذا الكلام تعبير خاطيء عن فكرة صحيحة .. فان ميلاد الرسول كان حقا ايذانا بزوال الظلم واندثار عهده ، مثلما كان ميلاد موسى ايذانا بتخليص بني اسرائيل من ظلم فرعون .. غير ان رسالة محمد بن عبد الله كانت أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العتلى والمادى ، وكان جند القرآن أعدل رجال وأجراهم على كسر شوكة الطغاة ، طاغية اثر طاغية ، فلما أحب الناس ، بعد أنطلاقهم من قيود العسف ، تصوير هذه الحقيقة ، تخيلوا هذه الارهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد صلى الله عليه وسلم غنى عن هذا كله .. فان نصيبه من الواقع المشرف يزهنا في هذه الروايات وأشباهاها [١] ..

(١) راجع كتاب فقه السيرة .. للاستاذ محمد الغزالي .. وهو كتاب عظيم سطره صاحبه بعلم وحب .

رغم ايماننا أن نصيب الرسول من الواقع المشرف يتجاوز هذه الروايات
وأشباهها ، الا ان هذا لا يمنع من وقوع هذه الخوارق .

وسوف نلاحظ في سيرة الرسول ان الخوارق احاطت بالكعبة قبل مولده ،
ثم وقعت النبوءات الخارقة بعد مولده ، ثم وقعت له خارقة « شق الصدر »
في طفولته ، واطله الغمام في صباه ، وصرف صرفا عن نهب الشسباب البريء
.. وظلت عناية الله عز وجل تحرس خطاه حتى نزل عليه جبريل بالوحي ..

بعدها أصبحت معجزته الأولى هي شخصيته وأفكاره .. صارت معجزته
الكبرى بعد القرآن .. هي هذا البناء الروحي الشامخ الذي احتمل في الله
ما احتمل ، وقاسى في الحق ما قاسى ، وأدى أمانته بكمال لا يطاول ..

وأجمل ما يقال عن معجزات النبي بعد بعثته ، انه كان بلا معجزة ..

بلا معجزة سوى تحرير العقل

بلا خوارق سوى اطلاق الفكر ..

بلا دليل غير كلمات الله ..

لقد دعا عيسى بن مريم الى المساواة والاخوة والحب ..

أما محمد عليه الصلاة والسلام فوفق إلى تحقيق المساواة والاخوة والحب بين
المؤمنين أثناء حياته وبعدها ..

وعلى حين أحيا عيسى بن مريم الموتى وأخرجهم من قبورهم .. أحيا
محمد بن عبد الله الأحياء من موتهم الذي لا يدركونه ، وذلك أقسى أنواع
الموت ، وأخرجهم من ظلمة الجهل الى طمأنينة العلم ، ومن خبل الشرك والكفر
الى علم التوحيد ..

ولقد كان سليمان نبيا وملكا يشتغل الجن في خدمته ويطيرون آلاف الاميال
لاحضار عروش أعدائه كي ينبهروا بقدرته فيسلموا .. أما محمد فكان يشتغل
في خدمة الإسلام ، بدرجة جندي بسيط ووديع .. وكان يعلم انه لو غفل عن
دعوته لحظة ، أو استسلم جسده لآعياء الكفاح المتصل ، فقد ضاعت فرصته
في نشر الاسلام وتبليغ أمثالي وأمثالك من عباد الله ، ما أراد الله ان يعرفوه
عن جلاله ورحمته ..

.....

وفي لحظات الهول الكبرى في معاركه . كان وقت الصلاة يجيء .. فيصلى
الجيش المقاتل .. لا تنزل الملائكة لتحميه اثناء الصلاة .. أو تمنع السهام
عن ظهره خلال سجوده .. وانما على الجيش المحارب أن يحمي نفسه
بنفسه ..

فليصل الجيش المؤمن بالتناوب .. جزء يصلى ، وجزء يقوم بمهمة الحراسة
.. ثم يتبادلان المواقع ..

قال تعالى في سورة النساء :

« وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا
أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم . ولتأت طائفة أخرى لم

يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا
لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » [١١]

انتهى الأمر ، ولم يعد مع الجيش ملائكة لحمايته ونصره ..

هذا عهد الرشد العقلى ، عهد عناء الأنبياء والمؤمنين .. وعلى قدر العناء
فى تبليغ الاسلام ، يكون الجزاء ..

ولقد كان العهد بالأنبياء قبل محمد أن يقسدموا معجزاتهم لقومهم عند بدء
الدعوة .. ليصدقهم القوم فيما جاؤوا به ، أما محمد بن عبد الله فلم يقدم لقومه
غير شخصه وحده .. وصدقته وحده ..

وقد اقتضت عناية الله بموسى أن يرفع الجبل على قومه ليؤمنوا بالتوراة ،
أو يسقط عليهم الجبل .. وسجد اليهود وقد وضعوا خدا على الأرض وتاملوا
بما بقى من وجوههم كتلة الحجارة التى رفعتها يد القدرة الخفية ..

أما محمد بن عبد الله ، فلم يقهر أحدا على شىء .. آمن به من آمن عن
رضا واقتناع ، ومات معه من مات عن رضا واقتناع .. ولم يحمل هو
السيف الا حين اقترب السهم المسموم من قلب الاسلام وهدده .. بعدها لم
يكن السيف فى يد الاسلام الا مشرط جراح يشق الجسم الانسانى انقاذا
للجسم الانسانى ورحمة به ورغبة فى شفاؤه ..

ولقد كانت دعوات الأنبياء السابقين .. تقتضى ما وقع من المعجزات ..

ان طفولة البشرية .. وضعف العقول .. وانطلاق الحواس .. اقتضت
من رحمة الله ان يكون نوع المعجزة من نوع العصر الذى تنزل فيه ، ومن نوع
الناس الذين تبعث اليهم ، ولم يكن أهل مكة فى ذلك الوقت عقلاء أو حكماء
تكفيهم الكلمات .. وانما جاءت الصعوبة من كون الاسلام لم يبعث لهذا العصر
وحده .. انما انزل لكل العصور .. وكان الله يعلم ان البشرية تدخل عصر
النضج العقلى .. فشاعت حكمته ان تكون أول كلمات الرسالة « اقرأ » ..

وأن تكون معجزة الرسالة هى نوعية الفكر الذى تنطوى عليه ، والنظام
الذى تقيمه ، والتشريع الذى تضعه .. والحرية التى تحيىها .. والانسان
الذى تبنيه ..

وليس ينقص من قدر الأنبياء قبل محمد انهم لم يبعثوا فى عصور النضج
العقلى عليهم صلوات الله وسلامه ..

انما زاد فى قدر محمد انه بعث لعصر النضج العقلى .. وبعث قبل مجيء
هذا العصر .. فاحتمل أضعاف ما احتمله الأنبياء .. وقاسى فى الله أضعاف
ما قاسوه .. وتعذب وحده بمثل ما تعذبوا جميعا ، وأحب الله مثلما أحبوه
وزاد .. وكرمه الله عليهم حين أمهم فى الصلاة فى رحلة الاسراء والمعراج ..
ورغم هذا كله .. خرج يوما على صحابته فوجدهم يفاضلون بين الأنبياء
ويقدمونه عليهم فغضب وجهه وتغير ..

(١) من الآية ١٠٢ مدنية .

قال :

« لا تفضلوني على يونس بن متى » ..

وضع بكلمته خطأ فكريا يسير عليه المسلمون .. ليكن الأنبياء درجات عند الله ..

ليكن أن هناك أحدا أفضل من أحد .. من الذى يقرر ذلك ؟ .. لا أحد غير الله عز وجل ، أما المسلمون فليقفوا عند حدود الأدب مع الأنبياء جميعا .. وما دام الله تعالى قد صلى على رسولهم تكريما ، وأمرهم بالصلاة عليه أجلا .. وما دام شأن الرسول كشأن بقية الأنبياء ، فليصلوا على جميع الأنبياء بغير ما تفرقة ، حتى فى عبارة الصلاة ..

.....
.....

تحرك الرضيع المولود فى مكة فى عام الفيل ..

انطلقت الاخبار لجده ان حفيدك قد ولد .. واسرع عبد المطلب وحمل حفيده اليتيم وراح يطوف به الكعبة وهو يفكر فى تسميته .. لم تعجبه كل التسميات التى عرضت لذهنه .. وأجل اختيار اسمه يوما .. ولم يستطع فى اليوم الثانى أن يهتدى لتسمية ترضيه ، وطالت حيرته ستة أيام حتى تم ختبانته صلى الله عليه وسلم .. فلما جن عليه الليل جاءه نفس الهاتف القديم الذى أمره بحفر زمزم .. وهمس له أثناء نومه :

— اسمه مشتق من الحمد .. محمد .. أو أحمد ..

سألت قريش عبد المطلب :

— أى اسم ستسمى حفيدك ؟

قال [وهو يذكر كلمات الهاتف] : محمد ..

كان الاسم غير مألوف فى الجاهلية التى يعيش فيها الناس ، سألوه لماذا رغبت عن أسماء آبائك وتركت أسماء أجدادك ؟

قال عبد المطلب : أردت أن يحمد الله فى السماء ، وأن يحمده الناس فى الأرض .

لا نعرف الآن أى دوافع أملت على عبد المطلب هذه الكلمات .. أكانت هذه الكلمات تصدر من واقع الزهو العربى الشهير ؟ .. أم من واقع الفخر التقليدى ؟ .. أم من واقع الفرح العميق بالحفيد ؟ .. أم كانت الكلمات لحظة من لحظات الصفاء الروحى واستشفاف الغيب ... ؟

لا نعرف ...

كل ما نعرفه أن أحدا من خلق الله .. لا يستحق أن يحمده الناس فى الأرض ، ويحمده الله فى السماء ، مثلما يستحق محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ..

.....

برز الى الوجود يتيما ، غادر أبوه الدنيا ، وهو جنين فى بطن أمه ..
قال تعالى :

« ألم يجدك يتيما فأوى » [١] ..

آواه الله عز وجل .. يقول الصوفية ان الأسباب البشرية ، كوجود جده
عبد المطلب وكفالتة له وإيوائه إياه ، ليست غير ظاهر يمكن تجاوزه ، أما
الباطن فهو اننا أمام بشر آواه ربه من طفولته ..

ورباه الحق عز وجل من طفولته .. وامتحنه باليتم وهو جنين ، وبالجوع
وهو صبى وكهل ، وبفقدان الأم وهو طفل ، وبالوحدة وسط الجماعة ،
وباليقظة وسط النيام ، وبالأم تعقبها آلام ..

وكان الحق يعده من طفولته لحمل آخر الرسالات ، وأثقل الأعباء ، وأفدح
المغارم ..

.....

الصقته أمه بصدرها أكثر من ذى قبل ، وهى ترى انصراف المراضع المتبيلات
من البادية عن حضانتها ..

كانت التقاليد السائدة فى مكة أن ترسل الأسر الشريفة أبناءها الى البادية
لانطلاق الهواء ، وتوافر اللعب .. ولم تكن المروضات يتكالبن الا على أبناء
الأغنياء ..

ولما كان سيد الناس فقيرا .. فقد انصرفت عنه المراضع ..

لنستمع الآن الى مرضعته حليلة بنت أبى ذؤيب ، وهى تحكى قصتها مع
الرضيع عليه الصلاة والسلام ..

« كانت سنة جدباء ، لم تبق لنا شئنا ، فمسيرتى وزوجى فى فقر مدقع
.. فعزمنا على الخروج الى مكة فى رفقة نسوة من بنى سعد ، نلتمس جميعا
الرضعاء ، ليساعدنا آباؤهم على الحياة وضرورياتها .. كانت الدابة التى
أركبها من الهزال والضعف الذى سببه عدم وجود القوت ، بحيث خشينا أن
تقع فى الطريق فاقدة الحياة ، ولم نتم ليلنا كله من صبينا الذى معنا ، فقد راح
يبكى لما يجده من ألم الجوع ، ولم يكن فى ثدى ولا فى ثدى الناقة التى يقودها
زوجى قطرة من لبن نهديء بها جوعه . وأدركنى اليأس أثناء الليل ..
وتسألعت : كيف أستطيع وأنا فى تلك الحالة ، الزعم بأن فى مقدورى القيام
على تنشئة طفل ؟ .. وصلنا أخيرا الى مكة .. وقد سبقنا إليها النسوة ..
فأخذن الأطفال ما عدا واحدا فقط .. هو محمد .. كان والده قد مات ..
وكانت أسرته فقيرة رغم مكانتها العليا بين سادة قريش وشرفها فيهم .. لذلك
أبت النسوة احتضانه .. وامتنعت أنا وزوجى من أخذه لنفس السبب ، أعنى
اليتم وعدم الثراء .. غير انى فى النهاية خجلت أن أرجع من بين صواحبى ولم
أخذ رضيعا ، فآكون فضلا عن الفشل ، موضع سخريتهن .. ثم انى شعرت
بعطف متوقد نحو هذا الطفل البارع الجمال ، الذى سسيؤديه هواء البلدة
الفاسد » ..

(١) الآية ٦ سورة الضحى مكة .

تقول هذه القصة انه فى اللحظة التى رضع فيها كل الأطفال الذين ولدوا معه .. كان محمد بن عبد الله يرقد جائعا فى فراشه الخشن بغير أن يرضعه أحد .. شاعت حكمة عليا أن يستقبل هذا الرضيع دنياه باليتم والجوع لى يتذوق آلام اليتامى والجائعين قبل أن يحمل اليهم الخلاص فيما بعد ..

تقول حليلة انها ناقشت مع زوجها احساسها الداخلى بأنها تريد أن تعود لأخذ هذا اليتيم الرضيع .. فقبل زوجها .. لم تدر حليلة سر رغبتها الفاضة فى أن تعود .. لم تكن تعرف أن اللهلقى محبته فى قلبها مثلما ألقى محبة موسى فى قلب امرأة فرعون ..

وإذا كان موسى قد رفض أن يرضع الا من أمه ، بعد أن حرم الله عليه المراضع .. كى تقر عينها ولا تحزن ، فقد كان محمد بن عبد الله رضيعا وديعا غاية الوداعة .. ترفضه المرضعات ولا يرفض أحدا من الخلق ..

عادت حليلة اليه وأعلنت انها ستحتضنه ..

كان عليه الصلاة والسلام وسنان . وضعت يدها على صدره فابتسم .. فتح عينيه فأطلت على الدنيا براءة آدم قبل أن يمد يده للشجرة المحرمة ..

قبلته حليلة بين عينيه وعادت به الى رحلها .. وضعت فى حجرها وألمته ثديها الأيمن ليرضع ما شاء الله أن يرضع .. كانت تعلم أن ثديها جاف فقالت : اللهم به .. وجد فيه الرضيع — على دهشة منها — ما يشبعه .. تدفق اللبن فى صدرها حنانا وحبا وآية من الله .. أنتهى من رضاعته فمئحته ثديها الأيسر فرفضه .. تاركا اياه لأخيه من الرضاعة .. واتبع ذلك دائما ..

أهى حكمة عليا هذا الاكتفاء بالقليل ... ؟

أم أن الرضيع كان يربى نفسه على الزهد والقناعة قبل أن يربى الرجال على التضحية والرجولة ..

.....

عادت حليلة الى بادية بنى سعد وهى تحمل محمد بن عبد الله ..

لم تكد تعود لأرضها الجذباء ، حتى انفتح لها خير الدنيا كله .. امتلأت الأرض بالخضرة بعد الجفاف .. وأثمرت أشجار التمر بعد أن كانت يابسة ، ودرت أهداء الحيوانات ، وبارك الله فيها فامتلات وسمنت ، وأعطت اضعاف ما كانت تعطيه من اللبن ..

وأدركت حليلة أن هذا الخير قد جاء مع مجيء هذا الطفل المبارك ، فزاد حبها له ..

ووقع زوجها أسيرا هو الآخر فى حبه .. وقال يوما لزوجته :

— تعلمين والله يا حليلة .. لقد أخذت نسمة مباركة ..

وئسب محمد بن عبد الله فى بادية بنى سعد ..

تقول حليلة :

« كان طفلا لا يبكى ولا يصرخ قط ، الا اذا تعرى » ..

« وكان اذا قلق اثناء الليل ولم ينام ، خرجت به من الخيمة .. ووثقت معه تحت النجوم ، فيستولى عليه السرور من مشهد السماء ، حتى اذا شُبعت عيناه اخذ النوم بمعانده أجفانه » .

حين بلغ عامه الثانى فطم .. وأرادت أمه أن تأخذه .. ولكن حليلة لم تستطع أن تستسلم لهذا الانفصال القاسى .. فألقت بنفسها عند قدمى الأم وأخذت تقبلهما وهى تسألها أن تتركه معها حتى يشب صحيحا فى هواء البادية .. ومكث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فى بادية بنى سعد خمس سنوات .

وقد وقع له فى هذه السنوات الخمس ما عرف فيما بعد بحادث شق الصدر ..

.....

أصدرت المشيئة الالهية حكمها النافذ للروح الامين جبريل ، عليه السلام ، أن يهبط الى محمد بن عبد الله ، ويشق صدره بالأمر الالهى ، ويغسل قلبه بالرحمة ، ويجففه بالنور .. ويستخرج حظ الدنيا منه ..

.....

خرج الرسول كعادته ذات صباح مع أخيه فى الرضاع يقودان القطيع الى المراعى ، فلما انتصف النهار ، أتى أخوه يعدو ، فزعا باكيا ، يصيح بأن محمدا قد قتل .. أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء ، فأضجماه وشقا صدره ..

جن جنون حليلة .. انطلقت تعدو بكل ما تملك من قوة ، يتبعها زوجها فى الاتجاه الذى أرشد عنه الصبى .. فوجدا محمدا جالسا على الأرض ، وجهه ممتقع ، وعيناه تلمعان .. قبلاه فى رقة وأخذا يلاطفانه .. ثم سألاه ماذا حدث ... ؟

قال الصبى : بينما كنت الاحظ الأغنام وهى ترعى ، فوجئت بصورتين ناصعتى البياض ، ظننت أولا أنهما طائران كبيران ، ثم أدركت خطئى ، كانا شخصين لا أعرفهما يلبسان البياض ..

قال أحدهما لصاحبه مشيرا الى : أهذا هو ؟

قال : نعم ..

جهدت من الفزع ، وأخذانى فأضجعانى وشقا صدرى ، والتمسا فيه شيئا ، فوجداه وطرحاه بعيدا ، ثم التأم ما شقاه ، واختفيا كأنهما شبحان ..

روى الحديث أنس .. وخرجه مسلم وأحمد ..

اختلف المفسرون أمام هذه الرمزية العميقة ..

يؤولها معظم العلماء ..

ويرى القدماء كالقرطبى انها معنى قوله تعالى :

« ألم نشرح لك صدرك » [١] ..

ويرى المحدثون كالغزالي ، أن بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية الالهية عرضة للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من الناس ، فاذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع الى التقاطها وتتأثر بها ، فقلوب النبيين — بتولى الله لها — لا تستقبل هذه التيارات ولا تهتز لها ..

وبذلك يكون جهد المرسلين هو متابعة الترقى ، لا مقاومة التدرى .. عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة .. قالوا : واياك يا رسول الله .. قال : واياى .. الا ان الله أعاننى عليه فأسلم .. فلا يأمرنى الا بخير » ..

هذا موقف القدماء والمحدثين من حادث شق الصدر .. ونحسب أن لهذه الخارقة علاقة بأعداده لرحلة الاسراء والمعراج .. وهى رحلة كان على الرسول فيها ان يخترق عالم الفضاء ويرتاده ، ويتجاوزه الى عوالم السماء ويرتادها .. ثم يتجاوز هذا كله صعودا حتى يصل الى سدرة المنتهى .. عندها جنة المأوى ..

يرجح هذا النظر فى رأينا أن حادث شق الصدر تكرر مرة أخرى والرسول عليه الصلاة والسلام يجاوز الخمسين من عمره ..

وقد جاء حادث شق الصدر الثانى ليلة أسرى به ..

أخرج البخارى عن مالك بن صعصعة ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حدثهم عن ليلة أسرى به فقال :

— بينا أنا فى الحطيم — أو قال فى الحجر — مضطجع بين النائم واليقظان .. أتانى آت ، فشق ما بين هذه الى هذه — يعنى ثغره الى بطنه — قال : فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء ايمانا ، ففسل قلبى ، ثم أعيد ..

نحسب أن حادث شق الصدر كان تجسيدا لعصمة الرسول ، وكان اعدادا لرحلة الاسراء والمعراج .. وكان اعلانا الهيا يعنى ان هذا الصبى سيصل الى مكانة لم يبلغها من قبله انسان ، ولن يبلغها بعده انسان ..

.....

تغيرت حياة الصبى بعد حادث شق الصدر ..

صارت أفضل أوقاته تمضى فى التأمل والصمت .. وعرف وجهه لون الجد العذب الذى يميز وجوه كبار الرجال ..

ومرت الاعوام وانتهت فترة بقائه مع حليلة فى بادية بنى سعد .. وكانت فترة أثرت فى وجدانه تأثيرا عميقا .. روى عن الرسول انه كان يذكر صباه

(١) الآية ١ سورة الانشراح مكية .

فى بنى سعد بالفخر ، ويذكر ايثارهم وتصرفاتهم بالرضا .. قال صلى الله عليه وسلم :

أنا من بنى سعد ولا فخر .. كانوا اذا جاع فيهم أحد اقتسموا الطعام فيما بينهم ..

.....

عاد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الى مكة وعمره خمس سنوات ..

عاش أياما مع أمه التى كان حزنها على أبيه قد تجسد فى ملامح الوجه أثرا رائعا لنبل الأحران وشفافيتها .. ورأت أمه ، وفاء لذكرى أبيه الراحل ، أن تزور قبره بيثرب .. والمسافة بين مكة ويثرب أكثر من خمسمائة كيلو متر ، فى صحراء قاسية ، تخلو تماما من الحياة ..

وقطع الصبى الرحلة الشاقة ..

بعد هذه الرحلة الشاقة .. عاش محمد بن عبد الله عند أخواله فى المدينة شهرا ..

راى الصبى الصغير البيت الذى مات فيه أبوه قبل أن يولد هو .. زار مع أمه القبر المتواضع الذى دفن فيه والده .. انطبع فى قلبه أول معنى اليتيم وهو يرقب دموع الأم الصامته .. واحتلت المدينة بالأمها جزءا فسيحا فى قلبه .. فلما أذن الله له أن يهاجر اليها بعقيدته فيما بعد ، كان يحدث أصحابه عنها وعن رحلته الأولى اليها ، حديث محب للمدينة ، محزون لمن تحوى القبور بها من أهله ..

انقضى الشهر عند أخواله ، فصحبته أمه عائدة به الى مكة ، بعد رحلة الوفاء ..

وصلا الى منتصف الطريق .. لم يعرف محمد بن عبد الله سر امتناع وجه الأم وشجوبه .. وهبط ملك الموت بقعة تسمى « الأبواء » .. وحين غادرها كانت أمه بنت وهب قد لحقت بالرفيق الأعلى ..

ماتت الأم وتركت وحيدها مع خادم يتقنت قلبها على طفل يفقد أباه وهو جنين ، ويفقد أمه وهو ابن ست سنين .. وعاد محمد بن عبد الله وحده دافع العين ، باكى القلب .. قد أدرك نضجه بعد أن صهرته أحزان الحياة وقسوة اليتيم ..

سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد بعثته : ما طريقتك ؟

قال : « المعرفة رأس مالى .. والعقل أصل دينى .. والحب أساسى .. وذكر الله أنيسى .. والحزن رفيقى » ..

هى رفقة قديمة ، بدأت من طفولته ..

سقاه الله تعالى فى طفولته من أنهار الحزن العميق ، ليمنح الناس بعدها ثمار الخلاص والفرحة ..

.....

عاد الصبى الى مكة محزوناً ، صامتاً ، فزاد جده عبد المطلب فى حبه وأعزازه .. بعد عامين اثنين .. حين وصل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الى الثامنة من عمره .. مات أكبر حصن من حصونه البشرية .. مات جده عبد المطلب ..

وسار الصبى وراء نعش الجد صامتاً كالكبار .. صلباً كالرجال .. تذوب رمال الطريق تحت قدميه فى دموعه الصابرة المحتسبة الشجاعة .. لا نعرف لماذا حدث ما حدث ..

ما هى حكمة الله تبارك وتعالى فى حرمان آخر أنبيائه من عطف الاب ، وحنان الأم ، ورعاية الجد .. أكان الله عز وجل يريد أن يمنح آخر أنبيائه حناناً وحباً من لدنه وحده ؟ .. أكان الله يريه بالحزن ويرهف مشاعره بالألم ؟ .. أكان الله تعالى يصنع قلب رسوله لنفسه ... ؟

قديماً قال الحق عز وجل لموسى :

« واصطنعك لنفسى » [١] ..

وقديماً بشر الله تعالى موسى فى التوراة ، كما بشر عيسى فى الانجيل ، بنبى يأتى من بعده اسمه أحمد ..

وسأل موسى ربه أن يمن عليه وعلى أمته بذروة الفضل ، فحدثه الله انه كتب هذا الفضل لآخر أنبيائه .. أحمد .. وأمته ..

إذا كان الله تعالى قد اصطنع موسى لنفسه ، ورغم ذلك لم يجرمه من حنان الأم ، ورياه وسط أسرته ، فانه قد شاء أن يحرم آخر رسوله من الحنان البشرى والحب البشرى ، والعطف البشرى .. ليؤثره بالحنان الالهى ، والحب الالهى والعطف الالهى ..

يقول تعالى محدثاً آخر رسله :

« ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ؟ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » [٢] ..

ان معنى الآيات الحرفى ، انه كان يتيماً فآواه الله .. وكان تائها فهداه الله ، وكان فقيراً فأغناه الله .. استأنثر الله بأبوائه وهدايته وأغناؤه .. وتلك درجة من درجات الفضل لم يبلغها من العالمين أحد ..

.....

.....

بعد وفاة جده ، كفله عمه أبو طالب ، وألقى الله محبته فى قلب عمه ، فقدمه على أبنائه وأعزه وأكرمه ، وكان يجلسه على فراشه الذى يبسطه أمام الكعبة ولا يجلس عليه غيره ..

(١) الآية ٤١ من سورة طه مكية .
(٢) الآيات من ٦ الى ١١ سورة الضحى مكية .

وعاش محمد بن عبد الله فى قلب صحراء مكة ، مستيقظ القلب ، صاحى الوجدان ، بين قوم من الغافلين ، والسكران ، وعبدة الأصنام ، وتجار الخمر والشعراء ، والمحاربين ، وشيوخ القبائل .. وجو الصحراء يزيد خمول الخامل ، ويزيد حدة اليقظان .. كشعاع الشمس الذى ينمى الأشواك والورود معا ..

وقد كان محمد بن عبد الله فى طفولته صامتا معظم الوقت ، فلما كبرت سنه زاد صمته .. كان لا يتكلم الا اذا دعاه أحد الى الكلام .. وكان لا يشارك الفتيان لهوهم ، مدفوعا فى ذلك بحزن داخلى لا كبرياء .. انه ينفرد بنفسه ، يفتح عينيه على امتداد الرمال .. لسنانه يتوقف وعقله يعمل .. يتأمل فى طفولته سجود قومه للأصنام ويعجب .. كيف يسجد العاقلون لحجارة لا تضر ولا تنفع ولا تتكلم ولا تحس .. ورث من جده البعيد ابراهيم كراهيته الفطرية لعالم الأوثان والأصنام ..

وانطوى داخل أعماقه على احتقار عظيم لهذه المعبودات الحجرية ، احتقار جعله لا يقترب منها أبدا ، غير أن قلبه الكبير كان ينطوى على حزن أعظم من حزن جده ابراهيم .. كان حزينا لأن العقل الانسانى يعبد الحجارة والذهب والكبرياء وسلطان الحكام .. وكان يستمع الى الناس ، ويتأمل شئون الحياة واحوال الجماعات ، ويلاحظ صراع الناس على الأثسياء التافهة والهالكة ، فترداد دهشته ويعمق حزنه ..

الا يعرف الناس أنهم سيموتون مثلما مات ابوه وأمه وجده ... ؟

لماذا يثيرون كل هذا الصراع ليكسبوا مزيدا من الشرور فى النهاية ؟

وكلما تقدمت به السن ، زاد زهده فى الحياة ، وراحت سيرته تضىء فى أنحاء مكة .. انه لا يشبه أحدا من الفتيان .. ورغم اعتقادنا فى حزنه الذى يعود لأسباب عامة .. لم يكن يبدي دخيلة نفسه لأحد ، ولا كان يتطلع لهداية أحد ، ولا كان يقصد اصلاح حال المجتمع أو الانسانية ، صحيح أن الاسئلة تثور فى ذهنه مضطربة ملحة تبحث عن جواب ، لكن عقله وحده لم يكن يهتدى الى الجواب أو الخلاص ..

هذا معنى الآية :

« **ووجدك ضالا فهدى** » [1] ..

الضلال هنا يعنى حيرة العقل فى تفسير الشر ومقاومته ، لانقذار السلاح وصغر السن ..

ولقد أدى هذا كله بالصبى الى مزيد من الانطواء والصمت ، والابتعاد عن هراء العالم الذى ينسكب فى العقول ويشوشها .. ونجا عقله من التشويش وظل على صفائه ..

بقى الصبى بمبعدة عن آثام قومه وانكفائهم على الأصنام وحب السيادة والتناخر .. واقترب أكثر وأكثر من جوهره النقى ، فراح يؤثر غيره على نفسه .. وامتدت رحمته الى الناس والحيوانات والطيور ..

(1) الآية ٧ سورة الضحى بكية .

كان اذا جلس يأكل وحط الحمام على طعامه ترك طعامه للحمام ..
وكان الناس يضربون الكلاب حين تقترب منهم وهم يأكلون ، أما هو فقد كان
ينتزع اللقمة من فمه ليطعمهما الكلاب والقطط والأطفال والفقراء ، وما أكثر
الليالى التى بانها جائعا ، لانه أعطى طعامه لغيره ..
وكان فقيرا لابد ان يشتغل ليأكل .. واشتغل راعيا للغنم مثل داود وموسى
وغيرهما من أنبياء الله .. كان يرعى الغنم على قراريط لاهل مكة ..
ثم سافر فى قافلة عمه « أبو طالب » الى الشام وعمره ١٣ سنة .. ونظر
فى أحوال الأمم الأخرى ، فزادت دهشته لهذه الجاهلية .. وكلما شاهد
الناس يتخبطون زاد حزنه ورق قلبه واشتد تفكيره عمقا ..
وفى هذه الرحلة الى الشام ، وقع للصبي حادث ، أغلب الظن انه زاده
حيرة على حيرة ..

.....

كان الراهب « بحيرا » يقف فى نافذة الدير الذى يتعبد فيه فى سوريا
حين لفتت نظره سحابة بيضاء من الغيم ، تعترض — على خلاف العادة —
زرقة السماء الصافية ، وكان الجو صحوا ، فبدت هذه الغيمة مثيرة للدهشة
.. وهبط نظر بحيرا من السماء الى الأرض ، فوجد السحابة التى تشبه طائرا
أبيض ، تحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال .. ولاحظ بحيرا أن
السحابة تتبع القافلة .. وحين أتاقت القافلة لتستريح أسفل الدير ، ولجأت
الى الظل .. تبخرت السحابة ..

دق قلب الراهب بعنف .. يعلم من أوراقه المسيحية الصادقة أن نبيا
سيخرج الى الدنيا بعد عيسى .. نبيا تذكر الأوراق القديمة صفته وتبشر به ..
ترك بحيرا مكانه ، وأسرع يأمر باعداد طعام كثير ، ثم ارسل الى القافلة
رسولا يدعوها الى تناول الطعام .. عاد الرسول يرافقه المكيون الى
بحيرا ..

قال أحدهم مازحا مع بحيرا : وحق اللات والعزى ، ان لك يا بحيرا لشأنا
اليوم .. ما كنت تصنع هكذا وقد كنا نمر بكم كثيرا .. فما شأنك اليوم ؟
أجاب بحيرا : أنتم ضيوفى اليوم .. مر على سؤال الاعرابى بغير أن يجيبه
عنه أو يكشف له سر هذا الكرم المفاجيء ..

ووفد ضيوفه فراح يطعمهم ويتأمل فيهم باحثا عن العلامات التى قرأها فى
أوراقه للرسول المنتظر ، فلم يعثر على شيء .. سألهم :

— يا معشر قريش .. هل تخلف منكم أحد عن دعوتى ؟

قالوا : نعم .. تخلف منا واحد فقط .. تركناه لحدثا سنة ..

قال بحيرا : لقد دعوتكم جميعا .. ادعوه فليحضر هذا الطعام ..

قال رجل من قريش : واللات والعزى انه للؤم منا ان يتخلف محمد
ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام دعينا اليه .

اعتذر عمه بأن محمدا لم يزل صبيا ، ثم قام بعضهم فأحضره .. لم يكذب حيرا ينظر في صفاء العينين ويفوص في حزنهما النبيل ، حتى أدرك أنه يقترب من هدفه .. ظل صامتا يرقب محمد بن عبد الله حتى أكل القوم وتفرقوا وجلس محمد بن عبد الله وحده ..

قام إليه حيرا .. قال : يا غلام .. أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرنى عما أسألك عنه ؟

كان حيرا يريد أن يعرف موقف هذا الصبى من أوثان قومه وأصنامهم .
أجاب الصبى : لا تسألنى باللات والعزى شيئا .. فوالله ما ابغضت شيئا قط بغضهما ..

قال حيرا : أسألك اذن بالله ؟

قال الصبى : سل ما بدا لك ..

راح حيرا يسأل الصبى عن أسرته ومكانته في قومه وأحلامه وآرائه .. وكان الحوار يجرى بعيدا عن القوم .. فانهم ما كانوا يسكتون عنه لو صرح ببغضه لأصنامهم ..

وجاءت الاجابات مؤكدة ليقين الراهب انه يجلس أمام النبى الذى بشر به نبيه عيسى كما بشر به نبى بنى اسرائيل موسى ..

بعدها ترك الصبى ونهض الى أبى طالب ..

سأله : ما هذا الغلام منك ؟

قال أبو طالب : انه ابنى ..

قال حيرا : ما ينبغى أن يكون أبوه حيا ..

قال أبو طالب : انه ابن أخى .. مات أبوه وأمه حبلى به ..

قال حيرا : صدقت .. ارجع به الى بلدك واحذر عليه يهود ..

تساءل أبو طالب عن السر فيما يقوله الراهب .. أدرك الراهب انه تحدث أكثر مما ينبغى فقال :

سيكون له شأن ..

لم يفتح أكثر .. ولم يحدد هذا الشأن .. ومر الحادث بغير أن يعلق بذهن أحد ، أو يلفت انتباه أحد ..

لم تترك هذه القصة أثرا فى القافلة أو فى النبى ، عليه الصلاة والسلام ، اعتبرت القافلة أن تكريم الراهب لمحمد بن عبد الله وتنبؤه له بشأن عظيم .. هما من قبيل المجاملة التى تقال على موائد الطعام ، حين يمتدح الضيوف كرم مضيفهم ، ويمتدح الداعى أخلاق فتيانهم .. ويتنبأ لهم بالنجاح .. لم تخلف القصة أثرا .. فلا محمد ، عليه الصلاة والسلام ، فهم من كلام الراهب الغامض شيئا محددًا ، ولا أصحاب القافلة تناقلوا هذا الحديث أو أشاعوه ..

طوى الحادث وان زاد حيرة محمد ..

ما الذى بينه وبين اليهود ليحذر الراهب عمه منهم ... ؟

ثم ما هو هذا الشأن الذى تنبأ به الراهب ... ؟

ما هى علاقة هذا كله بأحزانه العميقة وحيرته ... ؟

طاقات الأسئلة قليلا حول ذهنه ثم غاصت خارج منطقة الرؤية ..

وعادت القافلة عودة طبيعية الى مكة ..

وعاد محمد بن عبد الله الى انفراده بنفسه ، وتأمل فى أحوال الكون ، وشقائه ليكسب لقمة عيشه ، وخدمته العفوية للناس ؛ واشاره لهم على نفسه ، عاد الى هذا كله فى صمت وسكينة ..

يوما بعد يوم ..

كان يفيض بالثقة والرحمة والأمانة والحب .. مثلما يفيض الصباح بالنور .. اشتهر بين قومه بالأمانة والصدق . ولم يكن صدقه أو أمانته موضع شك أو بحث لدى أهل مكة .. وحين جاء برسالته بعد ذلك بسنوات طوال ووقف ضده المجتمع كله ، وانقلب عليه الملأ من قومه .. لم يجرؤ أحدهم أن ينال من أمانته وصدقه .. انما ادعوا انه مسحور أو فقد وعيه .. وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة .. حين تم الاتفاق على قتله وتفريق دمه بين القبائل .. وحاصروا بيته لاغتياله ، فى هذه الساعات الحرجة .. قرر الهجرة .. ولكنه أوصى على بن أبى طالب — ابن عمه — أن يبقى فى بيته ليرد جميع الأمانات — التى أودعها عنده أعداؤه وأصدقائه الى أصحابها فى الصباح .. فتأمل كيف استأنمه الأعداء على أموالهم ، واثنين من حفاظه عليها ..

.....

يوما بعد يوم .. كانت سنه تزيد .. وكان نقاؤه وصدقه يزيدان .. وفى بحار الصمت الموحشة ، حيث نشر محمد بن عبد الله أشرعه البيضاء ، كان لأبد أن يلتقى بالحقيقة الأزلية التى التقى بها قبله كل أنبياء الله ورسله .. وأدرك محمد بن عبد الله ان لهذا الكون العظيم ربا هو خالقه .. ربا واحدا لا اله غيره .. وعبد قلبه رب العالمين قبل ان يبعثه رب العالمين الى الناس .. وحيل بينه وبين متع الشبَاب البريء أو لهوه العساذى الذى لا يعتبر خطيئة فى سن الشبَاب .. وعلى حين كان شبَاب مكة يتباهون بعدد الكؤوس التى شربوها من الخمر ، وعدد أبيات الشعر التى قالوها فى النساء .. كان محمد بن عبدالله قد عثر على نفسه ، فى كهف هادىء فى جبل عظيم ..

كانت أصفى أوقاته هى التى يقضيتها فى هذا الكهف ..

كان يغوص بأعماق قلبه فى الكون ، ويفكر فى عظمة أسرارهِ ورحمة خالقه وجلاله .. وفى عامه الخامس والعشرين .. تعرف بأَم المؤمنين زوجته الأولى خديجة بنت خويلد .. كانت هى فى الأربعين من عمرها .. كانت سيدة ذات شرف ومال ، تعمل فى التجارة .. مات عنها زوجها وطمع فيها الطامعون لثروتها ، وكانت تبحث عن رجل يخرج بمالها الى الشام تاجرا .. وبلغت أسماعها أخبار عديدة عن صدقه وأمانته ونقاؤه .. فأرسلت اليه تستأجره ، وخرج فى رحلته الثانية الى الشام وعمره ٢٥ سنة ، بارك الله فى رحلته فعاد

بربح مضاعف لخديجة ، فما تطلع الى مالها ولا الى جمالها ، ووقف بكرامته واستغنائها موقف النبل والتجاوز .. وامتلا قلب السيدة الكريمة بحبه .. عرضت عليه الزواج فقبل .. ووقف عمه يخطب فى حفل زواجه فقال :

— ان محمدا لا يوزن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا .. وفضلا .. وعقلا .. وان كان فى المال فقيرا ، فانما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ..

وأتاح له الزواج فرصة اكبر للتأمل والانفراد والتعبد ..

ومضت به الحياة تزيد نبلة رسوخا ، وفضله انتشارا ، كما تزيد فى عزلته واغترابه .. كان منعزلا بقلبه عن دنيا الصراع المحموم حول ماديات الحياة ..

وكان مغتريا بعقله الصافى فوق دوامات الهراء الجماعى والظلام الوثنى السائد .. وراحت سنه تقترب من الأربعين ..

وبعد ان كان يحس الوحدة وسط الناس .. صار يفضلها بعيدا عن الناس .. ان تأملاته الماضية تباعد بينه وبين قومه ..

ويظل دائب البحث حتى يهديه الله الى غار حراء ..

ويحس أن فرحته باكتشاف الغار صادقة ..

أخيرا يستطيع أن يخرج من مكة .. يسير أميالا قليلة ثم يبدأ الصعود ..

يظل يصعد ويصعد ..

كلما ارتقى الجبل ، انفسح المجال ، ورق الهواء ، وانكشف الحجاب ، وامتدت الرؤية ، وسقط الحس ، وبقي حدس النبوات ..

أخيرا يدخل الغار ..

الصمت نائم .. والقلب يقظ .. ولا شيء يعترض الرؤية الداخلية العميقة .. ومع العزلة والسهر تولد الافكار وتنشر أجنحتها وتحلق أولا فى فضاء الغار ثم تنطلق .. لا شيء يحدها أو يعوق انطلاقها الحر ..

لا نعرف أى أفكار كانت تعبر ذهن أعظم الرجال على الارض وهو يجلس فى غار حراء شهورا متصلة ..

فيم كان يفكر ؟

ماذا كان يقلقه ؟

أية أحلام كانت تعبر ذهنه ، وأى مشاعر كانت تولد فى قلبه ... ؟

ماذا كان احساس الحجارة به وهو يجلس ساكنا يتحنث ويتعبد ... ؟

أكانت ذرات الحجارة الدائرة تتجاوب مع تسبيحه الصامت مثلما كانت ذرات الحجارة تتجاوب مع قراءة داود لكتابه « الزبور » ... ؟

لا نعرف على وجه التحديد نوع الميلاد الذى كان يقع فى نفسه ، صلى الله عليه وسلم .. كل ما ندرية انه لم يكن يفكر فى النبوة ، ولا كان يسعى لهداية الناس .. ولا كان يتشوف لشيء مما يتشوف له الصوفية ..

كان صوفيا .. قبل بعثته الى الناس ..
ثم اختاره الحق نبيا ، فهجر عزلته ونزل الى الميدان وأمسك السلاح
ودافع عن الحق حتى أسلم أنفاسه لبارئه ..

فى البدء يولد التصوف .. وبعده يولد الجهاد فى سبيل الله ..
ليس التصوف غاية أو نتيجة كما يعتقد الناس اليوم ، إنما هو بداية طريق
طويل ، ينتهى بصاحبه الى استخدام السلاح دفاعا عن الانسان وكرامته ..

.....
.....

كان يجلس فى غار حراء يوما ، حين فوجيء بجبريل يقف على باب الغار
.. احتضنه الملك وضمه الى صدره بشدة وهو يأمره قائلا :

— اقرأ ..

قال محمد بن عبد الله : ما أنا بقارىء ..

يريد أن يقول انه لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. كيف يقرأ اذن ؟
عاد الملك يضمه لصدره ضما شديدا حتى ظن الرسول انه الموت ، ثم أطلقه
الروح الأمين وهو يأمره : اقرأ ..

وعاد يردد قائلا : ما أنا بقارىء ..

ويعود الملك الكريم لاحتضانه ويعود لأمره ان اقرأ ..

ويجيب مرتجفا : ماذا أقرأ ؟

وتلا جبريل ، عليه السلام ، أول آيات فى آخر رسالات السماء الى
الأرض :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك
الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » [١] ..

بعدها اختفى الروح الأمين كما ظهر فجأة ..

أحس الرسول نفس الخوف الذى أحسسه موسى وهو يستمع الى النداء
الأقدس فى وادى طوى ..

ومثلما جرى موسى فزعا ، هرع محمد بن عبد الله عائدا الى بيته ..

هبط الى الصحراء ، وسار عائدا الى بيته وزوجته ..
جسده يرتجف بعنف .. وثمة احساس بالبرد والخوف والقلق .. سيكون
هذا اتصالا بالجن وعالم الكهانة ؟ .. سيكون قد خولط فصار يسمع أصواتا
ويرى وجوها لا وجود لها فى الحقيقة ... ؟

خشى الرسول على نفسه لبغضه للكهانة والكهان .. ودخل بيته
يرتجف ..

(١) الآيات من ١ الى ٥ من سورة العلق مكة .

قال لزوجته : زملونى .. زملونى ..

وبدأت تغطيه بأغطية الصوف وتمسح العرق عن جبينه ..

فوجئت زوجته بشحوب وجهه وارتعاشه ..

سألها : أى خديجة ، مالى ..

ثم حدثها الخبر .. وأنهى كلامه بقوله لقد خشيت على نفسى ..

وأدركت خديجة انها أمام امر هائل .. أمام بشاراة لا تدري كنهها على وجه التحديد .. بشاراة ليس فيها ما يستوجب خوفه على نفسه أو قلقه على عقله .. قالت خديجة ردا على تخوفه :

— أبشر .. فو الله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ..

رغم هذه الكلمات المطمئنة ، لم يزايل الرسول قلقه .. وانطلقت به خديجة الى ورقة بن نوفل .. وهو ابن عمها .. وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، ويعرف أوراق التوراة والانجيل .. وكان بصره قد ذهب لشيخوخته ..

قالت له خديجة : أى ابن عم .. اسمع من ابن أخيك ..

قال ورقة : يا ابن أخى ما ترى ؟

قص عليه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قصته كاملة ..

قال ورقة وهو يرفع وجهها يضىء بالدهشة :

— هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى .. يا ليتنى فيها جذع ..

أدرك ورقة بن نوفل — كعالم — أنه أمام النبى الذى بشرت به التوراة والانجيل ..

عاد يقول بعد لحظة صمت : ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك .

تساءل الرسول : أو مخرجى هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به الا عودى .. وان يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا ..

.....

انتهى الأمر وبدأ بعث الاسلام ..

نفذت مشيئة الله تعالى ، وتم اختيار آخر أنبياء الله فى الأرض ، وأول المسلمين ..

.....

من حق القارىء أن يسأل :

● ما هو الاسلام فى جوهره ؟

وإذا كان محمد آخر أنبياء الله فى الأرض .. وكنا نعرف أن أنبياء الله جميعا مسلمون .. فكيف يسبقونه بالاسلام ويكون هو أول المسلمين ؟

.....

لا يختلف الاسلام الذى جاء به محمد فى مضمونه عن الاسلام الذى جاء به نوح أو موسى أو عيسى أو أى نبي آخر فى مضمونه ..

يختلف الشكل ، وان ظل المضمون على نفس صفاء التوحيد للواحد الأحد ..

وقد اختلف شكل الاسلام الذى جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لسبب هام ..

ان هذا الاسلام رسالة عالمية وانسانية وخالدة ..

ليست مقصورة على العرب دون العجم ..

وليست مقصورة على قبيلة أو شعب أو أرض أو بيئة أو زمان .. انما هى لكل انسان ..

بتحديد أكثر ..

هى دعوة للعقل الانسانى .. أينما كان وحيثما كان .. بلا قيد على المكان أو على الزمان .. هذه العالمية لم تكن شيئا معروفا فى الرسالات الالهية القديمة ، كانت كل رسالة توجه لشعب معين فى زمن معين ..

ولهذا السبب كانت المعجزات الباهرة الوقتية تسند الرسالات القديمة .. فلما جاء الاسلام دعوة للعقل الانسانى بالانطلاق ، لم يعد هناك مبرر للمعجزات الباهرة ، تكفى كلمة واحدة لتبدأ دعوة العقل الانسانى الى المادبة .. تكفى كلمة اقرأ ..

ولتكن هذه القراءة باسم الله .. باسم ربك الذى خلق .. خالق الانسان من علق .. تأمل بداية النشأة وذروة الوصول .. هنا تكمن المعجزة الحقيقية ان كنت تبحث عن معجزة حقيقية .. اقرأ وربك الاكرم .. هو الاكرم الذى أنعم ابتداء بالخلق والرزق ، وحف انتهاء بالرحمة واللفظ ، وهو الاكرم الذى علم بالقلم .. علم الانسان ما لم يعلم ..

هذا هو الاسلام فى جوهره .. دعوة الى القراءة .. وهى دعوة تؤدى بالضرورة الى العلم ..

يقول الله تعالى فى سورة [فاطر] :

« **انما يخشى الله من عباده العلماء** » [١] ..

وخشية الله لا تتبع الا من العلم ، يستحيل أن يلد الجهل بأى صورة من صوره أى خشية من أى نوع .. والعلم فى الاسلام اذن ضرورة أساسية .. وليس ترفا أو حلية .. ولقد عز المسلمون وحكموا الأرض يوم فهموا الاسلام على حقيقته .. فلما سقط منهم هذا الفهم ، عادوا الى أسوأ ما كانوا عليه فى الجاهلية .. عادوا لا يملكون من أمورهم شيئا ، فضلا عن أمور العالم ..

(١) من الآية ٢٨ سورة فاطر مكية .

والعلم فى الاسلام هدف أصيل فى خلق الوجود .. ان قصة آدم وحواء ، كما أنزلت فى القرآن ، ليست هى قصة الخطيئة والأكل من الشجرة فحسب .. انما هى قصة لها أعماقها البعيدة ومستوياتها المختلفة ، وكلما غصت فى أعماقها تكشفت لك الرموز عن معانٍ أخطر .. ان حوار الملائكة الداخلى عن سر اختيار آدم لعمارة الأرض والخلافة فيها ، وتعليم آدم الأسماء كلها ، وعرض هذه الأسماء على الملائكة ، وعدم معرفتهم لها ، واختبار آدم ، عليه السلام ، لهم بما يعرفه ولا يعرفونه ، وادراك الملائكة سر اختيار آدم وذريته لعمارة الأرض واستعمارها .. هذا كله يجعل الهدف من خلق النوع الانسانى هو العلم أو المعرفة بمعناها العام .. يؤكد هذه النظرة قوله تعالى فى سورة [الذاريات] :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » [١] ..

كيف نفهمها اليوم ؟ .. وكيف فهمها الجيل الأول من المسلمين أصحاب الرسول وأتباعه وجنوده ... ؟

نفهمها اليوم فهمًا سطحيًا ، فنعتقد ان كلمة « ليعبدون » [٢] .. تعنى طقوس العبادة ، ورسومها الظاهرة كالتلفظ بالشهادتين ، والصلاة والصوم والحج والزكاة .. ولا بأس أن يكون المصلون المصائمون مستعبدين فى أوطانهم ، محتلين فى ديارهم ، يعيشون عالة على أفكار الغرب وصناعاته ، ويتسولون علومه وفنونه ، ويستهلكون منتجاته ولا ينجون شيئًا .. لا يوجهون مصير الحياة لخير ، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرا ، شأنهم شأن ريشة تلعب بها الأمواج .. أما الفهم القديم الأصيل للكلمة .. فكان كالتالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » [٣] ..

قرأها ابن عباس .. الا ليعرفون ..

تأمل أنت خطورة الفارق بين طقوس العبادة وشكلياتها ، وعمقها البعيد فى المعرفة التى تؤدى لخشية الله .. كان المسلم الأول يؤمن أن الله خلقه ليعرف .. وكان طموح المسلمين الأوائل مثيرا للدهشة .. لقد انطلقوا لتحرير العالم كله .. يد تمسك القرآن ، ويد تمسك السيف لتحطيم أغلال الراسخين فى الأغلال ..

ثم سقط من الاسلام جوهر العلم ، فسقط من المسلمين مقعدهم فى قيادة الحياة وتوجيهها ، وعادوا لذيل القافلة البشرية ..

يقول تعالى فى سورة آل عمران :

« تشهد الله أنه لا اله الا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله الاسلام » [٤] ..

بعد شهادة الله .. وشهادة الملائكة .. جاءت شهادة العلماء مباشرة ، فإى تكريم للعلم أعظم من هذا التكريم ... ؟

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات مكية .

(٢) نفس الآية .

(٣) نفس الآية .

(٤) الآية ١٨ وجزء من ١٩ سورة آل عمران مدنية .

والعلم فى الاسلام يختلف عن العلم فى الحضارة الغربية ..
 صحيح ان الاسلام هو المسئول عن نشوء النظرة العلمية والمنهج التجريبي
 .. فعلى أساس هذا المنهج .. قامت الحضارة الأوربية بكل ما فيها من
 صناعة واختراع واكتشاف .. والمنهج التجريبي هو منهج الاستقراء .. هو
 منهج يتتبع الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن ان يخضع للتجربة .. وعن
 طريق الملاحظة فيما لا يخضع للتجربة ، أو عن طريق الرياضة البحت فيما
 يحتاج الى الرياضة البحتة .. وذلك بهدف اكتشاف القوانين الحاكمة للمواد ..
 وهذا المنهج مجاله الطبيعة .. وأدواته الحس والمعدل .. ويدين هذا المنهج
 بوجوده الأوربي الى روجر بيكون .. وهو يعترف بأنه مدين فى منهجه
 للمسلمين والحضارة الاسلامية ..

يتحدث الأستاذ بريفولت فى كتابه « أبناء الانسانية » ، عن أصول الحضارة
 الغربية ، فيقول : « ان روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلوم العربية فى
 مدرسة اكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس .. وليس لروجر
 بيكون ولا لفرنسيس بيكون الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج
 التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين
 الى أوروبا المسيحية ، وهو لم يخجل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة
 العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة » ..

هذه شهادة علماء الغرب المنصفين .. يعترف بها عالم غربى منصف ،
 ونسوقها الى المهزومين روحيا أمام الغرب ، ليعرفوا أنهم هزموا بجزء من
 سلاحهم الذى ألقوه من أيديهم وهو الاسلام ..

وإذا كان سر نهضة الغرب اليوم ، وتفوقه على الشرق ، يعود لأخذه
 بأسباب المنهج التجريبي وهو منهج اسلامى .. فان سر بؤس الغرب وحيرته
 وتعاسته وقلته ، يرجع الى أنه لم يربط هذا المنهج بالله كما ينبغى ..

ان المنهج التجريبي ، كما أخذه الغرب ، يبدأ من الطبيعة وينتهى اليها كفاية
 ان دائرة الأبحاث هى المادة . وأدوات البحث هى التجربة والملاحظة والاستقراء
 .. وليس بعد الطبيعة الا الموت .. والموت سر مجهول ، ومقاومته مستحيلة ،
 ونحن لا نعرف ماذا يكون بعد الموت .. لا ندرى شيئاً عن الروح .. لا علاقة
 بين العلم والأخلاق .. لا جواب للعلم عن هدف هذه الحياة .. نحن ندرس
 الظواهر ونصل الى قوانينها فحسب .. هذه نظرة الغرب الى العلم .. أداة
 ووسيلة لحكم الطبيعة والانتصار عليها وقهرها .. أما المنهج العلمى فى
 الاسلام فيربط حركة الذرات بحركة المجموعة الشمسية بيد الجلال الخالق ..

العلم فى الاسلام يقود الى الله :

« وأن الى ربك المنتهى » [١] ..

يقود الى خشية الله تعالى ، كما يقود الى عبادته وعبادته وحبه :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » [٢] ..

جاء الاسلام يدعو الى القراءة والعلم وخشية الله وعبادته وتوحيده ..

(١) الآية ٤٢ من سورة النجم مكية .

(٢) من الآية ٢٨ سورة فاطر مكية .

وإذا كان العلم هو أول جناح فى الإسلام .. فان الجناح الثانى هو الحرية ..

أعلن رسول الإسلام انه لا اله الا الله ..

لا معبود سوى الله ..

وتعنى هذه الدعوة ببساطة بسقوط الآلهة التى تحكم الأرض جميعا .. سواء أكانت آلهة من المصالح الخاصة ، أم من الثراء ، أو الملوك ، أو الحكام ، أو المفاهيم السائدة ، أو قيم الآباء والأجداد ، أو الأصنام الحجرية والخشبية .. الى آخر سلسلة الآلهة المدعاة والكاذبة ..

يخطئ من يتصور أن [لا اله الا الله] فى الإسلام .. هى مجرد كلمة يتمم بها المسلم وكل شئ حوله فى الحياة يكذب تمتته ..

ان [لا اله الا الله] .. فى الإسلام صراع عظيم مع قوى الظلام فى النفس ..

صراع اذا انتهى بإسلام النفس .. انتقل الصراع الى الحياة اشد قسوة وهنفا ، حتى تسلم الحياة .. ويستحيل أن يقع الصراع الا اذا توافرت الحرية .. حرية العقل فى الشك والرفض ، وحرية التى تنتهى به الى ادراك حدوده ومقدرته ، وحرية التى تسمو به الى ايمان عميق ثابت ، ومسئولته عن حرية .. وهى مسئولية تعنى أن عليه أن يحمل السلاح ليحرر الآخرين مثلها حرر نفسه .. هذا هو الإسلام فى جوهره ..

علم يقوم على الحرية .. ومسئولية تتبع الحرية .. وثمرة أخيرة هى التوحيد فى عمقه البعيد ..

إذا فهم التوحيد على حقيقته ، تحرر الانسان من عبوديته لغير الله .. وتحرر الانسان من خوف الموت ، وهم الرزق .. وتحرر الانسان من شح النفس ، ورعب الأيام القادمة ..

جاء محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليعلن أن الله هو المعبود بحق ، وأن الناس جميعا عبيده .. وبتحرير الناس من عبوديتهم للناس .. تبدأ الحرية الحقيقية ..

أعلن الرسول أن الموت انتقال من دار الى دار .. ليس نهاية صامته غامضة لحياة غير مفهومة .. انما هو انتقال .. وخشية الموت لا تنجى من الموت .. والحرص على الحياة لا يطيل الأجل ، فلكل أجل كتاب .. وإذن تصبح الشجاعة عنصرا من عناصر الشخصية الإسلامية ، ونسيجا من نسيج خلايا جسم المسلم ..

أعلن الرسول ان الرزق فى الدنيا مضمون .. قال تعالى :

« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » [١] ..

وأوحى جبريل الى الرسول : أن نفسا لن تستوفى أجلها حتى تستكمل رزقها .. وأذن ينتفى الخوف من الجوع .. وأذن ينمحي القلق من الغد ..

(١) من الآية ٦ سورة جود مكة .

يقع هذا كله فى دائرة الاخذ بالاسباب .. السعى الى الرزق واجب المسلم ،
والثقة فى كرم الله حق على المسلم أن يؤمن به .. قال تعالى :

«**وفى السماء رزقكم وما توعدون**» [١] ..

ولقد ضمن الله تعالى رزق الدنيا ، وأمر بالسعى نحو رزق الآخرة ..

رزق الدنيا اذن مضمون .. هذا الرزق الذى يتقاتل عليه الناس هو
المضمون بغير صراع محموم .. يكفى فيه الجهد الصادق المعتدل ..

رزق الآخرة هو الذى أمر الله بالسعى اليه ..

هذا هو الرزق الذى لم يضمنه الله الا بالجهاديين الاكبر والاصغر .. جهاد
النفوس ، وجهاد العدو ..

وبتحرير المسلم من هم الموت والرزق والخوف .. يعطى الاسلام للمسلم
سلاحه وأدواته ، ويأمره أن يبدأ محاربة قوى الظلام فى الأرض ..

قال تعالى عن الأمة الاسلامية :

«**كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**

وتؤمنون بالله» [٢] ..

تأمل كيف يذكر الله تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قبل الايمان بالله
.. لتنبه الأذهان الى أهمية الجهاد فى سبيل الله ..

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يتمثلان فى امسك عصا والهبوط بها
على ظهر المسلمين الذين لا يصلون .. ليس هو حبس المسلمين الذين
لا يصومون ..

ان الأمر أخطر وأجل من مراعاة المظهر ، بينما الباطن ينطوى على الفجور
واللامبالاة ..

ان الآية تعنى حمل السلاح للدعوة الى الله .. وقتال الظالمين فى
الأرض ..

قال أبو بكر ، رضى الله عنه : يا أيها الناس ، انكم تقرأون هذه الآية :

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) [٣] .

وانى سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الناس اذا راوا
الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله ان يعمهم بعقاب منه » ..

وتفسير أبى بكر للآية السابقة يعنى بوضوح تام أن العمل بهذه الآية يكون
بعد الجهاد فى سبيل الله بالسلاح وضرب الظالمين ومقاومتهم .. بعد ذلك
يصبح من حق المسلم أن يقول .. أدبت واجبى .. لا يضرنى من ضل اذا
اهتديت ..

(١) الآية ٢٢ سورة الذاريات مكة .

(٢) من الآية ١١٠ سورة آل عمران مدنية .

(٣) من الآية ١٠ سورة المائدة مدنية .

هذا هو فهم المسلمين الأوائل . . فصار أنت بينه وبين فهمنا المعاصر ،
المستخذي ، الذي يفتقر الى الشجاعة ، ويشيع فيه الخوف ، ويؤثر السلامة
على قتال الظالمين . .

جاء محمد بن عبد الله فى رسالة الاسلام بالأمر الالهى بقتال الظالمين . .
والدفاع عن المستضعفين من الناس . .
قال تعالى فى سورة النساء :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرّون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن
يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما .
وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء
والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ،
واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » [١] .

قرأ محمد بن عبد الله على قومه تفسير الحق عز وجل لعنى الفوز العظيم :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ،
يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة
والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم
الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » [سورة التوبة] [٢] .

اقرأ الآية مرة ثانية ، وتأمل كرمه تعالى . . اذ يشتري من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم . . وهذه الأنفس والأموال ملكه هو فى الحقيقة . . انظر كرم من
يشتري ملكه الخاص بالجنة . . وتأمل كيف يحرض الله المسلمين على القتال ،
 ويفهمهم فى نفس الوقت أن هذا الأمر بقتال الظالمين المضلّين ليس جديدا على
المسلمين . . فقد أمر الله به فى الانجيل والتوراة من قبل ، ومثلما بعث عيسى
بالسيف كما تقول أوراق النصارى . . بعث موسى بالسيف كذلك ، وحين قال
بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هنا قاعدون . . اقتضت
المشيئة الالهية أن يضرب عليهم التيه أربعين سنة ، ليهلك ذلك الجيل المهزوم
الخائر الذى يريد من موسى وربه أن يذهب للقتال ، بينما القتال مهمتهم هم
بوصفهم أتباع موسى وربه .

هذا هو جوهر الاسلام كما جاء به محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

دعوة الى القراءة والعلم والحرية وصراع قوى الظلام .

دعوة عالمية لا تختص بجنس دون جنس . أو لون دون لون . أو قوم
دون قوم . أو أرض دون أرض .

دعوة انسانية شاملة تريد ربط العلم والحرية والجهاد . . بهدف أعلى هو
توحيد الله وتنزيهه ، والإيمان باليوم الآخر ، وقيام الناس جميعا لرب
العالمين .

يخطئ من يتصور أن الاسلام يعتبر الحياة الآخرة ، ولا يعبأ بالدنيا .

(١) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ سورة النساء مدنية .

(٢) الآية ١١١ سورة التوبة مدنية .

الدنيا فى الاسلام هى اوراق الاجابة التى تصحح فى الآخرة .. هى امتحان واختبار للانسان .. ليعرف الانسان هل يستحق كرامة الله التى منحها لآدم ؟ .. أم يستأهل المصيرورة جزءا من طين الجحيم وحجارته وينطبق عليه قول الحق .

« وقودها الناس والحجارة » [١] .

ولقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمة الخلق .. خلق الحياة والموت ، حين روى قوله تعالى فى سورة الملك :

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » [٢] .

الدنيا هى دار الصراع .. وقد خلق الله تعالى الحياة والموت ليعرف الناس أى الناس أحسن عملا ..

يعرف الله مسبقا سبحانه .. ولن تزيده هذه المعرفة شيئا فى ملكه سبحانه ..

الانسان هو الذى يحتاج الى المعرفة ..

خلقه الله للمعرفة .. وأخطر معرفة هى معرفة الذات .. ويوم القيامة يعرف كل واحد من الناس ذاته على الوجه الاكمل .. ويعرف جزاءه على الوجه الأمثل ..

ولعل هذه المقدمة التى نستنبطها من اليوم الآخر .. تؤدى الى أن تكون الحياة على الأرض نقية قدر الطاقة .. نظيفة قدر الجهد .. انسانية متكاملة ورحيمة ، وتستحق أن تعاش ، ولقد كان هذا هو الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا أساسه وجوهره ، وهو أساس أو جوهر لم يبدعه محمد ، ولا سبق به الرسل ، أن جوهر الرسالات القديمة كلها هو التوحيد ونصر الحق ، والايمان باليوم الآخر ، واسلام الوجه والجوارح لله .

الجديد فى الاسلام هو العلم والحرية ، وعالمية الدعوة وشمولها .. وهيمنة العدل المحكم عليها .

حتى ليقال بحق أن الطابع الأساسى للاسلام هو العدل .

ولعل هذه النقطة تحتاج الى اهتمام .

مع أن الديانات السماوية واحدة فى جوهرها ، الا ان ارادة الله تعالى التى اقتضت نزول أكثر من دين ، وأكثر من نبي ، اقتضت ان يكون لكل دين طابع رئيسي يمثل أصدق تمثيل الاحتياج الأساسى للذين نزل اليهم هذا الدين فى الفترة المعنية لنزوله . فاليهودية مثلا قامت وسط الوثنية المصرية العريقة ، وأنزلت لبنى اسرائيل المستعبدين ، ومن هنا كان طابعها الأساسى هو « الصرامة » ، ليحول دون تأثر هذا الجنس الذليل بمظاهر الوثنية المصرية ، أو يصاب بالاستخذاء أمام الاستبداد الفرعونى ، وبهذه الصرامة نجحت الديانة اليهودية فى أن تكون رسالة انقاذ وتحرير .

(١) من الآية ٦ سورة التحريم مدنية أو من آية ٢٤ من سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ٢ سورة الملك مكة .

ولكن بنى اسرائيل المستعبدين القساة في نفس الوقت .. خرجوا من نير
الفراعنة ليدخلوا في نير الرومان ، وكان أعتى وأقوى من نير المصريين ، ولزم
الأمر تحريرا جديدا على يد المسيحية ، ولكن بأسلوب مغاير ، اقتضته ظروف
متباينة ، كان هذا الأسلوب هو استبعاد المقاومة المسلحة أو القوة أو الفرار ،
لأن بطش الرومان فاق كل حد ، وشمل الأرض بأسرها ، وكان الانتصار الممكن
هو عن طريق الملاعنف الذي يأخذ أعلى صورة في الحب ، ومرة أخرى
انتصرت المسيحية بسلمها وحبها على الامبراطورية الرومانية بسلاحها
واعتادها ..

أما الاسلام ، وقد جاء دينا نهائيا شاملا ، يصلح للأرض حتى يرث الله
الأرض ومن عليها ، فقد استلزم هذا أن يكون طابعه العدل .

ان الصرامة قد تصلح لزمان معين ، وجنس معين ، وظروف خاصة ..

والحب مثل أعلى ، ولكنه ليس معيارا تقاس به التصرفات أو تدار عليه
الأمور ، ولئن بدا معيارا لأهل الأحاسيس المرهفة أو الثقافات الرفيعة ، فإنه
لا يصلح معيارا عاما وشاملا ..

أما العدل ، وهو طابع الاسلام ، فذلك هو التوازن في الفضائل ، ووضع
كل فضيلة في مكانها ، وذلك هو المقياس الشامل ، والمعيار النهائي ..

ولعل عظمة العدل ورسوخه في نسيج الكون يستندان الى قوله تعالى :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » [١]

وإذا كان الله عز وجل في الاسلام مثلا أعلى .. فان القسط أو العدل الذي
شهد به الحق تبارك وتعالى لنفسه ، ينبغي أن يكون طابع الاسلام
والمسلمين ..

وليس العدل في الاسلام محسوب هو العدالة الاقتصادية أو عدالة الحكم
أو عدالة الجزاء ، إنما هو هذا كله .. وهو قبل هذا كله وبعده أسلوب في
الحياة ، ومنهج وطابع رئيسي للاسلام ..

وأينما قلبت النظر في الاسلام ، وجدت العدل يقلب ما عداه .. هناك عدل
بين الأديان السابقة ، وعدل بين الفرد والمجتمع ، وعدل بين الدنيا والدين ،
وعدل بين الرجال والنساء ، وعدل بين الفقراء والأغنياء ، وعدل بين الحاكمين
والمحكومين ، بل بالعدل نفسه قامت السماوات والأرض .. والله تعالى يسمى
نفسه العدل .

وفيما عدا ذلك التميز الخاص للاسلام .. فالاسلام قديم قدم الأنبياء .

قال نوح عليه الصلاة والسلام في سورة يونس :

« فان توليتم فما سألتكم من أجر ، ان أجرى الا على الله ، وأمرت ان

أكون من المسلمين » [٢] ..

(١) الآية ١٨ سورة آل عمران مدنية .

(٢) الآية ٧٣ سورة يونس مكة .

وقال ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام في سورة البقرة ،
وهما بينان الكعبة :

**((ربنا : تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا : واجعلنا مسلمين لك
ومن ذريتنا امة مسلمة لك ، وارنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك انت
التواب الرحيم))** [١] .

ولم ينس ابراهيم ان يوصى بنيه ويعقوب ، ومنهم يعقوب ان يموتوا على
الاسلام .

قال تعالى :

**((ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين
فلا تموتن الا وانتم مسلمون))** [٢] .

وحين حضرت الوفاة يعقوب جمع ابناءه حوله وسألهم :

**((ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد الهك واله آباءك ابراهيم
واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون))** [٣] .

[سورة البقرة] . .

ولقد اخبرنا الله تعالى في سورة يونس بقول موسى لقومه :

((يا قوم : ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ، ان كنتم مسلمين)) [٤] .

ولقد كان سليمان مسلما بنص الايات التي روت قصته مع ملكة سبأ . .
اذ قالت في ختام جولتها معه :

((رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين)) [٥] .

وها هو ذا يوسف يتجه الى الله بالدعاء فيسأله ان يتوفاه مسلما ويلحقه
بالصالحين . . يقول تعالى محدثا عن يوسف في سورة يوسف :

**((رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تاويل الاحاديث ، فاطر
السموات والارض انت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما
والحقنى بالصالحين))** [٦] .

وجاء في سورة المائدة ان الله اوحى الى الحواريين ان يؤمنوا به ويرسلوه
.. فقالوا :

((آما واتشهد باننا مسلمون)) [٧] .

.....

- (١) جزء من آية ١٢٧ وآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .
- (٢) الآية ١٣٢ سورة البقرة مدنية .
- (٣) من الآية ١٣٣ سورة البقرة مدنية .
- (٤) من الآية ٨٤ سورة يونس مكية .
- (٥) من الآية ٤٤ سورة النمل مكية .
- (٦) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .
- (٧) من الآية ١١١ سورة المائدة مدنية .

كان نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب وموسى وهارون وسليمان ويوسف وعيسى مسلمين بنص الآيات . وكان بقية الأنبياء مسلمين بمفهوم الموافقة .. كيف إذن يكون محمد — وهو آخر الأنبياء — أول المسلمين ؟

قال تعالى في سورة الزمر مخاطبا آخر أنبيائه :

((قل : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك امرت وأنا أول المسلمين)) [١] .

كيف يكون أول المسلمين ، وتسمية أمته بالمسلمين تسمية قديمة تسبق خلقه ومجيئه الى العالم تسمية تدين بوجودها لإبراهيم جده البعيد .

قال تعالى فى سورة [الحج] :

((وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبىكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل)) [٢] .

لا تعارض بين سبق كثير من الأنبياء المسلمين للرسول .. وكونه أول المسلمين ..

لا تعنى كلمة الأول هنا بعدا زمنيا ، ولا تعبر عن أولوية الظهور على مسرح الأحداث .. انما تعنى أول المسلمين هنا .. أكمل المسلمين ..

.....

سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كلمتها الموجزة المعجزة : كان خلقه القرآن .

ونحن نعرف أن القرآن يحدد الخلق الكريم فى حسده الأدنى . ويرسم الفضيلة فى درجاتها الأولى ، كما يقدم القمة السامقة فى مكارم الأخلاق . فأى نوع من هؤلاء كان الرسول ..

أكان هو « المقتصد » ؟

أكان هو « السابق بالخيرات » ؟

أكان من « أصحاب اليمين » ؟

أكان من « المقربين » ؟

لم يكن الرسول هذا كله فحسب .. ارتفع أكثر وأكثر .. حتى كان ذروة الذرى فى مكارم الأخلاق ..

حتى استحق قول الحق عز وجل عنه :

((وانك لعلى خلق عظيم)) [٣] .

اختلف المفسرون حول معنى الخلق العظيم .

(١) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ الانعام مكة .

(٢) من الآية ٧٨ سورة الحج مدنية .

(٣) الآية ٤ سورة الظم مكة .

قال بعضهم .. هو القرآن .

وقال آخرون .. هو الاسلام .

وقالوا لم تكن له همة الا الله .

وهذا كله اختلاف يحسمه القرآن ببيان درجته فى آيتين كريمتين ، الآية الاولى هى قوله تعالى :

« قل : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك امرت وانا اول المسلمين » [١] .

اولهم باطلاق .. اولهم كمالا ورفعة ، وشرفا واكتمالا ، وفضلا ورحمة .

رغم كونه جاء آخر الانبياء .. وربما لانه جاء آخر الانبياء . فكان هو اللبنة الاخيرة فى صرح النبوات الشاهق .. وكان لابد لقمة الصرح وآخر لبناته ان يكونا قمة فى بنى الانسان .

الآية الثانية هى قوله تعالى فى سورة [الانبياء] :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » [٢]

لم يكن رحمة للعرب وحدهم ، ولا لقريش فحسب ، ولا لزمانه فقط ، ولا للجزيرة العربية وحدها .. انما كان رحمة للعالمين ..

كان ولم يزل وسيظل رحمة للعالمين .

ابتداء من نزول الوحي عليه بكلمة اقرا .. حتى يرث الله الارض ومن عليها وتقوم القيامة .

هو الرحمة المهداة للعالمين ..

وهو رحمة لا تواكبها معجزات باهرة او مثيرة .. انما هو رحمة تبدأ بدعوة العقل ان يقرأ كتابين .

١ - يقرأ كتاب الكون .. او القرآن المخلوق .. او كلمات الله البنى تأخذ ملايين الأشكال والصور ..

٢ - ويقرا القرآن الذى نزل به الروح القدس جبريل .. وهو كلام الله الأزلى .

وكتاب الكون يقرأ بالآلاف الطرق .. يقرأ بالسياحة :

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا » [٣]

او يقرأ بالاكتشاف والعقل :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى ينبين لهم انه الحق » [٤] .

(١) الايتان ١٦٢ ، ١٦٣ سورة الانعام مكة .

(٢) الآية ١٠٧ سورة الانبياء مكة .

(٣) من الآية ٦٩ سورة النحل مكة .

(٤) من الآية ٥٣ سورة فصلت مكة .

و يقرأ بالعلم والنظر :

((أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أالله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون)) [١] .

وإذا كانت هناك آلاف الطرق لقراءة كلمات الله المخلوقة في كتاب الكون .. فان هناك طريقة واحدة لقراءة كلام الله الأزلي .. وتلك أن يقرأ القرآن من يقرؤه بعين القلب وبصر البصيرة .. حتى يصير القرآن خلفه بقدر الطاقة . وقبل تنزيل القرآن كان الكون ناقصا مادة وروحا ودستورا وتشريعا يحكم الناس .

وقبل بعث الرسول .. أول المسلمين وأكملهم ، لم تكن الكائنات قد وصلت الى الذروة من اسلام الوجه لله ، أو الذروة من مكارم الأخلاق .
و حين بعث الرسول استكمل النوع الانساني كرامته وعظمته ، وأدرك ذروته ومنتهاه .

وبهذا الكتاب الكريم ، والنبى الرحيم .. أكمل الله للبشر دينهم ، وأتم عليهم نعمته كما حدث في قوله تعالى :

((اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً)) [٢] .

غير أن هذا كله لى يحدث ، كان لابد للنبى أن يجاهد جهادا يجعله أكثر الناس استحقاقا لحمد أهل الأرض وأهل السماء .
وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا نعرف نبيا أودى في مشاعره كما أودى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لا نعرف نبيا احتمل الأذى وصبر في الله كما احتمل نبينا . وفي حالتنا لم يكن ممكنا لمن أرسله الله رحمة للعالمين . أن يدعو على انسان الا ان يكون هذا الانسان من الكافرين العتاة .
كان يدعو لمن يستحق الدعوة ..

ويحتمل حتى يئن الاحتمال .. ويصبر حتى يعجز الصبر .. ويقاوم حتى تهلك المقاومة ، بعدها يرفع الى الله قلبا راضيا ، وعينا دامعة ، ويهمس :
ان لم يكن بك على غضب فلا ابالى .
يهون كل شىء الى جوار رضاه سبحانه .

.....

بعد نزول الوحي على الرسول ..
بدأت أول مرحلة من مراحل الدعوة الاسلامية ..

(١) الآية ٦١ سورة النمل مكية .

(٢) من الآية ٣ سورة المائدة مدنية .

بدأت هذه المرحلة سرا . . واستمرت ثلاث سنوات في الخفاء .

في البداية آمنت به أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها . . وآمن به صديقه أبو بكر ، كما آمن به ابن عمه علي بن أبي طالب ، وكان صبيا يحيا في كفالته ، وآمن به زيد بن ثابت مولاة . . ثم نشط أبو بكر في الدعوة الى الله فأدخل في الدعوة أصدقاءه عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، وآمن المسيحي ورقة بن نوفل ، وراه الرسول ، صلى الله عليه وسلم بعد موته في هيئة كريمة تشهد بدرجته عند الله . بعد ذلك أسلم أبو ذر الغفاري والزبير بن العوام وعمر بن عنبسة ، وسعيد ابن العاص . . وراح الاسلام ينتشر سرا في مكة .

وترامت أخبار هذه العقيدة الجديدة الى رؤساء قريش ، فلم يعبأوا بها .

ولعلمهم توهموا ان محمدا قد تحول بسبب تحنثه في غار حراء . . الى أحد هؤلاء المتكلمين في الالهيات . . كما فعل أمية بن الصلت ، وقس بن ساعدة . . هكذا نجحت السرية في أن تضي نوعا من الحماية على العقيدة الجديدة ، وخلال السنوات الثلاث التي استغرقتها مرحلة السرية في الدعوة . . كان الايمان ينضج قلوب المسلمين الأوائل ، وكان الرسول يريهم ويغير نفوسهم ويصنع منهم أول نواة في جيش الاسلام .

.....

نزل جبريل ، عليه السلام يوما بقوله تعالى :

« وأنذر عشيرتک الاقربین » [١] . .

وهكذا جاء الامر الالهي باعلان الاسلام .

انتهى الامر والتفت حول النبي كوكبة من الفرسان العظام . . وصدر اليه امر الحق أن يعلن عن دعوته الله . . وأن ينذر عشيرته الاقربين . . وحين فعل النبي هذا دخلت الدعوة مرحلتها الثانية على الفور . . وبدأ اضطهاد الدعاة وتكذيبهم وتشديد الحصار عليهم . ادركت قريش أن امر محمد أخطر من مجرد الكلام في الالهيات ، انما هو يدعو لدين جديد ، دين لا مكان فيه لأصنامهم وتمائيلهم وآلهتهم ومراكزهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية . . دين لا آلهة فيه غير الله ، ولا مشرع فيه غير الله ، ولا حاكم فيه سوى الله . .

دين يواجه مكة بما تكره ، ويواجه أولى الأمر بما يقلق .

كان طبيعيا أن تبدأ الحرب فور اعلان الدعوة . .

وقد بدأت الحرب عنيفة من جانب الكبراء والسادة . كان أول المهاجمين للاسلام سيد من سادة الكبراء في مكة . . وهو أبو لهب .

أخرج البخاري أن رسول الله سعد على الصفا وراح ينادى بطون قريش وقبائل مكة ، فلما اجتمعوا اليه سألهم :

— أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم . . اكنتم مصدقي ؟ .

(١) الآية ٢١٤ سورة الشعراء مكة .

قالوا : نعم .. ما جربنا عليك كذبا قط .

قال : فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

قال أبو لهب — وكان يثقف بين الواقفين : تبا لك سائر اليوم .. ألهذا جمعتمنا .

بهذا التهوين والاستهانة بدأت الحرب ضد الإسلام .. ولما كان المسلمون لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فقد دافع الله عنهم فى البداية ، ونزلت سورة قصيرة ترد على كلمة أبى لهب (تبا لك سائر اليوم) ..

قال تعالى :

« تبت يدا أبى لهب وثب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » [١] ..

بهذه الآيات القصيرة المحكمة ، دخل أبو لهب التاريخ من أقصر أبوابه وأنكرها ، وارتسمت صورته الى الأبد ، فى إطار من الهزؤ به وبزوجته ، واستحق سخرية أجيال عديدة لم تره ، ولكنها رأت صورته كما رسمها الحق عز وجل .. رجلا يعاند دعوة الحق خوفا على مصالحه المالية أن تهتز باندثار عبادة الأوثان .. لا بأس بهذا كله .. ان ماله الذى يحافظ عليه لن يغنى عنه شيئا من الله ، وها هو ذا يبعث وسط نار ذات لهب ، وامراته تحمل الحطب لتزيد ناره اشتعالا .. فى جيدها حبل من مسد .. رمز لانتمائها لعالم الدواب التى لا تعى .

ولقد كان معظم المعاندين للدعوة الجديدة من لون ينتمى لعالم الدواب التى لا تعى ..

قال تعالى فى سورة الفرقان :

« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » [٢] ..

ولو تأملنا اليوم ردود أعمال الكافرين والمشركين ، لاحسبنا بالمعجب .

قال تعالى فى سورة (ص) :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب . اجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لثنىء عجاب » [٣] ..

تأمل أنت جهل قوم يحسبون أن الأصل تعدد الآلهة ، ويدهشهم ان يكون هناك اله واحد . ويرون العجب العجاب فى هذه القضية الفطرية الواضحة .

(١) سورة المسد مكية .

(٢) الآية ٤٤ سورة الفرقان مكية .

(٣) الآيتان ٤ ، ٥ سورة ص مكية .

قال تعالى فى سورة الفرقان :

**وإذا راوك ان ينخذونك الا هزوا ، أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ • ان
كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها** [١] • •

انظر الى جراءة القوم ، اذ يهزأون برسول الله • • وقد جاء ينقذهم من النار ،
وتخيل اطمئنانهم لآلهتهم ، وتصورهم انهم كادوا يضلون عنها لولا ان صبروا
عليها • •

ان صور العناد القديم والجديد واحدة • • ان الكفر والشرك والعناد تكرر
نفسها لان الشر عادة محدود الموهبة • • وان اتسم بالثابرة • •

وهكذا يهزأ الضلال من الحق ، ويسخر الجهل من العلم ، وينفث الباطل
ريشه الملون ، ويتيه عجبا بذكائه الذى انقذه من ترك آلهته الحجرية والخشبية
والبلحية ، وكانوا يصنعون الالهة من العجوة • • ويعبدونها ثم يأكلونها
ويقولون : انقذتنا آلهتنا من الجوع • أو يقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله
زلفى • • المسألة كلها مسألة تزلف الى الله • •

ومضت دعوة النبى • وانغرست فى الأرض أشواك المشركين •

اتهموا النبى بأنه كاهن ، واتهموه بالجنون ، واتهموه بالسحر ، واتهموه
بأنه افترى ما جاء به من الحق ، واعاناه عليه قوم آخرون • • وقالوا : هذه
أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا • وطلبوا منه معجزات من
نوع معين • • أعلنوا انهم لن يؤمنوا له حتى يفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو
تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو يسقط السماء
كما زعم عليهم قطعاً من العذاب ، أو يأتى بالله والملائكة يضمنون لهم صحة
ما يدعوا اليه • • أو يكون له بيت من ذهب ، أو يصعد فى السماء ، ولن يؤمنوا
لصعوده اذا صعد أمام أعينهم وعاد ، الا اذا أحضر اليهم كتابا يقرأونه
من السماء • •

ومر النبى مر الكرام على تجريحهم له ، كما أفهمهم بلطف ان ما يطلبونه من
المعجزات لا يتفق مع الاسلام ، دعوة العقل والحرية ، أفهمهم انه بشر رسول ،
جاء ينذرهم يوما لا يغنى فيه والد عن ولده ، ولا ينفع فيه مال ولا بنون ،
ولا ينجى فيه من العذاب ، ان صاحب الفخامة أو السعادة كان جبارا عظيما
من جبابرة الأرض ، أو شيخا من شيوخ القبائل ، أو حاكما فى الناس ، أو ملكا
عليهم ، أو مدعيا للالوهية فيهم • •

لا يغنى هذا كله شيئا يوم القيامة • • لا يدفع العذاب • • ولا يخففه •

وبدا الاسلام — ككل الأديان قبله — يجمع حوله طائفة العقلاء والفقراء
والحزائى فى الأرض ، آمن عديد من الفقراء الذين وضعهم النظام الاجتماعى
فى مكة عند سفح المجتمع لتستغلهم الطبقات الظالمة ، ولم يكن الاسلام يقدم
حلا اقتصاديا لمأساة الحياة أو المجتمع فحسب ، انما كان يقدم حلا الهيا
لمشكلة الوجود الانسانى بشكل عام • • وكان الاسلام يؤمن ان الانسان ليس
مجرد معدة تريد ان تمتلىء ، وجسد يريد ان يكتسى ، وغريزة جنسية تريد ان
ترتوى ، ليس الانسان هذا فحسب • • وضع الاسلام الانسان فى مكانه

(١) الايتان ٤١ ، ٤٢ سورة الفرقان مكة •

الحقيقى دون تكبير أو تصغير .. معدة وجسدا ، وغريزة وروحا ،
وطموحا وعقلا ، وغبسا من الله فى الروح ..

ليس أعقد من تركيب الجسد الانسانى ، وليس أعقد من تركيب الروح
الانسانى .. وأحيانا يتقلب الجسد فى نعيم الحياة ، بينما تشقى الروح أشد
الشقاء ، واشباع جانب واحد من جوانب الانسان لا يؤدى الى الكمال أو
السعادة .. ولهذا بدأ الإسلام حل مشكلة الانسان من داخله .. ووقع عبء
هذا التغيير على القرآن ، كان القرآن يتحول الى الحياة كل يوم .. كانت آياته
تنزل على الرسول ، فيعلمها الرسول للمسلمين ، ويتحول القرآن الى رجال
كثيرين يسيرون فى الأسواق ويهددون عرش الكراهية الذى كان يحكم مكة ..

وزادت ضراوة المشركين فى السخرية والتجريح والاستهانة .. وحزن
الرسول ، عليه الصلاة والسلام .. وواساه الله تعالى ، وأفهمه انهم لا يكذبونه
.. ولكنهم ظلموا انفسهم ابتداء وجحدوا آيات الله .. وليس النبى غير آية
من آيات الله ..

قال تعالى فى سورة [الأنعام] :

« قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين
بآيات الله يجحدون » [١] ..

واستمر ايداء المشركين للرسول واتباعه .

وانتقل مجال المعركة من الكلمات التحديه الهازلة ، الى تعذيب اتباع
الرسول وقتلهم .

وتصور أعداء الإسلام يومها ان تشديد الخناق على المسلمين ، سيجعلهم
يفلتون دعوتهم ، أو يكفون عن اعتناقها ، ايثارا للسلامة ، أو يتهافتون فى
نشرها على أقل تقدير ، وفوجيء السادة والملا من قوم مكة بأن الضغف يزيد
الدعوة رسوخا ، وأن التعذيب لم يزعج أحدا عن موقفه .

ولقد كان يقين المسلمين الذى زرعه الرسول فيهم ، انهم يحملون رسالة
من الله الى العالم ، رسالة تعيد الى العالم رشده الذى فقده ، وانسانيته التى
ضاعت منه ، وكرامته التى أهدرت ، وحريته التى صودرت .. وكان يقين
المسلمين انهم لا يبنون وطنا صغيرا فى مكة ، ولا يحاولون اصلاح مجتمع
فاسد هو مجتمع الجزيرة العربية ، وإنما كانوا يدركون انهم ينشئون الانسان
من جديد .. ينشئون الانسان كما ينبغى أن يكون الانسان .. ويفدمون للدنيا
أول صورة مجردة لعظمة الخالق وجلاله .

وقبل الإسلام .. كان العرب لا شىء .. كانوا بمقاييس الحضارات القديمة
والحديثه لا شىء . لم يقدموا الى العالم علما أو فنا أو أثرا له قيمته .. فلما
نزل الإسلام عليهم ، صاروا هداة البشرية .. وسادتها وعلماءها بالحق ..
وأخذ عنهم الغرب ما يريده لتقدمه ، وظل يزعجهم عن الإسلام حتى عاد
الإسلام الى الكتب ، ولم يعد له وجوده الحى المؤثر فى الناس ، بعدها صار
سهلا على الغرب أن يحكم المسلمين بما أخذه منهم من العلم .. وان يسوقهم
قطعانا مدهوشة الى حظائر منتجاته واكتشافاته ، وهى اشيء كان ينبغى أن

(١) الآية ٣٣ سورة الانعام مكة .

تكون من اكتشافهم وانتاجهم ، لو أدركوا معنى الاسلام وحرصوا على أحيائه .

وفى الأيام الأولى للإسلام . . أدرك المسلمون أنهم يواجهون حربا لن تتوقف طالما بقيت الحياة وبقي فيها الصراع . . ولهذا توهجوا بالايمان كلما ازداد العذاب ، واستمسكوا بالحق كلما اشتد اضطهاد قريش .

وعذبت مكة عمار بن ياسر . . أحد العبيد الذين كانوا ضحية للنظام الاقتصادي السائد فى العالم يومها ، وهو اقتصاد كان يقوم على نظام العبيد ، عذبت مكة هذا الذى آمن انه لن يحصل على حريته الحقيقية الا بالاسلام . وكانوا يخرجونه الى الصحراء ويعذبونه وزوجته ، واشتد العذاب على زوجته يوما لتكفر ، فلما ظلت على ايمانها وأغلظت القول لأبى جهل ، طعنها بحرية كانت فى يديه . . فماتت . . وقدم الاسلام أول شهدائه . .

كانت امرأة تدعى « سمية » . . زوجة عمار بن ياسر .

لم تكن فى عرف المجتمع امرأة حرة . . كانت زوجة لعبد . . واقتضت مشيئة الله تبارك وتعالى أن تكرم السماء دم العبيد قبل دم الأحرار بالشهادة .

ولقد تحدث الجهلاء كثيرا عن رضاء الاسلام بنظام العبيد . أو سكونه عليه أو قبوله اياه ، وأغفلوا ان الاسلام كمبدأ يحزر العبيد جميعا ، ويخرجهم من ملكية الناس الى ملكية الله .

وإذا كان الاسلام لم ينزل بنصوص مفصلة مباشرة لتحريم نظام العبيد ، فقد كانت أسسه العامة ومبادئه الأساسية تجفف — فعلا لا قولاً — منابع هذا النظام . . ولقد علم صاحب الدعوة الإسلامية — جل جلاله — ان نظام العبيد نظام اقتصادى مؤقت سيتغير مع الوقت . . ولما كان الاسلام لم ينزل لهذا الوقت الذى نزل فيه فحسب ، وانما نزل عاما شاملا لكل الأزمنة القادمة ، فقد تجاوز الاسلام هذه الصورة المؤقتة من صور الاستغلال ، الى الأصل المنشئ لصور الاستغلال وأشكاله ، فحرمها . . وبهذا الأسلوب حرم الاسلام نظام العبيد تدريجا ، مثلما حرم الخمر على مراحل . . ولقد كانت جدية الاسلام هى المسئول الأول عن تحريمه للمحرمات على مراحل ، فالطبيعة البشرية لا تتغير فى يوم ، والنظم الاقتصادية لا تتحول بقرار .

ولئن قيل لنا ان الاسلام أباح لجنوده استرقاق أسرى الحروب ، فسوف نقول ان الاسلام كان يطبق هنا مبدأ المعاملة بالمثل . . كان أعداء الاسلام يسترقون المسلمين حين يأسرونهم ، فكان طبيعيا ان يسترق المسلمون أسراهم من المشركين ، ولو فعل الاسلام غير هذا لكان أقرب الى اللهو . . ولستقطت هيئته كنظام جاد ، ولطمع فيه الطامعون وهم كثير .

.....

أخفق التعذيب والاضطهاد فى حصر الدعوة الإسلامية .

وحين ذهب المعذبون يشكون لرسول الله ما يلقونه من العذاب أفهمهم بمنطق شديد الوضوح ان على الدعاة أن يدفعوا راحتهم وأمنهم ودماءهم ثمنا لانتشار دعوتهم .

ليست الحرية بلا ثمن ..

وتاريخ الحياة حافل بدماء كثيرة دفعتها الشعوب لمقاومة أعدائها فى الخارج والداخل .

ولئن كان هذا شأن من يطالب بحرية قوم فى زمان ومكان محددين ، فما هو شأن من يطالب بحرية الجنس الانسانى كله .

ان المسلم ينبغى أن يضع فى اعتباره انه يتعرض ، بمجرد اعلان دعوته ، للمؤامرات والتشريد والاضطهاد والسجن والمطاردة والحصار والاغتيال . هذا هو ثمن انتشار الدعوة .

وهذا هو ثمن الحرية ..

وهو ثمن يدفعه أهل الباطل أحيانا بالرضا ، فكيف يتردد أهل الحق فى أدائه .

والأصل فى الانسان انه محكوم بغريزة البقاء .. محكوم بغريزة الخوف من العذاب والموت .

ولعل أخطر ما يميز المسلمين الحقيقيين هو تحررهم من غريزة الخوف وحب البقاء . هذا هو المعيار الذى لا يخطئ لتمييز المسلم الحقيقى ، من المسلم بالاسم أو الوراثية أو الادعاء . يعلم المسلم الحقيقى أن الأجل بيد الله . والأرزاق بيد الله . والأمن بيد الله والقوة بيد الله .. وبهذا الايمان يبدأ صراعه لنشر دعوته .. ويستعذب الألم فى الله ، ويدفع بدمائه ثمن حرية الآخرين . يفعل هذا كله ببساطة تخلو من الخوف ، يحرره الاسلام من الخوف . وقديما كان الطفافة ينشرون رجال الله بالمناشير وهم احياء . ذهب خباب بن الارت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنجدا به من اضطهاد قريش .

قال : الا تستنصر لنا . الا تدعولنا ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين .. ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر ، ولكنكم تستعجلون .

بهذه الكلمات الصابرة الشجاعة .. أفهم الرسول من جاء يستنجد به أن من تمام الايمان دفع ثمن الحرية .

ولقد بدا واضحا ان الاسلام لم يكن يقدم لمن يدخلون فيه مكاسب من اى نوع .

لم يكن السؤال الذى يطرحه المسلمون الأوائل يقول : ماذا نكسب من وراء هذه العقيدة ؟

على العكس من ذلك .. كانوا يسألون : ماذا ندفع للإسلام ؟

وكان الجواب : كل شئ . ابتداء من لقمة الخبز الى الدم المسفوك .

لقد دفع المسلمون الأوائل كل شيء . وخامرهم اطمئنان هادىء لنصر الله ،
وملاّتهم ثقة عميقة بغلبة ما جاءوا به من الحق ، وكانوا يعلنون أنهم
سيقبلون ملوك كسرى وقيصر ، وانهم سيصيرون بدعوتهم سادة الأرض .

واستغل المستهزون هذه الثقة فى سخريتهم وضحكهم .. كان الأسود
ابن المطلب وجلساؤه اذا رأوا أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ،
يتغامزون ويقولون : قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون — غدا —
ملوك كسرى وقيصر .. ثم يصفرون ويصفقون .. وتجاوز المؤمنون هذه
السخرية .

واستطالت السخرية الى منع المسلمين من اعلان دعوتهم .

وعقدت قريش اجتماعا تاريخيا لتوحيد الهجوم على الرسول . كان
المشركون يتهمونه مرة بأنه ساحر ، ومرة بأنه كاهن ، ومرة بأنه شاعر ، ومرة
بأنه مجنون .. واتفقت الكلمة فى اجتماعهم يومئذ على الصاق تهمة السحر
به .. واستند المؤتمر الشهير الذى تزعمه الوليد بن المغيرة على رemy الرسول
بالسحر ، لأنه يفرق بين الأخ وأخيه ، والمرء وزوجته .. وصنع ملوك الكراهية
والظلام من انفسهم فرقا تحذر القادمين الى مكة من ساحر يدعى محمد ..
ساحر خرج على قومه وأهله وعشيرته الذين يعبدون ما كان يعبد آباؤهم ،
واضطروا الرسول الى أن يعرض نفسه على الخلق فى المواقف فيقول :

— الا رجل يحملنى الى قومه ، فان قريشا منعونى أن ابلغ كلام ربى ؟

رغم هذا كله ، وربما بسبب هذا كله .. استمرت الدعوة الإسلامية ..
تنتشر ببطء وعمق ، وراحت كلمات النبى ، عليه الصلاة والسلام تنعش
ذاكرة العهد .. وتضع الناس فى نفس الموثف الذى كانوا عليه يوم أخذ
الله عليهم عهده وهم ذرات فى ظهر آدم :

« أليست بربكم ؟ قالوا : بلى » [١] ..

ازداد عدد المسلمين .. وأحست قريش الخوف .. ورأت أن تجرب أسلوبا
آخر ، ماذا لولجأت الى المهادنة والمفاوضات .

وأرسلت قريش عتبة بن ربيعة ، وهو رجل يتصف بالعتل والرزانة بين
قومه ، ليفاوض الرسول .

قال عتبة لرسول الله : يا ابن أخى .. انك منا حيث قد علمت من المكان
فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى
أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها .

قال الرسول : تكلم يا عتبة .

قال عتبة : ان كنت انما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون
أكثرنا مالا ، وأن كنت تريد شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ، وان كنت
تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رأيا تراه لا تستطيع رده عن
نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا أموالنا حتى تبرأ .

(١) من الآية ١٧٢ سورة الاعراف مكة .

انتهى عتبة من كلامه . . وانتظر رد النبي .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم .
كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض
أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ،
وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون .
قل : انما انا بشر مثلكم يوحى الى : انما الحكم الله واحد ، فاستقيموا اليه
واستغفروه وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة
هم كافرون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون .
قل : انكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له اندادا ،
ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها
اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي
دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : اتينا طائعين .
ففضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء امرها ، وزينا
السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم . فان اعرضوا
فقل : انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » [١] . .

انتهى الرسول من رده على عتبة ، وهو رد آثر ان يواجهه العروض
والمفريات والمفاوضات بجزء من سورة « فصلت » . . وهي احدى سور
القرآن الذى نزل به الروح الأمين عليه السلام .

نهض عتبة حين وصل الرسول الى قوله تعالى :

« فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » [٢] . .

نهض عتبة فزعا منصرفا الى قريش ، كان صواعق الدنيا فى اثره . . وحين
وصل الى قريش ، اقترح عليهم أن يتركوا محمدا وشأنه . . فشلت المفاوضات
مع أول المسلمين ، صلى الله عليه وسلم .

وكان فشل المفاوضات ايذانا بعودة الايذاء والاضطهاد . . وتفنن المشركون
والمجرمون فى ايذاء المسلمين . وخامر النبي حزن لهذه المأسى التى تقع
لأصحابه . . وحين انتهى المسلمون من دفع الثمن الكامل لعقيدتهم واحتلوا
فى الله أقصى الطاقة أوعز الرسول اليهم بالهجرة . أعطى الأذن بالهجرة
لمن يريد أن يهاجر . وبدأت موجات الهجرة . وكان ذلك لخمس سنوات
من نزول الوحي عليه . . وبعد سنتين من اعلان دعوته . وهاجر الى
الحبشة سنة عشر مسلما . خرجوا فى الخفاء ، وانجهوا صوب البحر ،
وركبوا الموج رغم كراهية أهل الصحراء له وخوفهم منه واعتقادهم ان الناس
حين تركب البحر تتحول الى دود على عود سابح .

وتلت موجة الهجرة الأولى موجة ثانية ، حملت هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا
وتسع عشرة امرأة .

وامتدت يد قريش الى الحبشة تحاول ايذاء المهاجرين . . أرسلوا الى

(١) الآيات من ١ الى ١٣ من سورة فصلت مكية .

(٢) الآية ١٣ سورة فصلت مكية .

النجاشي ملك الحبشة من يثيره ضد المهاجرين ، ويتهمونهم بأنهم فارقوا دين آبائهم في مكة ، ولم يدخلوا دين النجاشي وهو النصرانية . وطالبت قريش برد المهاجرين لتأديبهم ، ولم تنس قريش أن ترسل الى النجاشي هدية . . ترشوه بها .

يبدو أن النجاشي كان رجلا عاقلا ، فأرسل الى المهاجرين يسألهم عن هذه الديانة الجديدة التي ابتدعوها . وحدثه المهاجرون عن الاسلام . سألهم عن عيسى فقالوا :

— هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البنول . وأخذ النجاشي عودا صغيرا من الأرض وقال : لم يزد عيسى على ما قلتم قدر هذا العود . اذهبوا فأنتم آمنون . ورد هدية قريش وهو يقول : ما أخذ الله الرشوة مني حتى أخذها منكم ، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه .

وهكذا اقام المهاجرون من المسلمين في ديار آمنة هي الحبشة . . ديار يحكمها رجل أوتى رشده فأمن بطبيعة المسيح البشرية ، رغم أيمان بطارقة كنيسته بغير ذلك . .

ومن عجائب تدبير القدرة الالهية ، أن هذا النزيف في جسم المجتمع الاسلامي — متمثلا في الهجرة — لم يؤد الى ضعف الاسلام ، وانما زاده قوة فقد عوض الله تبارك وتعالى الدعوة الاسلامية باسلام رجلين عظيمين . . هما : حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم . وعمر بن الخطاب . . الفاروق ورجل الحق . .

ولقد كان الرجلان من ذوى الشخصية القوية في مكة . كان كل واحد منهما سيدا عظيما في قومه . . وشاعت ارادة الله عز وجل أن يؤتى أصلب رجلين في مكة من ينبوع الرحمة الذي كان كامنا فيهما ولا يعلمان .

أسلم حمزة بدافع الغضب والعصبية والرحمة تجاه من لا يدفع عن نفسه الأذى .

قالت احدى النساء لحمزة يوما : لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام (أبو جهل) ، فانه سبه وأذاه ثم انصرف عنه . ومحمد صامت لا يكلمه .

وغلى الدم في عروق حمزة . . وأسرع مشتعلا بالغضب يبحث عن أبي جهل فرآه يجلس بين قومه . فرفع حمزة يده بقوس كان يمسكها وضرب بها رأس أبي جهل وهو يزار : أتشتتم محمدا وأنا على دينه .

تلك كانت بداية اسلام حمزة .

كان حمزة رجلا كريما بحق .

آذى مشاعره أن يضطهد ابن أخيه فلا يرعى الناس له ذمة ، رغم أنه ابن أخيه . . تلك كانت البداية . أو السبب المحرك للاسلام . أما العمق البعيد فكان هذه الرحمة التي أودعها الله في نفس حمزة دون أن يدري حمزة . . وهى رحمة لم تستطع أن تهضم ايداء رجل يدعو الى الله ، مجرد أنه ضعيف وبغير انصار . . فليكن حمزة اذن نصيره .

أما عمر بن الخطاب .. فكان معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة وصلابة
الراي .. وطالما لقي منه المسلمون الأذى حين كان على جاهليته .

وكان من بين من يلقون منه البلاء .. عامر بن ربيعة وزوجته .. وقرر عامر
وزوجته الهجرة الى الحبشة .. وأقبل عمر بن الخطاب يوماً فوجد زوجة عامر
ولم يجد زوجها .. رأها تنهياً للرحيل والهجرة ..

قال [وينبوع الرحمة في نفسه يتحرك] : أنتطلقون يا أم عبد الله ... ؟

قالت المرأة ثائرة : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، فقد آذيتمونا وقهرتمونا
.. ننطلق حتى يجعل الله لنا فرجاً ..

قال عمر : صحبتكم الله ..

ورأت المرأة في وجهه رقة وحزناً .. فلما عاد زوجها حدثته انها طامعة في
اسلام عمر .. قال زوجها : لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ..

قالها من شدة ما كان يجد من عمر ، غير ان احساس المرأة الداخلي ، كان
اقوى من رأى الرجل وحكمه السريع على عمر .. فلم تمض أيام على هجرة
من كان يعذبهم عمر .. حتى أسلم عمر ..

زحزح المهاجرون غطاء بئر الرحمة في نفسه .. ولعل عمر أحس الحيرة
فقرر حسم الأمر وقتل الرسول .. وذهب اليه متوشحاً سيفه .. ويقابله من
يقرا سريره فيسأله الى أين ؟

قال : الى محمد لأقتله فتستريح العرب .. ويقول له الرجل ساخراً :

— ألا تبدأ بأهل بيتك قبل محمد ..

ويسأل عمر ثائراً : أهل بيتي ؟

قال الرجل : أختك وزوجها .. أسلما وأنت لا تعرف ..

ويقتحم عمر بيت شقيقتنه وزوجها ، وعندهما قارىء يقرأ القرآن .. يخبئان
الصحيفة والقارىء فيسأل عمر : ما هذه الهنيئة التي سمعت ؟

وتنكر أخته ، ويتدخل زوجها فيبطش به عمر .. فتنهض المرأة للدفاع عن
زوجها فيضربها عمر فيسيل دمه . ويفجر منظر الدم ينبوع الرحمة داخله ..
انتهى الأمر وسقط غلاف الثمرة الجاف الذي يخفى حقيقتها العظيمة .

ويتوضأ عمر — قسراً — ليسمحا له بقراءة الصحيفة القرآنية ..

ويقرأ عمر ..

لا ينتهي من القراءة حتى يتحسس سيفه ويمضى نحو الرسول .. اختار
عمر الاسلام دون تردد .. وليكن سيفه الذي ذهب به لقتل محمد .. هو
أصلب السيوف دفاعاً عن محمد ..

ويدق الباب على الرسول ومعه أصحابه .. وينظر أحدهم من شق الباب
فيرى عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه .. ويعود الى النبي بالخبر المزعج ..

هذا ابن الخطاب جاء يقصد شراً ..

وينهض الرسول أمرا أن يتركوه له ..

يفتح الرسول الباب ويشد عمر بن الخطاب من سيفه وثيابه سائلا إياه عما يريد .. وماذا جاء به ؟

وأجاب عمر انه جاء يشهد ان لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ..

وكبر الرسول تكبيرة عظيمة ..

ها قد تحققت دعوته : اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين ..

وبدأت قريش تحس الخطر بعد اسلام عمر وحمزة .. ان رؤوس مكة وأعظم رجالها يسلمون .. وقبل اسلام عمر كان المسلمون يطوفون بالكعبة سرا ، وعلى استحياء ، فلما أسلم عمر جاهر باسلامه وتحدى ان يعترضه أحد .. وتناصرت الرقاب تفسح له طريقه للطواف .. وأدركت مكة انها تواجه دعوة لا تلبث أن تقلب الأوضاع فى الجزيرة العربية ..

وأدرك الخوف سادة قريش المشركين ، وتقرر أن تنتقل الحرب مع المسلمين من مرحلة الاستهزاء والاضطهاد ، الى مرحلة جديدة كل الجودة ..

تقرر حصار المسلمين اقتصاديا وانسانيا .

عقد المشركون معاهدة لحصار المسلمين ، وعلقوا المعاهدة فى جوف الكعبة احتراما لنصوصها ، وكان المشركون يوقرون الكعبة رغم أنهم يملأونها بالأصنام التى يعبدونها لتقربهم من الله زلفى ، وكانت نصوص المعاهدة تقضى بالآ بيع أهل مكة للمسلمين أو يبتاعوا منهم شيئا ، والا يزوجهم أو يتزوجوا منهم .

وبهذه المعاهدة القاسية ، تقرر نبذ المسلمين وقتلهم اقتصاديا .

واضطر الرسول ومن آمن معه الى اللجوء لحنى بنى هاشم ، وانحاز اليهم بنو المطلب ، كافرهم ومؤمنهم باستثناء عدو الله أبى جهل ، فقد وقف مع قريش ضد قومه .

وبدأ تضيق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم الطعام والشراب ، حتى بلغ الجهد أقصاه ، كان الصحابة اذا قدمت قافلة الى مكة ، وذهب أحدهم الى السوق ليشتري الطعام لعياله ، قام أبو لهب يقول للبائع ، يا معشر التجار غالبوا على أصحاب محمد حتى لا يبتاعوا منكم شيئا ، وأنا ضامن أن لا خسارة عليكم ، فسوف أبتاع منكم ما يعجزون عن شرائه .

ويغالى التاجر فى السعر أضعافا مضاعفة حتى يرجع المسلم الى عياله وليس فى يده من القوت شيء . ثم يذهب التجار الى أبى لهب فيشتري منهم بالأسعار التى عجز المسلمون عن الشراء بها .

واستمرت الحرب حتى تعب المؤمنون وجاعوا وتعروا ..

كم تظن الوقت الذى استفرقته الحرب الاقتصادية ..

استفرقت هذه الحرب ثلاث سنوات كاملة .. حتى بلغ الأمر بسعد ابن أبى وقاص أنه خرج يوما ليقتضى حاجته ، فسمع قعقعة تحت البول ،

فاذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذها وغسلها ، ثم أحرقتها وفتتها وسفها
بالماء ..

كانت طعامه ثلاثة أيام .

وخلال هذه السنوات الثلاث كان الوحي يتنزل على الرسول متجاهلا
هذا البلاء العنيف .

وكان الله يربى أتباع دينه على احتمال كل الظروف ، ورغم أن ضائقة
المسلمين استمرت ثلاث سنوات ، لم يتوقف نشاط الاسلام ولا خمد توجهه
أو قل انتشاره .

كان المسلمون يلقون غيرهم فى مواسم الحج ، فيحدثونهم عن الله ،
ويدعونهم الى رحمته ومغفرته ، ويزدادون تمسكا بما تضمنه قلوبهم من الحق ..
وشدت هذه الشجاعة والصلابة أنظار عديد من الناس ، فدخلوا فى الاسلام،
وبدا المشركون ينفسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وبدأت
الغيرة على الحق تغزو القلوب . كما لعبت عصبية القرابة بين غير
المسلمين دورها ، فأبطلت قريش الصحيفة ، بعد جدال واختصاص .

وانتهت الحرب الاقتصادية ضد المسلمين باجتيازهم لها ، وصيرورتهم
أقوى مما كانوا . فقد المسلمون وفقد أطفالهم كثيرا من الوزن ، وصاروا
أشباحا تسير فى الطريق ، ولكن عددهم يزيد ، وإيمانهم يزيد ، وثقتهم
بالله تزيد ..

.

بوجاء عام الحزن على الرسول .

لم يكد الرسول يتنفس الصعداء بعد أعوام الحصار الثلاثة ، ويعود
لاستئناف حياته ودعوته .. حتى فوجيء بوفاة زوجته أم المؤمنين خديجة
رضى الله عنها .. ووفاة عمه أبى طالب على ملة الأشياخ من أجداده .

وكان أبو طالب رجلا عظيم الهيبة فى مكة ، وكان ايذاء النبى محدودا
لحماية أبى طالب له ..

أما خديجة فهي واحدة النبى وملاذه ، وهى القلب الرحيم الذى احتضن
تأمله قبل الرسالة ، واحتضن آلامه بعد الرسالة . وكانت له نعم الرفيق
والزوج والصديق والخدم .

وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حزنا عميقا . حتى سبى
المؤرخون هذا العام بعام الحزن .. وفرح المشركون بأحزان الرسول ، سرهم
أنه صار بلا شيخ يدفع عنه ويحميه .. وبلا زوجة تخفف متاعه وتواسيه .
وازداد ايذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم .. واختار المشركون وقتسا
ذبحت فيه ذبائح مكة ، وأحضروا أحشاء جمل ذبيح والقوه على كتفى النبى
وهو ساجد لا يرفع رأسه .

وبلغ الخبر ابنته فاطمة ، فجاءت مسرعة تحمل عن أبيها وتدافع عنه، فى
بيئة ينتظر أن تصدر الحماية فيها من الأب .

وحز في نفس النبي أنه صار الى وضع تدافع فيه عنه ابنته .
وصبر النبي في الله واحتمل .

وفكر يوما أن يتوجه الى الطائف حيث تقطن ثقيف . . لعله قال لنفسه :
إذا كانت القلوب هنا قد تجمدت على الباطل ، فلأذهب الى ثقيف . . لعل
الله يفتح للدعوة ثغرا تنفذ منه .

كان الحصار العام على الدعوة قد اشتد فلم تعد تستطيع أن تخط
خطوة واحدة الى أمام . . وأزعج هذا النبي صلى الله عليه وسلم . وحاول أن
كسر النطاق المضروب حوله فذهب الى الطائف . والمسافة بين مكة والطائف
تزيد عن سبعين كيلو مترا . سارها النبي صلى الله عليه وسلم على قدميه ،
ذهابا وعودة .

لا نعرف أي أفكار عبرت ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
ذاهب يدعو هذه القبيلة الكافرة الى الله . كل ما نعرفه أنه ذهب اليهم يحمل
رحمة الدنيا والآخرة ، فلقوه لقاء الجاهلية ، وأساءوا اليه وكذبوه . ومكث
عشرة أيام يتردد على المنازل والأسواق والطرقات فلا يستمع اليه أحد ،
ولا يؤمن بدعوته أحد ، ويزداد الناس تهجما عليه واستهزاء به .

وجاء اليوم الأخير الذي قرر فيه أن يعود الى مكة ، ووقف النبي في
الطائف ورجا من الناس أن يكتموا سر زيارته لهم حتى لا تزداد شماتة
مكة في الاسلام وعداوتها له ، ورفض أهل الطائف هذا الرجاء الأخير .

ولم يكتفوا بذلك ، وإنما صنعوا به شر ما يصنع الانسان بالانسان . سلطوا
العيال والحمقى والأوغاد والأوباش فوقفوا صفيين يرمونه بالحجارة ويسخرون
منه . وخرج النبي من الطائف والعيال والكبار يضربونه بالحجارة ، وأصيب
عليه الصلاة والسلام في قدميه ، فسالت منها الدماء ، واضطره المطاردون
الى أن يلجأ لبستان يملكه اثنان من أغنياء الطائف . وهناك جلس تحت
ظل كرمة فيه . وكان صاحبا البستان فيه فصرفا الأوباش عنه ، ورق
قلباهما لرأي المطاردي الجريح فأرسلا اليه عنقودا من العنب مع خادم لهما ،
وكان خادمهما نصرانيا يدعى عداس .

وضع الخادم عنقود العنب أمام الرسول ، فمد الرسول يده اليه قائلا :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

قال عداس للنبي : ليس هذا كلام أهل هذه البلدة .

سأل النبي : من أي البلاد أنت .

قال عداس : أنا نصراني من نينوى .

قال النبي : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

قال عداس : ما يدريك ما يونس .

قال النبي : ذلك أخى . كان نبيا وأنا نبي .

أكب عداس على قدمي الرسول ويديه يقبلهما ويكي . .

كان هذا النصرانى المؤمن هو الاضافة الوحيدة التى خرج بها الاسلام من الطائف ، وهى اضافة دفع الرسول ثمنها أسبوعين من وقته وامنه ودمائه التى سالت من حجارة الرعاع .

وعاد الرسول الى مكة . عاد مرفوضا من الطائف ليجسد نفسه مرفوضا فى مكة . رغم ذلك . . مضى القلب العظيم المثقل بالحزن فى دعوته وجهاده . وكلما ازدادت حرب الكراهية والعناد زاد القلب من جهده ورحمته . وجاءت على النبى أوقات بدا فيها الاسلام غريبا ، وبدا فيها النبى وحيدا لا ناصر له . . وفى هذا الوقت بالتحديد . .

حين بدا أن الناس قد تخلوا عن النبى . . تدخلت السماء ووقعت اعظم معجزات النبى صلى الله عليه وسلم . .
وقعت معجزة الاسراء والمعراج . .

وهى معجزة لا علاقة لها بالدعوة الاسلامية . لم تأت تأييدا لهذه الدعوة او اثباتا لها . انما جاءت تأييدا للنبى وحده . . وتثريفا له وحده . . وتكريما له وحده . . وكأنا أراد الحق عز وجل أن يقول للنبى . .
اذا كان اهل الأرض لم يحمدوك . . فان السماء تعرف لك قدرك من الحمد .

واذا كان الناس يرفضون دعوتك ويرفضونك ، فان الله عز وجل يجتبيك ويشرفك ويدعوك اليه ليريك من آياته الكبرى .

تسطع معجزة الاسراء والمعراج . . فى تاريخ الانبياء . . كمعجزة فريدة لا مثل لها فى قصة نبى آخر . .

لقد رأينا فى الانبياء من يسميهم الرحمن احبائه وأخلاه . كابراهيم ورأينا فى الانبياء من يكلمهم الله تعالى بغير واسطة . . كموسى

ورأينا فى الانبياء من يؤيدهم الله تعالى بالروح القدس . . كعيسى

لكننا للمرة الأولى أمام نبى يدعو الله تبارك وتعالى اليه . .

فيصعد مع جبريل بجسده وروحه حتى يقف جبريل عند مكانته ويتقدم نبينا وحده .

وتلك درجة من درجات التكريم التى تتوقف عندها الانقلام عجزا عن التعبير واشفاقا من مجرد المحاولة .

ولقد رأينا فى قصص الانبياء نبيا يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، ويسأله الله ألم يؤمن بعد ؟ ويرد ابراهيم بأنه مؤمن يريد أن يطمئن قلبه .

ولقد رأينا فى قصص الانبياء نبيا يندفع بحب الله فيسأله :

« رب أرني أنظر اليك » [١] ويرد الله على موسى باستحالة الرؤية على البشر

(١) من الآية ١٤٣ سورة الاعراف مكة .

ويفهم الله موسى أن أى كيان مخلوق .. لا يحتمل تجلى الخالق عليه .
 أما محمد بن عبد الله .. فلم يكن يسأل ربه معجزة أو خارقة ، لم
 يكن يسأل الله الرؤية . ولم يكن يبحث عن طمأنينة قلبه .
 كان حبه لله تعالى من نوع يصعب على كبار المحبين وصفارهم على
 السواء فهمه أو ادراك اعماقه .
 ولم يكن حبه هذا من نوع يثير الاسئلة .. تجاوز حبه درجة السؤال
 الى درجة الاسلام والرضا .
 كان كل ما يلقى النبي هو رضا الله تعالى عنه .
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخرج مرفوضا مطرودا
 جريحا من الطائف :
 - ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى .
 انظر الى درجة الحب ، كيف أسلمته الى ذروة التواضع ، فهو يقول :
 ان لم يكن بك غضب على .. كأنه لا يطمع فى الرضا .. حسبه عدم
 الغضب ..
 لقد كان أدب الرسول صلى الله عليه وسلم مع ربه عز وجل هو الأدب
 اللائق بأول المسلمين وأكملهم ..
 ومن حق أول المسلمين وأكملهم أن يؤتى سؤله بغير أن يسأل .. وان
 يكرم بغير أن يتوقع .. وأن يجاب الى ما سألته الأنبياء قبله فلم يجابوا
 اليه ..
 وتلك كانت معجزة الاسراء والمعراج .
 وهى معجزة هدفها تكريم الرسول فى شخصه .
 وهى معجزة تثير دوار العقل والقلب معا ..
 ان كل انبياء الله بلا استثناء . كانوا يؤيدون بمعجزات تقع على
 الأرض .. حتى الأنبياء الذين رفعوا الى السماء كادريس وعيسى جاء رفعهم
 انقاذا لهم من القتل أو الصلب .. وكانت معجزتهم فى الرفع نهاية لنشاطهم
 على الأرض .
 وهذه هى المرة الأولى التى نلتقى فيها بمعجزة مكانها الرئيسى فى
 السماء .. معجزة تتمثل فى نبي يرفع الى السماء بجسده وروحه وهو
 حى .. وهناك يريه الله من آياته الكبرى ، ثم يعود الى الأرض ، حيث يكون
 عرضة لما يتعرض له أهل الأرض من شقاء عام .
 لقد كان محمد بن عبد الله .. هو أول بشر يتجاوز كوكب الأرض
 ويتجاوز الأقطار والشموس والنجوم والمجرات ويصعد .. ولقد شهدنا فى
 عصرنا أول انسان يرتاد الفضاء . وكان الفضاء الذى استطاع البشر بلوغه
 بعد 14 قرنا من نزول الرسالة المحمدية هو الفضاء بين الأرض والقمر ..
 أقرب كوكب الى الأرض .. ومنذ أربعة عشر قرنا ارتاد نبي الاسلام الفضاء
 وتجاوزه عالما بعد عالم .. حتى وصل الى سدرة المنتهى .. وصل الى قمة
 المنتهى ..

وصل الى حيث ينتهى الكون المخلوق .. ويبدا عالم الغيب . ليست الجنة جزءا من عالم الغيب . لقد وصل الى الجنة .. وهى جنة يسميها الله جنة المأوى .. وصل الى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ، ولا يدرك حقيقته الا الله .

ومعجزة الاسراء غير معجزة المعراج .. وان وقعا فى ليلة واحدة .. ووردا بعد ذلك فى سورتين مختلفتين فى القرآن الكريم .

قال تعالى عن معجزة الاسراء فى سورة [الاسراء] :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » . [١]

وقال تعالى عن معجزة المعراج فى سورة [النجم] :

« ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يفتشى السدرة ما يفتشى . مازأغ البصر وما طفى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » [٢] .

في ليلة الاسراء والمعراج ..

طاف النبى عليه الصلاة والسلام حول الكعبة وهو يدعو الله .
كان شاحب الوجه دامع العينين .

لم يكن يطوف ومعه احد . كان يطوف وحده . وراح الكافرون والمشركون يرمونه بنظرات الكراهية وهو يطوف ويدعو .
ونظر الله سبحانه وتعالى الى عبده .

وأصدر الحق تبارك وتعالى أمره الى الروح الأمين جبريل عليه السلام أن يصحب عبده محمدا صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ثم يصعد به فى السماء ليرى من آيات ربه الكبرى .

فى بيت شريف وفقير من بيوت مكة . كان النبى عليه الصلاة والسلام نائما .. وجاء منتصف الليل .. وصدرت الاوامر الصامتة للسكون أن ينشر أجنحته على الصحراء ، وأن يستعين بالسلام العميق ، وبلغ السكون غاية جلاله ، صمتت طيور الليل مدهوشة ، وأرهفت سمعها . وهذأت الوحوش فى الصحراء وارتعش قلبها بالحب ، وراحت مياه زمزم تسيل برفق وبلا صوت . كانت الرياح تطير فى صمت وقد توقفت عن الصفير وراحت هى الأخرى تستمع ، واهتز قلب الأرض بالرحمة وجبريل يلمس الصحراء ويدخل بيت الرسول .

(١) الآية ١ سورة الاسراء مكة .

(٢) الآيات من ١٣ - ١٨ سورة النجم مكة .

وقف جبريل عليه السلام عند رأس النبي ونظر اليه بحب .
أيقظت نظرتة الرسول ففتح عينيه ونهض من فراشه .
قال جبريل للنبي : السلام عليك أيها النبي الكريم .. يريد الله أن نرى
بعض آياته في الكون .

سار جبريل وسار معه النبي .

خرجا من البيت ، وهنا شاهد النبي « البراق » .

مخلوق يشبه الطائر وله أجنحة كأجنحة النسر ، مخلوق صنع من
البرق ولهذا سمي البراق .. والبرق كهرباء .. والكهرباء ضوء .. والضوء
هو أسرع ما نعرف على الأرض من كائنات ، أن شعاع الضوء يقطع في
الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، وأي جسم يسير بسرعة الضوء يتحول الى
ضوء . هذا قانون علمي .

ولقد رجح بعض العلماء أن تكون قوة الضوء وسرعته قد استغللتنا في
الرحلة ، ويطمئن قلبنا لهذا الترجيح ، وإن كان الغموض يشيع في الأسلوب
الذي استخدم في هذه الرحلة . أن القرآن تجاوز وسيلة المواصلات التي
استخدمت في الرحلة الى عمق الرحلة البعيد .. وهو أن يرى الرسول من
آيات ربه الكبرى .. وأن روت السنة المطهرة أن النبي ركب البراق . وهو
دابة تضع طرفها عندنهاية نظرها ، وذلك رمز تعبيرى لسرعتها المهولة .

لن نتوقف عند مركبة الفضاء التي استغللت في الرحلة .. ولن
نسال كيف اخترق النبي عوالم الفضاء دون تدريب سابق ، وكما هو الوقت
الذي استغرقه في الذهاب والعودة ، ولن نسال عن سرعة البراق ..
ولن نعجب من هذا الغزو للفضاء وتجاوزه .. لن نسال عن هذا كله لأن
لدينا اجابة واحدة كافية .

لقد شاء الله تبارك وتعالى أن يقع ذلك .

قال لهذا كله : « كُن » ، فكان .

اختلف العلماء هل كان الاسراء والمعراج بالروح وحده ، أم بالروح
والجسد معا .

واهل الحقيقة على انه كان بالروح والجسد . ولقد أوقع في الخلاف
اختلاف العقول ، والوقوع في مصيدة « كيف » .. والتساؤل عن قدرة
الله .. ومحاولة اخضاع هذه القدرة لأسبابنا المعتادة أو قوائيننا الحاكمة
أو منطقتنا البشرية ..

سبحانه وتعالى عن ذلك .

يسأل الناس كيف صعد الرسول بالروح والجسد الى قمة القمم في
السماء ثم عاد دون أن يبرد فراشه .. أي معجزة هنا تزيد على معجزة
تحول النطفة الى انسان . أو معجزة تحول البذرة الى شجرة .. أو معجزة
احياء الماء للأرض أو ربه للعطش . أو معجزة الحب الذي يربط بين قلبين
دون سلة . معرفة .

انحنى البراق للنبي فركبه النبي ومعه جبريل ، وانطلق البراق كسهم
من الضوء فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجها الى الشمال .

اشار جبريل الى جبل سيناء فتوقف البراق ..

قال جبريل :

— في هذه البتعة المباركة كلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام .
وعاد البراق ينطلق حتى وصل الى بيت المقدس .

هبط النبي من هذه الطائرة التي تسير أسرع من الضوء ملايين المرات
ولا تتحول الى ضوء .

سار النبي مع جبريل ودخل بيت المقدس .

دخل المسجد فوجد كل أنبياء الله ينتظرونه هناك . بعث الله صبور
أنبيائه من الموت وجمعهم في المسجد الأقصى .

قدم اليه الملائكة اثناء فيه لبن واناء فيه خمر فاختر اللبن وشرب .

قيل له : اخترت الفطرة وسوف تختار أمك الفطرة .

التف الأنبياء حول الرسول وحن وقت الصلاة .. تساءل الأنبياء
بينهم وبين أنفسهم : أيهم يكون اماما لهم في الصلاة .. هل هو آدم أم نوح
أم ابراهيم أم موسى أم عيسى ؟ ..

وقال جبريل عليه السلام لمحمد : ان الله يأمرك أن تصلى بالانبياء .

ووقف الرسول ، وصلى بالانبياء .. كانوا جميعا مسلمين ، وكان هو أول
المسلمين ..

من المنطقي ان يكون اماما للأنبياء .. مثلما جاء كتابه مهيمنا على ما سبقه
من كتب ..

قرأ لهم القرآن ، وبكى وهو يقرؤه ، وأبكى خشوعه الأنبياء ، وحين سجد
الأنبياء وراء امامهم ، سجدت الأشجار والنجوم ..

انتهت الصلاة فاختمت الأنبياء .. عاد كل نبي الى السماء التي يعيش فيها
.. خرج النبي من المسجد مع جبريل فركبا البراق ..

مثل سهم من الضوء ارتفع البراق الى أعلى .. ثم الى أعلى ..

مر على السماء الأولى ، فشاهد النبي آدم ..

ونادى رب العالمين :

— ليرتفع عبيدي أكثر ..

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله ..

تجاوز السماوات سماء سماء ..

تجاوزها مكانا ماديا ، وتجاوزها مكانة روحية .. كان يتنهاى ليقف في
الحضرة الالهية ، وكان يرتفع ويترقى روحيا في سرعة تقل عنها سرعة البرق .

تجاوز مكانة آدم عليه السلام الروحية في السماء الأولى .. وتجاوز مكانة يحيى وعيسى ، عليهما السلام ، في السماء الثانية ، ونادى رب العزة :

— ليرتفع عبدى أكثر ..

وارتفع عبد الله ونبيه أكثر وأكثر .. تجاوز السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، وتجاوز الكون كله مادة وروحا وجوهرا وحقيقة وواقعا وحكما وراح يرتفع ..

أخيرا وصل الى سدرة المنتهى ..

وصل الى المكان المقدس الذى يسميه الله تعالى سدرة المنتهى .. وهناك شاهد النبى جنة المأوى ..

وشاهد ما لا نعرف ولا نفهم ولا نتصور ..

— « اذ يفشى السدرة ما يفشى » [١] ..

لقد وقع لهذا المكان ما وقع له ..

بهذا الجلال الغامض الموحى ، يخبرنا الله عز وجل أن أمورا قد وقعت .. وأن كان يخفى عنا كنه ما حدث ..

هذا الذى اخفاه الله علينا .. شاهده الرسول بنفسه .. هو معجزة خاصة به .. هو درجة من درجات الحب لا يكشف الستار عنها ، لارتفاعها عن مستوى الإدراك البشرى ..

ونادى رب الجنة والنار :

— ليرتفع عبدى أكثر ..

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — أكثر .. نظر الى جبريل من خلفه فوجده يقف في مكانه مسبحا الله .. لم يكن جبريل الآن على صورته البشرية التى شاهده النبى عليها في الأرض .. عاد الروح الأمين ، عليه السلام ، الى صورته الملائكية التى خلقه الله عليها .. وحقق النبى فى جبريل عليه السلام .. وهو آية الله الكبرى التى وعد الحق أن يريه اياها ..

« ما زاغ البصر وما طغى » [٢] ..

كانت الرؤية بالقلب والعين والحواس المعروفة وغير المعروفة .. كانت رؤية واضحة .. ليس هناك حلم .. ولا استجماع ذهنى لوحدة الوجود .. ولا فترة تألق نفسانى فذ .. ولا تخيل ولا تصور .. ولا جهد ولا قصد ..

لا شئ من هذا كله ، لأن الأمر أبعد وأخطر من هذا كله ..

لقد رأى الرسول بجسده وروحه ..

(١) الآية ١٦ سورة النجم مكية .

(٢) الآية ١٧ سورة النجم مكية .

« ما زاغ البصر وما طغى » [١] ..

وعاد النبي يرتفع أكثر .. وأكثر ..

راح يصعد حتى وقف بين يدي جبار السماوات والأرض ورحمن الدنيا
ورحيم الآخرة ..

.....

سجد أول المسلمين لرب الكون وهو يقول :

— التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله ..

قال الحق عز وجل :

— السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ..

سبحت الملائكة بقولها :

— السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ..

هذه العبارات هي بداية « التحيات » التي يرددها المسلمون في صلاتهم كل
يوم .. ولقد فرضت الصلاة على المسلمين في هذا الموقف العظيم .. فرضت
في لحظة ترقى النبي وصعوده في السماء صعوداً إلى الله بالروح ،
خمس مرات في اليوم ..

ومن الشهير عند عامة المسلمين ان الله فرض على النبي خمسين صلاة في
اليوم ، فنزل النبي فلقى موسى فسأله عن عدد الصلوات التي فرضها الله على
أمته ، فحدثه انها خمسون ، فقال موسى : ان أمك لن تطيق فارجع الى ربك
فاسأله أن يخفف عنهم .. وعاد النبي الى ربه فخفف عن أمته عشر صلوات ،
وعاد النبي الى موسى ، فعاد يحذره ، فعاد الى الله حتى انتهى الأمر بالصلوات
الخمسين الى خمس صلوات .. وللخمس ثواب خمسين ..

وليس لهذه القصة سند في كتابات العلماء المدققين ..

ونعتقد — اعتماداً على الحدس الداخلي — ان القصة السابقة من اختراع
اليهود الذين أسلموا وملأوا الكتب حكايات خرافية نسبوها الى الرسول ..
يؤيد هذا الظن ، اختيار موسى ليكون هو النبي الذي يقترح التخفيف عن أمة
محمد ، ويكون هو النبي الذي أدرك ما لم يدركه محمد ..

ويدعوننا لرفض القصة .. يتبين بأن لقاء الحق عز وجل أو الوقوف بين يديه
سبحانه له من الجلال والمهابة ما يمنع النبي اذا انصرف ان يعود ..

ويقوى ظننا في نسبة القصة الى اليهود .. انها تحمل نفسية أحفاد اليهود
الذين أمرهم موسى بذبح بقرة ، فأحوا يعذبونه بكثرة الأسئلة ، وكثرة دعائه
لربه وسؤاله اياه ولجوئه اليه ..

ان البناء الداخلي لقصة بقرة اليهود ومخاوضاتهم مع موسى ، يتفق مع البناء

(١) الآية ١٧ سورة النجم مكية .

الداخلى لقصة الخمسين صلاة التى تحولت الى خمس صلوات .. مما يوحى
أن مؤلف القصة الأخيرة من أحفاد المفاوضين ذوى اللجاجة القديمة ..

القصة لدينا مستبعدة اذن ..

ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبى فى رحلته مستبعد هو الآخر ..
كان الموقف مزيجاً من الجلال والمهابة والرحمة .. شاهد النبى ورأى أشياء
يعجز اللسان عن التعبير عنها ، وتفوق كل ما يحيط به فهم الانسان
وإدراكه ..

ولقد تجاوز السياق القرآنى عامداً ما رآه النبى — لأنه سر بين النبى وربه ،
ومعجزة خاصة بالنبى وتكريم لشخصه وحده — تجاوز السياق هذا ليؤكد أنه
رأى من آيات ربه الكبرى ..

ونحن لانعرف ماذا رأى النبى .. كل ما نستطيعه أن نتصور أن النبى سجد
خشوعاً لربه وبكى من الفرح .. ذهبت أحزان قلبه الى الأبد ، وسكنه عصفور
الفرح الأزلى ..

بعد أن رأى النبى السر ..

بعد هذا التشريف والتعظيم ، عاد النبى الى البراق وركبه وانطلق به جبريل
عليه السلام عائداً الى الأرض ..

عاد فوجد فرائشه لم يبرد بعد .. كيف ذهب وجاء وفرائشه لم يبرد بعد
.. كم من الوقت استغرقت هذه الرحلة .. الله وحده هو العليم .. كل
ما نعرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد الى فرائشه بعد الإسراء
والمعراج ..

قلبه هو الفرح ..

وضدرة يمتلىء بسكينة راضية وفناء فى الله مستطاب ..

.....

وجاء الصباح عليه ..

حدث النبى عن رحلته فأمن به من آمن ، وكذبه من كذبه فلم يعبأ ..

عاود النبى كفاحه الصابر لنشر دعوة الله فى الأرض ..

وجاء عليه وقت أدرك فيه ان الدعوة الاسلامية قد حوصرت فى مكة ..

وبدا الموقف متجمداً لغير صالح المسلمين ..

وتحرك الرسول بدعوته خطوة ..

أوحى الله اليه أن يهاجر ..

انتهى الأمر وبدأت رحلة المهاجر الى الله ..

بعد ثلاثة عشر عاماً فى مكة ...

يريد الاسلام أن يبنى دولته ويتحول من الحصار والدفاع إلى كسر الحصار والهجوم ..

وليس كالهجوم وسيلة للدفاع عن النفس والعقائد ..

في البداية وقع تحول صغير في موقف المسلمين ..

انكسر الحصار حولهم حين وفدت قبائل من المدينة ودعاها الرسول إلى الاسلام فأجابت ، وكان عرب المدينة يجاورون اليهود ويسمعون منهم عن نبى تبشر به صحف التوراة ..

وخرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في موسم الحج ليعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم ..

كان عند العقبة .. فلقى جماعة من الخزرج ..

قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج ..

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم ..

قال : أفلا تجلسون ألكمكم ؟

قالوا : نعم ..

جلسوا معه فدعاهم إلى الله . وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ..

استمع إليه الرجال الستة صامتين ، فلما انتهى صدقوه وآمنوا به وقبلوا ما عرضه من الاسلام عليهم ، وحدثوه بأنهم تركوا قومهم يخوضون رمال الكراهية والحرب ، فعسى الله أن يجمعهم بهذا الرسول الكريم .. أخبروه أنهم سيحدثون قومهم عنه ، ويدعونهم إلى ما دعاهم إليه ..

وانصرف الرجال الستة عائدين إلى المدينة التي صار من حقها أن تسمى المدينة المنورة .. كان اسمها يثرب في الجاهلية ، ثم تغير اسمها إلى المدينة المنورة ..

شاء الله أن ينورها بالاسلام ، وانطلقت الشرارة من مكة المحاصرة ، إلى المدينة المنورة ، الطيبة الودود .. ولم يكد الرجال الستة يعودون إلى المدينة وهم يحملون الاسلام في قلوبهم ، حتى دخل الاسلام أكثر من بيت ، واستدار العام ، وأقبل موسم الحج ، وخرج من المدينة اثنا عشر رجلاً ، من الذين أسلموا — فيهم الستة الذين كلمهم الرسول في الموسم السابق — ولقيهم النبى بالعقبة .. وعقد معهم بيعته على الايمان بالله وحده ، والدفاع عن دعوة الحق وانسانية الانسان .. وعاد الرجال إلى المدينة ومعهم أحد الثقات الأكفاء من رجال الاسلام .. وهو مصعب بن عمير ، ليكون رسول رسول الله في المدينة يفقه الناس في دينهم ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويدعوهم إلى الحق .. وانتشر الاسلام في المدينة . وبدأ أهل المدينة يتساءلون :

لماذا يستضعف اخواننا المسلمون في مكة ؟ .. ولماذا يخرج الرسول ليدعو الى الرحمة فلا يتلقى غير الكراهية ؟ .. وحتى متى نترك رسول الله مضطهدا ، مطاردا في جبال مكة ؟ .. واى خير فينا اذا لم نصنع من جلدنا طريقا يمشى فوقه هنا في المدينة ؟ ..

وهكذا رحل سبعون رجلا الى مكة ..
سبعون رجلا من أهل المدينة المنورة ..

تسللوا الى العقبة فرادى وجماعات .. أثمر الاسلام ثمرته الاولى فى قلوبهم ، فامتألت حبا لله ورسوله والمسلمين .. وصار ألم المسلمين يعينهم على ثنائى الأمصار والديار ، ويؤثر فى نفوسهم ويحرمهم نعمة النوم ، ومذاق اللثمة ، ومعنى الحياة ..

جاء هؤلاء الأبرار يبأيعون الرسول على الدفاع عنه ونصرته وحمايته والموت فى سبيله ..

جاءوا بعد ان غزا الاسلام قلوبهم ، لا يريدون ان يأخذوا ..
جاءوا يعطون بلا حدود .. ويقدمون بلا تحفظ . ويمنحون كل شىء للدعوة الجديدة ..

جاءوا عاشقين .. والأصل فى العاشق أن يعطى متصورا انه يأخذ ..
تروى كتب السنة المطهرة ما وقع فى بيعة العقبة الكبرى ، فتقول ان العباس ابن عبد المطلب جاء مع النبى ، وهو يومئذ على دين قومه .. أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له .. فلما جلس وتكلم قال كلمة تفيد ان محمدا فى عزة من قومه ومنعة فى بلده ، لكنه يأبى الا ان ينحاز لكم ويلحق بكم يا أهل المدينة ، فاذا كنتم ستوفون بعهدة وتحمونه فخذوه ، وان خشيتم أن تخذلوه وتسلموه فمن الآن اتركوه فى بلده .

كانت كلمة العباس بن عبد المطلب كلمة تنبعث من منابع العصبية القبلية وروابط الدم الأسرية .. وتجاوز أهل المدينة كلمة العباس ، فهو أيس على دينهم ، ولا يستطيع أن يدرك المدى الذى وصلوا اليه فى حب الرسول .

انتظر العباس بن عبد المطلب جواب أهل المدينة فقالوا له : قد سمعنا ما قلت .. فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك وربك ما أحببت ..

نريد ان نتوقف عند جواب هذه الطليعة المؤمنة من أهل المدينة .. ليتكلم رسول الله .. ان الجواب الذى يبحث عنه العباس بن عبد المطلب كامن فى كلام النبى .. انتهى الأمر ولم يعد لهم بعد كلام رسول الله كلام ..

يكفى ان يتكلم هو .. ليطيعوا هم .. ها هم أولاء يسألونه أن يأخذ لنفسه ورية ما أحب أن يأخذ .. لم يعد لهم فى أنفسهم ملك ولا تحكم ..

وتكلم النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ودعا الى الله وتحدث عن الاسلام وبأيعهم على ان يمنعوهم مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم قبايعوه ..
هكذا تمت بيعة العقبة الكبرى ..

ولقد ادرك هؤلاء المختارون من الله ، انهم سيدعون الى سيوفهم قريبا ،

وسيدعون الى الموت تحت ظلال السيوف .. وطمانوا الرسول الى انه سيجدهم أبناء الحروب ورثوها كابرا عن كابر ..

وأثار أحد السبعين مسألة هامة .. قال ابو الهيثم : ان بين عرب المدينة واليهود حبالا ، وانهم لقاطعوها ، فما هو الموقف ان فعلوا ذلك وخاصموا اليهود ، ثم نصر الله النبي ، وأظهره على قومه ، فعاد اليهم وتركهم تحت رحمة اليهود ..

لاحظ ان السؤال يلف ويطوف حبا حول النبي .. ورغبة فى بقائه معهم على امتداد الأيام والشهور ..

ان القضية التى طالب العباس بن عبد المطلب بايضاحها ، وهى قضية حمايتهم للنبي ، ليست واردة فى نقاش المختارين من اهل المدينة .. القضية التى يحرصون عليها هى قضية حماية النبي لهم هم ، هى بقاؤه معهم بالمدينة ..

تبسم النبي وقال كلمته التى تضع أواصر العقيدة فوق أواصر الدم .. قال : بل الدم الدم والهدم الهدم .. انا منكم وانتم منى .. أحارب من حاربتكم وأسالم من سالتم

انصرف أهل المدينة عائدين الى بلادهم ، وتسربت أنباء هذه البيعة الى رؤساء مكة ومشركيها ، فزادوا من ضغطهم على رسول الله والمسالمين .. واجتمع جبابرة مكة فى دار الندوة ، وقرروا اتخاذ قرار حاسم بشأن النبي ، اقترح أحدهم ان يقيد فى الحديد ، ويلقى فى السجن حتى يموت جوعا . واقترح أحدهم ان ينفى من مكة ويطرد منها وتنفض قريش يدها منه .

واقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل عائلة من عائلات قريش شابا قويا ، ثم يعطوا كل واحد فيهم سيفا باترا ، ثم يضربوه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ، وعجزت بنو هاشم عن قتال العرب جميعا .. وقبلت فيه الدية ..

أحكمت أطراف المؤامرة ، واتفق على موعد التنفيذ ، وكشف القرآن الكريم تدبير الذين كفروا فى قوله تعالى :

« **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين** » [١] ..

أوحى الله الى نبيه أن يهاجر .. وأخذ النبي بأسباب النجاح كلها فى البداية .. كتم أمره فلم يحدث به حتى صاحبه الذى علم أنه سيرافقه .. واستأجر عليه الصلاة والسلام دليلا خبيرا يعرف الصحراء مثلما يعرف خطوط كفه .. ومن المدهش ان هذا الدليل كان مشركا .. وهكذا استعان النبي بأهل الكفاية دون نظر الى عقائدهم أو اهتماماتهم ..

وجاءت ليلة تنفيذ الجريمة .. وأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم [على ابن أبى طالب] ان ينام فى فراشه هذه الليلة ، وجاء منتصف الليل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته .

(١) الآية ٣٠ من سورة الانفال مدنية .

كان فتيان مكة يحاصرون البيت ، وقد توشحوا سيوفهم .. وأمسك النبي
قبضة من التراب ورماها على القوم فنعسوا ، واخترق النبي حصارهم ..
خرج من مكة مهاجرا ..

بهذه الخطوة المباركة يؤرخ المسلمون أعوامهم .. السنة فى الاسلام سنة
هجرية ..

يؤرخ لعيسى بمولده .. وهذه هى السنة الميلادية ، أما أعوام الاسلام
فيؤرخ لها بأول خروج فى سبيل الله ..

وأول خروج من مركز الضعف والحصار والاضطهاد .. الى مركز القوة
والانتشار والهجوم .. لم تكن هجرة الرسول فرارا من الاضطهاد فحسب ،
وانما كانت سائما من التجهد .. لم تكن الهجرة خروجا الى الأمن ، وانما كانت
خروجاً الى الخطر ، كان الاسلام فى مكة يدافع عن نفسه بمجرد الدفاع ،
وحين خرج الى المدينة دافع عن نفسه بالهجوم ..

وطوال الأعوام التى قضها النبي فى مكة ، لم يحمل أحد المسلمين سلاحا
فى سبيل الله ..

وحين خرجوا الى المدينة بدأ حمل السلاح ، وبدأ مد المارك ، وبدأ الاسلام
يحمل التسيف مثلما يحمل الجراح مشرطة للشفاء والصحة ..

أدرك النبي أن الاسلام لن يقضى عمره فى صد الهجوم عن نفسه ..
يريد الاسلام أن ينتشر ..

يريد الاسلام أن يؤسس دولته الأولى .. وهى دولة لا نعرف دولة غيرها
من دول الأرض بلغت ما بلغت من عدالة ورحمة وواقعية ومثالية وتفان فى الله
واحترام للانسان ..

هذا هو عمق الهجرة البعيد ..

تأسيس دولة الاسلام .. بعد بناء الفرد يبنى المسجد ثم تبني الدولة ..
بعدها تنطلق الدعوة ..

لا نحسب القارىء سيسأل : فما بال بناء المساجد يزيد ، وينحسر الاسلام
من الأرض ويضطهد .. نحسب القارىء أذكى من أن يجهل أن المسجد الذى
خرج الرسول لبنائه فى المدينة لم يكن استراحة من مغارم الحياة ، وانما كان
مركزاً لقيادة معارك الاسلام ، معركة بعد معركة .. كان الناس يفتسلون
فى المساجد بنور الله ، بعدها يفتسلون فى المارك بدمائهم ..

كان السؤال : أيهم يقتل فى سبيل الله قبل أخيه ؟

وكان السباق بينهم على ذلك ..

بهذا انتشر الاسلام ..

.....

لجأ النبي الى كهف فى جبل اسمه ثور ..

دخل الكهف مع صاحبه أبى بكر .. وانطلق المشركون بالسيوف ، وقد
أهاجمهم افلات الصيد .. فوصلوا الى الجبل .. وقال أبو بكر لصاحبه
متزججا :

— لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ..

رد الرسول مطمئنا : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ..

قبل أن ينتهى النبى صلى الله عليه وسلم من كلمته ، كانت العنكبوت قد
انتهت من نسج بيتها على باب الغار .. تروى كتب السيرة ان المشركين افتنوا
الأثر حتى اذا بلغوا جبل ثور ، اختلط عليهم الأمر ، فصعدوا الجبل فمروا
بالغار ، فأروا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن
نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال .. وانتصر ايمان نسيج
العنكبوت اللين ، على حديد السيوف المصقولة المشركة ، ونجا النبى
وصاحبه ..

وحين اطمان المهاجران الى الله ، الى ان البحث عنهما قد فتر .. خرجا الى
المدينة ..

وخرجت المدينة اليهما .. وحين دخل الرسول وصاحبه المدينة ، لم يعرف
الناس بادىء ذى بدء أيهما الرسول وأيهما صاحبه .. من فرط تواضع
الرسول ، ومعاملته لصاحبه بأخوة الاسلام ..

أخيرا نور النبى المدينة ..

بنى مسجده ، وأسس دولته ، وحارب أعداءه ، ونشر الاسلام ، وفتح مكة ،
وطهر البيت الحرام ، وألقى فى العقول والقلوب نورا لا ينطفىء ..

مرت عليه عشر سنوات لم يسترح فيها يوما فى المدينة ..

ومرت عليه قبلها ثلاثة عشر عاما فى مكة لم يسترح فيها يوما ..

.....
.....

ان الأثقال الهائلة التى احتملها ظهره الشريف كانت أقوى من احتمال
الجبال ، وهو رجل واحد ، لكنه حمل أمانة عرضها الله تعالى فى بدء الخلق
على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .

وجاء هو واحتملها كاملة وأداها كاملة ..

أمانة التبليغ عن الله ، وأمانة تنقية العقل البشرى من الأوهام والخرافة ،
وأمانة السجود لله وحده ..

وانساب فى ذاكرة النبى تيار من الصور الحية وهو يدخل المدينة ..

مر أمام العقل موكب الذكريات ..

ها هو ذا الوحي يتنزل عليه بالرسالة فى غار حراء .. أى خوف مشفق
وسلام عميق أحسها على التعاقب ؟ .. ثم تغير المنظر وهبت زوبعة من
الكرامية ، وحملت أيدى الرياح رمالا وشائعات واتهامات وألقنتها فى وجهه ..

وقف يبتسم بشفتيه وقلبه حزين وسط أمواج الصحراء والوحدة وعواصف
الشقاء ..

— أيها الناس .. لا اله الا الله وحده ..

قال كلمته ..

رغم بساطة الكلمة ، فقد أثارت عليه الدنيا .. تحركت الأصنام العديدة
التي تملأ الحياة ، وسلحت نفسها بالظلام والحقد وسارت نحوه ..

الرياسات والحكام والنقود والذهب والأوضاع السائدة واحتقاد الشيطان
القديمة وتعدد المنافقين .. صار هذا كله عدوا للنبي في اللحظة التي قال
فيها لا اله الا الله وحده ..

وتذكر ورقة بن نوفل حين حدثه عما وقع له في غار حراء .. ألم يقل له
ورقة : ان قومك سيخرجونك ..

انسابت أيام الهجرة الطويلة الشاقة .. يوما وراء يوم .. كانت الشمس
قريبة من الرؤوس ، والحر تقاتلا ، والصداع عظيما ..

ها هو ذا يدخل المدينة بعد الهجرة .. استقبله الأنصار اكرم استقبال ..
جاءهم وحيدا فنصروه .. خائفا فأمنوه .. جائعا فأطعموه .. مطاردا
فالتفوا حوله ..

وبدأ بناء الاسلام في المدينة ..

بدأ بناء دولته بعد ان تم بناء انسان هذه الدولة ..

الانسان أولا وبعد ذلك الدولة ..

لا قيمة لنظام يعتمد على المبادئ العظيمة التي لا تزيد عن كونها حبرا على
ورق .. ان تطبيق المبادئ هو المعيار النهائي لقيمة أى نظام ، ولقد نبع من
تطبيق الاسلام في أيامه الأولى نظام لن تعرف البشرية له مثيلا في العدل
والإخاء والرحمة وليس ذنب الاسلام انه انقلب على أيدي الخلف الى
رسوم وأشكال زخرفية .. هذا ذنب الخلف وليس ذنب الاسلام ..

كان أول شيء فعله الرسول ان بنى مسجده حيث بركت ناقته ..

جاء المسجد بسيطا غاية البساطة .. فراشه الرمال والحصباء ، وسقفه
الجريد وأعمدته جذوع النخل ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وربما
هبّت الرياح فنزعت جزءا من سقفه .. وقد ثقلت القطط والكلاب اليه فتغدو
وتروح فيه ..

في هذا البناء المتواضع ، ربي الرسول رجالا أدبوا الطفافة وكسروا الجبابرة
وأعادوا الحقيقة لعرشها المهجور ، ونشروا الاسلام في الأرض ..

كان المسجد صغيرا فقيرا ، يمتلىء بالعمالقة .. ولم يكن شامخا مزخرفا
يمتلىء بالأقزام .. كان القرآن يتلى في المسجد ، فيعتبر من يستمعون اليه
أنهم يتلقون أوامر يومية للتطبيق والتنفيذ ، ولم يكن القرآن يتلى في المسجد
غناء وتطريبا فيتصايح الجالسون اعجابا بأداء المغنى وصوت القارئ ..

والمسجد فى الاسلام ليس هو المكان الوحيد للعبادة .. الأرض عند المسلمين كلها مسجد .. انما هو رمز لحضارة تؤمن بالله واليوم الآخر ، كما تؤمن بالعلم والحرية والأخوة ..

ولقد تحدث الأنبياء جميعا عن الاخاء ، ودعوا اليه بالآلاف الكلمات .. أما رسول الله ، فقد حقق الاخاء عمليا ، حين صار طبع الناس هو القرآن ..

نزل المهاجرون على الأنصار .. ووقف الأنصار أنبل موقف يمكن للإنسان أن يقفه .. المغيت أخوة الدم ، وأرسيت أخوة العتيدة ..

وراح النبى يؤاخى بين المهاجرين والأنصار ..

كان نصيب الأنصارى سعد بن الربيع ، أحد أغنياء المدينة ، ان يحظى بأخوة عبد الرحمن بن عوف المهاجر .. قال سعد لعبد الرحمن :

— أنا أكثر الأنصار مالا ، وقد قسمت مالى نصفين لك أحدهما .. ولى امرأتان فانظر أيتها تعجبك كى أطلقها فتنزوجها ..

ويرد عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك .. اين سوقكم ؟

ويخرج عبد الرحمن الى السوق ليعمل ، يعود بما يطعم به نفسه ، يرفض سماحة سعد وكرمه ، ويعتمد على ايمانه بالله وساعده وجهده .. ولا تهر أيام الا وهو رجل يكسب ما يستطيع الزواج به .. ويقدم لزوجته نواة من ذهب .

يوما بعد يوم ..

راح المجتمع الإسلامى بينى قواعده على قيم العمل والحب والحرية والشورى والجهاد ..

ليس العمل فى الاسلام شقاء من أجل رغيف الخبز أو قطعة اللحم كما تقول حضارتنا المعاصرة .. انما يتجاوز العمل فى الاسلام هذا الإطار المادى ، مستهدفا ذروة أخرى ..

« **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » [١] ..

ان الاحساس بأن ما نعمله سيعرض على الله ، يجعل للعمل مذاقا آخر .. مذاقا يتجاوز طعم الخبز واللحم .. بعد العمل .. يجىء الحب ..

والحب فى الاسلام ليس احساسا يستقر فى القلب ، ولا يصدق العمل .. الحب فى الاسلام خطوة يومية تغير شكل الحياة حول الناس نحو الأرقى والأكرم ..

يحب المسلم خالقه رب العالمين سبحانه ، ويحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويحب المسلمين ومن سالمهم ، وان اختلفت عقائدهم معه ، ويحب الوجود والكائنات جميعا .. يحب الأطفال والحيوانات والزهور والرمال والجبال .. حتى الجمادات يشيع فى قلب المسلم نحوها احساس بالحب ..

يرث المسلم اذا أسلم حقا ، احساس داود بالكون والكائنات ، هذا الاحساس الصوفى العميق ، ويرث المسلم ، اذا أسلم حقا ، احساس عيسى

(١) من الآية ١٠٥ من سورة التوبة مدنية .

بالجوانب الطيبة من الحياة ، فينظر الى جسد كلب مات ، فلا يرى غير بياض أسنانه ..

هذا الحب الذى يشيع فى حياة المسلمين ويتجاوز الناس الى الحيوان والجماد .. هذا الحب لا يتحقق بقرار ، ولا يصدر به قانون ، انما يجيء عادة من اقتناع العقل والقلب بقيادة عظيمة تهوى اليها الأئمة ، وتقتبس من نورها المعقول .. ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم هو هذه القيادة العظيمة .. كان نموذجا ومثالا أعلى وذروة ..

كان أكثر الناس عملا للاسلام ، وأقلهم جزاء منه واستفادة .. كان قائدا يعيش فى تواضع أبسط الجنود ، فرائسه نظيف ولكنه خشن ، وبينه لا توقد فيه نيران الطهى الا أياما قليلة معدودة كل شهر .. وطعامه الأساسى هو الخبز الجاف بالزيت .. وهمه الأكبر ان ينتشر هدى الاسلام ..

وأدرك المسلمون ان كمال الاسلام لا يتحقق الا اذا صار حب الله ورسوله مقدما على حب الذات والمرأة والمال والولد والمصلحة والسلطان والحياة والآخريين وكل شئ .. وأحب المسلمون قائدهم أكثر مما أحبوا حياتهم ذاتها .. والى جوار العمل والحب ، أقيمت دولة الاسلام على قواعد الحرية والشورى والجهاد ..

ليست الحرية فى الاسلام حلية تضاف الى جسم الاسلام ، انما هى نسيج الخلايا الحى ذاته .. لقد حرر الله المسلمين من عبادة غيره .. واذن تسقط كل القيود على العقل والقلب والمجتمع .. والمسلم يملك فى الاسلام حرية تتيح له ان ينظر فى كل شئ بعقله ، وان يناقش كل شئ بعقله ، وان يقتنع بما يطمئن به وجدانه ، وليست الحرية فى الاسلام حرية مطلقة تصل الى مشارف الفوضى .. انما هى حرية مسؤولة ..

فى نطاق النصوص القاطعة التى وردت فى القرآن أو السنة .. لا حرية أمام المسلم غير حرية السباق حبا نحو التطبيق .. وفيما عدا ذلك ، فالمسلم حر الى ما لا نهاية ، وباب الاجتهاد مفتوح الى ما لا نهاية ، لأن باب الاجتهاد هو العقل .. وقفل باب الاجتهاد يعنى قفل المعقول واغلاقها وموتها فى النهاية ..

ولا يقبل الاسلام رجالا ماتت عقولهم أو تحجرت أو تخلفت .. الاسلام أصلا تعامل مباشر مع العقل والقلب ..

أقيمت دولة الاسلام على الشورى .. قال عز وجل :

« **وشاورهم فى الأمر** » [١] ..

والشورى هى الديمقراطية باصطلاحها السياسى الحديث ، ولم يبين الاسلام شكل هذه الديمقراطية أو نوعها أو درجاتها ، ترك هذا كله لعقول المسلمين واعتبارات الزمان والمكان .. نزل الدستور الأساسى وهو القرآن بالشورى ..

(١) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران مدنية .

والشورى هي تمثيل الأمة وحكمها لنفسها فى كل منطقة .. باستثناء منطقة النصوص الحاكمة التى نزل بها الوحي أو حدث عنها الرسول .. هذه المنطقة يحكم فيها الله وحده .. وما عداها يحكمها الناس فهم أعرف بشئون دنياهم ومصالحهم واعتبارات الزمان ..

ومع قيمة العمل والحب والحرية والشورى .. تجيء قيمة الجهاد تتويجا لهذا كله ..

والجهاد فى الاسلام نوعان : جهاد أكبر .. وهو جهاد النفس لنوازعها ورغباتها وشهواتها ..

وجهاد أصغر .. وهو جهاد العدو ، والاعداد له ، والتفوق عليه ، والأخذ بالاسباب ..

وتحكم النصوص الالهية الجهاديين معا بأن يكونا فى سبيل الله عز وجل ..

ولقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر ثلاثة عشر عاما فى مكة .. وحين انتهى من صنع المسلمين على عينه ، صلى الله عليه وسلم .. بدأ جهاده الأصغر .. ولقد كان جهاده الأصغر سلسلة من المعارك الدامية العظيمة التى انتهت بانتصار الاسلام وانتشاره ..

ولقد كان صعبا على عروش الكراهية المنتشرة فى الجزيرة العربية ان تحتل دولة الحب والحق التى قامت فى المدينة ..

وهكذا تغير المنظر ، واضطر الرسول الرحيم المسالم الى ان يحمل سيفه ويرتدى درعه ويستعين بالقوة دفاعا عن حق دولة الحب الالهى فى البقاء وسط دول الكراهية العديدة المنتشرة ..

وبدأت المعارك بين المشركين والمؤمنين ..

كان عدد الكافرين والمشركين كبيرا .. وكان الذين آمنوا قلة ، وثار غبار المعارك ، واختلطت الرمال بالمرق بتطاير السهام ، وانعدت سحائب الموت ، وحطت طيور الرعب ، وسالت الدماء ، وانكسرت أسنان النبى فى احدى المعارك ، وجرح رأسه الشريف فوقف يحارب ودمه ينزف دفاعا عن حق الانسان فى الايمان بالله ..

ورغم كثرة الكافرين وقلة المؤمنين .. انهزمت الكثرة ..

انهزمت طبقا لقانون الهى قديم يقضى بأن يغلب الله تعالى ، ويغلب رسل الله تعالى ، ويغلب أكثر الفريقين ايمانا بالله تعالى ، وأخذا بأسباب النصر ..

ويثبت علماؤنا اليوم ، ان الحروب التى اشتبك فيها الاسلام ، على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، كانت فريضة لحماية الحق ، ورد المظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجبابرة ، بعد ذلك كانت حروب الاسلام لتحرير رقاب العبيد والمضطهدين ، وليس يضير الاسلام ان يسخره أحد الحكام لارواء شهوة الفتح .. يضير ذلك من استخدم الاسلام ، بدلا من أن يستخدمه الاسلام ..

ذلك ان الاسلام يستخدم الناس حين يستخدمهم - لا للفتح الجرد - وإنما

للتحرير الذى ينطوى عليه الفتح .

لا للاستعمار ، وانما للهدى ، لا لاضافة قيود جديدة الى قيود الناس ، وانما لفك قيودهم جميعا .

ذلك كان نوع حروب الاسلام بعد موته صلى الله عليه وسلم .. أما في حياته ، فقد كانت حروبه كلها ردا للسيوف ان تهوى على رقاب نساء وأطفال ورجال يؤمنون بأحدية الخالق وحب الكائنات ..
ها هي أولى المعارك الفاصلة في الاسلام ..
معركة « بدر » ..

ترامت الأنباء الى المدينة بأن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة الى مكة ، تحمل لأهلها ثروة طائلة .. ألف بعير محملة بالأموال ، يقودها أبو سفيان بن حرب مع رجال لا يزيد عددهم عن الاربعين .. أى خسارة تنزل بالمعتدين من أهل مكة لو أسر المسلمون هذه القافلة ؟

خرج أول جيش من جيوش المسلمين .. يقوده محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .. كان عدد الجيش ٣١٧ رجلا ، ستة وثمانين رجلا من المهاجرين ومائتين وواحدا وثلاثين من الأنصار ، وكان بين الأنصار مائة وسبعون من الخزرج ، وواحد وستون من الأوس ..

وكان جيش المسلمين فقيرا يثير فقره الدهشة ، مجهدا يثير اجتهاده الاشفاق ، ضعيفا بمقاييس البشر ، كان كل ثلاثة من المقاتلين في جيش المسلمين يتناوبون على بعير واحد يركبونه .. وكانت المسافة بين المدينة وبدر تزيد عن مائتي كيلو متر بطريق القوافل القديم .. وسار هذا الجيش لاعتراض القافلة ، فأفلتت القافلة منه .. استطاع ابو سفيان ان يغير طريق قافلته وينجو بها ، وأرسل الى مكة يدعو قريشا الى قتال المسلمين ..

وخرج من مكة جيش يضم ألف صنيديد من صناديد قريش .. ورغم ان المسلمين خرجوا لغير هذا الجيش ، فقد احتملوا التحدى ، وساروا للقتال .. قال تعالى في سورة [الأنفال] :

« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم ، وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » [١] ..

كان المسلمون ، لفقرهم وحاجتهم وظروفهم الاقتصادية القاسية ، يودون ان يلتقوا بغير ذات الشوكة ، يودون ان يلتقوا بالقافلة الغنية لا الجيش المدجج بالسلاح .. كانوا في حاجة الى المال لنشر دعوتهم ، وأراد الله بوضعهم وجها لوجه أمام جيش الكافرين ، أن يقطع دابر الكافرين ويحق الحق ..

خرج المسلمون في معركة بدر ، تحت تصور انهم في طريقهم لنزهة حربية تسفر عن ضربة اقتصادية خاطفة تنزل بمكة وتثري المدينة .. فأراد الله ان تكون معركة شاقة تسفر عن تطهير مكة من رؤوس الكفر فيها ، ولتحتمل المدينة فقرها ، فليس الاسلام مغنم ، انما هو مغارم ، ليس أخذا وانما هو عطاء ..

(١) الآية ٧ سورة الانفال ، مدنية .

ولقد أدرك النبي — كقائد عسكري — ان عليه ان ينيب جيشه الى ان
ما سيلقاه من مشقة وعنت ، لا يشبه الامر اليسير الذي خرج من اجله ..

واستشار النبي ، صلى الله عليه وسلم الناس ..

وتحدث ابو بكر الصديق .. وتحدث عمر .. وتحدث المقداد بن عمرو ..
واتفقت اقوالهم على المضي في القتال .. مهما تكن النتائج أو التضحيات ..

وعاد الرسول يقول : أيها الناس .. اشيروا على ..

كان الرسول يقصد الانتصار .. كان يخشى أن يكونوا قد فهموا البيعة بينه
وبينهم على حمايته اذا هوجم في المدينة فقط .. ولقد كانت نصوص البيعة
فعلا تؤيد ذلك ..

الم يقولوا له : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك [لسنا مسئولين عنك]
حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا ، فأنت في ذمتنا » ..

وكان معظم الجيش من الانتصار .. وأراد الرسول ان يعرف قرار أغلبية
الجند قبل بدء المعركة ..

وأدرك الانتصار أن الرسول يريد رأى الانتصار .. قال سعد بن عوف :
والله لكأنك تريدنا يا رسول الله .. قال النبي : نعم ..

وتحدث الانتصار ..

ذهبت مخاوف النبي بعد حديثهم وأشرق وجهه .. لقد رباهم على الاسلام ،
والاسلام لا يعرف نصوص المعاهدات ، وانما يغوص لروحها وعمقها البعيد
.. افهم الانتصار النبي أنهم يؤمنون به ويحبونه ويسمعون له ويطيعون ..

قال سعد بن معاذ : امض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك .. فو الذي
بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا
رجل واحد ..

انتهى الأمر .. وحسمت هذه الكلمات مصير معركة من أخطر معارك
الاسلام ..

لقد كان شعور الانتصار والمهاجرين في جيش الرسول يختلف تماما عن
شعور موسى حين قالوا له : اذهب أنت وريك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ..

كان شعور المسلمين أن الرسول لو أمرهم باجتياز البحر سيرا على أمواجه
لفعلوا وغرقوا وماتوا ، ما تخلف منهم رجل واحد ..

انتهى الأمر وتأهب المسلمون لخوض المعركة .. وعسكروا في مكان وقع
عليه اختيار الرسول ..

وقد ترك الله عز وجل رسوله يخطىء في اختيار المكان ليشرع للمسلمين
تاعدة هامة من قواعد القتال ، وهي نزول قائد الجيش على رأى الخبرة ..

جاء الحباب بن المنذر الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يسأله :
اهذا الموضع الذي نعسكر فيه اختيار من الله ورسوله ، وليس لنا أن نتقدم عنه
ولا نتأخر ؟ .. أم ان الأمر هو امر الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال الرسول : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ..
قال الحباب : يا رسول الله .. ان هذا ليس بموقع ..
واختار الخبير موقعا يشرب فيه جيش المدينة ولا يشرب جيش مكة ..
وتحول الجيش الى الموقع الذى حددته الخبرة العسكرية ..
ووصل جيش مكة .. كان عنده يقترب من ألف جندي يواجهون ٣١٧
مسلمًا ..

وعسكر جيش قريش فى العدو القصوى من الوادى ..
كان جيش الكافرين فى بدر يضم سادة قريش وأبطالها وفلذات أعبادها
المحاربين ..

وكان جيش المسلمين فى بدر يضم أقارب وأصحابا لجيش العدو .. ولقد
قدر الله تعالى أن يلتقى الابن بأبيه .. والأخ بأخيه .. وزوج الابنة بوالد
زوجته ، فصلت بينهم المبادئ ، فحكمت بينهم السيوف ..
انتهى الأمر وشيعت معركة بدر أخوة الدم الى مئاها الأخير ، وأرست
قاعدة رئيسية وهامة هى أخوة العقيدة الاسلامية ..

وعلى حين كان جيش المسلمين متماسكا يلتئم جسده على روح الاسلام ،
كان جيش الكافرين منشقا على نفسه ، وان أخفى انشقاقه بادعاء
الشجاعة ..

وقف عتبة بن ربيعة خطيبا فى جيش مكة يدعو الى الانسحاب قائلا بتحكيم
العقل :

— يا معشر قريش .. انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه
شيئا ، والله لئن أصبتموه ، لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه
لأنه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد
وسائر العرب .. فان أصابوه فذلك الذى أردتم .. وان كان غير ذلك ألفاكم
سالمتموه .

كانت هذه الكلمات العاقلة الحكيمة أول شرح فى جيش مكة .. ان عددا
من الجيش كان مقتنعا بانعدام جدوى المعركة ، ولن يكون قتال هؤلاء قتالا
حقيقيا .. وأخذت أصوات السفه هذه الكلمة العاقلة .. واتهم أبو جهل
قائلها بالخوف .. وأثار باتهامه حماس القائل فرجع عن رأيه وقرر قتال
المسلمين ..

ولقد كان قائد الجيش المهاجم .. وهو أبو جهل .. يعلم ان محمدا
لا يكذب ..

تروى كتب المؤرخين أن الأحنس بن شريف خلا بأبى جهل فى بدر قبل نشوب
المعركة وسأله :

— يا أبا الحكم .. أترى محمدا يكذب ؟

قال أبو جهل : كيف يكذب على الله ، وقد كنا نسميه الأمين ، ولكن اذا
اجتمعت فى بنى عبد مناف السقاية والرفادة والحجابه والمشورة ، ثم تكون
فيهم النبوة ، فأى شىء بقى لنا ؟

ليست الحرب تكذيباً للرسول ، وإنما هي حماية للمصالح الحاكمة والوضع الاقتصادي ..

وهكذا وقف الكافرون يدافعون عن أدنى تيمم الأرض التي تشترك معهم فيها الدواب ، ووقف المسلمون يدافعون عن أرفع تيمم الأرض والسماء التي تشترك معهم فيها الملائكة ..

وجاء الليل على الجيشين ..

ثلاثمائة جندي مؤمن على التقريب في مواجهة ألف جندي مشرك ..

كل المشركين جاءوا راكبين مسلحين .. وكل ثلاثة مسلمين جاءوا على دابة ..

ثياب المشركين جديدة وسيوفهم مصقولة ودروعهم تلمع وتسليحهم متفوق وعتادهم هائل ، وثياب المسلمين بالية وسيوفهم قديمة ودروعهم ليست سابقة ..

نظر النبي الى جيشه فرق قلبه لرأى الجيش ودعا ربه بقوله :

— اللهم انهم جياح فاشبعهم ، اللهم انهم حفاة فاحملهم ، اللهم انهم عراة فاكسهم ..

وتسلل النوم الى الجفون يحمل الراحة للأجساد المتعبة .. وتساقط أثناء الليل مطر خفيف رطب الجو حول المسلمين ، وتماسك الرمل تحت أقدامهم ، وصارت حركتهم عليه ميسرة ، وغسل المطر الخفيف تراب السفر وغبار التعب وطهر القلوب وربط عليها بالثقة في نصر الله .

قال تعالى :

« اذ يفشيكم النعاس امانة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » [١] ..

وجاء الصباح على بدر .. بدأ جيش قريش بالهجوم .. وأمر النبي جيش المسلمين بالدفاع ..

قال صلى الله عليه وسلم : « ان اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذتوا » ..

كان هذا القرار العسكري الحكيم يعني ان يتحصن المسلمون في أماكنهم ، لتحميل المشركين عبء الهجوم بخسائره المتوقعة ، ونحن نعلم من العلوم العسكرية اليوم ، ان المهاجم يحتاج عادة الى ثلاثة أو أربعة أضعاف العدد الثابت الحصن الذي يهاجمه ليكون هجومه فعالاً .. ولقد كان جيش المشركين ثلاثة جنود مقابل كل جندي مسلم .. العدد المطلوب للنصر عند المشركين موجود ، وتسليح المشركين أفضل من تسليح المسلمين ، وعدد المطايا التي يركبها المشركون هي نفسها عددهم ، وثلاثا الجيش الاسلامي يحارب على

(١) الآية ١١ سورة الأنفال مدنية .

أقدامه ، الموقف فى صالح المشركين تماما ، والنذر والدلائل كلها تعقد النصر للواء المشركين ، غير ان كسب الحروب ليس رهنا بضخامة العدد وتفوق التسليح والقوة الظاهرة .. أحيانا يكسب المعركة عنصر معنوى غير مرئى ، ان روح الجندى المعنوية ، وإيمانه بالقضية التى يدافع عنها ، ورغبته فى احدى الحسنيين ، النصر أو الموت ، وتهافته على الشهادة ، وهزيمته لروح الخوف داخله .. هذا كله يمكن أن يحول الجندى الى مخلوق غير قابل للهزيمة ..

قابل للموت .. وان استعصى على الهزيمة ..

وكذلك كان جيش المسلمين ..

انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين .. وبذل المسلمون جهدا فوق طاقة البشر .. وحين التحم الجيشان ونظر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فرأى جيشه يذوب بعدده القليل وسط السلاح الكافر .. عندئذ استغاث النبى ربه :

اللهم نصرك .. اللهم أنجز لى ما وعدتنى ..

اللهم ان تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها فى الأرض ..

تأمل هموم النبى ساعة المعركة تفهم لماذا انتصر جيشه ..

ان قائد الجيش الأعلى ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، خرج يقاتل فى سبيل الله ..

وها هو ذا الموت يصدق بالمسلمين .. فميم يفكر النبى فى هذا الموقف المعصيب ؟ .. ان تفكيره يتعدى الحاضر ويتجاوز الى المستقبل ، ليتوقف عند شىء واحد .. ان يعبد الله فى الأرض : « اللهم ان تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها فى الأرض » ..

ليس النبى مشفقا على هلاك المسلمين وهلاكه ، لأنهم سيخسرون الحياة ، انما هو مشفق أعظم الاشفاق ، خائف أشد الخوف الا يعبد الله تعالى بعدها فى الأرض .. وكأن الرسول يستغيث به ، محاولا تذكير ربه سبحانه وتعالى بما الله أعلم به ..

عند هذه الدرجة من درجات التجرد ..

تنزل الملائكة يقودها جبريل عليه السلام .

قال تعالى فى سورة [الانفال] :

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى مرسدكم بالف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ، ان الله عزيز حكيم » . [1]

أغمض النبى لحظة فى عريشه الذى يقود منه المعركة ثم انتبه يقول لآبى بكر :

(1) الايتان ٩ ، ١٠ سورة الانفال مدنية .

— أبشر يا أبا بكر . . أتاك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع .

كان نزول الملائكة تثبيتا للمسلمين وبشرى لهم . ولم يكن معجزة تعنى اشتراك الملائكة فى القتال .

تؤكد النصوص أن دور الملائكة لم يزد عن دور البشارة والتأييد المعنوى وملء القلوب بالطمأنينة . ونحسب أن الله عز وجل أراد أن يشهد ملائكة الله ملائكة البشر وهم يدافعون عن عقيدة التوحيد . وهكذا أوحى الله الى الملائكة انه معهم ، فليثبتوا الذين آمنوا اذن ، وسوف يلقي الحق فى قلوب الذين كفروا الرعب . فليضرب المسلمون فوق الاعناق والأيدي . ولينتصروا لله .
قال تعالى فى سورة [الانفال] :

« اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وان للكافرين عذاب النار[١]

وتساقطت سيوف الاسلام كالطرر على وجوه الكافرين ورقابهم . وانكسر جيش مكة ، وبدأ الرعب يسلم الاقدام للرياح .

وانجلت المعركة عن سبعين قتيلاً من الكافرين ، وسبعين أسيراً منهم ، وفرار بقية الجيش . .

سقط سادة البغضاء وملوك الظلام فى المعركة . سقط ابو جهل قائد الجيش ، واصيبت مكة فى أبطالها اصابة قاتلة . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جثث القتلى من الكافرين بعد أن طرحوا فى القليب يقول :

— يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام . هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . فانى وجدت ما وعدنى ربي حقاً .

قال المسلمون : يارسول الله . اتنادى قوما جيفوا .

قال : ما أنتم بأعلم لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

وانتهى يوم السابع عشر من رمضان لسنتين خلطنا من الهجرة .

مكث النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال فى بدر . . ثم قفل عائدا الى المدينة ، يسوق أمامه الأسرى والغنائم .

وحوسب المسلمون حساباً عسيراً على ابقائهم على حياة الأسرى .

فى البدء استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر . .

قال أبو بكر : يارسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان . وانى أرى أن تأخذ منهم الفدية . فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار . وعسى الله ان يهديهم فيكونوا لنا عضداً .

(١) الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ سورة الانفال مدنية .

والتفت الرسول الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قائلاً :

— ما ترى يا ابن الخطاب .

قال الرجل العظيم : والله ما أرى ما رأى أبو بكر . ولكن أرى أن تمكنني من قريب لى فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من قريبه فيضرب عنقه . وتمكن حمزة من قريبه فيضرب عنقه . . حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين . وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وشادتهم .

كان جيش المدينة وجيش مكة يضمن عائلات تربط بينها القرابة وشاعت الأمدار العليا أن يقع القتل بين الأخ وأخيه ، والابن ووالده . . وكان عمر يريد أن يستمر هذا الحسم ليعلم المشركون أن الاسلام لن يعود الى المهانة أو السلام .

انتهى الأمر ونشبت الحرب فى سبيل الله . . وصار حمل السلاح والقتال واجبا لا تردد فيه ولا رجوع عنه .

والتفت النبي الى المسلمين فوجدهم يميلون الى رأى ابي بكر ، وكان يمثل الاغلبية . . ونزل النبي صلى الله عليه وسلم على رأى الأغلبية . . وكانت الاغلبية على الخطأ . . وكان عمر وحده على الحق . .

أدرك عمر ببصيرته كجندى رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أدرك بنظرته الاستراتيجية البعيدة ، أن الموقف ليس موقف مفاضلة بين رقاب الأسرى وثرواتهن التى يمكن لأهلهم أن يفقدوهم بها . .

أدرك أن الموقف يتجاوز هذا بكثير .

هذه أول معركة يخوضها الاسلام ، وينبغى على المسلمين أن يتجردوا فيها من كل الدوافع الانسانية ، باستثناء الشاء الرعب فى قلوب الكافرين . . أى قتلهم جميعا ، ليعلم أعداء الله أن الاسلام قد اختار الدم .

ولقد أيد الله تعالى عمر بن الخطاب فى محكم كتابه ، وبكى النبي وبكى أبو بكر حين أدركا خطأهما فى اليوم التالى . ودخل عليهما عمر بن الخطاب فرأهما يبكيان وتساءل : ما الذى يبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار ؟ .

وتلا عليه الرسول تنزيل الحق عز وجل :

« ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . [1]

تقول الآيتان أن هذا ليس أوان الاحتفاظ بالأسرى وافتدائهم، لم يحن الوقت لذلك بعد. لا يضح أن يكون للنبي أسرى الا اذا حارب كثيرا وجاهد كثيرا وقاتل كثيرا واثخن فى الأرض واستقرت دعوته . . أما فى بداية الحرب فلا . .

كشفت الآيتان عن الهدف من وراء افتداء الأسرى صراحة بقول الحق

(1) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ سورة انفال مدنية .

عز وجل : « تريدون عرض الدنيا .. والله يريد الآخرة » [١] .

هذا تفكير ينظر للظروف الحالية الصعبة فحسب ، هو تفكير تكتيكي كما نقول بالاصطلاح الحديث ، وليس تفكيرا استراتيجيا . ثم ان هؤلاء الأسرى ليسوا أسرى عاديين ، وانما بالاصطلاح الحديث مجرمو حرب عتاة .. ينبغي ازهاق أرواحهم عند التمكن من رقابهم ، وليكن ما يكون من ثرائهم أو جاههم .. ان الاسلام لا يعترف بالثراء أو الجاه .. لا يعترف الاسلام الا بالايان ، ولا يقيم وزنا لما عداه من قيم دنيوية زائلة .

ويمضى النص القرآني فينبه المنتصرين الى أن خطأهم يستحق عقوبة سامح الله فيها لسبق رحمته وعظيم غفرانه .

« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » [٢] .

كان العذاب أقرب اليهم من هذه الشجرة القريبة .. ثم سامح الله وعفا .. اطلع على أهل بدر فغفر لهم ما تأخر وما تقدم من ذنوبهم .

وكذلك كان القرآن يربى المسلمين على التجرد .. انتهى الأمر وبدا الاسلام حروبه .. وهى حروب ينبغي أن تتجرد لله عز وجل وحده ، وينبغي أن ترتفع على دواعى اللحظات الصعبة ومقتضيات الحاضر البائس ولسوف يعلم أتباع النبي فيما بعد أن أى ميل من جانبهم لأعراض الدنيا الزائلة ، يعنى وقوع العقوبة والهزيمة بهم .

فى معركة احد .. كان عدد المشركين ثلاثة آلاف .. وكان عدد المسلمين سبعمائة بعد ان انسحب منهم رأس النفاق عبد الله بن أبى .. وعسكر المسلمون جاعلين ظهرهم الى الجبل . ورسم النبي صلى الله عليه وسلم خطة لكسب المعركة ، فوزع الرماة لحماية ظهر المسلمين ووضعهم على الجبل .. وأمرهم ان يدفعوا الخيل عن جيش المسلمين بالسهم ، حتى لا يهاجم المسلمون من الخلف .. وأنهم الرسول هؤلاء الرماة ان يثبتوا فى أماكنهم مهما يكن سير المعركة ، ليكن النصر أو الهزيمة للمسلمين . هذا أمر لا يعنى الرماة . عليهم ان يلزموا أماكنهم لتأمين ظهر المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : « احموا ظهورنا . ان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا . وان رأيتمونا نغتم فلا تشركونا » .

بعد هذا التأمين الحكيم لظهر الجيش ، انصرف النبي الى مقدمة جيشه ، وبدأ يرسم لقلب الهجوم مهمته وأسلوبه وواجباته .

وبدأت الحرب .

واندفع جند الاسلام كأعصار يخترق قلب ثلاثة آلاف مشرك .

وأظهرت المراحل الاولى من سير القتال اكتساح المسلمين للمشركين . قاتل جيش مكة قتالا يائسا ، وكان متفوقا فى العدد أربعة أضعاف ، ورغم التفوق العددي والتسليح ، فوجىء الجيش بأن المسلمين يقاتلون قتالا لا سبيل معه لنصر أو صمود أمامهم .

(١) من الآية ٦٧ سورة الانفال . مدنية .

(٢) الآية ٦٨ من نفس السورة .

وبدا غبار المعركة يسفر عن تمزق جيش مكة وبداية فراره .

وفكر الرماة الذين وضعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنائم . . . لقد انهزم جيش مكة وبدأ يعطى ظهره للمسلمين ويعدو . . ماذا لو نزل الرماة من أماكنهم لجمع الاسلاب والغنائم . . لقد حذرهم الرسول من مفادرة أماكنهم مهما تكن الأسباب . . وعصى الرماة القائد الأعلى بعد أن تصوروا ان المعركة قد انتهت لصالح جيش المدينة المؤمن .

ظن الرماة أن الله سيستر خطاهم ويحمي ظهورهم حتى ينتهوا من أخذ الاسلاب والغنائم .

انسحب التجرد من قلوب بعض الجنود . .

لم يكد هذا الأمر يقع . . حتى وقع تحول خاطف فى سير المعركة .

كان قائد فرسان المشركين فى معركة أحد هو خالد بن الوليد . . سيف الله العظيم فيما بعد . . وأحد المسلمين الكبار فيما بعد . . وخالد بن الوليد عبقرية عسكرية من نوع نادر . . لم يكد يلاحظ نزول الرماة من أماكنهم ، حتى رأى ظهر المسلمين مكشوفاً فاستدار بالخييل وانحدر على المسلمين من حيث لا يتوقعون .

وانحدرت ضربة خالد عنيفة مفاجئة . واغتنم المشركون الفرصة فانكأوا من الفرار الى الهجوم . وحوصر جيش المسلمين بين فرسان يضربونه فى ظهره . . وفرسان يضربونه فى صدره .

وارتفع عدد القتلى فى جيش محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

استشهد كثيرون وهم يدافعون عن النبى ويحاولون حمايته . واصيب النبى فانكسر أنفه وتحطمت ربايعيته . واصاب رأسه الشريف جرح فتفجر منه الدم . . وانطلقت الشائعات بأن محمداً قتل . . واثقل أيدى المسلمين حزن غامر لما يسمعون . . وتفرق المسلمون فعاد بعضهم الى المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل وثبت حول النبى اكرم جنده . . وصرخ أنس بن النضر حين سمع عن موت النبى قائلاً لقومه : قوموا فموتوا على ما مات عليه . . ما تصنعون بالحياة بعده .

وراح جيش المسلمين يتماسك ويقاتل . . واشتد ضغط المشركين على النبى وصحابته وجنده . ومرت ساعات من أخرج ساعات التاريخ . . وصاح النبى وهو يرى انحدار المشركين عليه وإرهاقهم له ومحاولاتهم قتله :

— من يردهم عنى وله الجنة .

والتف المسلمون حول رسولهم واستشهد منهم خلق كثير ، وصنع أبو دجانة من ظهره درعا يلقى بها ظهر النبى صلى الله عليه وسلم . . فكانت السهام تقع فى جسده وهو ثابت يدافع عن الرسول .

وانقلب الموقف نتيجة لهذا القتال الباسل الذى أداره المسلمون . واكتفى جيش مكة بما حصل عليه وآثر الانسحاب ، ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال هذا اليوم .

أسفرت المعركة عن انسحاب المشركين بعد أن قتلوا عديدا من المسلمين
وجرحوا قائداً الجيش الأعلى صلى الله عليه وسلم .

وقع هذا كله بسبب خطأ واحد .

تمثل هذا الخطأ فى عصيان الرماة لأمر الرسول ، ومغادرتهم لماكنهم .
حين قلت نسبة التجرد والفداء فى ثلوب المسلمين .. دفع أشجع الرجال
وأفضلهم من دمائهم ثمن هذا الخطأ .

لم تحاب السماء أحداً من المسلمين . لم تتدخل السماء لانتقاذ ظهر الجيش
الاسلامى المكشوف .

أخطأ المسلمون فدفع رسولهم ثمن خطئهم .

أصيب فى وجهه ، ونزف الدم بغزارة من جراحه ، كلما سكب الماء على
الجرح ازداد تدفقاً . لم يتوقف النزيف الا بعد أن أحرقت قطعة من حصى
فألصقت به .

لم تكن كل جراح النبى مادية ..

زادت الجراح المعنوية فى الله صلى الله عليه وسلم .

أصيب فى أعز أهله الى قلبه ، استشهد عمه حمزة وجاءت امرأة أبى
سفيان فشققت بطنه واستخرجت كبده ومضغتها بنفسها ..

مثلت تريش بجيش المسلمين .. وأصابت منهم ما تحب ، ولولا رحمة الله
تعالى لانهم المسلمون .

ونزلت آيات الكتاب الحكيم تربي المسلمين على التجرد المطلق والاخلاص
الكامل ، وتفهمهم أن هزيمتهم نبعث لأن جيشهم كان يضم من يريد الدنيا ،
رغم أن فيه من يريد الآخرة ، وليس هذا هو الطريق للنصر .. ليس هذا
هو الأمل المتوقع من جيش المسلمين ، المفروض أن يتجرد الجيش كله لله ،
أن يريد كله الآخرة .. ساعتها يؤتية الله ثواب الدنيا والآخرة .

قال تعالى تعليقا على معركة أحد فى سورة [آل عمران] ،

**« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم
ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين »** [١]

عفا الله تعالى عن الخطأ .. واستدار المسلمون يحصون قتلاهم ويضمدون
جراحهم ..

وتساءل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمه حمزه .. فلما رآه فى
القتلى وقد مثل الكافرون بجسده ، قال وهو يبكى : لن أصاب بمثلك أبداً ..

ثم وقف صلى الله عليه وسلم وأثنى على ربه عز وجل . وأمر برد القتلى
من المسلمين الى مضاجعهم التى قتلوا فيها ، وكان أهلهم قد حملوهم الى
المقابر .. وراح النبى يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » فى ثوب واحد .

(١) من الآية ١٥٢ سورة آل عمران مدنية .

ثم يسأل أيهما أكثر أخذاً للقرآن .. فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد ..
وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلهم .

وأراه الله تعالى كيف يبعثون يوم القيامة ، فحدث الناس قائلاً :

— ما من جريح فى سبيل الله الا والله يبعثه يوم القيامة ينزف جرحه .
اللون لون الدم . والريح ريح المسك .

لم يكن الألم العميق هو الدرس الذى وعاه المسلمون من معركة أحد . جزاء
سريعاً لعصيانهم أمر الرسول وعدم طاعته .. أنما تنزل الوحي ببقية الدروس
المستفادة ، وكان أخطر هذه الدروس بعد درس الطاعة ، هو بيان المركز الذى
يجتمع حوله المسلمون ..

ليس شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المركز الذى يجتمع
المسلمون حوله ، فإذا رحل شخصه الكريم لسبب من الأسباب أنفض
المسلمون وانصرفوا .

لا ينبغى أن يكون «شخص» الرسول هو المركز ، انما « فكره » هو الأهم
والأخطر .

وهكذا عاتب القرآن الكريم من القى سلاحه حين انتشرت شائعة قتل
النبي صلى الله عليه وسلم . ان الاسلام لا يبلغ منتهاه اذا كان المسلمون
سيجتمعون حول الرسول فى حياته ، فاذا مات أو قتل انقلب كل واحد
يرمى سلاحه وينصرف لشأنه . المسلمون أتباع مبادئ ، لا أتباع أشخاص .
وليكن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد البشر وامام المرسلين
وخاتم النبيين وخير خلق الله .. ليكن هذا كله وأكثر . لا يبرر هذا كله
أن يرمى المسلم سلاحه اذا مات الرسول أو قتل . على المسلم أن يحمل
سلاحه فلا يرميه من يده الا فى حالة واحدة من اثنتين .. أن ينتصر أو يموت .
قبلها .. لا يكون القاؤه للسلاح الا قراراً من المعركة ..

كان النص القرآنى واضحاً اعظم الوضوح فى ربط المسلمين بعقيدة
الاسلام لا شخص الرسول . قال تعالى تعقيباً على معركة أحد :

**« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل
انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً
وسيجزي الله الشاكرين »** . [سورة آل عمران] [1]

.....

مضت معركة أحد بجراحها الفائرة ، بعد أن تركت آثاراً عميقة فى نفس
النبي صلى الله عليه وسلم .. وهى آثار لازمتها الى آخر عهده بالدنيا . ففى
الاحضان القاسية لجبل « أحد » الذى يحرس المدينة ، أودع الرسول اعظم
رجال الاسلام واقربهم من قلبه . كان قتلى أحد هم خلاصة المسلمين واكثرهم
أيماناً ، كانوا هم صفوة الصفوة من المسلمين الأوائل ، حملوا أعباء الدعوة أيام
الوحشة الأولى ، وعادوا فى سبيل الله الاقرباء والاصدقاء ، واغتربوا

(1) الآية ١٤٤ سورة آل عمران مدنية .

بعقائدهم قبل الهجرة وبعدها ، وانفقوا وقتلوا ، وصبروا وصابروا ، وحين جاءت لحظة الخطر الكبرى وأحيط بجيش الاسلام واقتربت السيوف من رسول الله . . صنعوا من دمائهم بحرا أغرق الكافرين وحوى الرسول وغير مجرى المعركة وانقذ عقيدة التوحيد .

ولم تكن معركة أحد هي أول تضحيات المسلمين ولا آخر معاركهم . . هي معركة واحدة من المعارك العديدة التي خاضها الاسلام لنشر كلمة الله فى الأرض ، وتبليغ عباده .

ولم تكن تضحيات الرسول فى معركة أحد هي أول تضحياته للاسلام ولا آخرها . فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثته الى الناس حياة لا يملك فيها نفسه ، ولا يملك فيها وقته ، ولا يملك فيها راحته ، عاش يعطى كل شىء للدعوة . . حارب كل أنواع الحروب ، واحتمل كل ألوان الاحتمال ، وقاسى العذاب أشكالا وصنونا ، ولم يكن يفرغ من مشكلة الا ليوافقه أخرى ، ولم يكن ينتهى من حل أزمة الا ليوافقه أزمة أخرى . . وهيمن الصراع على حياته صلى الله عليه وسلم ، وحكمها منذ البداية الى النهاية . .

تأمل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أى زاوية تحبها ، ابدأ دراسته من أى مستوى تختاره . لن تعثر الا على قصة صراع عظيم .

خاض النبى صراعه العسكرى الممثل فى عديد من المعارك المتشابكة المتلاحقة ، وخاض النبى صراعه السياسى الممثل فى المعاهدات ورسائله لدعوة الملوك والباطرة ورؤساء الدول حوله الى الاسلام ، وخاض صراعه على المستوى النفسى ومعارك الأعصاب ، ولم تخل حياته الخاصة ولا بيته من الصراع ، وكان المحارب فى كل وقت وأى وقت . كان ابراهيم هو المسافر دائما الى الله ، وكان محمد هو المحارب دائما فى الله .

لم تكد معركة أحد تنتهى حتى بدأت آثارها السيئة على المسلمين .

تجرا أعراب البداية عليهم ، وتجرا اليهود عليهم ، وتجرا المنافقون عليهم . وتجرات قريش عليهم ، وأطلت المخالب التي كانت تخبىء نصالها وراء حريز القفاز . . ونشط النبى لخوض معاركه العسكرية .

واقبلت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لم يبرأوا بعد من جراحهم فى أحد ، وحملت الرياح أنباء عن استعداد قبيلة بنى أسد لغزو المدينة ، وباغتهم جيش صغير أرسله النبى لديارهم قبل أن يتحركوا . أيضا وضع الاسلام حدا لحياة رجل كان يحشد الأعراب لحرب المسلمين . ورغم أن الاسلام كان يرفع سيفه تحت ضوء الشمس ، ويقاوم به فى وضوح النهار وبشرف ، رغم ذلك تعرض المسلمون لحملة اغتيالات كانت تطعن فى الظهر بخسة ، وتدارى اثمها الغادر بابتسامات النفاق .

جاء وفد من قبائل الأعراب الى الرسول يحدثه أنهم سمعوا عن الاسلام ويريدون اعتناقه فليرسل معهم عددا من الدعاة لتعليمهم أصول الدين ، وأرسل النبى معهم مجموعة من الدعاة يرأسهم عاصم بن ثابت ، ووثب الغادرون على رجال الدعوة فقتلوهم ، واستسلم للأسر منهم ثلاثة ، فبيعوا فى مكة ، وكان بيعهم فى مكة يعنى تسليمهم للقتلة المتربصين بهم من قريش . .

وقتلت مكة الأسرى الثلاثة . وحزن المسلمون لمصرع رجال الله على هذا النحو الفاجع . وحين جاء الى النبي من يعرض عليه أن يرسل وفدا من الدعوة لنشر الاسلام بين قبائل نجد ، وازن النبي صلى الله عليه وسلم بين عوامل الحذر والرغبة فى نشر الاسلام ، واختار نشر الاسلام ، مدركا أنه يبعث رجاله الى الخطر ، ويعرضهم لمصير مجهول لا يدره الا الله . . الا ان الخطر صار جزءا من مذاق الحياة الذى تعيشه الدعوة الاسلامية ، وحين أبدى النبي خشيته على رجال الله وسط قبائل لا يؤمن جانبها ، طمأنه السائل أنه سيجيرهم . وأمر النبي سبعين من خيرة رجاله بالخروج فى سبيل الله والدعوة الى الاسلام .

وخرج من يعرفون باسم « القراء » ، هم دعاة من خيرة الدعوة الى الله ، عاشوا حياتهم يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، فلما جاءهم أمر الرسول بالخروج خرجوا مستبشرين أنهم يدعون الى الجهاد فى سبيل الله . . وحثوا الخطى الواثقة فى أرض المنافقين والغادرين حتى وصلوا بثرمعونة . . وبعثوا أحدهم الى رأس الكفر فى هذه البقاع . . ومد الداعية الى الله يده بكتاب النبي وهو يرجو اسلام القوم فى نفسه .

فوجيء بالطعنة الغادرة تخترق ظهره لينفذ النصل من صدره . . صاح الداعية الى الله وهو يسقط :

— فزت ورب الكعبة .

وحمل رأس الكفر سلاحه وضم قبائل الغادرين وانقضوا على الدعوة الى الله .

واستشهد خلاصة الدعوة الى الله فى بئر معونة . . صارت اجسادهم طعاما للنسور والطيور الجارحة . . ونجا من السبعين رجل واحد عاد الى النبي يقص عليه ما لقيه فقهاء المسلمين وخيارهم من غدر ، وأطرق النبي برأسه وهو يسمع أخبار الكارثة . . ثم رفع رأسه وقال للناس :

— ان أصحابكم أصيبوا . . وانهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا اخبر عنا اخواننا بما رضىنا عنك ورضيت عنا .

كانت محنة الاسلام قاسية فيمن أدركتهم الشهادة فى بئر معونة ، ولقد حزن النبي لاجترأ الأعراب والكافرين على الاسلام ، واثاره أن يستهين المجرمون بالمؤمنين لهذا الحد ، وقرر أن يلجأ الى العنف ويستعيد للاسلام هيئته ، وفى هذه الظروف ، تحركت يهود لاغتيال رسول الله . ذهب الى بنى النضير لشأن من شئون الحياة ، فأظهروا الرضا لما يقوله ، وأجلسوه فى ظل حصن من حصونهم ، وتأمرؤا عليه ، وقررروا القاء صخرة ثقيلة فوقه وهو جالس لا يتوقع شرا . . والههم الله رسوله الخطر ، فنهض قبل نفاذ الكيد وانصرف مسرعا الى بيته . . كان يفكر وهو عائد فى همومه الجديدة . .

لن يوقف هذا الغدر غير عنف عسكري سريع من الاسلام ، يسترد به هيئته ، ويرد عنه الأيدي التى تقتل فى الظلام وتضطاد أرواح رجال الله غيلة ، وأرسل الرسول الى بنى النضير يأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، وأجلهم رسول الله عشرة أيام ، واتحد منافقو المدينة مع اليهود واتفقوا على قتال

الاسلام معا ، وقاتل الاسلام وانهزم اليهود ، نزلوا على حكم الاسلام الذي اجلاهم عن ديارهم ، ونزلت سورة الحشر تصف طرد اليهود وتكشف موقف المنافقين . بعد هذا النصر العسكري الحاسم ، خرج النبي صلى الله عليه وسلم ليثار لأصحابه القراء ، ويعيد هيبة الدعوة الإسلامية ، واستطاعت هذه العسكرية أن تمزج حياة الفادرين من الأعراب بالرعب ، وكان يكفى أن تثنى الرياح باسم المسلمين حتى يتحول ذئاب الصحراء السابقين الى فئران مذعورة تختفى فى رؤوس الجبال . وتسامت قريش بنشاط المسلمين العسكري ، فانسحب جيش قريش وهو يقترب من « الظهران » ، وعسكر المسلمون فى « بدر » ، ينتظرون اللقاء الذى اتفق عليه فى « أحد » . وأوقد المسلمون النار ثمانية أيام تحديا وانتظارا ، حتى اذا انصرفوا ، كانت سمعتهم قد برئت تماما من غبار معركة أحد .

والتفت المسلمون الى شمال الجزيرة بعد تأكيد مهابتهم فى الجنوب . وكانت القبائل حول « دومة الجندل » قريبا من الشام تقطع الطريق هناك ، وتنهب من يربها ، وبلغت جرأتها حدا فكرت معه فى غزو المدينة ، ولهذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم فى ألف من المسلمين ، يخفى بهم نهارا ويسير بهم ليلا ، حتى وصلوا بعد خمس عشرة ليلة الى مضارب خصومهم ، فاجتاحوها ، وفوجيء الجيش الذى كان يتصور أنه سيفزو المدينة ، ولم يدر فى خأده قط أن المدينة هى التى ستنتقل اليه فى مكانه .

ولسوف نحس أن جهاز المعلومات فى جيش رسول الله كان متفوقا ، كما كان أسلوب الدفاع متفوقا ، ولقد كان هذا الهجوم الخاطف هو أعظم اساليب الدفاع أمنا ، كما أن عنصر المفاجأة كان يعنى قدرة الجيش الاسلامى على الاستتار والمباغطة .

ومضت أيام الصراع العسكري . . لا يكاد النبى يضع درعه ويعاود بناء نفوس المسلمين ، حتى تضطره الحياة الى ارتداء درعه والعودة الى القتال . .

وحين رأى أعداء الاسلام المحذقون به ان قبضتهم العسكرية حول رقبة الاسلام تنهار ، عمدوا الى أسلوب جديد فى الحرب . . هو الحرب النفسية واطلاق الشائعات ، أو ما سماه القرآن الكريم بحادث « الافك » . .

بعد غزوة بنى المصطلق ، وهى غزوة كانت تحمل نصرا سريعا للمسلمين ، تشاجر خادمان طائشان من خدم القوم على الماء ، فصاح أحدهما : يا للمهاجرين . . وصاح الآخر : يا للأنصار . .

والتقط الحادث التافه أحد رؤوس النفاق ، وهو عبد الله بن أبى ، فراح يؤجج الأنصار على المهاجرين ، ويحاول أن يثير نعرات الجاهلية القديمة التى دفنها الاسلام ، وقال فيما قاله :

— أو قد فعلوها ، نافرنا وكاثرونا فى بلادنا ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل . .

ونقل زيد بن أرقم كلمة المنافق الى النبى . . وكانت الكلمة بما تلاها من كلمات تحاول أن تثير الأنصار على المهاجرين وتوقع بينهم وتفتت وحدتهم

.. وأسرع المنافق الى الرسول ينفى ما قاله .. وأخذ المسلمون بالظاهر وصدقوا كلمات المنافق واتهموا سماع الناقل .. غير ان الحقيقة لم تخف على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأحزنه ما حدث ، وأصدر أمره بالرحيل فى ساعة ما كان يسير فى مثلها ، ومشى بالناس سائرا اليوم حتى سقط الليل عليهم ، وسار بهم طيلة الليل حتى أصبحوا ، ومعظم يومهم الجديد حتى آذنتهم الشمس ثم عسكر بهم ..

ولقد تمخض هذا الرحيل السريع المفاجيء عن اكذوبة نسج خيوطها المنافق عبد الله بن أبى ، وهى اكذوبة كان هدفها هو هدف الحريق العمى ..

حين حاول اشعال النار فى بيت الرسول ..

وما دام الرسول قد صار الى حال من القوة التى تخيف من يحاول هزيمته عسكريا ، او اغتياله غدرا .. فلا بأس من تجربة الاغتيال النفسى والمعنوى لزوجة من زوجاته وأم للمؤمنين وطفلة تنتسب اليها البراءة أكثر مما تنتسب هى الى البراءة ..

وكانت عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، قد خرجت تقضى حاجتها وفى عنقها عقد ، فلما فرغت انسل العقد من عنقها وهى لا تدري ، وحين عادت الى القافلة كانوا يتهيأون للرحيل ، وعادت تبحث عن عقدها حتى وجدته وجاء من يحملون هودجها فحملوه وهم يظنون انها داخله ، وشدوه على البعير ولم يراودهم الشك انها لم تكن فيه لنحافتها وخفة وزنها .. وسار جيش النبي وهو يحمل هودج عائشة الخالى ..

عادت هى فاكتشفت ان القوم قد رحلوا ..

أصابها الدهشة لهذا الرحيل السريع ، وأدركها الخوف وهى تتف وحدها فى الصحراء .. وتصرفت أفضل تصرف ممكن .. جلست فى مكانها ، حيث كان بعيرها ، والتفت بثيابها وقالت لنفسها : سيكتشف الناس غيابى فيعودون الى البحث عنى ويجدوننى ..

كان صفوان بن المعطل قد تخلف لبعض حاجته ، فلم يبيت مع الناس ، وأقبل يمشى من بعيد فرأى مخلوقا لم يتبينه ، واقترب صفوان فاكتشف انه يقف أمام عائشة .. وكان يراها قبل ان يضرب على نساء النبي الحجاب ..

قال صفوان حين رآها : انا لله وانا اليه راجعون .. زوجة رسول الله .. ما أخرجك يرحمك الله ..

لم ترد عائشة ..

تأخر صفوان .. وقرب بعيره اليها وهو يقول :

— اركبى ..

ركبت عائشة ، رضى الله عنها البعير وأخذ صفوان زمامه وانطلق يطلب الناس ..

كان جيش النبي قد أناخ .. وكان الناس يتصورون ان عائشة فى هودجها ، وفوجئوا بها تدخل عليهم ، وصفوان يقود بعيرها ..

وأسرع رأس النفاق عبد الله بن أبي يستغل فرصته السانحة .. فنسج من هذا المشهد المرئى قصة مختلقة ، تتهم زوجة النبي بالخيانة ..

وكان عبد الله بن أبي قد اختار نفرا من المسلمين استتشف فيهم غفلة القلب التى تبلغ حد تصديق الظواهر .. أو أحس أن بينهم وبين عائشة من الحسد ما يثير الرغبة فى نشر الأكاذيب عنها ..

وهكذا أوقع رأس النفاق فى حبال أكذوبته حسان بن ثابت ، ومسطح ، وامرأة تدعى حمنة بنت جحش ، وهى أخت زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وانخدع الثلاثة بالأكذوبة ونشروها . وقال أهل الافك ما قالوا .. وارتح العسكر ، وعائشة لا تدرى شيئا من ذلك ..

ولقد كانت هذه الشائعة تستهدف النيل من الاسلام ، وتجريح رسول الله ، وكانت جزءا من الحرب الضارية ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الاسلام ، وكانت تستهدف أظهار الاسلام بمظهر العقيدة التى يقول أتباعها شيئا ، وهم يتصرفون عكس ما يقولون ، كما كانت ضربة موجهة لنقاء بيت وشرف سيده ..

عاد الجيش الى المدينة ، فمرضت عائشة وهى لا تدرى شيئا عما تمضى به الالسنة حولها .. وبلغ الحديث رسول الله ، كما بلغ والدها أبا بكر وأما .. ولم يذكر أيهما شيئا منه لها ..

أيضا لم يحدثها الرسول بما يشاع عنها .. كل ما حدث ، انه لم يكن يلاطفها كعادته حين تمرض ..

كان اذا دخل عليها وعندها أمها تمرضها قال :

— كيف تيكم ..

لا يزيد على ذلك ..

وبدأت عائشة ، رضى الله تعالى عنها تغضب ، حين رأت من جفائه ما رأت ..

قالت له يوما : لو أذنت لى فانتقلت الى أمى ..

قال صلى الله عليه وسلم : لا عليك ..

وهكذا انقلبت الى أمها وهى لا تعلم شيئا .. شفيت من وجعها بعد بضع وعشرين ليلة .. وهى لا تدرى شيئا عما يقال حولها ..

حكى أم المؤمنين عائشة كيف عرفت بحديث الافك .. وكيف أظهر الله براءتها .. قالت :

كنا قوما عربا ، لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم ، نعافها ونكرها ، انما كنا نخرج فى فسخ المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن .. فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فوالله انها لتمشى معى اذ عثرت فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت : بئس — لعمر الله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا !

قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ .. قلت : وما الخبر ؟ .. فأخبرتني بالذى كان من أهل الافك .. قلت : أو قد كان هذا ؟

قالت : نعم .. والله لقد كان ... !

قالت عائشة : فو الله ما قدرت على أن أقضى حاجتى .. ورجعت ، فو الله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى .. وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟ .. قالت : أى بنية ، خفى عنك ، فو الله لقل ما كانت امرأة حسناء ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، الا أكثرن وأكثر الناس عليها ..

قالت : وقد قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فخطبهم — ولا أعلم بذلك — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟ .. والله ما علمت عليهم الا خيرا .. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا .. ولا يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى .. قالت : وكان كبر ذلك عند « عبد الله بن أبى » فى رجال من الخزرج .. مع الذى قال « مسطح » و « حمنة بنت جحش » .. وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها .. فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل الا خيرا .. وأما « حمنة » فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى بأختها .. فلما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، ان يكونوا من « الأوس » نكفكم ، وان يكونوا من أخواننا « الخزرج » فمرنا أمرك .. فو الله انهم لأهل أن تضرب أعناقهم .. فقام سعد بن عباد — وكان قبل ذلك يراه رجلا صالحا — فقال كذبت لعمر الله ، ما تضرب أعناقهم .. أنك ما قلت هذه المقالة الا وقد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ..

فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ..

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شر ، ونزل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدخل على ، ودعا على ابن أبى طالب وأسامة ابن زيد ، فاستشارهما ، فأما « أسامة » فأتى خيرا ثم قال يا رسول الله .. أهلك .. وما نعلم منهم الا خيرا .. وهذا الكذب والباطل ..

وأما « على » فقال : يا رسول الله .. ان النساء لكثير .. وانك لتقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فانها تصدقك ..

فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « بريرة » يسألها ، وقام اليها « على » فضربها ضربا شديدا وهو يقول : اصدقنى رسول الله .. فتقول : والله ما أعلم الا خيرا .. وما كنت أعيب على عائشة ، الا انى كنت أعجن عجبنى ، فأمرها ان تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة وتأكله .

قالت عائشة : ثم دخل على رسول الله وعندى أبواى ، وعندى امرأة من الأنصار ، وأنا أبكى وهى تبكى ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة انه قد كان ما بلغك من قول الناس .. فاتقى الله .. وان كنت قد تارفت سوءا مما يقول الناس ، فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة من عباده ..

قالت : فو الله ان هو الا أن قال لى ذلك حتى جف دمعى ، فما أحسن منه شيئا .. وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى فلم يتكلما ..

قالت عائشة : وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأننا من أن ينزل الله فى قرآنا .. لكنى كنت أرجو أن يرى النبى ، عليه الصلاة والسلام ، فى نومه شيئا يكذب الله به عنى ، لسا يعلم من براعتى .. أما قرآنا ينزل فى ، فو الله ، لنفسى أحقر عندى من ذلك ..

قالت : فلما لم أر أبوى يتكلمان ، قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، فقالا : والله لا ندرى بم نجيبه ، قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ، ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام .. ثم قالت : فلما استعجما على استعيرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا ، والله انى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم انى منه بريئة - لأقولن ما لم يكن .. ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى .. قالت : ثم التمسيت اسم يعقوب فما أذكره فقلت : أقول ما قال أبو يوسف :

« فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » [١] ..

فو الله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فو الله ما فزعت وما باليت ، وقد عرفت انى بريئة وأن الله غير ظالمى .. وأما أبواى فو الذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن نفساهما فرقا أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله فجلس وانه ليتحدر من وجهه مثل الجمان فى يوم شات فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشرى يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك فقلت : الحمد لله .. ثم خرج الى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

« ان الذين جاءوا بالافك عصابة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » [٢] .. [سورة النور] ..

وهكذا تنزل الروح الأمين جبريل عليه السلام ببراءة عائشة مما نسب اليها من الافك .. وانهارت الحرب النفسية ضد المسلمين وبيت الرسول ..

وايقنت طوائف الكفار ان عليها أن تلجا لنوع جديد من الحرب ..

ودخل الرسول صراعه ضد حرب الاعصاب ..

كانت غزوة الخندق اكبر نموذج لحرب الاعصاب التى خاض صراعها النبى ، صلى الله عليه وسلم ..

وضع اليهود أيديهم فى أيدي المشركين ، وبدأت سلسلة من المؤامرات والأحلاف بين زعماء اليهود وزعماء المشركين من العرب ، وأفتى أبحار اليهود أن ديانة قريش ، التى تؤله الأصنام ، أفضل من ديانة محمد ، التى تقصر الألوهية على اله واحد ، كما أن تقاليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن .. ونجحت سياسة اليهود فى توحيد الأحزاب الكافرة وتوظيفها ضد المسلمين

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ١١ سورة النور مدنية .

.. وتقرر الزحف على المدينة فى عشرة آلاف جندى .. وحملت الرياح أنباء المؤامرة الى النبى ، لم يدهشهُ ان يتحد اليهود — وهم أهل ديانة تدعو للتوحيد — مع المشركين ضد ديانة تدعو للتوحيد ، أدرك النبى ان العهد قد طال على اليهود فقسمت قلوبهم ، وباعدت الأيام بينهم وبين النبع الصافى الذى فجره موسى ، وانتهى بهم الأمر الى ان صاروا ثمرة فاسدة غلافها على رسم التوحيد ، وعمقها البعيد مرارة الشرك ..

واخطر من هذا اتفاق مصالح اليهود والمشركين من العرب . ونشط النبى لمواجهة الخطر ، أدرك ان الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة فى ساحة مكشوفة لن يكسب للمسلمين المعركة .. وراح يفكر فى الدفاع عن المدينة بغير الخروج منها ، تغير تكتيكة العسكرية هذه المرة .. قبل ذلك كان يخرج من المدينة ويتعد عنها ويهاجم من ينوى غزوها لصدّه ، غير ان نوع الخطر يختلف هذه المرة ، ويتغير تفكير النبى تبعاً لاختلاف الخطر ، ويعقد النبى اجتماعات عسكرية مع جنوده ، يريد ان يستمع لاقتراحات الدفاع عن المدينة ، ويقترح سلمان الفارسى حفر خندق عميق حول المدينة ، خندق يكون بمثابة مانع طبيعى يمنع السيل المنحدر من التقدم ، خندق لا تستطيع الخيل اجتيازه ، ويمكن للمسلمين الدفاع من ورائه ..

وبدا الاقتراح شبه مستحيل ، أو صعباً لدرجة الاستحالة ، وتبنى النبى اقتراح سلمان ، وأدرك بحسه العسكرى الملهم ان الموقف الخطير يستدعى بذل جهد أخطر لتجاوزه .. وأمر النبى بحفر خندق حول المدينة .. كان العمل شاقاً ، والفصل شتاء ، والجو مخيفاً فى برودته ، وهناك أزمة اقتصادية تهدد المدينة ، ورغم هذا كله بدأ حفر الخندق وتعميقه وتوسيعه .. اشترك النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فى أعمال الحفر وحمل الأتربة ، اشترك فيها وكان يقوم بأصعب المهام وأعظمها مشقة .. وتوهج المسلمون وانتهوا من حفر الخندق ..

وكان شيئاً عسكرياً فريداً لم يسمع العرب بمثله من قبل ، ولا ألفوه فى الحروب ، ورغم جهامة الحياة وجوع المسلمين وفقر أبنائهم وصحراء الكراهية التى عاشوا فيها ، كانت روح الجيش الإسلامى فى القمة ، كانوا واثقين من نصر الله لهم .. قال تعالى فى سورة [الأحزاب] :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » [١] ..

وانحدر جيش قريش على المدينة ..

تحولت المدينة فجأة الى جزيرة من الحب وسط بحر هائل من الكراهية ، وراح البحر يغور ويلطم الجزيرة محاولاً اغراقها داخله .. وتطايرت سهام المسلمين تصد الجيش الكثيف المهاجم .. وراح الجيش يدور حول الخندق وهو دهش .. ما هذا الذى فعله المسلمون ؟ .. كيف استطاعوا حفر هذا الخندق ؟ .. وحاولت خيل العدو اجتياز الخندق فى أضعف أجزائه ، وصد المسلمون الهجوم ..

(١) الآية ٢٢ سورة الأحزاب مدنية .

واستمرت معركة الأحزاب ..

كانت فى جوهرها معركة أعصاب ..

استمر حصار الأعداء ثلاثة أسابيع ، لم تنقطع فيها الهجمات لحظة من نهار .. ولم تغلق فيها الأعين لحظة من ليل ، وكان المسلمون من فرط الهول لا يعرفون هل احتلت المدينة أم لا .. وهل نفذ المهاجمون من إحدى الثغرات أم لا ؟ .. أحيانا كان مد السيل يخترق الخندق ، وينفذ الى المدينة ، ويكاد يصل الى بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لكن هذا كله كان ينحسر بفعل مقاومة جبارة وجهد مدهش ، وإذا كان تدفق السيل من ثغرة يتفق مع القوانين المادية الحاكمة ، فقد كان انحسار السيل وعودته من نفس الثغرة التى نفذ منها يحتاج الى معجزة ..

وقد صنع المسلمون هذه المعجزة أكثر من مرة فى حصار المدينة ..

صور الله تبارك وتعالى الموقف فى غزوة الأحزاب بقوله تعالى :

« **أذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وأذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** » [١] ..

وزاد الموقف سوءا نقض اليهود لعهدهم مع المسلمين ، وانضمامهم الى الأحزاب ..

وهكذا نقضت قريظة عهدها ونسوا غدر بنى النضير واجلاء النبی لهم .. وراح الموقف يزداد سوءا كل يوم ..

كانت أعصاب المسلمين هى التى تمتحن ..

وحين وصل الخطر ذروته ، سأل المسلمون الرسول ماذا يقولون ؟ .. حدثهم أن يقولوا : اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم ..

ولقد خرج هذا الدعاء من أفواه قوم أدوا واجبههم وصنعوا معجزتهم فى صد الهجوم ، وأذن لم يعد باقيا لهم غير الدعاء .. والله تعالى هو السميع الجيب ..

سميع لمن يؤدى واجبه .. مجيب لمن يستحق الإجابة ..

وأدرکت رحمة الله المسلمين ..

وتطور سير المعركة على نحو غير مفهوم .. أدرك المهاجمون أنهم هزموا .. ان لهم ثلاثة أسابيع يهاجمون بغير جدوى ، ويفجرون عروقهم جهدا بلا أمل ، ويمكن أن يظلوا هكذا ثلاث سنوات .. واشتد عواء الرياح وتلج الجو ، وبدأ التصدع الخفى فى جبهة الأحزاب ..

وجاءت ليلة لم ير المسلمون لها مثيلا فى الظلمة أو الريح .. زاد سواد الليل ، واشتدت سرعة الرياح ، حتى لثطن فيها أصوات كأمثال الصواعق ،

(١) الآيتان ٩ ، ١٠ سورة الأحزاب مدنية .

ولم يعد أحد من المسلمين يستطيع أن يرى أصبعه من فرط القتام ، أو يقوم من مكانه بسبب البرد ..

وجاء النبي الى حذيفة بن اليمان .. لم يستطع رؤيته رغم انه كان يقف الى جانبه ..

سأل النبي : من هذا ؟

قال حذيفة : حذيفة ..

قال النبي : حذيفة ..

وتقاصر حذيفة في مكانه كراهية أن يقوم بسبب البرد والظلام ، وخوفا من أن ينتدبه الرسول لعمل في هذه الليلة الليلية ..

قال الرسول لحذيفة : انه كائن في القوم خبر فانتني به ..

أحس حذيفة بفزع غامر ، وثقلت عليه وطأة البرد .. ان ما يحسه من التلج يجعله يخشى أن يلتفت ، فكيف ينهض ويخرج من المدينة ويتوجه الى جيش العدو ويتوغل في صفوفه ويأتي النبي بأخبارهم ..

نهض حذيفة من مكانه حين انتهى النبي من كلامه .. دعا له النبي بخير .. انطلق حذيفة يمشي كأنه يمشي في حمام .. لقد أمره الرسول ودعا له ، فانهزم الظلام والبرد خارج نفسه حين فاض باطنه بحرارة الايمان ..

خرج من المدينة ، وتوغل في جيش العدو ، أمره النبي الا يتصرف أى تصرف .. ليعرف الاخبار وليعد .. هذه مهمته .. وصل حذيفة الى قلب العدو .. كانوا يحاولون ايقاد نار ، وكانت الرياح تأكلها قبل ان تشتعل .. وقريبا من النار يقف رجل أدهم ضخم ، يمد يده الى النار مستدفئا ويمسح خاصرته .. كان هذا الرجل هو زعيم المشركين « أبو سفيان » ، ووضع حذيفة سهما في قوسه وأراد أن يرميه ، ولو رماه لقتله وأراح المسلمين منه ، غير أنه تذكر وصية الرسول له الا يتصرف أى تصرف .. ووضع قوسه الى جواره وكمن .. وقال أبو سفيان :

— يا معشر قريش .. انكم ما أصبحتم بدار مقام .. فارتحلوا فاني مرتحل ..

وقفز أبو سفيان على جملة وهو بارك فجلس عليه ثم ضربه فنهض الجمل ..

وعاد حذيفة الى رسول الله بخبر انسحاب الأحزاب ، وفشل الهجوم ، وقال رسول الله ، حين بلغته انباء انسحاب العدو :

— الآن نغزوهم ولا يفزوننا ..

لم يكد جيش الأحزاب ينحسر عائدا الى بلاده وهو ينوء بثقل الفشل ، حتى خرج من المدينة جيش يتجه نحو يهود قريظة .. لقد خان هؤلاء اليهود عهدهم مع النبي وغدروا بالاسلام في لحظة الخطر ، واذن فليدفعوا ثمن غدركم الآن ..

أمر النبي الا يصلى الناس العصر الا في بنى قريظة .. وفهم المسلمون

أن هذا يعنى اقتحام حصون اليهود قبل أن تغرب الشمس .. وانهم اليهود
 وجيء بهم الى سعد بن معاذ ليقتضى فيهم بما يرى ، وكان سعد سيد الأوس
 وكان الأوس حلفاء يهود قريظة فى الجاهلية ، وتوقع اليهود ان تنفعهم هذه
 الصلة القديمة ، كما تصور الأوس ان رجلهم سوف يتساهل مع حلفائهم
 القدامى ، وكان سعد جريحا يمرض فى خيمته بسبب سهام الأحزاب التى
 أصابته ، وراح بعض قومه يناشدونه ان يحسن الى اليهود حلفائهم القدامى ،
 وراح اليهود يناشدونه أن يرفق بهم .. وقال سعد كلمته الشهيرة : قد آن
 لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم .. وحكم سعد أن يقتل الرجال ، وتنسبى
 الذرية ، وتقسم الأموال .. وأقر النبى هذا القضاء الحازم لسعد .. وقال
 له : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » .. ولقد أدرك سعد
 ان الوساطات والتوسلات والرجاء ومراعاة الاعتبارات القديمة ، أدرك أن
 هذا كله فى كفة ، ومستقبل الاسلام فى كفة .. لقد كان يهود قريظة هم
 السبب فى غزوة الأحزاب ، وان دسائسهم وأحلافهم سعت وسوف تسعى
 لحصار الاسلام واقتلعه .. واذن تقتلع الأشجار السامة من مكانها بغير
 شفقة ..

وهكذا تم تطهير المدينة من اليهود ..

.....

وعاود النبى صراعه ..

مضى صراعه العسكرى جنبا الى جنب مع صراعه السياسى ..

وكانت ذروة معاركه السياسية ، معاهدة عقدها مع قريش ..

كان النبى فى طريقه لاداء العمرة ، وزيارة البيت الحرام ..

خرج فى الف وأربعمائة رجل يقصدون البيت الحرام لاداء العمرة .. فلما
 وصلوا الى الحديدية أسفل مكة ، وبركت نافذة النبى ، صلى الله عليه وسلم ،
 رفضت أن تتقدم خطوة نحو مكة ، وقال الناس : حرنت القصواء ..

قال النبى : ما حرنت ، وما هو لها بخلق .. ولكن حبسها حابس الفيل
 عن مكة .. لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم
 الا أعطيتهم اياها ..

وأمر الناس ان يستقروا فى الحديدية ، واناخ المسلمون على أهل ان
 يدخلوا مكة فى الصباح ، كان الشهر حراما .. وقررت مكة الا يدخلها مسلم
 .. خرجت قريش كلها لقتال المسلمين ..

أرسلوا رسلكم الى النبى فافهمهم انه لم يأت مقاتلا ، وانا جاء معتمرا
 يؤدى الشكر لله تعالى ويعظم حرمان بيته الحرام .. وقررت مكة عقد
 معاهدة مع المسلمين يرحلون بمقتضاها هذا العام ، ولا يدخلون البيت
 الحرام ، على ان يعودوا بعد عامهم هذا .. وجاء مفاوض قريش فاستقبله
 الرسول واستمع منه الى شروط المعاهدة التى يتم بموجبها الصلح وانسحاب
 المسلمين .. ووافق النبى على الشروط كلها .. وكانت الشروط تبدو فى
 غير صالح المسلمين ..

كانت تبدو تراجعاً سياسياً وعسكرياً من المسلمين ..

وزاد في دهشة المسلمين أن الرسول لم يستشر أحداً من رجاله في هذا الأمر ، ولم تكن هذه عادته .. شاهده يذهب في ملايين المشركين إلى أبعد حد ، وحين لم يعد باقياً غير كتابة المعاهدة والتوقيع عليها .. تحرك المسلمون يعارضون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .. سأله : ألسنت رسول الله ؟ .. ألسنا مسلمين ؟ .. أليس أعداؤنا مشركين ؟ .. وأجاب النبي بالإيجاب على هذا كله .. وعاد عمر بن الخطاب يسأل :

— فعلام نعطي الدنيا في ديننا ... ؟

أراد التعبير أن يقول له بلغة عصرنا .. لماذا نتراجع إذا كنا على الحق ؟
.. لماذا نزل على شروط معاهدة جائرة تبدو في صالح المشركين ؟

هل نحن خائفون منهم ؟ .. لماذا نزل على شروط الهدنة إذن ؟

وكان رد الرسول غريباً على آذان القوم .. قال : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعني ..

ان معنى كلمته .. أطيعوا ما أفعل بغير مناقشة ، واصبروا قليلاً ..
ولقد أثبتت الأيام ، أن المعاهدة التي أثارته كل هذا الصراع ، كانت أخطر انتصار سياسي حققه المسلمون .. كانت صراعاً سياسياً بين ذكاء قريش وحكمة النبي ..

ولقد ركزت قريش كل ذكائها ليعود المسلمون فلا يدخلوا المسجد الحرام هذا العام ، بينما امتدت حكمة النبي لقري ما لا يراه القوم من أيام المستقبل .. ولئن بدت المعاهدة هزيمة للمسلمين الآن ، ولئن ظهرت استسلاماً لشروط قريش ، فإنها ستصبح بعد أشهر قليلة شيئاً آخر تماماً ..

كان سهيل بن عمرو هو ممثل قريش ..

وكان على بن أبي طالب هو كاتب المعاهدة من قبل النبي ..

قال رسول الله لعلي : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ..

قال ممثل قريش : لا أعرف هذا ، اكتب باسمك اللهم ..

قال رسول الله لعلي : اكتب باسمك اللهم ..

ان تعنت ممثل قريش لا يعني شيئاً ، وليس هناك فارق بين باسمك اللهم .. وبسم الله الرحمن الرحيم ، غير نية القائل ..

قال النبي لعلي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل ابن عمرو ..

قال سهيل معترضاً : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك .. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ..

قال النبي لعلي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل ابن عمرو ..

هذا هو التراجع الثانى كما يبدو للنظرة السريعة .. غير ان النبى يريد ان يحقق هدفا ما .. هدفا لم يكشف الستار عنه بعد ، ولن يكشف عنه الآن .. ان الأمر كله يمضى بالهام من الله ..

وعاد على يكتب ان محمد بن عبد الله ، وسهيل بن عمرو اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .. على أنه من أسلم من قريش وجاء الى محمد بغير اذن وليه .. رده المسلمون الى قريش ، ومن عاد الى دين آباءه ممن مع محمد لم ترده قريش الى النبى ..

كان هذا الشرط موجعا للمسلمين ..

ان قريشا تفرض شروطها الجائرة فى المعاهدة ..

ومضى على يكتب .. ان بين المسلمين وقريش صدورا تنطوى على ما فيها ، ورغم ذلك فلا سرقة ولا خيانة ، ومن أحب ان يدخل فى عقد محمد دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه .. وان على النبى أن يرجع عن مكة عامه هذا فلا يدخلها ، فاذا كان العام القادم خرجت قريش منها فدخلها معتمرا ثلاثة أيام .. بعدها يرحل عنها ..

كانت شروط المعاهدة قاسية على المسلمين .. كانت تبدو تراجعا غير مفهوم ..

ووقع اثناء المعاهدة حادث زاد من ألم المسلمين ودهشتهم .. لجأ الى المسلمين ابن ممثل قريش فى توقيع المعاهدة .. أسلم وجاء لاجئا الى المسلمين ، ونهض اليه ابوه سهيل يضربه ويرده الى قومه .. واستغاث المسلم المهاجر بالمسلمين ان ينقذوه من قريش حتى لا يفتنوه فى دينه ، وحدته رسول الله أن يصبر ويحتسب ، فان الله جاعل له ولن معه فرجا ومخرجا ، أفهمه النبى انه قد عقد بينه وبين قريش صلحا ، وأعطوا عهد الله على ذلك ، وأن المسلمين لا يغدرون بعهدهم ..

وأعيد الابن المسلم الى مكة مخذولا ..

وتم توقيع المعاهدة من جانب المسلمين والمشركون ..

وقام الرسول بعد توقيع المعاهدة يأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا للتحلل من عمرتهم والعودة الى المدينة .. فلم يبق منهم رجل ..

كرر أمره ثلاث مرات وسط مسلمين واجمين من فرط الهم والذهول .. ثم نحر بدنة ودعا حالقه فحلق ولم يكلم أحدا من المسلمين .. فلما رأى المسلمون انه غاضب وقد سبقهم بالتحلل من عمرته ، نهضوا ينحرون ويحلق بعضهم رؤوس بعض ، وقد كادوا يقتل بعضهم بعضا من فرط الغم ..

ثم أثبتت الأيام ان المعاهدة على العكس مما تصوره المسلمون ..

كانت انتصارا ولم تكن هزيمة .. كانت فتحا ولم تكن استسلاما ..

لقد تهاوى اتحاد الكفار فى الجزيرة منذ تم توقيع المعاهدة .. كانت قريش تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التحدى للإسلام ، فلما شاع نبأ تعاهدها مع

المسلمين ، خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثرت القبائل الوثنية فى أنحاء الجزيرة ..

وعلى حين توقف نشاط قريش .. انطلق نشاط المسلمين وراحوا يجذبون اليهم كل من يملك قدرة على رؤية الحقيقة ..

وتد دخل فى الاسلام خلال عامين من توقيع المعاهدة اضعاف اضعاف من دخلوه قبلها .. والدليل على ذلك ان الرسول خرج الى الحديبية فى الف وأربعمائة مسلم ، ثم خرج عام فتح مكة فى عشرة آلاف مسلم .. ولقد كان فتح مكة بعد توقيع المعاهدة بعامين ..

زاد فيهما المسلمون كل هذه الزيادة الهائلة بسبب حكمة النبي وبعد نظره ..

وخرج النبي من صراعه السياسى منتصرا .. وانقلبت الشروط الظالمة للمسلمين الى شروط ضد قريش ..

من كفر من المسلمين وذهب الى قريش فليحتفظوا به ، فقد اغنى الله الاسلام عنه ..

ومن أسلم من الكفار وذهب الى المسلمين فليردوه الى قريش ، حيث يبتى فيها عينا للمسلمين ، أو يهرب من قريش لتأليف فرقة مقاتلة صغيرة يقطع بها الطريق على القبائل ويعيش كالشوكة فى جنب قريش ..

ولا تكاد الأيام تضى حتى ترسل قريش الى النبي ترجو منه ان يؤوى اليه من أسلم من قريش ، بدلا من تركهم هكذا سهاما طائرة نحو قريش ..

وهكذا نزلت قريش عن الشرط الذى أملتة تعنتا ، وقبله النبي راضيا ..

مكنت المعاهدة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من كف قريش عنه ، ليتفرغ لمن بقى من اليهود فى الجزيرة العربية .. وكان اليهود لا يتوقفون عن غدرهم وكيدهم للاسلام ، فأعطت الهدنة بين المسلمين والمشركين فرصة عظمية للاسلام كى يواجه كيد اليهود وغدرهم ..

وبدأت سلسلة المعارك التى انتهت بكسر شوكة اليهود واجلائهم .. ثم تنازلت قريش عن المعاهدة حين اكتشفت انها كانت شركا سيقوا اليه دون ان يدركوا ..

ومضت حياة النبي صراعا لا يتوقف ، ومشقة لا تدع له وقتا للراحة ..

لم ينج بيته ولا خلّت حياته الخاصة من المشقة ..

تزوج النبي ، صلى الله عليه وسلم من تسع زوجات ، وقد كان زواجه من تسع خصوصية اختص بها وحده ، صلى الله عليه وسلم .. لأسباب تتصل بالدعوة الاسلامية ، وهى دعوة اباحت لمعتقبيها الزواج من أربع ، بشرط العدل ، وأمرت بالاقتنصار على زوجة واحدة اذا خاف المسلم عدم العدل .. وقد أساء كثير من المستشرقين وأعداء الاسلام الى النبي ، وكانت الثغرة التى نفذوا منها أو ظنوا أنهم نفذوا منها هى زواجه من تسع ..

ولقد تمت أكثر تلك الزيجات لأسباب سياسية أو انسانية تتصل بالدعوة الإسلامية ..

والمعروف من سيرة النبي انه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره .. وكانت هي في سن الأربعين ، وظل مقتصرا عليها وحدها حتى وصل عمرها الى الخامسة والستين .. وماتت وهو - صلى الله عليه وسلم - فوق الخمسين ..

تزوجها قبل أن يبعث بالاسلام ، وظل وفيها لها حتى مات وهو نبي .. غير أن أعباء النبوة ، ومشقة الجهاد ، ورأفته بالناس ، وتضحياته للاسلام ، وأمر الله تعالى ، اضطره هذا كله للزواج بعدها بأكثر من واحدة حتى بلغ عدد زوجاته تسعا ..

كان زواجه من « عائشة » - على صغر سنها - ارتباطا بأبي بكر .. فقد كانت ابنته .. وكان زواجه من حفصة - رغم قلة وسامتها - ارتباطا بعمر ، فقد كانت ابنته ..

تزوج من « أم سلمة » أرملة قائده الذي استشهد في سبيل الله وعانت معه امراته ما عانت في الهجرة الى الحبشة ، والهجرة الى المدينة ، فلما مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه عواصف الحياة ، ضمها النبي الى بيت النبوة ..

وكان زواجه من « سودة » ، اكراما لقيم اسلامها وكبرها وعزوفها عن الرجال ووحدها أمام الحياة ..

وكان زواجه من « زينب بنت جحش » ، امتحانا قاسيا له ، وقد جاء الأمر بزواجها ، من الله عز وجل ، لتحريم عادة كانت شائعة في الجاهلية ، وهي عادة التبني ..

ان زينب من قريبات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هي اذن من بنى هاشم ، وهي تعتز بنسبها اعتزازا يدعوها الى رفض الزواج من زيد ابن حارثة ، وهو مولى النبي الذي أعتقه والحقه بنسبه وتبناه فصار يدعى زيد بن محمد ..

غير انها تنزل على رأى النبي وأمر الله فتتزوج من زيد ..

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضللا مبينا » [١] ..

كان واضحا منذ البداية أن هذا الزواج سيتحطم .. لم تكن زينب تحب زيدا ، ولم يكن زيد رجلا يطبق الحياة مع امرأة قلبها منصرف عنه .. وجاء زيد يشكو للنبي ويطلب الاذن بطلاق زوجته .. وأوحى الله الى رسوله أن يدع زيدا يطلقها ويتزوجها هو .. وأحس النبي بالحرج الهائل وحدث زيدا أن يستمر ويحتمل ، تصور ما سيقوله الناس عنه من أنه تزوج امرأة ابنه ، غير أن ما خشيه النبي هو ما يريد الله ابطاله .. ليس زيد ابنه ، لا وجود

(١) الآية ٢٦ سورة الاحزاب مدنية .

لنظام التبنى فى الاسلام ، واذن فليطلق زيد وليتزوج النبى لاثبات ما يريد الاسلام اثباته . . وليتحمل رسول الله على نفسه ما سيقوله الناس عنه ، فليست هذه اول تضحية ولا آخر تضحية يقدمها للاسلام ، قال تعالى فى ذلك :

« واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه : امسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله احق ان تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعياتهم اذا قضوا منهن وطرا وكان امر الله مفعولا » [٧] . .

كانت الظروف التى احاطت بزواجه ، صلى الله عليه وسلم ، تجعل من هذا الزواج بعض ما كلف الرسول بحمله من سياسة الافراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من اقامة الخير والرحمة ، واحترام القيم الرفيعة وضمها لبית النبوة . .

اسلمت « ام حبيبة بنت ابي سفيان بن حرب » ، سيد قريش وقائدها فى حرب الاسلام ، وهاجرت مع زوجها الى الحبشة ، وعرفت الغربة والوحشة والخوف فى الله ، ثم مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه الحياة ، وكان موقفها النبيل من الاسلام ، والوقوف ضد ابيها ، هو القيمة التى حملت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ضمها لبית النبوة . .

ولقد دخل ابو سفيان عليها يوما وهى زوجة لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم . . واراد ان يجلس على فراش النبى ، فحملت ام حبيبة الفراش بعيدا عنه . . وسألها ابوها : ارغبت بى عن الفراش ام رغبت به عنى . . ؟ قالت بشجاعة : هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وانت مشرك فلا تلمسه . .

اما « صفية بنت حبي » ، فكان ابوها ملك اليهود . .

اما « جويرية بنت الحارث » ، فكان ابوها زعيم قبيلة بنى المصطلق . . وقد انتهت حرب اليهود وبنى المصطلق بالهزيمة ، ووقعت ابنتا الملك والزعيم فى الاسر ، وكان زواج النبى منهما جبرا لخاطر المنهزمين ، ودعوة الى ان يحسن المسلمون معاملتهم ، وقد حدث ما اراده النبى ، فقد رفض المسلمون استرقاق اصهار النبى ، وهكذا عادت الحرية الى قبيلة بنى المصطلق ، وكان النبى بتصرفاته يريد ان يكشف العمق الانسانى فى حروبه ، ويشير للمسلمين الى الاخوة الانسانية ، وان الحرب فى ذاتها ليست مطلبا ، هى دفاع عن الاسلام ، والاسلام فى عمقه البعيد رحمة وحب . . واذن يتزوج النبى من بنات المهزومين المسترقين كى ترثد الحرية والكرامة لأهلهم ، ويدخلوا الاسلام ان ارادوا عن اقتناع . .

جاء زواجه من « مريم القبطية » وقد بعث بها المقوقس اليه كأمة ، رمزا للود الذى أشار اليه القرآن بين الاسلام والمسيحية ، وتشريعا للمسلمين بحل الزواج من كتابيات . . وقد أنجبت له مريم ابنا سماه ابراهيم ، باسم

(١) الآية ٢٧ سورة الاحزاب مدنية .

جده ابي الانبياء ، غير انه لم يعمر طويلا ، مات وهو رضيع .. وكان موته امتحانا للنبي ، واثارة الهية الى ان ورثة الرسول من الرجال هم اتباع القرآن وحملة الاسلام لا الابناء من صلبه ..

يخطىء من يتصور ان الرسول ، صلى الله عليه وسلم كان يجد وقتا ينفقته فى البحث عن متعة ، ولو كانت حلالا .. ابيحت المتع لغيره واستأثر وحده بشقاء الجهاد والتشريع والاحتمال ..

يخطىء من يتصور ان الرسول كان يعيش فى بيته افضل مما يعيش اقل المسلمين فى عصره .. كانت حياته فى البيت احتمالا وزهدا يفوقان الطاقة ، حتى اشتكت بعض زوجاته ، ومنهن من جاءت من بيت ثرى كبيت ابي بكر أو بيت عمر .. واتحدت بعض زوجاته عليه يسألنه ان يزيد من النفقة ، وهجر النبى زوجاته ، وانتشرت شائعة تقول انه طلقهن جميعا .. ثم نزلت آيات التخيير .. نزل القرآن الكريم يخير زوجات النبى بين حياة الشسظف التى يحيينها فى بيت النبوة ، أو الطلاق ..

قال تعالى فى سورة [الأحزاب] :

« يا ايها النبى قل لأزواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحنك سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » [١] ..

وانتهت الفتنة ، وهذا الصراع فى بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم .. واختارت زوجاته حياة الزهد والاحتمال والدار الآخرة ، على الدنيا ..

ولم تكن مطالب زوجات النبى تتجاوز حدود المباحات .. غير ان الرسول كان أسوة للعالمين ، وينبغى ان يعيش أسوة العالمين حياة زاهدة ليضرب المثل الأعلى فى حياة من يتصدى لقيادة المسلمين ..

ولقد عوض الله تعالى زوجات النبى عن تضحياتهن ، ورفع درجاتهن فصرن أمهات للمؤمنين جميعا .. قال تعالى :

« النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » [٢] ..

وتاكيدا لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق عليهن ، وهو حجاب لم يشرع على النساء المسلمات بنفس الدرجة ..

.....
.....

مضى النبى فى صراعه ، وكانت رسائله الى الملوك والحكام وقادة الجماعات والدول حوله تشير لعالمية الاسلام وتؤكد ..

بعث النبى يدعو قيصر الرومان الى الاسلام .. وبعث الى أمير دمشق يدعو الى الاسلام .. وبعث الى أمير بصرى من ولايات الروم يدعو الى

(١) الايتان ٢٨ ، ٢٩ سورة الاحزاب مدنية .

(٢) من الآية ٦ سورة الاحزاب مدنية .

الاسلام .. وبعث الى عظيم القبط يدعوه الى الاسلام .. وبعث الى كسرى
ابرويز ملك فارس يدعوه الى الاسلام .. أرسل الى أمير البحرين الجوسى
يدعوه الى الاسلام ..

واختلفت ردود أفعال من بعث النبي اليهم برسائله .. منهم من حاول
ايهام حامل الرسالة انه أسلم ورده بهدية ، ومنهم من مزق الرسالة وهو
حائق .. ومنهم من تلفظ وأجاب الرسول جوابا حسنا .. ومنهم من أسلم
حقيقة ..

ولقد كان احساس النبي بشمول الدعوة وعالميتها استشفافا لأيام لم ترفع
عنها أستار الغيب بعد ..

.....

ومضت الأيام صراعا لا يهدأ ..

صراع قاده النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حتى فتحت مكة ، وطهرت
الجزيرة العربية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأكمل الله للمسلمين
دينهم ، وحج بهم النبي حجة الوداع ، وتنزل عليه الوحي فى عرفات بقوله
تعالى :

**((اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام
دينا))** [١] ..

تليت الآيات على أبى بكر فبكى ..

أحس ان الله تبارك وتعالى قد أنهى مهمة رسوله ..

أحس ان النص القرآنى ينهى الرسول لقومه ..

.....

.....

.....

قالت عائشة لأطفال يتصايحون ويلعبون خارج الدار :

— اصمتوا فان رسول الله مريض ..

هدأ الأطفال وشعروا بخوف مفاجئ .. فى الأيام الأخيرة لاحظوا أن
رسول الله لا يلاعبهم كما كان يفعل ، لاحظوا أن شحوبا غريبا يكسو وجه
النبي الذى كان يبتسم فيضىء وجهه كصفحة الذهب ..

دخل آخر الأنبياء الى بيته وقدماه لا تكادان تحمالانه .. دخل بيته وهو
يستند الى ذراعى الفضل بن العباس ، وعلى بن أبى طالب ..

كان يحس التعب والمرض ..

(١) من الآية ٣ سورة المائدة مدنية .

انتهى الأمر واستسلم الجسد العظيم لرعدة الفراش وأوجاع المرض ونذر
النهاية ..

أرقدته عائشة على فراشه الخشن ، ووضعت يدها على جبينه .. كان
رأسه يلتهب من الحمى .. قالت عائشة وعيناها تلمعان بالدمع :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله .. هل تحس الما ؟

ابتسم النبي ليطمئنها واستسلم للنعاس ..

وانساب فى ذاكرة النبي تيار من الصور الحية ..

مر أمام العقل موكب الذكريات ..

ها هو ذا الروح الأمين جبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحى فى غار
حراء ..

مرت على اللحظة المباركة ثلاث وعشرون سنة ، تبدو الآن مثل حلم خاطف
.. حتى الأعوام الأربعون التى سبقتها تبدو كأنها صورة لم تستغرق
من الوقت غير لحظة ..

هان كل شىء فى الله ، واحتمل الاحتمال أضعاف طاقته فلم يستسلم
يوما للشكافة ، وأعطى توهج العقيدة لاتباعها قوة بغير حد ، وتجربة بلا نهاية
.. أخيرا عز الاسلام وارتفعت رأيته .. فحمدا لله ..

اغفى النبي قليلا ..

ثم استيقظ على صوت بكاء مكتوم لعائشة ..

فتح عينيه ونظر فى وجهها وناوم احساسه بالصداع والحمى والالام ،
وابتسم يطمئنها وعاد يغمض عينيه ويستسلم للاغفاء ..

ما الذى يبكى عائشة ... ؟

الم يتوج الله جهاده الشناق بفتح مكة وتطهير البيت الحرام ... ؟

تداعت الصور حية طرية فى ذاكرته ، صلى الله عليه وسلم ..

تذكر ما كان من أمر قريش حين نقضت معاهدة الحديبية ، وقاتلت خزاعة
وهى مع المسلمين فى حلف واحد ، ووصل الأمر بقريش الى حد قتل حلفاء
المسلمين فى البيت الحرام ..

وطارت الأنباء للرسول ..

وسار ، صلى الله عليه وسلم فى جيش عدد جنده عشرة آلاف .. كان
الجيش مهيبا ، وجند المسلمين ينحدر من جبال مكة كسيل لا يقف فى
طريقه شىء ..

مرت الفرق والمكاتب والسرايا ..

فرقة بعد فرقة .. وكتيبة بعد كتيبة ، وسرية بعد أخرى .. مر حملة
السهام والسيوف والفرسان .. مر رسول الله فى كتيبته الخضراء ، وفيها
المهاجرون والأنصار ..

لا شيء يظهر منهم غير حدقات العيون ، وبقيّة الأجساد مغطاة بالدروع
والسلاح ..

ولمعت سيوف الاسلام بما يمثله من حق يستند الى القوة ..

ووسط هذا الجيش العظيم الذى فتح مكة ، كان النبي ، صلى الله عليه
وسلم ، يركب ناقته وقد حنى رأسه خشوعا لله وتواضعا حتى كاد رأسه
يمس ظهر البعير الذى يركبه ..

وانفتحت أبواب مكة لهذا الجيش .. استسلم ساداتها وأتباعهم ، ارتفعت
كلمة الله فيها .. ودخل النبي البيت الحرام فطاف حول الكعبة ، وهو يكسر
الأصنام المصفوفة حولها .. ويضربها بقوسه ظهرا لبطن ..

وانكفأت الأصنام على وجوهها وانكبت على الأرض ..

أمر بالكعبة ففتحت .. رأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لابراهيم
واسماعيل يستقسمان بالأزلام .. قال ساخطا على التهمة التى الصقها
المشركون بابراهيم واسماعيل : قاتلهم الله .. والله ما استقسما بها قط ..

ومحا ذلك كله .. حتى اذا طهر المسجد من الأوثان وأعادته كما خلقه الله
بيتا للتوحيد المطلق .. التفت الى قريش وعفا عنهم ودعاهم الى الله ، ثم حان
وقت الصلاة ، وصعد بلال فوق ظهر الكعبة وأذن للصلاة ..

واستمع أهل مكة لهذا النداء الجديد يتردد صداه بين الجبال :

الله أكبر ● الله أكبر ● الله أكبر ● الله أكبر ● أشهد أن لا اله الا الله
أشهد أن لا اله الا الله ● أشهد أن محمدا رسول الله ● أشهد أن محمدا
رسول الله ● حى على الصلاة ● حى على الصلاة ● حى على الفلاح ●
حى على الفلاح ● الله أكبر ● الله أكبر ● لا اله الا الله ●

اخيرا عادت للبيت حرمة وكرامته ..

عاد تيار الصور ينساب فى ذاكرته ..

ها هى ذى معركة حنين بهزائمها وانتصاراتها وغنائمها .. ها هو ذا النبي
يعطى الغنائم من التحق بالاسلام من يومين من أهل مكة ، ويحرم من أعطى
الاسلام كل شيء كالانصار ..

حرم رسول الله الأنصار جميعا من غنائم حنين ، وقال قائل منهم :

— لقى والله رسول الله قومه ..

ومشى سعد بن عبادة الى رسول الله فأخبره أن الأنصار غاضبون ..

سأل الرسول : فميم ؟

قال سعد : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ،
ولم يكن لهم من ذلك شيء ..

سأل رسول الله سعد بن عبادة : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال سعد : ما أنا الا امرؤ من قومي ..

قال رسول الله : اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة .. فاذا اجتمعوا فأعلمنى ..

وجمع سعد الأنصار جميعا وأنبأ الرسول أنه جمعهم ..

وخرج اليهم رسول الله ووقف يتكلم فيهم ..

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— يا معشر الأنصار ألم آتكم ضالين فهداكم الله ، وفقراء فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى .

قال رسول الله : الا تجيبون يامعشر الأنصار .

قالوا : وما نقول يارسول الله وبماذا نجيبك .. المن لله ورسوله .

قال رسول الله : والله لو شئتم لقلتم فصدقتهم وصدقتهم : جئنا مطاردة فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرك .

قالوا : المن لله ورسوله .

قال رسول الله : أغضبتهم يا معشر الأنصار لسال أعطيته قوما لأحبيهم فى الايمان ، وتركتكم الى ما قسم الله لكم من الاسلام .. أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس الى رجالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله الى رجالكم . فوالذى نفسى بيده ، لو أن الناس سلكوا طريقا وسلكت الأنصار طريقا لسلكت طريق الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت أمرا من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء ابناء الأنصار ..

ويكى القوم حتى تبثل لحاهم ويقولون :

— رضينا بالله ربا ، ورسوله رسما ..

وينصرف النبى فينصرفون راضين ..

أكان درس الأنصار اشارة الى عطاء المسلمين الدائم ، وعدم توقعهم للجزاء فى هذه الأرض ..

لقد فهم الأنصار أن المسلم الحقيقى فى الدنيا .. هو من يجىء الى الدنيا ليعطى لا ليأخذ .

استيقظ النبى فوجد نفسه وحيدا فى الفرقة .

كان جسده يلتهب من الحمى والالم .. ونادى عائشة وطلب منها أن تأتبه بماء يتبرد به ..

ماء كثير ..

وراحت أمهات المؤمنين يصيبن الماء على رسول الله حتى اكتفى وخفت الحمى قليلا عن جسده ..

.....
.....

مضت الساعات بطيئة متناقلة ..

زادت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أحس أنه لن يستطيع الصلاة بالناس ..

وأمر أن يصلى أبو بكر بالناس .. وراجعته عائشة أكثر من مرة خشية على أبيها من كراهية الناس وتشاؤمهم منه .. وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أن يؤم المسلمين صاحبه فى الغار .

فى اللحظات التى تقع بين يقظة الألم وراحة النوم المتقطع .. كان ذهن النبى يفكر ..

ما الذى نسى أن يقوله للناس ..

لقد بلغهم كل شيء وعلمهم كل شيء وترك فيهم كتابا لا يضل بعده من يتمسك به .

ونعس الرسول قليلا . وعادت الذكريات تعبر رأسه .

رأى نفسه فى حجة الوداع .

انتهت العهود المعطاة للمشركين وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .

وها هو ذا النبى يخرج أميرا للحج ومعلما للمسلمين مناسكهم ..

ويتأمل رسول الله آلاف الموحدين وهم يتجهون الى البيت الحرام ، ملبين طائعين مسلمين ، يحيون ذكريات جدتهم ابراهيم خليل الله .

ويقف النبى خطيبا فى الحجيج .

ان هاتفا خفيا يشعره صلى الله عليه وسلم أن مقامه فى الدنيا يوشك على النهاية . وهو يحس أن هذا الركب سينطلق فى الحياة وحده ، فهو يركز له الدعوة ، ويوصيه بالاسلام ، ويدعوه الى الله ، ويسأل الناس تلتقا بعد ثلاث وعشرين سنة من كفاح الدعوة الى الله : هل بلغت .. ويشهد الناس أنهم سمعوا وانه قد بلغ .

ها هو ذا يدعو معاذ بن جبل .. ويعلمه كيف يدعو الناس الى الله ، وكيف يعرفهم دينهم ، ثم يخرج معه الى خارج المدينة يوصيه .. ومعاذ راكب ، ورسول الله يمشى الى جوار ناقته يوصيه ويحدثه ويعلمه .

— ان اولى الناس بى .. المثقون .. من كانوا وحيث كانوا ..

.....

كان النبي رحمة لكل الناس ، وصورة عليا من صور الاخاء والتواضع .
كان حاكما على المسلمين بالقرآن .. ولكنه كان يرفض أن يظهر في
أى مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة .. كان يقول لأصحابه :
انما انا عبد الله .. فقولوا عبد الله ورسوله .

وخرج على جماعة من أصحابه فقاموا احتراماً له فأمرهم ألا يقوموا له
.. وكان إذا خرج للقاء أصحابه وتلاميذه جلس معهم في آخر مكان يجده ..
وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب أطفالهم ويجلسهم في
حجره ، ويجيب دعوة الكبير والصغير ، ويזור المرضى في أقصى المدينة ،
ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من يلقاه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ،
فإذا جاءه أحد وهو يصلى خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ من
قضاء حوائج الناس عاد الى صلاته ، وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم
نفساً .. وكان يخدم نفسه إذا دخل بيته ويخدم أهله .. فهو يغسل
ثوبه ويرتقه ، ويحلب ثنائه ويصلح نعله ويسقى البعير ويأكل مع الخادم
ويقتضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين والمحزون .

وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه انه كان يترك أحفاده يتسلقون ظهره
أثناء صلاته .. ولم تنتشر رحمته على الانسان وحده ، وانما جاوزتها
الى الحيوان والطيور والأشجار . كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لقطعة
تلتمس عنده ملجأ من البرد .. وكان يطعم الحيوانات بيديه ويسقيها ويرحمها
ويقوم بنفسه على تهريض كلب مريض ، وكان يسمح لجواده بكم قميصه
.. ولم يكن يقطع شجرة أو زهرة .. وأمر جيوش المسلمين وهي تفتح
الأرض وتنتشر عدالة الاسلام ألا يقتلوا طفلاً أو شيخاً أو امرأة أو صبياً
ولا يقطعوا شجرة ولا يهدموا بيتاً .

لم يكن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم قانوناً ينظم به العلاقة
بين الانسان والانسان فحسب ..

ولم يكن ما جاء به نظاماً لرقى الحياة وتقدمها فحسب .. هذه كلها
أمور نسبية .

انما جاء بحضارة خالدة تنظم العلاقة بين الانسان والكون ، وتعيد
الى الوجود تناغمه حين تبني هذه العلاقة بين انسان حى وكون
مأنوس .. يتجهان معا .. الانسان والكون الى الله سبحانه وتعالى .

وقد ظل صلى الله عليه وسلم حتى آخر أيامه فى الأرض مشغولاً
بمستقبل الدعوة ، قلقاً على مصير الرسالة ، مهموماً بأمر المسلمين ،
معلق القلب بشئون أمته والأمم التي لم تأت بعد وربما حملت الاسلام أسماً
دون أن يتمكن هواه من القلب ويحكم الجوارح .

وأراه الله قبل أن يموت ما ملأ قلبه طمأنينة .
فى فجر الاثنين الذى اختاره الرفيق الأعلى فيه ..

أقبل المسلمون من بيوتهم الى المسجد واصطفوا للصلاة خاشعين وراء
أبى بكر ، وهو امام رقيق التلاوة يبكى اذا قرأ القرآن فيبكى من يصلى
خلفه ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة .. وكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم .. وأفسحوا له مكانا بينهم ، وأشار بيده أن اثبتوا على صلاتكم .. وتبسم فرحا من هيئتهم في الصلاة .

قال أنس بن مالك : مارأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة ..

ثم رجع الى فراشه .. والناس يظنون أنه أفاق من مرضه ..

قالت عائشة : عاد رسول الله من المسجد فاضطجع في حجرى .

ودخل علينا رجل من آل أبى بكر فى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يده نظرة عرفت منها انه يريد .

فأخذته فألنته له ثم أعطيته اياه .

فاستن به كأئسد ما رأيت يستن بسواك قبله ثم وضعه .

.....

.....

أغمض النبى عينيه .

وجد جبريل يقف أمام قلبه .

قال جبريل عليه السلام : الصلاة والسلام عليك يارسول الله . ان ملك الموت يستأذن عليك ، لم يستأذن على بشر من قبلك ولن يستأذن على بشر من بعدك .

ان الله يخيرك بين الملك والخلود فى الدنيا وبين لقاء وجهه الكريم .

تجاوز النبى خلود الدنيا والملك فيها ، وذوى قلبه حيننا الى لقاء ربه عز وجل .

تذكر يوم عرج به جبريل الى الله تعالى ، ونبض وجدانه بنفس الفرح القديم والفناء المستطاب فى الله ، والسكينة الراضية .

والتقط جبريل رسالة النبى .

وأفسح مكانه لملك الموت ..

ودخل ملك الموت حجرة النبى وهو يضع أجنحته ويصلى عليه ..

كلمة عن الكتاب ومنهجه

أريد أن اعترف اعترافاً مبدئياً بأننى لست مؤلف هذا الكتاب .. يمكن القول اننى كاتبه ، ان تأليف الشيء يعنى خلقه أو ابداعه ، وكل ما فى كتاب أنبياء الله قديم ، وقد اعتمدت فيه على كتب وأفكار أخرى ، وربما كان الجديد فى الكتاب هو أسلوب التقديم وزاوية الرؤية .

واذن .. فلا فضل لى فيه ان أصبت .

للعلماء السابقين والمعاصرين ثواب هذا الفضل ..

أما الخطأ فأرأنى مضطراً لاحتماله وحدى .

لا أنكر اننى — بحكم ميلادى فى زمان متأخر — قد حاولت ما استطعت أن أستفيد مما كتبه السلف والخلف عن قصص الأنبياء . غير أن هذا لا ينفى أن أعرف قدر نفسى فلا أتجاوزهُ . ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

.....

اعترف أيضاً اننى توقفت قبل أن أخط فى الكتاب حرفاً أمام هذا التساؤل : كيف تجرؤ .. من واقع القصور البشرى والخطيئة أن تتصدى للكتابة عن ميم النقاء فى الأرض ..

منعنى السؤال فترة طويلة عن الكتابة ، ثم حدثتنى نفسى أن الأنبياء قد بعثوا لأمثالنا من الخاطئين ، ولو كان أهل الأرض أنقياء أتقياء يعرفون الله ويذكرون عهده لا نتفت الحكمة من بعث الرسل اليهم .

تسقط مهمة الرسل لو كانت الأرض كلها على الحق .

ان الخطأ هنا .. هو المسئول الأول عن بعث الرسل حين يبعثون برحمة الله .

زايلى التردد وبدأت أكتب ..

فى المرة الأولى التى ظهر فيها هذا الكتاب ، ظهر فى طبعة مبسطة للأطفال . . نشر أولاً على امتداد ستة أشهر فى مجلة « ميكي » للأطفال ، ثم جمع ونشر كما هو فى كتاب قلت فى نهايته : أن أحد أحلامى الكبيرة أن أكتب قصص الأنبياء للكبار ، لو جعل الله فى العمر بقية ، وشاءت رحمته أن تمنح الأذن والعون .

وهذا الكتاب هو ثمرة لاستجابة الرحمة لهذا الدعاء .

وهو ثمرة لقراءة بدأت فى الإسلام والصوفية منذ سن الخامسة عشرة حتى سن الأربعين ، ورغم اننى أعمل فى الصحافة فى ميدان النقد والأدب ،

الا أن هوى قديماللإسلام جعلنى أنظر لكل ما كتبه مثلما ينظر المرء الى سحابة مارة لا تلبث أن تتبدد .

لا خلود لشيء على الأرض . الخلود لله وحده ..

لكلمات الله وحدها .. وأذن يحتضن المرء كلمات الله كى ينجو من الفناء ويهزم الموت . ولا شيء ينجو من الفناء ويهزم الموت غير الحب الإلهى . لأن أحد طرفى هذا الحب .. وهو الله سبحانه وتعالى .. حى أبدا .. خالد أبدا .. باق أبدا .

ونحن لا نعرف أن أحدا أحب الله عز وجل مثلما أحبه أنبيأؤه ، لأن الحب ينبع من العلم ، وقد كان أنبياء الله أعلم الناس بالله .
وأذن نلتصق بأنبياء الله .

هم كبار العاشقين .. وهم رسل الرحمة .. ولن ينجى من طوفان الأرض غير سفينة نوح .. وإذا كانت أخشاب السفينة القديمة قد تآكلت فان السفينة ذاتها لم تنزل موجودة .. ولم تنزل قادرة على مقاومة الطوفان .
وانك لوأجد هذه السفينة فى كلمات أنبياء الله كما وردت فى القرآن .

.....
.....

توقفت قبل أن أكتب الكتاب عند سؤالين سألتهما لنفسى :

ما هو الجديد الذى تنوى تقديمه فى الكتاب .

وأى منهج سوف تتبع فى كتابته .

ان الإجابة عن السؤالين تضطرننا اضطرارا لنقد كتب السابقين عن الأنبياء رغم احترامنا البالغ لمؤلفيها .

ضمت هذه الكتب عددا من الحقائق الطيبة ، كما ضمت جهدا علميا عميقا ، غير أن معظمها كتب بلغة عصره الذى وضع فيه ..

ومن الصعب أن نقرأ اليوم كتابا بشريا وضعت أفكاره بلغة الماضى . ان صعوبة الأسلوب القديم .. تمثل عقبة أمام أبناء عصرنا فى قراءة قصص الأنبياء .. وهناك كتب تتحدث عن الأنبياء بحياد .. وتذكرهم كجزء من التاريخ الذى ذهب وانقضى .. والأصل أن الأنبياء هم قادتنا على الأرض ، وهم حكامنا الحقيقيون ان أردنا النجاة .

وهم مستقبلنا وليسوا ماضيينا القديم ان أردنا الخلاص .

وهناك كتب تضع الحقائق جنبا الى جنب مع الأساطير ، وتمزج الحق بما لا علاقة له بالحق ، ويبدو مؤلفوها مثل قوم خرجوا يجمعون ثمارهم أثناء الليل .. فلم يدروا أى الثمار استوى وأيها لم يزل نجا وخطوا .

وهناك كتب تمهد يدها لمأدبة الاسرائيليات الحافلة بالخرافة .

وهناك كتب تعرض القصص بما أثير حولها من اختلافات ومشاكل ،

وتسود الصفحات بهذه الخلافات التي تدعو ذهن القارئ الى الشرود..
أو تدعوه الى القوص فيها فيسقط منه مغزى القصة الاصلى .
وهناك كتب تقليدية كتبت بعلم لا يتوهج بالحب ، أو كتبت بحب طائش
فلم يسنده العلم .

قلت لنفسى : لو استطعت أن تكتب عن الأنبياء كتابا بلغة هذا العصر
الميسرة المفهومة ، ونجوت فيه مما شاب الكتب السابقة من أخطاء
واختلافات وخرافات ، فانك تكون قد قدمت جديدا .
ولقد شادت هذه النظرة التي اختيار منهج الكتاب على الفور .

ان الكتاب الوحيد الذى وردت فيه قصص الأنبياء بكمال لا يطاول ،
وبصدق لا يخدش ، هو القرآن الكريم ، ولئن بدل أصحابه بعده فى أنفسهم
وحرّفوا فى ذواتهم ، فان الكتاب الحكيم بقى بغير تبديل أو تحريف ، حفظه
الله تعالى كما أنزل .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » [١] .

.....
.....

واذن تحدد منهج الكتابة .. بالمنهج القرآنى .

وتمثل هذا فى أن يكون تناول أحداث القصص نابعا من أرقى
التصورات الاسلامية ، وأكثر التفسيرات احتراما ، وطبقا لهذا المنهج
كان روح الآيات القرآنية مرجعا حاسما ، وكانت عصمة الأنبياء اطارا
حاكما طيلة الوقت ، وكانت أساطير التوراة والحواديت المسماة بالاسرائيليات
شيئا مستبعدا ومرفوضا بعد خضوعه للمناقشة ،

وهكذا اعتمدت فى قصص الأنبياء على القرآن الكريم أساسا ، واثار
هذا عديدا من المشاكل ، أهمها أن القرآن ليس كتابا فى التاريخ ، إنما
هو كتاب دعوة الى الله ، وهو لا يذكر أحداث قصص الأنبياء مرتبة بزمن
وقوعها ، ولا يعاب بالتفصيلات الصغيرة ، وأوقع هذا فى مشكلة ترتيب
أحداث القصص .

ان العودة لصحف اليهود والنصارى وتقاسيرهم. وكتبهم يمكن أن
تضىء الموقف ، ولكنها لا تحل المشكلة .

رغم ذلك أخذت من صحف العهد القديم والجديد ما رأيته غير متعارض
فى جوهره مع القرآن .. أما ما تعارض مع القرآن فعرضته اعمالا لحرية
الرأى ، ورفضته نزولا على الحق .

من بين المشاكل التي واجهتها ، هذه الفجوات الصامتة فى القصص
.. وهى فجوات لا حرج على الخيال أن ينشط لتصورها وتصوير ما دار
فيها من حوار ، وكنت أبدا هذا الحوار المتخيل عادة بأن أقول : « ربما دار
هذا الحوار » .

(١) الآية ٩ من سورة الحجر مكية .

وكثيرا ما توقف القلم أياما عديدة محاولا أن يبحث عن اجابة لسؤال حائر .. يتعلق بترتيب حادث زمنى معين وقع فى قصة من قصص الأنبياء .

أبحرت وسط هذه المشاكل — مجهد العقل — محاولا الوصول الى الشاطئ الآخر من قصص انبياء الله .. وهناك رأيت ترتيب الأحداث ليس هو المشكلة . المشكلة هى معنى الأحداث .. رأيت أن الأنبياء جميعا هم رسل الحب الالهى ، والرحمة .

وأي عقيدة الهية هى فى عمقها البعيد حب ورحمة .

حب من لون لا وجود له على الأرض ..

وفى أى حب بشرى ، هناك احتمال أن يخونك الطرف الآخر أو يهجرك أو يصيب بندره مشاعرك ، وفى قصص الحب الالهى ليس هناك احتمال للخيانة أو الهجر أو الغدر الا من جانبك أنت ..

تخون أنت وتهجر أنت وتغدر وتبتعد .

ويرحم هو .. ويعفو هو .. ويتوب ويهدى سبحانه .

ويجىء الأنبياء أصلا لاعادتك الى مصدر الحب فى الكون ، وتعليمك معنى الحب ، وتوجيهك الى المستحق وحده للحب ، ولأن الأنبياء رسل حب فى الأرض ، ولأن الكراهية أغلبية حاکمة على الأرض ، يعيش الأنبياء صراعا لا يهدأ ، ويدفعون من وقتهم وخبزهم وأعصابهم ودمائهم ثمن انتشار دعوتهم .

ولقد أردت تصوير هذا فى الكتاب وإبرازه . كما أبرزت كون الأنبياء جميعا مسلمين بنص الآيات ..

وأردت أن يتم هذا كله فى اطار من بساطة الأسلوب وسهولته . بحيث لا يستعصى الكتاب على أحد من قرائه ، واستلزم هذا تكرار بعض الأفكار والعودة اليها .. بهدف تثبيتها فى ذهن القارىء .

وحين تعارضت اعتبارات الفن التى تستوجب الإيجاز وعدم التكرار ، مع اعتبارات السهولة وضمن توصيل الأفكار ، كنت آخذ بالاعتبارات الثانية ، مدركا أن هذا الكتاب ليس عملا فنيا ؛ وإنما هو دراسة ، ولعل هذا هو السر فى عدم رضائى عن أسلوب الكتاب ، كنت أتمنى أن يجيء دراسة وعملا فنيا فى وقت واحد . ولو جعل الله فى العمر بقية ، وشاءت رحمته أن تمنح الأذن والعون ، فربما بذلت جهدا أكبر وأعدت كتابته بشكل ادعى الى الرضا .

.....

واعترف ان احساسى بهذا الكتاب قد تغير .

قبل كتابته راودنى خوف عذب وحب عميق .

وأثناء كتابته عشت ذروة الرضا وأطلى ساعات العمر ..

فلما انتهيت منه ودفعته للمطبعة وقرأت صفحاته .. ملأنى الحزن

واليوأس .. أحسست اننى انقصت حبى للأنبياء وخذشته بالكتابة عنهم ..
كان احساسى بهم سرا يضيع لو أفصحت عنه ، وقد أفصحت فى هذا
الكتاب .. فضاع السر ولم أقل ما بداخلى .. نعم ..

كان هذا الكتاب أجمل آلاف المرات وهو وجدان داخلى منه الآن بعد
أن ولد ..

.....

ولست أعرف صراحة .. هل يرحمنى الله تعالى بهذا الكتاب ، أو
يعذبنى به ، أو لا يلتفت إليه أصلا ..

ان الدوافع الظاهرة التى أملت على كتابته هى الرغبة فى عرض
قصص الأنبياء بأسلوب معاصر حى .. على أساس أن قصصهم دعوة الى
الله .. وثورة على الطغاة .. واحياء لانسانية الانسان وحرية .

هذه هى دوافعى الظاهرة فى كتابته .. غير اننى أجهل ما بداخلى من
دوافع خفية ..

ربما كنت أريد بهذا الكتاب ثناء الناس والكسب ، أو ادعاء العلم
والفضل أو اظهار المعرفة والتواضع ، أو التوسيح فى الأنبياء . أو
أتصور النجاة من النار بكلمة أقولها لا بعمل أعمله .

ليس يدرى حقيقة دوافعى لكتابته غير الله عز وجل .

سوف أعرف يوم القيامة من الجزاء الذى ينالنى عليه .. حقيقة دوافعى
لكتابته ..

نسأل الله تعالى التوبة .

وندعو لقارئه أن يكون — بالعمل — أفضل من كاتبه ..

اعماله

مراجع الكتاب

- [١] القرآن الكريم
- [٢] العهد القديم والجديد [الطبقات القديمة وطبعة متى الجديدة بتفاسيرها وشروحها]
- [٣] انجيل برنابا - ترجمة دكتور خليل سعادة [طبعة المنار للشيخ رشيد رضا ١٩٠٨]
- [٤] تفسير ابن كثير
- [٥] تفسير الرازي
- [٦] تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - ٣٠ جزءا [صورة عن طبعة دار الكتب ، نشر دار الكتب العربي]
- [٧] تفسير القرآن الحكيم لمحمد عبده - ١٢ جزءا [طبعة المنار للشيخ رشيد رضا]
- [٨] في ظلال القرآن لسيد قطب - ٣٠ جزءا [الطبعة التاسعة - دار الشروق]
- [٩] قصص الأنبياء للإمام ابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد في جزئين [دار الكتب الحديثة]
- [١٠] قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للعلبي [مكتبة ومطبعة ابن شقرون]
- [١١] قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار - طبعة ثانية [مؤسسة الحلبي وشركاه]
- [١٢] قصص الأنبياء لمحمد أحمد جاد المولى - الطبعة الثانية سنة ١٩٣٩ [المطبعة التجارية]
- [١٣] محمد والذين آمنوا معه لعبد الحميد جودة السحار - ٢٠ جزءا
- [١٤] الإسلام والايمان للدكتور عبد الحلیم محمود
- [١٥] محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة .
- [١٦] عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي
- [١٧] العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق
- [١٨] العقيدة والأخلاق للدكتور عبد الرحمن بيبصار
- [١٩] معارك الإسلام الفاصلة لمحمد أحمد باشميل
- [٢٠] فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي
- [٢١] « محمد » لتوفيق الحكيم
- [٢٢] « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل
- [٢٣] « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوي
- [٢٤] « محمد رسول الله » لآتين دنييه وسلمان الجزائري ، ترجمة د. عبد الحلیم محمود ومحمد عبد الحلیم محمود
- [٢٥] « الإنسان الخالد » لفالتون أورسلر ، ترجمة رمسيس جبراوي
- [٢٦] « عبقرية المسيح » للعقاد
- [٢٧] التصوير الفني في القرآن لسيد قطب [طبعة دار الشروق]
- [٢٨] « الإسلام يتحدى » لوحيدين الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان
- [٢٩] الإسلام في مؤلفات الغرب لعباس العقاد
- [٣٠] روح الإسلام لجمال البنا
- [٣١] الفصل الخاص بيونس في رواية موبى ديك كهرمان ملفيل
- [٣٢] الفصل الخاص برداء التقوى في مذكرات صائم لأحمد بهجت

الفهرس

صفحة		صفحة	
١٦٥ اليسع	٨ الاهداء
١٦٦ ذا الكفل	٩ كن .. فيكون
١٦٧ أنبياء قوم ياسين	١٢ رمز الخير
١٦٩ أيوب	١٤ رمز الشر
١٧٥ يونس	١٦ رجال الله
١٨٣ موسى وهارون	٢١ قصص الأنبياء في القرآن
٢٤٨ الخضر	٣٣ آدم
٢٥٨ أنبياء لني إسرائيل	٤٧ نوح
٢٦١ داود	٦٠ هود
٢٧١ سليمان	٦٧ صالح
٢٩١ هيكل سليمان	٧٦ إبراهيم خليل الله
٢٩٥ عزيز	١٠١ لوط
٣٠١ زكريا	١٠٨ اسماعيل
٣٠٦ يحيى	١١١ بيت الله تعالى
٣١١ عيسى	١١٦ إسحق ويعقوب
٣٧٠ محمد	١١٨ يوسف
٤٧٣ كلمة عن الكتاب ومنهجه	١٥٥ شعيب
٤٧٨ مراجع الكتاب	١٦٢ الياس
		١٦٤ ادريس

كُتُبُ لِلْمُؤَلِّفِ

- (١) أنبياء الله (١١ طبعة)
- (٢) في رحاب الله (طبعتان)
- (٣) الله في العقيدة الإسلامية (طبعتان)
- (٤) بحار الحب عند الصوفية (طبعتان)
- (٥) قصص الحيوان في القرآن (ثلاث طبعات)
- (٦) الوقوع في هوى الكعبة (طبعتان) (كتيب)
- (٧) التوبة (كتيب)
- (٨) حراس الحقيقة
- (٩) وجه في الزحام
- (١٠) مذكرات زوج (طبعتان)
- (١١) مذكرات صائم (طبعتان)
- (١٢) صائمون والله أعلم (طبعتان)
- (١٣) كلمتين وبس (كتاب بالعامية)
- (١٤) ثانية واحدة من الحب (مجموعة قصصية)
- (١٥) رحلة إلى افريقيا
- (١٦) قناة السويس شريان من دم المصريين

كُتُبُ لِلأَطْفَالِ

- (١) أنبياء الله للأطفال (٩ طبعات)
- (٢) قصص القرآن المصورة للأطفال (تحت الطبع)
- (٣) قصص الحيوان المصورة للأطفال (تحت الطبع)
- (٤) جحا والحمار
- (٥) جحا والقاضي
- (٦) جحا والسلطان

رقم الإيداع : ٨٧ / ٥٣٢٨

التزقيم الدولي : ٧ - ١٠٣ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشارقة

القاهرة ١١ شارع جلاء خليج - طاب، ٧٧٤١١ - ٧٧٤٠٨ - ورقيا، شروق - طبعت، ٥٥٥٥١ SHOROK UN
بيروت ١ ص ٦٤ - ٨٠٦٤ - طاب، ٣١٨٨٩٩ - ٣١٨٩٠٥ - ٣١٧٦٥ - ٣١٧٦٣ - ورقيا، والشروق - طبعت، ٥٥٥٥١ SHOROK 20175 L&E



يزيد عطش الحياة إلى شمس
تضوء بغير أن تحرق أو تحرق .
شمس تستمد ضوءها من نور
السموات والأرض .. جل جلاله .
هؤلاء هم الأنبياء
ناولت قصص الأنبياء كتب
كثيرة وأقلام عديدة
الجديد في هذا الكتاب هو
استلوب التناول ، وزاوية الرؤية ،
والإحساس المتفرد بمغزى القصة ،
إلى جوار الحس الصوفي الذي
يحكم النظرة العامة .
ليس هذا الكتاب تاريخاً يروي
قصص الأنبياء بحياد بارد . ليس
إطلالة تقليدية على متحف
الذكريات الدينية القديمة ، إنما
هو بحث لثورات المسافرين دائماً
إلى الله . ابتداء من آدم وانتهاء
بمحمد .